إحكام الدلالة على تحرير الرسالة القشيرية

للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري

المتوفى بنيسابور ٤٦٥ هـ

شرحه وحرره

شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا بن محمد الأنصاري

المتوفى بالقاهرة ٩٢٦ هـ

القسم الأول

حققه وعلق عليه

عبد الجليل العطا البكري

دار النعمان للعلوم

سلسلات نعمانية ٥ من كنوز الحقيقة

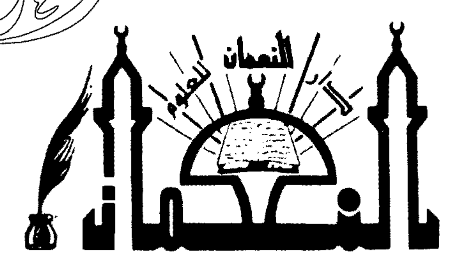
إحكام الدلالة ٩ الرسالة القشيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

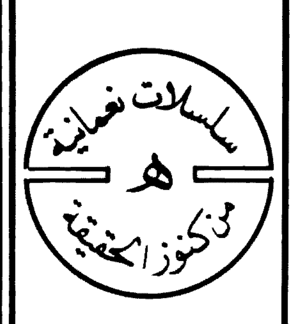
الحمد لوليه والصلاة على نبيه

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٢٠ هـ
كانون الثاني ٢٠٠٠ م



دار النعمان للعلوم : دمشق - حلبوني - ﮪ ٢٢٤٩١٠٧ - ص.ب ٣٠١٥٦



إحكام الدلالة على تحرير الرسالة القشيرية

للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري
المتوفى بنيسابور : ٤٦٥ هـ

شرحه وحرره
شيخ الإسلام قاضي القضاة أبو يحيى زكريا بن محمد الأنصاري
المتوفى بالقاهرة : ٩٢٦ هـ

المجلد الأول

حققه وعلق عليه
عبد الجليل العطا البكري



دار النعمان للعلوم



الإهـــداء

إِلَى الصُّوفِيَّةِ الَّذِينَ جُمِعَت هَذِهِ «الرِّسَالَةُ» وَعُلِّقَتْ لِتُوَجَّهَ إِلَيهِمْ

اقتِدَاءً، وَتَأَسِّيًا، وَتَذكِيرًا

إِلَى أَحَبَابِ الصُّوفِيَّةِ الَّذِينَ يَرغَبُونَ بِمَزِيدٍ مِنَ التَّعَرُّفِ عَلَى أَحوَالِهِمْ

تَثبِيتًا، وَتَأنِيسًا، وَسُلوَانًا

إِلَى أَهلِ الإِنصَافِ وَالحِيَادِ الَّذِينَ تَرَيَّثُوا فَلَم يَحْكُمُوا بِهَوىً أَو عَصَبِيَّةٍ

تَجلِيَةً، وَكَشفًا، وَتِبيَانًا

إِلَى أَعدَاءِ الصُّوفِيَّةِ الَّذِينَ يَبحَثُونَ عَنْ مُسَوِّغٍ لِعِدَائِهِمْ

تَنوِيرًا، وَتَبصِرَةً، وَإِيضَاحًا

أُقَدِّمُ هَذَا ٱلسِّفرَ ٱلنَّفِيسَ

مُستَقِيمًا .. مُتَجَرِّدًا

مُتَوَازِنًا .. مُعْتَدِلًا

مُحِقًّا .. غَيرَ زَائِغ

مقتطفات من تقريظ إمام من أئمة العصر

الشيخ حسنين محمد مخلوف رحمه الله تعالىٰ

. . . والتصوفُ الإسلاميُّ تربيةٌ علميةٌ وعَمَلية للنفوس ، وعلاجٌ لأمراض القلوب ، وغَرْسٌ للفضائل ، واقتلاعٌ للرذائل ، وقمعٌ للشهوات ، وتدريبٌ علىٰ الصبر والرضا والطاعات .

وهو مجاهدة للنفوس ومكابدةٌ لنزعاتها ، ومحاسبة دقيقة لها علىٰ أعمالها وتُروكها ، وحفظٌ للقلوب عن طوارق الغَفَلات وهواجس الخطرات ، وانقطاعٌ عما يعوق السالك في سَيْره إلىٰ الله ، وزهادةٌ في كلِّ ما يُلهي عن ذكر الله ويَعلَقُ بالقلوب سواه .

وهو معرفة لله ويقين ، وتوحيدٌ لله وتمجيد ، وتوجُّه إلىٰ الله وإقبالٌ عليه ، وإعراضٌ عما سواه ، وعكوف علىٰ عبادته وطاعته ، ووقوف عند حدوده ، وتعبُّدٌ بشريعته ، وتعرُّضٌ لنفحاته وهِباتِه التي يَخصُّ بها أولياءه وأحبابه ؛ فضلاً منه وكرما .

وجملةُ القول فيه - قبلَ تدوينه كفنٍّ إسلاميٍّ وبعْدَه - أنَّه عِلمٌ وحكمة ، وتبصرة وهداية ، وتربية وتهذيب ، وعلاجٌ ووقاية ، وتقوىٰ واستقامة ، وصبرٌ وجهاد ، وفِرارٌ من فتنة الدنيا وزينتِها وابتعاد .

وقد أشار إلىٰ طَرَفٍ من ذلك أبو محمد الجُرَيري بقوله في وصفه :

إنَّه الدخولُ في كلِّ خُلُق سَنِيّ ، والخروجُ من كلِّ خُلُق دَنِيّ .

وقولِهِ : التصوُّفُ مراقبةُ الأحوال ولزومُ الأدب .

والأدَبُ - كما أشار إليه **القُشَيريُّ** في « **الرسالة** » - جِماعُ خصال الخير ؛ وحاصلُها التفقُّه في الدِّين ، والزهد في الدُّنيا ، والمعرفةُ بما لله عَزَّ وجلَّ من حقوق .

وعن أبي نصر السَّرَّاج : الناسُ في الأدب علىٰ ثلاث طبقات :

أما أهلُ الدنيا فأكثرُ آدابهم الفصاحة والبلاغة ، وحفظُ العلوم والمنظوم .

وأما أهلُ الدين فأكثرُ آدابهم في رياضة النفوس ، وتأديبِ الجوارح ، وحفظِ الحدود ، وتركِ الشهوات .

وأما أهلُ الخصوصية (يعني الصوفية) فأكثرُ آدابهم في طهارة القلوب ومراعاةِ الأسرار ، والوفاءِ بالعهود (التي بين العبد وربّه) ، وحفظِ الوقت ، وقلّةِ الالتفات إلىٰ الخواطر ، وحُسنِ الأدب في مواقف الطلب ، وأوقاتِ الحضور ومقاماتِ القُرْب . انتهىٰ .

فالتصوُّفُ ـ كما ترىٰ ـ لُبُّ الشريعة ورُوحُها ، وثمرتُها وحكمتُها . وقد قال سيِّد الطائفة الجُنَيد : عِلمُنا هذا مقيَّدٌ بالكتاب والسنَّة ، ومَن لم يحفظ القرآن ؛ ولم يكتب الحديث . . لا يُقتَدَىٰ به في هذا الأمر ، والطُّرُقُ كلُّها مسدودةٌ علىٰ الخلق إلاَّ علىٰ مَن اقتفى أثرَ الرسول ﷺ .

وقد اختَصَّ هذا النوعُ من العلم الشرعي في عصر التدوين ـ كما أشار إليه ابن خلدون في « مقدمته » ـ باسم « التصوف » ؛ أو « عِلْم الحقيقة » ، كما اختَصَّ النوعُ الآخَرُ منه الخاصُّ بالأحكام الفرعية في العبادات والمعاملات باسم « الفِقْهِ » ؛ أو « عِلْم الشريعة » .

وقال بعضُ الصوفيّة في بيان ترابط هذين العِلمين وتعاونهما في تكوين شخصية المسلم الكامل . . ظاهراً وباطناً ؛ حِسّاً ومعنىٰ ؛ مادَّةً ورُوحاً : (حقيقةٌ بلا شريعة باطلة ، وشريعةٌ بلا حقيقة عاطلة) . فهما للمسلم كجناحَيْ الطائر ، لا يَستقلُّ بأحدهما دون الآخر .

ذلك هو **التصوُّفُ النقيُّ** من الشوائب ، الذي لم يخالطه زَيغٌ ولا شطط ، ولا جهل ولا ابتداع . وهو **تصوُّفُ العلماءِ والنُّسّاكِ** العارفين بالله ، القائمين علىٰ حدوده ، المتمسِّكين بشريعته[١] .

ولهؤلاء الأئمة وأضرابهم كلامٌ جيِّد رصين ، وحِكَم شافية ، ومؤلفاتٌ قيِّمة في الأصول والفروع ، والأعمال النفسية وأحوال القلوب وخطراتِها ، وأخطارِها وعلاجها ، وفي الآداب والأذواق والمواجيد ، والأحوالِ النفسية

---

(١) ثمَّ سرد ههنا عدداً من أعلام التصوُّف جلُّهم من أعيان هذا الكتاب .

والمجاهدات ، علىٰ تشدُّدٍ من بعضهم في السلوك وتفاوتٍ حسبَ تفاوتِ أقدارهم في العلم والذوق والعِرفان .

وجميعُهم إنَّما يَصدُرون في ذلك عن كتاب الله وهَدْي النبوَّة ، وما رُوي عن العارفين من أئمة الإسلام من أقوال وأعمال وأحوال .

هذا هو **التصوُّف الصادق** الذي ملأ سَمْعَ الدنيا وأعيُنَها قبلَ عصرِ التدوين وبعْدَه ، وهؤلاء وأمثالُهم هم الصوفية حقّاً ، الصادقون قولاً وفعلاً .

وهناك **تصوُّف زائف** . . انتحله قديماً فِئامٌ من الناس ، أُشرِبُوا تعاليمَ الباطنية الحُلُوليّة ، وتدثّروا بدثار الصوفية ؛ اجتذاباً للعامّة ، وتغريراً وخِداعاً وتلبيساً ، ودَسُّوا في التصوف إلحادَهم ومقالاتِهم الشنيعةَ في الدين . . إضلالاً للمسلمين ، هؤلاء ليسوا من الصوفيّة ولا التصوُّف في شيء ، ويُنكرهم كلَّ الإنكار أولئِك الأعلام الذين ذكرناهم وأضرابُهم ، ويحسبونهم أدعياء في نَسَبهِ مُزَوِّرين ، وزنادقةً مُلحِدين .

وقد كشَفَ خبِئَهم ، وفنّدَ مزاعمَهم ، وأبطلَ تصوُّفَهم كثيرٌ من الأئمة .

وهناك آخرون انتسبوا إلىٰ الصوفية زُوراً ، واتخذوها سِمَةً وحِرْفة ، وتوارثوا فيما بينهم بِدَعاً وشعاراتٍ زائفة ، وتقاليد منكرة ، يَبرأ منها التصوُّفُ وأعلامُه من أولي العلم واليقين .

وهؤلاء كذلك أدعياءُ في التصوف ، دُخَلاء في الصوفية ، مبتدِعون آثمون .

وإحقاقاً للحق ، وإنصافاً للصادقين : يجب أن لا يُحمّلوا أوزارَ أولئك الأدعياء المبطلين ، وأن لا يُطلَق القول في ذمِّ التصوُّف والصوفيَّة ، بل يُعطَىٰ كلُّ فريق حقّه من المدح أو الذم ، ومن الترغيب أو التحذير ، دون تعصُّب أو تحيُّف .

كتبه

حسنين محمد مخلوف(١)

مفتي الديار المصرية السابق وعضو جماعة كبار العلماء

---

(١) من تقريظ لكتاب « رسالة المسترشدين » .

تقديم أستاذنا الجليل فضيلة العلامة
الشيخ عبد الرزاق الحلبي حفظه الله وأمتع بحياته[1] .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحدَه ، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ مَن لا نبيَّ بعدَه .

وبعد ؛ فإن « الرسالة القشيرية » من أفضل كتب التصوُّف الحقيقي ، إذ أنَّ هذا الكتاب قد جمع تراجم رجال الصوفية ، وما فتح الله عليهم من الإشراقات الإلٰهيَّة ، وما فيه من أبواب العلم والآداب والأخلاق العليَّة والصفات الحميدة ، مع ما بين من آداب المريد مع الشيوخ . .

وإن الأخ الكريم الشيخ عبد الجليل العطا قد أطلعني علىٰ مقدِّمته لهذا الكتاب النفيس ؛ مع ما صنعه من ترتيب في شرح شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصاريِّ ، ونرجو الله أن ينفع به العُبَّاد وطُلَّاب العلم . . .

فجزىٰ الله الشيخ عبد الجليل الذي بذل الجهد المشكور لإخراج هذا الكتاب مع شرحه ؛ ليستفيد منه الذين يريدون أن ينهلوا من المعين الصافي ، والتصوُّف الذي طبق فيه تعاليم القرآن والسنَّة ، ولم يتجاوز إلىٰ الشطحات التي تظهر من بعض المتصوفين .

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

١٩/ رجب/ ١٤٢٠

كتبه

عبد الرزاق الحلبي

---

(١) شرَّفنا الله تعالىٰ بقراءة متن هذا الكتاب علىٰ فضيلته بعد فجر كلِّ يوم في أواسط الثمانينيات في مسجد بني أمية الكبير بدمشق ؛ جزاه الله عنا كلَّ خير

كلمة فضيلة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي[1]

حفظه الله وأمتع بحياته

أيها الأخوة ؛ هذه الدروس هي امتداد لدروسٍ كان يلقيها والدي في هذا الوقت ، فأنا أُفضِّل أن نسير علىٰ النهج الذي كان يسير عليه هو . . ولذا رأيت أن نستبدل كتاباً[2] من أهمِّ وأوثق وأقرب الكتب إلىٰ محبَّة والدي رحمه الله تعالىٰ .

من أحبِّ الكتب إلىٰ والدي التي كان يقرؤها كثيراً لنفسه ويقرؤُها مع لفيفٍ من الإخوة كتاب « الرسالة القشيرية » للإمام القشيري . . كان شديد الشغف بهذا الكتاب ، ودرّسه أكثر من مرَّة ، فرأيت بأنَّ من الأفضل أن نعودِ إلىٰ هذا الكتاب الذي أكاد أقول (كان الوالد يتعشَّقه) .

الإمام القشيري . . من أعيان علماء القرن الرابع والخامس . . كان فقيهاً ، شافعياً ، لامعاً ، عالماً من أبرز علماء الكلام ، أصوليّاً ، محدِّثاً ، كان ملازماً للإمام البيهقي .

إذن أبو القاسم القشيريُّ رجل جمع بين علوم الشريعة والحقيقة (علوم الشريعة . . الفقه ، مبادىء العقيدة ، الحديث ، علم الكلام ، علم أصول الفقه ؛ هذه الأمور التي ندرسها اليوم في كلِّيَّات الشريعة ومعاهدها تسمَّىٰ « علوم الشريعة ») .

ثمَّ إنَّه برع في علم الحقيقة . ما هي الحقيقة ؟! .

الحقيقة هي الحالُ التي ينبغي أن تكون صافية في كيان الإنسان عن

---

(١) هي مقتطفات من شريط تسجيلي في شرح « الرسالة القشيرية » يلقيها فضيلته بعد عصر الجمعة من كلِّ أسبوع في جامع الرفاعي ـ حي ركن الدين ، ولذا فقد لا تجد سبكها متناسباً مع أدبه وفصاحته ؛ وقد اجتهدتُ بالمحافظة علىٰ لفظه ما أمكن بعد إذنه مشكوراً .

(٢) كان يقرِّر « الموطأ » للإمام مالك ؛ فاستبدل به « الرسالة القشيرية » .

الشوائب كلِّها ، وأن يكون الإنسان قد أسلم حاله هذه صافية من الشوائب لله عزَّ وجلَّ .

هذه هي الحقيقة ؛ يعني التعبير نفسه موجود في كتب الشريعة .

عندما يقولون (هذه الصلاة صحيحة شريعة ولكنها غير صحيحة ديانة . . . هذا العمل صحيح قضاءً وليس صحيحاً ديانة . .) ما معنىٰ صحيح (صحيح قضاءً وليس صحيحاً ديانة) ؟! .

يعني مثلاً يأتي القاضيَ رجلٌ طلَّق زوجته يقول له القاضي : ماذا قلت ؟ يقول : قلت (اذهبي إلى أهلكِ) . . والله ما قصدت الطلاق . فإذا حلَّفه وحلف يقول له (إذاً أنت ما طلَّقت) . ما طلَّق ديانة أو شرعاً ؟! هذا شرعاً ، لكنه إذا كان يكذب على القاضي ، وقصد بذلك الطلاق . . فالقاضي لا يمكن أن يحكم عليه بالطلاق ، ولكن ربَّ العالمين لا بدَّ أن يقاضيَه يوم القيامة ، وعلاقته مع زوجه سفاحٌ .

إذن . . فهناك في ميزان الشرع . . الظاهرُ الذي يتقاضىٰ الناس علىٰ أساسه ؛ ولا يملكون إلاّ الظاهر !! وميزان الباطن أي الذي يطَّلع عليه المولىٰ جلَّ جلاله .

فنحن لمَّا نتمسَّك بالدين . . لا يكفي أن نتمسَّكَ منه بظاهره الشرعي ، ولكن يبقىٰ بعده الباطن . . كيف كانت الصلاة ؟! كيف الخشوع فيها ؟! ما هو القصد للمصلِّي عندما جاء إلىٰ هذه الصلاة ؟! وما الذي دفعه إلىٰ ذلك ! .

الظاهرُ ممكنٌ تدبيره عن طريق حفظ الأركان والشروط، وقراءة كتب الفقه.

الباطن كيف ندبِّره ؟!! بحيث تكون صلاتي ليس فيها رياءٌ ، ما فيها عُجْب !! صلاتي فيها خشوع . . لمَّا أقرأُ الفاتحة أعرف مَن أخاطب ، وما الذي أقوله ؟!

هذه طريقة ثانية . . أن آخذ نفسي بمراقبة الله ، أن أذكر الله عزَّ وجلَّ

كثيراً ، أن أُنَمِّيَ محبَّة الله عزَّ وجلَّ بين جوانحي . . فهذه عملية متجهةٌ إلىٰ إصلاح باطن الدين ، بينما حفظ أركان الصلاة وشروطها هذه أمور تتَّجه إلىٰ ظواهر الدين .

إذن فلمَّا نقول (في الشريعة علم الظاهر وعلم الباطن . .) فالكلام سليم ، أو نعبِّر فنقول (علم الشريعة والحقيقة) .

لذلك كان لبُّ الدين إصلاحَ الأمور الباطنية ، أو إصلاح الأمور الحقيقية ؛ كما أنَّ صلاتك ينبغي أن تكون متفقة مع أركان الشرع الظاهرة . . ينبغي أن تكون متفقة مع ضوابط الصلاة الباطنة ، فهذه دون هذه لا تكفي ، والثانية دون الأولىٰ لا تكفي .

فالإمام أبو القاسم القشيريُّ كان واحداً من أبرز العلماء الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة يعني كان يعلم أحكام الشريعة ، ثمَّ كان بارعاً بالحقيقة ، أي كان يراقب باطنه ، وكان دائماً يجاهد نفسه لكي يزكِّيَها ، ولكي يبعدها عن عكر الصفات المرذولة التي يبغضها الله سبحانه وتعالىٰ .

والذي يجب أن نعلمه أنَّ التصوُّف الذي ضبط بضوابط الشرع هو لبُّ الدين ، والتصوُّف الذي لم يضبط بضوابط الشرع يُودِي إلىٰ الزندقة .

وخير مَن يقرأُ له لكي يجمع الإنسان بين هاتين الكِفَّتَيْن من دين الله عزَّ وجلَّ هو هذا الإمام القشيريُّ .

لذلك كان والدي رحمه الله كثير التعلُّق بهذا الكتاب شديد الحبِّ له .

تقديم أستاذنا الدكتور محمد عبد اللطيف صالح الفرفور

حفظه الله وأمتع بحياته

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ؛ فلمّا كان الإسلام هو الدينَ الحقَّ الذي اختاره الله لعباده ديناً قيِّماً ، وهو بعدُ دينُ الأنبياء والرُّسل الكرام وجوهر الرسالات السماوية وخلاصتها ، جعله الله سبحانه دوحة وارفة الظِّلال ، شهيّة الأُكُل ، دانيةَ القُطُوف ، وجعل جلَّ شأنه جِذْعها الشريعة والأحكامَ والحلال والحرامَ ، وجُذُورَها العقيدة ؛ وهي الإيمان ، وأغصانها وأوراقها السلوكَ الموصلَ إلىٰ ملك الملوك ، وجعل ثمارها الإحسانَ : أن تعبد الله كأنك تراه ، وهو ثمرة المقامات والأحوال ، فإذا كانت الشرائعُ والأحكامُ المعبَّر عنها بحديث جبريل عليه السلام سمِّيت **بالإسلام** . . فإنَّ العقيدة سُمِّيَت **بالإيمان** ، وسُمِّي السلوك إلىٰ الله (فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك) مع ثمرته ؛ وهو (أن تعبد الله كأنك تراه) **بالإحسان** ، وهي شجرةٌ واحدة ، ودَوْحة سامقة أصلُها ثابت وفرعها في السماء .

وهكذا يكون الإحسان هو الثمرةَ المباركةَ لكلٍّ من الشريعة والعقيدة معاً ، وهو **سلوك وعرفان** ، وإن شئت قلتَ **طريقةٌ وحقيقةٌ** ، وإن شئت قلت **هدايةٌ واجتباءٌ** . . ولا مُشَاحَّةَ في الاصطلاح . . ولعل الأسماء والاصطلاحات جَنَت علىٰ الحقائق !! وإذا كان الناس اصطلحوا علىٰ تسمية من اشتغل وتخصَّص وفرَّغ نفسه للسلوك « صوفيّاً » ، وسُمِّيَ من اتبعه بالصوفية . . فإنِّي أفضِّل أن يسمَّىٰ هذا العِلمُ **سلوكاً** ؛ وثمرته **الربَّانيَّة** ؛ ويسمّىٰ أصحابُه في رحلتهم إلىٰ الله وسيرهم إليه **سالكين** ، فإذا وصلوا إلىٰ الحدِّ الأدنىٰ من المعرفة والتعريف سُمُّوا بـ « الربَّانيين » ، أخذاً من قوله تعالىٰ ﴿ كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾ .

وعلىٰ جميع الأحوال . . فالجوهر واحد ، وهو كما عرَّفه زرُّوقٌ في

« قواعده » : (صِدْق التوجُّه إلىٰ الله جلَّ وعلا بما يرضاه من حيث يرضاه) .
وتشمل الآيةُ الكريمة الفريقين : السالكين والربَّانيين معاً في سلك واحد ؛
﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ فالسلوك هداية ، والربَّانية اجتباء . . فليس كلُّ مَن سلك صار ربَّانياً ؛

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلاً بِلَيْلَىٰ ... وَلَيْلَىٰ لاَ تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَا

وإذا كان شرفُ صحبةِ للنبيِّ صلوات الله عليه وسلامه ، وشرفُ التابعين للصحابة بإحسان . . حَالَ دون وضع أسماء وتسميات لهذه العلوم لدىٰ أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية . . فإنّ الأمر لم يقف عند التسميات ؛ فلقد كتب أكابر العلماء والمحدِّثين ودوَّنوا مدوَّنات جليلة في علوم الحديث والتراجم والتفسير كان فيها علمُ السلوك جليّاً واضحاً مثل « الحِلْية » لأبي نُعيم ، وهو كتاب في السُّنَّة المشرَّفة ، ومثل « لطائف الإشارات » للقشيري .

وهذا السِّفر النفيس « الرسالة القشيرية » من أجلِّ هذه المدوَّنات وأعظمها ، وأكثرها سَيْرورةً وشهرةً وذِكْراً ، حتىٰ لا يكاد طالب علم يَشدو من العلوم بداياتها . . إلاَّ ويعرف هذا الكتاب ويقرأ فيه .

هذا ؛ ولقد اعتنىٰ العلماءُ بهذا السِّفر شرحاً واختصاراً وتحقيقاً وأَجَلُّ شروحه هذا الشرح الممزوج للإمام الربَّاني القاضي زكريا الأنصاري (الشافعي الصغير)، ففيه علوم ومعارف ، وأذواق وتراجم ، وفقه في الأحكام وفقه للأفهام ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ .

ولقد بقيتْ هذه الكنوز والذخائر والأعلاق مُخَبَّأَةً لا يعرفها إلاَّ العلماء ، حتىٰ قيَّض الله أخانا العالم العامل الأستاذ الشيخ عبد الجليل العطا وفَّقه الله ورعاه . . وهو بعدُ الصادق الوفيُّ ، ومن أعزِّ إخواني النُّجباء ، وممَّن تشرَّف فدرس علىٰ سيِّدنا الوالد وأخذ عنه في « الفتح الإسلامي » المبارك في عهده الزاهر الميمون عهد مؤسسه رضي الله عنه .

ليخرج لنا هذا الكنز الثمين الذي قَرَأه وقرأناه علىٰ شيخنا الوالد الربَّاني مرَّات بالمشافهة وهو بسنده إلىٰ المؤلف .

وقد نال هذا الكتاب الرائع حظَّه من العناية والتحقيق العلمي المتميِّز ما تفخر به المكتبة الإسلامية . . علىٰ أدب جمٍّ من المحقِّق الفاضل وتواضع هو بحقٍّ تواضع العلماء ، وإنِّي لأرىٰ فيه نجابةً تَرْفَعُه إلىٰ مَصَافِّ العلماء ، وطهارةً تَضَعُه في صفِّ السالكين ، وتواضعاً في غير ذلٍّ يرقىٰ به إلىٰ مرتبة الربَّانيِّين إن شاء الله ، وسينفع الله المسلمين بعلمه وفضله وأخلاقه . .

وَإِذَا رَأَيْتَ مِنَ ٱلهِلالِ بُدُوَّهُ   أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَكُونُ بَدْراً كَامِلا

فإلىٰ المنصفين من أهل العلم والسلوك . . **هديَّةَ تعرُّف** .

وإلىٰ الرَّبَّانيِّين من العلماء **هديَّة تشرُّف** .

وإلىٰ أولئك المعاندين المكابرين . . **بطاقةَ نُصحٍ وهداية** .

أما بعد ؛ فإني أختم هذا التقديم المتواضع لكتاب عظيم وشرح عظيم مع تحقيقٍ متميِّز لمحقِّقٍ فاضل وقلم معطاء لعبدٍ للجليل صاحبِ العطاء بقوله صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ آله وصحبه . . وهو مسك الختام وختام المسك : « العِلْمُ عِلْمَانِ . . عِلْمٌ فِي ٱلقَلْبِ وَذٰلِكَ ٱلعِلْمُ ٱلنَّافِعُ ، وعِلْمٌ عَلىٰ ٱللِّسَانِ وَذٰلِكَ حُجَّةُ ٱللهِ علىٰ ٱبنِ آدَمَ » .

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات .

وكتب

محمد عبد اللطيف صالح الفرفور

خادم العلم الشريف بدمشق الشام

مُقدِّمة هذه الطَّبعة

اَلحمد لله ربِّ العالمين ، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، وعلى آله وصحبه حقَّ قدره ومقداره العظيم .

أما بعد ؛ فإنَّ « التصوف » كلمة كبيرة الدلالة بطيئة التداول ، مرتجلة الاشتقاق واضحة المراد . . تتلاقى عليها الأفكار وتختلف فيها الآراء ، بعيدة الغور قريبة المدلول . . . ولأن التصوف هكذا . . فقد كثر الاختلاف فيه .

ثمَّ إنّ التصوف علم وجداني . . يخضع لموازين علمية ، ويخرَّج عن أدلَّة استنباطية ، ولكنه ينساب من جداول القلب ؛ ويتفتَّقُ من مكامن الأفكار ، فما خَرَج عن الموازين يُرمى ويُطرح ، وما صحَّ فيه الاستدلال يؤخذ ويُلمَح ، فهو بين الإحساس والشعور ، وبين الحجَّة والبرهان ، كما أنَّه بين التجربة والتدليل ، وبين البحث والتحليل ، وبين التبنِّي والتسليم ؛ والتخصيص والتعميم ، ومع ذلك كلِّه يتراوح بين الإقناع والبرهان !! وبين يدي ذلك . . فالحكم عليه سهل ممتنع . . قريب بعيد ، جليٌّ خفي . فكيف السبيل للتعامل معه ؟!!

إذا كان كذلك . . فكثير يهاب أن يختلط فيه ، ويحذر التعامل مع أهله ! فيلزم جانب الحذر ويؤثر السلامة . . ولكن الأسلم أن **نتبيَّن الحقيقة من أهلها** ، فلا نُحرَمَ الخير إن وجد ، ولا نَقْفُ ما ليس لنا به علم !!

فلنعلم أن الواجب علمُه : ١ ـ أنَّ التصُّوف بقواعده وأسسه وأركانه إنما هو ـ كما ذكره زَرُّوق ـ عصارةُ العلوم بقواعدها المتفق عليها ، و٢ ـ أن أعلام التصوف حجة ـ كما سترى بعضهم في طيات هذا الكتاب ـ يحتجُّ بهم أهلُ العلم والعمل ، أو الصلاح والاستقامة ، و٣ـ أن علومهم ومعارفهم محطُّ إجماع أهل الحقّ ، و٤ـ أن ما يدعون إليه ويؤمنون به ـ كما قال الجنيد انظر

ص١٤٨ ؛ ١٥١ ـ مشيَّد بعلوم الكتاب والسنَّة ، و٥ـ أنَّ غاية أهله من هذا السلوك (أن تعبد الله كأنَّك تراه . .) .

إذا علمنا ذلك كلَّه . . علمنا أنَّ التصوُّف يعني الإحسان بأجلى معانيه ، ويعني المراقبة لله تعالى والخشية له ؛ بأرقى مظاهرها وأعمق مدلولاتها وأعزّ مفهومها .

ويعني أيضاً أنَّه السلوك الذي دعا إليه سيِّد المرسلين ﷺ إذ يقول : « وَٱللهِ ؛ إنِّي لأَتْقَاكُمْ للهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ . . . وَإِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأَقُومُ وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ ٱلنِّسَاءَ !! فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » .

إذا كان هذا هو التصوُّف حقًّا !! فلِمَ إذن الاختلاف فيه ؟! وعلى مَ الحذر منه !!

إنَّ الجواب عن ذلك يتأثر بالمدى الذي يلتزم به الصوفية بتطبيق قواعدهم وإرشاداتهم ، ويتناسب طرداً وعكساً في التطابق بين التصوف والصوفية ، فمهما طابقت الأفعالُ الأقوال كان الجواب إيجاباً ، وإلا . . فلا .

ومع هذا فليس ذاك خاصَّاً بالصوفيِّين ، بل كلُّ فكر ومنهج ومسلك كذلك .

وإذا كان بين الصوفية مَن يتجاهل واجبه ووظيفته . . فإنَّ في المحاماة والطبِّ والهندسة والصيدلة وغيرها ثغراتٍ في بعض أهلها !! ثم لا يقول عاقل (إنَّ الواجب أن نرميَ أهل المهنة جميعاً عن قوس واحدة) .

وربما تجدُ في الصوفية من يخالف قولُه فعله ، ومن ينأى عن واجبه جانبا ، فهذا من لوازم بشريته ؛ ولكنه مما اتفقت كلمتهم جميعا على نبذه ، وعند ذلك يتَّضح أنَّ ما أُلحق بالتصوُّف مما ليس منه مردود على أصحابه وملحقيه . وعندئذ سنعلم أيُّ واجب علينا نحو الحقِّ الذي جاؤوا به ، وأيُّ لزوم في تفنيد الباطل الذي التبس به . وعند ذاك سيكون التصوف ركنا من أركان الشريعة : الإيمان ، الإسلام ، الإحسان . . وسيكون له مدارسه

وأعلامه ومناهجه ، وسيُتَرَك فيه الجدل ويرتفع عنه الخصام ، ويقرُّه القاصي والداني . . نقيّاً ، صافياً ، خالصاً ، سائغاً ، ضروريًا ، لازماً . . ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الأنعام : ١٦١] .

فهو الأخلاق ، وهو التربية ، وهو الأدب ، وهو السلوك ، ولا يخفى على أحدٍ ما أولى الإسلام هذه الجوانبَ من رعاية واهتمام !! ويكفي في معرض الإيجاز قولُه ﷺ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ ٱلأَخْلَاقِ » ! فقد أقرَّ ما كان في جاهلية قومه من أخلاق ومكارمَ ومُثَل ، ثم قصر بعثته الكريمة على إتمام ما نقص عن تلك المكارم ؛ وما فات من الأخلاق ؛ وبذلك تتمُّ سعادة المرء في دنياه وبين قومه ، أما سعادة آخرته فبرضا ربِّه جلَّ جلاله ، وبعبادته العبادةَ المثلى في مقام الإحسان الذي سما به أهل هذه الطريقة حتى كاد أن يكون حكراً عليهم ؛ معرَّفا بهم حيث عبدوه تعالى عبادةَ من يراقبه فلا يغفل عنه !

إذا كان كذلك . . فلم وقع هذا في الصوفية دون غيرهم ؟!

الجواب واضح ! لأنَّ الصوفيِّين دقيقو المحاسبة ، ذوقيُّو المعايير ، ليس سهلاً أن يَعِيَ الجاهل سرَّهم ، كما أنه ليس سهلا إدراكُ دقَّة موازينهم ، أو تحديد لطائف إشاراتهم ، وقد كان من سيرة رسول الله ﷺ ما يشهد لهذا ؛ حيث قال لأعرابيٍّ : « لَيْسَ هٰذَا لَكَ وَلاَ لِقَوْمِكَ » . . على أنَّ الحقَّ تعالى أرسله ﴿ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ !!!

فثمَّة صواب يجب علمُه ، وجهل تجب محاربته ، واعوجاج يجب تقويمه ، وسلوك يجبُ اتباعه ، فإن زاغ مستقيم فالحجَّة عليه هاجمة ، وإن استقام معوجٌّ فالحجَّة به قائمة ، وإن رَشَد ضالٌّ قُبل ، وإن ضلَّ راشد أُعيد ؛ أو طُرد ، وليس في غير الإسلام هداية ، ولا لغير الاستقامة قبول ، و« الحقُّ أحقُّ أن يتَّبع » ، و« للباطل جولة ؛ ثمَّ يضمحلُّ » ، ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ .

هذه هي الأسباب التي حَمَلتْ على تصنيف هذه « الرسالة » ، وهي ذاتُها العوامل التي أحاطت بشرحها .

وهي عينها الحوافز التي أسهمت في نشر هذا الكتاب بمتنه وشرحه .

ولن يضير آنئذ أن يُعرَف اشتقاق لفظة « التصوف » أو أن يجهل .

ثم ليكن الواجبُ عليَّ أن أوجز في التقديم . . لأسلك معك إلى ثنايا هذا الكتاب الذي يمثل التصوف ونماذج من أهله ، فدونك ما تقرُّ به عينك إن شاء الله تعالى ! !

مع وافر الشكر وواسع الترحيب بما تجود به أفكارك المنصفة من ملاحظات سديدة وتقويمات رشيدة .

والله ولي التوفيق .



التَّعريف بالكِتَاب
وَالحَاجَة إلَى نَشْرِهِ

أمسكتُ بالقلم لأعرِّف القارىء بـ« الرسالة » التي أطبعُ وأحقِّق . . فتضاءلتُ في نفسي وصغرت ، ثم أحسست بفتور في أناملي فبَهَت سواد مدادي ، وذلك حينما أدركت أنَّ ما أعرِّف به إنما هو الشمس في رابعة النهار ؛ أو دليل الساري بين الأقمار !؟ .

وكيف أعرِّف برسالة هي حين الإطلاق « الرسالة » !؟ وعنوانها تضيق به المقالة ؟

أدركت ذلك كلَّه بلمحات يسيرة بعد أن أمضيت في صحبتها شهوراً كثيرة ، وأنَّىٰ أقدِّم بأسطر قليلة لأدلَّ على مجامع من الخير وفيرة !! لأن هذه « الرسالة » قد بيَّنت الصحيح من عقائد أهل الحقِّ ، والجليل من مسائل التوحيد ، كما بيَّنت المشتبهَ من مسائل الأصول ، واستدلَّت بما قرَّره الرجال الفحول ، إضافة إلى التعريف بما يزيد عن ثمانين من أئمة الهدى ونجوم الاهتدا ؛ فضلا عن نيِّف وخمسين مصطلحاً من دقائق العلوم والفهوم ، وأكثر من أربعين باباً تربوياً ومسلكيًا من أهم مجالي الإيمان وملامح الفضيلة والخير .

ثم لم يَفُتْ المؤلف رحمه الله أن يبيِّن أحوال أهل الهداية والرشاد ؛ أئمة السلوك للسداد . . في سفرهم وحضرهم ، وحياتهم وعند لقاء ربِّهم .

كما يبيِّن بعمق وإدراك معانيَ ما خفي ودقَّ من المباحث الذوقية والوجدانية كالمعرفة لله تعالى ، والمحبة والشوق والرضا وسواها . .

وقبل أن يختم رسالته أكَّد لزوم حرمة أهل الكرامة ، وعدم الخروج عن رأيهم ، مع بيان ما أكرمهم الله به واختصَّهم عمن عداهم ، معرِّجا على ما بقي

من مجالي النبوة في الرؤيا الصالحة ، خاتماً ذلك بما يجب على المريدين العملُ به وحفظه وتنفيذ ما يوصيهم به .

هكذا أراد مؤلف هذه « الرسالة » أن يعلِّقها ويرسلها إلى الصوفية في الآفاق ليصحِّح بها خطأً ، ويسدِّد بها خُطاً ، ويرسم منهاجاً ، ويقوِّم أعوجاجا ، ويحدَّ حدوداً ، ويبيِّن مقصوداً ، ويوضِّح ظاهراً ، ويجلِّي واضحاً .

هكذا تراءت لي هذه « الرسالة » حين أردتُ التعريف بها فاستحييت واسترهبت ، ثم أحجمتُ حينما تماثل لي أن نُدْرة يسيرة لا يعرفون « القشيرية » ، ولكن القليل هم أولئك الذين يعرفون هذا العمل الذي أقدِّمه . . ألا وهو :

إحكام الدلالة على تحرير الرسالة

وهو أحد الأَعمال العلمية النفيسة التي حظيت بها « رسالة الإمام القشيري » جاد بها القاضي الجليل شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الذي بيَّن بإحكام ودقَّةٍ المعانيَ الجليلة التي انطلت عليها « الرسالة » ، ولم يكن مجرَّدَ شرح لغوي مبتذل ، ولا تفسيراً إشارياً عميقا ، أو عرضا مخلاً ؛ وتكراراً مملاً . . . ولكنه سلك مهيعاً قويما ، فشرح بالمزج والتضمين جاعلاً المتن والشرح بنسق واحد بحيث يقرءآن ممزوجين بعبارة واحدة ؛ مُتبِعا كلَّ فقرة من فقرات المؤلف غالباً بموجزِ ما تدلُّ عليه ؛ قائلا (فيه دلالة . . .) ، وقد استوفى رحمه الله ما بدأ به فأَتمَّه بطريقة واضحة متَّحدة حتى جعل « الرسالة » في أقرب تناول ؛ بيسرِ فهم واستيعابِ معنىً . . بلسانٍ عقائدي فقهي ذوقي ، ويراعِ قاضٍ مربٍّ صوفي معتدل .

وإذا كانت شهرة « الرسالة القشيرية » ؛ وتبنِّي أهل هذا الفنِّ لها . . يغنينا عن مزيد من التعريف ، وهي أثر من أبرز تصانيف الصوفية ، وقد زادها جلاءً وعظمة وترقّياً شرحُ الشيخ زكريا الأنصاري للوهلة الأولى ـ نظراً لشهرة

« الرسالة » بدون شرح ـ أنَّه بغنىً عن هذا الشرح ، وبخاصَّة أنَّه لم يُعْنَ بتخريج نصوص ؛ ولا مناقشة أفكار إلاَّ قليلا ، وإنَّما عُني بإيضاح ما تدلُّ عليه « الرسالة » بمعنىً زيادةِ بيانٍ في مضمونها !! ولكننا إذا ما عرضنا شيئاً من الأمثلة السريعة . . عرفنا ضرورة توفُّر هذا الشرح مقترنا بالمتن ، وبخاصَّة أنَّ النسخة الوحيدة المطبوعة من الشرح مع حاشية الشيخ العروسي قد أصبح متعذراً ـ ولو بالتصوير ـ اقتناؤها !

ودونك أمثلة على لزوم اقتران الشرح بالمتن ففي :

ص١٤٥ : من ظن أن نفسه خير من نفس فرعون ،

وص٤٠٣ : وأوتي منطقا . . في الزهد ،

وص٦٣٩ : فطرحت الدينار ،

وص٦٦٩ : الفتوة أن تكون خصما لربك ،

وص٦٨٦ : اتلاف الملابس ،

وص٨٦٥ : ما بيني وبينه إلا حجاب العزة ،

وص٩٠٣ : وألقى بنفسه من سطح عال ،

وص٩٩٨ : فتحيَّرت . . لا تحيُّر شكٍّ ،

وص١٠١٥ : من لم يؤمن بها كفر .

وأما من حواشي الشيخ العروسي فأقتصر على هذا المثال من قول القشيري معزيا إلى القرمسيني (الفقير هو الذي ليس له إلىٰ الله حاجة) !! انظر ص٧٨٠ وقد اقتصرت على هذه الأمثلة . اكتفاءً ، فدونك « الرسالة » بشرحها وحواشيها بما تقرُّ به العين ويسعد الفؤاد . . راجيا ألا تبخل بدعوة صالحة نسعد بها وإياك في الدارين إذ « لك مثل ذلك » .

عملي في هذا الكتاب

يمكن تلخيص عملي في هذا الكتاب بما يلي :

١ـ استنسخت الشرح عن نسخته المتخذة أصلاً ثم قابلتها على النسخة المطبوعة (الوحيدة) دون الإشارة إلى أغلاطها الطباعية وكانت قليلة نسبياً وأثبت فوارقها بالرمز (ح) مشيراً إلى طباعتها مع الحاشية .

٢ـ عارضت متنها مع النسخة المطبوعة ببولاق ١٢٩ ، ونسخة (كتاب الشعب) وأثبت ما زاد عن السابقة بـ (م) .

٣ـ عنونت جميع فقرات الكتاب (متناً وشرحاً) بما يلخِّص فكرة كل فقرة بما ينيِّفُ على ثلاثة آلاف عنوان .

٤ـ ترجمت المؤلف ، والشارح ، والمحشِّي ـ لكثير الاستفادة منه ـ ، وعرَّفت بكتاب كلٍّ منهم بما تيسَّر .

٥ـ ضبطت النصَّ كاملاً بعلامات الترقيم ؛ لتسهيل فهم النصِّ وقراءته بشكل صحيح مما يتيح للقارئ استيعابا سهلاً وفهماً قويما ، ولم أخالف عما هو متداول إلا استعمال القوس المزهر ﴿ ﴾ في الأحاديث القدسية وما يشبهها من نصوص الكتب السابقة « التوراة » و« الإنجيل » ونحو ذلك مكتفيا بتمييز القرآن بالرسم المختصِّ به .

٦ـ حذفت من النص ضبط الحروف بالكلمات ـ كما هي عادتهم خشية التصحيف والتحريف ـ مكتفياً بدل ذلك بضبط الشكل بالحركات ، للأمن المحذور . وأبقيت نادراً ما لم يمكن الاستغناء به أو جعلته بالهامش . وحذف أيضا من الشرح كلمة « أي » الشارحة حيث أمكن الاستغناء عنها ، وأبدلتها بـ (:) بلون الشرح . وذلك اكتفاءً بالتلوين وحرصاً على جمال العبارة . فإن لم يمكن الاستغناء عنها أبقيتها وذلك قليل .

٧- علَّقت على النصِّ هوامش مفيدة جلُّها مستقاة من حاشية « نتائج الأفكار القدسية » للشيخ مصطفى العروسي (انظر ترجمته ص ٢٣) . متخيِّراً ما هو مفيدٌ مهمٌّ وعزوت إليه بالمطبوعة الوحيدة (. . / . . .) للجزء والصحيفة .

٨- عزوت الآيت الكريمة إلى مواضعها من المصحف مستعملاً في ذلك العبارة التي حرص عليها السلف ونهوا عن غيرها ؛ وهي (السورة التي ذكر فيها كذا) .

٩- خرَّجت أحاديث المتن والشرح من المتفق عليه . . إن وُجد مقتصراً عليه في الغالب ، وإلا فمن الكتب الستَّة مع « المسند » ، أو من حيث تيسَّر من كتب السنة بالرقم إن وجد ، أو الجزء والصحيفة .

١٠- ١- فهرست أبحاث الكتاب بما يلزم من مواضيع وتراجم وفصول ، ولم أفهرس جميع العناوين الجانبية اختصاراً ، بل تخيَّرت منها ما يلزم .

٢- فهرست الأحاديث النبوية للحاجة للاطلاع على تخريجها .

٣- لم أفهرس الآيات لعدم الحاجة فهي معزوَّة في مواضعها .

٤- لم أفهرس الأعلام والبلدان والأسانيد والمواقع والأيام لعدم الفائدة الملحَّة .

١١- اخترت إبراز « المتن » وتمييزه عن « الشرح » بلون مميز وحرف مميز للاستغناء عن تكرير المتن في أعلى الصفحات كما كانت العادة ، أو جعلها ضمن أقواس ضمن الشرح ، وذلك حرصاً على جمالية الكتاب وتوفير إعادة الشرح بتقليل عدد الصفحات ما أمكن .

أما بالنسبة للعناوين فقد جعلت الحرف متَّحداً بين المتن وعنوانه ؛ والشرح وعنوان ولكنني غايرت بينهما باللون حرصاً على الإشارة إلى أنه ليس من النص ، وأخرجته قليلا عن مسامت الأسطر دون إفراده في الهامش ! تمكينا للطالب من مساحة أوسع لتعليقاته إن أحبَّ .

وقد جعلت قياس حرف الأسانيد بحرف أصغر قصداً لتوفير اللون والصفحات ما أمكن وهكذا ستجد ـ أيها القارىء الكريم ـ جهداً كبيراً في إخراج الكتاب وتصحيحه وفرز ألوانه . نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحب ويرضى ويتقبل ذلك إنه سميع قريب مجيب .

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات .

بطاقـة شكر

قال تعالىٰ ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ .

قال ﷺ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ . . لَمْ يَشْكُرِ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ » .

أقدم وافر شكري وتقديري للأعيان الأفاضل لمساهماتهم الجليلة .

وقبل أن تلج إلى صفحات هذا الكتاب أيها القارىء الكريم . ألتمس منك دعوة صالحة أذكِّرك بها كلما مررت بفقرة من فقراته ، أو عرَّجت علىٰ مقطع من مقاطعه بين فصوله وأبحاثه .

وأودُّ أن تشركني فيها والسيد الفاضل زياد السروجي « أبو طارق » لغيرته الحميدة على كنوز تراثنا المشرِّف ، ولما له من فضل في دقَّة إخراج هذا الكتاب ، فقد دأب والعاملون معه علىٰ جهود مضنية .

وأخيراً أسجل خالص امتناني ووفائي لشريكة العمر أم عبد الرحمان لما قدَّمت وتقدِّم من نصح ومشاركة وعطاء في سائر أعمالي العلمية والاجتماعية والتربوية .

سائلاً المولىٰ تعالىٰ أن يوفقنا جميعاً لما يحب ويرضىٰ .

إنه سميع قريب مجيب .

تَرجَمةُ المؤلّف
« القشيري »

زين الإسلام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري .

وهو صاحب « الرسالة » التي سارت مغرباً ومشرقاً ، والبسالة التي أصبح بها نجمُ سعادته مُشْرقا ، والأصالة التي تجاوز بها فَرْق الفرقدين ورقىٰ .

أحد أئمة المسلمين علماً وعملاً ، وأركان الملَّة فعلا ومقولا ، إمام الأَئمة ، ومجلِّي ظلمات الضلالة المدلهمَّة ، شيخ المشايخ ، وأستاذ الجماعة ، ومقدَّم الطائفة ، الجامع بين أشتات العلوم .

ولد سنة : ست وسبعين وثلاث مئة .

كان فقيها ، بارعا ، أصوليًا ، محقِّقا ، متكلِّما ، سُنِّيًا ، محدِّثا ، حافظا ، مفسِّرا ، متقنا ، نحويًا ، لغويًا ، أديبا ، كاتبا ، شاعراً ، مليح الخطّ ، شجاعا ، بطلاً ؛ له في الفروسيَّة واستعمال السلاح الآثار الجميلة .

أجمع أهل عصره على أنَّه سيِّد زمانه ، وقدوة وقته ، وبركة المسلمين في ذلك العصر . وكان حسن الموعظة ، مليح الإشارة ، جمع بين علمَيْ الشريعة والحقيقة ، وشرح أحسنَ الشرح أصول الطريقة .

أصله من ناحية « أُستواء » ، من العرب الذين وردوا خراسان ، وسكنوا النواحي . . فهو قشيريُّ الأب سُلَيمي الأم . توفي أبوه ؛ وهو طفل فدُفع إلى أبي القاسم الأليماني . . فقرَّأه الأدب والعربية بسبب اتصاله بهم ، وقرأ على غيره ، وحضر البلد ، واتفق حضوره مجلس الأستاذ الشهيد أبي علي الحسن بن علي الدقَّاق ، وكان لسانَ وقته ، واستحسن كلامه ، وسلك طريق الإرادة فقبله الأُستاذ وأشار عليه بتعلُّم العلم .

فخرج إلى درس الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن بكر الطوسي ، وشرع في

الفقه حتى فرغ من التعليق .

ثم اختلف بإشارته إلى الأستاذ الإمام أبي بكر محمد ابن فورك ، وكان المقدَّم في الأصول حتى حصَّلها وبرع فيها ، وقرأ عليه أصول الفقه وفرغ منه .

ثمَّ بعد وفاة الأستاذ أبي بكر اختلف إلى الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني وقعد يسمع جميع دروسه .

ثم نظر بعد ذلك في كتب القاضي أبي بكر ابن الطيب ، ثم زوّجه الأستاذ أبو علي ابنته .

وبعد وفاة الأستاذ عاشَرَ أبا عبد الرحمان السُّلَمي إلى أن صار أستاذ خراسان .

وأخذ في التصنيف ؛ فصنَّف « التفسير الكبير » .

وكان في الفروسية والوعظ في أعلى مرتبة .

قال ابن السبكي : بلغنا أنَّه مرض للأستاذ أبي القاسم ولد مرضا شديداً بحيث أيس منه . فشقَّ ذلك على الأستاذ ، فرأى الحق سبحانه في المنام فشكا إليه ، فقال له الحقُّ تعالى : ﴿ اِجمع آيات الشفاء واقرأ عليه ، أو اكتبها في إناء واجعل فيه مشروبا واسقه إياه ﴾ ففعل ذلك ، فعوفيَ الولد . . . . وآيات الشفاء في القرآن ست :

١ـ ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ . ٢ـ ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .
٣ـ ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ . ٤ـ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .
٥ـ ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ . ٦ـ ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ .

ورأيت كثيراً من المشايخ يكتبون هذه الآيات للمريض ويسقاها في الإناء طلباً للعافية .

قلت : وأنا جرَّبت ذلك مراراً كثيرة فعوفيَ المريض .

ومن تصانيفه :

١ـ « التيسير في علم التفسير » ، وهو من أجود التفاسير وأوضحها .

٢ـ « الرسالة » المشهورة المباركة التي قيل : ما تكون في بيت وينكب .

٣ـ « التحبير في التذكير » حققه د . إبراهيم بسيوني ونشر بالقاهرة ١٩٦٨ .

٤ـ آداب الصوفية . ٥ـ لطائف الإشارات (ط) . ٦ـ الجواهر .

٧ـ عيون الأجوبة في فنون الأسئلة . ٨ـ المناجاة . ٩ـ نكت أولي النهى .

١٠ـ نحو القلوب الكبير . حققه د . بسيوني والجندي ونشر بالقاهرة ١٩٩٤ .

١١ـ نحو القلوب الصغير . ١٢ـ أحكام السماع .

١٣ـ الأربعين في تصحيح المعاملة وهو جزء حديثي مسند نشر بطنطا ١٩٩٢ .

وخلَّف ستَّة أبناء كلهم عبادلة من السيدة الجليلة [فاطمة] بنت الأستاذ أبي علي الدقاق .

وقيل : ولما مرض لم تفته صلاة ولا ركعة قائماً إلى أن توفِّي سنة خمس وستين وأربع مئة .

قيل : امتنع فرسه من العلف ، ولم تمكِّن أحداً من ركوبها إلى أن ماتت بعده بأيام قلائل(١) .

---

(١) انتهى بحروفه من « مفتاح السعادة » لـ طاش كُبري زاده ج٢/ ص٢٩٦ دار الكتب العلمية وله فيها ترجمة سابقة في ٢/ ٩٥ـ٩٦ .
وإنما اخترت هذه الترجمة !! لأنَّ عَلَمية القشيري رحمه الله أعظم من أن توجز في صفحات ، وبخاصَّة أنها أفردت بالتأليف ، فمن المتقدمين سبطه عبد الغافر بن إسماعيل ومن المتأخرين الدكتور إبراهيم بسيوني الذي ساهم في نشر بعض كتبه ! فضلاً عن عشرات كتب التاريخ والتراجم منها طبقات الشافعية الكبرى : ٥/ ١٥٣ ـ ١٦٢ .

ترجمة الشارح الأنصاري

اسمه ونسبه : زين الدين ، أبو يحيىٰ زكريا بن محمَّد بن أحمد بن زكريا الأنصاري .

مولده وحياته : ولد في بلدة سنيكة من المحافظة الشرقية بمصر ، في سنة ٨٢٦هـ[١] ، ونشأ بها فحفظ القرآن ، وبعض الكتب ثمَّ تحوَّل إلىٰ القاهرة سنة ٨٤١هـ .

وسكن في الأزهر ، فأتمَّ ما بدأ ، وجمع روايات القرآن العشر ، وحفظ عدداً من المنظومات كألفية النحو والمصطلح والشاطبية وغير ذلك ، وأخذ عن أعلام عصره في القاهرة ، ثم عاد إلىٰ بلده وتمكّن في جمع العلوم وتحصيلها فبزَّ أقرانه ولمع علىٰ معاصريه ، ثم عاد إلىٰ القاهرة بتواضع وعلم وخلق ودين ، وشرع في التصنيف والشرح في فنون متعدِّدة ، فقد برع في سائر العلوم الشرعية وعلوم الآلة . . حديثاً وتفسيراً وفقهاً وأصولاً ، وعربية ، وأدباً ، ومعقولاً ومنقولاً ، وكانت الرحلة إليه من سائر الأقطار ، وانكبَّ الطلبة علىٰ مجالسه ودروسه ، واستُفتيَ بوجود شيوخه . ثمَّ وجَّه إليه قايتباي قضاء القضاة فقبله بعد إلحاح وعزم . . ولم يكن برغبته ، فقد كان عزيزاً مكرَّماً محفوظاً في أمور دنياه ومعاشه ، وكانت له هبات والأملاك قبل أن يقلَّد القضاء ، وربما كان دخله اليومي حوالي /٣٠٠٠/ درهم ينفقها علىٰ الكتب والطلبة وتكريم البارزين . . وبخاصَّة الذين يسهمون معه في أعمال تصنيفه ، وكان قد كفَّ بصره وهو قاضٍ لكنه عزل بسبب كتابة أرسلها للسلطان يزجره فيها عن ظلم بَدَر منه تصريحاً وتعريضاً ، وتذرَّع السلطان لعزله بكفِّ بصره ، واستمرَّ علىٰ ما كان عليه من التصنيف والتعليم والإفتاء . وكان المرجع في ذلك وبقي في

---

(١) في الكواكب السائرة : ٨٢٣ أو : ٨٢٤ .

ترقٍّ وعلوٍّ قَدْر وهمَّةٍ علىٰ كثرة حاسديه وجاحدي فضله .

تصانيفه : وقد أربت مصنفاته علىٰ الأربعين في شتىٰ الفنون والمعارف الشرعية والعربية . منها :

ـ حاشية علىٰ البيضاوي سمَّاها (فتح الجليل ببيان خفيٍّ « أنوار التنزيل ») .

ـ أسنىٰ المطالب في شرح « روض الطالب » ط في أربع مجلدات .

ـ شرح « التلويح » في أصول فقه الحنفية مطبوع بالهند ١٢٩٢ .

ـ فتح الباقي شرح ألفية العراقي . ـ فتح الإله الماجد بإيضاح شرح العقائد .

ـ شرح المقدمة الجزرية . ـ شرح الألفية . ـ شرح « شذور الذهب » .

ـ شرح « الفصول » لابن الهائم . ـ أدب القاضي . ـ شرح إيساغوجي في المنطق .

ـ اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعليم (ط مؤخراً ببيروت) . وغير ذلك .

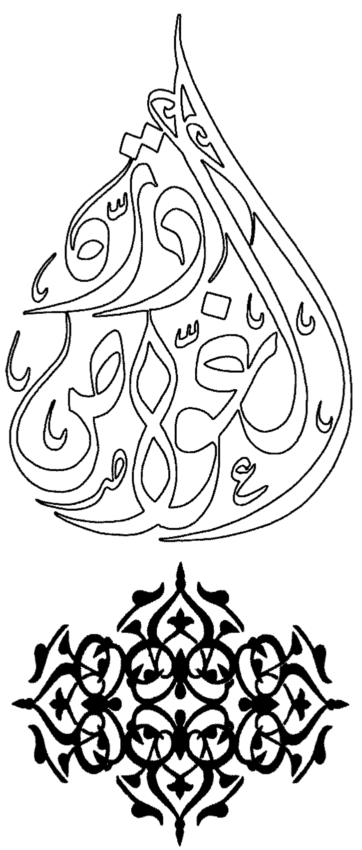
ـ وإحكام الدلالة علىٰ تحرير الرسالة ، وهو هذا الذي أمامك .

ـ وله ديوان خطب منبرية ، وديوان شعره .

شيوخه وتلامذته : أما شيوخه وتلامذته فيضيق بهم الحصر . ويكفي من ذلك قول تلميذه ابن حجر الهيتمي في « معجم شيوخه » : (وقدّمت شيخنا زكريا ، لأنّه أجلُّ مَن وقع عليه بَصَري من العلماء العاملين والأئمة الوارثين ، وأعلىٰ مَن عنه رويتُ ودريتُ من الفقهاء الحكماء المهندسين ، فهو عمدة العلماء الأعلام ، وحجَّة الله علىٰ الأنام ، حامل لواء المذهب الشافعي ومحرِّر مشكلاته وكاشف عويصاته ، في بُكَره وأصائله ، ملحِقُ الأحفاد بالأجداد ، المتفرِّدُ في زمنه بعلوِّ الإسناد . . كيف ولم يوجد في عصره إلاّ من أخذ عنه

مشافهة ؛ أو بواسطة ؛ أو بوسائط متعدِّدة ، بل وقع لبعضهم أنه أخذ عنه مشافهة تارة ، وعن غيره ممن بينه وبينه نحو سبع وسائط تارة أخرىٰ ؟!! وهذا لا نظير له في أحدٍ من أهل عصره !! فنعم هذا التمييز الذي هو عند الأئمة أولىٰ وأحرىٰ . . .)[1] .

وفاته : توفي رحمه الله تعالىٰ يوم الجمعة رابع ذي الحجة سنة ست وعشرين وتسع مئة عن أزيد من مئة عام ، ودفن بالقرافة عند عتبة إمامه الشافعي رضي الله عنه .



(١) ذكرها في « شذرات الذهب » بحروفها .

ترجمة المحشي

العروسي

اسمه ونسبه : مصطفىٰ بن محمد بن أحمد بن موسىٰ الشهير بـ « العروسي » .

حياته : عمّر رحمه الله ثمانين عاماً فقد ولد سنة ١٢١٣هـ وتوفي ١٢٩٣هـ .

ميزاته : فقيه شافعي ، له قدم في الأخلاق والتصوُّف ، شارك في علوم كثيرة .

مشيخته : تولىٰ مشيخة الأزهر سنة ١٢٨١[1]هـ فأراد أن يمنح هذا اللقب ؛ حقَّه فاْهتمَّ بقمع البدع وإبطالها والتكسُّب بها ، وعزم علىٰ امتحان المدرِّسين لمعرفة كفاءتهم وتسريح غير الأكفاء ، فلم يلبث أن جاء عزله سنة : ١٢٨٧هـ ربما خشية إنفاذ ما عزم عليه !! .

من تصانيفه : ـ أحكام المفاكهات في فنون المتفرقات = مسائل أحكام .

ـ الأنوار البهية في بيان أحقِّيَّة مذهب الشافعية .

ـ العقود الفرائد في بيان معاني العقائد .

ـ كشف الغمَّة في تقييد معاني أدعية سيِّد الأمَّة .

ـ مسائل أحكام المفاكهات . هكذا في فهرس (الأزهرية) : ٦/ ٢٧٨ .

ـ نتائج الأفكار القدسية . وهو حاشية علىٰ شرح الرسالة القشيرية الذي نحن بصدد تقديمه ، وقد جرَّدنا من هوامشه ما رأيناها متممة لفائدة ، أو مقيِّدة لمطلق ، أو موضِّحة لمبهم ، وقد رمزت لها بـ (عروسي) وما يليه من الأرقام : . . / . . ، فالأول للجزء ، والثاني للصحيفة .

هذا ؛ وقد كتب أبو العلا العفيفي بحثاً عنها في « تراث الإنسانية » .

---

(١) وفي « الجامع الأزهر . . نبذة من تاريخه » لمحمود أبو العيون : ص٢٨ أنه سنة ١٢٧٧هـ ؟! .

إحكام الدلالة

على تحرير

الرسالة القشيرية

للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري

المتوفى بنيسابور: ٤٦٥ هـ

شرحه وحرره

شيخ الإسلام قاضي القضاة أبو يحيى زكريا بن محمد الأنصاري

المتوفى بالقاهرة: ٩٢٦ هـ

حققه وعلق عليه

عبد الجليل العطا البكري

دار النعمان للعلوم

قال الشيخ الإمام العلاَّمة ، الحَبْر البحر الفهَّامة ، سيِّدُنا ومولانا قاضي القضاة : شيخُ مشايخ الإسلام ، مفتي الأنام محيي السنَّة في العالمين ، زين الملَّة والدين . . أبو يحيىٰ زكريا الأنصاريُّ الشافعيُّ تغمَّده الله برحمته بمنِّه وكرمه[1] :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذي يسَّر سبيل السالكين علىٰ العارفين ، وسهَّل منهج السالكين علىٰ المتَّقين ، وبصَّر بصائر المصدِّقين بسائر الحِكَم والأحكام في الدِّين ، ومنحهم أسرار الإيمان وأنوار الإحسان واليقين . والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين سيِّدنا محمَّد ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .

وبعد ؛ فإنَّ هذه الرسالة في علم التصوُّف للإمام العالم الجامع بين الشريعة والحقيقة أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيريّ ؛ نوَّر الله مضجعه ، وبرَّد مثواه ومنزعه . . لما اعتنىٰ بها ذوو الجدِّ والاجتهاد ، وكانت محتاجة إلىٰ بيان المراد . . وضعت عليها شرحاً يحلُّ ألفاظها ، ويبيِّن مرادها ، ويحقِّق مسائلها ، ويحرِّر دلائلها ؛ مع فوائدَ مستجداتٍ ، وضوابط محرَّرات . . علىٰ وجهٍ لطيف ومنهج منيف . . راجياً بذلك جزيل الأجر والثواب من فيض مولانا الأكرم الوهَّاب .

واللهَ أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، ووسيلة للفوز بجنَّات النعيم ، وسمَّيته :

---

(١) من كلام النُسَّاخ ، ولذا قدَّمته على بسملة الشارح رحمه الله .

إحكام الدلالـة

علىٰ

تحريــر الرســـالـة

سند الشارح : وأرويها بالسند عن جماعات .. منهم الإمامُ الشريف أبو الفتح محمد بن الزَّين أبي بكر بن الحسين المراغي بمكَّة المشرَّفة ؛

عن أبي الخير أحمد ابن الحافظ أبي سعيد العلائي ؛

عن أبي العبَّاس الصالحي ؛ عن أبي الفضل جعفر بن علي الهمداني ؛

عن الحافظ أبي طاهر السّلفي ؛

عن أبي المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل الروياني ؛

عن مؤلِّفها ..

مولد المؤلف ووفاته : ومولده في شهر ربيع الأوَّل سنة ستٍّ وسبعين وثلاث مئة ، ووفاته صبيحة يوم الأحد سادس عشر ربيع الأول سنة خمس وستين وأربع مئة بمدينة نيسابور .

* * *

قال رحمه الله تعالىٰ :

بسم ٱلله الرحمن الرحيم أبتدىءُ

والاسم مشتقٌّ من السموِّ ؛ وهو العلوُّ . وقيل : من الوَسْم ؛ وهوالعلامة .

والله : علمٌ على الذات الواجبِ الوجود ؛ المستحقِّ لجميع المحامد .

والرحمان . . **الرحيم** صفتان مشبَّهتان بُنيتا للمبالغة من (رَحِم)؛ كغضبان من (غضب) وسقيم من (سقم).

والرحمة : رقَّة القلب ؛ وهي : كيفيَّة نفسانيَّة تستحيلُ في حقِّه تعالىٰ ، فتحمل على غايتها ؛ وهي الإنعام ؛ فتكون صفة فعليَّة ، أو الإرادة ؛ فتكون صفة ذات ، وبنيت الصفة المشبَّهة من (رحم) مع أنَّه متعدٍّ !!. بجعله لازماً ونَقْلِه إلى (فعُل) بالضمِّ .

و« الرحمان » أبلغُ من « الرحيم »، لأنَّ زيادة البناء تدلُّ على زيادة المعنى؛ كما في (قَطَع) و(قطَّع).

اَلحمدُ لله . . بدأ بالبسملة وبالحَمْدلة !! اقتداءً بالكتاب العزيز ، وعملاً بخبر : « كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فِيْهِ بِـ(بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيْمِ) فَهُوَ أَقْطَعُ ». وفي رواية بـ(ٱلحَمْدُ للهِ) ، وفي رواية بـ(ذِكْرِ ٱللهِ)» رواه أبو داود وغيره ، وحسَّنه ابن الصَّلاح وغيرُه[1] .

وجَمَع بين الابتداءين !!. **عملاً بالروايتين** ، وأشارة إلى أنَّه لا تعارض

---

(١) هو عند أبي داود : ٤٨٤ ، وابن ماجه : ١٨٩٤ ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » ، وأخرجه أبو عوانة ، والرهاوي في « أربعينه » .

وانظر تخريجه بإسهاب في « الأقاويل المفصَّلة لبيان حديث الابتداء بالبسملة » (مطبوع بدمشق : ١٤١٨) للشيخ العلامة محمد بن جعفر الكتَّاني المتوفى سنة : خمس وأربعين وثلاث مئة وألف .

بينهما ، إذ الابتداء حقيقيٌّ وإضافيٌّ ، فبالبسملة حصل الحقيقيُّ ، وبالحمدلة حصل الإضافيُّ .

وقدَّم البسملة ! عملاً بالكتاب والإجماع ، ولاقتضاء المقام تقديمَ الحمد قدَّمه على (لله)، وإن كان الأهمُّ ذكرَ الله ! ! .

وجملة (الحمد لله) خبريَّةٌ لفظاً . . إنشائيَّة معنىً ، ويجوز أن تكون موضوعة شرعاً للإنشاء .

والحمدُ مختصٌّ بالله كما أفادته الجملة ؛ سواء جعلت «أل » فيه للاستغراق ؛ كما عليه الجمهور ، أم للجنس ؛ كما عليه الزمخشريُّ ، أم للعهد ؛ كما نقله ابن عبد السلام وأجازه الواحديُّ . وقد بيَّنتُ ذلك في « شرح البهجة »[١] .

والحمدُ ـ **لغة** ـ: الثناءُ باللسان على الجميل الاختياري ؛ على جهة التبجيل ، سواء تعلَّق بالفضائل أم بالفواضل[٢] .

وعرفاً : فعل ينبىءُ عن تعظيم المنعِم من حيثُ إنَّه منعم . . على الحامد ؛ أو غيره .

والشكر ـ **لغة** ـ : فعلٌ ينبىءُ عن تعظيم المنعم من حيث إنَّه منعِمٌ على الشاكر ؛ أو غيره . . سواءٌ كان باللسان ؛ أم بالجنان ؛ أم بالأركان .

و ـ **عرفاً** ـ : صرفُ العبد جميعَ ما أنعم الله به عليه ؛ من السمع وغيره . . إلىٰ ما خُلق لأجله . وقد بسطتُ الكلام على ذلك . . في الشرح المذكور .

الذي تفرَّد من بين الموجودات **بجلال ملكوته** : ملكِه العظيم ؛ كما أفادته المبالغة المنبىءُ عنها زيادةُ اللفظ . **وتوحَّد** من بينهم **بجمال جبروته** : قهرِه لغيره على وفق إرادته ، فالجبَّار مَن تنفُذُ مشيئته على سبيل الإجبار في كلِّ

---

(١) انظر ما تقدم في مؤلفات الشارح رحمه الله . وقد ذكر هذا الكلام مرة أخرىٰ في كتابه « فتح الباقي على ألفية العراقي » .

(٢) يعني بمقابلة نعمة أولاً . والفضائل النعم القاصرة على المحمود كالصلاة والصوم . وقيل : الفضائل سبعة . . الصدق ، والحياء ، والتواضع ، والسخاء ، والوفاء ، والعلم ، وأداء الأمانة . (عروسي : ١/ ٢٠ بتصرف) .

شيء ، ولا تنفذ عليه مشيئة غيره ؛ ما شاء الله كان . . وما لم يشأ لم يكن .

وقد يكون الجبَّار بمعنى جابرِ كلِّ كسير[1] .

وأشار بهذا مع ما قبله إلى أنَّه تعالى متَّصفٌ ١ـ بالصفات السلبيَّة ؛ مثل أنه ليس بجسم ولا عَرَض ، ولا في مكان ولا زمان[2] ، و٢ـ بالصّفات الثبوتية ؛ كالحياة والعلم ، والقدرة والإرادة ، والسمع والبصر ، والكلام والبقاء[3] ، لأنَّ صفاتِ الجلال صفاتُ قهر ؛ والقهرُ يستفاد من السلب[4] ، وصفاتُ الجمال صفات لطف ؛ واللطف يستفاد من الإيجاد .

وجمع بينهما !! ليكون العبد بين الخوف والرجاء .

وتعزَّز : اتخذ لنفسه العزَّة **بعلوِّ أحديَّته**[5] ، فالمتعزِّزُ مَن عِزَّتُه بذاته ؛ لا بغيره ، **فهو تعالى العزيزُ قبل الخلق** ، ومعهم ، وبعدهم . . وقِس بذلك نظائرَه السابقة واللاحقة .

وتقدَّس : تطهَّر بمعنى (تبرّأ) **بسموٍّ** : علوِّ **صمديَّته** ؛ وهي : كونُه مقصوداً . . في الحوائج على الدوام .

والباء في (بجلال) . . وما بعده ! للمصاحبة؛ لا للسببية، ولا للاستعانة.

---

(١) فإن أريد القاهر كان من صفات الجلال ، وإن أريد الجابر كان من صفات الجمال .

(٢) الجسم ما يقوم بنفسه ويحوزه مكان ، والعَرَض ما لا يقوم بنفسه فلا بدَّ له من جسم يقوم به والمكان الحيِّز ، والمكان حركة الفلك . وكلُّها من خواص الحوادث المخلوقة (عروسي : ١/ ٢٣ بتصرف) .

(٣) صفة أزلية تنافي العدم السابق ، وعدُّها من الصفات الثبوتية مبنيٌّ على أن معناه استمرار الوجود أو الوجود المستمرُّ (عروسي بتصرف) .
قلت : وهو مخالف لعدِّ السنوسيّ ومَن تبعه إياها من الصفات السلبية !! .

(٤) من سلب مقهوريَّته تعالى من الغير (عروسي) .

(٥) **اعلم** أن الأحديَّة اسم للذات باعتبار انتفاء تعدُّد الأسماء والصفات والنِّسب والتعيينات ، فهي اعتبار الذات مع إسقاط الجميع ، وأحديَّة الجمع اعتبار الذات من حيث هي . . بلا إسقاط ولا إثبات بحيث يندرج فيها نِسَب الحضرة الواحدية . وقيل : هما بمعنىً . (عروسي بتصرف) .

وتكبَّر : تعاظم في ذاته عن مضارعةِ : مشابهة **كلِّ نظير** وشبيهٍ . .

فإن قلت : هذا يوهِم أنَّ له نظراء ؛ تكبَّر عن مشابهتهم ؟ .

قلت : المشابهة بين الشيئين إنَّما تتحقق بالمشابهة العامَّة ، فإذا انتفت المشابهةُ . . انتفت النظراء ، على أنَّ ذلك واردٌ على طريقة قوله :

. . . . وَلاَ تَـرَىٰ ٱلضَّـبَّ بِهَـا يَنْحَجِـرُ

فإنَّه نفىٰ الضبَّ وانحجاره .

وبالجملة فهو تعالىٰ منزَّهٌ . . عن الأشباه والأضداد والأشكال .

والمشابهةُ الموافقةُ في الكيفية ، والمضادَّةُ المنافاةُ الذاتيَّة بين موجودين ، والمشاكلةُ المشاركةُ في الشكل والهيئة .

وتنزَّه : تباعد **في صفاته** ؛ كعلمه وإرادته وقدرته . . **عن كلِّ تناهٍ وقصور** ، بل تعمُّ صفاتُه : تعلُّقها جميع متعلَّقاتِها الواجبةَ والجائزة والمستحيلة ، فعلمه يتعلَّق بكلِّ معلوم ؛ فيعلم نفسَه ، وغيرَه ، وما يستحيل وجودُه . وإرادتُه تتعلَّق بكلِّ ممكن . وقدرتُه تتعلَّقُ بكلِّ معلوم خصَّصته إرادته بالوقوع ، فلا مخصِّص بغير إرادته ، ولا واقعَ بغير قدرته .

له تعالىٰ **الصفاتُ المختصَّةُ بحقِّه** ، وهي صفات الربوبيَّة التي بها تميَّز عن خلقه .

وله الآياتُ الناطقة : الدالَّة **بأنَّه غيرُ مُشَبَّهٍ بخلقه** ؛ كقوله تعالىٰ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[1] ، **فسبحانه من عزيز** ، **لا حدَّ ينالُه** ؛ فلا يدرك كنهه ، **ولا عِدَّ** : كثرةَ **يحتالُه** : يحتوِشُه ويقدر عليه بالاحتيال ، **ولا أمدَ** : غاية **يحصره** ؛ فلا أوَّل له ولا آخر ، **ولا أحدَ ينصره** ؛ فلا معينَ له في إيجاد الأشياء . وقوله تعالىٰ ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ ﴾[2] : دينَه ورسوله ؛ بكسبكم وقيامكم بالحقِّ . **ولا ولد يشفَعُه** ؛ فلا شريك له ، **ولا عدد يجمعه** ؛ فهو واحد ،

---

(١) الآية : ١١ ؛ من السورة التي ذكر فيها الشورىٰ .

(٢) الآية : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها محمد ﷺ .

ولا مكان يُمسِكه ، ولا زمان[1] **يُدركُه ؛** فهو مستغنٍ عن عرشه ومتنزِّهٌ عن المكانِ والزمان . **ولا فهمَ يَقْدُرُه ، ولا وَهَم يصوِّرُه**. فهو متنزِّهٌ عن الجوهر والعرضِ . . **تعالىٰ عن أن يقال (كيف هو) ؟ أو (أين هو)** ؟ متنزِّه عن الجسميَّة والمكان ، **أوكيف اكتسب بصنعه الزَّيْن**: الكمال والحسن ، **أو دفع بفعله**عن نفسه **النقص والشَّيْن** !؟فهو غنيٌّ عن خلقه في جلب نفع ؛ أو دفع نقص ، **إذ ليس كمثله شيء**ـ بزيادة الكاف ؛ لأنه تعالىٰ لا مثيل له ، أو بدون زيادتها ـ. والمِثل بمعنى الصفة ؛ كما في قوله تعالىٰ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[2] ، أو المِثْل كالمِثْل في قولهم (مثلك لا يبخل) : أي أنت لا تبخل . فلا يرادُ به غير ما أضيف إليه . وهذا نوع من الكناية التي هي أبلغُ من الصريح ؛ لتضمُّنها ذاتَ الشيء بدليله ؛ كما هو مقرَّر في محلِّه ، فيكون المعنى : ليس هو كشيء .

وهو السميع لما يقال ، **البصير** بما يفعل ، **ولا يغلبه حيٌّ**، فلا يغلبه أحدٌ ، **وهو الخبير**بأحوال خلقه ، **القدير**على إيجاد وإعدام ما يريد .

إيضاح: وفيما ذكره من الصفات براعةُ استهلال ؛ وهي : كون الابتداءِ مناسباً للمقصود ، وهو هنا معرفةُ أنَّ الله تعالىٰ متَّصفٌ بالصفات الجماليّة والجلالية .

أحمدُه على ما يُولِيعبيده **ويصنع**لهم .

ذَكَرَ الحمد مرَّتين !! إشارةً إلى أنَّ الجمع بين نوعَيْ الحمد الواقع في مقابلة صفاتِ الله العظام ؛ والواقعِ في مقابلة نِعَمه الجِسام التي مِن جملتها التوفيقُ لتأليف هذه الرسالة .

---

(١) **اعلم**أن مراد المصنف بالزمان إنما هو الحاضر الذي هو عبارة عن حركة الفلك . أمَّا هو بمعنى الآن الدائم الذي هو امتداد الحضرة الإلهية ؛ فهو الذي يندرج فيه الأزل في الأبد ، وكلاهما في الوقت الحاضر ، وذلك لظهور ما في الأزل على أحايين الأبد ، فكل حين منها هو مجمع الأزل والأبد ؛ فيتَّحدُ به الأزل والأبد ، والوقت والحاضر ، وذلك يقال له « باطن الزمان وأصله » . لأن الآنات الزمانية نقوش عليه وتغيُّرات تظهر بها أحكامُه وصورُه . . وهو ثابت على حاله دائماً سرمدا (عروسي : ١/ ٢٦) .

(٢) الآية : ١٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

تعليل : ولَمَّا كانت الصفات قديمةً مستمرَّة ؛ والنِّعمُ متجدِّدةً متعاقبة . . ذَكَر الأوَّل بالجملة الاسمية الدَّالة على الثبوت والاستمرار ، والثانيَ بالفعلية الدالَّة على التجدُّد والتعاقب . .

وأشكرهُ على ما يزوي : يقبض من النعم ؛ **ويدفع** : يبسط منها ، **وأتوكَّل عليه** : أفوّض أموري إليه ، **وأقنع** ، **وأرضىٰ بما يعطي ويمنع** .

وأشهد : أعلمُ **أن لا إله** : لا معبودَ بحقٍّ **إلاَّ ٱلله وحده** : منفرداً ، **لا شريك له** ؛ في ذاته . . ولا ملكه . . ولا فعله ، **شهادةَ موقنٍ بتوحيده** ، **مستجير بحسن تأييده** : تقويته .

وأشهد أنَّ سيِّدَنا محمَّداً . . سُمِّي به !! لكثرة خصاله الحميدة . . **عبدهُ المصطفىٰ** ، **وأمينُه المجتبىٰ** ـ بمعنى المصطفىٰ : المختار ـ من الناس ليدعوَهُم إلى دين الإسلام ، **ورسولُه المبعوث** : المرسَل **إلىٰ كافَّة الورىٰ** : جميع الخلق . وقيل : إلاَّ الملائكة .

الرسول والنبيُّ : والرسول إنسان أُوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه ، والنبيُّ : إنسان أُوحيَ إليه بشرع ؛ وإن لم يؤمَر بتبليغه ، فهو أعمُّ مطلقاً من الرسول[1] . والرسالة أفضل من النبوَّة . . على كلامٍ فيه ؛ ذكرتُه مع جوابه في « شرح البهجة » .

صلى الله عليه وعلىٰ آله ؛ وهم مؤمنو بني هاشم وبني المطَّلب ، **مصابيحِ** ـ جمعُ مِصباح ؛ وهو السراج : الفتيلة الموقودة ـ **الدُّجىٰ** : الظلمة .

وَصف الآل بالمصابيح !! مبالغةً ؛ فهو تشبيهٌ بليغ ، أو شبَّههم بها ؛ فهو استعارةٌ تحقيقيةٌ ، وذِكْرُ « الدُّجىٰ » ترشيحٌ . **وعلى أصحابه** ـ جمع صحْب ، قال سيبويه : وهو اسمُ جمعٍ لـ(ـصاحب) . وقال الأخفشُ : جمعٌ له . وبه جزم الجوهريُّ ، والنوويُّ . ـ **مفاتيحِ الهدىٰ** في « مفاتيح » ما مرَّ في « مصابيح »، وذكر « الهدى » تجريدٌ للاستعارة . **وسلَّم عليهم تسليماً كثيراً** .

---

(١) وبعضهم فرَّق بفرق آخر ؛ وهو أن الرسول أوحي إليه بشرع مستقل ، والنبيُّ أوحي إليه بشرع رسول غيره . فيكون النبي تابعاً للرسول فيما جاءه من الشرع . وبعضهم عدَّهما مترادفين . ولا يخلو من ضعف .

قَرَن الثناء على الله تعالىٰ بالصلاة والسلام على من ذُكر !!

أمَّا على محمَّد ﷺ! فلقوله تعالىٰ ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ : لا أُذكَرُ إلاّ وتذكرُ معي ؛ كما في « صحيح ابن حِبَّان »[1] .

وأمَّا على آله وأصحابه !! فتبعاً له ، ولخبر « الصحيحين »[2] : « قُولُوا (اَللَّهُمَّ ؛ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ)» . ويصدُق على الأصحاب في قولٍ ، ولأنَّها إذا طُلبت على الآل غيرِ الصحابة . . فعلى الصحابة أَوْلى .

والصلاة ـ لغةً ـ: الدعاءُ بخير. وقال الأزهريُّ وغيرُه : هي من الله رحمةٌ ، ومن الملائكة استغفارٌ ، ومن الآدميِّ تضرُّع ودعاء .

سبب التأليف : **هذه الرسالةُ الموجودة خارجاً** . . إن أُلِّفت قَبْلَ الخطبة ، **وذهناً** . . إن أُلِّفت بعدَها . . **رسالة لطيفة كتبها الفقيرُ** : **المفتقر إلى** ٱلله تعالىٰ **عبدُ الكريم ابن هوزان القشيري** رحمه الله ؛ ونفعنا ببركاته **إلى جماعة الصوفية الآتي بيانُهم** في (باب التصوُّف) **ببلدان الإسلام** ؛ **في سنة سبع وثلاثين وأربع مئة** .

أما بعد ؛ هذه كلمة يؤتىٰ بها للانتقال من أسلوبٍ إلى آخر .

والأصل (مهما يكن من شيء بعد البسملة والحمدلة والصلاة والسلام على محمَّد وآله وأصحابه . .) **رضي الله عنكم أيُّها الصوفية** .

اختيار الصوفية : **فقد جعل ٱلله تعالى هذه الطائفة الصوفيّة صُفوةَ أوليائه** : خُلَّصهم .

وفضَّلهم على الكافَّة : الجميع من عباده ؛ **بعد رسله وأنبيائه صلوات ٱلله** ؛ **وسلامه عليهم** ، **وجعل** الله تعالىٰ **قلوبهم معادنَ أسراره** ، جمع سرٍّ ؛ وهو: ما يكتم ـ أي : خصَّهم بالإلهام الصحيح ـ كما جرىٰ لعمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه في قوله . . وهو على المنبر بالمدينة لساريةَ أميرِ الجيش . . وهو بنهاوند : يا ساريةُ . . الجبلَ الجبلَ .

---

(١) برقم : ٣٣٨٢ من « الإحسان » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « أتاني جبريل ؛ فقال (إنَّ رَبِّي وَرَبَّك يقول لك ﴿ كيف رفعت ذكرك ؟!! ﴾) قال : « الله أعلم » . قال ﴿ إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِي ﴾ » .

(٢) هو عند البخاري : ٣٣٧٠ ، ومسلم : ٦٦ ـ ٤٠٦ ؛ عن كعب بن عُجرة رضي الله عنه .

وللسرِّ عند الصوفية معنىً سيأتي بيانُه ص ٣٣٧ مع فوائدَ أُخر قبل (باب التوبة) .

خصائصهم : واختصَّهُم من بين الأُمَّة بطوالع أنواره : بأنواره الطالعة من المكاشفات ؛ وكمال الاستبصار في أحوالهم . . . وأحوال غيرهم ، **فهم الغياث للخلق** مرجعهم ومحلُّ استغاثتهم في مهمَّاتهم ؛ حيث ينتفعون بدعائهم وغيره ، و« هُمُ ٱلقَوْمُ لَا يَشْقَىٰ جَلِيْسُهُمْ »[1] ، **والدائرون في عموم أحوالهم مع الحقِّ** ؛ لا مع أغراضهم وشهواتهم . . **بالحقِّ تعالىٰ** ، وهو متعلِّق بـ(الدائرون) .

فعله تعالى بهم : **صفَّاهم من كُدُورات البشريَّة** : حظوظ أنفسهم ، **ورقَّاهم إلى محالِّ** ـ وفي نسخة : محلِّ ـ **المشاهدات** ؛ **بما تجلَّىٰ** : انكشف **لهم من حقائقِ الأحديَّة** ، وملأ قلوبهم من انفراده تعالىٰ بالأفعال ؛ فانقطعوا بقلوبهم إليه ، وأقبلوا بكلِّيَّتهم عليه ، ودامت مشاهدتهم له ، ولِمَا يَرِدُ عليهم من أحكامه ، **ووفَّقَهم** : أقدرهم **للقيام بآداب العبودية** ، **وأشهدَهم مجاريَ أحكام الربوبيَّة** : منشأَ تصرُّفاته تعالى فيهم ؛ وفي غيرهم . . من العطاء والمنع ، والإسعاد والإضلال ، والتوفيق والخُذلان . **فقاموا بأداءِ ما عليهم من واجباتِ التَّكليف** ، **وتحقَّقوا** : اتصفوا **بما حصل منه سبحانَه لهم من التقليب والتَّصريف في الأفعال** .

ثمرة تربيتهم : **ثُمَّ رجعوا إلىٰ ٱلله بصدق الافتقار ، ونعتِ الانكسار** ، **ولم يتَّكِلُوا على ما حصل منهم من الأعمال ، أو صفا لهم من الأحوال** ، بل تبرَّؤا من أعمالهم ؛ **علماً منهم بأنَّه يفعل ما يريد ويختار** : **يصطفي مَن يشاء مِن العبيد** ، **لا يحكم عليه خلق** ، **ولا يتوجَّه عليه لمخلوقٍ حقٌّ** ، **إذ هو المالك فيتصرَّف كيف يشاء** ، **ثوابُه ٱبتداءُ فضل منه**[2] ؛ **لا تأثير للعمل فيه** ، **وعذابُه حكمٌ بعدل منه** ،

---

(١) متفق عليه عند البخاري : ٦٤٠٨ ، ومسلم : ٢٥ ـ ٢٦٨٩ ؛ عن أبي هريرة من حديث طويل : إنَّ لله مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ . . . » .

(٢) اعلم أن الثواب مقدار من الجزاء أعدَّه الله تعالى في مقابلة عمل العبد مما جاء به ﷺ . . منشؤه الإحسان والعدل منه تعالى ، فالثواب وإن ترتَّب ظاهراً على العمل . . فهو في الباطن محض المنَّة والعدل . ومنه قول الشاذلي رضي الله عنه (ليس كرمك مخصوصا بمن أطاعك وأقبل عليك) . (عروسي : ١/ ٣٤) .

إذ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . **وأمرُه قضاءٌ فصل** . . لا تردُّد فيه ، وهؤلاء الموصوفون بما ذكره هم المقرَّبون المتَّصفون بالإحسان في الخبر الصحيح[1] : ما الإحسان ؟ قال : « أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ[2] ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ . . فَهُوَ يَرَاكَ » .

طبقات الأمة : والأُمَّة درجاتُهم متفاوتة ، وينقسمون إلى أصحاب اليمين ؛ وإلى المقرَّبين[3] ، كما دلّ عليه الكتاب العزيز ؛ فمَن صحَّ إيمانه وعَمِل بما أُمر به شرعاً . . فهو من أصحاب اليمين ، ومن قلَّت غَفَلاته ؛ وتوالت منه نوافله وطاعاته ؛ وتوالى على قلبه ذكره ودعواته . . فهو المقرَّب والمحسن ، ويعبَّر عنه بـ« الصوفي » الذي صفا عن الأخلاق المذمومة ، وتخلَّق بالأخلاق المحمودة ؛ حتَّى أحبَّه الله ، وحفظه في جميع حركاته وسكناته ، كما جاء في الخبر الصحيح[4] : «﴿ مَا تَقَرَّبَ ٱلْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا ٱفْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ يَزَالُ ٱلعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِٱلنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ . . كُنْتُ سَمْعَهُ ٱلَّذِيْ يَسْمَعُ بِهِ ؛ وَبَصَرَهُ ٱلَّذِيْ يُبْصِرُ بِهِ . . ﴾» الحديث : بي يسمع وبي يبصر . . إلى آخره . أي : أحفظه في سائر تصرُّفاته ؛ فلا يخطىء في شيء منها ، وفي آخره . . ﴿ فَإِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ ، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ ﴾ .

رسوم زماننا : ثمَّ اعلموا أيُّها الصوفيّة **رحمكم ٱلله أنَّ المحقِّقين من هذه الطائفة** : طائفة الصوفية . . **انقرض أكثرهم ؛ ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلاَّ**

---

(١) أخرجه البخاري : ٥٠ ، ومسلم : ٧ ـ ١٠ وغيرهما عن عمر رضي الله عنه وهو مشهور بـ (حديث جبريل) . وأخرجه : أبو داود : ٤٦٩٥ ، والترمذي : ٢٦١٠ ، والنسائي : ٥٠٠٥ ، وابن ماجه : ٦٣ .

(٢) أشار بكاف التشبيه (كأنك تراه) إلى أن ما تصوَّره العبد في رؤية الحق مرجعه إليه لا إلى ربِّه (عروسي بتصرف) .

(٣) فأصحاب اليمين هم الموفَّقون إلى أداء العبادة دون دوام المراقبة ، والمقرَّبون ترقَّوا لدوام المراقبة ، وسبب تفاوت الدرجات القسمةُ والتقدير الأزليان ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (عروسي ١/ ٣٥ بتصرف) .

(٤) أخرجه البخاري : ٦٥٠٢ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أثرُهم ، من التشبُّه بهم في لبس المرقَّعات ، والتلبُّس بالهيآت في الظواهر . . مع خلوِّ القلوب عن السرائر ، وهذا **كما قيل** :

أَمَّــا ٱلخِيَــامُ فَــإِنَّهــا كَخِيَــامِهِــم   وَأَرَىٰ نِسَــاءَ ٱلحَــيِّ غَيْــرَ نِسَــائِهـا[1]

وذلك لاختلال العلم وغلبة الجهل ، وحبِّ الدنيا ونيل المقاصد العاجلة منها ، وهذا في زمانه !! كما قال . . فكيف بزماننا المعروف حاله[2] !؟ فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون !!

وصف الحال : وبالجملة فقد **حصلتْ الفترةُ في هذه الطريقة** : طريقة الصوفية ، **لا . . بل اندرست الطريقةُ بالحقيقة** ؛ أي فيها ، إذ قد **مضى الشيوخ الذين كان بهم** ـ وفي نسخة لهم ـ **اهتداءٌ** ؛ يهتدي بهم غيرهم ، **وقلَّ الشباب الَّذين** [كان][3] **لهم بسيرتهم وسُنَّتِهم** : بطريقة الشيوخ **اقتداءٌ** ، **وزال الورع وطُوي بساطهُ** ؛ وهو التفتيش عن الحلال ، والتثبت عند القيل والقال . **واشتدَّ الطمعُ وقَوِيَ رباطُه** ، لحب الرفعة والمال .

وارتحل عن القلوب حرمةُ الشريعة ، فعَدُّوا قِلَّة المبالاة بالدِّين أَوثقَ ذريعةٍ : وسيلةٍ لمقاصدهم الخسيسة ، **ورفضوا** ـ وفي نسخة : ونقضوا ـ **التمييزَ بين الحلال والحرام ، ودانوا** : تديَّنوا **بترك الاحترام** للكبير والشيخ والعالم ونحوهم ، **وطرح الاحتشام** : الاستحياء منهم ؛ فعدّوا ذلك من جملة الصدق . . وهو جهل منهم ، إذ كيفَ يكون صادقاً مَن لم يعظِّم مَن عظَّمه الله تعالىٰ ، ولم يحترم من أمره الله باحترامه ، **واستخفُّوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا في مَيْدان الغَفَلات** ؛ لزعمهم بجهلهم أنَّ العبادات إنَّما هي وسيلة لحضور القلب مع الله تعالىٰ ، فإذا حضر المتوسِّل إليه اغتنىٰ عن الوسيلة .

---

(١) البيت في البحر الكامل ، وقد أُجري مجرىٰ المثل . والمعنى أن الصور قد تشابهت وتباينت الحقائق والمعاني .

(٢) هذا في القرن العاشر !!! فماذا يقول أهل القرن الخامس عشر !!؟ .

(٣) ليست في نسخة الشرح .

وقد سئل الجنيد رحمه الله عن هذه الطائفة ؛ فقال : الذي يسرق ويزني أحسنُ حالاً ممَّن يزعم هذا !! وما قاله حقٌّ ، لأنَّ مَن يسرق ويزني يعتقد نقص نفسه وعصيانه لربِّه ، وترجىٰ له التوبة ، بخلاف مَن اعتقد أنَّ مِن جملة ما يقرِّبُه إلى ربِّه تركَ هذه العبادات ، فلا يرجع عن ذلك أبداً !!

ونقل عن بعضهم أنه قيل له عمن يقول ذلك ويزعم أنه وصل ؛ فقال : صدق ؛ وصل .. ولكنه وصل إلى سقر . وركنوا إلى اتِّباع الشَّهَوات ، و إلى قِلَّة المبالاة بتعاطي المحظورات ، والارتفاق بما يأخذونه من السُّوْقة ؛ والنُّسْوان ؛ و الظَّلَمة من أصحاب السُّلطان . والسُّوقة : خلاف المَلِك ، يستوي فيه المفرد والمذكَّر ، وضدُّهما ؛ ذكره الجوهريُّ .

ثُمَّ إنَّهم لم يرضَوا بما تعاطَوْه من سوء هذه الأفعال ؛ حتَّىٰ أشاروا إلى وصولهم إلى أعلىٰ الحقائق والأحوال ، وادَّعوا أنَّهم تحرَّروا : انفكُّوا عن رِقِّ الأغلال ، وتحقَّقوا : اتَّصفوا بحقائق الوِصال ، وأنَّهم قائمونَ بالحقِّ ، يُجري عَلَيْهم أحكامَه تعالىٰ ؛ وهم محو !! : ذاهب أثرُهم .. يعني لا تكليف عليهم ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونَه : يختارونه ويفعلونه ؛ أو يَذَرونه : يتركونه عَتْبٌ ولا لَوْم ، وأنَّهم كُوشفوا بأسرارِ الأحديَّة ؛ فكشف لهم عنها ، واختُطفوا عنهم : عن أنفسهم بالكُليَّة ، وزالت عنهم أحكامُ البشريَّة ، وبَقُوا بعد فنائهم عنهم : عن أنفسهم متَّصفين بأنوار الصَّمديَّة ، و أنَّهم .. القائلُ عنهم غيرُهم .. إذا نطقوا ، والنائبُ عنهم سِواهم فيما تصرَّفُوا فيه ؛ بل فيما صرفوا عنه . وذلك كلُّه كذب ، إذ الدرجات العليّة لا تُنَال بما اتَّصفوا به !!

ثم اعتذر عن ثَلْب[1] المتشبِّهين بالمتحقِّقين من الصوفية ؛ فقال :

اعتذار : ولما طال الابتلاء لنا فيما نحن فيه من الزمان ؛ بما لَوَّحتُ ببعضه من هذه القصة ، وهي ارتكابهم ما ذُكِر .. وكنت لا أبسط إلىٰ هذه الغاية من الثَّلْب لسانَ الإنكار .. غيرةً على هذه الطريقة ؛ مخافة أن يُذكر أهلُها بسوء ، أو أن يجد مخالِفٌ لها لِثَلْبِهم : لنقصهم مَسَاغاً : مدخلاً ، إذ البلوىٰ في هذه الديار

---

(١) الثَّلْب : العيب واللوم .

بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدةٌ .

ولما كنتُ أُؤَمِّل من مادة هذه الفترة : أصلها المقتضي لها أن تنحسِم : تنقطع ؛ ولم تنحسم !! ولعل ٱلله سبحانه يجود بلطفه : بأقداره في التنبيه : التوفيق لمن حاد : عدل عن السُّنَّة المُثلىٰ ـ مؤنث : أمثل ؛ بمعنىٰ أشرف ـ في تضييع آداب هذه الطريقة : ولعل الله أن يلطف بمن حاد عن السنة الشريفة فيما ذكر ، بأن ينبِّهَه على الرجوع إليها .

ولما أبىٰ : امتنع الوقتُ إلاَّ استصعاباً ، وأبىٰ أكثر أهلِ العصر بهذه الديار إلاَّ تمادياً فيما اعتادوه مما لا ينبغي ، واغتراراً بما ارتادوه : اختاروه وتلبَّسوا به .

و« لما » في الموضعين معطوفةٌ على « لما » الأولىٰ . ويحتمل كسر لام الثانية وتخفيف ميمها وعطفها على « غيرة »! وجوابُ « لما » مع ما عطف عليها ؛

أشفقتُ على القلوب ونصحت أربابها ؛ مخافة أن تَحسَب أن هذا الأمر وهو الوصول إلى أعلى الحقائق والأحوال على هذه الجملة ؛ وهي ما تشبَّهوا به وادَّعوه بُنِيَ قواعده ، وعلى هذا النحو : الطريق سار سلفه : فـ« علىٰ » الأولى صلةٌ « بني » ، والثانية صلة « سار » .

سبب الرسالة : فعلَّقتُ[1] هذه الرسالة إليكم أيُّها الصوفيَّة ـ أكرمكم ٱلله ـ .

وذكرتُ فيها بعض سِيَر طرق شيوخ هذه الطريقة ؛ في آدابهم ، وأخلاقهم ، ومعاملاتهم ، وعقائدِهم بقلوبهم ، وما أشاروا إليه من مواجيدهم : مواجيد قلوبهم ، وفضائلُ ربِّهم عليهم ، وفي كيفيةِ : صفة ترقِّيهم من بدايتهم إلىٰ نهايتهم ، لتكون : الرسالة مني لمريدي هذه الطريقة قوَّةً ، ومنكم لي بتصحيحها ـ أي : هذه الطريقة . وفي نسخ : بتصحيحه ؛ أي : ما ذكر ـ شهادة . ومنِّي لي في نشر هذه الشكوى سَلْوة[2] ، ومن ٱلله الكريم لي فضلاً ومثوبة : ثواباً .

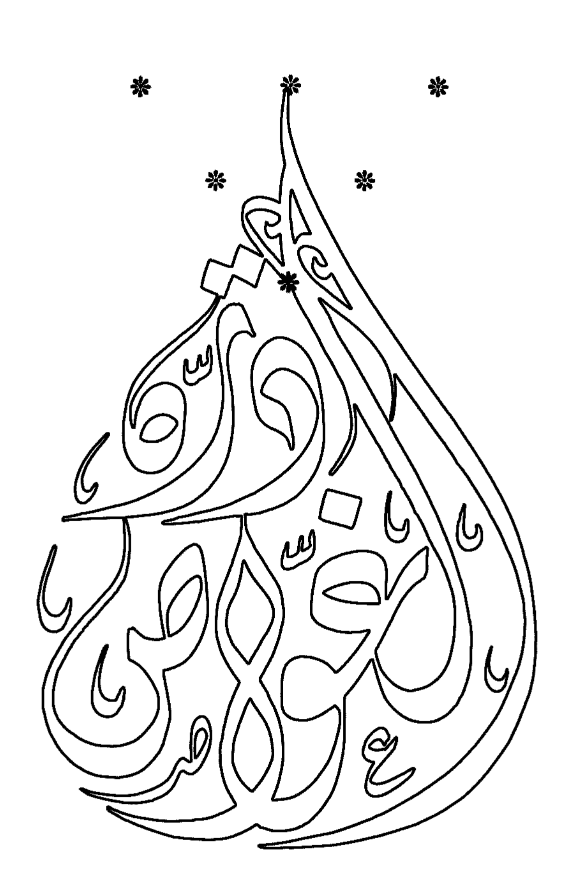
واللاّم في المواضع الثلاثة متعلِّقة بالمنصوب بعدها بـ« تكون » .

---

(١) جمعت وألَّفت ألفاظها (عروسي : ١/ ٣٩ ؛ بتصرف) .

(٢) عزاءً وأُنساً .

وأستعين : وأطلب العون **بالله سبحانه فيما أذكره** ، **وأستكفيه** ، **وأستعصمه** : وأطلب منه الكفاية والعصمة ؛ بمعنىٰ الحفظ **من الخطأ** ؛ وهو نقيض الصواب **فيه** ـ أي : فيما أذكره ـ **وأستغفرُه وأستعفيه** ، : وأطلب منه الغفران والعفو عما يصدر منِّي من الخطأ ، **وهو تعالىٰ بالفضل جدير** : حقيق ، **وعلىٰ ما يشاء قدير** ، ومنه الإعانة والحفظ ، والمغفرة ، والعفو .



فصل
في بيان اعتقاد هذه الطائفة[1]
في مسائل الأصول في التوحيد

اعلموا أيُّها الصوفيّة رحمكم الله ؛ أنَّ شيوخ هذه الطائفة منكم بنَوا قواعدَ أمرِهم[2] على أصول صحيحةٍ في التوحيد ؛ صانوا بها عقائدهم عن البدع ،

---

(١) الصوفية **ظَفروا** بحسن المتابعة له ﷺ فقاموا بما أمرهم به ، ووقفوا على ما نهاهم عنه ثم اتبعوا بالجد والاجتهاد في العبادة . . **فرُزقوا** التخلُّق بما يَقْرُب من أخلاقه ؛ من الحياء والحلم ، والعفو والشفقة والمداواة والنصيحة ، والتواضع ، ورُزقوا قسطاً من أحواله ؛ كالخشية والرضا ، والتعظيم والهيبة ، والسكينة والصدق ، والتوكل **فاستوفَوْا** أنواع المتابعة (عروسي : ١/ ٤٠ ؛ عن السهروردي) .

(٢) **اعلم** أنَّ الدين بستان . . والشريعة سياجُه ، والطريقة رياضُه ، والحقيقة ثمراته ؛ فمن لا شريعة له لا دين له ، ومن لا طريقة له لا شريعة له ، ومن لا حقيقة له لا طريقة له .

واعلم أنَّ طريقة الصوفيّة تشتمل على عشرة أشياء . .

أحدهما : حقيقة التصوُّف ، وهي ترجع إلى صدق التوجُّه إلى الله تعالى ، **والثاني** : أنَّ مدار ذلك على إفراد القلب والقالب لله وحده ، **والثالث**: أنَّه مِن الدِّين بمنزلة **الروح** من الجسد ، **والرابع** : أنَّ نظر الصوفي في وجه الكمال والنقص ، **والخامس** : أنَّ نظر **الفقيه** فيما يسقط الحرج ، **والأصولي** فيما يصحُّ به الإيمان ويثبت ، فنظر **الصوفيِّ أخصُّ** مِن نظرهما ، ولذلك **صحَّ إنكارهما عليه** ؛ ولا يصحُّ إنكاره على أحدهما ! **فصوفيُّ الفقهاء خيرٌ من فقيه الصوفية** ، **والسادس** : إظهار شرف التصوف ودليله برهاناً ونصًّا ، **والسابع** : أن **الفقه شرط في صحَّته** فلذلك قُدِّم عليه ، **والثامن** : ذكر الاصطلاح واختصاصه بكلِّ فنٍّ على حسبه ، **والتاسع** : مفاتيح الفتح فيه أربعة : ١ـ إحكام المبادىء ، و٢ـ صدق الرغبة في الوصول ، و٣ـ التشوُّف للحقائق ، و٤ـ عدم التقيد بالمنقول مع التحقيق ، **والعاشر** : أنَّه طريق عجيب غريب ؛ =

كالتشبيه الذي قال به المجسِّمة ، ونفيِه تعالىٰ الذي قال به الفلاسفةُ القائلون بقِدَم العالَم والتعطيل ، ودانوا : تديَّنوا بما وجدوا عليه السَّلف وأهلَ السَّنةِ ؛ من توحيدٍ ليس فيه تمثيل ؛ ولا تعطيل ، وعرفوا ما هو حقُّ القِدَم ، والقدم يقال للقدم الذاتي ؛ وهو ما لا يحتاج وجوده إلى غيره ، وللقِدَم الزمانيِّ ؛ وهو ما لا يكون وجودُه مسبوقاً بالعدم ، وللقدم الإضافي ؛ وهو ما يكون وجوده أكثرَ من وجودِ آخر فيما مضى . . كوجود الأب مع وجود ابنه .

وتحقَّقوا : اتَّصفوا بما هو نعتُ : وصفُ الموجودِ عن العدم ؛ وهو الحادث الذي وجد بعد أن لم يكن ، ولذلك قال سيِّدُ هذه الطريقة الجنيدُ رحمه الله : التوحيدُ إفراد القِدَم مِنَ الحَدَث .

بمعنىٰ الحدوث ، والحدوث يقال ١ ـ للحدوث الذاتي ؛ وهو كون الشيء مسبوقاً بغيره ، و٢ ـ الزمانيِّ ؛ وهو كونه مسبوقاً بالعدم ، و٣ ـ الإضافي ؛ وهو ما يكون وجوده أقلَّ من وجودِ آخر فيما مضىٰ . وهو تعالىٰ منزّه عنه بالمعاني الثلاثة ، وهي من الاعتبارات العقلية التي لا وجودَ لها في الخارج .

حالهم في أصول العقائد : وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ، ولائح الشواهد ـ: بالدلائل الواضحة والشواهد اللائحة ـ كما قال الشيخ أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجُرَيري رحمه الله : مَن لم يقف على التوحيد بشاهد من شواهده . . زلَّت به قدمُ الغرور في مهواةٍ ؛ هي ما بين الجبلين و من التَّلف .

يريد بذلك أنَّ مَن ركن إلى التقليد في توحيده ؛ ولم يتأمَّل دلائل التوحيد ؛ من افتقاره كلَّ حين إلى فعل ربِّه . . من صحَّته وسُقْمه ، وجوعه وشِبَعه ، وطاعته وعصيانه ونحوها . . سقط عن سَنن : طريق النَّجاة ، ووقع في أسر الهلاك ، فالتقليد في الاعتقاديَّات ممتنعٌ ، بل يجب على كلِّ أحد النظرُ ؛

= ومبناه على اتباع الأحسن دائماً . . ففي العقائد على اتباع السلف ، وفي الأحكام على الفقه ، وفي الفضائل على مذهب المحدِّثين ، وفي الآداب على ما به صلاح القلوب (عروسي : ١/ ٤٠) .

لا على طريق المتكلِّمين ؛ من تحرير الأدلَّة وتدقيقها ، ودفع الشُّبَه عنها ؛ لأنَّه إذ ذاك فرض كفاية على المتأهِّلين له ، بل على طريق العامَّة ، كما أجاب الأعرابيُّ الأصمعيَّ عن سؤاله : بمَ عرفت ربَّك؟ فقال : البعرةُ تدلُّ على البعير ، وأثر الأقدام على المسير ، فسماء ذات أبراج ؛ وأرضٌ ذات فجاج . . ألا تدلُّ على اللطيف الخبير !! ومع ذلك تصحُّ عقائد المقلِّد ؛ وإن أثم بترك النظر[1] .

ضبط مسلكهم : **ومن تأمَّل ألفاظهم وتصفَّح كلامَهم . . وجد في مجموع أقاويلهم ومتفرِّقاتها ما يثق بتأمُّله ـ : بسببه ـ بأنَّ القومَ لم يقصِّروا في التحقيق عن شأوٍ : غاية ، ولم يعرِّجوا في الطلب له على تقصير .**

ونحن نذكر في هذا الفصل جُمَلاً من متفرِّقات كلامهم فيما يتعلَّق بمسائل الأصول ، ثمَّ نحرِّر علىٰ الترتيب بعدَها ـ أي : بعد بيانها ـ **ما يشتمل علىٰ ما يحتاج إليه في صحَّة الاعتقاد . . على وجه الإيجاز والاختصار** هما بمعنىً ؛ وهو : إقلال اللفظ مع توسُّع المعنى ، أو : الإقلال بلا إخلال ، أو : إقلال المباني وإبقاء المعاني ، أو ردّ الكثير إلى القليل . . وفي القليل معنى الكثير . وقيل غير ذلك ، والكلُّ متقارب . وقيل : الاختصار يكون في حذف الجمل فقط . والإيجاز أعمُّ من ذلك . وقيل : الاختصار إقلال من عَرْض الكلام ، والإيجاز من طُوله .

إن شاء ٱلله . . أتىٰ به للتبرُّك ، ورعايةً للأدب بذكر الله تعالى في أموره ، ولقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[2] ثمَّ ردَّ على القائل بالجسميَّة وحدوثِ كلام الله تعالىٰ ، بقوله :

توحيد الواحد : **سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان محمد بن الحسين السُّلَمي ـ رحمه ٱلله ـ يقول : سمعت عبد ٱلله بنَ موسىٰ السَّلاميَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الشِّبليَّ يقول : في توحيد الله جلَّ وعزَّ :**

الواحد !؟ **هو المعروفُ قبل الحدود** : الجهات ، **وقبل الحروف والأصوات** .

---

(١) إن كان من أهل النظر . وإلا فلا إثم على المعتمد .

(٢) الآيتان : ٢٣ ـ ٢٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها الكهف .

وهذا صريحٌ من الشِّبليِّ في أنَّ القديمَ ـ سبحانه ـ لا حدَّ لذاته ، ولا حروفَ لكلامه ، فهو قديمٌ منزَّه عن الحدوث في ذاته وصفاتِه التي منها كلامُه ثمَّ بيَّن أنَّ أوّل الواجبات معرفةُ الله بقوله :

أول فرض : **سمعت أبا حاتم الصُّوفيَّ ؛ يقول : سمعت أبا نصر الطوسيَّ ؛ يقول : سُئل** القاضي أبو محمد **رُوَيْمُ** بن أحمدَ البغدادي ؛ **عن أوّل فرض افترضه الله عزَّ وجلَّ على خلقه : ما هو !؟**

فقال : هو **المعرفة** بالله تعالىٰ ؛ **لقوله جلَّ ذكره ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾**[١] ، **قال ابن عبّاس** رضي الله عنهما : **إلاَّ ليعرفون**[٢] ، فهو تعالىٰ إنَّما خلق العالَم ليستدلَّ به عليه ؛ كما قال ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[٣] ولهذا قيل : أعرفُكُم بنفسه أعرفُكُم بربِّه . فمن عرف نفسه بالحدوث . . عرف أنَّ فاعله قديم ، لوجوب افتقار الحادث إلى مُحدِث قديم ، إذ لو كان حادثا لزم التسلسل . . وهو محال ! وما استدل به لا يدلُّ على أنَّ أوّل الفروض المعرفةُ !! مع أنَّ جماعة على أنَّ أوّلها الإقرارُ بالشهادتين ، لقوله ﷺ لمعاذٍ . . لمَّا بعثه إلى اليمن : « إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَىٰ أَهْلِ كِتَابٍ ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةَ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ ٱللهُ ؛ وَأَنَّ مُحَمَّدَاً رَسُولُ ٱللهِ »[٤] . قالوا : والإقرار بهما يتضمَّنُ المعرفة . وقيل : أوَّلها النظرُ . وقيل : القصد إلى النظر ! ولعله لا خلاف ، لأنَّ المعرفة أوَّلا مقصودٌ ؛ وما عداها أوَّلا وسيلةٌ .

حكم المعرفة : **وقال الجنيد : إنَّ أوَّل ما يحتاج إليه العبد من عقد الحكمة** اعتقادها والحكمة تقال ١ـ لإصابة الصواب ؛ قولا وعقدا وفعلا ، و٢ـ للعلم بحقائق الأشياء ؛ على ما هي عليه . . وبما فيها من المصالح وغيرها ، و٣ـ لعلم الشرائع ـ **معرفةُ المصنوع صانعه ، ومعرفة المحدَث كيف كان**

---

(١) الآية : ٥٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها الذاريات .

(٢) نقله القرطبي في تفسير « جامع أحكام القرآن » ١٧/ ٥٥ ؛ عن مجاهد ! ونقل قبله عن ابن عبَّاس : إلا ليقرُّوا لي بالعبادة طوعاً ؛ أو كرها . **فتنبه** .

(٣) الآية : ٢١ ؛ من السورة التي ذكر فيها الذاريات .

(٤) متفق عليه عند البخاري : ١٤٩٦ ، ومسلم : ٢٩ ـ ١٩ ؛ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما .

إحداثه ؛ **فيعرف صفة الخالق من المخلوق ، وصفة القديم من المحدَث** ؛ لئلا يقع في الاتحاد والحلول **ويَذِلَّ** : يخضع **لدعوته** تعالىٰ ، **ويعترف بوجوب طاعته** ؛ **فإنَّ مَن لم يعرف مالكه** . . **لم يعترف بالملك لمن استوجبه** ، وإطلاق اسم الصانع عليه تعالىٰ مأخوذ من قوله تعالى ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[1] .

شهادة المعرفة : **أخبرني محمد بن الحسين ؛ قال** : **سمعت محمد بن عبدالله الرازيَّ ؛ يقول** : **سمعت أبا الطيِّب المراغي ؛ يقول** : **للعقل** وهو غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات ؛ **دَلالة** يستدلُّ بها على وحدانيَّته تعالىٰ ، **وللحكمة إشارة** إليها ، **وللمعرفةِ شهادةٌ** : تحقيقٌ لها ، **فالعقل يَدُلُّ ، والحكمة تشير ، والمعرفة تشهد** . . **أنَّ صفاء العباداتِ لا يُنال إلاَّ بصفاء التوحيد** .

فقد اتفق العلماء والحكماء والعارفون على أنَّ صفاء الأعمال لا ينال إلاَّ بذلك ، ومعناه أنَّ سلامتَها من الرياء والعُجْب . . إنَّما يكون إذا امتلأ القلب باستحضار الواحد تعالىٰ وعظمته .

التوحيد والجنيد : **وسئل الجنيد عن التوحيد ؛ فقال** : هو **إفرادُ الموحَّد بتحقيق وحدانيَّته ؛ بكمال** ـ أي : مع كمال ـ **أحديَّته** ؛ وهو **أنَّه الواحد الَّذي لم يلدْ ؛ ولم يولد . بنفي** ـ أي : مع نفي ـ سائر **الأضداد ، والأنداد** ؛ وهم النظراء ، **والأشباه** ؛ وهم الأمثال ؛ **بلا تشبيه ، ولا تكييف ، ولا تصوير ، ولا تمثيل** ، فالتوحيدُ إفراده تعالىٰ . . ذاتاً وصفة وفعلاً ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2] فهو منزَّه عن الزمان والمكان ، والانتقال والحلول .

معنى المعرفة : **أخبرنا محمَّدُ بن أحمدَ بن يحيى الصوفيُّ ؛ قال** : **أخبرنا عبد الله بن علي التميمي الصوفيُّ ؛ يحكي** ـ : حاكياً ـ **عن الحسين بن عليٍّ الدَّامغاني ؛ قال** : **سئل أبو بكر الزاهرأباذي** ـ وفي نسخة : الزاهر ـ **عن المعرفة** ـ أي : لفظها ـ **فقال** : **المعرفة اسمٌ ، ومعناه** : **وجودُ تعظيمٍ في القلب يمنعك عن التعطيل والتشبيه** .

التوحيد والبوشنجي : **وقال أبو الحسن** عليُّ بن أحمد بن سهل **البُوشنجي رحمه الله** :

---

(١) الآية : ٨٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها النمل .

(٢) الآية : ١١ ؛ من السورة التي ذكر فيها الشورىٰ .

التوحيدُ أن تعلم أنَّه غير مُشبِهٍ للذوات ، ولا منفيُّ الصِّفات القديمة ؛ خلافاً لمن نفاها عنه ، أو أثبتها له حادثةً .

لوازم الحوادث : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَمي رحمه ٱلله تعالى ؛ قال : سمعتُ محمَّد بن محمَّد بن غالب ؛ قال : سمعت أبا نصر أحمد بن سعيد الأَسفنجاني ؛ يقول : قال الحسين بن منصور الحلاَّجُ مخاطباً الخطاب العام : **أَلْزَمَ الكلَّ الحدث** : أحكمَ بلزوم حدوث جميع الخلق ، **لأن القدم ثابت له تعالى** خاصَّة . . لما مرَّ ، **فالذي بالجسم ظهوره** : إدراكه . . **فالعرض يلزمه** ، لاستحالة خُلُوِّ الجسم والجوهر عن العَرَض ، **والذي بالأداة** : الأسباب **اجتماعه فقواها يمسكه** . . حتى لو فُقِدت تفرَّق ، والباء في الموضعين صلةٌ لما بعدها .

والذي يؤلِّفه وقتٌ . . **يفرِّقه وقت** . أي : والذي يتألَّف وقتاً . . يجوز أن يفترق وقتاً ، **والذي يُقيمُه غيرُه** . . **فالضَّرورة** : افتقاره إلى غيره **تمسُّه** ، **والذي الوَهْم** : الذهن **يظفر به** : يتخيَّلُه . . **فالتصوير يرتقي إليه** ، **ومَن آواه محلٌّ أدركه « أين »** ، لأنَّ « أين » يسأل به عن المكان . **ومَن كان له جنس طالبُه** ـ أي : فطالبه ـ **مكيّفٌ** له ، لأنَّ الجنس تحته أنواع تتميز عنه بفصول ، وهذه كلُّها من صفات المخلوق ، والخالقُ منزَّه عنها ! وأمَّا نحوُ قوله ﷺ للجارية (أَيْنَ ٱللهُ ؟)[1] ؛ وقولُها له (في السماء) . . مع تقريره لها عليه !! فمؤوَّل أنَّه استئنافٌ بيانيٌّ مفيد للتعليل ـ وفي نسخة : وإنَّه ـ **سبحانه** . . .

التنزيه المطلق : **لا يظلُّه فوقٌ** : ليس فوقه شيء ، **ولا يقلُّه** ـ وفي نسخة : يقطعه ـ **تحتٌ** يكون مَقَرّاً له ، **ولا يقابله حدٌّ** ينتهي إليه ، **ولا يزاحمُه عِنْدٌ** : محلٌّ ، **ولا يأخُذُه** ـ يعني : يَحُدُّه ـ **خَلْفٌ** ، **ولا يحدُّه أمامٌ** ؛ ولا غيرهما . **ولم يظهره « قَبْلُ »** ، بل هو ظاهر قبل وجود الخلق وبعده ، **ولم يَفُتْهُ « بَعْدُ »** ، بل هو باقٍ بعد وجود العالَم وقبله ، **ولم يجمعه كلٌّ** ، لأنّه واحدٌ لا يتجزَّأ ، **ولم يوجدْهُ**

---

(١) أخرجه أبو داود : ٣٢٨٤؛ عن أبي هريرة أن رجلاً . . . وأخرجه مالك : ٢/ ٧٧٦ ـ ٧٧٧ ، وسمَّىٰ الشافعي في « الرسالة » ص٧٥ الرجل معاوية بن الحكم السُّلَمي وكذلك صرَّح به أبو داود : ٣٢٨٢ .

« كان » . . بإثباتها له في الزمن الماضي، لأنّه موجود دائماً . . لا أوّل ولا آخر لوجوده ، **ولم يفقدْهُ** « **ليس** »بنفيها له ! وجميع ذلك تنزيه له عما ذُكر .

توضيح : إذ **وصفُه** تعالىٰ **لا صفةَ** : كيفيةَ **له** ، **وفعلُه لا علَّة لهـ** : لا غرض له ، ولا حامل عليه ، لأنَّ أفعاله لا تعلَّل بذلك ! **وكونُه** ـ أي : وجوده ـ **لا أمَدَ** : غايةَ **له** . . فلا أوَّل . . ولا آخر له . . **تنزَّه عن أحوال خلقه** : صفاتهم إذ . .

استغناؤه تعالى : **ليس له مِن خَلْقه مزاج** خلافاً لمن قال بالحلول ! ومزاجُ البدن ما رُكِّب عليه من الطبائع ؛ قاله الجوهريُّ . **ولا له في فعله عِلاج** : مباشرة آلة أو نحوها كمُعين وظهير ، قال تعالىٰ ﴿ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾[1] ، بل فعله يوجد بقوله له (كُن) كما قال ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] . **باينَهُم** ـ أي : خلقَه ـ **بقِدَمِه**، بل بجميع صفاته . . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[3] ، **كما باينُوه بحدوثِهم** ، بل بجميع صفاتهم ، وفي ذلك إبطال لمذهب الاتحاد والحلول !

تكميل : **وإنْ قلت** (متى وُجد . ؟) **فقد سبق الوقتَ كونُه** : وجوده ، فلا يقال (متىٰ وجد ؟) لأنَّه سؤال عن وقت وجوده ؛ وهو[4] من الحوادث ؛ ووجوده تعالىٰ سابق عليها . **وإن قلتَ** (الله تعالىٰ « **هو** ») . . **فالهاء والواو خلقُه** ، فلا يقال ذلك لأنَّ الحروفَ حادثةٌ . خلافاً لمن زعم قِدَمها ، وليس المراد أنَّه لا يقال له (هو) . فإنه فاسد ، لوقوعه في القرآن وغيره كثيراً ، قال تعالىٰ ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ ﴾[5] ، وقال ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[6] ، وقال ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾[7] . **وإن قلت** (**أين** وجد) **فقد تقدَّم المكانَ وجودُه** .

---

(١) الآية : ٢٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : سبأ .
(٢) الآية : ٤٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .
(٣) الآية : ١١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الشورى .
(٤) أي وقت الوجود ، وكذا مكان الوجود الآتي بعد بضعة أسطر .
(٥) الآية : ٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحديد .
(٦) الآية : ٧٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .
(٧) الآية : ١٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البروج .

فلا يقال (أين وجد ؟) ، لأنَّه سؤال عن مكان وجوده وهو من الحوادث ، ووجوده تعالىٰ متقدِّمٌ عليها .

إيضاح : **فالحروف آياتُه** : دلائله المنزَّلةُ على لسان نبيِّه محمد ﷺ التي عجز الخلق عن الإتيان بسورة من مثلها ، **ووجودُه إثباته** : إقامة الأدلَّة على ثبوته ؛ والعلم بوجوده ، **ومعرفتُه توحيدُه** ؛ لأنَّ مَن لم يوحِّدْهُ لم يعرفه ، **وتوحيدُه تمييزُه** من خلقه ؛ لأنَّ من لم يميِّزْه عنهم . . . لم يوحِّدْه .

احتراز : **ما تُصُوِّر في الأوهام** : الأذهان . . **فهو تعالىٰ بخلافه** ، لأنَّه تعالىٰ لو تُصوِّر فيها لدخله التصوير ! وقد مر ص٤٥ أنَّه منزَّه عنه . **كيف يَحُلُّ به ما منه بدا**[1] من الحوادث ؟ **أو يعود إليه ما** ـ أي : شيءٌ ـ **هو أنشأه منها** !! وهو تعالىٰ ليس محلاًّ للحوادث .

رؤيته تعالى : **لا تماقِلُه العيونْ** : لا تراه بالمُقْلة في جهة . لأنَّه منزَّهٌ عن الجهات ، أما رؤيته لا في جهة . . فجائزة ، بل واقعة في الدنيا لنبيِّنا ﷺ في ليلة الإسراء[2] ، وفي الآخرة لجميع المؤمنين ، فيرونه فيها بإدراكٍ يخلقُه الله لهم . . يدركون به ما ليس في جهة ، كما خلق في قلوب العارفين في الدنيا العلم بما ليس في جهة ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾[3] وقد تعرَّض المصنِّف له في (الفصل الآتي ص٧١) ، وفي (باب كرامات الأولياء ص٩٧١) ، وفي ص٨٤٣ . والمقلةُ شحمة العين التي تجمع السواد والبياض .

ولا تقابلُه الظُّنُون والشكوك والأوهام . . المفهومات بالأَوْلىٰ ! أي : لا تدركه .

---

(١) أي ظهر ، وذلك من آثار قدرته ؛ لا من ذاته . وفي (م) : بدأه وهو المناسب لما بعدها .

(٢) رؤيته تعالى عقلاً جائزة في الدنيا والآخرة ، لكنها واقعة في الآخرة للمؤمنين الذين أكرمهم الله بوعدهم بها ، فتكون واجبةً شرعاً في الآخرة تنفيذاً للوعد فجوازها شيء ، ووقوعها شيء آخر ، وهي إنما وقعت لسيدنا رسول الله ﷺ في الدنيا يقظة بأمِّ عينيه .
والبحث في ذلك يطلب في مواضعه . قال الشيخ إبراهيم اللقّاني رحمه الله :
وَمِنْـهُ أَنْ يُنْظَـرَ بِـٱلأَبْصَـارِ لَكِـنْ بِـلاَ كَيْـفٍ وَلاَ ٱنْحِصَـار
أي : من الجائز عقلاً .

(٣) الآية : ٧٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

إيضاحات : قربُه : من عبده كرامتُه له ، وبعدُه عنه إهانتُه له ، لأنَّه تعالىٰ منزَّه عن القُرْب والبعد في المكان ، علوُّه عليه علوُّ جلالة وعظمة له ؛ من غير توقُّل : علوِّ مكان ، لأنَّه منزَّه عنه ، يقال (توقَّلْتُ الجبل) : علَوْتُه ؛ قاله الجوهريُّ .

ومجيئُه إليه !! مجيءُ أمره وفضله ، كما في خبر « يَتَنَزَّلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا »[1] : يتنزَّل أمره وفضله . . من غير تنقُّل لذلك .

هو الأوَّل قبل كلِّ شيء بلا بداية ، والآخِر بعد كلِّ شيء بلا نهاية ، والظاهرُ بالأدلَّة عليه ، والباطن عن إدراك الحواسِّ ، القريبُ بكرمه البعيدُ بإهانته الذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2] . وتقدَّم بيان هذا .

ذو النون والتوحيد : سمعت أبا حاتم السّجستانيَّ ؛ يقول : سمعت أبا نصر الطوسيَّ السَّرَّاجَ . . يحكي عن يوسف بن الحسين ؛ قال : قام رجل بين يدي ذي النون المصريّ ؛ فقال : أخبرني عن التوحيد . . ما هو ؟! . فقال هو : أن تعلم [أن][م] قدرة ٱلله تعالىٰ في الأشياء بلا مزاج ، وصنعه للأشياء بلا علاج كما مرَّ ص ٤٧ .

وعلَّةُ كلِّ شيء صنعُه ، ولا علَّةَ لصنعه ؛ لأنَّه منزَّه عن الأغراض كما مرَّ ص ٤٦ . وليس في السماوات العُلا ؛ ولا في الأرضين السفلى مدبِّرٌ غير ٱلله لانفراده بذلك ، وكلُّ ما تُصوِّر في وَهَمك . . فٱللهُ تعالىٰ بخلاف ذلك . لما عُلم ممَّا مرَّ ص ٣١ ـ ٣٢ .

وقال الجنيد : التوحيد علمُك : تصديقك ، وإقرارُك : نطقك بأنَّ اللهَ فردٌ في أزليَّته ؛ لا ثاني معه ، ولا شيء يفعل فعله . وهذا لا ينافي ما نقله بَعْدُ ص ٥٤ عن بعضهم من أنَّ التوحيد اليقينُ ، ولا ما قاله قَبْلُ ص ٤٥ من أنَّه إفراد الموحِّد . . إلى آخره ؛ وإن اختلفت العبارات !! .

ابن خفيف والإيمان : وقال أبو عبد الله محمد بن خفيف : الإيمان تصديقُ القلوب بما أعلمه الحقُّ : بما جاء النَّبيُّ ﷺ عن الحقِّ تعالىٰ من الغيوب التي أطلعه عليها . وهذا بيانٌ لما قبله .

---

(١) متفق عليه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه . . عند البخاري : ١١٤٥ ، ومسلم : ١٦٨ ـ ٧٥٨ ، بلفظ « يَنزِلُ » بدل « يتنزَّل » .

(٢) الآية : ١١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الشورىٰ .

نوعا عطائه : وقال أبو العبَّاس السياريُّ : **عطاؤه تعالىٰ لك على نوعين : كرامة ، واستدراج ، فماأبقاه عليك** ؛ لكونك خائفاً من الله تعالىٰ شديدَ الرغبة في طاعته . . **فهو كرامة لك ، وماأزاله عنك** ؛ لكونك أُعجبتَ بنفسك ورائيت بفعلك . . **فهو استدراجٌ لك** ، فالأفعال كلُّها . . خيرُها وشرُّها من الله ؛ خلافاً للمعتزلة[1] ، وإذا أخبرت عن نفسك بالإيمان . . **فقل (أنا مؤمن إن شاء الله تعالى)** كما رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه ؛ نظراً إلى العاقبة المجهولة . . لا إلى الحالة الراهنة ، أو إلى كمال الإيمان . . لا إلى أصله ، أو رعايةٌ للأدب بذكر الله تعالى في أموره ، أو هضماً لنفسك وتركِ تزكيتها . . لا شكًّا في إيمانك ؛ فإنَّه كفر .

تذييل : وأبو العبَّاس السياريُّ هذا . . كان شيخ وقته ! وستأتي ترجمته ص ٢٢٤ ، ومنها قول المصنف هنا : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الحسنَ بن عليٍّ الدَّقَّاق رحمه ٱلله تعالىٰ ؛ يقول : **غمز رَجُلٌ رِجْلَ أبي العبَّاس السياريِّ ؛ فقال : تغمزُ رِجْلا ما نقلتُها قطُّ في معصية الله عزَّ وجلَّ !** .

حقيقة الدعوى : **وقال أبو بكر محمَّد بن موسى الواسطيُّ : مَن قال (أنا مؤمن بالله حقًّا) . . قيل له : الحقيقة تشير إلى إشراف واطِّلاع على المغيَّبات ؛ وإحاطة بها ! فمَن فَقَده** ـ أي : ما ذكر من الإشراف وما بعده . ـ **بطل دعواه فيها** : في حقيقة الإيمان . **يريد بذلك** ـ أي بما ذكره . . من أن الحقيقة تشير . . إلى آخره ـ **ما قاله أهل السنَّة (إنَّ المؤمن الحقيقي مَن كان محكوماً له بالجنَّة)** ؛ أخذاً مما تضمنَّه قولُه ﷺ في الخبر الصحيح[2] . . لما سأله جبريل عن الإيمان : « أَنْ تُؤْمِنَ بِٱللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْقَدَرِ . . خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » .

المؤمن الحقيقي : **فمن لم يعلم في نفسه ذلك من سرِّ حكمة الله تعالى** ؛ بأن نطق بالإيمان بلسانه مع خلوِّ قلبه عن معانيه ، **فدعواه بأنَّه مؤمن حقًّا غيرُ صحيح** ـ وفي نسخة : غير صحيحة ـ بل هو شاكٌّ ؛ أو منافق ، وعليه يحمل قول ابن

---

(١) حيث نسبوا الشرَّ لمكتسبه ؛ لا لخالقه .

(٢) تقدم تخريجه ص ٣٦ في حديث جبريل .

عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ((من قال (أنا مؤمن حقًّا).. فهو كافر حقاً)) . أما مَن علم ذلك ! فدعواه صحيحة .

نعم ؛ إن قصد رتبة الكمال .. كما في قوله تعالىٰ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقًّاۚ ﴾[١] ؛ فهو تزكيةٌ للنفس . وعليه يحمل قول سفيانَ الثوريُّ : قولُ المؤمن (أنا مؤمن حقًّا) بدعةٌ . أمَّا من قال (أنا مؤمن في علم الله) ؛ أو .. عند الله) !! فظاهر ، كما نبَّه عليه السبكيُّ .. أنَّه إن قصد الحال ؛ أو الماضي .. لم يمتنع ، لأنَّ علمه تعالى يتعلَّق بالواقع كما هو واقع ، وإلاَّ امتنع لأنَّه يجهل خاتمة أمره في علم الله ؛ أو عنده ، لكن محلُّه في (عند الله) .. إذا أراد به في علم الله ، فإنْ أراد به في حكم الله ؟! لم يمتنع ، لأنَّه حكمُه تعالىٰ جارٍ عليه كذلك ، فإنْ تغيّر الحال .. جرىٰ الحكم المغاير .

رؤيته للمؤمنين : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ ؛ يقول : سمعت منصورَ بن عبد الله ؛ يقول : سمعت أبا الحسن العنبريَّ ؛ يقول : سمعت سهل بن عبد الله التُّسْتَريَّ ؛ يقول : ينظرُ إليه تعالى المؤمنون في الآخرة بالأبصار ؛ من غير إحاطة .. ولا إدراكِ نهايةٍ . وعليه حُمل قولُه تعالىٰ ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾[٢] : إدراك إحاطة ونهاية ، لأنَّ ذلك .. إنما يكون في محدود محصور ! وهذه صفة الأجسام ، وهو تعالىٰ منزَّه عن ذلك .

أشوق القلوب : وقال أبو الحسن ـ وفي نسخة : أبو الحسين ـ النُّوريُّ : شاهَدَ الحقُّ تعالىٰ القلوب فلم يَرَ قلباً أشوقَ إليه من قلب محمَّد ﷺ ؛ بخلقه تعالىٰ ذلك له .. فأكرمه بالمعراج تعجيلاً للرؤية والمكالمة له ؛ إظهاراً لفضيلته .

امتحان مريد : سمعت الإمام أبا بكر محمد بن الحسن بن فُوْرَك رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بنَ المحبوب (خادم أبي عثمان المغربي) ؛ يقول : قال لي أبو عثمان المغربيُّ يوماً على وجه الامتحان .. لينقطع عنِّي توهُّم الالتفاف إلى الجهات : يا محمد ؛ لو قال لك (أينَ معبودك ؟) أيشٍ ـ : أيُّ شيءٍ ـ تقول ؟ . قال :

---

(١) الآية : ٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .
(٢) الآية : ١٠٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

قلتُ له : أقول : حيث لم يزل . قال . . فإن قال لك أيش تقول ؟! قال قلتُ : أقول حيث هو الآن . يعني : إنَّه كما كان . . ولا مكانَ ؛ فهو الآن كما كان : فلا حيث ـ أي : حيث مكان ـ له كما لا زمان له ، لأنَّه الخالق لكلِّ مكان وزمان . قال : فارتضى مني ذلك ، ونزع قميصه وأعطانيه ؛ شكراً ، وزيادة في تثبتي .

أسلم عن بدعة : وسمعت الإمام أبا بكر ابن فُوْرَك رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا عثمان المغربيَّ ؛ يقول : كنتُ أعتقد شيئاً من حديث الجهة ، وأنَّه تعالى على العرش ! فلمَّا قدمت بغداد وسمعتُ كلام المحقِّقين في تنزيهه تعالىٰ . . زال ذلك عن قلبي ، فكتبت إلى مكَّة ـ: إلى أصحابنا بها ـ وفي نسخة : فكتبت إلى أصحابنا بمكة ـ ممن كان يعتقد مذهبي ويعمل به : إنِّي أسلمتُ الآن إسلاماً جديداً ؛ حيث عرفتُ الحقَّ واتَّبعتُه .

الخَلْق والقدرة : سمعت محمد بن الحسين السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا عثمان المغربيَّ ؛ يقول . . وقد سئل عن الخَلْق ؛ فقال : هم قوالب وأشباح تجري عليهم أحكامُ القدرة القديمة ، وهي صفة تؤثر في الشيء عند تعلُّقها به ، فهم وأفعالهم كلُّها مخلوقة لله تعالىٰ خلافاً للقدرية . ولا حاجة لقوله (فقال) ! .

خالق الجواهر والأعراض : وقال الواسطيُّ : لما كانت الأرواحُ والأجسادُ قامتا بالله ، وظهرتا به ـ الأنسب بما يأتي : قامت وظهرت . أي : وجدت بقدرته تعالىٰ ـ لا بذواتِها . . كذلك قامت : وجدت الخَطَرات والحَرَكات بالله تعالىٰ ؛ لا بذواتها ، إذ الحركاتُ والخطَرات فروع الأجساد والأرواح ، لأنَّ الحركاتِ تابعةٌ للأجساد ؛ والخواطرَ للأرواح . .

صرَّح بهذا الكلام ! ليفيد أنَّ أكساب العباد كلها مخلوقة لله تعالىٰ ، خلافاً لمن زعم أن الخطرات والأرواح قديمة ، وكما أنَّه لا خالق للجواهر الشاملة للأجسام إلاَّ ٱلله تعالى ؛ فكذلك لا خالقَ للأعراض إلاَّ ٱلله ، فجميع الجواهر والأعراض حادثة .

لأنها أقسام العالَم ، إذ هو إما قائم بنفسه ؛ أو بغيره ، والثاني العَرَض ، والأوّل ـ ويسمىٰ بالعين ؛ وهو محلُّ الثاني المقوّم له ـ إما مركب وهو

الجسم ، أو غير مركب وهو الجوهر الفرد .

المتعنّي والمتمَّنّي : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه ٱلله ؛ يقول : سمعت محمد ابن عبد ٱلله ؛ يقول : سمعت أبا جعفر الصَّيدلانيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا سعيد الخرَّازَ ؛ يقول: مَن ظنَّ أنَّه ببذل الجُهد : في الأوامر والنواهي يصل إلى مطلوبه!! فمتعنٍّ : متعِبٌ نفسه ، ولا يصل إليه بذلك ، ومَن ظَنَّ أنَّه بغير بذل الجهد يصل إليه فمتمنٍّ وصوله بغير اجتهاد ، ومغترٌّ بعفو الله[1] . فعلى العبد أن يجتهد ويتَّكلَ على فضله ، قال ﷺ : « اِحْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ وَٱسْتَعِنْ بِٱللهِ »[2] .

استجلاب المقامات : وقال الواسطيُّ : المقاماتُ المطلوبة أقسام قُسِمت ، ونعوتٌ أُجريت ؛ كيف تستجلب بحركات ؟ أو تنال بسعايات ؟! على ما زعمه القَدَرية ، فالحركات والسعايات في الطاعة جعلها الله شروطَ الفلاح ، فالفلاح مشروط في الأزل بجريانها ، وحاصل بقَدَر الله ؛ لا بفعل العبد ، وفي ذلك إثبات الكسب والتَبَرِّي من الحَوْل والقوة ، فالعبد لا يترك العمل ولا يتَّكل عليه ، فلا يكن ممن كذَّب بالقضاء . . وصدَّق بالأمر والنهي ؛ فيكون من جنس المجوس ، ولا ممن آمن بهما لكن قصَّر في الأمر والنهي فيكون من جنس المشركين الذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا)[3] فكلا الفريقين ضالٌّ ، والثاني أضلُّ من الأول .

ٱلله والكون : وسئل الواسطيُّ ؛ عن الكفر : هل هو بٱلله ؛ أو لله ؟

أو من الله ، أو إلى الله ؟ فقال : الكفر والإيمان ، والدنيا والآخرة الجامعتان لسائر المخلوقات من الله وإلىٰ الله وبالله ولله ، لأنها من الله ابتداءً وإنشاءً : إيجاداً ، وإلىٰ ٱلله . . مرجعاً وانتهاءً ، للسؤال يومَ القيامة ،

---

(١) والتمنِّي المجرَّد عن العمل بما طُلب منه ؛ أو نُهيَ عنه منشأُه غرور النفس بوساوس الشيطان ، والله وحدَه وليُّ الفضل والإحسان . (عروسي : ١/ ٥٣) .

(٢) أخرجه مسلم : ٣٤ ـ ٢٦٦٤ ، وأحمد : ٢/ ٣٦٦ ، وابن ماجه : ٤١٦٨ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه « المؤمن القوي خير . . . » .

(٣) يشير إلى الآية الكريمة ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [١٤٨/ الأنعام] .

وبالله . . بقاءً وفناء ، فلا تأثير للعبد في شيء منها ، ولله . . ملكاً وخلقاً . فهو الخالق لأفعال العبد كلِّها للنصوص الواردة فيه ، كقوله تعالىٰ ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1] ، وقوله ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] : ممكن بدلالة العقل ، فبطل قولُ المعتزلة (إنَّ بعض أفعال العبد كالكفر والشر خارجٌ عن قدرته تعالىٰ) .

اليقين للموحِّد : وقال الجنيد : سُئل بعض العلماء عن التوحيد ؟ فقال : هو اليقين .

فقال له السائل : بيِّن لي ما هو اليقين ؟ أو ما هو التوحيد ؟ لأني ما عرفت تفسيره باليقين .

فقال : هو معرفتُك أنَّ حركاتِ الخلق وسكونَهم فعلُ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ؛ وحده لا شريك له . فإذا فعلت ـ أي : عرفت ـ ذلك ! فقد وَحَّدْتَه . وحقيقته أنْ توقن بأن الله واحد لا شريك له . . ذاتاً ؛ ولا صفة ولا فعلاً .

سبق العناية : سمعت محمد بن الحسين السلمي رحمه ٱلله ؛ يقول : سمعتُ عبد الواحد بن علي ؛ يقول : سمعت القاسم بن القاسم ؛ يقول : سمعت محمد بن موسىٰ الواسطيَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن الحسين الجوهريَّ ؛ يقول : سمعتُ ذا النون المصريَّ . وقد جاءه رجل ؛ فقال له : ادعُ ٱلله ! فقال :

إن كنتَ قد أُيِّدتَ في علم الغيب ـ : علم الله ـ بصدق التوحيد ؛ فكم من دعوة مجابة قد سبقتْ لك ، وإلاَّ !! فإنَّ النداء لا يُنقذُ الغرقىٰ . كأنّ الشيخ غلب عليه في هذا الوقت النظرُ في السوابق فكلم السائل بما غلب عليه !! مع معرفته أن الدعاء مطلوب لا سيما من يظن به الخير وترجىٰ بركة دعائه ، ويحتمل أن يكون السائل ممن يميل إلى القدرة ويبني على الأسباب !! . فأجابه الشيخ بأنك إن كنت من المخصوصين في علم الله تعالىٰ بدرجة الموحدين . . فكم من دعوة مجابة لك من الأنبياء والأولياء الذين يدعون لكلِّ مؤمن ومؤمنة ؟! فأراد أن يحضَّه على معرفته تعالىٰ وتحصيل درجة الموحدين .

فرعون المعتزلة : وقال الواسطي ؛ في مقام الذمِّ لمذهب القدرية : ادَّعىٰ فرعون

---

(١) الآية : ٩٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها الصافات .
(٢) الآية : ١٠٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

الرُّبُوبيَّة على الكشف : الصريح حيث قال (أنا ربكم الأعلى) ، وادَّعت المعتزلةُ القَدَريَّةُ ذلك علىٰ الستر ! لأَنَّها تقول (ما شئتَ فعلتَ !!). فادَّعت الربوبية بأفعالها !! وذلك ممتنع ، فإنه لا يفعل ما يشاء إلا الله ، ولهذا قيل : « ٱلْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَٰذِهِ ٱلأُمَّةِ »[1] ، لأَنَّهم لا يرجعون إلى دين ، لكن لا يحكم بكفرهم عند المحققين ! لأَنَّهم لم يثبتوا شريكاً في الألوهية بمعنى وجوب الوجود ؛ كالمجوس ، ولا بمعنىٰ استحقاق العبادة ؛ كعَبَدة الأوثان ، بل لا يجعلون خالقيَّة العبد كخالقيَّة الله تعالىٰ ، لافتقاره إلى الأسباب والآلات التي هي بخلق الله تعالىٰ ، إلا أنَّ بعضهم بالَغَ في تضليلهم في ذلك ؛ حتى قال (إنَّ المجوس أسعدُ حالاً منهم حيث لم يثبتوا إلا شريكاً واحد . . وهم أثبتوا شركاء لا تحصىٰ) .

خواطر التشبيه : وقال أبو الحسين النُّوريُّ : **التوحيد كلُّ خاطرٍ يشير** . أي : إشارة كلِّ خاطر : توجُّهه إلى الله تعالى ؛ بقول أو عمل ، **بعد أن لا تزاحِمَه خواطرُ التَّشبيه** . فالتوحيد كما يقال على علم الموحِّد ، وعلى إقراره بالوحدانية ـ كما مر ـ يقال على إفراده الحقَّ بكلٍّ ما هو فيه . وهذا توحيدُ الصوفية ! وربَّما تبرَّؤا من إضافته إلى كسبهم ، وبهذا الاعتبار قال (كلُّ خاطر . .) إلى آخره . وقريب من هذا ما ذكره في قوله :

التوحيد بكلمة : وأخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَميُّ رحمه ٱلله تعالى ؛ قال : سمعت عبد الواحد بن بكر ؛ يقول : سمعتُ هلال بنَ أحمد ؛ يقول : سُئل أبو عليٍّ الرُّوذَباريُّ عن التوحيد؛ فقال: **التوحيد: استقامة القلب بإثبات مفارقة التعطيل، وإنكار التشبيه** .

والتوحيدُ ـ في نسخة : فالتوحيد ـ **في كلمةٍ واحدة** ؛ وهي : **كلُّ ما صوَّره الأوهام والأفكارُ ؛ فالله سبحانه بخلافه** ، لقوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2] . كما مر ص٤٩ .

---

(١) أخرجه أحمد : ٢/٨٦ ؛ وأبو داود : ٤٦٩١ ، وابن ماجه : ٩٢ ، والحاكم : ١/٥٨ وصححه ، وأقرَّه الذهبي . وله زيادة : « إنْ مَرِضُوا فَلاَ تَعُوْدُوهُمْ ، وَإِنْ مَاتُوا فَلاَ تَشْهَدُوهم » ؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) الآية : ١١ ؛ من السورة التي ذكر فيها الشورى .

غاية التحقيق : وقال أبو القاسم النَّصرَآباذي : الجنَّة باقية بإبقائه تعالىٰ ، وذكرُه لك ورحمته؛ ومحبَّتُه لك : كلٌّ منها باقٍ ببقائه تعالىٰ . فشتَّان بين ما هو باقٍ ببقائه ، وبين ما هو باقٍ بإبقائه! . فأنَّ الأوّل غير مخلوق، بخلاف الثاني كما بيَّنه بقوله! .

وهذا الذي قاله الشيخ أبوالقاسم النَّصرَآباذي هو غايةٌ في التحقيق ؛ فإنَّ أهل الحقِّ قالوا : صفاتُ ذاتِ القديم سبحانه باقياتٌ - وفي نسخة : باقية - ببقائه تعالىٰ . فنبَّه الشيخ النصرآباذي علىٰ هذه المسألة ، وبيَّن أنَّ الباقيَ باقٍ ببقائه تعالىٰ ؛ فهو قديم . بخلافَ ما قاله مخالفو الحقِّ ؛ من أنه لا يبقىٰ شيء ببقائه لئلا يلزم تعدُّد القدماء ! قال أهل الحقِّ : لا استحالة في تعدُّد صفات قديمة ، إنَّما المستحيل تعدد ذوات قديمة !

تبيان : والغرض مما قاله الشيخ : أنَّه ينبغي للعبد أن يكون مشتغلاً بنَيْل ذكر الله له ومحبَّته له ، وشرف منزلته عنده ؛ دون ما يخلقه له . . من كرامة ونيلِ درجات دنيوية ؛ أو أُخروية كالجنة ، فشتَّان بين مَن علَّق قلبه بصفاته تعالىٰ ، ومَن علَّق قلبه بأفعاله ! ! فأراد الشيخ نقله من الوقوف على الأفعال إلى كمال الذات والصفات .

بين الفعل والذات : أخبرنا محمَّد بن الحسين ؛ قال : سمعت النَّصرآباذي ؛ يقول مخاطباً الخطاب العامَّ : أنتَ متردِّدٌ بين صفاتِ الفعل وصفاتِ الذات، و مع ذلك كلاهُما صفتُه تعالى على الحقيقة ، فإذا هَيَّمَك : فرَّق قلبك في مقام التفرقة قَرَنك بصفات فعله ، وإذا بَلَّغَك إلىٰ مقام الجمع قَرنك بصفاتِ ذاته . فإذا ذكرت الله تعالىٰ بصفات ذاته . . فقد قرنك بها : جمع قلبك عليها ، وإذا ذكرتَه بصفات فعله . . فقد قرنَك بها ، وهي متَّسعة فبعِّدْ قلبك بالفكرة فيها عن الفكرة في الذات وصفاتها ، وكلٌّ من القسمين فضل من الله عليك ، لكن فرق بين مجموعِ القلب مع القلب ؛ ومفرَّقِ البال في تفاصيل الخلق .

وتحرير ذلك : أنَّ صفات الذات ؛ كالعلم والقدرة . . قديمةٌ عند أهل الحقِّ ، وصفات الفعل ؛ كالتخليق والترزيق . . إضافات واعتبارات عقلية عند المحققين ، مثل كونه تعالى قبل كلِّ شيء ومعه وبعده . ومعبوداً لنا ، ومميتاً ومحييا ، لكن مبدؤها من القدرة والإرادة قديمٌ ، فهي قديمة بهذا الاعتبار ، ومن قال إنَّها حادثة مطلقاً . . يلزمه قيام الحوادث بذات الله تعالىٰ . . وهو ممتنع .

وأبو القاسم النصرآباذي كانَ شيخَ وقته . وستأتي ترجمته ص ٢٣٩ ، ومنها قول المصنف هنا :

أسلم جديدا : سمعت الإمام أبا إسحاق الإسفراييني رحمه الله ؛ يقول : **لمَّا قدمتُ إلى نيسابور من بغداد[١] كنتُ أدرِّس في جامع نَيسابور مسألةَ الروح ؛ وهي النفس ، وأشرحُ القول في أنَّها مخلوقة ، وكان أبو القاسم النصرآباذي قاعداً متباعِدَاً عنَّا ؛ يصغي إلى كلامي ، فاجتاز بنا بعد ذلك يوماً متراخياً عن ذلك بأيام قلائل ؛ فقال لمحمَّد الفَرَّاء : إشهد عليَّ أنِّي أسلمتُ إسلاماً جديداً علىٰ يدَيْ هذا الرجل !! وأشار إليَّ** . لأنَّه كان يعتقد قِدَم الروح ، فلما سمع منه أدَّلة حدوثها . . صرَّح بذلك .

والروح لم يتكلَّم عليها النَّبيُّ ﷺ لمَّا سُئِلَ عنها !! لعدم نزول الوحي ببيانها ، قال تعالىٰ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[٢] فنُمسِك عنها ولا نعبِّر عنها بأكثرَ من موجود مخلوق . . كما قاله جماعة .

والخائضون فيها اختلفوا ! فقال جمهور المتكلِّمين : إنَّها جسم لطيف مشتبك بالبدن اشتباك ماء العود الأخضر به . وقال كثير منهم : إنَّها عَرَض ، وبه الحياة التي صار البدن بوجودها حيا .

واحتجَّ للأوَّل بوصفها في الأخبار بالهبوط والعروج ، والتردُّد في البرزخ .

وقال الفلاسفة وكثير من الصوفيَة : إنَّها ليست بجسم ولا عرض ، وإنَّما هي جوهر مجرَّد قائم بنفسه غيرُ متحيِّز ، متعلِّق بالبدن للتدبير والتحريك ، غير داخل فيه ؛ ولا خارج عنه .

اتصاله بغيره : سمعت محمد بن الحسين السُّلَمي ؛ يقول : سمعتُ أبا الحسين الفارسيَّ ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن فاتك ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : **متىٰ يتَّصل مَن لا شبيه له ولا نظير له . . مِمَّن له شبيهٌ ونظير !؟** حتىٰ يقال (فلان وصل إلى الله) ؛ ويراد به الوصول بالحسِّ والقرب المعهودين . **هيهات !!** : بَعُدَ ذلك .

---

(١) بدالَين مهملتين ، وبمهملة ثم معجمة بغداذ علىٰ الأشهر (الشارح) .
(٢) الآية : ٨٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها الإسراء .

هذا ظنٌّ عجيب إلاَّ ـ أي : لكن الاتصال به إنَّما هو ـ بما لَطَف اللطيف : بلطفه ؛ من حيث لا دَرْك ، ولا وَهَم ، ولا إحاطة ؛ إلاَّ إشارةُ اليقين وتحقيق الإيمان. أي : لكن بل بالإشارة إلى ذلك ، يعني بكمال اليقين ومعرفة الله تعالىٰ ودوام الذكر له وقلَّة الغفلة.

صفته ما أخبرتك : وأخبرنا محمد بن الحسين رحمه ٱلله تعالىٰ ؛ قال : سمعتُ عبد الواحد بن بكر ؛ يقول : حدَّثني أحمدُ بنُ محمَّد بنِ علي البرذعيُّ ؛ قال : حدَّثنا طاهرُ بن إسماعيل الرازيُّ ؛ قال : قيل ليحيىٰ بنِ معاذ : أخبرني عن ٱلله عزَّ وجلَّ !؟ . فقال : هو إلهٌ واحد .

فقيل له : كيف هو ؟ . فقال : هو ملك قادر .

فقيل له : أين هو ؟

فقال : هو بالمرصاد.

يرصد أعمال عباده ، لا يفوته منها شيء ليجازيهم عليها.

فقال له السائل : لم أسألك عن هذا !! .

فقال له : كلُّ ما كان غيرَ هذا الذي أخبرتُك به ؛ مما هو ظاهر سؤالك من الماهية والكيفية والمكان المنزَّه عنه تعالىٰ . . كان صفة المخلوق . فأمَّا صفتُه تعالىٰ ! فما أخبرتُك عنه .

ومثل ذلك ما صدر من فرعون لموسى . . لمَّا سأله عن الماهية بقوله (وما رب العالمين) فأجابه بأفعاله الدَّالة عليه ، وإلى ذلك يرجع ما ذكره بقوله :

توهُّم الجهل : وأخبرنا محمَّد بن الحسين ؛ قال : سمعتُ أبا بكر الرَّازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا عليٍّ الرُّوذَباريَّ ؛ يقول : كلُّ ما توهَّمه متوهِّمٌ : تخيَّله بالجهل أنَّه تعالىٰ كذلك ؛ فالعقل يدلُّ علىٰ أنَّه بخلافه . إذ المتوهِّم الجاهل إنَّما يتوهَّم الأجسام .

* * *

مطلب
في معنى معية الله

الدالُّ على ٱلله : وسأل أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ شاهين الجنيدَ ؛ عن معنى « مع » !؟ فيما فيه المعية من الله بالنسبة إلى خلقه ؛ نحو قوله تعالىٰ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[1] ، وقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾[2] ؟! فقال له : « مع » في ذلك علىٰ معنيين : أحدهما النصرة ، والآخر العلم لأنَّه تعالىٰ :

١ـ **مع الأنبياء بالنُّصرة والكِلاَءة** : الحفظ » قال ٱلله تعالىٰ لموسىٰ وهارون ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[3]

٢ـ **ومع العامَّة بالعلم والإحاطة** ، **قال تعالى** ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ﴾ : جماعة يتناجون ﴿ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾[4] .

فقال له ابنُ شاهين : مثلُك يصلحُ أن يكون دالاًّ للأُمَّة على ٱلله تعالىٰ !

فالمعيَّة فيما ذكر لا تكون بمعنىٰ المجاورة ، ولا المقارنة ولا المداناة .

استواؤه على العرش :

١ـ **عند ذي النون** : **وسُئل ذو النون المصريُّ عن قوله تعالى** ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[5] ؟

فقال : أثبتَ ذاتَه بدلالة قوله ﴿ الرحمان ﴾ ، ونفىٰ مكانه بدلالة العقل ، لأنَّه ثابت قبل العرش وغيرِه من سائر الخلق ، **فهو موجودٌ بذاته** . . غير مفتقر إلى غيره ، **والأشياءُ المخلوقة موجودةٌ بحُكْمِه** ؛ كما شاء سبحانه ! فهي مفتقرة إليه .

---

(١) الآية : ٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحديد .
(٢) الآية : ١٢٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .
(٣) الآية : ٤٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها طه .
(٤) الآية : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المجادلة .
(٥) الآية : ٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها طه .

مطلب
في معاني « استوى »

وللفظ « استوى » محامل : (جلس) و(اعتدل) و(استولىٰ) و(علا مكاناً) ؛ أو (رتبة) . و(قصد) ، كقوله تعالىٰ ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾[1] : قصد إلى فعل أمر فيها .

فالأوَّلان والرابع بمعنى علوِّ المكان محالاتٌ في حقِّه تعالىٰ بخلاف ما عداها ! والعرش لغةً سرير الملك ، والسقف .

٢ـ عند الشبلي : وسُئل الشِّبليُّ ؛ عن قوله تعالىٰ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[2] ؟ فقال : الرحمانُ لم يَزَل : قديم ، والعرش محدَث ، والعرش بالرحمان : بقدرته استوىٰ . فهو تعالىٰ مستغنٍ عنه وعن غيره ، وإنَّما خلقه ! إظهاراً لعظمته ؛ لا مكاناً لذاته ، لتعاليه عن ذلك .

وفي تفسير استواء الله باستواء العرش بعدٌ .

٣ـ عند ابن نصير : وسئل جعفر بن نصير ؛ عن قوله تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ؟ فقال : استوىٰ علمُه بكلِّ شيء ؛ من عرش وغيره ، فليس شيءٌ أقربَ إليه من شيء . بخلاف علم الخلق !! وسئلت أم سلمة رضي الله عنها عن قوله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ؟! فقالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والجحود له كفر .

وسئل عنه الإمام مالك رضي الله عنه ؛ فقال : الاستواء منه غير مجهول ، والكيف بة غير معقول ، والإيمان به سُنّة[3] ، والسؤال عنه بدعة .

تنزيه الصادق : وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : مَن زعم أن الله في شيء ؛ أو من شيء ؛ أو على شيء . . فقد أشرك به غيره ، إذ لو كان علىٰ شيءٍ . . لكان

---

(١) الآية : ٢٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

(٢) الآية : ٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : طه .

(٣) طريقة وهَدْي صحيح ، لمقابلته بالبدعة وهي الضلال .

محمولا على غيره ! ولو كان في شيء . . لكان محصوراً محدوداً ! ولو كان من شيء . . لكان محدَثاً !! . واللوازم باطلة ؛ لأنَّها تدلُّ على الجسمية ، والقول بها في حقِّه تعالىٰ كفر .

التدلِّي عند جعفر : وقال جعفر الصادق أيضاً ؛ رضي الله عنه في قوله تعالىٰ ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾[1] : مَن توهَّم أنَّه ﷺ بنفسه : بجسمه دنا ؛ من ربِّه . . جعل ثَمَّ مسافة بينهما ! وهو تعالىٰ منزَّه عنها ، إنَّما التداني : دنوُّه من ربه أنَّه كُلَّمَا قَرُب منه بقلبه برؤيته ومناجاته له ؛ وامتلاءِ قلبه بذكره بحيث غلب عن جميع الخلق بعَّده عن أنواع المعارف وغيرها ، فإنَّ مَن كمُل شغله بجلال الله وكماله بَعُد قلبه عن ذكر غيره ، بل عن ذكر نفسه وإحساسه بكونه ذاكرا ، إذ لا دنوَّ ؛ ولا بُعْدَ في المسألة ! .

توجيه آخر : وقال جماعة : المعنى دنا جبريل من النَّبيِّ ﷺ . وقيل : دنا النبيُّ من الخلق ولان لهم ، وصار كواحد منهم . وقيل : دنا من مكان شريف لم ينله غيره من الخلق ، فيكون الدنوُّ والبُعْد في المسافة .

العين والأين : ورأيت بخطِّ الأستاذ أبي عليٍّ الروذبَاريِّ أنَّه قيل لصوفيٍّ : أين ٱلله ؟ .

فقال للسائل : أسحَقَك ٱلله ـ أي : غيَّبك عن نفسك بكمال شغلك به ـ تطلب مع العينَ أين[2] !؟ . فيه دلالة على أنَّ الصوفيَّ كان في حال الحضرة مع الله بحيث لا يرىٰ في كلِّ متحرِّك ولا ساكن إلا الله ، فصار كالعيان عنده ، فلغلبة ذلك على قلبه دعا للسائل بذلك .

ومن اصطلاحاتهم (السحق والمحق[3]) ! فمن شغله الله بذكره عن نفسه

---

(١) الآية : ٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النجم .

(٢) اعلم أنَّ الطلب تحته جهتان : جهة **الوجوب** ؛ وجهة **الإمكان** ، وهما طلب أسماء الربوبية ظهورها بالأعيان الثابتة ، وطلبُ الأعيان ظهورها بالأسماء ، وظهور الربِّ في شؤونه إجابته للسؤالين ، وحضرتهما حضرة التعيين الأول . **فافهم** ، والله أعلم (عروسي : ١/ ٥٩) .

(٣) هو المحو ، وهو أنواع : =

وبقيت فيه بقيّة يتنعَّم بها . . يسمُّونه « سحقاً » ، ومن غاب عن نفسه بالكلية يسمُّونه « محقا » ، فالمحق أتمُّ من السحق .

ويحتمل أن السائلَ له شوَّش عليه حاله بسؤاله عن ذلك ! فدعا عليه بقوله (أسحقَك الله) : أبعدك . والمعنىٰ الأول أنسبُ .

حقيقة القُرب : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُلَمي ؛ قال : سمعت أبا العبَّاس ابنَ الخشَّاب البغداديَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا القاسم بن موسىٰ ؛ يقول : سمعت محمَّد بن أحمد العثماني ؛ يقول : سمعتُ أحمد بن عمر بن محمد الأنصاريَّ المرسيَّ ؛ يقول : سمعت الخراز ؛ يقول : **حقيقةُ القرب بالقلب من الله تعالىٰ فقدُ حِسِّ الأشياء المخلوقة من القلب وهدوءُ الضمير ـ : القلب ـ إلى ٱلله تعالى** . لأنَّه إذا امتلأ قلب العبد بذكر الله تعالىٰ وبالشغل بمناجاته فَقَدَ حسَّ غيره من قلبه كما مرَّ .

يقول بخلق القرآن : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ محمد بن عليٍّ الحافظ ؛ يقول : سمعتُ أبا معاذ القزوينيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا عليٍّ الدَّلاَّل ؛ يقول : سمعت أبا عبد ٱلله بن فَهْرَمان ؛ يقول : سمعتُ إبراهيم الخوَّاص ؛ يقول : **انتهيت إلىٰ رجل وقد صرعه الشيطان ، وكان هذا الشيطان مؤمنا ؛ بقرينه سماعه الأذان الآتي**[1] !

= ١ ـ **محو أربابِ الظواهر** ؛ وهو رفع أسباب العادة والخصال الذميمة ، **ويقابله الإثبات** الذي هو إقامة أحكام العبادة واكتساب الأخلاق الحميدة .

و٢ ـ **محو أرباب السرائر** ؛ وهو إزالة العلل والآفات ، **ويقابله إثبات المواصلات** ؛ وذلك برفع أوصاف العبد ورسوم أخلاقه وأفعاله بتجلِّيات صفات الحقِّ وأخلاقه وأفعاله ، وإليه الإشارة بخبر ﴿ كنت سمعه . . ﴾ .

و٣ ـ **محو الجمع** ؛ وهو فناء الكثرة في الوحدة .

و٤ ـ **محو العبوديَّة وعينِ العبد** ؛ وهو إسقاط إضافة الوجود إلى الأعيان ، إذ هي شؤون ذاتية ظهرت في الحضرة . فهي معلوماتٌ معدومةُ العين إلاّ أن الوجود الحق ظهر فيها (عروسي : ١/ ٦٠ ؛ باختصار) .

(١) لأنَّ غير المؤمن منهم إذا سمع الأذان ولّى مدبراً وله ضراط ؛ كما في الحديث المتفق عليه عند البخاري : ٦٠٨ ، ومسلم : ١٩ ـ ٣٨٩ ؛ عن أبي هريرة وهو قوله ﷺ : « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ ٱلشَّيْطَانُ لَهُ ضُراطٌ حَتَّىٰ لاَ يَسْمَعَ التَّأْذِينَ . . . » .

ولو استدلَّ على إيمانه بإقامة حدِّ القتل على الكافر بقوله بخلق القرآن لكان أبلغَ وأهدى .

وقد آمن بعض الجنِّ لَمَّا سمع قراءة النبيِّ ﷺ كما نصَّ عليه القرآن[1] . **فجعلت أُؤذِّن في أذنه ، فناداني الشيطان من جوفه بقوله (دعني أقتله ؛ فإنه يقول : القرآنُ مخلوق)** . فيه ١ـ كلام الجنِّ لبني آدم ؛ وهو من خوارق العادات ، وفيه ٢ـ أن القول بخلق القرآن كفرٌ ، وأنَّ قائله يستحقُّ القتل .

سِرُّ ٱللهِ : وقال أحمد بن عطاء الرُّذَباديُّ : إنَّ ٱللهَ تعالىٰ لمَّا خلق الأحرف[2] في الهواء جعلها سِرّاً له : لم يُطلِع عليها أحداً غيرَ جبريل حين نزل بها لإفهام معانيها القائمة بذاته تعالىٰ ، **فلما خلق آدم عليه السلام بثَّ فيه ذلك السرَّ** : جعل فيه تلك الحروف وأظهرها له ، **ولم يبثَّ ذلك السرَّ في أحد من الملائكة** ، ولا غيرهم غيرِ جبريل كما عُرف ، **فجرت الأحرف على لسان آدم عليه السلام بفنون الجَرَيان وفنونِ اللغات** ؛ قال تعالىٰ ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[3] **فجعلها ٱللهُ تعالىٰ صوراً لها** ـ : للفنون المذكورة ـ والمراد المعاني ـ أي : جعلها قوالب لمعانيها ـ بأن يفهم معانيها منها ، فقد صرَّح ابن عطاء بهذا القولِ أي : فيه ؛ **بأن الحروفَ مخلوقة** . ولا حاجة للفظ « القول »! مع أنه ساقط من نسخة ، وفي نسخة تقديم « القول » على « ابن عطاء » .

لسان الفعل : وقال سهل بن عبد ٱلله التُّستَري : إنَّ الحروف لسان فِعل ، لا لسانُ ذات : دالَّة على الفعل ؛ لا على الذات ، **لأنَّها فعل وجد في مفعول** ، لا صفة حقيقية قائمة بذات الفاعل .

قال القشيري : وهذا أيضاً من سهل تصريحٌ بأنَّ الحروف مخلوقة . ففي

---

(١) وهو قوله تعالى ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ [الجن : ١ ، ٢] .

(٢) قال بعضهم : هي عبارة عن الشؤون الذاتية الكامنة في غيب الغيوب ؛ كالشجرة في النواة ، ولذلك الإشارة بقول بعضهم :

كُنَّا حُـرُوفـاً عَـالِيَـاتٍ لَـمْ تُعَـلْ ... مُتَعَلِّقَـاتٍ فِـي ذُرَىٰ أَعلَـى ٱلقُلَـلْ

أَنَا أَنْتَ فِيْهِ، وَنَحْنُ أَنْتَ، وَأَنْتَ هُوْ ... وَٱلْكُـلُّ فِـي هَـوٍّ فَسَـلْ عَمَّـنْ وَصَـلْ

فافهم (عروسي : ١/ ٦١) .

(٣) الآية : ٣١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

ذلك ردٌّ على مَن زعم أنَّ الله يتكلَّم بالحروف والأصوات ، إذ يستحيل أن يقوم الحادث بالقديم .

التوكل والتوحيد : **وقال الجنيد في (جوابات مسائل الشاميين) : التوكُّل عَمَل القلب**[1] **، والتوحيد قول القلب** ، كما أنه قول اللسان .

قال القشيري : **هذا قول أهل الأصول : إن الكلامَ حقيقة هو المعنىٰ الذي قام بالقلب . . من معنى الأمر والنهي ، والخبر والاستخبار** . وهٰذا هو الكلام النفسيُّ المعبَّر عنه بـ(ما صدقات اللسان) ، وأما الكلام في اللساني فمجاز ! هذا هو **المختار** . وقيل : حقيقة في اللساني . وقيل : مشترك بينهما ، وبكلٍّ حال . . فالكلام يطلق عليهما ، قال تعالىٰ ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾[2] : بألسنتنا مما يخالف الحق ! فجعل القول في النفس واللسان جميعاً .

علم الحقِّ : **وقال الجنيد أيضاً في (جوابات مسائل الشاميين) أيضاً : تفرَّد الحقُّ بعلم الغيوب** ؛ لتعلُّق علمه بالواجب والجائز والمستحيل ، **فعلم ما كان ، وما يكون ، وما لا يكون . . أن لو كان** ـ حالة كونه ـ **كيف كان يكون** : ممَّا يصحُّ أن يكون .

فَرَّق رحمه الله تعالىٰ بهذا مع ما قبله بين العلم وكلام النفس . . فإن مَن أنكر كلام النفس يردُّه تارة إلى العلم ، وتارة إلى الإرادة .

تسليم الموحِّد : **وقال الحسين بن منصور : مَن عرف الحقيقةَ في التوحيد** ؛ بأن عرف إفراد الله تعالىٰ ذاتاً وصفة وفعلاً ، وأنه لا يتغيَّر معلوم ؛ ولا يتبدل مقسوم . . **سَقط عنه الاعتراض على ما يشاهده**[3] ، والسؤال بنحو « لم » ،

---

(١) لأنَّه التفويض إلى مَن له الأمر كلُّه ، واللسان ترجمان ، والتوحيد قول القلب ، لأنَّه قوله (أذعنت وصدَّقت بأنه إله واحد في ذاته وصفته وفعله) .
واعلم أنَّ المتوكِّل مَن يرى الحقَّ في صور الأسباب فاعلا مختاراً لجميع الأشياء التي تنسبها المحجوبون إليها، فهو يكل الأمر إلى من له الأمر ويرضى به وكيلاً (عروسي : ١/ ٦٢) .

(٢) الآية : ٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المجادلة .

(٣) أي لم يقع منه اعتراض على ما يشاهده بـ(لم كان كذا ؟ أو : كيف كان كذا ؟) وذلك =

و« كيف » . إذ لا يُسْأل عما يفعل .

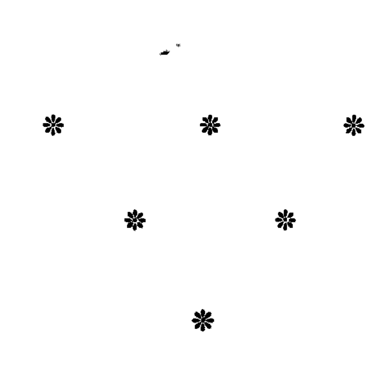
أشرف المجالس : أخبرنا محمد بن الحسين ؛ قال : سمعتُ منصورَ بن عبد ٱلله ؛ يقول : سمعت جعفر بن محمد ؛ يقول : قال الجنيد : **أشرفُ المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في مَيْدان التوحيد** . فتفكُّرُ العبد في عظمة الله وجلاله ووحدانيته في قدمه وبقائه واستغنائه عن خلقه ونحو ذلك . . أشرفُ من تفكُّره في الجَّنة وما فيها من الخيرات ، أو في النار وما فيها من أنواع العذاب .

الروح حادثة : **وقال الواسطي : ما أحدثَ ٱلله شيئاً أكرمَ** ـ وفي نسخة : أشرف ـ **من الروح** ! صرَّح في هذا **بأنَّ الروح مخلوقة** . فيه ردّ على من زعم قِدَم الأرواح ؛ سواء في ذلك روح اليقظة وروح الحياة .

قال الأستاذ الإمام زين ـ وفي نسخة : جمال ـ **الإسلام** القشيري[**أبو القاسم رحمه ٱلله**][م] :

دلَّت هذه الحكايات على أنَّ عقائدَ مشايخ الصوفية توافقُ أقاويلَ أهل الحق في مسائل الأصول . كما تقرَّر .

وقد اقتصرنا على هذا المقدار خشيةَ خروجنا عما آثرناه : اخترناه من **الإيجاز والاختصار** .



= لتحقُّقهِ بعلم مظاهر أحديَّة الحقِّ تعالى ، ومن جملة ذلك أنه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ .

فصل
في بيان عقائد الصوفية
في مسائل التوحيد

قال الأستاذ الإمام زين الإسلام القشيريُّ أدام ٱلله عزَّه : وهذه - إشارة إلى موجود ذهناً - **فصولٌ** : **مسائل تشتمل على بيان عقائدهم في مسائل التوحيد** . . **ذكرناها على وجه الترتيب الآتي ذكره** .

قال شيوخ هذه الطريقة ؛ علىٰ ما يدلّ عليه متفرِّقاتُ كلامِهم ، **ومجموعاتها** - الأولىٰ : ومجموعاته - **ومصنَّفاتهم في التوحيد** :

الحقُّ سبحانه : **إنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى موجودٌ** ، لأنَّه الموجد لغيره ، والمعدوم لا يوجد شيئاً ، **قديم** : لا أوّل لوجوده ، **واحدٌ** : لا مثل له ، **حكيم** : ذو حكمة . وتقدَّم بيانها . وعن المعتزلة تفسير الحكيم بالمُحكِم : المتقن لأفعاله ، فهو عندهم : صفة فعل ، وعندنا : صفة ذات ، **قادرٌ** : لا يعجزه شيء ، **عليمٌ** : لا يعزب عن علمه شيء ، **قاهرٌ** : غالب ، **رحيمٌ** بعباده ، **مريدٌ** لما يكون ، **سميعٌ** ؛ **مجيدٌ** : كريم ، **رفيعٌ** : عظيم ، **متكَلِّمٌ** ، **بصيرٌ** ، **متكبِّر** : متعظِّم على غيره ، **قديرٌ** - المناسب لجمعه قادراً مع قدير : أن يجمع عالما مع عليم ، ورحمان مع رحيم ونحو ذلك - **حيٌّ** لا يموت ، **أحدٌ** ، بمعنىٰ واحد ، وقيل : واحد في ذاته ، واحد في صفاته ، وقيل بالعكس . وقيل : واحد لا مثل له ، واحد لا جزء له . وقيل : بالعكس - **باقٍ** على الدوام ، **صَمَدٌ** : مقصود في الحوائج على الدوام ، **لأن بديهة العقل جازمة بأنه تعالىٰ مُحدِث للعالَم على هذا النمط البديع مع ما يشتمل عليه من الأفعال المتقنة** ،

لا يكون بدون هذه الصفات على أن أضدادها نقائص يجبُ تنزيهُ الله عنها .

صفاته : وأنَّه تعالىٰ

عالم بعلم ؛ هو صفة أزلية تنكشف المعلومات عند تعلُّقها بها .

قادر بقدرة ؛ هي صفة أزلية تؤثر في المقدورات عند تعلُّقها بها .

مريدٌ بإرادة ؛ هي صفة توجب تخصيص أحد المقدورين في أحد الأوقات بالوقوع ، مع استواء نسبة القدرة إلى الكلِّ ، وكون تعلُّق العلم تابعاً للوقوع .

مطلب
في الإرادة والمشيئة

والإرادة مرادفة للمشيئة . وقيل : إنَّها تتعلَّق بالإيجاد والإعدام ، والمشيئة لا تتعلَّق إلا بالإيجاد وإفادةِ الشيئية التي هي الوجود ، **فالإرادةُ أعمُّ منها** .

سميع بسمعٍ ؛ هو صفة أزليّة تتعلَّق بالمسموعات .

بصير ببصر ؛ هو صفة أزليّة تتعلَّق بالمبصرَات فتدرَك إدراكاً تامَّاً ؛ لا على طريق التَخيُّل والتوهُّم ولا على طريق تأثُّر حاسَّة ووصول هواء .

متكلِّم بكلام ؛ هو صفة أزليّة قائمة به . وتقدَّم بيانه قبيل هذا الفصل ص٦٢ .

حيٌّ بحياة ؛ هي صفة أزليّة توجبِ صحَّة العلم .

باق ببقاء ؛ هو صفة أبديّة قائمة به ؛ لا آخر لوجودها ، كما أنَّ القدم صفة أزليّة لا أوّل لوجودها .

يداه : وله يَدَان ، قال تعالىٰ ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ ﴾[1] وقال ﴿ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾[2] لا بمعنىٰ الجارحة ! لاستحالتها في حقِّه ، بل بمعنىٰ نعمتَيْ الدنيا والآخرة ، أو بمعنىٰ القدرة والنعمة ، يقال (له يد وسطوة) : قوة . و(له عليَّ يدٌ) : نعمة . وإلى ذلك أشار بقوله :

---

(١) الآية : ١٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الفتح .

(٢) الآية : ٧٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : صٓ .

هما صفتان له ، **يخلق بهما ما يشاء ـ سبحانه ـ على التخصيص** . كما خلق آدم بقدرته ونعمته ، وخصَّصه بما خلقه عليه بإرادته .

وجهه وصفات ذاته : **وله الوجه** . قال تعالىٰ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[1] لا بمعنى الجارحة ، بل بمعنى الذات أي : إلاَّ ذاته . ويقال (فعلتُه لوجهك) أي : لك ولأمرك وحرمتك وجلالك .

وصفاتُ ذاتِه ؛ كالعلم والقدرة **مختصَّة بذاته** ، لا تجاوزه إلى غيره ، لأنَّها قديمة كما سيأتي ، **لا يقال هي هو ، ولا هي أغيار له !** : ليست عينَه ولا غيرَه ، لأنَّ من قال (هي هو) فقد نفىٰ الصفات ! . ومن قال (هي غيره) فقد جوَّز مفارقتها له ! . فلا تكون قديمة مع أنها قديمة كما قال ، **بل هي صفاتٌ له أزليَّة** : قديمة نسبة إلى الأزل ؛ وهو القدم . ويقال : نسبة إلى قولهم (القديم لم يزل) فاختصروا فقالوا (يزلية) ، ثم أُبدلت الياء « أَلِفاً » لأنَّها أخفُّ ؛ فقالوا (أزلية) ، كما قالوا في نسبة الرمح إلىٰ ذي يزن « أزنيٌّ » .

ونعوت له **سرمدِيَّة** : دائمة ، ولا استحالة في تعدُّد قدماء من ذات وصفات ، إنَّما المستحيل تعدُّدها من ذواتٍ ؛ كما نبَّه عليه بقوله :

تنزيهه : **وأنَّه أحديُّ الذات ، ليس يشبِهُ شيئاً من المصنوعات ، ولا يشبهه شيءٌ من المخلوقات** : لا يماثل أحدهما الآخر . وتعبيره أوَّلا بـ(المصنوعات) وثانياً بـ(المخلوقات) !! تفنُّن .

ونبَّه بقوله (أزلية) على الردِّ على ما زعمه الكَرَّامية ؛ من أنَّ صفاتِه تعالىٰ حادثةٌ .

صفات الأفعال : وخرج بصفات الذات صفاتُ الأفعال . . كالخلق والرَّزْق ، فليست أزلية ؛ خلافاً للحنفية ، بل هي حادثةٌ : متجددة ، لأنَّها إضافات تعرض للقُدرة ، وهي تعلقاتُها بوجود المقدورات لأوقات وجوداتها ، ولا محذور في اتصافه تعالىٰ بالإضافات ؛ ككونه قبل العالم ومعه وبعده ! وتقدَّم تحرير ذلك .

---

(١) الآية : ٨٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : القصص .

مخالفته للحوادث : ليس بجسم ، ولا جوهر ولا عرض ، ولا صفاتهُ أعراض ، لما في ذلك من الحدوث المنزَّه عنه ذاتُه تعالىٰ وصفاتُه ، إذ الجسم متركِّب ومتحيِّز ، والجوهر اسم للجزء الذي لا يتجزَّأُ ؛ وهو متحيِّزٌ . وجزء من الجسم والعرض لا يقوم بذاته ؛ بل يفتقر إلى محلٍّ يقوّمه ، فيكون ممكناً . . وكلُّ ذلك أمارة الحدوث .

ولا يتصوَّر في الأوهام ، ولا يتقدَّر في العقول ، لأنَّ ذلك من خواصِّ الأجسام يحصل لها بواسطة الكميات والكيفيات ، وإحاطة الحدود والنهايات .

ولا له جهة ولا مكان ، ولا يجري عليه وقت وزمان . لذلك ؛ ولأنَّه لو كان له مكان[1] . ١ـ فأما في الأزل فيلزم قِدَمُ الحيِّز ، أو ٢ـ لا ؛ فيكون محلاً للحوادث .

والزمان عند المتكلمين عبارةٌ عن متجدِّد يقدَّرُ به متجدِّدٌ آخر .

وعند الفلاسفة عبارةٌ عن مقدار حركةِ الفلك الأعظم .

والله تعالىٰ منزَّه عن ذلك كلِّه .

تبدُّلُ أوصافه : ولا يجوز في وصفه زيادة ولا نقصان ، لأنَّ صفاته لا تتبدَّل ولا تتغير .

عموم كماله : ولا يخصُّه هيئةٌ وَقَدٌّ ، ولا يقطعه نهايةٌ وحدٌّ ، ولا يحلُّه حادث ، ولا يحمله على الفعل باعث ، ولا يجوز عليه لونٌ ؛ ولا كون ، ولا ينصرُه مددٌ ولا عون ! لما في ذلك من الحدوث .

إيضاح : وما ذكره هنا ، وفيما مرَّ ، وفيما يأتي من التنزيهات . . بعضه يغني عن بعض ، إلاَّ أنَّه حاول التوضيح في ذلك ! قضاءً لحقِّ الواجب في باب التنزيه ، وردًّا على المشبِّهة والمجسِّمة وسائر فرق الضلال والطغيان بأبلغ وجه وأوكده ، فلم يبال بذلك .

---

(١) جواب « لو » محذوف يعلمُ مما بعده . وتقدير الكلام : فلا يصحُّ ولا يعقل . لأنّه إما أن يكون في الأزل . . (عروسي : ١/٦٦) .

تكميل : ولا يخرج عن قدرته مقدورٌ ، ولا ينفكُّ عن حكمِه : عن تكوينه وإيجاده
مفطور : مخلوق ، **ولا يعزُب . يغيب عن علمه معلومٌ** ، وذلك لأنَّ العجز عن البعض ؛ أو الجهلَ به نقصٌ وافتقار ، مع أن النصوص القطعية ناطقة بعموم قدرته وعلمه ، فهو على كلِّ شيء قدير ، وبكل شيء عليم ؛ خلافا لمن زعم خلاف ذلك[1] . هم القائلون بعدم علم الجزئيات .

استقلال فعله : ولا هو على فعله ؛ كيف يصنع وما يصنع : من حيث وصفه ، ومن حيث إيجادُه ملوم . . ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾[2]

لا يقال له (أين هو) ، ولا (حيث هو) ، ولا (كيف هو) ، لأنَّه منزَّهٌ عن المكان والكيفية ؛ من اللون والطعم والرائحة ، والحرارة والرطوبة ؛ وغيرها من صفات الأجسام وتوابعِ المزاج .

وجوده وبقاؤه : ولا يستفتح له وجودٌ ؛ فيقال (متى كان) ، ولا ينتهي له بقاء ؛ فيقال (استوفىٰ الأجل والزمان) . لما مرّ أنه قديم لا ابتداء لوجوده . . ولا انتهاء له .

أفعاله : ولا يقال له (لمَ فعل ما فعل) : الذي فعله ، **إذ لا علَّة لأفعاله ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ ، ولا يقال له (ما هو) ، إذ لا جنسَ له فيتميَّزُ عن أنواعه بأمارة عن أشكاله** : أمثاله المشاركين له في الجنس ، فلا تعرف ماهيته . . فلا يسئل عنها ، ولذلك قال فرعون لموسىٰ (وما رب العالمين ؟) أجابه

---

(١) كالمعتزلة ممن يقول بأن العبد يخلق أفعاله الاختيارية ، وكأهل الضلال والكفر (الفلاسفة) ممن يقصُر العلم القديم على الكلِّيَّات ويمنع تعلُّقه بالجزئيات **فتدبر** .

(عروسي : ١/٦٦) .

وهم بذلك كفرة بغير شكٍّ ، ولهم ضلالات غيرها :

بِثَلَاثَةٍ كَفَرَ ٱلفَلَاسِفَةُ ٱلعِدَا   إِذْ أَنْكَرُوهَا وهي حَقًّا مُثْبَتَهْ
عِلْمٍ بِجُزْئِيٍّ ، حُدُوثِ عَوَالِمٍ   حَشْرٍ لأَجْسَادٍ وَكَانَتْ مَيِّتَهْ

وقد وقع في كلام ابن عبَّاس رضي الله عنهما : أشهد أن الذي **أحصى رمل عالج** ما جعل في مسألة نصفا ونصفا وسدساً .

(٢) الآية : ٢٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

بالصفة[1] فقال ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2] تعجب فرعون وقومه من عُدُوله إلى ما لا يطابق السؤال ؛ فقال لمن حوله (ألا تستمعون !) ولم يعلم لغباوته أنه المخطئُ في سؤاله عن ماهيته ! وأن الذي أتىٰ به موسى في الجواب هو أقصىٰ ما يمكن ! فلما أصرَّ موسى على جوابه بالصفة ثانياً . . نسبه فرعون إلى الجنون . وإنما الخطأ والجنون في مقالته هو !!

رؤيته : **يرىٰ** ؛ **لا عن مقابلة** وثبوت مسافة بينه وبين الرائي له ، وقياس الغائب على الشاهد فاسدٌ . وقوله تعالىٰ ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[3] : لا تحيط به كما تحيط بغيره . وتقدم مع زيادة . **ويرىٰ** هو **غيرَه لا على** ـ وفي نسخة : عن ـ **ممَاقلة** ؛ خلافاً للمعتزلة ، لأنَّه تعالىٰ منزَّه عن المُقْلة كما مرَّ ٤٨ .

صنعه : **ويصنعُ** الشيء ؛ **لا بمباشرة ومزاولة** : معالجة . كما مرّ ٤٧ .

أسمائه وصفاته : **له الأسماء الحسنىٰ** ، **والصفاتُ العلا** ؛ كما يشهد به العقل والنقل ، **يفعل ما يريد** بنصِّ القرآن ، **ويُذِلُّ لحكمه العبيد** : عبيده .

إرادته : **لا يجري في سلطانه** : مملكتِه **إلاَّ** ما يشاء ، **ولا يحصُل في ملكه** ؛ من إيمان وكفر وغيرهما **غيرُ ما سبقَ به القضاءُ** . وهو إرادته الأزلية المتعلِّقَة بالأشياء . . على ما هي عليه فيما لا يزال .

استيضاح : لا يقال (لو كان الكفر بقضاء الله تعالىٰ . . لوجب الرضا به ، لأنَّه يجب الرضا بالقضاء . واللازم باطل ، لأنَّ الرّضا بالكفر كفر)!

جوابه : لأنَّا نقول : الكفر مقضيٌّ ؛ لا قضاء ، والرضا إنَّما يجب بالقضاء ؛ لا بالمقضيِّ ، بل يجب بالمقضيِّ أيضاً . . إن كان خيراً ، وكذا إن كان شرًّا ؛ لكن لا من حيث إنَّه شرٌّ ، بل من حيث إنَّه مقضيٌّ ، لأنَّه حينئذ يرجع إلى القضاء ، فالعبدُ يرضىٰ به من حيث إنَّه فعل الله ومراده ، ويكرهه وينكره من

---

(١) للإشارة إلى تجهيله وتزييفه ، إذ حقُّ السؤال أن يكون عن الصفة ؛ لا عن الذات (عروسي : ١/٦٦) .

(٢) الآية : ١٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الرعد .

(٣) الآية : ١٠٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

حيث إنَّه كسبه . . . وقد فعله باختياره ، لأنَّ الله لم يكلِّفه إلاّ بما يطيقه بعد أن نصب له الدلائل والأمارات ، وأزاح عنه العلل والآفات .

نفاذها : **ما عَلِم أنَّه يكون من الحادثات أرادَ أن يكون فيكُون** ؛ وإن جاز أن لا يكون ، **وما عَلِم أنَّه لا يكون** ، **ممَّا جازَ أن يكون** .. **أرادَ أن لا يكون** فلا يكون ؛ وإن جاز أن يكون ، فالإرادة تابعة للعلم .

خلقه : **خالقُ أكساب العباد** ـ في نسخة : العبيد ـ **خيرها وشرِّها** .

ومبدعُ : مخترع **ما في العالم** مع العالم ؛ لا على مثال سابق **من الأعيان والآثار** : **قُلِّها وكُثرِها** : قليلها وكثيرها .

استيضاح : لا يقال (فيكون الكافر مجبوراً على كفره ، والفاسق على فسقه . . فلا يصحُّ تكليفهما بالإيمان والطاعة) ! !

جوابه : لأنَّا نقول : الله تعالىٰ أراد منهما الكفر والفسق باختيارهما ؛ فلا جبرَ ، كما أنَّه علم منهما الكفر والفسق باختيارهما ! فصحَّ تكليفهما بما ذكر .

تفضُّله برسله : **ومرسِلُ الرُّسل إلى الأمم** ؛ ليبينوا لهم ما يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا ؛ **من غير وجوب عليه**، إذ لا يجب عليه شيء ! خلافاً للمعتزلة[1] .

تكليف عباده : **ومتعَبِّدُ الأنام** : طالب منهم **على لسانِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا سبيل** : طريق **لأحد إليه باللَّوم والاعتراضِ عليه** ـ وفي نسخة : إليه وهي بمعنىٰ عليه ـ أو متعلقة بـ« سبيل » والضمير راجع إلى « ما » .

تأييده لنبيِّه : **ومؤيِّدُ** : مقوِّي **نبيِّنا محمَّداً** ﷺ **بالمعجزات الظاهرة** ، جمع معجزة ؛ وهي أمر خارق للعادة على يدي مدَّعي النبوة ؛ عند تحدِّي المنكرين . . على وجه يعجزهم عن الإتيان بمثله .

والآيات : العلامات **الزاهرة** ـ وفي نسخة : الباهرة ـ وقوله **بما أزاح به العذر** ، **وأوضح به اليقين والنُّكر** . . متعلق بـ« مؤيد » ـ وفي نسخة بدل النكر : الذكر ـ، **وحافَظَ بَيْضة الإسلام** : عزَّهُ وجماعته **بعد وفاته** ﷺ **بخلفائه الراشدين** رضي الله عنهم .

---

(١) حيث يقولون بوجوب اختيار الصلاح والأصلح لعباده وخلقه . وهو باطل .

عصمة الأمة : **ثمَّ** هو تعالىٰ بعد الخلفاء **حارسُ الحقِّ** وناصره **بما يوضِّحهُ من حُجَج الدِّين على ألسنة أوليائه** ، **عَصَم الأمة الحنيفية** : المِلَّة المستقيمة **عن الاجتماع على الضلالة** ، لقوله ﷺ : « لاَ تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَىٰ ضَلاَلَةٍ » رواه الترمذي وغيره[1] . **وحَسَم** : قطعَ **مادَّة الباطل بما نصَبَ من الدَّلالة** ، **وأنجزَ ما وعد من نُصرة الدين بقوله**

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[2] .

ثمرة ما تقدم : **فهذه** المذكورات فيما مضىٰ **فصولٌ** ؛ بناء على أنَّ أقل الجمع اثنان ، إذ لم يتقدَّم إلاَّ فصلان ! أو أراد بـ« فصول » مسائل **تشيرُ إلى أصول المشايخ على وجه الإيجاز** .

معنى التوفيق : **وبالله** لا بغيره **التوفيق** ؛ وهو : خلقُ قدرة الطاعة ، وعكسه الخُذْلان؛ فهو خلق قدرة المعصية . والتوفيق المختصُّ بالمتعلِّم شدَّة العناية ، ومعلم ذو نصح وذكاء القريحة وخلوّ الطبيعة من الميل لغير ما يلقى إليها .

* * *

* *

*

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما : ٢١٦٨ « إِنَّ ٱللهَ لاَ يَجْمَعُ أُمَّتِي ـ أو قال : أُمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ ـ عَلَى ضَلاَلَةٍ » وقال الترمذي : غريب .
وأخرجه ابن ماجه : ٣٩٥٠ ؛ عن أنس بلفظ : « إِنَّ أُمَّتِي لَنْ تَجْتَمِعَ عَلَىٰ ضَلاَلَةٍ . . . » .
وأخرجه أحمد والحاكم وغيرهما عن أبي ذر وغيره بقريب من ألفاظه .

(٢) الآية : ٣٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

باب
في ذكر مشايخ[1] هذه الطريقة[2] وما يدل من سِيَرهم :
طرقهم ، وأقوالهم على تعظيم الشريعة ؛ وهي ماشرعه الله لعباده من الدين

أفضل التسمية : اعلموا رحمكم ٱلله تعالى أنَّ المسلمين بعد رسول الله ﷺ : لم يَتَسَمَّ أفاضِلُهم في عصرهم بتسميةٍ عَلَمٍ ؛ من الأعلام سوىٰ صحبة رسول الله ﷺ ؛ إذ لا فضيلة بعد فضائل الله ورسوله فوقها ، فقيل لهم « الصحابة » ، ولَمَّا أدركهم أهل العصر الثاني سُمِّي مَن صَحِبَ الصحابة « التابعين » ، ورأوا في ذلك أشرفَ سِمَة : علامة ، ثم قيل لمن بعدهم « أتباع التابعين » .

ثم اختلف الناس بعدهم ، وتباينت المراتب فيهم ؛ فقيل لخواصِّ النَّاس ممَّن لهم شِدَّة عناية بأمر الدين « الزهَّاد » و« العبَّاد »، ثم ظهرت البدع[3] ، وحصل التداعي بين الفِرَق ، فكلُّ فريق ادَّعوا أنَّ فيهم زُهَّاداً ، فانفرد خواصُّ أهل السنَّة المراعون أنفاسهم مع ٱلله تعالى ، الحافظون قُلوبهم عن طوارق الغفلة باسم « التصوّف » . .

تعريف التصوف : وهو عِلْم تُعرَف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق ؛

---

(١) هم العارفون المحقِّقون الذين أشهدهم الحقُّ حقائق بالبراهين القطعية ؛ أو بالمشاهدات الكشفية ؛ أو بالمعاينات القلبية رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم . (عروسي : ١/ ٦٨) .

(٢) المعنوية المعبَّر بها عن القيام بوظائف العبادات ، والمتوصَّل بها إلى عليِّ المقامات ؛ كالزهد ، والورع . . وغيرهما (عروسي : ١/ ٦٨) .

(٣) جمع بدعة ؛ وهي خصلة لم يتَّضح لها شاهد . . من كتاب ؛ ولا سنَّة ؛ ولا قياس ؛ ولا إجماع ، والتداعي التنازع من غير دليل . (عروسي : ١/ ٦٩) .

وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية ، وسيأتي له في بابه تعريفات !

من مبادئه : **وموضوعُه** التزكيةُ والتصفية المذكوران ، **وغايته** نيل السعادة الأبدية ، **ومسائله** ما يذكر في كتبه من المقاصد ، وهذا العلم هو علم الوراثة الذي هو نتيجة العمل المشار إلى ذلك بخبر : « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ ٱللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »[1] . وعلم الوراثة هو الفقه في الدين ؛ وهو الحكمة التي من أوتيَها فقد أوتي خيراً كثيراً[2] . قيل للحسن البصري (كذا قال الفقهاء) !! فقال : وهل رأيت فقيهاً قط ؟!. إنَّما الفقيه الزاهد في الدنيا[3] ، القائم ليله ، الصائم نهاره ؛ الذي لا يداري ولا يماري ، ينشر حكمة الله ، فإن قُبلت منه . . حَمِد الله ، وإن ردّت عليه . . حمد الله .

تمهيد : وَٱشتهر هذا الاسم : اسم التصوّف **لهؤلاء الأكابر قبل المئتين من الهجرة .**

ونحن نذكر في هذا الباب أساميَ جماعةٍ من شيوخ هذه الطائفة ؛ من الطبقة الأولى . . منهم إلى وقت المتأخرين منهم ، ونذكر جُمَلاً من سِيَرهم ، وأقاويلهم ؛ بما يكون فيه تنبيهٌ على أصولهم وآدابهم ـ إن شاء ٱلله تعالى ـ

* * *

* *

*

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » ؛ عن أنس رضي الله عنه .

(٢) تذكير بقوله تعالى ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [٢٦٩/ البقرة] .

(٣) في بعض رواياته زيادة : الراغب في الآخرة . . (انظر رد المحتار : ١/ ٢٦) .
وأخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » : ١٣٨٧ ؛ عن أنس رضي الله عنه .

فمنهم ١ ـ أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور

أصله : من كُورة بلخ ـ رضي ٱلله تعالى عنه ـ.

سبب توبته : كان من أبناء الملوك ، فخرج يوماً متصيِّداً : مريداً الصيد ، فأثار ثعلباً ؛ أو أرنباً : وثب عليه . . وهو في طلبه ، فهتف : صاح به هاتف : من مَلَك أو وليٍّ ، أو خاطرٍ وقع في قلبه أُلْهِمَه (يا إبراهيم ؛ ألهذا خُلقتَ ، أم بهذا أمرت !؟) .

ثم هتف به أيضاً من «قَربوس» سَرجه : ألهمه (وٱلله ؛ ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت) ! ! فنزل عن دابّته ، وصادف راعياً لأبيه ، فأخذ جُبَّةً للرَّاعي من صوف ، ولبسها وأعطاه فرسه وما معه .

من سِيرته : ثم إنَّه دخل البادية ، ثمَّ دخل مكَّة ، وصحب بها سفيان الثوري ، والفضيل بن عياض ، ودخل بعد ذلك الشام لطلب الحلال ومات بها رحمه الله بالجزيرة في الغزو ؛ وحمل إلى صُوْر ؛ وهي مدينة بساحل الشام ؛ أو ببلاد الروم على ساحل البحر ، فدفن بها سنة : إحدى وستين ومئة .

كسبه : وكان يأكل من عمل يده ؛ مثل : الحصاد ، وحفظ البساتين ، وغير ذلك .

لقاؤه بالخضر : وأنه رأىٰ في البادية رجلاً اسمه داود البلخي علَّمه « اسم ٱلله الأعظم » فدعا به بعده ؛ فرأىٰ أحمد[١] الخضر عليه السلام ، وقال له الخضر : إنَّما علَّمك أخي داود اسمَ ٱلله الأعظم . ـ وفي نسخة : إنَّما علمك اسم الله الأعظم أخي داود ـ والمراد منهما[٢] تعيين المُعلِّم والحصر فيه ، والثانية أولىٰ لتفيد ذلك بالوضع .

---

(١) هكذا في الأصل . فلعلها إبراهيم !!

(٢) من الروايتين ، أو النسختين .

بدء أمره : أخبرنا بذلك الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلمي رحمه ٱلله ؛ قال : حدَّثنا محمَّد بن الحسن بن الخشاب ؛ قال : حدَّثنا أبو الحسن عليُّ بن محمد المصري ؛ قال : حدثنا أبو سعيد الخراز ؛ قال : حدثنا إبراهيم بن بشار ؛ قال : **صحبت إبراهيم بن أدهم ، فقلت : خَبِّرني** ـ وفي نسخة : أخبرني ـ **عن بدء أمرك . فذكر هذا** .

مطلب
في اسم الله الأعظم

قيل : اسم الله الأعظم ما دعوتَه به حالةَ تعظيمك له ، وانقطاع قلبك إليه ، فما دعوتَه في هذه الحالة استجيب لك ، لظاهر قوله تعالىٰ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾[١] والمشهور أنه اسم معيَّن يُعلِّمُه الله من يشاء من خواصِّه ؛ قال البندنيجي[٢] : وأكثر أهل العلم على أنه « الله تعالىٰ » . واختار النووي تبعاً لجماعة أنَّه « الحيُّ القيوم » قال : ولذلك لم يرد إلاَّ قليلاً في القرآن في ثلاثة مواطن : « البقرة » ، و« آل عمران » ، و« طٰه »[٣] .

من كلامه : وكان إبراهيم بن أدهم كبيرَ الشأن في باب الورع ، يُحكىٰ عنه أنَّه قال : **أطب مطعمَك . . ولا حرج عليك أن لا تقوم الليل ؛ ولا تصوم النهار** نفلاً ! لأنَّ طيب المطعم كصلاح القلب إذا صَلُح صَلُح الجسد كلُّه .

من دعائه : وقيل : كان عامَّة[٤] دعائه : **اللهم انقلني من ذُلِّ معصيتك إلى عِزِّ طاعتك** . . . ـ وفي نسخة : من ذلِّ المعصية إلى عز الطاعة ـ .

---

(١) الآية : ٦٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النمل .

(٢) هو أبو نصر محمد بن هبة الله البندنيجي (فقيه الحرم) ؛ جاور بمكة نحواً من أربعين سنة ، وهو من كبار أصحاب الشيرازي (صاحب المهذب ؛ متن المجموع) . له تصانيف محمودة ؛ منها « المعتمد » و« الجامع » كلاهما في الفقه الشافعي ، توفي باليمن سنة خمس وتسعين وأربع مئة .

(٣) ففي الأولى لآية الكرسي ٢٥٥ ؛ وفي الثانية مطلع السورة ﴿ الٓمٓ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ، وفي الثالثة ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ .

(٤) أكثره .

من حِكَمه : وقيل لإبراهيم بن أدهم : إنَّ اللحم قد غلا !؟. **فقال : أرخصوه:** بالزهد فيه أي : **لا تشتروه** . لأنَّكم إذا زهدتم فيه ولم تشتروه . . قلَّت الرغبة فيه فيرخُص ، وأنشد في ذلك :

وَإِذَا غَـلاَ شَـيْءٌ عَلَـيَّ تَـرَكْتُـهُ ... فيَكُـونُ أَرْخَـصَ مَـا يَكُـونُ إِذَا غَـلاَ

درجة الصالحين : أخبرنا محمد بن الحسين رحمه ٱلله تعالى ؛ قال : سمعت منصور بن عبد ٱلله ؛ يقول : سمعت محمد بن حامد ؛ يقول : سمعت أحمد بن خضرويه ؛ يقول : قال إبراهيم بن أدهم لرجل في الطواف :

اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوزَ ستَّ عقبات :

أولاها : تُغلِقُ باب النعمة ؛ وتفتح باب الشِّدَّة .

والثانية : تُغلِقُ باب العِزِّ ؛ وتفتح باب الذُّلِّ .

والثالثة : تُغلِقُ باب الراحة ؛ وتفتح باب الجُهد .

والرابعة : تُغلِقُ باب النوم ؛ وتفتح باب السهر .

والخامسة : تُغلِقُ باب الغنىٰ ؛ وتفتح باب الفقر

والسادسة : تُغلِقُ باب الأمل : الرجاء ؛ وتفتح باب الاستعداد للموت .

لأنَّ درجة الصالحين لا تنال إلاّ بارتكاب المشقَّات والإعراض عن الراحات ! ومعنىٰ الإغلاق هُنا الإعراضُ عما ذكر ، ومعنى الفتح التعرّضُ للمذكورات ، وعدم نفور الشخص منها إذا ابتليَ بها ، فإنَّها سبب الخيرات . . إذا صحَّت النيَّات .

أمانته : وكان إبراهيم بن أدهم يحفظ كرماً ، فمرَّ به جنديٌّ ؛ فقال : أعطنا من هذا العنب ! فقال : ما أمرني به صاحبه . فأخذ يضربه بسوطه ، فطأطأ رأسه ؛ وقال :

اِضرب رأساً طالما عصىٰ ٱلله تعالىٰ بعصياني بمثل ذلك ونحوه ؛ حال ولايتي وإمارتي ، فأعجز الرجلُ ومضىٰ إلى حال سبيله ! وإنَّما صَبَر على أذاه لعجزه عن التخلُّص منه ولو بالهرب وإلاّ لم يصبرْ له ، لأنَّه ظالم له .

إيثاره : قال سهل بن إبراهيم : صحبتُ إبراهيم بن أدهم ؛ فمرضتُ ، فأنفق عليَّ

نفقته ، فاشتهيتُ شهوة ؛ فباع حماره وأنفق عليَّ ثمنه . فلما تماثلتَ : قاربت البرء من مرضي . . قلت :

يا إبراهيم ؛ أين الحمار ؟ فقال : بعناه . فقلت : فعلىٰ ماذا أركب ؟ فقال : يا أخي - وفي نسخة : يا أُخَيَّ - علىٰ عنقي . فحملني ثلاث منازل .

هذا نوع ممّا مرَّت وصيته به في الستة المتقدِّمة ص٧٨ .

* * *

ومنهم ٢- أبو الفيض ذو النُّون المصريُّ الإخميمي[١]

اسمه : واسمه : ثوبان بن إبراهيم ، وقيل : الفيض بن إبراهيم . وأبوه كان نُوْبِيّاً[٢] .

وفاته : توفي يوم الاثنين سنة : خمس وأربعين ومئتين . ودفن بالقَرَافة الصغرىٰ .

درجته : فائقُ هذا الشأن ، مِن (فاق الرجل أصحابه) : إذا علاهم بالشرف . والإضافة بمعنىٰ « في » . وأوحدُ وقته ؛ علماً ، وورعاً ، وحالا ، وأدباً .

مع المتوكل : سَعَوا : وَشَوا به إلى المتوكِّل ؛ فاستحضره من مصر فحضر ، فلما دخل إليه وعظه ، فبكىٰ المتوكِّل . . لما علم من وعظه له وقتَ الخوف أنَّه قائم بالحق والنصح ، ورَدَّه إلى مصر مكرَّماً ، وكان المتوكِّل إذا ذُكر بين يديه أهلُ الورع يبكي ،ويقول : إذا ذُكر أهل الورع فحيهلا بذي النون !! أي : فأسرِعْ بذكره ، فإنَّه أفضلهم .

سمته : وكان رجلاً نحيفاً ، تعلوه حُمَرة ، ليس بأبيض اللحية .

من كلامه : سمعت أحمد بن محمد ؛ يقول : سمعت سعيد بن عثمان ؛ يقول : سمعت ذا

---

(١) إخميم مدينة من إقليم سوهاج على الشاطئ الشرقي للنيل .

(٢) من النوبة ، أي أحمر اللون . والنوبة ناحية جنوبي مصر بينها وبين السودان .

النون يقول : مدار الكلام :

١ـ مدار الكلام : ما يدور فيه كلام أهل التحقيق **على أربع** :

١ـ حبِّ الجليل ، و٢ـ بغض القليل[١] ، و٣ـ اتباع التنزيل ، و٤ـ خوف التحويل .

توضيحه : لا يخلو كلامهم منها ، لأنَّهم إمَّا أن يتكلَّموا في معرفة الله تعالىٰ وكماله وجلاله ، أو في تصغير الدنيا والإعراض عنها ، أو فيما جاءت به الشرائع ، أو فيما يخاف منه التغيير والتحويل بعد الاستقامة . فإذا عرف العبد ربَّه ودنياه وتمَّت استقامته وخاف على نفسه من الخاتمة . . فقد استقامت أحواله .

وهذا ساقط من أكثر النسخ ، وموجود بلا إسناد في بعضها هنا !! وفي بعضها مؤخَّر عن المقالة الآتية بلفظ (وقال ذو النون : مدار الكلام إلى آخره) .

مثال آخر : ومن كلامه : مَن لم يعرف قدر النعم سُلِبَها من حيث لا يعلم .

٢ـ علامة المحب : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ سعيد بن أحمد بن جعفر ؛ يقول : سمعت محمد بن أحمد بن محمد بن سهل ؛ يقول : سمعت سعيد بن عثمان ؛ يقول : سمعت ذا النون المصريَّ ؛ يقول : **من علامات المحبِّ لله عزَّ وجلَّ : متابعةُ حبيب الله ﷺ ؛ في أخلاقه ، وأفعاله** . . من حلم وعفو وكرم وغيرها ، **وأوامره ، وسنَّته**[٢] . قال تعالىٰ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[٣]

٣ـ السفلة : وسئل ذو النون عن السَّفِلة؟ فقالِ : **هم مَن لا يعرف الطريق إلى الله عزَّ وجلَّ ، ولا يتعرَّفه** . لأنَّ أهل التوفيق رجلان : عالم ومتعلِّم ، ومن عداهما هالك عامل بهواه مشغوف بحبِّ دنياه .

سبب توبته : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر محمد ابن عبد الله بن شاذان ؛ يقول : سمعت يوسفَ بن الحسين ؛ يقول : **حضرتُ مجلسَ ذي النون يوماً ؛ وجاءه سالم المغربي ؛ فقال له : يا أبا الفيض ؛ ما كان سبب**

---

(١) من عرض الدنيا ، فالكثير بالأولى .

(٢) انظر ما قدمنا في هامش (٢) ص٤١ .

(٣) الآية : ٣١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

توبتك ؟ قال : عَجَبٌ لا تطيقُه . قال: أقسمت عليك بمعبودك إلاَّ أخبرتني ! ! عن سببها .

عجب لا تطيقه : فقال ذو النون : أردتُ الخروج من مصر إلى بعض القرى ؛ فنمت في الطريق في بعض الصحارىٰ ، ففتحتُ عيني ، فإذا أنا بقُنْبَرة ـ: ضرب من الطير ، ويقال قُبَّرة وقنبرا ـ عمياء سقطت من وَكْرِها : عُشِّها علىٰ الأرض ، فانشقَّت الأرض ؛ فخرج منها « سُكرُجَتان »[1] . . إحداهما ذهب ؛ والأخرىٰ فِضَّة ، وفي إحدهما سِمسِمٌ ؛ وفي الأخرىٰ ماء ، فجعلت تأكل من هذا وتشربُ من هذا ! فقلت : حسبي : كفاني هذا في قوَّة يقيني ! قد تبتُ ، ولزمتُ الباب : باب الكريم تعالىٰ بالعمل المرجوِّ ثوابه . . إلى أن قبلني ٱلله عزَّ وجلَّ .

٤ـ مسكن الحكمة : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت عليَّ بن عُمر الحافظ ؛ يقول : سمعت ابن رَشِيْق ؛ يقول : سمعتُ أبا دُجَانة ؛ يقول : سمعت ذا النون ؛ يقول :

لا تسكن الحكمة[2] **مَعِدَةً مُلئت طعاماً** . قال ﷺ : « مَا مَلأَ ٱبْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ ، حَسْبُ ٱلْمُسْلِمِ أُكُلاَتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ . . فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ؛ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ » . رواه الترمذي وحسَّنه[3] .

---

(١) تثنية سُكْرُجة أو سُكُرُّجة : صَحْفة صغيرة توضع بها المشهِّيات على المائدة .

(٢) المراد بها العلم النافع مع العمل المتقن ، وذلك لأنَّ كثرة الأكل توجب قسوة القلب وظلمته ؛ فيغفل وتفتر الجوارح عن العبادة .

واعلم أن الحكمة حكمتان : **١ـ منطوق بها** ؛ وهي علوم الشريعة والطريقة ، **و٢ـ مسكوت عنها** ؛ وهي أسرار الحقيقة التي لا يفهمها غير أهلها ؛ وربما تهلكهم . والحكمة المجهولة هي ما غاب عنا وجهها من أحكام سرِّ القدر الذي استأثر الله بعلمه ، وإنَّما يتوصَّل إليه بالجوع المؤثر في تنوير القلب إثر النشاط للعبادة فتدرك جواهر العلوم التي لا تقبل تغييرا ولا تبديلا . (عروسي : ١/ ٧٥ ؛ بتصرف) .

(٣) الأُكُلات ؛ جمع أُكلة : اللقمة . والحديث عند الترمذي ؛ عن المقدام بن معد يكرب : ٢٣٨١ « مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ٱبْنِ آدَمَ أُكُلاَتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ . . . فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ » وقال : حسن صحيح .
وأخرجه ابن ماجه : ٣٣٤٩ ولفظه : « حسبُ الآدميّ لقيمات . . . فإن غلبت الآدميَّ نفسه . . . فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس » . وابن المبارك في « الزهد » : =

وفي حكمة لقمان : يا بنيَّ ؛ إذا امتلأت المعدة . . نامت الفكرة ؛ وخرست الحكمة ؛ وقعدت الأعضاء عن العبادة .

٥ـ التوبة : وسئل ذو النون عن التوبة ؛ فقال :

١ـ توبة للعوامِّ ؛ تكون من الذنوب[١] ، قال تعالىٰ ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٢] .

و٢ـ توبة الخواصِّ : خواصّ المؤمنين ؛ تكون من الغفلة عن الطاعة ، قال تعالىٰ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[٣] : خالصة له .

وزاد جماعة :

٣ـ توبةَ الأخصِّ . وعبَّر عنه بعضهم بخواصِّ الخواصِّ ؛ وهي التوبة : من رؤية الحسنات والالتفاتُ إليها .

حقيقتها : وحقيقة التوبة ـ كما سيأتي ص ٣٣٩ في بابها ـ : ١ـ إقلاع التائب عما يتوب عنه ، و٢ـ ندمُهُ عليه ، و٣ـ عزمُه على أن لا يعود إليه ، و٤ـ ردُّه ظلامة الآدمي . . إن تعلَّقت به .

❊ ❊ ❊

❊ ❊
❊

= ٦٠٣ ، وأحمد : ٤/ ١٣٢ ، وابن حبان : ٥٢٣٦ ، والحاكم : ٤/ ١٢١ وصححه الذهبيُّ .

(١) **اعلم** أنهم يريدون من العوام القائمين بما عليهم من أحكام الأوامر والنواهي ، وإنما قد يخطىء الجواد لسابق التقدير ، أمَّا غيرهم فهم همج لا يعبأُ الله بهم . وقد قالوا : حرِّيَّة **العامَّة** بالتخلُّص من رقِّ الشهوات ، **والخاصَّة** بالتخلُّص من رقِّ العادات ، **وخاصَّة الخاصَّة** بالتخلُّص من الوقوف مع الأحوال والمقامات . . حيث تكون لهم أَنَفة لا ترضى إلا بمشاهدة الذات (عروسي : ١/ ٧٦ ؛ بتصرف) .

(٢) الآية : ٣١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النور .

(٣) الآية : ٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التحريم .

ومنهم : ٣ ـ أبو علي الفضيل بن عياض

أصله : خُراسانيٌّ ؛ من ناحية مرو[١] . ولد بخراسان بكُوْرة أَبِيْوَرد ، وقدم الكوفة وهو كبير . وقيل : إنَّه وُلِد بسَمَرْقَند ؛ نسبة إلى سمرقند : مدينة بما وراء النهر ، ونشأ بأَبِيْوَرد : بُلَيْدة بخراسان .

وفاته : مات بمكَّة في المحرَّم سنة : سبع وثمانين ومئة .

سبب توبته : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : أخبرنا أبو بكر محمد بن جعفر ؛ قال : حدَّثنا الحسنُ[٢] بن عبد الله العسكريُّ ؛ قال : حدَّثنا ابن أخي (أبي زرعة) ؛ قال : حدَّثنا محمد بن إسحاق بن راهوَيْه ؛ قال : حدَّثنا أبو عمَّار ؛ عن الفضيل بن موسى ؛ قال :

كان الفضيلُ شاطراً يقطع الطريق بين أَبِيْورد وَسَرَخس . وكان سببُ توبته : أنَّه عشق جاريةً ، فبينما هو يرتقي الجدران إليها . سمع تالياً يتلو : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾[٣] ! فقال : يا ربّ ؛ قد آن .

فرجع . . فآواه الليل إلىٰ خَرِبَة ؛ فإذا فيها رُفْقَة ؛ فقال بعضهم : نرتحلُ . وقال قوم : حتَّىٰ نصبح ، فإنَّ فضيلا على الطريق يقطعُ علينا . .

فتاب الفُضيل وأمَّنهم ، وجاور الحَرم ؛ أي فيه حتَّى مات .

من كلامه : وقال الفَضَيل بن عياض : إذا أحبَّ ٱللهُ عبداً . . أكثرَ غَمَّه بتذكُّر أمر آخرته ، وبتقصيره في أمر دينه ، وعدم نهضته في طاعته لربِّه عند نفسه ، وإذا أبغض عبداً وَسَّع عليه دنياه ، وشغله عنه بحبِّه لها .

ومن كلامه : ما أدرك عندنا مَن أدرك بكثرة صيام ولا صلاة ، ولكن بسخاء النفس ؛ وسلامة الصدر ؛ والنُّصح للأُمَّة .

---

(١) من قرية تعرف بـ « قندين » .

(٢) في (م) : الحسين ؟!

(٣) الآية : ١٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحديد .

حزنه : **وقال ابن المبارك : إذا ماتَ الفضيل ارتفع الحزن البالغ** ، لكونه كان أكثرَ الناس حزناً في وقته .

وقال الفضيل : لو أنَّ الدنيا بحذافيرها : بأسرها ـ واحدها حِذْفَار عُرضت عليَّ . . ولا أحاسب بها . . لكنتُ أتقذَّرُها كما يتقذَّر أحدُكم الجيفة إذا مرَّ بها ؛ مخافة **أن تصيبَ ثوبه** . فيه دليل على كمال حاله مع مولاه وأنسه به واستغراقه معه ! ومَن هذه حالته لو عرضت عليه الجنَّة بما فيها[1] . . لكان ما هو فيه ألذُّ عنده منها ، فكيف بالدنيا الذي كرهها مولاه وزهَّد عبادهُ فيها ؟!

مطلب
في الكلام عن الرياء

وقال الفضيل : لو حلفتُ ـ وفي نسخة : لأن أحلف ـ **أنِّي مُراءٍ أحبُّ إليَّ من أن أحلفَ أنِّي لست بمُراءٍ** ؛ خوفاً من عدم السلامة من شيء من مراتب الرياء الحاصلة باختلاف مراتب الصالحين ، لأن حقيقة الرياء التفاتُ القلب في الطاعات إلى ثوابِ غير الله . .

أحوال المرائين : فمن الناس من يفعله ويدخل في عمله عليه ! **فهذا غاية الفساد** .

ومنهم من يدخل في عمله لله تعالىٰ ويعرض له في أثنائه ما يتزيَّد به[2] ؛ **فيبطل عمله** .

ومنهم مَن ينفي ما خطر له من التزيُّد ؛ ويبقىٰ مسروراً باطلاع الناس عليه في عمله ؛ **فهذا مختلف فيه** .

ومنهم من يسكن لعمله ؛ وإن كان صحيحا تامَّاً ، ويستحسنه وينسىٰ مِنَّة ربِّه عليه .

ومنهم من يلتفت في وقت عبادته لربِّه ، لحسن عمله . . وإن رآه مِنَّةً من

---

(١) من أصناف المشتهيات والملاذِّ ؛ لا من رضا الله تعالى ورؤيته ومجاورة نبيِّه ﷺ .

(٢) أي : ما يقصد به أنه زائد على غيره فيه لأجل غرض فاسد من أغراضه ، فيتحسَّن للمخلوقين بذلك . وهو من جنس ما قبله . . محبط للعمل (عروسي : ١/ ٧٨) .

ربِّه وسلم من العُجْب ! فهذان **لا يبطلان عمله** . وبهذا الاعتبار قيل : **رياء العارفين أفضلُ من إخلاص المريدين** ، فإن إخلاص المريدين سلامتهم ، من أول رتب الرياء المحرّم ، ورياء العارفين التفاتهم إلى عملهم ، ونظرُهم إلى حُسْنه في حال عبادتهم .

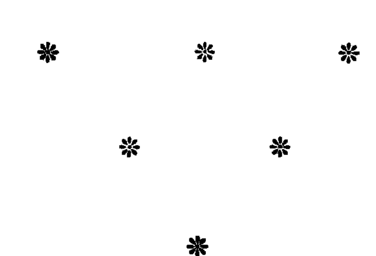
الرياء والشرك : وقال الفضيل : تركُ العمل لأجل الناس : ليثبتوا عليه بالإخلاص . . **هو الرياء** ، أمَّا تركه للخوف من وقوعه الرياء ! فليس برياء ؛ وإن كان تاركُه مضيِّعا له ، بل حقُّه أن ينفي ذلك الخاطر ويعمل ، **والعمل لأجل الناس** مع الله **هو الشرك** . أما عمله لأجل الناس خاصَّة ! فهو رياء أو كفر .

ضحكه : وقال أبو عليّ الرَّازيُّ : صحبتُ الفضيل ثلاثين سنةً ؛ ما رأيته ضاحكاً ، ولا مبتسماً ؛ إلاَّ يومَ مات ابنه عليٌّ ، فقلت له في ذلك !! فقال : إنَّ ٱللهَ أحبَّ أمراً ؛ فأحببت ذلك الأمر . فيه دليل على كمال حزنه في سائر أوقاته ، وإنَّما تكلَّف الضحك والسرور بموت ولده !! على خلاف عادته ، لأنه علم أن الله تعالىٰ يحبُّ منه هذه الحالة ؛ لكونها دليلَ الرضا بقضائه ؛ فأظهرها لمولاه .

تأديب الغفلة : وقال الفضيل : إني لأعصي ٱلله فأعرفَ ذلك في خُلُق حماري وخادمي .

هذا يفعله الله حفظاً لأوليائه إذا قصَّروا في أحوالهم فيما بينهم وبينه ، أدَّبهم ليرجعوا إليه بسرعة ، وتارة يعكس عليهم أسباب دنياهم ، وتارة يعكس عليهم أسباب آخرتهم ؛ من تغيُّر قلوبهم وعدم نشاطهم ، فإذا رجعوا إليه بالتذلُّل والسؤال . . مَنَّ عليهم بشريف نواله .

وهذا التأديب لمن جلَّت رتبته ، فإنه لم يسمح له كما يسمح لغيره ! وربما كانت الغفلة لمن هذه درجته رحمةً ؛ لما يَعقُبُها من الجدِّ والتشمير ؛ وإن كانت الغفلةُ بلاءً ونقمة في حقِّ غيره .



ومنهم : ٤ ـ أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي ؛ نسبة إلى كرخ : قرية ببغداد

مقامه : كان من المشايخ الكبار ، مجابَ الدعوة ، يُستشفىٰ بقبره[١] .

يقول البغداديون : قبرُ معروف تِرياقٌ ـ وتبدل بدال : دِرْياق ـ مجرَّب .
قال أبو عبد الرحمان الزهري يقال : من قرأ عند قبره مئة « قل هو الله أحد » وسأل الله ما يريد . . قُضِيَتْ حاجته . ومثله[٢] يذكر عن قبرَيْ أشهب وابن القاسم (صاحبي الإمام مالك رضي الله عنه) وهما مدفونان بمشهد واحد بالقرافة ؛ يقف الزائر بين قبريهما ويقرأ ما ذكر ويدعو متوجِّه القبلة . . فيستجاب له ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أصله ووفاته : وهو من موالي علي بن موسىٰ (الرِّضا) رضي ٱلله عنه ، مات سنة مئتين . وقيل : سنة إحدىٰ ومئتين . وكان رحمه الله أستاذَ السَّرِيِّ السَّقَطي ؛ وقد قال له يوماً : إذا كانت لك حاجةٌ إلى ٱلله ؛ فأقسم عليه بي ! . قال له ليكمل اقتداؤه به وانتفاعه به ، فهو من باب التنبيه على الخير ، ومن هذا القبيل ذكرُ

---

(١) بالحضور عنده وزيارته على الوجه المذكور عن الزهري . لا بتأثير للقبر أو لصاحبه ، وإنما لفضل الله بالاستجابة في زمن معين . . أو مكان معين ؛ كما هو معلوم عند كل ذي لبٍّ .

(٢) ومثله ما يذكر عن أحد المعتقَدين وهو الشيخ ديب الحلبوني ـ دفين الدحداح ـ لكن شرطه زيارة يوم السبت والتصدُّق عنه بـ (طنجرة مجدَّرة) . وكان قد قال في حياته : فإن لم تقض الحاجة فأْتت و(أفعل) . على قبري . وهو مجرَّب .
ومما هو مجرَّب أيضا ما ذكره العلامة ابن عابدين في منهوَّات حاشيته (٣/ ٣٢٤) : أن الإنسان إذا ضاع له شيء ؛ وأراد أن يردَّه الله سبحانه عليه . . فليقف علىٰ مكان عالٍ مستقبلَ القبلة ، ويقرأ الفاتحة ويهدي ثوابها للنبيِّ ﷺ ، ثم يهدي ثواب ذلك لسيدي أحمد بن علوان ويقول (يا سيدي أحمد ؛ يا ابن علوان . . إن لم تُردَّ عليَّ ضالَّتي ، وإلاَّ نزعتك من ديوان الأولياء) فإن الله تعالى يردُّ على من قال ذلك ضالَّته ببركته .

الشيخ لتلميذه كراماتِه وأسرارَ معاملته مع ربِّه .

تأديبه : سمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه ٱلله تعالىٰ . . يقول : كان معروف الكرخيُّ أبواه ـ هو بَدَلٌ مما قبله ـ نصرانيين ، فسلَّموا ـ بناء على أنّ أقل الجمع اثنان[1] ـ معروفاً إلى مؤدِّبهم ؛ وهو صبي ، فكان المؤدِّب يقول له : قل الله (ثالث ثلاثة) ؛ فيقول معروف : (بل هو واحد) . ـ وفي نسخة : الواحد ـ فضربه المعلم يوماً ضرباً مبرِّحاً : شديداً ، فهرب معروف ، فكان أبواه يقولان : ليتَه يرجع إلينا علىٰ أيِّ دين شاء ؛ فنوافقَه عليه ! !

ثم إنَّه أسلم على يدي علي بن موسى (الرِّضا)[2] . . ورجع إلى منزله ودَقَّ الباب .

فقيل : مَن بالباب ؟ فقال : معروف . فقالوا : علىٰ أيِّ دين جئت ؟ فقال : على الدين الحنيفيِّ ! فأسلم أبواه . هذا من جملة حفظ الله تعالىٰ لأوليائه أن يُكَرِّهَ لهم الشرَّ في صغرهم ، ويحبَّ لهم الخير ، وكان من بركة إسلام معروف ، وفراره إلى ربِّه تأثيرُ ذلك في أبويه حتى لم يجمع الله بينه وبينهما إلاَّ على أحسن الأحوال .

وهذا شأن مَن فرَّ إليه من محلِّ سخطه أن يردَّه إليه مكرَّما ! ومنه ما جرى لموسى عليه الصلاة والسلام ؛ لمَّا فرَّ من فرعون . . كلَّمه ربُّه وردَّه إليه رسولا ، وما جرى لنبينا ﷺ لمَّا خرجَ من مكة مهاجراً مكَّنه ربُّه ؛ وردَّه إليها فاتحاً مالكاً قاهراً .

من بشائره : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت أبا بكر الحربيَّ ؛ يقول : سمعت سريَّاً السَّقَطيَّ ؛ يقول : رأيت معروفاً الكرخيَّ في

---

(١) وهذا خاصٌّ بالمواريث . ضعيف في غيرها . ومثله ما تقدم ص ٧٣ (ثمرة التقدم) .

(٢) هو أحد الأئمة أهل البيت الأطهار رضي الله عنهم ، وهو ابن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق . كان عظيم القدر ، أجلَّه المأمون وأشركه في مملكته ، وأراد أن يخلع نفسه ليفوِّض الخلافة له فمنعه بنو العباس ، فعهد إليه بها ، لكنه توفي قبله فأكثر التأسُّف عليه . وله كرامات شهيرة (عروسي : ١/ ٨٠ ، بتصرف) .

النوم ؛ كأنَّه تحتَ العرش ! فيقول ٱللّٰه عزَّ وجلَّ لملائكته : ﴿ منَ هذا ؟﴾ فيقولون : أنت أعلم يا رب . فيقول : ﴿ هذا معروفٌ الكرخيُّ ، سَكِر من حُبِّي ؛ فلا يفيق إلاَّ بلقائي !﴾ .

توضيح : فيه تنبيه للسريِّ على الجدِّ والتخلُّق بأخلاق شيخه في كمال محبَّته لمولاه ، وجميلِ حاله في تقواه . . حتَّىٰ باهىٰ الله به ملائكته بقوله ﴿ من هذا ﴾ وهو أعلم به ! ليجمع هممهم عليه قبل الجواب ، ويعرّفهم ما هو عليه من حسن الاستقامة ؛ مع ما ابتلاه به من اختلاف الأهواء والشهوات ، وتسليط عدوِّه عليه بالوسوسة والتلبيسات ، ومع ذلك سَكِرَ من حُبِّ مولاه حتى لم يلتفت لما عداه ، فإن الملائكة صلوات الله وسلامه عليهم لم يبتلوا بما ابتليَ به الإنسان ، ولا امتحنوا بمعاداة النفس والشيطان .

عمله : وقال معروف : قال لي بعض أصحاب داود الطائي : إياك أن تترك العمل ، فإنَّ ذلك هو الذي يقرِّبك إلىٰ رضا مولاك . فقلت : وما ذلك العمل ؟

فقال : دوامُ طاعةِ ربِّك بقلبك وجوارحك ، وحرمةُ المسلمين : معرفةُ منزلتهم في الدين ، والشفقةُ عليهم ، والنصيحةُ لهم . . اللازم من ذلك عادةً مساعدتهم في مقاصدهم الصحيحة ، وتحمُّل ما يطرأ من أذاهم وتقصيرهم في حقِّه .

وفيما قاله تنبيهٌ على الردِّ على من زعم أنه إذا وصل الفقير إلى دوام الحضرة والذكر ولذَّة المناجاة مع مولاه . . استغنىٰ عن العمل .

سبب مغفرته : سمعت محمَّد بن الحسين ؛ يقول : سمعت محمَّد بن عبد الله الرازيَّ ؛ يقول : سمعت عليّ بن محمد الدلاَّل ؛ يقول : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول سمعت أبي ؛ يقول : رأيت معروفاً الكرخيَّ في النوم بعد موته ؛ فقلت له : ماذا فعل ٱللّٰه بك ؟ فقال : غفر لي .

فقلتُ : بزهدك وورعك ؟! فقال : لا ، بل بقبولي موعظةَ ابنِ السَّمَّاك ، ولزومي الفقر ، ومحبَّتي للفقراء . اللازم له عادة الزهد والورع وغيرهما من المقامات السنيَّة .

* * *

مطلب
موعظة ابن السَّمَّاك

حيثما تقبل : وموعظةُ ابن السمَّاك ما قاله معروف : كنتُ مارًّاً بالكوفة ؛ فوقفتُ على رجل يقال له « ابن السمَّاك » ؛ وهو يعظُ الناس ، فقال في خلال كلامه : مَن أعرض عن الله بكلِّيته أعرض الله : قطع رحمته عنه جملة ، ومن أقبل على الله بقلبه . . أقبلَ الله برحمته إليه ـ وفي نسخة : عليه ـ وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه ، ومن كان مرَّة ومرَّة ! فالله يرحمه وقتاً ما ؛ بأن يرحمه أواخرَ عمره .

فوقع كلامه في قلبي ؛ فأقبلت على الله تعالى ، وتركتُ جميعَ ما كنتُ عليه ، إلاَّ خدمةَ مولايَ عليٍّ بنِ موسىٰ (الرضا) . فإنها من جملة الطاعات ! فالاستثناءُ منقطعٌ[1] .

وذكرت هذا الكلام لمولاي المذكور ؛ فقال : يكفيك بهذا موعظة إن اتَّعظتَ .

توثيق : أخبرني بهذه الحكاية محمد بن الحسين ؛ قال : سمعتُ عبد الرحيم بن علي بن الحافظ ببغداد ؛ يقول : سمعت محمد بن عمر بن الفضل ؛ يقول : سمعتُ عليَّ بن عيسىٰ ؛ يقول : سمعت سَرِيّاً السَّقَطيَّ ؛ نسبةً إلى بيع السَّقَط[2] . . يقول : سمعتُ معروفاً يقول ذلك .

دعوة مجابة : وقال محمد بن منصور الطوسيُّ : كنت يوماً عند معروف فدعا ، ثم عدت إليه من الغد فرأيت في وجهه أثر شَجَّة فهممت أن أسأله عنها ! وكان عنده رجل أجرأ عليه مني ؛ فسأله عنها ؟ فقال له : سل عما يعنيك ! فقال : بمعبودك إلاَّ عرَّفتني ؟ فتغيَّر ؛ وقال : لم أعلم أنَّك تحلِّفَني بالله ! صليت البارحة هنا واشتهيت أن أطوف فطفت ، ثم ملت إلى زمزم لأشرب من مائها فزلقت ؛ على الباب فأصاب وجهي ما تراه .

وصيته : وقيل لمعروف في مرض موته : أوص . فقال : إذا مِتُّ فتصدَّقوا بقميصي ؛ فإني أريدُ أن أَخرج من الدنيا عُرياناً كما دخلتُها عُرياناً . ظاهره أنَّه

---

(١) لأن الخدمة المذكورة لم تكن من جنس ما كان عليه (عروسي : ١/ ٨٢) .

(٢) أحشاء المواشي من غير اللحم .

لم يبقَ له ما يكفَّنُ فيه ، وكأنه أوصىٰ بذلك حينئذ لما علم من إخوانه وأحبابه أنهم لا يتركون تجهيزه ، بل يرغبون فيه .

يرجو دعاءً : ومرَّ معروف وهو صائم نفلاً[1] بسقَّاء ؛ وهو يقول (رحم الله من يشرب) فتقدَّم فشرب ، فقيل له : ألم تكن صائماً !؟ فقال : بلىٰ ، ولكنِّي رجوتُ دعاءَه ! .

توجيه : رأىٰ رحمه الله أنَّ دعاءَ هذا السَّقَّاء له إذا شرب أفضلَ من استمراره على صومه ؛ لما رأى عليه من علامات الصلاح ورجائه من استجابة دعائه .

آفات الدنيا : **ومن كلامه** : الدنيا أربعة أشياء : المال والكلام والمنام والطعام ؛ المال يُطغي ، والكلام يُلهي ، والمنام يُنسي ، والطعام يُقسي .

* * *

ومنهم : ٥ ـ أبو الحسن سَرِيُّ بن المُغَلِّس السَّقَطيُّ

رتبته : **خالُ الجنيد ، وأستاذُه ، وكان تلميذاً لمعروفِ الكرخي** ؛ كما مرَّ .

كان أوحدَ زمانه في الورع ، وأحوال السنَّة وعلوم التوحيد : ملازماً بيته ؛ لا يخرج منه إلا للجمعة والجماعة ، ولا يراه في غيرهما إلا مَن يقصده ؛ طلباً لسلامة دينه ؛ وإراحة لقلبه وبدنه .

بركة دعائه : **سمعت محمَّد بن الحسين** ؛ **يقول** : **سمعتُ عبد الله بن عليٍّ الطوسيَّ** ؛ **يقول** : **سمعت أبا عَمْرو بن عُلوان** ؛ **يقول** : **سمعت أبا العبَّاس بنَ مسروق** ؛ **يقول** :

---

(١) و« ٱلمتَطَوِّعُ أَمِيْرُ نَفْسِهِ ؛ إنْ شَاءَ صَامَ وَإِنْ شَاءَ أَفْطَرَ » كما قال ﷺ ، وبظاهره أخذ الشافعيُّ ، وذهب إمامنا الأعظم إلى عدم جواز ذلك لقوله تعالى ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ ، وأوَّل الحديث بأنه أمير نفسه قبل النيَّة ؛ أو الشروع . ونحن نقول به .
لكن قدمنا في الهامش (٢) ص٤٢ عن العروسي أنَّ طريق الصوفية في الفضائل على مذهب المحدِّثين .فتنبه . ثم اعلم أن هذا لا ينافي وجوب قضاء ما أفسده .

بلغني أن السريَّ السَّقَطيَّ كان يتَّجر ـ وفي نسخة : كان تاجراً ـ في السوق ؛ وهو من أصحاب معروف الكرخي كما مر ، فجاءه معروف يوماً ؛ ومعه صبيٌّ يتيمٌ ، فقال : أكْسُ هذا اليتيم . قال سَرِيٌّ : فكسوته ، ففرح به معروف ؛ وقال : بَغَّضَ الله إليك الدُّنيا ، وأراحَك ممَّا أنت فيه . فقمت من الحانوت . . وليس شيءٌ أبغضَ إليَّ من الدنيا . وكان ما أنا فيه من بَرَكات معروف .

فيه تحريض على إدخال التلميذ المسرَّةَ على المشايخ بفعل ما يشيرون به ليدعوَ له باجتهاد .

عبادته : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرَّازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا عُمرَ الأنماطيَّ ؛ يقول : سمعتُ الجنيد ؛ يقول : ما رأيت أعبدَ من السَّريِّ ! أتت عليه ثمانٍ وتسعون سنة ما رُئيَ مضطجعاً إلاَّ في علَّة الموت لعجزه ! !

فيه تنبيه على كمال مجاهدته وملازمته الإقبال على الله تعالىٰ بالقلب والجوارح .

من كلامه :

١ـ معاني التصوف : ويحكىٰ عن السَّرِيِّ أنَه قال : التصوُّفُ اسمٌ لثلاث معانٍ ، مَن قامت به فهو الصوفيُّ ، لأنَّ التصوُّف مشتقٌّ ـ على الصحيح ـ من الصفاء عن الكدر .

وقد بيَّن المعانيَ الثلاث مع من قامت به ؛ فقال :

المعرفة والورع : وهو ١ـ **الذي لا يُطفىءُ نورُ معرِفَتِه نورَ ورعه**(١) ، وهو الكفُّ عن محارم الله تعالىٰ ، بخلاف مَن يطفىءُ نورُ معرفته نورَ ورعه ؛ بأن أخطر الشيطان لمن أراد الله خذلانه أنَّ عملك لا يفيدك شيئاً ، لأنه لا يجري عليك إلا ما سبق لك عند مولاك ؛ فيترك العمل ، فالعلم بما سبق مبهما لا يمنع من العمل ، لأنَّه لا يدري ما سبق له على التعيين ، والظاهر عنوان الباطن ! !

---

(١) المعنى أن نور المعرفة الذي من جملته علمٌ ويقينٌ أن العِبْرة والمعوَّل عليه . . إنَّما هو بما سبق به القضاء الأزليُّ ؛ مِنْ سعادة أو ضدِّها . . لا يطفىء نورَ الورع المفيدِ للاجتهاد وبذل الوسع في الطاقة ، والعمل بالأوامر والنواهي ما دام حيًّا قادراً ، فلا يجوز ترك العمل والاعتماد على ما سبق ، إذ نهاية الكمال أن لا يعتمد على شيء من أعماله . والله أعلم (عروسي : ١/ ٨٤ بتصرف) .

نقض الشريعة : و٢ـ لاَ يتكلَّم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ؛ أو السنة .

الطمع بالخوارق : و٣ـ لا تحملُه الكراماتُ التي ظهرت منه علىٰ هتك أستار محارِمِ الله ؛ بأن لا يعتقد أنه ممن لا يؤاخذ بالزلاّت ، إذ لو اعتقد ذلك كان آمنا من مكر الله !! ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون[1] !!.

وفاته : مات السَّرِيُّ سنة سبع ـ قال الشيخ السِّراج ابن الملقِّن[2] : والأصحُّ سنة ثلاث ـ وخمسين ومئتين . ودفن بالشونيزية .

٢ـ المحبة : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق يحكي عن الجنيد رحمه الله أنَّه قال :

سألني السَّرِيُّ يوماً عن المحبَّة؟ فقلت : قال قوم : هي الموافقة للمحبوب . وقال قوم : هي الإيثار لغيره على نفسه بالأمور الدنيوية[3] . وقال قوم : كذا . . وكذا . . ، فأخذ السريُّ جلدةَ ذراعِهِ ومدَّها ؛ فلم تمتدَّ . ثم قال :

وعزَّتِه تعالى ؛ لو قلتُ : إنَّ هذه الجلدة يبست علىٰ هذا العظم من محبَّته لصدقت ، ثمَّ غُشي عليه ؛ فدار وجهُه كأنَّه قمرٌ مشرق ، وكان السَّرِيُّ به أَدَمة : سُمْرة .

تعليل : بالغ السريّ رحمه الله في تعليم التلامذة اكتساب الأحوال والمقامات بأنواع المجاهدات ، ولا يقنعون بمجرد الأقوال والركون إلى الراحات ، وذلك أنَّ مَن قويت محبَّتُه في شيء جدَّ في تحصيله ، وأزال ذلك نومَه ، وأطال سهره

---

(١) والحاصل أن الواجب على العبد دوامُ الخوف منه تعالى ، فلا يركن على كائن من الكائنات ؛ وإن كان حسنا في نظر الشرع ، لجهله بأحكام القضاء والقدر ، بل يقوم بالعبادة والمتابعة . . ويفوِّض الأمر لمن له الأمر ، كيف وقد قال تعالى حكاية عنه ﷺ ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ !!. (عروسي : ١/ ٨٥) .

(٢) في كتابه « طبقات الصوفية » .

(٣) فالموافقة أن يكون مراد المحبِّ تابعاً لمراد المحبوب فيما يلائم وفي غيره .

والإيثار تقديم المحبِّ محبوبَه على نفسه في الأغراض الدينية ، والدنيوية ؛ إن لم يفوِّت على نفسه فضيلة شرعية (عروسي : ١/ ٨٥ بتصرف) .

والفضيلة كالتقديم إلى الصف الأول وتأخُّر المحب ، فليس إيثاراً ! . وقد أراد السريُّ بما فعل لفتَ النظر إلى أن المحبَّة ليست ترنُّماً بكلام قلّما كان له أثر ، وإنما هي حال وأثر فعل أوجَبَتْه متابعته وجدُّه واجتهاده ، وخروجه عن مألوفاته ؛ فكان ما سمعت .

وهمَّه وغمّه ، وقلَّ طعمه وشربه . . فيبس جلده على عظمه من توالي ذلك على قلبه ، ففعل السريُّ ما فعل وغلب عليه الحال ! لكمال الوقت الذي أقسم فيه ، فغُشِي عليه وظهرت آثار صدقه على وجهه ، فنار وجهه كأنه قمر مشرق !

إيضاح : فالتأديب بالحال أكملُ منه بالمقال ، وفيه جواز إظهار المشايخ الصفاتِ المحمودةَ ، والنطق بها لتلامذتهم ليكمل اقتداؤهم بهم .

يستغفر من الحمد : ويحكىٰ عن السَّرِيِّ أنَّه قال : منذ ثلاثين سنة أنا في الاستغفار من قولي في ابتداء أمري ؛ في الوقت الذي كنت أبيع وأشتري فيه في السوق (الحمد لله) مرَّة .

قيل له : وكيف ذلك !؟ فقال : وقع ببغدادَ حريقٌ ، فأحرق الحوانيت وما فيها . . **فاستقبلني رجل** ـ وفي نسخة : واحد ـ **فقال لي : نَجا حانوتك ! فقلت (الحمد لله) . فمنذ ثلاثينَ سنة أنا نادِمٌ علىٰ ما قُلت ؛ حيث أردت لنفسي خيراً مما** أي : بدل ما **حصل للمسلمين !!** . إذ كان حقُّه أن يغتمَّ لهم ، فلما فاته ذلك . . استغفر الله مِن غفلته كلَّما تذكَّرها .

توثيق : أخبرني به عبد الله بن يوسف ؛ قال : سمعتُ أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت أبا بكر الحربيَّ ؛ يقول : سمعتُ السَّرِيَّ يقول ذلك .

خشيته : ويحكىٰ عن السَّريِّ أيضاً أنه قال : أنا أنظر في أنفي في اليوم كذا . . وكذا مَرَّةً ؛ مخافةَ أن يكون قد أسودَّ خوفاً ؛ لا من الله أن يُسَوِّد صورتي لما أتعاطاه : من التقصير في كمال التعظيم له تعالىٰ بالإجلال ، لا من المعاصي ، لأنَّه رحمه الله تعالىٰ مبرَّأً عنها .

وإنَّما خصَّ الأنف ! لأنَّ الشخص لا يرىٰ من وجهه غير أنفه .

طريق الجنة : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمد بن الحسن بن الخشَّاب ؛ يقول : سمعتُ جعفر بن محمد بن نُصَير ؛ يقول : سمعتُ الجنيد؛ يقول : سمعتُ السَّرِيَّ ؛ يقول : أعرف طريقاً مختصراً ؛ قصداً إلى الجنة . فقلت له : ما هو ؟! . فقال :

لا تسأل من أحد شيئاً ، ولا تأخذ من أحد شيئاً ، ولا يكن ـ وفي نسخة :

ولا يكون ـ معك شيءٌ تعطي منه أحداً . لأنَّ العبد يكتسب بقدر حاجته من وجه طيِّب فيستغني به عن السؤال ، ولا يتعلَّق به أحد من المحتاجين .

خشيته : سمعت عبد الله بن يوسف الأصبهانيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا نصر السَّرَّاج الطوسيَّ ؛ يقول : سمعتُ جعفر بن محمد بن نصير ؛ يقول : سمعتُ الجنيد بن محمد ؛ يقول : سمعتُ السَّريَّ ؛ يقول : **أشتهي أن أموت ببلد غير بغداد . فقيل له : ولم اشتهيت ذلك ؟ !**

قال : لأنِّي أخافُ ألا يقبلني قبري ؛ فأُفْتَضَح . قاله اتهاماً لنفسه وقد كان مستورَ الحال بين الناس في الدنيا ، فأحبَّ أن يستره عنهم في الآخرة ! ويحتمل أن يكون أحبَّ حفظ قلوب العامة من أن يسوءَ ظنُّهم بالصالحين فلا ينتفعوا بهم ، فإنهم إذا رأوا من اشتهر بالصلاح . . لم يقبله قبره . . دلَّهم ذلك على خبث باطنه فيسوء ظنُّهم بأمثاله .

من دعائه : سمعت عبد الله بن يوسف الأصبهانيَّ ؛ يقول : سمعت أبا الحسن بن عبد الله الغُوَطي الطَّرَسوسي ؛ يقول : سمعت الجنيدَ ؛ يقول : سمعت السريَّ ؛ يقول :

اللهم مهما ـ أي : إن ـ عذبْتني بشيءٍ ؛ فلا تعذِّبني بِذُلِّ الحجاب .

فيه دليل على كمال معرفته[1] بربِّه ودوام أُنسه به ، وتلذُّذه بمناجاته في ليله ونهاره ، حتىٰ صار الحجب عنه أشقَّ عليه من كلِّ حجب وألم ، وأراد بالحجاب الجهل والضلال ، أو كلَّ ما يشغل العبد عن الحقِّ حتى من العرفان ، ومن أكثف الحُجُب حجابُ الدنيا والخَلْق والشيطان والنفس ، فإنَّهُنَّ المهالك وأعدى عدوٍّ للسالك .

زهده : سمعت عبد الله بن يوسف الأصبهاني ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرَّازيَّ ؛ يقول : سمعتُ الجُرَيريَّ ؛ يقول : سمعتُ الجنيدَ ؛ يقول : **دخلتُ يوماً على السَّرِيِّ السَّقَطيِّ ؛ وهو يبكي ، فقلت له : ما يبكيك ؟ ! .**

فقال : جاءتني البارحةَ الصَّبِيَّةُ بنتي ؛ فقالت :

يا أبتي ؛ هذه ليلة حارَّة ، وهذا الكوزُ أعلِّقُه ها هنا .

---

(١) لأنَّ التألُّم بالحجاب من ذوق لذَّة القرب بحضور القلب ؛ مع الغَيبة عن السِّوىٰ ، وذلك المقام لا يكون إلاَّ لعارِف (عروسي : ١/ ٨٨) .

ثم إنَّه حملتني - وفي نسخة : غلبتني - **عيناي فنمتُ ، فرأيت جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء، فقلت: لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماءَ المبرَّدَ في الكيزان . فتناولتُ الكوزَ ؛ فضربت به الأرض** فكسرتُه .

قال الجنيد : فرأيتُ الخزف المكسور لم يرفعه ؛ ولم يمسَّه، حتَّىٰ عفا درس عليه التراب . في ذلك تنبيهٌ للسريِّ على الإعراض عن الشهوات العاجلة؛ ومنها شرب الماء المبرَّد ، وذلك ليتفرَّغ قلبه ويحسن أدبه مع الله[1] .

من كلامه : ومن كلامه ـ كما نقله عنه الجنيد ـ: اعتللت بطَرَسوس بعلَّة القيام[2] ، فعادني ناس من القراء فأطالوا الجلوس ، فقلت أبسطوا أيديكم حتى ندعوَ ؛ فقلت (اللهم ؛ علِّمْنا كيف نعود المرضىٰ ؟) فعلموا أنَّهم قد أطالوا ! فقاموا .

* * *

ومنهم : ٦ ـ أبو نصر بشر بن الحارث الحافي

تسميته : سُمِّي به !! لأنَّه طلب من إسكِافٍ شِسْعا لإحدىٰ نعليه ؛ وكانت قد انقطعت ، فقال له : ما أكثر كُلْفَتَكُم على الناس !! فألقاها من يده والأخرى من رجله ؛ وحلف (لا يلبَس نعلاً بعدها) .

وصحب الفضيل بن عياض ، ورأىٰ سريًّا السَّقَطي وغيره .

لمحة حياته : أصله من « مرو » ، وسكن بغداد ؛ ومات بها ، وهو ابنُ أختِ عليٍّ بن خشرم.

---

(١) لكن ورد عن غيره ـ أظنه الشعراني ـ أنه يشرب ليكمل حمده ويتمعن بشكره !! ولا تنافيَ بينهما . . إذ الناس مراتب ، والأمور بمقاصدها .

(٢) أي الإسهال ، وقد نبَّههم بذلك كيلا يواجههم بما يكرهون ؛ تخلُّقا بخُلُقه الكريم ﷺ (عروسي بتصرف) .

وفاته : مات عشية الأربعاء : لعشرٍ بقينَ من ربيع الأول . وقيل : لعشر خلون من المحرم سنة : سبع وعشرين ومئتين . وكان كبير الشأن : الحال[1] .

سبب توبته : وكان سبب توبته أنَّه أصاب في الطريق كاغَدة : رقعة . . كما عبَّر بها جماعة مكتوباً فيها اسم الله عزَّ وجلَّ قد وطِئَتْها الأقدام ، فأخذها واشترىٰ بدرهم كان معه غاليةً ، فطيَّب بها الكاغدة ، وجعلها في شقِّ حائط . . لئلا تُمتَهَنَ ! فرأىٰ في النوم فيما يرى النائم كأنَّ قائلاً يقول له :

يا بشر ؛ طيَّبت اسمي !! لأطيِّبنَّ اسمَك : ذكرك ، وكما طهَّرْتَه لأطهِّرَنَّ قلبك في الدنيا والآخرة . فلهذا اشتهر ذكره وصار معظَّماً فيهما ، وكذا كلُّ مَن أَجَلَّ اللهَ وعظَّمه أجلَّهُ اللهُ وعظَّمه .

سبب عبادته : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : مرَّ بشرٌ ببعض الناس ؛ فقالوا : هذا الرجل لا ينام الليل كلَّه ، يعني : لا ينام الليل أصلاً ، ولا يفطر إلاَّ في كلِّ ثلاثة أيام مرَّة : يواصلها !! فبكىٰ بشر بكاء فرح وسرور[2] ؛ شكراً لربِّه في كونه سَتَرَ أمره وأظهر جميله ، ورجا أن يفعل به ذلك في آخرته .

فقيل له في ذلك ! فقال :

إني لا أذكر أنِّي سهرتُ ليلة كاملة ، ولا أنِّي صمتُ يوماً لم أفطر من ليلته ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالىٰ يُلقي في القلوب أكثرَ مما يفعله العبدُ ؛ لطفاً منه سبحانه بعبده وكرماً له . . ثم ذكرَ ابتداءَ أمره كيفَ كان ؛ علىٰ ما ذكرناه آنفاً . قال ذلك تحقيقاً لبراءته مما قالوه وخوفاً من غرور نفسه ، وسكونها إلى مدحهم بما ليس له فيه .

---

(١) بلغ من رفيع قَدْره أن المأمون استشفع بالإمام أحمد ليأذن له بزيارته فأبىٰ (عروسي) .

(٢) ويحتمل أنه بكاء حزن وتحسُّر ؛ حيث ظهر للناس من أحواله ما هو أكمل مما خفي منها في الواقع ، وذلك لحبِّه أن يكون باطنه كظاهره ، بل هذا **أولى بمقام هذا العارف** ، على أن مقام القبض الذي هو بمعنى الخوف أسلمُ من مقام البسط بمعنى الرجاء . **فافهم** (عروسي : ١/٨٩) .

أسباب رفعته : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله الرازيَّ ؛ يقول : سمعت عبد الرحمان بن أبي حاتم ؛ يقول : بلغني أنَّ بشر بن الحارث الحافيَّ ؛ قال :

رأيت النَّبيَّ ﷺ في المنام ؛ فقال لي : يا بشر ؛ أتدري لِمَ رفَعَك الله من بين أقرانك !؟ قلت : لا ؛ يا رسول الله . قال : ١ـ باتِّباعِك لسنَّتي ، و٢ـ خدمتك للصالحين ، و٣ـ نصيحتك لإخوانك ، إذ كلٌّ منها سبب للرفعة ، و٤ـ محبَّتِك لأصحابي ؛ وأهلِ بيتي : وهو الذي بلَّغك منازل الأبرار . لأنَّ محبَّتهم تابعة لمحبَّة الله ورسوله ، لأنَّ مَن أجلَّ الله ورسولَه أجلَّهُ الله ورسوله .

تزكيات الخضر : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمَّد بنَ عبد الله الرازيَّ ؛ يقول : سمعت بلالاً الخوَّاص ؛ يقول : **كنت في تيهِ بني إسرائيل ، فإذا رجل يماشيني . . فتعجبت منه ! ثم أُلهمت أنَّه الخضر عليه السلام فإنَّه حيٌّ ، فقلت له بحقِّ الحقِّ مَن أنت ؟**

فقال : أخوكَ الخَضِر . فقلت له : أريد أن أسألَك ! فقال لي : سل .

مقام الشافعي : **فقلت له : ما تقولُ في الشافعيِّ رحمه الله ؟ فقال : هو من الأوتاد .** لأنَّهم الذين يُحفَظ بهم الدين ، وهو بهذه المثابة .

مقام ابن حنبل : **فقلت له : ما تقول في أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه ؟ قال : رجل صدِّيقٌ** . لما قاساه من الضرب والهوان ؛ لمَّا طُلب منه القول بخلق القرآن ، فأبىٰ ولم ينطق بكلمة يتخلَّصُ بها مما هو فيه ؛ حفظاً لدين الله ولعباده . . لئلا يعتقد في كلام الله مالا يليق به .

مقام بِشر : **قلت : فما تقول في بشرِ بن الحارث الحافي ؟**

فقال : لم يخلِّف بعدَه مِمَّن في زمانه مثلَه .

البارُّ بأمِّه : **فقلت : بأيِّ وسيلة رأيتُك ؟ فقال : ببرِّك لأمِّك** . فيه تحريض على برِّ الأم ، ومثلها الأب ، لكنها أولىٰ منه بذلك ، لخبر « الصحيحين » : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ؛ فقال : يا رسول الله ؛ مَن أحقُّ الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « أُمُّكَ ». قال : ثمَّ مَن ؟ قال : « أُمُّكَ ». قال : ثُمَّ مَن ؟ قال :

« أُمُّكَ » . قال : ثمَّ مَن ؟ قال : « أَبُوكَ »! وقد قرن الله برَّهُما ببرِّه ؛ فقال ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾[1] .

اتعاظه : سمعتَ الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله تعالى ؛ يقول : أتىٰ بشرٌ الحافي ـ وفي نسخة : بشر بن الحارث ـ بابَ المعافىٰ بن عِمران ؛ فدَقَّ عليه الباب ؛ فقيل له : من هذا ؟ فقال : بشر الحافي .

فقالت له بُنَيَّةٌ مِن داخل الدار : لو اشتريتَ لك نعلاً بدانقين[2] لَذَهب عنك اسم « الحافي » . وزالت عنك هذه الشهرة .

توثيق : أخبرني بهذه الحكاية محمَّد بن عبد الله الشيرازيّ ؛ قال : حدَّثنا عبد العزيز بن الفضل ؛ قال : حدَّثني محمد بن سعيد ؛ قال : حدَّثني محمد بن عبد الله ـ وفي نسخة : عبيد الله ـ؛ قال : سمعت عبد الله المغازلي ؛ يقول : سمعت بشراً الحافِيَّ يذكر هذه الحكاية !

فيها تنبيه على أن العبد إذ قَدِر على ستر حاله وتركِ شهرته . . كان ذلك أولىٰ به ؛ لأنَّ بشراً اتخذها عبرة ، ولذلك نقلها الناس عنه .

إيضاح : وسمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا الحسين الحجاجي ؛ يقول : سمعت المحاملي ؛ يقول : سمعتُ الحسنَ المُسُوْحيَّ ؛ يقول : سمعتُ بشرَ بنَ الحارث يحكي هذه الحكاية !! فيها دليل على أنَّ بشراً وجد في نفسه منها[3] وَجْداً كثيراً حتىٰ كَثُر ذكره لها ؛ فنقلت عنه من طرق ، وذلك أنَّ الله نبَّهه على مطلوبيَّةِ ستر حاله على لسان صغيرة .

درجته : وسمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا الفضل العطَّار ؛ يقول : سمعت أحمد بن علي الدمشقيَّ ؛ يقول : قالَ أبو عبد الله ابن الجلاَّء :

---

(١) الآية : ١٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : لقمان .
والحديث عند البخاري : ٥٩٧١ ، ومسلم : ١ ـ ٢٥٤٨ .
وأولويتها خاصَّة في العِشْرة والصحبة لمزيد حاجتها ؛ وتقديراً لمعاناتها مشاقَّ التربية ، وإلاَّ فالولاء والتبعيَّة والخضوع والاحترام والتكريم والتربية والاستنصاح والامتثال للأب أحقُّ وأولى .

(٢) الدانق وحدة نقدية تساوي سُدُس درهم .

(٣) تألّم منها كثيراً فأكثر حكايتها ، فكانت له من الزواجر ، وهو واعظ الله في قلب المؤمن ، وذلك هو النور المقذوف فيه الداعي للحق ، والدافع للباطل (عروسي : ١/ ٩٢ ؛ بتصرف) .

رأيت ذا النون المصري ؛ وكانت له العبارة في طريق القوم ، ورأيت سهلاً التُّستَريَّ ؛ وكانت له الإِشارة ، ورأيت بشرَ بنَ الحارث ؛ وكان له الورع .

فقيل له : فإلىٰ مَن كنتَ تميل؟ فقال : لبشر بن الحارث أستاذنا .

فيه تنبيه على أنَّ الاقتداء بالأحوال أبلغُ منه بالأقوال والإشارات .

من ورعه : وقيل : إنَّه ـ أي : بشراً ـ اشتهى الباقلاء ـ الباقلّىٰ ـ: الفول سنين ؛ فلم يأكله ، فرُؤي في المنام بعد وفاته ! فقيل له : ما فعل الله بك ؟! فقال : غفر لي ؛ وقال لي : كُلْ ؛ يا مَن لم يأكل ما اشتهاه ، واشرب ؛ يا مَن لم يشرب ذلك .

تحرِّيه : أخبرنا الشيخُ أبو عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ قال : أخبرنا عبيد الله بن عثمان بن يحيىٰ ؛ قال : حدَّثنا أبو عمرو بن السَّمَّاك ؛ قال : حدثنا محمد بن العبَّاس ؛ قال : حدَّثنا أبو بكر (ابن بنت معاوية)؛ قال : سمعت أبا بكر بن عفَّان ؛ يقول : سمعت بشر بن الحارث ؛ يقول :

إنِّي لأشتهي الشِّواءَ منذ أربعين سنة ، ما صفا لي ثمنه !!: ما خلص له ما يشتريه به لقلَّة الحلال في زمنه ، أو لكونه رأى صَرْف ما وجده حلالاً في زمنه ، أو لكونه رأى صَرْف ما وجده حلالاً في جهات البرِّ أولىٰ من صرفه لهذه الشهوة !!

وفي ذلك كلِّه دلالة على كمال وَرعه ، لأنَّ مخالفة الشهوة أصل في صحَّة الورع .

من حكمه : وقيل لبشر : بأيِّ شيءٍ تأكلُ الخبزَ !؟ فقال : أَذكر العافيةَ ؛ وأجعلها إداماً . لأنَّ مَن كان في عافية ولم يأكل إلا عند الحاجة ؛ كما هو السنَّة . . لم يحتج إلى إدام للخبز لشدَّة رغبته فيه .

توثيق : أخبرنا به محمد بن الحسين رحمه الله ؛ قال : أخبرنا عبيد الله بن عثمان ؛ قال : أخبرنا أبو عمرو بن السَّمَّاك ؛ قال : حدَّثنا عمر بن سعيد ، قال : حدَّثنا ابن أبي الدُّنيا ؛ قال : قال رجل لبشر الحكاية المذكورة !! وأجابه بما ذكر .

من زهده : وقال بشرٌ : لا يحتملُ الحلال السَّرَف ، لعزَّة وجوده فلا يصرفه واجدُه إلا فيما يليق .

من مبشراته : ورئي بشرٌ في المنام ؛ فقيل له : **ما فعل اللهُ بك ؟ فقال : غفر لي ؛ وأباح لي نصف الجنة** ؛ أي : جنتي : نصف نعيمي ، لأنَّ روحه كسائر أرواح الصالحين تتنعم في الجنة وجثَّته في البرزخ ، فإذا كان يومُ القيامة دخلها بجثَّته أيضاً ، فيكمل له نعيمه في الآخرة ،

وقد ورد : إنَّ الميت إذا قُبِر وسأله الملكان وأجابهما بالحقِّ يُفتَح له باب إلى الجنة ، ويقال له : هذا ما أعدَّ الله لك . وتسرح روحه في جثته ما دام في حفرته .

وورد : أن أرواح الشهداء في قناديل معلَّقة بالعرش في ثمار الجنة .

وقال لي : ﴿ يا بشر ؛ لو سجدتَ لي علىٰ الجمر ما أدَّيتَ شكرَ ما جعلتُه لك في قلوب عبادي ؛ من إجلالهم وتعظيمهم لك وحسنِ ظنِّهم وسرعة اقتدائهم بك ! . فضلاً عن سائر النعم التي أنعمتُ بها عليك ﴾ .

من حكمه : وقال بشر : **لا يجدُ حلاوة الآخرة رجلٌ يُحبُّ أن يعرفه الناس** ؛ ديناً وكمالاً في علمه وعمله ، لما فيه من الرياء ، بخلاف مَن أشهره الله بغير اختياره ، أو باختياره لأمر ديني ، كما قال الله تعالىٰ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾[1] : محبةً في القلوب ، ويكون إشهاره تعالىٰ لهم بين الناس ليقتدوا بهم فتكمُلَ أجورهم ، كما أثنىٰ تعالىٰ على مَن سأل ذلك منه في قوله تعالىٰ ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[2] : أئمةً يقتدىٰ بهم . فهذه شهرة محمودة ؛ وإن كانت باختيار العبد ، لما قلناه .

وكان سفيان يقول : رضا الناس غايةٌ لم تدرك ، فإنْ أرضيتَهم أسخطتَ ربَّك ، وإن أسخطتهم فتهيَّأْ للسهام . قال بشر : فالتهيُّءُ للسهام أحبُّ إليّ من أن يذهب ديني .

* * *

---

(١) الآية : ٩٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : مريم .

(٢) الآية : ٧٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الفرقان .

ومنهم : ٧ ـ أبو عبد الله الحارثُ بن أسد المُحاسِبيُّ ؛ سُمِّي به لأنَّه كان يحاسب نفسه

رتبته : عديمُ النظير في زمانه ؛ علماً ، وورعاً ، ومعاملة ، وحالاً مع الله تعالىٰ .

أصله ووفاته : بصريُّ الأصل ، مات ببغداد سنة : ثلاث وأربعين ومئتين .

ومن كلامه : مَن أراد أن يذوق لذة طعم معاشرة أهل الجنة فليصحب الفقراء الصالحين .

من ورعه : **قيل إنَّه ورث من أبيه سبعين ألف درهم ، فلم يأخذ منها شيئاً ! قيل : لأنَّ أباه كان يقول بالقَدَر** : كان من القدرية القائلين بإنكار القَدَر الذي يجب الإيمان به ؛ حيث جعلوا الأفعال لفاعلَيْن ، وزعموا أن الله تعالىٰ يخلق الخير ؛ وأن العبد يخلق الشر ، فأثبتوا لأنفسهم قدرة وفعلاً ! فسُمُّوا لذلك قدرية ! فرأىٰ من الورع أن لاَ يأخذ من ميراثه شيئاً ، لاختلاف العلماء في تكفير القدرية[1] .

وقال : صحَّت الروايةُ ؛ عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال : « لا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَيْئاً » . رواه أبو داود[2] ، وقال ابن الصلاح : إنَّ له رتبةَ الحسن .

ماله : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت الحسين بن يحيىٰ ؛ يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير ؛ يقول : سمعت محمد بن مسروق ؛ يقول :

مات الحارث بن أسد المحاسبيُّ ؛ وهو محتاجٌ إلى درهم ، وخلف أبوه ضِياعاً . . جمع ضَيْعة ؛ وهي العقار . فالعطف في قوله (وعقاراً) للتفسير ،

---

(١) وإن كان المعتمد أنَّهم فسقة ؛ لا كفرة (عروسي : ١/ ٩٥) .
وقد مرّ ص٥٥ حديث (مجوس أمتي) . . لكن مع نسبتهم إلى أمته ﷺ !! .

(٢) برقم : ٢٩١١ ؛ عن عبد الله بن عَمْرو ، وعنه ابن ماجه : ٢٧٣١ ، وأحمد : ٢/ ١٧٨ ، والنسائي في « الكبرى » : ٦٣٨١ ، وهو عن أسامة : ٦٣٨٠ ، وأخرجه الترمذي : ٢١٠٩ عن جابر .

فلم يأخذ منه : مما خلَّفَه شيئاً ، لما ذكر .

حصانته : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله تعالى ؛ يقول : **كان الحارث المحاسبيُّ إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهةٌ . . تحرَّك على أصبعه عِرْق ، فكان يمتنع منه !**

جعل الله له ذلك حفظاً له .

مطلب
أهل الاقتداء خمسة

جامعو العلم والحقيقة : وقال أبو عبد الله ابن خفيف : اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سَلِّمُوا لهم حالهم : والخمسة هم : ١ـ الحارثُ بن أسد المحاسبيُّ ، و٢ـ الجنيد بن محمد ، و٣ـ أبو محمَّدٍ رُويمٌ ، و٤ـ أبو العبَّاس بن عطاء ، و٥ـ عمرو بن عثمان المكيُّ ؛ لأنَّهم جمعوا بين العلم والحقائق[1] : بين علم الشريعة والحقيقة وسيأتي بيانهما ص٣١٨ . ومن جمع بينهما كلَّم الناس بقَدْر ما تقتضيه أحوالهم. وغيره من غلب عليه حاله . . إنما يكلِّمُهم بما غلبَ عليه ، فلا يصلح أن يقتدىٰ به فمن غلب عليه حال الجوع مثلاً وفتح عليه به . . إنما يكلِّمُ الناس بحاله ، وليس كل سالك يصلح له ذلك !! فقد يكون بعض الناس إنَّما يفتح عليه من باب التبذُّل ولبس الثياب الخَلِقة وخدمة الفقراء ؛ لا من باب الجوع ، فالشيخ المقتدىٰ به ينبغي أن يكون طبيباً عارفاً بسائر الأدوية والأمراض ؛ فيداوي كلَّ عليل بالدواء اللائق بمرضه .

من كلامه : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله بن عليٍّ الطوسيَّ ؛ يقول : سمعت جعفراً الخَلَديَّ ؛ يقول : سمعت أبا عثمان البلديَّ ؛ يقول : قال الحارث المحاسبيُّ : **مَن صحَّح باطنه بالمراقبة والإخلاص ؛ بأن راقب**

---

(١) فقد حازوا الشرف والكمال ،
واعلم أنَّ علم الحقائق من وراء علم الشرائع ، كما في قوله ﷺ : « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ . . وَرَّثَهُ ٱللهُ عِلْمَ ما لم يعلم . . » **واعلم** أنَّ علم الشريعة مداره على النقل ، وعلم الحقيقة مداره على الذوق والكشف ، فإن وقف على ظاهر الأول . . كان حجابا عن الثاني (عروسي : ١/ ٩٥ ، بتصرف) .

حركاتِه بقلبه وجوارحه، وَوَزَنَها بميزان الشرع حتَّىٰ عرف أنها سُنَّةٌ؛ أو بدعة . .
زيَّن الله ظاهرَه بالمجاهدة واتِّباع السُّنَّة ؛ على وفق المراقبة والإخلاص .

• **علامته مع الله** : ويحكىٰ عن الجنيد أنَّه قال : مرَّ بي يوماً الحارثُ المحاسبيُّ ؛ فرأيت فيه أثر الجوع ؛ فقلت : يا عمّ ؛ تدخل الدار وتتناول شيئاً من الطعام ؟! فقال : نعم . فدخلتُ الدَّار وطلبتُ شيئاً أقدِّمُه إليه ، فكان في البيت شيءٌ من طعام حُمِل إليَّ من عُرسِ قوم ! فقدَّمتُه إليه ، فأخذ لقمة وأدارها في فمه مرَّات ، ثمَّ إنَّه قام وألقاها في الدهليز ، ومرَّ .

فلما رأيتهُ بعد ذلك بأيَّام قلتُ له في ذلك : ما سببه ؟ فقال : إنِّي كنتُ جائعاً ، وأردتُ أن أَسُرَّك بأكلي وأحفظَ قلبك ، ولكن بيني وبين الله سبحانه علامةٌ على أن لا يُسوِّغَنِي طعاماً فيه شُبهة ؛ فلم يمكني ابتلاعه . . فمن أين كان لك ذلك الطعام ؟! .

فقلت له : إنَّه حُمِل إليَّ من دارِ قريبٍ لي من العرس .

ثمَّ قلتُ له : تدخلُ الدار اليوم !؟ فقال : نعم . فقدَّمتُ إليه كِسَراً يابسةً كانت لنا ! فأكل ؛ وقال : إذا قَدَّمت إلىٰ فقير شيئاً . . فقدِّم إليه مثل هذا . مما تعرفُ وجه حِلِّه وما تعاطَيْتَه بنفسك ، بخلاف طعام العرس ! فإن أحوال أربابه ومقاصدَهم في عمله لله ؛ أو لغيره . . تختلف .

تعقيب : وأفادت الحكاية المذكورة أنَّ المحاسبي رحمه الله . . كان لا يأكل إلا عند الجوع ، ولا يجيب من يدعوه عند الجوع إلاَّ لإدخال المسرَّة عليه وحفظ قلبه ؛ إذا كان مستحقّاً لحفظ القلب من التغيُّر ، وأنَّه قد يمدُّ يده . . ولا يضربُ العرقُ الذي مرَّ بيانه ، ويتناول الطعام لكن لا يقدر على ابتلاعه ، فله على ما ذكر أمارتان : أمارةٌ عند مدِّ اليد ، وأمارة ضدَّ الابتلاع ، وربَّما كان ذلك لقوَّة الشُّبهة في أحد المحلَّيْن وخفَّتِها في الآخر ؛ فإذا كانت قويَّة . . صانه الله عزَّ وجلَّ عن مدِّ اليد ، وإذا كانت خفيفة . . صانه عن الابتلاع بعد مدِّها وتناولها الطعام .

* * *

ومنهم : ٨ ـ أبو سليمان داود بن نُصير الطائي ؛
نسبة إلى طيٍّ ؛ واسمه جلهمةُ

وفاته : مات بالكوفة سنة خمس ـ وقيل : ست ـ وستين ومئة ؛ في خلافة المهدي ، واعتلّ أياماً .

وكان سبب علَّته أنَّه مرَّ بآية فيها ذكر النار فكرَّرها مراراً في ليلة فأصبح مريضاً ، واستمرَّ أياماً ثم وُجِد ميتاً ورأسُه على لَبِنة[١]

رتبته : **وكان أبو سليمان كبير الشأن .**

زهده : **أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَميُّ رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أبو عَمرو بن مطر ؛ قال : حدَّثنا محمد بن المسيب ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن خُبَيْق ؛ قال : قال : يوسف بن أسباط :**

ورث داود الطائيُّ عشرين ديناراً ؛ فأكلها في عشرين سنة . كلَّ سنة ديناراً ، وكان يتصدَّق منه ، ولم يمسكها شحّاً ، بل لكونها حلالاً[٢] ، وإذا أخرجها . . غلب على ظنِّه أنَّه لا يجد مثلها يأكل منه .

سبب زهده : **سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق** رحمه الله ؛

١ ـ أفٍّ لدنيا : **يقول : كان سببُ زهدِ داود الطائي أنَّه كان يمرُّ ببغداد ؛ [فمرَّ]**[م] **يوماً بالطريق ، فنَحَّاه** : ردّه إلى جانبها **المُطَرِّقون** : الموسِّعون لها بين يدي **حُمَيد الطُّوسي**[٣] **، فالتفتَ داود الطائي فرأى حُمَيداً** ، ورأىٰ أنه قد رفع في

---

(١) مما يدلُّ على أنه مات متمكِّنا حاضر القلب مقبلاً على ربه تعالى ، وهي علامة حسن الخاتمة .

(٢) وتقدم ص ٩٩ عن بشرٍ أن الحلال لا يحتمل السَّرَف لعِزَّته .

(٣) هو أبو غانم حُمَيد بن عبد الحميد الطوسيُّ ، أمير من كبار قوَّاد المأمون ؛ حيث كان ينتدبه للمهمَّات ، لما فيه من بطش وتجبُّر ، توفي سنة عشر ومئتين . ويبدو أنه طائيٌّ أيضاً ، =

؛ فقال داود : أُفٍّ لدُنْيَا سبقَك بها حُمَيد . ولزم البيت ؛ وأخذ في الجهد والعبادة .

٢ـ تبدَّىٰ البلىٰ : وسمعت ببغداد بعضَ الفقراء يقول : إنَّ سببَ زهده أنَّه سمع نائحة تنوح ؛ وتقول[١] :

بِـأَيِّ خَـدَّيْـكَ تَبَـدَّىٰ ٱلبِلَـىٰ وَأَيِّ عَيْنَيْكَ إذاً : حين البلا سَالاَ

اعتبر في نفسه بما ذكَّرته النائحة من أن العبد ؛ وإن ارتفع في الجمال . . مصيرُه إلى الحالة المذكورة ، وخشي معالجة الموت على حين غفلة ، فجدَّ في الخير واجتهد في العبادة حتَّىٰ ساد .

٣ـ بقي العمل : وقيل : كان سببُ زهده : أنَّه كان يجالس أبا حنيفة رضي الله عنه ؛ فقال له أبو حنيفة يوماً : يا أبا سليمان ؛ أما الأداةُ : العلم فقد أحكمناها ! . فقال له داود : فأيُّ شيءٍ بقي ؟ فقال : العملُ به ـ الأَوْلىٰ : العمل بها ـ .

قال داود : فنازعتني نفسي إلى العزلة ، والاجتهاد في العبادة ؛ فقلتُ لنفسي ؛ وقد اتَّهمتُها في قلَّة صدقها وصبرها على ما عزمت عليه : حتَّىٰ تجالِسَهم ـ: أبا حنيفة وأصحابه ـ ولا تتكلَّم معهم في مسألة[٢] ! .

قال : فجالستهم سَنَة ؛ لا أتكلَّم معهم في مسألة ، وكانت المسألةُ تمرُّ

= لقول العكُّوك فيه :

بحُمَيـدٍ ، وأيـن مثـلُ حُمَيـدِ !! فَخَـرت طـيِّءٌ علـى الأحيـاء

وله فيه أشعارٌ كثيرة ، ومنها رثاؤه في قصيدة عينية بديعة مطلعها :

أللدهر تبكي أم على الدهر تجزعُ !؟ ومـا صـاحـب الأيَّـام إلا مفجَّـعُ

ومنها قوله :

هوى جبل الدنيا المنيع وغيثها الـ ـمـريـع ، وحـاميهـا الكمـيُّ المشيَّـعُ

وسيف أمير المؤمنين ورمحه ومفتاح باب الخطب ، والخطب أفظع

(١) بـأيِّ خَـدَّيْـكَ تبـدَّىٰ ٱلبِلَـىٰ وَأَيِّ عَيْنَيْـكَ إذاً سَـالا

(٢) الذي في حفظي الآن أن أبا حنيفة رضي الله عنه هو الذي أرشده إلى مداواة النفس بهذا ، فلما وجد ثمرته أثنى على الإمام رضي الله عنه ثناءً باهراً .

بي ؛ وأنا إلى الكلام فيها أشدُّ نزاعاً من العطشان إلىٰ الماء البارد، ولا أتكلَّم به.

فيه أيضاً تنبيهٌ على شرف همَّته وقوَّة عزمه في مجاهدته .

ولَمَّا علم بذلك أنَّ مجاهدته لنفسه غَالِبَةٌ لهواه اعتزل حينئذ واجتهد .

ثمرة زهده : ثم صار أمره إلى ما صار إليه . والصوفية لمَّا زهدوا في الدنيا تزكَّت نفوسهم وانجلت مرائي قلوبهم بصقال التقوىٰ . . فانجلىٰ فيها صور الأشياء وحقائقها ؛ فبانت لهم الدنيا بقبحها ، فجدُّوا في رفضها ، فظهرت لهم الآخرة بحسنها ؛ فجدُّوا في طلبها وانصبَّتْ إلى بواطنهم العلومُ اللَّدُنية ، ونبعت من قلوبهم ينابيع الواردات الغيبيّة ، والمواجيد الوهبية ، ولهم في ذلك مقامات وأحوال سيأتي بيانهما .

مروءته : وقيل : حَجَم (جنيدٌ الحجَّامُ) داودَ الطائي ؛ فأعطاه ديناراً ، فقيل له : هذا إسراف . فقال : لا عبادةَ كاملة لمن لا مروءةَ له ! إذ الغالب من الشحيح الإخلالُ بالمروءة ، وكمال الدين بكمال المروءة !

وفيما فعله داود تنبيهٌ على كرمه وعدمِ قَدْر الدنيا في قلبه ، وعلى أن إنفاقه العشرين ديناراً في عشرين سنة . . لم يكن شحَّاً منها ! كما مرَّ .

مناجاته : وكان يقول بالليل : إلهي همُّك الذي أحوجني للاجتهاد عَطَّل عليَّ الهموم الدُّنيوية ؛ وحَالَ بيني وبين الرِّقاد .

وقته : سمعت محمد بن عبد الله الصوفيَّ ؛ يقول : حدَّثنا محمد بن يوسف ؛ قال : حدَّثنا سعيد ابن عمرو ؛ قال : حدَّثنا عليُّ بن حرب الموصليُّ ؛ قال : حدَّثنا إسماعيل بن زياد الطائي ؛ قال : قالت دايةُ : جاريةُ داود الطائي له . . لمَّا رأته لا يأكل الخبز ؛ بل يشرب الفتيت : أما تشتهي الخبز !؟ فقال : بين مضغ الخبز وشربِ الفتيت قراءةُ خمسين آية[1] ! فتركتُ أكلَه لما يفوت عليَّ به من تلاوة القرآن ؛ لا لقلة رغبة فيه . فيه دلالة على كمال محاسبته لنفسه وتألُّمه على ضياع أوقاته في غير مقصوده ؛ من تلاوته كتاب ربِّه .

سجنه : ولما توفي داود رآه بعض الصالحين في المنام ؛ وهو يعدو : يسرع في

---

(١) المشهور أنها عن الإمام أبي الوفاء علي بن عقيل الحنبلي البغدادي !!

مَشيه ، فقال له : مالك تعدو ؟ فقال : السَّاعةَ تخلَّصتُ من السجن ! لخبر : « اَلدُّنْيَا سِجْنُ ٱلْمُؤْمِنِ »[1] ، فاستيقظ الرجل من منامه ؛ فارتفع الصياح بقول الناس : ماتَ داود الطائيُّ .

من وصاياه : وقال له رجل (أوصني) . فقال له : عَسَكرُ الموتى ينتظرونك .

فيه تنبيهٌ له على مراعاة الموت والعمل له ، فإنَّ جميع الموتىٰ ينتظرون الأحياء ، فإذا كَمُل موتهم رحلوا جملة واحدة إلى الآخرة .

حياؤه : ودخل بعضهم عليه ؛ فرأىٰ جرَّة ماءٍ انبسطت عليها الشمس !! فقال له : ألا تحوِّلُها إلىٰ الظلِّ ؟ فقال : حينَ وضعتُها لم يكن شمسٌ !! وأنا أستحي أن يراني الله تعالى أمشي لما فيه حظُّ نفسي ؛ من عدم تغير الماء عما كان عليه .

وفيه وفيما مرَّ تنبيهٌ على كمال اشتغاله وعمارة أوقاته بالطاعات حتَّىٰ لا يصرف حركاتِه في شيء من الجائزات .

أدبه : ودخل عليه بعضهم ؛ فجعل ينظر إليه ؛ فقال : أما علمتَ أنَّهم كانوا يكرهون فُضول النظر ؛ كما يكرهون فضول الكلام ؟! . فيه تنبيه على كمال النصح لزائره ، ووعظه بما ينتفع به في آخرته . . من ترك الفضول ، لعموم الخبر الصحيح : « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ ٱلْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيْهِ »[2] وهو ما لا تدعو إليه حاجة دينية .

من وصاياه : أخبرنا عبد الله بن يوسف الأصبهانيُّ ؛ قال : أخبرنا أبو إسحاق إبراهيمُ بن محمد بن يحيى المزكِّي ؛ قال : حدَّثنا قاسم بن أحمد ؛ قال : سمعت ميموناً الغزاليَّ ؛ قال : قال أبو الربيع الواسطيُّ : قلت لداود الطائي : أوصني .

فقال : صُم عن الدنيا ، بزهدك فيها وإمساكك عن نعيمها ، واجعل فطرَك الموت ؛ وفِرَّ من الناس كفرارك من السَّبُع . لأنَّ ذلك سببُ سلامةِ دينك

---

(١) أخرجه مسلم : ١ ـ ٢٩٥٦ ، بزيادة : « وَجَنَّةُ الكَافِرِ » ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه . وأخرجه أحمد : ٢/ ١٩٧ ، والحاكم : ٤/ ٣١٥ بزيادة : « وسنته . . . » ؛ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه الترمذي : ٢٣١٧ ، وابن ماجه : ٣٩٧٦ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وبدنك وعرضك ؛ ومعينٌ على صومك عن الدنيا .

ومن كلامه : ما أخرج الله عبداً من ذُلِّ المعاصي إلى عزِّ التقوىٰ . . إلاَّ أغناه بلا مال ، وأعزَّه بلا عشيرة ، وآنسه بلا بشر[1] .

* * *

ومنهم : ٩ ـ أبو علي شقيق بن إبراهيم البلخي

مقامه : من مشايخ خراسان ، **له لسان في التوكل** ؛ قال : وهو طمأنينة القلب لوعود الله . وقال غيره : تهيئة الأسباب واعتقاد أن لاَّ مسبب للأسباب إلا الله ! وقيل غير ذلك .

وفاته : مات شهيداً في غزوة كولان سنة : أربع وتسعين ـ وقيل : ثلاث وخمسين ـ ومئة . **وكان أستاذَ حاتم الأصم** .

سبب زهده : **قيل : كان سببُ توبته أنَّه كان من أبناء** ـ وفي نسخة : من أولاد ـ **الأغنياء ؛ خرج للتجارة إلى أرض الترك** ـ وفي نسخة : الشرك ـ **وهو حدث** : شابٌّ **فدخل بيتاً للأصنام ، فرأىٰ خادماً للأصنام فيه . . قد حلق رأسه ولحيتَه ؛ ولبس ثياباً أُرْجُوَانيَّة** : مصبوغة بالأُرجوان ؛ وهو صبغ أحمر شديد الحمرة ، **فقال شقيق للخادم : إنَّ لك صانعاً ؛ حيَّاً ، عالماً ، قادراً ؛ فٱعبده !! ولا تعبد هذه الأصنام التي لا تضرُّ ؛ ولا تنفع !! فقال : إن كان كما تقول ؛ فهو قادر على أن يرزُقَك ببلدك ، فلم تعنَّيْت إلى ها هنا للتجارة ؟**

فانتبه شقيق ! إلىٰ أنه طُلِب منه ترك الكدِّ في طلب الدنيا ، والرجوعُ إلى القناعة بما تيسَّر ، **فرجع وأخذ في طريق الزهد** . فهذا كان سبب زهده في

---

(١) أغناه . . . لكونه يهبه القناعة ، وأعزّه . . . لكون الحقِّ يكون حسبه وناصره ، وآنسه . . بجعل أُنسه بذاته تعالى فيستوحش من جنسه وأمثاله (عروسي : ١/ ١٠٠) .

الدنيا ، لَمَّا حسنت نيَّتُه في وعظ خادم الأصنام ليرجع عن خدمتها إلى الإسلام أجرىٰ الله علىٰ لسان خادمها كلاماً جارىٰ به شقيقاً . . نقله من الكدِّ في طلب الدنيا إلى الزهد فيها .

سبب آخر : وقيل : كان سبب زهده : أنَّه رأىٰ مملوكاً يلعب ويمرَح : يشتدُّ فرحه ونشاطه في زمان قحط ، وكان الناس مهتمِّين بتحصيل قوتِهم ! فقال شقيق : ما هذا النشاط الذي فيك ؟ أما ترىٰ ما فيه الناس من الحُزْن والقحط ؟! فقال ذلك المملوك : وما عليَّ من ذلك ؛ ولمولاي قرية خالصة يدخل له منها ما نحتاج نحن إليه !!

فانتبه شقيق إلى ما ذكر آنفاً، واستحيا من الله أن يهتمَّ برزقه ؛ وقد ضمنه له مالك السماوات والأرض ، وقال : إن كان لمولاه قرية . . ومولاه مخلوق فقير ، ثمَّ إنَّه مع ذلك ليس يهتمُّ لرزقه ؛ فكيف ينبغي أن يهتمَّ المسلم لرزقه ومولاه غنيٌّ ؟! . بل أغنى الأغنياء ! فانتقل بذلك إلى فضل ربِّه من همِّه وكربه .

ضمن على الله : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا الحسين بن أحمد العطار البلخيَّ ؛ يقول : سمعت أحمد بن محمد البخاريَّ ؛ يقول : قال حاتم الأصمُّ :

كان شقيق بن إبراهيم موسراً ، وكان يتفتَّىٰ بماله وجاهه وما يمكنه[(١)] ؛ وفاءً بكمال مروءته ، ويعاشر الفتيان ، جمع فتىٰ ؛ وهو من لا يدَّخرُ ما أمكنه عن قاصده .

وكان عليُّ بن عيسىٰ بنِ ماهان أميرَ بلخ[(٢)] ، وكان يحبُّ كلابَ الصَّيد ،

---

(١) يبذل ماله وجاهه وفاءً بمروءته ، بل من المروءة الإيثار لمن وثق بنفسه صبراً (عروسي) وانظر كتاب « الفتوة » بتحقيقنا .

(٢) هو أحد القوَّاد للعباسيين ، وهو القائد العام للأمين . . حرَّضه على خلع المأمون من ولاية عهده ، وكان والياً لهم على همذان ، وأصبهان ، وقم ، وتلك النواحي ، قتل في لقاء جيشته بجيش المأمون سنة خمس وتسعين ومئة .
ولظلمه وعَبَثه بأموال الناس أُفتي بكفارته اليمين بالصوم ، لأن ما عليه من التعبات أكثر مما في يديه من المال . (انظر « منية الأخيار » حاشيتنا على « الاختيار » في مبحث الزكاة)

ففقد كلباً من كلابه ؛ فسُعي برجل : وُشيَ به أنَّه عنده ، وكان الرجل في جوار[1] شقيق ، فطلب الرجل ؛ فهرب . . فدخل دارَ شقيق مستجيراً ، فمضىٰ شقيق إلى الأمير ؛ وقال :

خَلُّوْا سـبيله ؛ فإنَّ الكلبَ عندي[2] أردُّه إليكم ، وأمهلوني في ردّه إلىٰ ثلاثة أيام ! .

فخَلَّوْا سبيله ، وانصرف شقيق مهتمًا لما صنع . فلمَّا كان اليوم الثالث . . كان رجل من أصدقاء شقيق غائباً من بلخ ؛ فرجع إليها ، فوجد في الطريق كلباً عليه قلادةٌ تدلُّ على أنه معلَّم فأخذه ؛ وقال : أهديه إلى شقيق يتفتَّىٰ به ، فإنَّه يشتغلُ بالتَّفتِّي ! .

فحمله إليه ، فنظر إليه شقيق ؛ فإذا هو كلبُ الأمير ؛ فسُرَّ به ، وحمله إلى الأمير وتخلَّص من الضمان ، فرزقه الله الانتباه بذلك ، وقال في نفسه : إذا كان لطفه تعالىٰ بي . . وأنا في حال الغفلة والجفاء ؛ فكيف إذا رجعتُ إليه بصدق العبادة والوفاء ! فرجع إليه وتاب ممَّا كان فيه ، وسلك طريق الزُّهد والسداد .

بين ليلتين : وحكي عن حاتم الأصمِّ ؛ قال : كُنَّا مع شقيقٍ في مصافٍّ[3] نُحارِبُ التُّركَ فِي يوم لا ترىٰ فيه إلاَّ رؤوساً تَنْدُر : تسقط ، ورِماحاً تنقصف ، وسيوفاً تنقطع ؛ فقال لي شقيق :

كيف ترى نفسك ؛ يا حاتم في هذا اليوم ؟! من كثرة العدوِّ . . هل تراه مثل ما كنت في الليلة التي زُفَّت إليك ٱمرأتُك فيها !؟ . . من مسرَّتك وطمأنينة قلبك . فقلتُ : لا ؛ والله . قال : لكني والله أرىٰ نفسي في هذا اليوم مثلَ ما كنتُ تلك اللَّيلة .

ثم نام بين الصفَّين ، ودَرَقَتُه[4] تحت رأسه ؛ حتَّىٰ سمعتُ غَطيطه: شخيره .

---

(١) يحتمل أنه في حِمَاهُ ، أو كان مجاوراً له في محلِّ السُّكنى (عروسي : ١/ ١٠٢) .
(٢) عنديّة ضمان ؛ لا عندية مكان . أي : في ضماني .
(٣) جمع (صفٌّ) واحد (الصفوف) تكون تلقاء وجه العدوِّ في الحرب (عروسي) .
(٤) خاصٌّ بالترس من جلد ليس فيه خشب .

توضيح : فيه دليل على كمال يقينه بأن العبد لا يصيبه إلاَّ ما قُدِّر عليه ، ومقصوده بذلك أن يعرف تلميذُه قوَّةَ اليقين بالمقال والحال ، وليس هو بما فعله مغروراً بنفسه ، فإنَّه من جملة المسلمين وبعضهم يحرس بعضاً ، ولو تحرَّك العدوُّ أدنىٰ حركة وازدحم الناس لاستيقظ .

ميزانه : وقال شقيق : إذا أردت أن تعرف الرَّجل ؛ فانظر إلى ما وعده الله به ؛ ووعده الناس به ، فبأيِّهما يكون قلبُه أوثقَ ؟ . فيَمتحِنُ الإنسان نفسه في الوعد والأمر والنهي وغيرهما بهذا الميزان !

مثلاً لو وُعِد شخص بمال في وقت ؛ فزاحمه في الوقت عبادة . وعد الله عليها جزيل الثواب كصلاة جمعة ، فليمتحن قلبه إلى أيِّ جهة هو مصروف ، وكذا لو نهاه طبيب عن قرب طعام يضرُّه ضرراً عاجلاً ؛ ونهاه الله عن قرب معصية تضرُّه عاجلاً وآجلاً . . فليمتحن قلبه إلى أيِّ جهة هو مصروف ! وأكثر الناس تجد ميله إلى البعد عما نهاه عنه الطبيب ؛ وإن كان عدوَّ الله . . غاشاً للمسلمين . . أكثرَ من ميله إلى البعد عما نهاه الله عنه ، وإذا امتحن نفسه ورأى بها كمالاً . . فليزدْ فيما هو فيه ؛ أو نقصاً . . فليجتهد في التدارك قبل الموت .

ميزان التقوى : وقال شقيق : تعرفُ تقوىٰ الرجل في ثلاثة أشياء : في ١ـ أخذه ، و٢ـ منعه ، و٣ـ كلامه . هذا قريب مما قبله ! إلا أنَّ ذاك امتحان الإيمان وتوابعه ، وهذا امتحان في صحَّة الأعمال التي بها التقوىٰ تعرف صحَّة أحوال الشخص . . بفعله وتركه وقوله ، فإن فعل . . فلا يفعل إلاَّ مباحاً[1] ، وإن ترك . . فلا يترك إلاَّ غيرَ مباح ، وإن قال . . فلا يقول إلاَّ حقَّاً .

من كلامه : ومن كلام شقيق : مَن شكا[2] مصيبة نزلت به إلى غير الله . . لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبداً .

---

(١) وذلك أقلُّ درجات السائر ، وأعلى منه أنَّه إن فعل لا يفعل إلا طاعة وعبادة ، وذلك سهلٌ بطهارة المقاصد ؛ كأن يقصد بالأكل التقوِّي على العبادة ، وبالنكاح التوالد وكف الشهوة عن المحرَّمات . . وهكذا (عروسي : ١/١٠٣) .

(٢) وليس من الشكوى ذكر ما نزل به لطبيب يداويه ، أو لصديق ليسلِّيَه فافهم (عروسي) .

ومنه : إذا أردت أن تكون في راحة فكُلْ ما أصبت ، وٱلبَس ما وجدت ، وٱرضَ بما قضىٰ الله عليك .

* * *

ومنهم : ١٠ ـ أبو يزيد طيفور بن عيسىٰ البَسطامي ؛ نسبة إلى بَسطام قريةٍ بخراسان

أسرته : وكان جدُّه مجوسيّاً أسلم ، وكانوا : أولادُ عيسىٰ ثلاثةَ إخوة : ١ـ آدم ، و٢ـ طيفور ، و٣ـ علي .

وكلُّهم كانوا زهَّاداً عُبَّاداً ، وأبو يزيد طيفورُ كان أجلَّهم حالاً .

وفاته : قيل : مات سنة إحدىٰ وستِّين ومئتين ، وقيل : أربع وثلاثين ـ وفي « طبقات الصوفية » لابن الملقِّن : أربع وستين ـ ومئتين .

سبب معرفته : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا الحسن الفارسِيَّ ؛ يقول : سمعت الحسن بن عليٍّ ؛ يقول : سُئل أبو يزيد : **بأيِّ شيء وجدتَ هذه المعرفة ؟!**

فقال : ببطن جائع ، وبدن عارٍ[1] . يعني أنَّه اشتغل بالله تعالىٰ وبمعرفته حتَّىٰ نال ما نال ، ولم يلتفت إلى القواطع العادية ؛ من طعام ولباس وشهوة ، وكأنَّه نبَّه وأدَّب بذلك مَن شغله أمر بدنه من بطنه ولباسه .

أشد ما وجد : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ منصور بن عبدالله ؛ يقول : سمعتُ عمِّي البَسطاميَّ ؛ يقول : سمعت أبي ؛ يقول : سمعتُ أبا يزيد ؛ يقول :

---

(١) أما البطن الجائع فتقدم ص ٨١ . ما يفيده ، وهو عمل بقوله ﷺ : « مَا مَلأَ ٱبْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرّاً من بَطْنِهِ » . ومرادُه بالبدن العاري عدمُ الاعتناء بما يلبَسُه فيقتصر على ما يستر البدن بأي وجه كان . (عروسي : ١/ ١٠٥ بتصرف) .

عملتُ في المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدت شيئاً أشدَّ عليَّ من العلم ومتابعته بالأعمال! لأنهما لا يتمّان للعبد إلاَّ بمخالفة هواه؛ واجتهاده في تقواه، وفي ذلك من المشقَّة ما لا يخفىٰ ! لا سيَّما العلم المتعلق بالقلب ؛ من الرياء والعُجْب والكِبْر وغيرهما من الأخلاق الذميمة، والورع والزهد والإخلاص وغيرها من الأخلاق الحميدة، **ولولا اختلافُ العلماء في بعض المسائل لبقيتُ على اجتهاد واحد ؛ وهو ما اتفقوا عليه ، وكنت في مشقَّة زائدة بالملازمة لنوع واحد** ـ وفي نسخة : لتعبت : زيادةَ تعب بذلك ـ ومن ثَمَّ قال تخفيفاً لمن يقلِّدُه : **واختلافُ العلماءِ رحمةٌ ؛ في حقنا إلاَّ في تجريد التوحيد** : محضِهِ ، لأنَّ المقصودَ من مسائل التوحيد **القطعُ** ، والحقُّ فيها واحد ، ومن مسائل الفروع **الظنُّ** فما غلب على ظنِّ أحد من العلماء . . فهو حكم الله في حقِّه[1] .

حفظه للقرآن : **وقيل** : **لم يخرج أبو يزيد من الدنيا** إلى الآخرة مع كمال مجاهدته في رياضة أخلاقه ، وإصلاحه ظاهره وباطنه . . **حتَّىٰ استظهرَ القرآن** : **حَفِظه كلَّه** .

وهذا يدلُّ على كمال اجتهاده ، إذ كان يكفيه أن يحفظ ما يصلِّي به فقط .

ميزان أمانته : **أخبرنا أبو حاتم السِّجستانيُّ ؛ قال : أخبرنا أبو نصر السَّرَّاج ؛ قال : سمعت طيفور البَسطامي** ـ غير أبي يزيد ـ؛ **يقول : سمعت الشيخ المعروف بـ(ـعمِّي البَسطامي) يقول : سمعتُ أبي ؛ يقول : قال لي أبو يزيد : قمْ بنا حتَّىٰ ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شَهَر نفسه بالولاية[2] ، وكانَ رجلاً مقصوداً ؛ مشهوراً بالزهد ! فمضينا إليه ؛ فلما خرَج من بيته ، ودخل المسجد رمىٰ ببصاقته تجاهَ القبلة ، فانصرفَ أبو يزيد ؛ ولم يُسلِّم عليه !! وقال : هذا غيرُ مأمون على أدب من**

---

(١) بالنسبة له ، وكذا بالنسبة لمن يقلِّدُه في ذلك الحكم ، وحينئذ فلا يجوز العمل بغيره إلاَّ إذا كان هناك مسوِّغ . **فتدبَّر** . (عروسي : ١/١٠٦) .

(٢) فيه دلالة على زيادة عنايته وهمَّته في طلب ما به النفع بالوصول إلى مَن له إرشاد ودلالة على الحقِّ سبحانه وتعالى بالعبارة والإشارة والذكر والفكر والحال . **فافهم** (عروسي) .
قلت : وفيه دلالة أيضاً على تواضعه في قصد مَن سمع عنه خيراً ، إذ لم يرسل من يتحقَّق له الخبر بل خرج بنفسه ، وفيه دلالة على أن الإنسان له أن يتفحَّص ـ بل يجب ـ من يرغب بالأخذ عنه واعتقادِه على وَفْقِ ميزان الشريعة ؛ لا مجرَّد الادعاء أو السمعة والتناقل !! .

آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأموناً علىٰ ما يدَّعيه من الولاية ؟!

في ذلك دلالة على اعترافه بقَدْر الأولياء ، فإنَّه لَمَّا سمع بهذا الرجل أتاه لينتفع به ويسمَع من أقواله ، ويرىٰ من أحواله !! فلما رأىٰ ما رأى خَشِيَ أن يطَّلع منه على ما سواه . . فلا ينتفع به ؛ فتركه وذهب ، إذ اعتبار الأولياء يكون بملازمتهم الشريعة وآدابهم فيها ، فإنَّ الوليَّ محفوظٌ من الزلل غالباً[1] .

أدبه في طلبه : وبهذا الإسناد ؛ قال أبو يزيد : لقد هممتُ أن أسأل الله تعالىٰ أن يكفيَني مؤنةَ الأكل ومؤنَة النساء ! ثم قلتُ : كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا ؛ ولم يسأَلْه رسول الله ﷺ إيَّاه !؟ فلِمَ أسأله !!! .

ثُمَّ إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ كفاني مؤنة النساء ؛ حتَّى لا أبالي : أسْتَقْبلتني آمرأة ؛ أو حائط ! .

في ذلك دلالة على كمال آتِّباعه لسنَّة نبيِّه ﷺ ، وبه صار إلى ما صار .

زهده : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت الحسن بن عليٍّ ؛ يقول : سمعت (عمِّي البسطامي)؛ يقول : سمعت أبي ؛ يقول : سألتُ أبا يزيد عن ابتدائه في سلوكه وزهده !؛ فقال : ليس للزهد منزلة واحدة حتَّى أجيبك عنه جواباً واحداً[2] ! فقلت له : لماذا ؟ فقال : لأنِّي كنت ثلاثةَ أيَّام قائماً في الزهد . . فلمَّا كان اليوم الرابع خرجت منه !!

اليوم الأول من الثلاثة : زهدتُ في الدنيا وما فيها ؛ من طعام ولباس ونوم ، وفضولِ كلامٍ وراحةٍ وغيرها . واليوم الثاني : زهدتُ في الآخرة وما فيها ؛ من طعام ولِباس وحُوْرٍ عينٍ وغيرها ؛ لا لحقارتها كالزهد في الدنيا التي لا تزن عند الله جناح بعوضة . . بل لشغلي بمولاي وتفرُّغي لمناجاته .

واليوم الثالث : زهدت فيما سوىٰ الله تعالىٰ الشامل للدنيا والآخرة حتى نفسِه ؛ حيث زهد فيها وبَذَلَها . . اجتهاداً لربِّه ؛ فلم يلتفت لحظوظها مطلقاً .

---

(١) سيأتي أواخر الكتاب الفرق بين الحفظ والعصمة . ص ١٠٧٦ .

(٢) باعتبار الزاهدين لاختلاف أحوالهم ومواهبهم فيه ، وفي ذلك إشارة إلى تعدُّد المراتب في المقامات (عروسي : ١/ ١٠٧) .

أراد فَوَجَد : فلما كان اليوم الرابع لم يبقَ لي سوى الله . . فهِمْتُ ؛ مِن (هام على وجهه) . . إذا ذهب من عشقٍ وغيره ـ وفي نسخة : فنمت ـ فسمعت هاتفاً يقول :

﴿يا أبا يزيد ؛ لا تقوىٰ معنا . . وأنت على حالتك التي أنت عليها من الشغل بنا﴾ . فقلت : هذا الذي أريدُه ؛ من أن أكون عاجزاً فقيراً إلى فضلكم وعونكم .

فسمعت قائلاً يقول : ﴿ وجدتَ ، وجدت مطلوبك ﴾ .

مجاهدته : وقيل لأبي يزيد : ما أشدُّ ما لقيت في سبيل الله !؟ أي : في الطريق الموصل إليه من الطاعات ؟ فقال : لا يمكن وصفه ، لشدَّة عِظَمِهِ ومشقَّته .

فقيل له : ما أهونُ ما لقيتْ نفسُك منك !؟ .

فقال : أما هذا ؛ فنعم أي : فيمكن وصفه . . دعوتُها إلى شيء من الطاعات ، فلم تُجِبْني فمنعتها الماء سنة . فإذا كان هذا هو الأهونَ فما ظنُّك بغيره؟! .

تربية نفسه : وقال أبو يزيد : منذ ثلاثين سنة أصلِّي . . واعتقادي في نفسي عندَ كلِّ صلاة أصلِّيها كأنِّي مجوسيٌّ ؛ أريد أن أقطع زُنَّاري !! . فسَّره في موضع آخر ؛ فقال : كنت ثنتي عشرة سنة حدَّادَ نفسي ، وخمس سنين مرآة قلبي ، وسنةً أنظرُ فيما بينهما ، فإذا في وسطي زُنَّار ظاهر ! فعملت في قطعه ثنتَيْ عشرة سنة ، ثم نظرت فإذا في وسطي زُنَّارٌ باطن ، فعملت في قطعه خمس سنين ، فلما قطعه رأىٰ الخلق كلهم . . وهو منهم . . كالموتىٰ : لا يقدرون له على نفع ، ولا ضرٍّ ! فكبَّر عليها أربع تكبيَرات . وذلك لأن الحَدَّاد شأنه أن يحميَ الحديد ويطرقه ليصفِّيَه ويخرجَ وَسَخه ! فقال : كنت أعدل جوارحي وخواطري بالخوف والرجاء هذه المدَّةَ حتى اعتدلت على الشريعة ، فرأيت في نفسي التفاتا إلى الخلق ليعرفوا ما أنا عليه من الطاعات الخالصة !

فشبّه نفسه حيث التفتَ في عملها إلى غير الله بعلامة الشرك وهي الزُّنَّار الظاهر ، فعمل في قطعه ! فلما تخلَّص منه أُعجبَ بنفسه وتوقَّاه ، وحمد نفسه على ذلك ونسيَ مِنَّةَ ربِّه عليه ، فلما أدرك ذلك . . رآه زُنَّاراً باطناً حيث جعل لنفسه أثراً في طاعته ، فلما مَنَّ الله عليه برؤية فضله عليه ؛ وأن جميع الخلق كالموتىٰ . . كَبَّر عليهم أربع تكبيرات ، فذكر الله وحدَه ، وأسند إليه دون غيره كونه أكبر : أعظم من كلِّ ما عداه .

فقوله (كأني في صلاتي مجوسيٌّ)! يعني في المدة التي كان يعمل فيها في قطع الزُّنار الظاهر مع ما قبلها .

ميزان الكرامة : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله بن علي ؛ يقول : سمعت موسى بن عيسى ؛ يقول : قال لي أبي : قال أبو يزيد : **لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتَّىٰ يرتقيَ** ـ وفي نسخة : يرتفع ، وفي أخرى : يتربّع ـ **في الهواء ؛ فلا يتغترُّوا به ، حتَّىٰ تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظِ الحدود ، وأداءِ الشريعة** . لأنَّ الكرامة ما كان عونا لصاحبها على ما يقرِّبُه إلى مولاه ؛ ويقوِّي يقينه ويمكِّنَه من محبَّته ورضاه ، فإذا جرىٰ الخارق للعادة على يد العبد ؛ ولم تشهد له الشريعة بالاستقامة . . فهو ممكورٌ به مخدوعٌ .

احتشامه : وحكىٰ (عمِّي البَسطامي)؛ عن أبيه **أنَّه قال** : **ذهب أبو يزيد ليلةً إلى الرِّباط ، ليذكر اسم الله سبحانه على سور الرباط** ؛ بلسانه ، لأنَّ المرابطة على السور . . إنَّما تكون بذكر اللسان غالباً ، ليُعرَف أنَّ الرباط محروسٌ ممن يقصده من الأعداء ! فمضىٰ أبو يزيد ليلة لينال فضيلة الحراسة بالذكر بلسانه غالباً مع ذكره بقلبه . . **فبقي إلى الصباح لم يذكر** ربَّه بلسانه ؟ **فقلت له في ذلك !!** : ما السبب فيه ؟. **فقال** : **تذكَّرتُ كلمة لا ترضيه . . جرَت على لساني في حال صِباي ، فٱحتشمتُ** : استحيت منه **أن أذكره سبحانه وتعالىٰ** بلسان عصيتُه به .

في ذلك دليل على كمال تعظيمه واستحيائه منه في جميع ما يتعاطاه .

ومن ذلك ما حُكي عن بعضهم أنَّه صلى خارج المسجد ؟ فقيل: له لم تركت الصلاة فيه؟ فقال: خطر ببالي (أما تستحي . . تدخل بيته وقد عصيتَه)!!؟

تكميل : ومن كلام أبي يزيد (الناس يهربون من الحساب ويخافون منه ، وأنا أسأل الله تعالىٰ أن يحاسبني !) .

فقيل له لِمَ !! فقال: لعله يقول لي في أثناء ذلك : ﴿ يا عبدي ﴾ فأقول (لبيك) . فقوله لي ﴿ يا عبدي ﴾ أعجب إليَّ من الدنيا وما فيها، ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء .

وقال له رجل : دُلَّني على عمل أتقرَّب به إلى ربِّي ؟ فقال : أحببْ أولياء الله ليحبُّوك ، فإنَّ الله تعالىٰ ينظر إلى قلوب أوليائه ، فلعله ينظر إلى اسمك في قلب وليِّهِ فيغفر لك !! .

* * *

ومنهم : ١١ ـ أبو محمد سهل بن عبد الله التُّسْتَري ؛ نسبة إلى « تُستَر » بلدةٍ من الأهواز

رتبته : أحدُ أئمة القوم ، لم يكن له في وقته نظيرٌ في المعاملات مع الله تعالى وفي الورع .

وكان صاحبَ كرامات ، لقي ذا النون المصريَّ بمكَّة ؛ سَنَةَ خروجه إلى الحجِّ .

وفاته : توفي ـ كما قيل ـ سنة : ثلاث وثمانين ومئتين . وقيل : ثلاث وسبعين ومئتين .

طفولته : وقال سهل : كنت ابنَ ثلاث سنِّين ، وكنت أقومُ بالليل أنظرُ إلى صلاة خالي محمد بن سوار ؛ وكان يقوم بالليل ، فربما كان يقول لي : يا سهل ؛ اِذهب فنَم فقد شغلتَ قلبي .

فيه إشارة إلى أن الله وفَّقه من صغره الذي لا يميز فيه الصغير غالباً .

تربيته : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا الفتح يوسف بن عمر الزاهد ؛ يقول : سمعت عبد الله بن عبد الحميد ؛ يقول : سمعت عبيد الله بن لؤلؤ ؛ يقول : سمعت عمر بن واصل البصري ؛ يحكي عن سهل بن عبد الله ؛ قال : قال لي خالي محمد بن سوار يوماً . . وكان عمره إذ ذاك ثلاث سنين : **ألا تذكرُ الله الذي خلقك !؟** .

فقلت : كيف أذكره ؟ فقال لي : قل بقلبك عند تقلُّبِك في ثيابك (ثلاث

مرات) . . من غير أن تحرِّك به لسانك : الله معي ، الله ناظرٌ إليَّ ، اللهُ شاهدي[1] .

فقلتُ ذلك ثلاث ليال ، ثمَّ أعلمتُه ، فقال لي :

الذكر النافع : قل في كلِّ ليلة (سبعَ مرَّات) . فقلتُ ذلك ثم أعلمتُه ، فقال : قل في كلِّ ليلة (إحدى عشرة مرة) ، فقلت ذلك ، فوقع في قلبي له حلاوةٌ .

فلما كان بعد سنة ؛ قال لي خالي : احفظ ما علَّمتُك ، ودُمْ عليه إلى أن تدخل القبر ، فإنَّه ينفعك في الدنيا والآخرة .

فيه إشارة إلى قوله ﷺ لجبريل لما سأله عن الإحسان ؛ فقال : « أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ »[2] . وهذه مراقبة الله تعالىٰ عند الأعمال .

فلم أزل علىٰ ذلك سنين ، فوجدت لها : لهذه الكلمات حلاوةً فِي سِرِّي تحملني على ملازمتها ، وأمره بأن يقولها أولاً ثلاثاً ثمَّ سبعاً ثمَّ إحدى عشرة على سبيل التدريج !! تسهيلاً لانتقاله من شيء إلى ما هو أولىٰ منه .

وفي ذلك تدريج وتعليم للمريد كيف يتعلَّم المراقبة ، وأوَّلها ذكر الله تعالىٰ باللسان . . تكراراً مع حضور القلب ، فإذا تنبَّه ذَكَره بقلبه خاصَّة ؛ إن لم يكن في ذكره بلسانه أيضاً زيادة فضيلة ، فلهذا لما رآه منتهياً قال له فيما ذكر (قل بقلبك من غير أن تحرِّك به لسانك) .

وفي نقله له في عدد الأفراد سرٌّ ؛ وهو أنه تعالىٰ فردٌ يحب الفرد ، وكونه ثلاثاً وسبعاً وإحدى عشرة !! كأنه لكون الثلاث أقلَّ الجمع ، والسبع عدد السماوات السبع والأرضين وأيام الأسبوع ، والإحدى عشرة نهاية صلاة الوتر !!.

ثم قال لي خالي يوماً : منبِّهاً لي على فائدة هذه الكلمات : يا سهل ؛ مَن كان الله معه ؛ وهو ناظر إليه ، وشاهِدَه . . أيعصيه ؟ لا ، فإنَّ مَن استشعر من

---

(١) في (م) شاهدٌ عليَّ . وما أثبته أولى وأليق بالتنبيه الذي نبَّه عليه خاله بعد ذلك .
(٢) تقدم تخريجه ص ٣٦ .

الله ذلك لم يعصه . إيَّاك والمعصية . فكنتُ أخلو ؟ أي : أحبُّ الخلوة .

إلى الكُتَّاب : فبعثوا بي : أهلي إلى الكُتَّاب ، لأتعلَّم فيه القرآن . فقلت لهم : إني لأخشىٰ أن يتفرَّق عليَّ هَمِّي ، ولكن شارطوا المعلِّم : أنِّي أذهبُ إليه ساعة ؛ فأتعلَّم ، ثم أرجع إلى خلوتي . فمضيتُ إلى الكُتَّاب ، وحفظت القرآن ؛ وأنا ابنُ سِتِّ سنين ، أو سبع سنين .

وكنت أصوم الدَّهر ؛ وقوتي خبزُ الشعير .

إلى أن بلغتُ اثنتي عشرة سنة ؛ فوقعت لي مسألة ؛ الظاهر أنَّها من أحوال القلوب والمعاملات مع الله تعالى . . وأنا ابن ثلاثَ عشرة سنة ، فسألت أهلي أن يبعثوا بي إلىٰ البصرة أسألُ عنها ، فجئت البصرة ؛ وسألت علماءها فلم يشفِ أحدٌ منهم عني شيئاً ! ! .

فخرجت إلى « عبَّادان » . . إلى رجل يعرف بـ« أبي حبيب » حمزة بن عبد الله العَبَّاداني ، فسألته عنها فأجابني . وأقمتُ عنده مدَّة أنتفعُ بكلامه وأتأدَّب بآدابه ! .

زهده : ثم رجعت إلى « تُستَر » ؛ فجعلتُ قوتي اقتصاراً على أن يُشتَرىٰ لي بدرهم من الشعير « الفَرَق » وهو قدر ستة عشر رطلاً بالبغدادي[1] ـ وقيل ستة وثلاثين . وقيل : ستين . وقيل : ثمانين ـ فيطحن ويخبز لي ، فأُفطِرُ عند السَّحَر كلَّ ليلةٍ علىٰ أُوقِيَّة واحدة بحتاً : بغير ملح ؛ ولا إدام ، فكان يكفيني ذلك الدِّرهمُ سنة .

هذا لا ينطبق على تفسير الفرق بشيءٍ مما ذكر ! ! والرِّطل اثنتا عشرة أوقية كما هو معروف .

رياضته : ثمَّ عزمتُ علىٰ أن أطوي : أجوعَ ثلاثَ ليال ثمَّ أفطر ليلةً ، ثمَّ أطوي خمساً ؛ ثُمَّ أُفطر ليلة ، ثمَّ أطوي سبعاً ؛ ثمَّ أُفطر ليلة ، ثمَّ أطوي خمساً

---

(١) والرطل : مئة وثمانية وعشرون درهماً بتقدير النووي رحمه الله ، أو مئة وثلاثون عند ابن الرفعة .

وأمَّا الفَرْق فمئة وعشرون رطلاً . فإذا كان الدرهم ٣,٢ وهو الدرهم الشرعي فيكون الرطل ٤٠٩,٦ غراماً . ويكون الفَرْق ٤٩١٥٤ غراماً .

وعشرين ليلة . فكنت عليه عشرين سنة ، ثمَّ خرجتُ أسيح في الأرض سنين .

إيضاح : فيه تنبيهٌ على أنه ينبغي لمريد السياحة أن لا يتعرَّض لها بلا زاد . . حتىَّ يتعوَّد الصبر والقناعة باليسير ، والقوَّة على الجوع ، لتصير راحته في دوام ذكر الله تعالىٰ ومناجاته ، فيشتغل بذلك عن أكله وشربه ، ويمنُّ الله عليه بالقوة فيه كما مَنَّ علىٰ النَّبيِّ ﷺ بذلك في وصاله الصوم .

ثمَّ بعد السياحة رجعتُ إلى « تُستَر » ، وكنت أقومُ الليل كلَّه . قاله لتلامذته ليقتدوا به فينال أجر الدالِّ على الخير[1] .

الاقتداء والاجتهاد: سمعت محمد بن الحسين؛ يقول: سمعت أبا العبَّاس البغداديَّ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن فراس ؛ يقول : سمعت نصرَ بن أحمد ؛ يقول : قال سهل بن عبد الله :

كلُّ فعل يفعلُه العبدُ بغير اقتداءٍ شرعيٍّ ؛ طاعةً كان الفعل . . أو معصية ! ! فهو عيشُ النفس ، وكلُّ فعلٍ يفعله بالاقتداء الشرعيِّ ! ! وذلِك فيما إذا كان الفعل طاعة . . فهو عذابٌ علىٰ النفس . لأنَّ الاقتداء مخالفةُ الهوى ، وخلافه علمل بالهوىٰ ! وقد مدح الله تعالىٰ الناهيَ نفسه عن الهوىٰ[2] .

وقال رجل لسهل : أريد أن أصحبك ! فقال له : فإذا مات أحدُنا . . فمن يصحبُ الثاني؟ قال: يرجع إلى الله تعالىٰ[3]. قال: فليفعل الآن ما يفعله غداً.

* * *

---

(١) وفي الحديث الشريف : « ٱلدَّالُّ عَلَىٰ ٱلْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ » ، والمراد منه ـ كما قال العروسيُّ ـ حصول أصل الأجر . . وإن تفاوت الكمُّ ؛ أو الكيف . والحديث أخرجه مسلم : ٣٣ـ ١٨٩٣ ؛ عن أبي مسعود الأنصاري بلفظ « مَنْ دَلَّ عَلَىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ » .

واللفظ المتقدِّم أخرجه إمامنا أبو حنيفة في « مسنده » ، والبزار ، والطبراني في « الكبير » ؛ عن أنس .

(٢) بقوله عزَّ من قائل ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات] .

(٣) حيث هو الذي منه الإيجاد ، وإليه مرجع العباد ، فاللائق مصاحبته من أوَّل الأمر ، وهذا إذا لم يكن الغرض منه إهمالَ طلب المرشد والواسطة ، بل الرجوع مع ذلك إليه سبحانه وتعالى ، وإلا فقد قيل (لولا الواسطة لذهب الموسوط) والله تعالى أعلم (عروسي : ١/ ١١٣)

ومنهم : ١٢ ـ أبو سليمان عبد الرحمان بن أحمد بن عطية الداراني
ـ وفي نسخة : الدارائي ـ

نسبته ووفاته : و« داران » ـ وفي نسخة : وداريا ـ قرية من قرىٰ دمشق . مات سنة : خمس عشرة ومئتين .

من حكمه : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن محمَّد الداريَّ ؛ يقول : أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن أبي حسَّان ؛ يقول : سمعتُ أحمد بن أبي الحَوَارِيِّ ؛ يقول : سمعت أبا سليمان الداراني ؛ يقول :

المراقبة والشهوة : من أحسنَ في نهاره بمراقبة حركاته وسكناته مع الله تعالىٰ . . كُوفِىءَ : جوزي في ليله على ذلك . ومن أحسن في ليلِهِ لما ذكر . . كُوفِىءَ في نهاره عليه ، ومن صَدَقَ في ترك شهوةٍ لشيء ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالىٰ أكرمُ من أن يعذِّب قلباً بشهوة تركت لهُ .

سُكنىٰ القلب : وبهذا الإسناد ؛ قال : إذا سكنت الدُّنيا القلبَ ؛ بأن كَمُل اشتغاله بها . . ترحَّلت منه الآخرة . . فلم يتفكر في أعمالها ؛ ولم يستعدَّ لها .

ورعه وتحرِّيه : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان محمد بن الحسين السُلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت الحسين بن يحيى ؛ يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نُصَير ؛ يقول : سمعتُ الجنيد ؛ يقول : قال أبو سليمان الدَّارانيُّ :

ربَّما يقعُ في قلبي النُّكتَةُ : كلمة الحكمة مِن نُكَت القوم أياماً ؛ فلا أقبلُـها منه : لا أستحسنها منها . . إلاَّ بشاهدين عدلين : الكتابُ ، والسُّنَّة . ولم يكتفِ بأحدهما احتياطاً ! لجواز أن يكون أحدُهما مخصّصاً ؛ أو ناسخاً ؛ أو مبيِّناً للآخر .

من حكمه : وقال أبو سليمان : أفضلُ الأعمال خلافُ هوىٰ النفس : ما ليس للنفس فيه هوى ، إذ العمل الذي ينشئه عاملُه على الصدق والإخلاص أفضل الأعمال .

حكمة أخرى : وقال : لكلِّ شيءٍ عَلَم ، وعَلَم الخُذلان : علامته تركُ البكاء .
والتوبة والتضرع ممن هو مذنب ؛ أو مقصِّر ؛ أو عازم على سلوك المنهاج الأفضل ، ولم يجد من نفسه نهضة إلى قيام الليل وصيام النهار ونحوهما ، قال تعالىٰ ﴿ فَلَوْلَآ ـ: فهلا ـ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا ـ: عذابنا ـ تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

حكمة : وقال : لكلِّ شيءٍ صدأٌ : وسخ يمنع صفوه ، وصدأُ نورِ القلب شِبَع البطن .

حكمة : وقال : كلُّ ما شَغَلك عن الله تعالى ؛ من أهل ، أو مال ، أو ولد ! فهو عليك مشئوم . ـ وفي نسخة : مشوم ـ قال تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾[2] . وقال ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾[3] ،

وذلك لاشتغال الإنسان بهم ، وبالسعي في أغراضهم عن آخرته ، يقال رجل مشؤم ومشوم . . من الشؤم ؛ وهو ضِدُّ اليُمْن ، ومنه (تشاءم القوم بكذا) .

هواتفه : وقال أبو سليمان : كنت في ليلة باردة في المحراب ، فأقلقني البرد ، فخبأتُ إحدىٰ يديَّ من البرد ، وبقيت الأخرى ممدودة للدعاء ، فغلبتني عيناي ، فهتف بي هاتف : فقال لي يا أبا سليمان ؟ قد وضعنا في هذه ما أصابها من الخيرات ، ولو كانت الأخرىٰ ممدودة ؛ لوضعنا فيها مثل ذلك . . فآليتُ : فحلفت على نفسي أن لا أدعوَه إلاَّ ويداي خارجتان . . حَرّاً كان الزمن ؛ أو برداً .

فيه تنبيهٌ على أنه ينبغي للعبد إذا دعا أن يستفرغ كلِّيَّته بقلبه وجوارحه وإقباله على ما أُمِر بالإقبال عليه ، وبسط اليدين في الدعاء .

وقال أبو سليمان : نمتُ عن وِردِي في العبادة ؛ فإذا أنا بحوراءَ جميلةٍ من الحور العين . . تقول لي : تنامُ ؛ وأنا أُرَبَّىٰ لك في الخدور : الستور منذ

---

(١) الآية : ٤٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .
(٢) الآية : ١٥ ، من السورة التي ذكر فيها : التغابن .
(٣) الآية ١٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التغابن .

خمس مئة عام !! أَعَدَّني الله لك جزاءً قبل أن تعمل ؟؟

بكاؤه : أخبرنا عبد الله بن يوسف الأصبهاني ؛ قال : أخبرنا أبو عمرو الجولستي ؛ قال : أخبرنا محمد بن إسماعيل ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن أبي الحواريِّ ؛ قال : دخلت على أبي سليمان يوماً ؛ وهو يبكي ؛ بكاءَ محبة وشوق للوصول، لا بكاء فرح وسرور بالنعم، ولا بكاء شكر للقبول . فقلت له : ما يبكيك ؟

فقال : يا أحمد ؛ ولِمَ لا أبكي و أنا أعلم أنه إذا جَنَّ الليل : دخل وستر ، ونامت العيون ، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه ، وافترش أهلُ المحبَّة أقدامَهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وتقطَّرتْ في محاريبهم . . . أشرف الجليل سبحانه وتعالى : تفضَّل عليهم بنعمه ، وزاد قلوبهم حصوراً وشوقاً إليه ؛ فنادىٰ : يا جبريلُ بشّرهُم بأنَّ بعيني : برعايتي وحفظي مَن تلذَّذ بكلامي ، واستراح إلى ذِكري ، وإنِّي لَمُطَّلع عليهم في خَلَواتهم وجَلَواتهم . . أسمع أنينهم . . وأرى بكاءهم ؛ فلِمَ لا تنادي فيهم ؟! يا جبريل ؛ قل لهم: ما هذا البكاء ؟! هل رأيتم حبيباً يعذِّب أحِبَّاءَه ؟ أم كيف يَجْمُل : يحسن بي أن آخذ قوماً بالعذاب . . إذا أجَنَّهم الليل : سترهم ، تملَّقوا : تودَّدوا وتلطَّفوا لي ؟! فبي : فبنفسي حلفت ﴿ إنَّهم إذا وردُوا عليَّ القيامةَ : في يومها . . لأكشفَنَّ لهم عن وجهي الكريم : عن ذاتي حتَّىٰ ينظروا إليَّ ، وأنظر إليهم ﴾!! .

وذلك بكشف الحُجُب التي تحجبُهُمَ عن رؤيتهم له في الدنيا ، أما هو ! فلا يحجب عن رؤيتهم لاستحالة ذلك في حقِّه ، فلا يوصف بأنه محجوب ؛ وإن وصف بأنَّه محتَجِب ! لأنَّ المحجوب مقهورٌ ؛ والمحتجبُ : المتَّخِذُ لنفسه حجاباً قاهرٌ ، وله تعالىٰ سبعون حجاباً من نور وظلمة . . على ما ورد في الخبر[1]، وفسِّرت حجبُ النور بالعلوم والوقوف عندها ، وحجب الظلمة بالجهالات .

---

(١) المشهور أنها سبعون ألفاً !! وفيه أخبار كثيرة . منها ما أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » برقم : ٢٦٥ ، وابن أبي عاصم في « السنة » : ٧٨٨ ؛ عن سهل بن سعد وعبد الله بن عَمْرو . . قال رسول الله ﷺ : « دُونَ ٱللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سَبْعُونَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ ، وَمَا تَسْمَعُ نَفسٌ شيئاً مِن حِسِّ تلْكَ الحُجُبِ إلاَّ زَهِقَتْ نَفْسُهُ » .

ومنهم : ١٣ ـ أبو عبد الرحمان حاتم بن علوان
ويقال حاتم بن يوسف الأصمُّ

رتبته : من أكابر مشايخ خراسان ، وكان تلميذَ شقيق ، وأستاذَ أحمد بن خضرويه .

وفاته : مات سنة : سبع وثلاثين ومئتين .

تسميته : قيل : لم يكن أصمَّ ؛ وإنَّما تصامَمَ مرَّة فسُمِّي به .

سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : جاءت آمرأة ؛ فسألت حاتماً عن مسألة احتاجت إليها ، فاتفق أنَّه خرج منها في تلك الحالة صوتٌ : ريحٌ ! فخجلت منه غايةَ الخجل ؟! فقال لها حاتم لَمَّا أدرك منها ذلك : ارفعي صوتَك بكلامك . فأَرَىٰ من نفسه أنَّه أَصمُّ ؛ رحمة لها وشفقة عليها[1] . فَسُرَّت المرأةُ بذلك ؛ وقالت : إنَّه لم يسمع الصوت ؛ فغلب عليه اسم الصمم . ـ وفي نسخة : الأصم ـ وحدَّث بذلك مَن يقتدي به من تلامذته ليسلك مسلكه في الشفقة على الخلق ؛ ودفع ما يؤلمهم عنهم .

حواره مع الشيطان : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَميُّ رحمه الله ؛ قال : سمعتُ أبا عليٍّ سعيدَ بن أحمد ؛ يقول : سمعت أبي ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله ؛ ـ وفي نسخة : عبد ، وفي أخرى : عبيد ـ يقول : سمعتُ خالي محمد بن الليث ؛ يقول : سمعتُ حامداً اللَّفَّاف ؛ يقول : سمعتُ حاتماً الأصمَّ ؛ يقول :

ما من صباح يمرُّ بي إلاَّ والشيطانُ يقول لي : ماذا تأكل ! ! وماذا تلبس !؟ وأين تسكن !؟ فأقول له : آكل الموتَ ، وألبسُ الكفن ، وأسكن القبر .

فيه تنبيهٌ على أنه ينبغي للإنسان أن يقصِّر أمله .

وقيل له مرة (من أين تأكل ؟). فقال ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ

---

(١) وعملاً بخبر « إِنَّ ٱللهَ سِتِّيرٌ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ السِّتِّيرِيْنَ » وخبر « تخلَّقوا بِأَخلاقِ ٱللهِ » (عروسي : ١/١١٧) .

ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[1]

شهوته : وبإسناده المذكور قيل له : ألا ـ بمعنىٰ « هل » ـ تشتهي شيئاً ؟! فقال : أشتهي عافية يوم إلى الليل .

فقيل له : أليست الأيَّام كلُّها عافية؟ فكيف لا تكون أنت في عافية !! فقال : إنَّ عافيةَ يومي أن لاَّ أعصيَ الله فيه . فإنَّه العافية الكبرىٰ : التي لا مرض بعدها ؛ وهي السلامة من العقاب وأسبابه .

مع ذابحه : وحُكيَ عن حاتم الأصمِّ ؛ أنَّه قال : كنتُ في بعض الغزوات ؛ فأخذني شخص تركي فأضجعني للذَّبح ؛ وجلس على صدري وأخذ بلحيتي ، وأخذ في إخراج السكين من خُفِّه ؛ فلم يشتغل به : بالذبح : بألمه قلبي ، لاشتغاله بمناجاة الله تعالىٰ ؛ والنظر لما تجريه المقادير كما قال ، بل كنتُ أنظر : ماذا يحكُم الله تعالى فيَّ . . فبينما هو يطلب السكّين من خُفِّه ؛ أصابَهُ في حلقه سهم غَرْبٌ : أتاه من حيث لا يدري فقتله ، وطرحه عني فقمتُ إليه ، وأخذت السكين من يده فذبحته بها . فمن كان قلبه مع الله رأىٰ منه ما لم يره من الأباء والأمهات!!

وفي هذه الحكاية دلالة على كمال التثبُّت وقوة اليقين ؛ بأنَّه لا يَجري على العبد إلا ما سبقت به المقادير .

مذهبه والموت : سمعت عبد الله بن يوسف الأصبهاني ؛ يقول : سمعت أبا نصرٍ منصورَ بن محمد بن إبراهيم الفقيه ؛ يقول : سمعت أباَ َمحمَّد : جعفرَ بنَ محمد بن نصير ؛ يقول : روي عن حاتم أنَّه قال :

مَن دخل في مذهبنا هذا : علم التصوف فليجعلْ في نفسه أربعَ خِصال من الموت : ١ـ موتاً أبيض ؛ وهو الجوع . سُمِّي أبيض ! لأنه يُحيي القلب ويصفِّيه للذكر . و٢ـ موتا أسود ؛ وهو : احتمال الأذىٰ من الخلق . سُمِّي أسودَ ! لما يَلْحق الإنسانَ به من الغمِّ وعدم الانتصار للنفس . و٣ـ موتا أحمر ؛ وهو : العملُ الخالص من الشَّوب ـ وفي نسخة الاقتصار على قوله : وهو العمل ـ ومخالفة الهوى ، سمِّي أحمر ! بلون الدم الحاصل بالجرح

---

(١) الآية : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المنافقون . قاله على وجه الاستدلال .

والقطع ؛ لمخالفته الهوى وقطعه النفس عن شهواتها . و٤ـ موتا أخضر ؛ وهو طرح الرقاع بعضها على بعض للتستُّر بها . سمِّيَ أخضر بلون لباس أهل الجنة! لأنه شعار الصالحين، فإنَّ العبد إذا قلَّل في اللباس . . بأن لم يكن له فيه غرض إلاَّ ما يستر به عورته ، وإن تقطع مما عليه موضع ٱلتقط رَقَعهُ وغسلها بالماء وتستَّر بها . . جوزي بما وعد الله به السابقين ، كما قال تعالى ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾[1] ، وقال تعالىٰ ﴿ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٌ وَإِسۡتَبۡرَقٌۖ ﴾[2] .

من كلامه : ومن كلام حاتم : اِلزم خدمة مولاك تأتيك الدنيا راغمة والآخرة راغبة .

وتعهَّد نفسك في ثلاث مواضع : ١ـ إذا عملت فٱذكر نظر الله إليك ، و٢ـ إذا تكلَّمتَ فٱنظر جمع الله إليك ، و٣ـ إذا سكتَّ فٱنظر علم الله فيك .

* * *

ومنهم : ١٤ ـ أبو زكريا يحيىٰ بن معاذ الرازي ؛ نسبةً إلى الري مدينة مشهورة ، والزاي زائدة في النسبة[3] الواعظ

رتبته : نسيجُ وحده : لا نظير له في وقته ؛ من علم وغيره ، له لسان : كلام متين في الرجاء الآتي بيانه في بابه ص ٤٥١ خصوصاً ؛ وله كلام قويم في المعرفة بالله تعالىٰ .

رحلاته : خرج إلى بلخ ، وأقام بها مدَّة ، ورجع إلى « نيسابور » ؛

موته : ومات بها سنة : ثمان وخمسين ومئتين . وقبره بها يُستشفىٰ به .

إخوته : وكانوا ثلاثة أخوه : يحيىٰ ، وإبراهيم ، وإسماعيل . وكلُّهم زهَّاد .

---

(١) الآية : ١٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإنسان/ الدهر .

(٢) الآية : ٢١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإنسان/ الدهر .

(٣) وكذلك تزاد في النسبة إلى « مرو » مروزي .

من حكمه :

١ـ **الورع والزهد** : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ عبيد الله بن محمد بن أحمد بن حمدان العُكْبَري ؛ يقول : سمعت أحمد بن محمد بن السَّريِّ ؛ يقول : سمعت أحمد بن عيسى ؛ يقول : سمعت يحيى بن معاذ ؛ يقول : **كيف يكون زاهداً مَن لا ورع له ؟** . إذ الورع ترك الشبهات ، والزهد ترك الحلال . . كما سيأتي في بابَيْهما ص ٣٨٩ ، ص ٤٠٣ . وإليهما أشار هنا بقوله : **تورَّعْ عما ليس لك أخذُه شرعاً ، ثم أزهد فيما لك أخذه شرعاً** .

٢ـ **أنواع الجوع** . وبهذا الإسناد قال : **جوعُ التوَّابين تجربةٌ لهم** : هل يصبرون عن الطعام ، فإن عملهم على خلاف العادة .

وجوعُ الزَّاهدين سياسةٌ : قيام على أنفسهم بما يصلحهم ؛ لا بما يتعوَّدون به الجوع ، فإن أنفسهم معرضة عن الطعام بزهدها .

وجوعُ الصدِّيقين تكرمَةٌ من الله لهم حيث أشغلهم بذكره ومناجاته ودوام أنسه وتلذُّذهم بما هم فيه عن الطعام .

٣ـ **الفوت والموت** : وقال يحيىٰ : **الفوتُ لما تعلَّق به القلب أشدُّ على النفس من الموت ؛ لأنَّ الفوتَ انقطاعٌ عن الحق ، والموت انقطاعٌ عن الخلق** .

وذلك لأنَّ الموت معلوم والعبد ينتظره ويتهيَّأُ له فخفَّ أمره ! بخلاف ما تعلَّق به القلب . . وليس معلوماً ، واجتهد في تحصيله ثم فاته ! فإن ألمه عليه شديد ، وإن كان الفائت عظيماً فالألم عليه أشدُّ ، ولا أعظم من الله تعالىٰ ، فمن اجتهد واشتغل بجميل هواه ؛ ودام ذكره لمولاه ففاته الوصول ؛ وحجب عنه لسبب من الأسباب فألمُه أشدُّ الآلام . ولذلك قال بعضهم[1] : اللهم إن عذَّبتني بشيء فلا تعذبني بذُلِّ الحجاب .

٤ـ **الزهد** : وقال يحيى : الزهد : علاماته ثلاثة أشياء : ١ـ **القِلَّة** من المال ، و٢ـ **الخلوة** عن الخلق ، و٣ـ **الجوع** بقلَّة أكل الطعام ، وما ذكره بعض الدنيا المزهود فيها ! لأنها غير محصورة في المال والطعام ومخالطة الخلق .

---

(١) هو السريُّ السقطي وقد تقدم ص ٩٤ .

٥ـ الوقت : وقال يحيىٰ : لا تربحُ على نفسك بشيء أجلَّ وأعظم من أن تشغَلَها في كلِّ وقت بما هو أولىٰ بها . إذ حياة العبد في الدنيا رأس ماله ؛ وهي في الحقيقة نفسه ، فإن ضيَّعها في البطالات والمكروهات . . فقد خسرها ، وإن شغلها بالخيرات والتقرُّب إلى الله تعالى . . فهو الرابح عليها ، وأجلُّ ما يربح عليها ولها إذا شغلها في كلِّ وقت بما ذكر ، ولذلك قيل (الصوفيُّ ابن وقته ؛ لا نظر له إلى ماضٍ ولا إلى مستقبل) ، لأنَّه إذا اشتغل بالماضي ضيَّع ما هو فيه ! والمستقبل لا يعلم حاله كيف هو فيه .

تأديب لطيف : وقيل : إنَّ يحيىٰ بن معاذ تكلَّم ببلخ في تفضيل الغنىٰ على الفقر ؛ من حيث إنَّ النفع المتعدِّيَ أفضلُ من القاصر ، فأُعطي ثلاثين ألف درهم ؛ فقال بعض المشايخ : لا بارك الله له في هذا المال . فخرج إلى نيسابور ، فوقع عليه اللصُّ ، وأخذ منه ذلك المال .

توضيح : فيه تنبيه على تفضيل الفقر على الغنىٰ ، من حيث إنَّ فيه عمارةَ القلوب وفراغها لمناجاة الله تعالىٰ ، وسيأتي ذلك في بابه ص ٧٧٣ .

والغرض من ذلك بيان فضيلة يحيى ، لأنَّه لَمَّا أُعطي المال الكثير ردَّه الله إلى الفقر ؛ لطفاً به . ولعلَّه إنَّما تكلَّم على التفضيل الغنىٰ على الفقر بالنظر للحاضرين من الأغنياء ، فحثَّهم بذلك على التفضُّلات والمبرَّات ليواسوا الفقراء ! ! .

تعقيب : ورُوي عنه أنَّ رجلاً قال له (إنَّك لَتحبُّ الدنيا !) فقال : أين السائل عن الآخرة ؟ قال : ها أنا . قال : أخبرني عنها . . أبالطاعة تُنال : أم بالمعصية ؟ قال : لا ، بل بالطاعة . قال : أخبرني عن الطاعة . . أبالحياة تُنال . . أم بالممات ؟ قال : لا بل بالحياة . قال : فأخبرني عن الحياة . . أبالقوت تُنَال . . أم بغيره ؟ قال : بل بالقوت . قال : فأخبرني عن القوت ، أهو من الدنيا أم من الآخرة ! قال : لا بل من الدنيا . قال : فكيف لا أحبُّ دنيا قُدِّر لي فيها قوتٌ أكتسبُ به حياةً . . أدرك بها طاعة . . أنال بها الآخرة !؟ فقال : الرجل أشهد أن ذلك معنى قول النَّبيِّ ﷺ : « إِنَّ مِنَ ٱلبَيَانِ سِحْرَاً »[1] .

---

(١) أخرجه بزيادة اللام المزحلقة « لَسِحْـرَا » : البخـاري : ٥٧٦٧ ؛ عـن عبـد الله بـن عُمَـر =

الخائن بالسرِّ : أخبرنا عبد الله بن يوسف الأصبهاني ؛ قال : أخبرنا[1] أبو القاسم عبد الله بن الحسين بن بالويه الصوفيُّ ؛ قال : سمعت محمد بن عبد الله الرازيَّ ؛ يقول : سمعت الحسين بن علويه ؛ يقول : سمعتُ يحيىٰ بن معاذ الرازيَّ ؛ يقول : من خان الله تعالىٰ في معاملته في السرِّ بالمراآة والدعوى . هَتَكَ اللهُ سَتْرَه في العلانية ؛ عقوبة له .

خلطة الأشرار : سمعتُ عبد الله بن يوسف ؛ يقول : سمعت أبا الحسين محمد بن عبد العزيز المؤذِّن ؛ يقول : سمعتُ محمد بن محمد الجرجانيَّ ؛ يقول : سمعت عليَّ بن محمد ؛ يقول : سمعتُ يحيىٰ بن معاذ الرازيَّ ؛ يقول : **تزكيةُ الأشرار لك هُجْنَة** : قبح ونقص بك ، **وحبُّهم لك عيبٌ عليك** ، لأنَّ ذلك يدلُّ على موافقتك لهم فيما هم فيه ، إذ لو نصحتهم وأنكرت علهيم أبعدوك وكرهوك ، **وهانَ عليك** غالباً مَن احتاج **إليك** وسألك . إذ احتياج الشخص إلى الخلق وعدم الزهد فيما بأيديهم . . يؤدِّي إلى هوانه عليهم إلا مَن اصطفاه الله ممن إذا احتاج إليهم أحد ساعدوه بأنفسهم وأموالهم ؛ ودَعَوُا الله له أن يُمدَّه بعونه ويغنيه عنهم ، وقليل ما هم ! بخلاف الاحتياج إلى الله وسؤاله لا هوان فيه على أحد ! .

من كلامه :

١ ـ بئس الصديق : ومن كلام يحيى : بئس الصديق صديقٌ يحتاج أن يقال له (اُذكرني في دعائك) ، وبئس الصديق صديقٌ يحتاج أن يعتذَر إليه ، وبئس الصديق صديقٌ يحتاج أن يعيش بالمداراة .

٢ـ الخالق وخلقه : ومن كلامه أيضاً : على قدر حُبِّك الله يحبُّك الخلق ، وعلى قدر خوفك من الله يهابك الخلق ، وعلى قدر شغلك بالله يشتغل في أمرك الخلق .

* * *

* *

*

= رضي الله عنهما . وبدونها أبو داود : ٥٠١١ ؛ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما . و : ٥٠١٢ ؛ عن بريدة بزيادة .

(١) في (م) أنبأنا . وبينهما فرق عند أصحاب الحديث !

ومنهم : ١٥ـ أبو حامد أحمد بن خِضرَوَيْه [وخِضْرُوْيَهْ] البلخي ؛
نسبة إلى بلخ : بلدةٍ من خراسان
فتحها الأحنف بن قيس زمنَ عثمان رضي الله تعالىٰ عنه

لمحة عنه : من كبار مشايخ خراسان ، صحبَ أبا تراب النَّخشبيَّ .

قدم نَيْسابور بلدة مشهورة ، وزار أبا حفص الحدَّاد ، وخرج إلى بَسطام في زيارة أبي يزيد البَسطامي ، وكان كبيراً في الفتوة الآتي بيانها في بابها ص٦٦٨ ، وفي غيره .

همته وحاله : وقال أبو حفص المذكور : ما رأيت أحداً أكبرَ همَّةً ، ولا أصدقَ حالا ؛ من أحمد بن خضرويه .

وكان أبو يزيد إذا ذكره يقول (أستاذُنا أحمد) بن خضرويه ؛ تبجيلاً وتعظيماً له .

عمره : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعتُ محمد بن حامد ؛ يقول : كنت جالساً عند أحمدَ بنِ خضرويه ؛ وهو في النزع ، وكان قد أتى عليه خمسٌ وتسعون سنة .

فسأله بعض أصحابه عن مسألة ؛ فدمعت عيناه ! وقال تأديباً له بلطف : يا بني ؛ بابٌ ـ يعني لقاء ربِّه ـ كنتُ أدقُّه خمساً وتسعين سنة ، يعني بـ(دقِّه له) عبادتُه لربِّه رجاءَ قربه ! هو ذا يفتح لي الساعة ؛ لا أدري ! أبالسعادة يفتح أم بالشقاوة ؟ أنىٰ ـ أي : من أين ـ لي أوانُ الجواب في هذه الحالة ؟!!

احتضاره وديونه : قال بعض أصحابه : وكان عليه سبع مئة دينار ديناً ؛ ظاهر حاله أنَّه استدانها لينفقها في جهة برٍّ . . وغرماؤه عنده ؛ فنظر إليهم ، وذكر دينَهم ، وأنَّ نفوسهم إنما كانت مطمئنَّة به في حياته ؛ وقال : اللّهم ؛ إنَّك جعلتَ الرُّهون وثيقةً لأرباب الأموال ؛ تطيب أنفسهم بوجودها ، وأنت تأخذُ عنهم ـ بمعنىٰ : منهم ـ وثيقَتَهم ! وأنا وثيقتهم !! وقد أردتَ أخذي فأدِّ عنِّي دينهم .

قال : فدقَّ داقٌّ الباب . والظاهر أنه إنسيٌّ كان ذا مروءة محباً للخير ، ويحتمل أنَّه ملك أو جنيٌّ في صور أنسيٍّ !! فقال : أين غرماء أحمد بن خضرويه ؟ فقيل له : هم الجالسون هنا . فقضىٰ عنه دينهم .

وفاته : ثم خرجت روحه ، ومات رحمه الله سنة : أربعين ومئتين .

من حكمه : وقال أحمد بن خضرويه : **لا نومَ أثقلُ من الغفلة عن الآخرة** ، لأنَّ النائم حسَّاً إذا نُبِّه انتبَّه ، بخلاف النائم غفلة . . إذا نُبِّه لا ينتبه بذلك غالباً ؛ فتضيع مصالحه الآخروية ، **ولا رِقَّ أَملكُ للشخص من الشهوة** لاتباعه هواه ، لأنَّ مَن مَلَكه هواه عَمِيَ عن عمل أخراه ، ولهذا قال ﷺ : « تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّينَارِ ، وَعَبْدُ ٱلدِّرْهَمِ ، وَعَبْدُ ٱلقَطِيفَةِ ، وَعَبْدُ ٱلخَمِيصَةِ »[1] ، **ولولا ثِقلُ الغفلة عليك** لمَا ظفرَتْ بك الشهوة . لأنَّك لو كنت مستيقظاً عند حضور دواعي نفسك لأفعالك وفَرَّقت بين المذموم منها والمحمود . . لسلمْتَ من شهواتك واشتغلت بقربك وطاعاتك .

* * *

ومنهم : ١٦ـ أبو الحسين أحمد بن أبي الحَوارِيِّ : عبدِ الله بن ميمون

لمحة : من أهل دمشق ، صحب أبا سليمان الداراني وغيره . من أرباب الأحوال .

وفاته : مات سنة ثلاثين ـ قال السراج ابن الملقِّن : صوابه أربعين ؛ كما نبَّه عليه ابن عساكر ـ ومئتين .

وكان الجنيدُ رحمه الله يقول : أحمد بن أبي الحواريِّ ريحانةُ الشام .

---

(١) أخرجه ـ بدون القطيفة ـ البخاريُّ : ٢٨٨٧ : عن أبي هريرة رضي الله عنه بزيادة .

من حكمه : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُلَمي رحمه الله؛ يقول : سمعت الحافظ أبا أحمد ؛ يقول : سمعت سعيد بن عبد العزيز الحلبي ؛ يقول : سمعت أحمد ابن أبي الحوارِي ؛ يقول :

مَن نظر إلى الدنيا نظر إرادة وحبٍّ لها لاستحسانها عنده . . **أخرج الله** في حالة نظرة إليها **نورَ اليقين والزهد من قلبه** ، لأنَّ بين إرادتها وحبِّها ؛ وبين يقين حقارتها ونقصها عند خالقها . . والزهد فيها تضادًّا .

العمل الباطن : **وبهذا الإسناد يقول** أحمد : **مَن عمل عملاً بلا اتِّباع سنَّة رسول الله ﷺ ؛ فباطل عمله** . لإخلاله بأركانه أو شروطه ، أو فباطل ثواب عمله لإخلاله بفضائل عمله التي بيَّنتها السنة .

أفضل البكاء : **وبهذا الإسناد قال أحمد بن أبي الحواري** : **أفضلُ البكاء بكاءُ العبد على ما فاته من أوقاته على غير الموافقة** . . على ما جاءت به السنَّة ، والعبد إذا بكىٰ على ذلك . . ١ـ قد يبكي على وقوعه في المعاصي ! و٢ـ قد يبكي على غلبة نفسه إياه على التوبة عنها بعد الوقوع فيها ! و ٣ـ قد يبكي على ارتكاب المكروهات وترك المندوبات ! و٤ـ قد يبكي على تقصيره عن أرفع الطاعات ونيل المقامات العالية ! و٥ـ قد يبكي على طروق الغفلات في كثير من الأوقات ! و٦ـ قد يبكي على عدم التلذُّذ بالمناجاة والحضور بقلبه في الدعوات ! .

وكلامه صادق بجميع هذه الأقسام بحسب الدرجات والمقامات .

أشد البلاء : **وقال أحمد** ابن أبي الحواري : **ما ابتلىٰ الله عبداً بشيء أشدَّ** عليه **من الغفلة والقسوة** . لأنَّهما يمنعان قبول المواعظ ، وسببُه توالي المخالفات والتلذُّذ بالشهوات ، وهذه البليّة تفوِّت خيراتِ الآخرة ، بخلاف بلايا الدنيا ؛ فإنَّها لا تخلو من أجور فكانت الغفلة والقسوة أعظمَ البلايا .

* * *

* *

*

ومنهم : ١٧ـ أبو حفص عمر بن مسلمة
ويقال : عمرو بن أسلم ـ وفي نسخة : والأصحُّ مسلمة ـ الحداد

أصله : من قرية يقال لها« كور داباذ » علىٰ باب مدينة نيسابور ؛ على طريق بخارا .

وفاته : أحد الأئِمَّة والسَّادة صحب ابن خضرويه وغيره ، وهو أوَّل مَن أظهر طريقة التصوُّف بنَيْسابور . **ومات سنة : نيف** ـ بتشديد الياء وتخفيفها ـ ، وهو الزائد على العقد ! ولم يعيِّنه المصنف ! وعيَّنه غيره ؛ فقال السمعاني : سنة خمس . وقال السُّلَمي : سنة أربع ـ **وستين ومئتين .**

من حكمه : قال أبو حفص : المعاصي بريدُ الكفر : رسله ومقدِّماته ، **كما أنَّ الحمَّىٰ** ونحوَها **بريدُ الموت** . فيه تحريض على ترك المعاصي ، فإنها إذا توالت على العبد تعلَّق قلبه بها ، وقلَّ سماعهُ للمواعظ لقسوة قلبه ، وصار من حزب الشيطان ، فإذا جاء وقت موته اشتدَّ كيده على أن يموت كافراً والعياذ بالله تعالى ، وإذا كان الشيطان يلعب به في حال صحَّته ؛ فكيف إذا توالت عليه أوجاعه واشتغل عقله الحارس لهواه بما هو فيه .

بطالة المريد : وقال أبو حفص : إذا رأيت المريدَ يحبُّ السَّماع ؛ فاعلم أنَّ فيه بقيَّةً من البَطالة[1] . إذ لو كمل شغله بالله تعالى لرزقه من اللَّذَّة بمناجاته ما يغنيه عن المحرِّكات ، إذ الغالبُ من السماع الخالي من الآفات والمنكرات تحريكُ القلوب للطاعة ، ومتى احتاج العبد فيها إلى المحرِّكات . . كان فيه بقيَّة من البَطالة .

حسن الأدب : وقال أبو حفص : حسن أدب الظاهر عنوانُ حسن أدب

---

(١) فيه إشارة إلى أنّه غير ضارٍّ في المبادي ، ولاسيَّما إذا كان محرِّكاً لذكر المحبوب الحقِّ . **فافهم** (عروسي ١/١٢٨) .

الباطن[١] . لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ »[٢] . وقال : « إِنَّ فِي ٱلجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ ٱلجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ ٱلجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ ٱلقَلْبُ »[٣] . فإذا تعمَّر قلب العبد بالمراقبة لله تعالىٰ ؛ وتأدَّب بآداب الله التي أدَّبه بها على لسان نبيِّه ﷺ . . تبعت جوارحه قلبَه ، لأنَّ القلب أوَّلُ عامر ، ومحلُّ النيَّات التابعُ لها الأعمال . . صحَّةً وفساداً .

كمال الفتوة : وقال أبو حفص : الفتوة أداءُ الإنصاف ، وتركُ مطالبة الإنصاف ـ وفي نسخة : الانتصاف ـ لأنَّ الفتى هو الذي يبذل كلَّ ممكن له بسهولة . . من نفس ؛ أو مال ؛ أو جاه ، ولا يرى له على ذلك حقاً ، لحسن خلقه وكمال فتوَّته وسخائه . ومَن هذه صفته لا يخطر بباله أن يطلب من أحد أن ينصفه ، لأنَّ طلبه ذلك ممن أذاه وظلمه دليلٌ على مؤاخذته بحقِّه ، وهذا ليس من كمال الفتوَّة .

ديوان الرجال : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا الحسن محمد بن موسى ؛ يقول : سمعت أبا عليٍّ الثقفيَّ ؛ يقول : كان أبو حفص يقول : من لم يزن أفعاله ـ وفي نسخة : وأقواله ـ **وأحوالَه في كلِّ وقت بالكتاب والسنة ؛ ولم يتَّهم خواطِرَه**[٤] . . **فلا تَعُدَّه في ديوان الرجال** الذين قال الله فيهم ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ ﴾[٥] ، لأنَّ من لم يكن كذلك . . فقد اغترَّ بحاله ، وأمن

---

(١) ولذا قيل (الظاهر عنوان الباطن) غير أنَّ ذلك أغلبيٌّ ، وإلاَّ فقد ثبت في الخبر « أَخْوفُ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي ٱلْمُنَافِقُ عَلِيْمُ ٱللِّسَانِ » . (عروسي) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة : ٢/٢٨٩ (مس اللحية في الصلاة) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول »: ١٨٤ ؛ عن أبي هريرة ، ورمز السيوطي في « الجامع » : ٧٤٤٧ لضعفه وأقرَّه المُناوي .

(٣) بعض من حديث نفيس متفق عليه عند البخاري : ٥٢ ، ومسلم : ١٠٧ ـ ١٥٩٩ ؛ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه : « ٱلحَلَالُ بَيِّنٌ ، وٱلحَرَامُ بَيِّنٌ . . » .

(٤) فعلى الإنسان أن يَعرض وارداتِ قلبه على الكتاب والسنة ، فما وافق واحداً منهما فليمضه ، وما لا . . فلا . فتدبَّر (عروسي : ١/١٢٩) .

(٥) الآية : ٢٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

خدعةَ نفسه وعدوِّه ، ومن أمِن عداوةَ مَن أمَر الله بعدواته ، وبنىٰ على أنَّه لا يضـرُّه كيـد مَـن كـاده . . فقـد أمـن مكـر الله ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1] .

إيثار بالداء : وعن المرتعش قال : دخلنا مع أبي حفص على مريض نعوده . . ونحن جماعة ! فقال للمريض : أتحبُّ أن تبرأ ؟ قال : نعم . فقال لأصحابه : تحمَّلوا عنه . فقام المريض ، وخرج معنا وأصبحنا كلُّنا أصحابَ فُرُشٍ نُعادُ .

* * *

ومنهم : ١٨ـ أبو تراب عسكر بن حصين النَّخْشَبيُّ ؛ نسبة إلى « نخشب » : بلدة بما وراء النهر

طبقته : صحِبَ حاتماً الأصمَّ ، وأبا حاتم العطَّار المصريَّ .

وفاته : مات سنة خمس وأربعين ومئتين . قيل : مات بالبادية نَهَسَتْهُ ـ بإهمال السين أكثرُ من إعجامها ـ السِّباع : أخذت لحمه بمقدَّم أسنانها .

أحد أربعة : وقال ابن الجلاَّء : صحبتُ ستَّ مئة شيخ ، ما لقيت فيهم مثل أربعة : أولهم أبو تراب النخشبي .

وصفه الفقير : قال أبو تراب : الفقيرُ قُوتُه ما وجده ؛ ممَّا يقيم صلبه ، ولباسه ما ستره من أيِّ نوع كان ، ومسكنه حيث نزل أيَّ مكان يُكِنُّه ، فعُلم أنَّ الفقير إنَّما يأخذ من منافع الدنيا ما دعت إليه ضرورته ؛ أو حاجته ، لكن حاله يختلف بالنظر إلى الصحَّة والمرض ، والسفر والحضر ، والاجتماع بالناس والانفراد عنهم . . فما يأخذه في صحَّته من الطعام قد لا يوافقه في حال مرضه . وقس بذلك البقية .

---

(١) الآية : ٩٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

من حكمه : **وقال أبو تراب** : **إذا صدق العبدُ في العمل** الشامل لعمل اللسان والقلب والجارحة . . **وجد حلاوته** ولَذَّته **قبل أن يعمله** ، **فإذا أخلص فيه وَجَد حلاوته ولذَّته وقت مباشرة الفعل** . والمراد بالصدق الجدُّ في إصابة الحقِّ ، فإن كان **في اللسان** . . فهو الإخبار عن الشيء بما هو عليه ، أو **في القلب** . . فقوَّة العزم وشدَّة الحمل على الإيقاع بلا فتور ، أو **في الجارحة** فكمال النشاط وعدم الكسل والملال .

محاسبته أصحابه : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ جدِّي إسماعيل بن نُجَيد ؛ **يقول** : **كان أبو تراب النخشبيُّ إذا رأى من أصحابه ما يكره** . . **زاد في اجتهاده وجدَّد توبته** ؛ لنسبته النقص إلى نفسه ؛ لأنَّه المتبوع ، **ويقول** لنفسه : **بشؤمي دُفعوا إلي ما دُفعوا إليه** : مما كرهته منهم .

توضيح : فيه دلالة على كمال اقتدائهم به في أعماله ، فإذا رأىٰ منهم فترة عما يشير به عليهم . . نسب النقص إلى نفسه ، **لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] جعل تغيير نفسه تغييرَ جميع أصحابه .

من تربيته : **قال** ابن نجيد : وسمعته أيضاً **يقول لأصحابه** : **من لبس منكم مرقَّعة ؛ فقد سأل** بالحال ! فكان كمن سأل بالمقال ، **ومن قعد** كثيراً **في خانقاه**[2] ؛ **أو مسجد** . . **فقد سأل** ، **ومَن قرأ القرآن** كثيراً **من مصحف** بين الناس ؛ وإن لم يُسمِعْهم ، **أو** جهراً . . ولو من غير مصحف **كيما يُسمِعَ الناس** ؛ **فقد سأل** . أراد بذلك تعليم أصحابه كمال التوكل ، والإعراض عن التعرض للسؤال والأسباب ؛ خوفاً عليهم من أن يتعرَّضوا بهذه الأفعال للشهرة بالصلاح فيُبَرُّوا ويُوصَلوا لذلك .

عهده مع الله : **قال** السُّلَميُّ : **وسمعتُهُ** . . أي ابن نجيد ؛ **يقول** : **كان أبو تراب يقول** : **بيني وبين الله عهدٌ أن لا أَمدَّ يدي إلى حرام** ؛ أو ما فيه شبهةٌ . . **إلاَّ قَصُرت يدي عنه** ؛ كرامة من الله وحفظاً له .

---

(١) الآية : ١١ ؛ من السورة التي ذكر فيها ؛ الرعد .

(٢) مدرسة الصوفية .

صوفي أبي تراب : **ونظر أبو تراب يوماً إلى صوفيٍّ من تلامذته قد مدَّ يده إلى قشر بطيخ ؛ وقد طوىٰ ثلاثة أيام ، فقال له أبو تراب : تمدُّ يدك إلى قشر البطيخ !! أنت لا يصلح لك التصوُّف ؛ اِلزم السوق** : أهلَه هذا من باب الأمر بالصبر وكمال المجاهدة ، ورفع الهمَّة عن تناول ما لا يصلح لمثله من الزهاد ، لأنَّ مَن وصل إلى أن يصبر عن الطعام ثلاثة أيّام بلياليها شغلاً بالخير . . لا يليق به خِسَّة الهمَّة ، وتناول ما يلقيه الناس ولا يأكلونه .

أمنية ينالها : **سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا العبَّاس البغداديَّ ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله الفارسيَّ ؛ يقول : سمعت أبا الحسين الرازيَّ ؛ يقول : سمعت يوسف بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا تراب النَّخشبيَّ ؛ يقول : ما تمنَّت نفسي عليَّ شيئاً قَطُّ** منذ أخذتُ في الرياضة ؛ **إلاَّ مرَّة واحدة : تمنَّت عليَّ خبزاً وبيضاً** . . على ما هو الغالب على أهل الريف ، لأنَّه المتيسِّر عندهم غالباً . . **وأنا في سفري ، فعدلتُ عن الطريق إلى قرية** ؛ لآكل ذلك من عند بعض إخواني ، فأدَّبني الله على كوني فسخت عزمي من ترك تمنِّي الشهوات ، **فوثب رجلٌ وتعلَّق بي ؛ وقال : كان هذا مع اللصوص ، فبطحوني وضربوني سبعين خشبة** لأقرَّ ، وأنا صابرٌ لقضاء الله تعالىٰ !!

: **فوقف علينا** رجلٌ **صوفيٌّ** يعرفني ، **فصرخ** بأعلى صوته ؛ **وقال : ويحكم ؛ هذا أبو تراب النخشبي !!** وكان معروفاً عندهم بالصلاح ! قال : **فخَلَّوْني** إلى حال سبيلي **واعتذروا إليَّ ، وأدخلني** الرجل الذي عرفني منزله ، **وقدَّم إليَّ خبزاً وبيضاً ؛ فقلت في** نفسي لنفسي : **كُلْهَا** ـ أي : شهوتك : ما أشتهيه . وفي نسخة : كليها ـ **بعد سبعينَ جلدة !** . نبَّه به على أنه أدِّب على ما ذُكِر ، وأكلُه هذا لم يكن شهوة ! بل طاعة للمضيف له ؛ وجبراً لخاطره .

ثلاث أكلات : وحكىٰ **ابن الجلاَّء** ـ بمعنىٰ : أخبر ـ عن أبي تراب بقوله **قال : دخل أبو تراب مَكَّة طَيِّب النفس ؛ فقلت** له : **أين أكلتَ أيُّها الأستاذ ؟ فقال** : أكلت **أكلة بالبصرة ، وأكلة بالنِّباج**[1] **، وأكلة ها هنا** .

---

(١) قرية في البادية على النصف من طريق البصرة إلى مكة .

إيضاح : فيه دليل على كمال صبره عن الطعام حتَّى قطع هذه المسافة بأكلة واحدة فيها ، أو على أن الأرض طويت له فقطع ما بين البصرة ومكة في زمن يسير .

التوكل وأبو تراب : وسئل أبو تراب عن التوكل ؛

فقال ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾[1] .

* * *

ومنهم : ١٩ـ أبو محمد عبد الله بن خُبَيق

مرتبته : من زهَّاد المتصوِّفة ، صحب يوسفَ بن أسباط .

بلده : كان كوفيَّ الأصل . ولكنه سكن أنطاكية .

أربعة للسعادة : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا الفرج الورثاني ؛ يقول : سمعت أبا الأزهر الميَّافارقيني ؛ يقول : سمعت فتح بن شخرف ؛ يقول : حدَّثني عبد الله بن خُبَيق أوَّلَ ما لقيتُه ؛ فقال لي :

يا خراساني ؛ إنَّما هي ـ يعني الأصول المحرَّمات كثيرة غالبة على العبد ـ أربعٌ لا غير : ١ـ عينُك ، و٢ـ لسانُك ، و٣ـ قلبُك ، و٤ـ هواكَ . . لأنَّ كلاًّ منها يغلب عليه الميل إلى مستحسناته وشهواته ! فانظر عينك ؛ لا تنظر بها إلىٰ ما لا يحلُّ ! وانظر لسانَك ؛ لا تقلُ به شيئاً يعلمُ الله تعالى خلافَه من قلبك ، وانظر قلبك ! لا يكن فيه غِلٌّ ولا حقد علىٰ أحدٍ من المسلمين ، بل ومن سائر المعصومين[2] ، وانظر هواك ؛ لا تهوىٰ به شيئاً من الشرِّ .

---

(١) الآية : ٤٠ ؛ من السورة التي ذكر فيه الروم .

(٢) معصومي الدماء والأعراض . والمراد قوله ﷺ : « فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ـ أسلموا ـ فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا » . وذلك على حدِّ قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ ، وقوله ﷺ « لا غِيْبَةَ لِفَاسِقٍ » ، وقوله : « مُطْلُ ٱلغَنِيِّ ظُلْمٌ يُحِلُّ عِرْضَهُ =

فإذا لم يكن فيك هذه الأربعُ من الخصال ؛ فاجعل الرَّماد على رأسك ؛ فقد شَقِيتَ . إلا أن يتوب الله عليك ؛ وينقلك إلى ما خصَّ به عباده الصالحين .

من حكمه : وقال ابن خُبَيق : **لا تغتمَّ إلاَّ من شيءٍ يضرُّك غداً في الآخرة ، ولا تفرح إلاَّ بشيءٍ يسرُّك غداً** . فالغمُّ المحمود ما كان على ما فات مما ينفع في الآخرة ؛ لا على ما فات من الدنيا ، والسرور المحمود ما كان بما ينفع في الآخرة ؛ لا بما ينفع في الدنيا .

وحشة وأنس : وقال ابن خُبَيق : **وحشةُ العباد عن الحقِّ أوحشت** ـ وفي نسخة : أوحش ـ **منهم القلوب** ، فالوحشة بينهم وبين الخلق . . إنَّما هي الوحشة بينهم وبين الحقِّ ! ولو أنَّهم أَنِسوا بربِّهم[1] لاستأنَس بهم كلُّ أحد ببركته تعالى ، بل قد جاء أنَّ الذئاب كانت تستأنس مع الغنم في زمن عمر بن عبد العزيز ؛ فلما مات وثبت عليها ! فانظر كيف أثَّرت بركة عمر في غيره من الحيوانات ! فألَّف الله بين الأعداء من البهائم .

الخوف والرجاء : وقال ابن خُبَيق : **أنفعُ الخوف ما حَجَزكَ عن المعاصي ، وأطالَ منك الحزنَ علىٰ ما فاتك مما ينفع في الآخرة ، وألزَمَك الفكرةَ في بقيَّة عمرك ، وأنفعُ الرجاء ما سهَّل عليك العمل بالطاعات** ، بخلاف الخوف والرجاء اللذين دون ذلك ! فإنَّهما ضعيفان ، وبخلاف الخوف الشديد الموقِع في الأمن من مكر الله تعالى ؛ فإنهما مذمومان . . إذ هما من المعاصي .

من حكمه : وقال : **طول الاستماع إلىٰ الباطل يطفىءُ حلاوة الطاعة من القلب** . لأنَّ الطاعة إنَّما يلتذُّ بها بالدوام عليها والحضور فيها ، ودوامُ استماع الباطل يضادُّ ذلك ؛ فيطفىء نورَه ويزيل حلاوته .

= وَعُقُوبَتَهُ » . وليس المراد العصمة عن الذنوب ، إذ ذاك خاص بالأنبياء والمرسلين دون سائر الثقلين . وسيأتي أواخر الكتاب الفرق بين الحفظ والعصمة ص ١٠٧٦ .

(١) بدوام الذكر والفكر والشكر والمراقبة . . لاستأنس بهم كلُّ أحد بلين قلوبهم لهم ورحمتهم عليهم جزاءً وفاقا ، ودليله أنَّ مَن أحبَّ الله أَحبَّه الله ، ومَن أحبَّه الله خلق محبَّته في قلوب عباده . (عروسي : ١/ ١٣٢) .

ومنهم : ٢٠ـ أبو عليٍّ أحمدُ بن عاصم الأنطاكيُّ ؛ نسبة إلى « أنطاكية » بلدةٍ من الشام

طبقته : من أقران بشر بن الحارث ، والسَّريِّ السَّقَطي ، والحارث المحاسبيِّ .

تسميته : وكان أبو سليمان الداراني يسمِّيه « جاسوس القلب » : البحَّاث عنها ! لحدَّة فراسته الدالِّ عليها قوله تعالىٰ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[1] : للناظرين المتفرِّسين ، وخبرُ : « اِتَّقُوا فِرَاسَةَ ٱلْمُؤْمِنِ ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ »[2] .

وذلك لِمَا حصل لسِرِّه من الصفاء ، فصار كالمرآة المجلُوَّة ، يتمثَّل فيها من صور الغيب ما شاء الله ، فإنَّ البصيرة في إدراكها لعالَم الغيب . . كالبصر في إدراكه لعالَم الشهادة ؛ فكما أنَّ البصر كلَّما كان أصفىٰ من الغشاوات . . كان أتمَّ إدراكاً للمبصَرات . كذلك القلوب . . كلَّما كانت أصفى من العيوب . . كانت أقوىٰ إدراكاً للغيوب .

نور المؤمن : والنور الذي ينظر به المؤمن ؟ قد يكون الفراسة ، وقد يكون نورَ العلم ، وقد يكون إلهاماً منه تعالىٰ .

والفِراسة : من (تفرَّسْتُ فيه خيراً) ، وهو يتفرَّس : يتثبَّتُ وينظر ؛ قاله الجوهريُّ .

---

(١) الآية : ٧٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحِجْر .

(٢) أخرجه الترمذي : ٣١٢٥ . وأخرجه بلفظ « اِحْذَرُوا فِرَاسَةَ . . . وَيَنْطِقُ بِتَوْفِيْقِ ٱللهِ » ابن جرير ؛ عن ثوبان رضي الله عنه .

والمراد : احذروها ، لأن نظره للأشياء على ما هي عليه بالمدد الإلهي ؛ والكشف الرباني الذي مثله لا يتطرَّق إليه خلل ، ولا يعتريه تغيُّر ؛ إذ هو من جواهر العلوم ، غير أن ذلك مختلف باختلاف مراتب المرقبين بحسب قوَّة النور وضعفه ، لأن الفراسة نور إلهيٌّ يُفاض في القلوب ، به يدرك أربابها الأشياء على ما هي عليه بأعين بصائرهم . والله أعلم (عروسي : ١/ ١٣٤) .

وقال الواسطيُّ : هي سواطعُ أنوار لمعت في القلوب ، ومكينُ معرفة حملت السرائر في الغيوب حتى يشهد بها العارف الأشياء ؛ من حيث أشهده الحقُّ إياها ! فيتكلَّم عن ضمير الخلق .

تأنيب متفرس : ومن ذلك ما حُكيَ عن أبي سعيد الخراز ؛ قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرا عليه خِرقتان يسأل الناس شيئاً ! فقلت في نفسي : مثل هذا كَلٌّ على الناس ؟! فنظر إليَّ ؛ وقال : ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[1] !! قال : فاستغفرت في سِرِّي فناداني ؛ فقال : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[2] .

من حكمه :

صلاح القلب : **وقال أحمد بن عاصم** : **إذا طلبت صلاح قلبك ؛ فاستعن عليه بحفظ لسانك** . بل وسائر جوارحك . . من العين والأذن واللمس وغيرها ، لأنَّ كلَّ جارحة منها توصِل إلى القلب ما يدركه من خير وشرٍّ .

نستزيدُ الفتنة : **وقال أحمد بن عاصم** : **قال الله تعالىٰ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** لكم شاغلة عن أمور الآخرة ، **ونحن مع علمنا بذلك نستزيد من الفتنة** : نطلبها ونحبُّها !

نبَّه بذلك على ذمِّ المشغولين بالدنيا واستزادتهم من أموالها وأولادها .

الشك واليقين : قال أحمد بن عاصم : يسيرُ اليقين[3] يُخْرِج كلَّ الشكِّ من القلب ، ويسيرُ الشكِّ يُخرِج كلَّ اليقين من القلب .

جواسيس القلوب : وقال : إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق ؛ فإنَّهم جواسيس القلوب يدخلون في قلوبكم ويخرجون منها من حيث لا تحتسبون .

* * *

---

(١) الآية : ٢٣٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

(٢) الآية : ٢٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الشورى .

(٣) قليله .

ومنهم : ٢١ - أبو السَّرِيِّ منصورُ بن عمار

أصله : من أهل مرو ؛ من قرية يقال لها « يرانقان » . وقيل : إنَّه من « بوشنج » .

مقامه ووفاته : أقام بالبصرة . ومات ببغداد سنة : خمس وعشرين ومئتين .

طبقته : وكان من الواعظين الأكابر . ومن كلامه ما ذكره المصنف بقوله :

من حكمه : وقال منصور بن عمَّار : مَن جزع : تسخَّط من مصائب الدنيا ؛ وهي الآلام والأسقام وهلاك المال والولد ونحوها . . **تحوَّلت مصيبتُه في دينه** . ومَن صبر عليها وشكر . . ارتفعت مرتبته عند ربِّه .

إيجاز جامع : وقال : دخلت على المنصور (أمير المؤمنين)؛ فقال لي : يا منصور ؛ عظني وأوجز . فقلت : إنَّ من حق المنعِم على المنعَم عليه أن لا يجعل ما أنعم به عليه سبباً لمعصيته . فقال : أحسنت وأوجزت .

لباس العبد : وقال منصور بن عمَّار : أحسنُ لباس العبد : ١- التواضع ، و٢- الانكسار لمولاه ، لأنَّ ذلك أقربُ لنيل مطلوبه ومناه ، وحفظه من التعرُّض لما يخشاه ، قال تعالىٰ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[1] .

لباس العارفين : وأحسن لباسِ العارفين الذين غلبت عليهم أحوالهم بدوام نظرهم لمولاهم ، ولما سبق لهم عنده مما يجريه عليهم في دنياهم . . التقوى : العمل الصالح ، قال الله تعالىٰ ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾[2] . فهي سبب لكلِّ خير ، ومن هنا قيل[3] : العارف من لا يُطفِئُ نورُ معرفته نورَ ورعه ، فمعرفته : غلبة

---

(١) الآية : ٩٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنبياء .

(٢) الآية : ٢٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

(٣) من كلام ذي النُّون المصري أو السَّري ، رحمهما الله تعالى كما سيأتي في ص٨٨٢ .

انفراد ربِّه بالأفعال على قلبه ، وورعه : ملازمته لامتثال أمر ربِّه واجتنابِ نهيه في كلِّ حال .

سبب فتوحه : وقيل : إنَّ سبب توبته أنَّه وجد في الطريق رقعة مكتوباً عليها « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فرَفعها ؛ احتراماً لها ، فلم يجد لها موضعاً يليق بها فأكَلها ! فرأىٰ في المنام ؛ كأنَّ قائلاً قال له : فتَح اللهُ عليك بابَ الحكمة ؛ باحترامك لتلك الرقعة .

فيه تنبيه على مطلوبيّة احترام كلِّ ما أضيف إلى الله تعالىٰ من المخلوقات كالمساجد والصالحين ، وما يدلُّ على أسمائه وصفاته من الحروف ، وسائر نعمه من الأطعمة وغيرها . . إذا وجدت مطروحة بالطريق(١) .

مجالسه : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا العباس القاصَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا الحسن الشعراني ؛ يقول :

رأيت منصورَ بن عمَّار في المنام ؛ فقلتُ له : ما فعل الله بك ؟

فقال : قال لي : ﴿ أنتَ منصور بن عمار !؟﴾ فقلت : بلىٰ يا ربّ .

قال : ﴿ أنت الذي كنتَ تُزِّهد الناس في الدنيا وترغَبُ فيها !؟﴾ .

قلت : قد كان ذلك يا رب ؛ ولكنِّي ما اتخذت مجلساً إلاَّ بدأتُ بالثناءِ عليك وثنَّيْتُ بالصَّلاَة على نبيِّك ﷺ ، وثلَّثْتُ بالنَّصيحة لعبادك ! .

فقال : ﴿ صدق ؛ ضعوا له كرسِّياً ، يُمَجِّدُني في سمائي بين ملائكتي ، كما كان يمجِّدُني في أرضي بين عبادي ﴾ .

إيضاح : فيه تنبيهٌ على أنَّ الأولىٰ لمن يُزَهِّد الناس في الحلال أن يكون أوّل زاهد فيه لينتفعوا بحاله ومقاله جميعاً ، ولو زهَّدهم بدون زهده . . كان فاعلاً خيراً ، ولذلك لما سأله مولاه في الرؤيا عن حاله . . وهو أعلم به ولم يرتكب إثماً ، وإنَّما أخذ بكمال فضله ، فلما اعترف له بفعله ؛ وذكر له أفضل ما كان يأتي به في وعظه من ثنائه عليه بكمال صفاته ، وصلاته على نبيِّه ، ونصيحته لعباده . .

---

(١) وهو علامة التقوى ، لقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ﴾ [٣٢/ الحج] .

أَمَر له بجزاء أعماله ؛ بأن يمجِّدَه بين ملائكته في آخرته ؛ كما كان يمجِّدُه في دنياه بين عباده .

هبة الباكي : وقال سليم بن منصور[1] : ورأيت والدي في المنام ؛ فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : قرَّبَني ؛ وقال : ﴿ يا شيخ السوء تدري لم غفرت لك !﴾ قال : لا يا رب . قال : ﴿ إنك جلست للناس يوماً مجلساً فأبكيتهم ، فبكى فيهم عبدٌ من عبيدي لم يبكِ من خشيتي قطُّ ! فغفرت له ووهبتُ أهل المجلس كلَّهم له ، ووهبتك فيمن وهبت له ﴾ .

* * *

ومنهم : ٢٢ـ أبو صالح حَمْدُون بن أحمد بن عمارة القَصَّار

لمحة : **نيسابوري** ، **منه انتشر مذهب المُلاَمِتِيَّة** ؛ وهم الذين يسترون صلاحهم بأمور تتداولها العوامُّ . . وليست بمعاصٍ في الحقيقة ، وربَّما يسمُّونه « التخريب » .

وهذه الطريقة فيها غرر وضرر ديني ودنيوي ، فإنَّ السلف من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم لم يتخلقوا بذلك ، بل يقصدون إظهار الدين مع الإخلاص ليقتدىٰ بهم .

ومع ذلك فالملامتية لا يقصدون إلاَّ خيراً !! وانتشر مذهبهم عن حمدون **بنَيْسابور**، **وقد صحِبَ سَلَمَاً** ـ وفي نسخة: سالماً ـ **الباروسي**[2]، **وأبا تراب النخشبي**.

---

(١) أبو الحسن سليم بن منصور (المترجم له) المروزي سكن بغداد ، روى عن أبيه منصور بن عمار .

(٢) هو أبو الحسن سَلَم بن الحسن الباروسي (نسبة إلى « باروس » قرية على باب نَيْسابور) كان مجاب الدعوة ، من قدماء المشايخ .

وفاته : مات سنة إحدىٰ وسبعين ومئتين .

من فتاويه : سُئِل حمدون : **متَّىٰ يجوز للرجل أن يتكلَّم علىٰ الناس؟ بأن يعظهم وينصحهم .**

فقال : ١ـ **إذا تعيَّن عليه أداءُ فرض من فرائض الله تعالىٰ** المحتاج فيه إلى تعليمه في علمه ؛ واعتقاده ، **أو ٢ـ خاف هلاك إنسانٍ في بدعة** ؛ **وهو يرجو أن يُنَجِّيَه الله تعالىٰ منها** بتعليمه له ، فيجوز له حينئذٍ ؛ **بل يجب عليه أن يتكلَّم عليهم** ، خصوصاً إذا سَلِمَ حالَ تكلُّمه . . من الكِبْر والعجب والرياء ونحوها من الآفات ، لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ والنصح لله والقيام بأمره ، كما قال تعالىٰ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[1] .

ومتى لم يتعيَّن عليه ذلك وسَلِم من ذلك . . ندب له أن يتكلَّم عليهم .

مُظهِر الكبر : **وقال حمدون** : مَن ظنَّ من المؤمنين **أنَّ نفسه خيرٌ من نفس فرعون**[2] في المآل فقد أظهر الكبر . لأنه ما دام في الدنيا . . هو والكافر سواءٌ ؛ من حيث إنَّه لا يُعلم خاتمة أمرهما ، فقد يُختَم له والعياذ بالله بالردَّة ، وللكافر بالإيمان ، فلا يغترَّ ويقطعَ بأنه خير ممن مات كافراً ، وإن كان كفرُه أشدَّ من كفر غيره ؛ كفرعون لادِّعائه الألوهية ، وذلك لأنَّه في غرر من نفسه وجهل بما يختم له ، وإن كان يحسن ظنَّه بربِّه أن يختم له بخير . أما الحكم بأنَّ المؤمن خير من الكافر في الحال! فحقٌّ لا كِبْر فيه ؛ كيف لا والله وليُّ المؤمنين وعدوُّ الكافرين!! قال تعالىٰ ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[3] ، وقال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[4] .

من حكمه : **وقال حمدون** : **مُذ علمتُ أنَّ للسلطان فِراسةً يعرف بها بواطن الأمور في الأشرار** : العصاة ما خرج خوف السلطان من قلبي .

---

(١) الآية : ١٨٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .
(٢) ومن نفس غير فرعون بالأولى (عروسي : ١/١٣٧) .
(٣) الآية : ٢٥٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .
(٤) الآية : ٩٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

أظهر بذلك أنَّه عدَّ نفسه من الأشرار الذين يعرف السلطان أحوالهم !!

ففيه ستر لحاله وأنَّه من هؤلاء يخاف ما يخافونه !! وباطنه بخلاف ذلك .

حقُّ المؤمن : **وقال : إذا رأيت سكراناً فتمايَلْ على نفسك ، وخفْ عليها من التغيُّر والنقص ، لئلا تقع في الكبر فيحملَك على أن تَبْغِيَ عليه** . وعبَّر بعضهم بقوله (سكراناً يتمايل لا تبغى عليه) . . **فتُبْتَلىٰ بمثل ذلك الذي ابتُلِيَ به** !

فالكبر على العصاة مذموم كغيرهم ، لأنَّه لا يليق إلاَّ بالله تعالىٰ ، بل حقُّ المؤمن أن يرحمه ويدعوَ له ، ويشكر الله على عصمته مما ابتلاه به .

وصيته : **وقال عبد الله بن منازل : قلتُ لأبي صالح حمدون : أوصني . فقال : إن استطعتَ أن لا تغضب لشيء من الدنيا فافعل** .

إيضاح : فيه الحثُّ على تحسين الخلق واحتمال الأذىٰ والعفو عنه ، وذلك إنما يكون عند عدم الغضب الناشيء من انتقاص عَرَض أو مال أو نحوه ، فإذا عفا العبد عن ذلك ؛ ولم يغضب . . لم يتعدَّ الحدود ، ولذلك قال رجل : يا رسول الله ؛ أوصني ؛ قال : «لاَ تَغْضَبْ»[1] . فاستزاده ! قال : «لاَ تَغْضَبْ» .

تعقيب : والسِّرُّ فيه أنَّ الغضب ـ كما قيل : ـ غولُ العقل يأكله ، فإذا ذهب العقل عُدِمَ التثبت ؛ فيقعُ صاحبه في الخطأ والزلل ، وفاته حسْن العمل .

ورعه : **ومات صديق له ـ أي : لحمدون ـ وهو عند رأسه ، فلما مات أطفأ حمدون السِّرَاج ! فقالوا له : في مثل هذا الوقت يُزَاد في السِّراج الدُّهن!! فقال لهم : إلى هذا الوقت كان الدُّهن له ، ومن هذا الوقت صار الدهن للورثة ، اطلبوا دهناً غيره !!**

تكميل : قد يقال : حقُّهم إنَّما يكون بعد القيام بحقوقه التي يزري به تركها ، وتركه في ليلة ببيت مظلم بلا سراج ممَّا يزري به ، ولذلك قُدِّمت مؤنة تجهيزه . . . من كفنٍ وحنوط وغيرهما على حقهم . . والفرق لائح[2] !! .

---

(١) أخرجه البخاري : ٦١١٦ ، والترمذي : ٢٠٢٠ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أي : الفرق بين ما يجب كمؤن التجهيز . . من كفن وغيره ؛ وبين دهن المصباح ! فلا يجب ، وفيه نظر ؟! فتدبَّر . (عروسي : ١/ ١٣٩)=

ميزان الرجال : وقال حمدون : مَن نَظَر في سِيَر السلف عَرَف تقصيرَه ، وتخلُّفه عن دَرْك درجات الرجال . لأنَّ الصحابة رضي الله عنهم بذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وباعوا أنفسهم لله وصدقوا فيما عاهدوا الله عليه ؛ كما قال تعالىٰ ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ ﴾[1] والتابعون بعدهم أجهدوا أنفسهم في العلوم والأعمال والإعراض عن الحطام ، فمَن وزن نفسه بأحوالهم لم يجد عنده عُشْر ما فعلوه ، وسأل الله أن يُلحقَه بهم ، ويمنَّ عليه ببركة محبَّته لهم .

من حكمه : وقال:حمدون : لا تُفْشِ على أحدٍ ما ـ أي : شيئاً ـ تحبُّ أن يكون مستوراً منك . إذ من الناس من لا يحبُّ أن يَظهر شيء من أحواله الصالحة ، فضلاً عن غيرها !! فإفشاؤك إيَّاه مؤلمٌ له كما يؤلمُك إفشاءُ غيرك عليك ما تحبُّ أن يكون مستوراً منك ، فالسلامة ترك الفضول

* * *

ومنهم : ٢٣ـ أبو القاسم الجنيدُ بن محمد

رتبته : سيِّدُ هذه الطائفة وإمامُهم .

أصله : أصلُه من نُهاوَند ؛ مدينةٍ من بلد الجبل .

لمحة : ومنشأه ومولدُه بالعراق . وأبوه كان يبيع الزُّجاج ؛ فلذلك يقال له « القواريري ».

= قلت : إنَّ ما فعله رحمه الله ورع الصوفية ، وما تعقبَّ به الشارح فتوى الفقهاء ؛ فلا إشكال ، ويدلُّ له ما سيأتي ص١٦١ . عن رويم رحمه الله تعالى (مجالسة الطبقة) .

(١) الآية : ٢٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

فقهه : وكان فقيهاً على مذهب «أبي ثور» ، وكان يفتي في حلقته بحضرته ؛ وهو ابن عشرين سنة .

صحب خاله السَّرِيَّ ، والحارث المحاسبيَّ ، ومحمَّد بن علي القصَّاب .

وفاته : مات سنة : سبع وتسعين ومئتين .

من العارف : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن الحسن البغداديَّ ؛ يقول : سمعت الفَرْغاني ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ وقد سئل : من العارف بالله ؟

قال ـ هذا يغني عنه قوله « يقول » ـ : **هو من نطق بسِرِّك وأنت ساكت** .

وقال غيره : هو مَن غلب عليه دوام الحضور والأدب مع الله حتَّى صار يعبده كأنه يراه ، ومَن اتصف بذلك توالت عليه الكرامات .

استئذانه : قال بعضهم : كنت يوماً جالساً في بيتي فخطر لي خاطر أن الجنيد بالباب ؛ أخرج إليه ، فنفيتُه عن قلبي ، وقلت : وسوسة ؛ فوقع لي خاطر ثانٍ إنه على الباب ؛ أخرج إليه ، فنفيته عن سِرِّي ، فوقع لي ثالث فعلمت أنَّه حقٌّ ففتحت ؛ فإذا بالجنيد قائم ؛ فسلم عليَّ ؛ وقال لي : لم لا خرجت مع الخاطر الأول ؟!!

مأخذ تصوُّفه : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمَّد بن عبد الله الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا محمد الجريري ؛ يقول : سمعتُ الجنيد ؛ يقول : **ما أخذنا التصوف عن القيل والقال**[1] **؛ لكن عن الجوع ؛ وترك الدنيا ، وقطع المألوفات والمستحسنات** .

لأنَّ التصوف عند كثير عبارةٌ عن التخلُّق بأشرف الأخلاق الحميدة . . من الورع ؛ والزهد ؛ والتوكُّل ؛ والرضا . . ونحوها ! والبعد عن الأخلاق الذميمة . . من الرياء ؛ والكبر ؛ والعُجْب ؛ والحسد ونحوها ! فلا يبالي

---

(١) فالتصوُّف لا يتمُّ معناه بمجرَّد نقل عباراتهم !! بل لا يكون إلاَّ بالتخلُّق بأخلاقهم . وغير التصوُّف مثله . وفي ذلك :

قَالَتْ لَنَا سَوْدَةُ ٱلأَحْدَاقِ وَٱلمُقَلِ : لَيْسَ ٱلتَّكَحُّلُ فِيْ ٱلعَيْنَيْنِ كَٱلكَحَلِ ؟!

(عروسي : ١/١٤٢) .

بـ(قيل عن فلان كذا)، ولا بـ(قال فلان كذا)، ولا بمعرفة الأحوال والمقامات من أفواه الرجال ؛ بل بالجوع وما عطف عليه ، والجدِّ في الطاعات .

أهلُ المعرفة والجنيد : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا محمد الجُرَيري ؛ يقول : سمعت محمد بن الحسن ؛ يقول : سمعتُ أبا نصر الأصبهاني ؛ يقول : سمعتُ أبا علي الرُّوذَبَاري ؛ يقول : سمعت الجنيد يقول لرجل ذَكَر المعرفة بالله تعالىٰ ؛ وقال : **أهل المعرفة بالله يَصلُون إلى ترك الحركات** ـ أي : الأعمال التي هي ـ من باب البرِّ ، والتقرُّب إلىٰ الله عزَّ وجلَّ : إنما تراد الطاعات ؛ من الذكر والصوم والصلاة ونحوها للتوصُّل إلى الله تعالىٰ ، فإذا وصل إليه بها . . استغنىٰ عنها .

فقال الجنيد ـ أعاد هذا !! لطول الفصل[1] ، وإلاَّ فقد أغنى عنه قوله (يقول) ـ: **هذا قولُ قوم تكلَّموا بإسقاط الأعمال** ؛ عن بعض المكلفين ! **وهو عندي هفوة عظيمةٌ ، والذي يسرق ويزني أحسنُ حالا من الَّذي يقول هذا القول** .

لأنَّ كلاًّ من الزاني والسارق يعرف عصيانه ويرجو توبته منه ، بخلاف هذا ؛ لأنَّه يعتقد أنه في أرفع المقامات وأحسن الأحوال . . فلا يرجع عنه ! .

وإلى ذلك أشار بقوله (**فإن العارفين بالله تعالىٰ أخذوا الأعمالَ عن الله تعالى** ؛ ٱمتثالاً لأمره ، **وإليه رجعوا فيها** ؛ بأن سألوه الإعانة والمجازاة عليها ، **فلا ينبغي لأحد نقصُها . ولو بقيتُ ألف عام في الدنيا لم أنقصُ من أعمال البرِّ ذرَّة ؛ إلاَّ أن يُحَال بي دونَها** ، لِعجز . . من مرض ونحوه .

من وصاياه : **وقال الجنيد** : **إن أمكنك أن لاَّ تكون آلةُ بيتِك إلاَّ خَزَفاً فافعل** . فيه الحثُّ على التقلُّل من الدنيا ، والاكتفاءُ بآلة الفخار عن آلة النحاس ونحوه ممَّا يدلُّ اتخاذه على طول الأمل !! والصوفيُّ ابن وقته وموتُه بين عينيه ، فيكتفي باليسير من الدنيا ! .

من حكمه : **وقال الجنيد** : **الطرقُ التي يتوصَّل بها إلى الله كلُّها مسدودةٌ على الخلق إلاَّ علىٰ مَن اقتفىٰ** : **اتبع أثر الرسول ﷺ** . فإنَّه الحاكي عن الله تعالىٰ .

---

(١) لأنه تقدم ص ٣٨ . وسيأتي ص ٦٥٢ .
وله شاهد عند أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ذكر في « كنز العمال » / باب المعرفة/ .

الإقبال والصدق : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعتُ أبا عمر الأنماطيَّ ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : **لو أقبل صادق على الله ألفَ ألفِ سنة ، ثم أعرض عنه لحظة . . كان ما فاته أكبرَ مما ناله !** .

لأنَّ الصادق في سلوكه إلى ربِّه كلَّ يوم يترقَّىٰ في دَرَج قربه إليه ، فهو في كلِّ درجة مرتقِبٌ لما هو أعلى منها ، وإنَّما يطيق حمل الأعلى بما يقدم له من الأسباب المقوّمة له بفضل ربِّه !! فإذا أعرض عما هو فيه من السلوك ونيل الخيرات . . فقد فاته في حال إعراضه ما هو أفضلُ من جميع ما ناله ، فإنَّ ما ناله وسيلةٌ لحمل ما لم ينله .

علم الجنيد: **وقال الجنيد** : من لم يحفظ القرآن ؛ ولم يكتب الحديث! ـ أي : من لم يفهم أحكامهما ـ **لا يقتدىٰ به في هذا الأمر** ـ أي : التصوف ـ ، **لأنَّ علمَنا هذا مقيَّد بالكتاب والسنَّة** . والإجماعُ والقياس يرجعان إليهما .

مذهبه : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ أبا نصر الأصبهانيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا عليٍّ الرُّوذَباريَّ ؛ يقول عن الجنيد : **مذهبنا هذا مقيَّد بالأصول الكتابِ والسنة** .

توضيح : أشار أوَّلاً بقوله (علمنا) إلى صحَّة العلم . وثانياً بقوله (مذهبنا) إلى صحَّة السلوك ، فلم يستغنوا في علمهم ولا عملهم عن الكتاب والسنة بحال .

الضلال المبين : وفيه وفيما قبله ردٌّ على مَن يعتمد في سلوكه على ما يقع في قلبه من الخواطر ؛ ويزعم أنها عن الله صادقة[1] ، ويستغني عن وزنها بالكتاب والسنة ! وهذا هو **الضلال المبين** ؟!

وقال الجنيد : **علمُنا هذا مشيَّد بحديث رسول الله ﷺ** .

بركة مجالسته : أنبأنا محمد بن الحسين رحمه الله ؛ قال : سمعت أبا الحسين بنَ فارس ؛ يقول : سمعتُ أبا الحسين عليَّ بنَ إبراهيم الحدَّاد ؛ يقول : **حضرت مجلس القاضي أبي العبَّاس بن سُرَيج ، فتكلَّم في الفروع والأصول بكلام حَسن أُعجبتُ منه ، فلما رأىٰ إعجابي به قال : أتدري ؛ من أين هذا ؟ قلتُ : يقول** ـ أي : **يُخبِر ـ به القاضي** . فقال : **هذا ببركة مجالسة أبي القاسم الجنيد** .

---

(١) هكذا في الأصل ولعل الصواب (صادرة) بالراء بدل القاف !! .

إذ مجالسة مثله تُسعِد وتنفع وترفع ، وجودة الكلام في العلوم . . إنَّما تكون بكمال التثبُّت ، فإذا أخلص العبد في أعماله وجالس الأولياء واستفاد منهم . . جرت علومه وأعماله محكمةً متقنة ؛ لعلمه بالمفسد من المصلح .

مصدر علمه : وقيل للجنيد : من أين استفدتَ هذا العلم ؟ فقال : مِن جلوسي بين يدي الله ؛ مشتغلاً بإصلاح قلبي وجوارحي ثلاثين سنة تحتَ تلك الدَّرَجة .

وأومأ إلى درجةٍ في داره .

توثيق : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يحكي ذلك .

طريق وصوله : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : رؤي في يده ـ أي : الجنيد ـ سبحة ، فقيل له : أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة ؟! . فقال لهم : طريقٌ به وصلت إلىٰ ربي لا أفارقه .

فيه دليل على كمال اجتهاده وملازمته لما اعتاده من الطاعات .

خلوته : وسمعت الأستاذ أبا عليٍّ رحمه الله ـ قصد بذلك الإيضاح ؛ وإلا فيكفيه أن يقول كما في الذي قبله (وسمعته) ـ يقول : كان الجنيدُ يدخل كلَّ يومٍ حانوتَه ، ويسبلُ السِّتر ، ويصلي أربع مئة ركعة ، ثم يعود إلى بيته .

فيه دليل على اجتهاده أيضاً ، وعلى ستر أعماله وملازمته الأسباب لتكون بينه وبين من لا يعرفه حجاب ، لأنه إذا رؤي في حانوته فهو متشبِّه بالمتسبِّبين ، وإذا أسبل الستر بينه وبين الناس يُظَنُّ أنه في أسباب حانوته . . وهو مشتغل بأوراده !!

وكونه يصلِّي أربع مئة ركعة يدلُّ على أنه يخفِّفُ القراءة بالنهار ويكثر الركوع والسجود ، وهو الأحسن في أعمال النهار ، وأكملُ في ستر حاله لمن يطرقه من الناس ؛ فيسرع إلى جوابه لخفَّة صلاته ، بخلاف صلاة الليل التي هو فيها بعيد عن المشغلات فارغ القلب لكمال المناجاة .

وفاته : وقال أبو بكر العَطَوي : كنتُ عند الجنيد حين مات ؛ فرأيته ختم القرآن . . ثم ابتدأ من « البقرة » . . وقرأ سبعين آية ، ثم مات رحمه الله .

فيه دليل على كمال اجتهاده أيضاً وملازمته أوراده إلى حين موته .

ومن كلامه : مَن طلب عزّاً بباطل أورثه الله ذلاًّ بحقٍّ .

ومنهم : ٢٤ـ أبو عثمان سعيد بنِ إسماعيل الحِيْرِي ؛
نسبة إلى « الحيرة » محلّةٍ بنيسابور ،
وهي غير الحيرة المدينة المعروفة بالكوفة

لمحة من حياته : المقيمُ بنيسابور . وكان أصله من « الري » ، صحبَ شاهَ الكرماني ، ويحيىٰ بن معاذ الرازي . ثم وَرَد نيسابور مع شاه الكرماني ؛ قرأ على أبي حفص الحدَّاد وأقام عنده ، وتخرَّج به في العلم والأدب ، وزوَّجه أبو حفص ابنته .

وفاته : مات سنة : ثمان وتسعين ومئتين بنيسابور ، وقبره بها ظاهر مع قبر أستاذه الحداد يُستسقىٰ به ، وذكر أبو نعيم في « حِليته » أنه دفن بمقبرة الحيرة عند قبر أستاذه أبي حفص النيسابوري ، وعاش بعد أبي حفص نيِّفا وثلاثين سنة .

من كلامه : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا عَمْرو بن حَمْدان ؛ يقول : سمعتُ أبا عثمان ؛ يقول : لا يكملُ إيمانُ الرَّجل حتَّىٰ يستويَ في قلبه أربعة أشياء : ١ـ المنع ، و٢ـ الإعطاء ، و٣ـ العزُّ ، و٤ـ الذُّلُّ . بالنسبة إلى الدنيا ، وبالنسبة إلى ربِّه تعالىٰ . . من حيث إنَّ له أن يفعل ما شاء من الخير والشر ، ولا ينسب في ذلك إلى جَوْرٍ ؛ تعالىٰ عن ذلك علوّا كبيراً ؛ لا بالنسبة إلى الآخرة ، فإنه متى كان في واحد من المذكورات نقص . . فلا ينبغي أن يستوي عنده ذلك ؛ نظراً لمنفعته في الآخرة ، وعليه أن يبكي ويتضرَّع وينتقل عما حصل به النقص .

واعلم أنَّ العزَّ والذلَّ بالله محمودان ، والعز بالدنيا والتذلُّل لأهلها طمعاً فيها مذمومان .

الأدب والتأديب : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ عبد الرحمان بن عبد الله ؛ يقول : سمعتُ بعض أصحاب أبي عثمان ؛ يقول : سمعتُ أبا عثمان ؛ يقول :

صحبتُ أبا حفص مدَّة ؛ وأنا شابٌّ ، فطردني مرَّة ، وقال : لا تجلس عندي .
فقمت . . ولم أوَلِّه ظهري ، وانصرفتُ إلى ورائي ؛ ووجهي إلى وجهه . .
حتى غبت عنه ، وجعلتُ علىٰ نفسي . . حين تفكَّرت فلم أجد من أنتفع به سواه
أَنْ أحفِرَ علىٰ بابه حفرةً لا أخرج منها إلاَّ بأمره ، ففعلت ذلك وصرت ألازم
الحفرة ، فلما رأىٰ ذلك الأمر الدَّال على صبري وشدَّة رغبتي في الخير أدناني :
قربني إليه ، وجعلني من خواصِّ أصحابه فانتفعت به .

وصية المريدين : في ذلك دلالة على قوَّة رغبة أبي عثمان في الخير ، واحتمال ما تلقَّاه من الأذىٰ في ذلك .

وهذه[1] وصية المريدين الراغبين في السلوك ، لأنَّ المشايخ إنما يطردون شخصاً لإساءة أدبه ، وقد يطردونه امتحاناً ليعرفوا شدَّة رغبته في الخير .

وفيه دلالة أيضاً على أنَّ المريد إذ أبعده الله لزلَّة لا يذهب مع شهوته ، بل يرجع إليه بالتوبة ، ويلزم الباب بها ، وبالبكاء ليغفر له ما تقدَّم .

مِدْحة خُلُق : ورُوي أن رجلاً دعا أبا عثمان إلى ضيافته ، فلما وافىٰ باب داره قال له : يا أستاذ ؛ اِرجع فقد ندمتُ . فرجع ، فلما أتىٰ منزله عاد إليه الرجل ؛ وقال آحضر الساعة . فقام معه ، فلما وافىٰ باب داره . . قال له مثل ما قال في المرَّة الأولىٰ ، ثم فعل به كذلك ثالثاً ورابعاً !! وأبو عثمان يحضر ويرجع .

فلما كان بعد ذلك اعتذر إليه ؛ وقال : يا أستاذ ؛ أردتُ اختبارك .

وأخذ يمدحه ويثني عليه ، فقال له : لا تمدحني على خُلُق تجدُ مثله مع الكلاب ؛ الكلب إذا دُعي حضر ، وإذا زُجِر انزجر .

أفراد الدنيا : قال القشيري : وكان يقال : في الدنيا ثلاثة ؛ لا رابع لهم :

١ـ أبو عثمان ؛ بنيسابور ، و٢ـ الجنيد ؛ ببغداد ، و٣ـ أبو عبد الله ابن الجلاَّءِ ؛ بالشام . هذا في نظر قائله[2] ، وإلاَّ ففي الدنيا من هو أفضل من هؤلاء .

---

(١) الإشارة إلى زيادة الرغبة في الخير واحتمال الأذى ، لأنَّ مدار الانتفاع على ذلك (عروسي : ١/١٤٦) .

(٢) ويحتمل أن يكون انفرادهم بمزايا لا توجد في غيرهم ، وذلك لا يوجب أفضليتهم ؛ =

رضاه : وقال أبو عثمان : منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالىٰ في حال فَكَرِهْتُه ، ولا نَقَلني إلى غيره؛ مما لم يسخط الله فسَخِطْتُه. وإن كان دون الحال الأول ! !

توثيق : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن محمد الشعراني ؛ يقول : سمعتُ أبا عثمان ؛ يقول ذلك .

فيه دلالة على نَيْله مقام الرضا ، فإنه إنَّما ينال ذلك ، أمَّا ما يسخط الله من البدع والمحرمات !! فلا يجوز الرضا به ، لقوله تعالىٰ ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾[1] فلا يرضىٰ العبد إلا بما يرضاه الله تعالىٰ .

من حكمه : ولما تغيَّر علىٰ أبي عثمانَ الحالُ في مرضه ؛ حيث غُشي عليه . . مَزَّقَ ابنهُ أبو بكر قميصاً له على نفسه ، لظنِّه أنه مات ! ففتح أبو عثمان عينيه ؛ بعد إفاقته من الغشية فرأى ثوبه مقطَّعاً ؛ وقال له خلافُ السَّنة ـ كما فعلت ـ يا بُنيَّ ؛ في الظاهر علامةُ رياءٍ في الباطن . وهو هنا كونه أظهر الحزن والألم لئلا يذمَّ بترك الحُنُوِّ على الوالد والمحبة له ، فإن العبد إذا لم يراقب الله في أمره ونهيه عند نزول المصائب سبق إلى قلبه ذمُّ الناس له ؛ إن لم يظهر الحزن بموت من يعزُّ عليه .

أنواع الصحبة وآداب محلِّها : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ محمد بن أحمد المُلاَمِتيَّ ؛ يقول : سمعت أبا الحسين الورَّاقَ ؛ يقول : سمعت أبا عثمان ؛ يقول :

١ـ مع الله : الصحبة مع الله ـ إطلاقها معه تعالىٰ مأخوذة من خبر : « أَنْتَ ٱلصَّاحِبُ فِي ٱلسَّفَرِ »[2] ، والمراد دوام المعاملة معه تعالىٰ ـ تكون بحسن الأدب ؛ ودوامِ الهيبة ، والمراقبة ، والاحترام له .

= ولا يمنع من وجود الأفضل ! وحينئذ لا حاجة إلى ما ذكره الشارح ! (عروسي) .
قلت : أو لعلّ المراد من ذلك الزمن !!

(١) الآية : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الزمر .

(٢) أخرجه أحمد : ٢/ ١٤٤ ، وأبو داود : ٢٥٩٩ ، والترمذي : ٣٤٤٧ ، والدارمي : ٢٦٧٦ ، والنسائي في « الكبرى » : ٨٨٠١ ، وفي « عمل اليوم والليلة » : ٥٤٨ ، وابن خزيمة : ٢٥٤٢ ، وابن حبان (الإحسان : ٢٦٩٦) ، والبيهقي : ٥/ ٢٥١ .

٢ـ **مع رسوله : والصحبة مع الرسول الله ﷺ تكون باتباع سنَّته ، ولزومِ ظاهر العلم** ؛ ممَّا يتعلق بالجوارح .

٣ـ **مع الأولياء : والصحبة مع أولياء الله تعالىٰ تكون بالاحترام والخِدْمة لهم** ، لأنَّ الله تعالىٰ خصَّهم بما لم يخصَّ به غيرهم .

٤ـ **مع الأهل ؛ والصحبة مع الأهل** ؛ من الزوجة والولد والخادم والأقارب . . تكون بحسن **الخُلُق** معهم ، وبتأديبهم بما ينفعهم في دينهم .

٥ـ **مع الإخوان : والصحبة مع الإخوان تكون بدوام البشر** ؛ وهو حسن الملاقاة عند الاجتماع ، والسؤال عن أحوالهم ، وإدخال المسرَّة عليهم **ما لم يكن** ذلك **إثماً** ؛ بأن لم يكن منهم من اتَّصف بمعاصٍ توجب هجره ومقاطعته ، فإنْ كان منهم من اتصف بها . . كان دوام البشر له إثماً ، وإن كان مسلماً مستحقَّاً لاسم الأُخُوَّة العامة ، كما قال تعالىٰ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[١] .

٦ـ **مع الجهَّال : والصحبة مع الجهال** ـ يعني عصاة المؤمنين[٢] ممن لا يرجع بموعظة ـ **تكون بالدعاء لهم** ؛ والإنكار عليهم فيما يجبُ الإنكار فيه ، **والرَّحمة عليهم** لما ابتلُوا به وصُرِفوا إليه من مخالفة الله تعالىٰ .

الحكيم والمبتدع : سمعتُ عبد الله بن يوسف الأصبهانيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا عمرو بن نُجَيد ؛ يقول : سمعتُ أبا عثمان ؛ يقول : **مَن أَمَّرَ السُّنَّةَ** : الشريعة **على نفسه قولاً وفعلاً** . . **نطق بالحكمة** ، وجرىٰ على لسانه ما في قلبه ؛ لأن أعماله حينئذ كلَّها محكمة . **ومن أَمَّرَ الهوىٰ علىٰ نفسه قولا وفعلا ؛ نطق بالبدعة** ، وجرى على لسانه ما في قلبه ، لأنَّ أعماله كلَّها حينئذٍ محلولة غيرُ منضبطة ، فينطق تارة بالكفر ، وتارة بالبدعة ، وتارة بغيرهما من المعاصي لاتِّباعه

---

(١) الآية : ١٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحجرات .

(٢) أشار بذلك إلى أنّ المراد بالجهّال الجَهَلةُ في معاملة ربِّهم ؛ وإن كانوا علماءَ بأمر دينهم ، إذ العلم إنَّما ينافي الجهل فقط . (عروسي : ١/١٤٧) .

الهوى ، بخلاف الأوَّل لاتِّباعه الرسول فهو المهتدي ، **قال الله تعالىٰ** ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[1] .

من حكمه : ومن كلام أبي عثمان : موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم .

وقال : حقٌّ لمن أعزَّه الله بالمعرفة أن لا يُذِلَّ نفسه بالمعصية .

وقال : أصل التعلُّق بالخيرات قصورُ الأمل .

* * *

ومنهم : ٢٥ـ أبو الحسين أحمد بن محمد النُّوري ؛

نسبته : نسبة إلى « نور » بُليدَةٍ بين بخارا وسمرقند ،

ويقال إلى نورٍ كان بباطنه وظاهره .

وقيل : إلى نورٍ كان يخرج مِنْ فِيْه إذا تكلَّم في الليلة الظلماء .

أصله ومنشأه : بغداديُّ المولد والمنشأ ، بغويُّ الأصل .

رتبته : صحبَ السريَّ السَّقَطيَّ ، وابنَ أبي الحواريِّ ، وكان من أقران الجنيد رحمه الله .

وفاته : مات سنة خمس وتسعين ومئتين ؛ وكان كبير الشأن ، حسَن المعاملة واللسان مع الله تعالىٰ والخلق .

من كلامه : **قال النُّوري رحمه الله : التصوُّف ترك كلِّ حظٍّ للنفس** ؛ من محرم ومكروه ومباح .. من تنعُّم بالذكر والمناجاة ونحوهما ، لما بين النفس والقلب من التنافي ، فمن لم تَمُتْ نفسه لم يَحْيَ قلبه .

أعزُّ الأشياء : وقال النُّوريُّ : أعزُّ الأشياء في زماننا شيئآن : ١ـ عالم يعمل بعلمه ، و٢ـ عارفٌ بالله **ينطق عن حقيقة** . هذا في زمانه فكيف في زماننا !! أما من لم

---

(١) الآية : ٥٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها النور .

يعمل بعلمه ، ومن ينطق عما سمعه وفهمه من الكتب وأفواه الناس . . فكثير

ضوابطه : **سمعتُ أبا عبد الله الصوفيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أحمد بن محمد البرذعي ؛ يقول : سمعت المرتعش ؛ يقول : سمعت النوريَّ ؛ يقول :مَن رأيتَه يدَّعِي مع الله حالةً تُخرِجُه عن حدِّ العلم الشرعيِّ فلا تقرَبنَّ منه** . فإنه مبتدع لأن مَن لم تشهد الشريعة لأفعاله وأقواله بالصحَّة فهو مبتدع ؛ وإن جرت عليه أحوال خارقة للغادة ، لأنَّ ذلك من جملة المكر به! .

لسانه : **سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا العبَّاس البغداديَّ ؛ يقول** : **سمعتُ** أحمد بن محمد **الفَرْغَانيَّ** (خادم أبي عثمان الحيري) ؛ **يقول : سمعتُ الجنيد ؛ يقول : منذ مات النوريُّ لم يُخبر عن حقيقة الصدق** ـ يعني عما وجده وناله من صدقه ـ **أحدٌ** فيما رأيته ! .

عبادته : **وقال أبو أحمد المغازلي : ما رأيت أعبدَ من النوري . قيل : ولا الجنيد !! قال : ولا الجنيد** . كما أقرَّ به الجنيد آنفاً .

وقال النُّوري : كانت المراقع غطاءً على الدرِّ ؛ وهو اللؤلؤ ، لأنَّها إنَّما كانت من آثار التقلل وقلَّة الرغبة في الدُّنيا ، فإذا كان علىٰ واحد ثوبٌ وتخرَّق منه موضعٌ أخذ رقعة حيثما تيسرت له ، وطهَّرها بالماء . . وأصلح بها موضع الخرق، وكانت القلوب صافية غير ملتفتة للدنيا، ولا لمدح الخلق ولا لذمِّهم، **فصارت** المراقع **اليوم مزابلَ على جِيَفٍ** . بل أنتن وأخص ، لأنَّها صارت تؤخذ من ثياب رفيعة للزينة ! ففيه إفسادٌ للماليَّة وتشبُّه بالصالحين ، وطلب الرفعة عند الناس بذلك ، والقلوب فارغة من الزهد والإعراض عن الدنيا .

من أحواله : **وقيل : كان يخرج كلَّ يوم من داره ؛ ويحمل الخبز معه** ، ليوهِم أهلَه أنَّه يتغذَّىٰ به ، **ثمَّ يتصدَّق به في الطريق ، ويدخل مسجداً** هناك **يصلِّي فيه إلى قريب من الظهر** ، **ثمَّ** بعد صلاته الظهرَ **فيه يخرج منه ؛ ويفتح باب حانوتِه** ؛ ويقنع بما يَسَّرَهُ الله له في هذا الوقت اليسير ، **ويصوم** بقيَّة يومه ! **فكان أهله يتوهَّمونَ أنَّه يأكل** في حانوته **في السوق!** وأنَّه لا يصلي زيادة على الفرض والراتبة ، **وأهل السوق يتوهَّمون أنَّه يأكل في بيته !! وبقي على هذا في ابتدائه عشرين سنة** .

في ذلك من المجاهدة وستر الأحوال ما لا يخفىٰ ؛ حيث لم يحبَّ أن يكون في حانوته جميع النهار ، ولا أن يُطلع أهله على صلاته المذكورة ، ولا أن يشتهر بتلك الأسباب لينسب إلى التوكُّل حيث ستر ذلك بالدُّكان ! .

* * *

ومنهم : ٢٦ـ أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجَلاَّء

تسميته : سُمِّيَ به ! لأنَّ بكلامه على قومه تنجلي القلوب .

لمحة : بغداديُّ الأصل ، مات لِثِنْتَيْ عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاث مئة . **أقام بالرَّمْلة ودمشق . من أكابر الشام**

رتبته : صحب أبا تراب النخشبي ، وذا النون المصري ، وأبا عبيد البسري ، وأباه يحيىٰ الجلاَّء ، وانتفع بهم

وفاء أبيه : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمد بن عبدالعزيز الطبري ؛ يقول : سمعت أبا عُمَر الدِّمشقيَّ ؛ يقول : سمعت ابن الجلاَّء ؛ يقول : قلت لأبي وأمي : أُحِبُّ أن تَهَباني لله عزَّ وجلَّ ! فقالا لي : قد وهبناك لله عزَّ وجلَّ .

فغبتُ عنهما مدَّة ، فلما رجعتُ . . كانت ليلةً مطيرة ؛ فدققتُ الباب عليهما ، فقال لي أبي : مَن ذا؟ قلت : ولدُك أحمد . فقال : كان لنا ولد ؛ فوهبناه لله تعالىٰ ، ونحن من العرب . . لا نسترجِعُ ما وهبناه ! ولم يفتح لي الباب ! ! .

إيضاح : فيه دليل على كمال وفاء أبيه لله تعالى بما عزم عليه ، ولا ينافي تركه ولدَه لله أن يفتح له الباب فيراه ويكلِّمَه ، لكنه خشيَ على نفسه من تعلُّق قلبه بما تركه لربِّه فيرجع فيه ! وإذا كان هذا في الولد فكيف بغيره من حظوظ النفس ؟ ! .

أقواله : الزاهد : وقال ابن الجلاَّء : مَن استوىٰ عنده المدحُ والذمُّ ؛ فهو زاهد . لأنَّ الزهد يكون أوَّلا في المال ، ثم في الطعام ، ثم في اللباس ، ثم في الاستئناس

بالناس ، ولا يزهد في الحمد ؛ ولا يبالي بالذمِّ إلاَّ مَن كَمُل زهده في الرياسة ! وهي أعلى رتب الدنيا ، ولذلك قيل : آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حبُّ الرياسة .

العابد والموحِّد : ومَن حافظ على الفرائض في أوَّل مواقيتها فهو عابد ، لأنه بدأ بالأهمِّ من العبادات ، ويشهد له خبرُ « ﴿ مَا تَقَرَّبَ ٱلْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا ٱفْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ ﴾ »[1] . فمَن لم يحافظ على فرائضه فهو لغيرها من النوافل أقلُّ محافظةً . . فليس بعابد . **ومَن رأىٰ الأفعال كلّها من الله تعالىٰ** ؛ ورأىٰ نفسه محلاً لجَرَيان ما قُدِّر له ، ورأى فضل ربِّه عليه في جميع أحواله **فهو موحِّد . . لا يرىٰ إلاَّ واحداً** .

لقاء الله : **ولما مات ابن الجلاَّء نظروا إليه ؛ وهو يضحك ! فقال الطبيب : إنَّه حيٌّ** . **ثم نظر إلى مِجَسَّتِه** ، وهي الموضع الذي يجسُّه الطبيب ؛ **فقال : إنَّه ميت . ثم كشف عن وجهه** ؛ فوجده بحاله فتحير في أمره !! **فقال : لا أدري أهو ميت أم حيٌّ** !! . وضحكه في الحقيقة بشرى له ، ودلالة على سعادته حيث رأى عند خروج روحه ملائكة ربِّه ؛ فبشروه بما أعده الله له ففرح بذلك ، وتبسَّم ويبس جلده فاستمرَّ بحاله .

قبوله هبة : **وكان في داخل جِلْده أيام حياته عِرَقٌ على شكل** كتابة (الله) .

فيه دلالة على أنه عبد لله خالص في عبوديته .

أثر نظرته : **وقال ابن الجلاَّء رحمه الله ؛ كنت أمشي مع أستاذي ؛ فرأيت حَدَثاً** : شاباً أمرد جميلاً فجأة ، فلما استحسنته كررت نظري فيه متعجباً من كمال صورته وحسن هيئته ؛ **فقلت** : يا أستاذي ؛ **تُرىٰ** : **أتظنُّ يعذب الله هذه الصورة** ؟ مع كمال حسنها ! **فقال له : أَوَنَظَرْتَ إليه** . . : هذا النظر المذموم !! **سترىٰ غِبَّه** : عاقبته .

قال : فنسيت القرآن بعدَه بعشرين سَنَة . ونسيانُه مذموم ؛ كما جاءت به الأخبار الصحيحة . في ذلك تحذير من النظر بالشهوة إلى المستحسنات ؛ فإنه

---

(١) تقدم تخريجه ص ٣٦ .

يؤثِّر في القلوب آثاراً عظيمة ولو بعد حين .

رتبة فقير : وسئل ابن الجلاَّء عن الفقر ؛ فسكت ثم ذهب ورجع عن قرب ، ثم قال : كان عندي أربعةُ دوانق ؛ فاستحييت من الله أن أتكلَّم في الفقر ! فذهبت فأخرجتها . ثم قعد وتكلَّم فيه ؛ وقال : لولا شرف التواضع كان الفقير إذا مشىٰ يتبختر .

* * *

ومنهم : ٢٧ـ أبو محمد رُوَيْم بن أحمد

لمحة : **بغداديٌّ ، من أَجِلَّة المشايخ .**

وفاته : **مات سنة ثلاث وثلاث مئة .**

علمه : **وكان مقرئاً فقيهاً على مذهب داود** الظاهري .

حكم الحكيم : **قال رُوَيْم** : **من حِكَم الحكيم** : **أن يوسِّع على إخوانه في الأحكام ؛ ويضيِّق على نفسه فيها ، فإنَّ التوسعة عليهم اتباعُ العلم** ، أي : من حُكم اتِّباعه لخبر : « يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا »[١] . وليتدرّب الإنسان في الخيرات ، وينتقل من الواجبات إلى المندوبات ، ويترك المحرمات ثمَّ المكروهات ، ثمَّ الشبهات ثم أبواباً من الحلال ؛ مخافة الوقوع في شيء من الشبهات .

والتضييقُ علىٰ نفسِه من حُكم الورع الذي ينال به أرفع الدرجات .

هذا الأمر : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الواحد بن بكر ؛ يقول : سمعتُ أبا عبد الله ابن خفيف ؛ يقول : **سألت رُوَيما ؛ فقلتُ** : **أوصني .**

فقال : **ما يُنال هذا الأمر** : علمُ الصوفية **إلاَّ ببذل الروح** : إفراغ الجهد في الطاعات ، والإعراض عن الشهوات ، **فإن أمكَنَك الدُّخولُ فيه مع هذا** الذي

---

(١) متفق عليه عند البخاري : ٦١٢٥ ، ومسلم : ٨ ـ ١٧٣٤ ؛ عن أنس رضي الله عنه .

وصفناه فذاك ، وإلاَّ ! بأن دخلت فيه بالأقوال وحفظ حكايات الرجال ، والتشبُّه بهم مع خلوِّك عما وصفناه . . فأنت بعيد منه ، **فلا تشتغل بترَّهات الصوفية** : بطرقهم الباطلة وخرافاتهم وكثرة كلامهم الخالية عن الأعمال .

مجالسة الطبقة : وقال رُوَيْم : قعودُك مع كلِّ طبقةٍ من الناس أسلمُ لك من قعودك مع الصوفية مع مخالفتك لطرقهم ، **فإنَّ كلَّ الخلق غيرَهم قعدوا على الرسوم** اكتفوا بظاهر العمل بالأبدان ، **وقعدتْ هذه الطائفة علىٰ الحقائق**[1] ؛ وهي غلبة الأحوال على القلب ، ومشاهدة الربِّ في كلِّ عمل ، كما قال ﷺ « أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ »[2] . فأهلُ الحقائق هم الطالبون لهذا المقام ، **وطالَبَ الخلقُ كلُّهم غير هؤلاء أنفسَهم بظواهر الشرع . . وطالب هؤلاء أنفسَهم بحقيقة الورع ، ومداومةِ الصدق ، فمَن قعد معهم وخالفَهم في شيءٍ ممَّا يتحقَّقون** : يتصفون به . . **نزع الله نور الإيمان من قلبه** . لأنَّ مَن سلك طريق الزهد والورع وطلب الفضائل ؛ ولم يكن متخلّقاً بذلك ولا مجتهداً في تحصيله ، فَإمَّا مُراءٍ يظهر زِيَّ الصالحين لطلب دنيا فانية ؛ من مال أو جاه ! وإمَّا كذَّاب مُدَّعٍ لدرجة لم ينلها !! وكلٌّ منهما مذموم ، لخبر : « مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ ٱللهُ بِهِ ، وَمَنْ رَآءىٰ رَآءىٰ ٱللهُ بِهِ »[3] ، وخبرِ : « ٱلْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يَنَلْ

---

(١) **اعلم** أن الحقائق أنواع . . **أحدها** : **حقيقة الحقائق** ؛ وهي الأحديَّة الجامعة لجميع الحقائق ، وتسمَّى « حضرة الجمع والوجود » . **وثانيها** : **الحقيقة المحمَّديَّة** : وهي الذات مع التعيين الأوَّل ، فله الأسماء كلُّها ، وهو الاسم الأعظم . **وثالثها** : **حقائق الأسماء** ؛ وهي تعينات الذات ونسبها ، لأنَّها صفات يتميَّز بها الأسماء بعضها عن بعض . **والرابعة** : حقيقة حقِّ اليقين الذي هو شهود الحقِّ حقيقة في مقام عين الجمع الأحديَّة . والله أعلم (عروسي : ١/١٥٣) .

قلت : لكن المراد ظاهر ؛ حيث قابله بأهل الظاهر الذين اكتفوا بظاهر العمل بالأبدان ؛ دون أصحاب غلبة الأحوال .

(٢) تقدم تخريجه ص ٣٦ .

(٣) متفق عليه عند البخاري : ٦٤٩٩ ، ومسلم : ٤٨ ـ ٢٩٨٧ ؛ عن جندب بن جنادة رضي الله عنه .

كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ »[1] .

سبب زهده : وقال رُوَيْم : اجتزت : مررت ببغداد وقتَ الهاجرة ببعض السِّكك ؛ وأنا عطشان ، فاستسقيتُ من دار ، ففتحت لي صَبِيَّةٌ بابَها ، ومعها كُوز ، فلما رأتني بزِيِّ الصوفية قالت ـ استعجاباً واستنكاراً ـ : صُوفيٌّ يشربُ بالنهار !! . فأثَّر كلامُها في قلبي فكانت لي موعظة ، فما أفطرتُ بعد ذلك اليومِ قطُّ .

فيه دلالة على أنَّ الصبيّة كانت من بيت علم حتَّىٰ عرفت أحوال الصوفية ، وأنهم المجتهدون في الأعمال .

المقال والفعال : وقال رُوَيْم : إذا رزقك الله المقال : العلم وتعليمه غيرَك ؛ والفعال : العمل بعلمك . . فأخذ منك المقال وأبقىٰ عليك الفِعال ! فإنَّها نعمة ، لأنَّك انتفعت بالعلم وعلَّمتَه غيرك مدَّة ، ثم انقطعت إلى الله تعالىٰ في آخر عمرك ، وإذا أخذ منك الفعال ؛ وأبقىٰ عليك المقال !! فإنَّها مصيبة فيما فاتك من الأجر بما أخذ منك ، وإذا أخذ منك كليهما . . فهي نقمةٌ وعقوبة . لانقطاع عملك وتعلميك غيرَك .

حرمة الفقر : ومن كلامه : الفقر له حرمة ، وحرمته سترُه والغيرةُ عليه ، فمن كشفه وأظهره !! فليس هو من أهله ولا كرامة !

وقال : الصبر ترك الشكوىٰ[2] ، والرضا استلذاذ البلوىٰ[3] ، والتعلُّق بأعلى الوثائق[4] ، والتوكُّل إسقاط رؤية الوسائط[5] .

* * *

(١) متفق عليه عند البخاري : ٥٢١٩ ، ومسلم : ١٢٧ ـ ٢١٣٠ ؛ عن أسماء رضي الله عنها .

(٢) على سبيل الضجر والقلق ، أما بثُّها لصديق أو طبيب ! فلا بأس به ، بل قد يكون مطلوباً .

(٣) باعتبار مصدرها ، وما يترتب عليها من الأجور العظيمة .

(٤) وهو الرجوع إليه سبحانه وتعالى في كل شيء صدر به القضاء والقدر .

(٥) بعدم الاعتماد عليها ، لأنَّ حقيقته تفويض الأمر إلى مَن له الأمر

(كلها من العروسي : ١/ ١٥٤ ـ ١٥٥) .

ومنهم : ٢٨ـ أبو عبد الله محمد بن الفضل البلخي

أصله : ساكنُ ـ وفي نسخة : سكن ـ سمرقند . بلخيُّ الأصل ، أُخرج منها ـ أي : من بلخ ـ فدخل سمرقند ، ومات بها .

درجته : وصحِب أحمد بن خضرويه ، وغيرَه ، وكان أبو عثمان الحيريُّ يميل إليه جدّاً : كثيراً ، مات سنة : تسع عشرة وثلاث مئة .

علامة الشقاوة : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أحمد بن محمد الفرَّاء ؛ يقول : سمعت أبا بكر بن عثمان ؛ يقول : كتب أبو عثمان الحيريُّ إلى محمد بن الفضل يسأله : ما علامة الشقاوة في الشخص ؟ فقال :

ثلاثة أشياء : أحدها ـ يرزَقُ العلم ويحرَم العمل به ، وثانيها ـ يرزَقُ العمل ويحرَمُ الإخلاص فيه ، وثالثها ـ يرزَقُ صحبةَ الصَّالحين ؛ ولا يحترم لهم ؛ بزيادة اللام ، فيعاملهم بأسوإ المعاملات فتفوته الخيرات وتحلُّ به البليَّات .

سمسار الرجال : وكان أبو عثمان الحيريُّ ؛ يقول : محمد بن الفضل سِمْسَار الرجال : يعرف رتبهم في الدين ؛ كما يعرف سمسار السلع قَدْرها وقدر أثمانها .

وذلك لكمال معرفته بمراتب الدين وأحوال العارفين .

أمانيُّه : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ عبدَ الله الرازيَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن الفضل ؛ يقول : الراحة ـ وفي نسخة : طلبُ الراحة ـ في السجن من أمانيِّ النفوس . لأنَّها خلاف وضعه ، والسجن هنا الدنيا ؛ قال ﷺ : « اَلدُّنْيَا سِجْنُ ٱلْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ ٱلْكَافِرِ »[1] . لأنَّ المؤمن فيها مسؤول عن حركاته وسكناته وما في قلبه ، مأمور بملازمة أوامره ، ومنهيٌّ عن مخالفة ربِّه ؛ فهو محبوس عن كثير من

---

(١) تقدم تخريجه في ترجمة داود الطائي ص ١٠٧ .

شهواته ، وحينئذ فطلبه الراحة فيها مع ذلك بعيدٌ في العادات ، إلاَّ أن يمنَّ عليه ربُّه ، ويُمدّه بمعونته ، ويلذِّذ له طاعاتِه ، فتصير راحته باعتبارٍ آخر لا من جهة نيل شهواته ، وبهذا الاعتبار كانت قُرَّةَ عين النَّبيِّ ﷺ في الصلاة[1] .

ذهاب الإسلام : **سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ محمد بن الفضل ؛ يقول : ذهاب الإسلام يكون من أهمال العلم والعمل به** ؛ كما أشار بقوله : **من أقوام أربعة : ١ـ قوم لا يعملون بما يعلمون** ، لأنَّ من لم يعمل بعمله أهملهما معاً ، إذ فائدة العلم العملُ به . و**٢ـ قوم يعمَلُون بما لا يعلَمُون** ، لأن من عمل بما لا يعلم . . عملُه غير صحيح ، فقد أهمل العلم والعمل به . و**٣ـ قوم لا يتعلَّمون ما لا يعلَمُونَ** ، لأنَّ مَن لم يتعلَّم ما لا يعلم أهمل العلم ، ومن أهمل العلم أهمل العمل به . و**٤ـ قوم يمنعون النَّاس من التعلُّم** . كأن يظلموهم ويزاحموهم في أرزاقهم التي لا بدَّ لهم منها ؛ فيلجؤهم إلى ٱشتغالهم بتحصيل أرزاقهم ؛ فلا يتفرَّغون لطلب العلم ! ومَن هذه صفته فقد أهمل العلم والعمل به .

داعي العَجَبَ : **وبهذا الإسناد ؛ قال محمد بن الفضل : العَجَبُ ممن يقطع المفاوزَ** البعيدة مع المشاقِّ الشديدة ؛ من إتعاب الجسد وطول السفر ومفارقة الأهل والولد وإنفاق المال الكثير وغيرها **ليصل إلى بيته تعالىٰ** وحرمِهِ ؛ **فيرىٰ فيه** ـ وفي نسخة : ويرىٰ ـ **آثار النبوة** والولاية ؛ **كيف لا يقطع نفسه وهواه** وشهوته ! ! **ليصل إلى قلبه فيرىٰ فيه آثار ربِّه عزَّ وجلَّ** .؟ من نيل ما عنده من الكرامات وأعلىٰ الدرجات ، مع أن هذا أخفُّ عليه من ذاك ، وأسرع منه في التقرُّب إلى الله ! ونيل ما ذكر لكونه من الأعمال القلبية ؟! .

من قواعده : **وقال : إذا رأيت المريد يستزيدُ مِن الدنيا ؛ فذلك من علامات إدباره** . لأنها مشغلة عن الاقبال على الله تعالىٰ .

---

(١) يشير إلى قوله ﷺ : « حُبِّبَ إليَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ : النِّسَاءُ ، وَٱلطِّيْبِ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ » أخرجه أحمد : ٣/١٢٨ ، والنسائي : ٣٩٥٠ ، والحاكم : ٢/١٦٠ ، والبيهقي : ٧/٧٨ ؛ عن أنس .

الزهد : وسئل عن الزهد ؟! فقال : **هو النظرُ إلى الدنيا بعين النقص ، والإعراض عنها تعززاً ، وتظرُّفاً ، وتشرُّفاً** ، وزهداً ، والإعراض عنها ! إن كان لخوف ضررها فهو **الورع** ، أو لقلَّة الرغبة فيها ، ونزاهة النفس عنها لصغر قدرها !! **فهو زهد أكثر المريدين** ، أو لخوف الاشتغال بغير الله **فهو زهد العارفين** .

مختبَر الجاهل : وقال : ستُّ خصال يُعرَف بها الجاهل ؛ ١ـ الغضب في غير شيء ، و٢ـ الكلام في غير نفع ، و٣ـ العظة في غير موضعها ، و٤ـ إفشاء السرِّ ، و٥ـ الثقة بكلِّ أحد ، و٦ـ لا يعرَف صديقه من عدوِّه .

* * *

ومنهم : ٢٩ـ أبو بكر أحمد بن نصر الزقَّاق ؛
نسبة إلى الزِّقِّ وعمله وبيعه الكبير

ومنهم : أبو بكر محمد بن عبد الله الزقَّاق ؛

مات سنة : تسعين ومئتين . وأغفله المصنف !!

وأما أحمد المذكور . . فلم يحضرني وقت موته !

طبقته : وقد كان من أقران الجنيد ؛ **من أكابر مصر** .

حُجَّة الفقراء : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت الحسين بن أحمد ؛ يقول : سمعتُ الكتاني ؛ يقول : **لمَّا مات الزقَّاق انقطعت حُجَّة الفقراء في دخولهم مصر** .

فيه تنبيه على كماله وانتفاع المريدين برؤيته ؛ فضلاً عن صحبته ، فكان أهل الأقطار إذا أتوا إلى مصر مع أنها كثيرة الأرزاق لا يُتّهمون بأنَّ مجيئهم إليها لكثرة الأرزاق . . إذا زعموا أنَّهم إنَّما قصدوا الزقَّاق لأهليَّته لذلك .

فلما مات . . قال الكتاني : انقطعت حُجَّة الفقراء في دخولهم مصر ، لعدم مَن يقصدونه فيُتَّهمون بأنَّ مجيئهم للدنيا وشهوتها !

من حكمه : وقال الزقَّاق : مَن لم يصحبه التُّقىٰ : التقوىٰ فِي فقره أَكَل الحرام المحضَ : الخالص عن الشبهة ، لأنَّ من لا تقوى عنده لا حذر له فيما يأخذه .

رقَّةُ قلبه : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمد بن عبد الله ابن عبد العزيز ؛ يقول : سمعتُ الزقَّاق ؛ يقول : تهت في تيه بني إسرائيل مقدارَ خمسة عشر يوماً ، فقاسيت مشقَّة شديدة من العطش ، فلما وقعتُ على الطريق استقبلني إنسان جنديٌّ ، فسقاني شربة من ماء ، فعادت قسوتُها على قلبي ثلاثين سنة .

لأنَّ الغالب على الأجناد قلَّة التحفُّظ في الأموال وأخذها من كلِّ جهة ؛ فالقسوة تدلُّ على أنَّ الماء الذي شربه لم يكن صافياً عن الشبهة !

وفي ذلك تنبيهٌ على كمال مجاهدته ومراقبته لأحواله .

* * *

ومنهم : ٣٠ـ أبو عبد الله عَمْرو بن عثمان المكِّيُّ

درجته : لقي أبا عبد الله النِّباجي ، وصَحِب أبا سعيد الخرَّاز ؛ وغيرَه ، وهو شيخ القوم ، وإمام الطائفة في الأصول والطريقة . وله مصنفات في التصوف .

وفاته : مات ببغداد سنة : إحدى وتسعين ومئتين .

توحيده وتنزيهه : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمد بن عبد الله بن شاذان ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر محمد بن أحمد ؛ يقول : سمعتُ عَمْرو بن عثمان المكيَّ ؛ يقول : كلُّ ما توهَّمه قلبُك : تخيَّله ، أو سَنح : عرض وخطر في

مجاري فِكْرَتِك ، أو خطر في معارضات قلبِك ؛ من حُسْن ، أو بهاءٍ ، أو أُنُس ، أو جَمَال ، أو ضِيَاء ، أو شَبَح ، أو نُورٍ ، أو شَخْصٍ ، أو خَيَال ؛ فالله تعالى بعيدٌ من ذلك ، لأنَّ ذلك إنَّما يتعلَّق بمَن له مثال أو شبيه أو نظير ، والله تعالىٰ منزَّه عن ذلك كلِّه ، لأنَّ ذلك مخلوق له ؛ ويستحيلُ أن يَحُلَّ في شيء ، وأن يحُلَّ فيه شيء ، وإلاَّ ! لكان محصوراً محدوداً في الأوَّل ، ومحلاً للحوادث وجِرْماً في الثاني ! وهو منزَّه عن ذلك . .

ألا تسمع إلى قوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1] !؟ ، وقال ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[2] !؟ . فإنَّ ذلك يدلُّ على أنَّه لا نظير له في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله .

قيادة النفس : وبهذا الإسناد قال عمرو : العلم بالله وبصفاته وأحكامه **قائدٌ** للنفس إلى فعل الخيرات وترك المنكرات ، **والخوفُ** من العذاب والنقص عن مراتب العارفين **سائق** للنفس إلى ذلك . . والنفس حَرُون بين ذلك ، جَمُوحٌ ، خدَّاعة روَّاغة : ميالة ، من (راغ إلى كذا) : مال إليه سراً . فاحذرها وراعها بسياسة العلم ، وسقْها بتهديد الخوف يتمُّ لك ما تريد ؛ من فعل الخيرات وترك المنكرات .

والحَرن الكسلُ والوقوف عن السير ، والجُمُوح والجَمَاح والجَمح الهربُ من جهة إلى أخرىٰ ، وهذا شأن النفسَ إذا حملت الأثقال ؛ إمَّا أن تقف عن السير ؛ أو تهرب ؛ أو تخادع صاحبها ؛ أو تروغ إليه ، فإذا أراد سيرها شوَّقها وخوَّفها بما ذكرناه ، ورفق بها في السير حتَّىٰ تتعوّد الخير فتسير إليه بسهولة بعون ربِّها ، ولا يحتاج إلى كمال القائد والسائق !! .

من حكمه : وقال : لا تقعُ على الوجد عبارةٌ يعبَّر بها عنه ، لأنَّه سِرُّ الله عند المؤمنين الذي خصَّهم الله به ، وهم يعسر عليهم التعبير عنه ؛ وإن كان محسوساً لهم موجوداً فيما بينهم ، وهذا كما لو قيل لك (ما الفرق بين رائحة الزبد ورائحة

---

(١) الآية : ١١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الشورى .

(٢) الآيات : ٣ و٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها الصمد جلَّ جلاله .

المسك ؟) وطولبت بعبارة تميِّز بينهما لعَسُرَت عليك . . وأنت تدرك الفرق بينهما قطعاً من نفسك !! ولو قيل لك (ما الفرق بين حلاوة السكَّر وحلاوةِ العسل ؟) . . لكان كذلك ، وإذا عَسُرت العبارات عن تمييز هذه المحسوسات فعُسْرها عن موارد القلوب وما يفتح به الحق ويخلقه فيها ؛ من المحبة والشوق والفرح والإنس وغيرها . . من أحوال القلوب أولىٰ ! وإنَّما يشير مَن مَنَّ الله تعالىٰ عليه بها بالإشارات ويقرِّبُها بالأمثال من الأمور المعلومة .

صفات الأولياء : ومِن كلام عَمْروٍ : ثلاثة أشياء من صفات الأولياء : ١ـ الرجوعُ إلى الله في كلِّ شيء ، و٢ـ الفقر إلى الله في كلِّ شيء ، و٣ـ الثقة بالله في كلِّ شيء .

المروءة : وقال : المروءة التغافل عن زلل الإخوان .

* * *

ومنهم : ٣١ـ سُمْنون بن حمزة

وكنيته : **أبو الحسن** ، **ويقال** : **أبو القاسم** . أصله من البصرة ، ثم سكن بغداد .

درجته : **صحِب السريَّ، وأبا أحمد القلانسي، ومحمد بن علي القصَّار؛ وغيرهم** .

وكان من المشهورين بالمحبة والهَيَمان فيها ، فلذلك **قيل** : **إنَّه أنشد**[1] :

وَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَٱخْتَبِرْنِي

إِنْ كَانَ يَرْجُو سِوَاكَ قَلْبِي لا نِلْتُ سُؤْلِي وَلاَ ٱلتَّمَنِّي

لأنَّ أفعال المحبوب كلَّها عند المحبِّ محبوبة .

فأخذه الأُسْر : احتباس البول **من ساعته** ، تقول منه أُسر الرجل يُؤْسَر أسراً .

توضيح : وفي صدر البيت الأول دلالة على محض العبودية ، وفي عَجُزه شيء من

---

(١) من البحر الرَّمل .

الدعوىٰ بأنَّه يصبر على البلوىٰ ! فلما اختبر بها شقَّ عليه ؛ **فكان يدور على المكاتب** ؛ لكون الصبيان الذين فيها لم يذنبوا وهم مشتغلون بتعلُّم كتاب الله تعالىٰ ؛ **ويقول : أدعُوا لعمِّكُمُ الكذَّابِ** في دعواه .

تأديب : **وقيل : إنه أنشد هذه الأبيات** ؛ التي ذكر المصنف منها بيتاً ، **فقال بعض أصحابه لبعض : سمعت البارحة في المنام وكنتُ في الرُّستاق** ـ معرَّب من الرُّزْداق : القرىٰ ، يعني بالقرب من مكان الأستاذ ـ **صوتَ أستاذنا سُمنون يدعو الله ، ويتضرَّع إليه ، ويسأله الشفاء** من علَّته **! فقال آخر** من أصحابه : **وأنا أيضاً ؛ كنت سمعت هذا** الكلام **البارحة ؛ وكنتُ بالموضع الفلاني** يعني الرُّستاق **!! فقال ثالث ورابع مثلَ هذا** الكلام . . **فأخبر سمنون** بذلك . **وكان قد امتحن بعلَّة الأُسْر ، وكان يصبر ولا يجزع ، فلما سمعهم يقولون هذا** الكلام **ولم يكن هو دعا** بالشفاء من علَّته ، **ولا نطق بشيء من ذلك** . . **علم أن المقصود منه إظهارُ الجزع ؛ تأدَّباً** بالعبودية ، **وستراً لحاله** . . **فأخذ يطوف على المكاتب ويقول** للصبيان الذين فيها : **أدعُوا لعمِّكم الكذَّاب** في دعواه .

وفي كلٍّ من القولين المذكورين تنبيهٌ على كمال سُمنون ومراقبته لأفعال ربِّه .

توجيه : وسبب دورانه على المكاتب على القول الأوَّل إظهاره للجزع من قِبَل نفسه ، وعلى الثاني إظهاره له امتثالاً لما نُبِّه عليه . والقول الثاني أكمل وأنسب بحاله[1] .

رُوي أنَّه لَمَّا أخذه الأُسْر مكث أربعة عشر يوماً ، فكان يلتوي كما تلتوي الحية على الرمل . . يتقلَّب يميناً وشمالاً !! فلما أُطلق بوله . . قال : (يا رب تبتُ إليك) . . وأنشد[2] :

أنَـا رَاضٍ بِطُـولِ صَـدِّكَ عَنِّـي لَيْـسَ إلاَّ لأَنَّ ذَاكَ هَـوَاكَـا

---

(١) **أقول** : الذي يظهر أن الأوَّل أولىٰ في معنىٰ العبودية للظهور بما جُبلت عليه البشرية ، إذ لا يتحمَّل قهر الربِّ مربوب ؛ ولا بأدنىٰ خَطْب من لطيف الخطوب ، وما بعده يؤكِّد ما كتبناه **فتأمل** ! علىٰ أن الذي صحَّ عنه ﷺ سؤال العافية والأمر به ، ولا طريق أكمل من طريقه ! ولا صبر أقوىٰ من صبره ! فإيَّاك والتقليد فإنَّه غير سديد . (عروسي : ١/ ١٦٠).

(٢) من الرمل .

فَٱمْتَحِنْ بِٱلْجَفَا ضَمِيْرِي عَلَىٰ ٱلْوُدْ . . . دِ وَدَعْنِــي مُعَلَّقَــاً بِــرَجَــاكَــا

إنفاقه : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا العبَّاس محمَّد بن الحسين البغداديَّ ؛ يقول : سمعتُ جعفر الخَلَدي ؛ يقول : قال لي أبو أحمد المغازلي :

كان ببغداد رجل فَرَّق على الفقراء أربعين ألف درهم ، فقال لي سُمنون : يا أبا أحمد ؛ ألا ترىٰ ما قد أنفق هذا من الدراهم ، وما قد عملَه من الخير ؟ ونحن ما نجد شيئاً ننفقه !! فامضِ بنا إلى موضعٍ نصلِّي فيه بكلِّ درهم أنفَقَه ركعةً . فمضينا إلى المدائن ، فصلينا أربعينَ ألف صلاة ـ : ركعة كما في نسخة ـ

فيه تنبيه على كمال منافسته ومسارعته في الخير وكثرة اجتهاده فيه ، واقتدائه فيه بالنَّبيِّ ﷺ ، وبسائر أهل الخير .

حاله : وكان سُمنون ظريفَ الخُلُق ، لأنَّ الغالب على أحواله البسطُ كسائر أهل المحبة ، أكثر كلامه في المحبَّة . فإنَّ كلَّ إناء بالذي فيه ينضحُ ! وكان كبير الشأن .

مات قبلَ الجنيد ـ كما قيل ـ . قال ابن الجوزي[1] : بعد سنة ثمان وسبعين ومئتين . قال السراج ابن الملقِّن : وهذا غلط ! فإن موت الجنيد كان في هٰذه السنة ؛ أو سنة سبع . انتهى . ورأيت لابن الجوزي بدل « بعد » « في » !! وعليها لا غلط بتقديره موت الجنيد في سنة ثمان .

الفقير الصادق : وسئل سُمنون عن الفقير الصادق ؟ فقال : الذي يأنس بالعُدْم كما يأنس الجاهل بالغنىٰ ، ويستوحش من الغنىٰ كما يستوحش الجاهل من الفقر ، وأنشد[2] :

وَكَانَ فُؤَادِي خَالِيَاً قَبْلَ حُبِّكُمْ[3] وَكَانَ بِذِكْرِ ٱلْخَلْقِ يَهْزَا وَيَمْرَحُ
فَلَمَّــا دَعَــا قَلْبِــي هَــوَاكَ أَجَــابَــهُ فَلَسْــتُ أَرَاهُ عَــنْ جَنَــابِــكَ يَبْــرَحُ

---

(١) في المنتظم : ٦/ ١٠٥ وما قاله ابن الملقن في « طبقات الصوفية » : ١٦٦ .
وهكذا هو في الأصل : ثمان وسبعين والصواب : ثمان وتسعين . . . فتنبه .

(٢) من البحر الطويل ، والأبيات في « تاريخ بغداد » : ٩/ ٢٣٧ بقليل تصرُّف .

(٣) فيه إشارة إلىٰ أن القلوب إذا لم تشتغل بمحبَّته وعبادته تعالىٰ مع مراقبته . . تعدُّ فارغة ؛ وإن ملئت بالأغيار ، لعدم الفائدة ، بل للضرر الحاصل من ذلك .

رُمِيْتُ بِبَيْنٍ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ كَاذِبَاً[1] وَإِنْ كُنْتُ فِي ٱلدُّنْيَا بِغَيْرِكَ أَفْرَحُ
وَإِنْ كَانَ شَيْءٌ فِي ٱلبِلَادِ بِأَسْرِهَا إِذَا غِبْتَ عَنْ عَيْنِي لِعَيْنِي يَمْلُحُ
فَإِنْ شِئْتَ وَاصِلْنِي وَإِنْ شِئْتَ لَا تَصِلْ[2] فَلَسْتُ أَرَىٰ قَلْبِي لِغَيْرِكَ يَصْلُحُ

* * *

ومنهم : ٣٢ـ أبو عبيد محمد بن حسان البُسري ؛ نسبةً إلى « بسر » وهي قرية بحوران

درجته : من قدماء المشايخ . صحب أبا تراب النخشبي .

أحد أربعة : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن علي ؛ يقول : سمعتُ الدُّقيَّ ؛ يقول : سمعت ابن الجلاَّء ؛ يقول :

لقيت ستَّ مئة شيخ ؛ فما رأيت مثل أربعة : ١ـ ذي النون المصري ، و٢ـ أبي : يحيى الجَّلاَّء ، و٣ـ أبي تراب النخشبي ، و٤ـ أبي عبيد البُسري .

أقدر منهما : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أحمد بن محمد البغويَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن معمر ؛ يقول : سمعت أبا زرعة الحسني ؛ يقول :

كان أبو عبيد البُسْريُّ يوماً على « جرجر » : نورج يدرُس به قمحاً له زرعه لقُوْته ، وبينه وبين الحجِّ ـ يعني الوقوف بعرفة ثلاثةُ أيام . . إذ أتاه رجلان وليَّان ؛ فقالا له : يا أبا عبيد ؛ تنشط معنا للحج !! فقال : لا لكونه رأى أنَّ

---

(١) لما كان أعظم عذاب المحبِّ إبعاده عن مشاهدة محبوبه . . دعا علىٰ نفسه بالبعد إن كان فيما ادَّعاه كاذباً ؛ وهو عدم بَرَاحِهِ عن أعتاب كرمه تعالىٰ وعدم فَرَحه بغيره في دار الدنيا . . .

(٢) ليس المراد أن الوصل وعدمه سواء ، بل المقصود إفادة الرضا بكل ما وقع بالقضاء (عروسي : ١/ ١٦١ ؛ بتصرُّف) .

ما هو فيه أولىٰ من سفره معهما، **ثم بعد مضيِّهما التفت إليَّ؛ وقال لي: شيخُك على هذا** الأمر المسمَّىٰ بطيِّ الأرض **أقدرُ منها ـ يعني: نفسه ـ!!** أظهر رحمه الله الكرامة لمن يقتدي به لتقوىٰ نفسه بوقوعها، وليُكمل حسن ظنِّه به فينتفع به[1].

وفيه تنبيه على أن الكرامة لا تختصُّ بمن يقطع الأسباب.

حكمه: ومن كلامه: النعمُ طردٌ[2]، فمن أحبَّ النعم أحبَّ الطرد، والبلاءُ قُربة فمن أساءه البلاءُ[3] أحبَّ ترك القربة!!

أحد الأبدال: ورُوي عن ابنه نجيب قال: بينا أنا أنظر إلى البحر ليلةَ النصف من شعبان ووالدي بمكان مقابلي؛ وإذا بشخص يمشي على الماء ثم على الهواء!! ثم جاء إلى والدي فدخل من طاقته التي هو فيها ينظر إلى البحر، فجلس معه مليًا يتحادثان، ثم قام والدي يودّعه ورجع الرجل من حيث جاء.. يمشي في الهواء! فقمت إلى والدي وقلت له: يا أبتِ من هذا الذي كان عندك يمشي على الماء ثم الهواء؟! فقال: يا بُنيَّ؛ وهل رأيتَه؟! قلت: نعم. قال: الحمد لله ربِّ العالمين الذي سرَّني بك، وبنظرك له! يا بنيَّ هذا الخضر؛ نحن اليوم في الدنيا سبعةٌ.. ستةٌ يجيئون إلى أبيك، وأبوك لا يروح إلى واحد منهم!!.

* * *

---

(١) وقد يجب ذلك إذا تعيَّن طريقاً لجلب منفعة دينية؛ أو درء مفسدة كذلك (عروسي).

(٢) أي ربَّما كانت من أسباب الطرد؛ باعتبار أنها قد تشغل العبد عن مراتب القرب من حضرة الربِّ! أو الكلام باعتبار الشأن والغالب، وحينئذ فلا ينافي ذلك أنها مزرعة للآخرة!...
(عروسي: ١/ ١٦٢).

(٣) الامتحان في الدنيا بالأمراض وغيرها.. قد يكون من أسباب القُربة لمن صبر ولم يَجزعْ ولم يَشْكُ لغيره تعالىٰ شكوىٰ ضجر (عروسي).

ومنهم : ٣٣ـ أبو الفوارس شاه بن شجاع الكِرْماني ؛ نسبة إلى « كرمان »

كان من أولاد الملوك[1] .

رتبته ووفاته : صحبَ أبا تراب النخشبي ، وأبا عبيد البُسري ، وأولئك الطبقة : الذين في طبقتهما ، وكان أحدَ الفتيان ، كبيرَ الشأن ، مات قبل الثلاث مئة .

من حكمه : وقال شاه الكرماني : علامةُ التقوىٰ الورعُ الذي هو تجنُّب ما يخشىٰ منه ، **وعلامة الورع الوقوفُ عند الشبهات ؛ بأن لا يدخل فيها .**

من وصاياه : وكان يقول لأصحابه : اجتنبوا الكذب ، والخيانة ، والغيبة ، ثم اصنعوا ما بدا لكم . والخيانة تشمل سائر المعاصي ؛ فتشمل الكذبَ والغيبةَ ، ونصَّ عليهما ؟ لأنَّهما أغلبُ شيء على الإنسان ، ويكفي في المنع من ذلك آية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾[2]

أصل الفراسة : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي رحمه الله ؛ **يقول : سمعتُ جدِّي** أبا عمر بنَ نُجَيد ؛ **يقول : قال شاه الكرماني : مَن غضَّ بصرَه عن المحارم ، وأمسكَ نفسَه عن الشهوات ، وعَمَّر باطِنَه بدوام المراقبة ؛ وظاهِرَه باتباع السنَّة ، وَعَوَّد نفسَه أكلَ الحلال . . لم تُخطِىءْ له فراسة .** لخبر : « مَاتَقَرَّبَ ٱلْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ

---

(١) وأصل توبته أنَّه خرج يتصيَّد في برِّيَّة . . وإذا بشابٍّ راكب أسداً وحوله سباع ، فلما رأته ابتدرتْ نحوه فزجرها الشابُّ ، ثم قال : يا شاهٌ ؛ ما هذه الغفلة ؟! اشتغلت بدنياك عن أخراك ، وبلذَّاتك عن خدمة مولاك ؟! ثم خرجت عجوز بيدها شربة ماء ! فشرب وناوله ، فسأله عنها ؛ فقال : هي الدنيا وكِّلت بخدمتي ! أما بلغك أنَّ الله لمَّا خلقها . . قال ﴿ مَن خدمني فاخدميه ، ومَن خَدَمك فاستخدميه !﴾ فخرج عن الدنيا وسلك الطريق .

(٢) الآية : ٢٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها الأنفال .

بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا ٱفْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ »[1] . ورُويَ أن شاهً كان بينه وبين يحيى بن معاذ الرازيِّ صداقةٌ فجمعهما بلد واحد فكان شاهٌ لا يحضر مجلسه ! فقيل له في ذلك ؟ فقال : الصواب هذا . فما زالوا به حتَّىٰ حضر مجلسه وقعد ناحية . . ويحيى لا يشعر به .

فلما أخذ يحيى في الكلام أُرتج عليه وسكت ، فقال لهم : هنا مَن هو أجدر بالكلام منِّي !! فقال لهم شاهٌ : قلت لكم : الصوابُ ؛ أن لا أحضر مجلسه !

* * *

ومنهم : ٣٤ـ أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي

رتبته : شيخ الريِّ والجبال في وقته ، وكان نسيجَ وحده : لا نظير له في إسقاط التصنُّع للخلق بالطاعات والتزيُّن بها عندهم .

وكان عالماً أديباً ، صحبَ ذا النون المصريَّ ، وأبا تراب النخشبي ، ورافق أبا سعيد الخرَّازَ .

وفاته : مات سنة : أربع وثلاث مئة .

من كلامه : قال يوسف بن الحسين : لأَن ألقىٰ الله تعالىٰ بجميع المعاصي غيرِ الكفر أَحبُّ إليَّ من أن ألقاهُ بذرَّة من التصنُّع ، لخطر أمره! نعم التصنُّع والتجمُّل لقصدٍ صحيح كالتجمُّل للأعياد والجُمَع وتعظيم العلم فليس بمذموم ؛ بل محبوب .

وقال يوسف بن الحسين : إذا رأيت المريدَ يشتغل بالرُّخص ؛ بأن يترك المندوبات ويرتكب المكروهات والشبهات ، ويقول : لم يفتني واجب ولم

---

(١) تقدَّم تخريجه ص ٣٦ .

أرتكب محرَّماً . . فٱعلم أنَّه لا يجيءُ منه شيء أبداً فيما رامه[1] من معالي الأمور ، لأنَّها إنَّما تحصل غالباً بكمال الجدّ والاجتهاد ، وهو بارتكابه ذلك قد ركن إلى الراحات والبطالات ، فالمراد بالرُّخَص ما قلنا ، لا ما ثبت على خلاف الدليل بعذر مع قيام السبب كالقَصْر والفِطر في السفر ، وأكلِ الميتة عند الاضطرار .

وكتب يوسف إلى الجنيد : لا أذاقك الله طعمَ نفسك : لذة شهواتها الذميمة ؛ كلذَّة الرياسة والمنزلة وتعظيم الخلق لك على الطاعة ، فإنَّك إن ذُقْتَها لم تَذُق بعدَها ؛ خيراً أبداً . لأنَّ ذلك حجابٌ عن كلِّ خير ؛ إلاَّ أن يتداركك الله برحمته .

آفات الصوفية : وقال يوسف بن الحسين : رأيت آفاتِ الصوفية ١ـ في صُحْبَة الأحداث : الشباب المُرْدِ ، و٢ـ في معاشرة الأضداد : أضدادهم السالكين غير طريقتهم الحميدة ، و٣ـ في رفق النسوان : نفعهم بقبول ما يدفعْنَه لهم على توهُّمِهِنَّ فيهم ما ليس بمرضيٍّ ، وذلك لأنَّ الغالب في كلٍّ من الثلاثة عدمُ سلامة الدين .

من كلامه : ومن كلام يوسف : الصوفيَّةُ خيارُ الناس ، وشرارُهم خيار شرارِ الناس ، فهم الخيار بكلِّ حال[2] .

وكان يقول : اللهم ! إنَّك تعلم أنِّي نصحت الناس قولاً وخنتُ نفسي فعلاً ، فهب خيانتي على نفسي لنصحَيَ للناس .

* * *

---

(١) قَصَد إليه .

(٢) مراده أنَّ الصوفيَّ خير من غيره أعني غير الصوفيَّة ، فمن ثبت له الخيريَّة من الصوفيَّة فهو خير ممن ثبت له الخير من غيرهم ، وشرُّهم أقلُّ من شرِّ غيرهم لقربه لجهات الخير ، بخلاف الشرِّ من غيرهم . ولذا قال (هم الخيار بكلِّ حال) . سواء اعتبرت خيريَّـتهم أو لا (عروسي : ١/ ١٦٤) .

ومنهم : ٣٥ـ أبو عبد الله محمد بن علي التِّرمِذي ؛
نسبة إلى « ترمذ » مدينة على طرف نهر بلخ المسمَّىٰ بـ« جيحون »

رتبته : من كبار الشيوخ ، وله تصانيف في علوم القوم . صحب أبا تراب النخشبيَّ ، وأحمد بن خضرويه ، وابن الجلاَّء ، وغيرَهم .

صفة الخلق : سئل محمد بن علي ؛ عن صفة الخَلْق ؟! فقال : ضعفٌ ظاهر ، ودعوى عريضة : لا قدرة لهم على ما يَجْلُب لهم نفعاً ؛ ولا ما يدفع عنهم ضرَّاً ومع ذلك يدَّعونْ وينسبون لأنفسهم ما تفضَّل الله به عليهم . ومعنى عريضةٍ : عظيمةٌ ، لأنَّ من ادَّعىٰ لنفسه ما لا ملك له فيه فقد أعظم الدعوىٰ ، وزاد في الخطأ ، ولذلك قال محمَّد بن علي المذكور :

ما صنَّفتُ حرفاً عن تدبير ، ولا صنَّفتُه ليُنسَب إليَّ منه شيء ، ولكن كان إذا اشتدَّ عليَّ وقتي : طرأت عليَّ الأحوال الغالبة **أتسلَّىٰ به** : بالتصنيف بأن تَجْري الحكمُ على لساني فأشتغل بتعليقها لأتسلَّىٰ بها ، ويخفف عني ما لا أقدرُ على حمله عادةً ؛ من تلك الأحوال ! كما حُكي عن النُّوري أنه وُجد ذات يوم ينتف شعر حواجبه[1] ! فسئل عن ذلك فقال : الحقيقةُ غالبة عليَّ ولا قدرة لي على حملها ! فأنا أشتغل بذلك ليخفَّ ما بي ، وأرجع إلى إحساسي .

* * *

* *

*

(١) انظر ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

ومنهم : ٣٦ـ أبو بكر محمد بن عمر الوَرَّاق ؛
نسبة إلى بيع الورق التِّرْمِذي

لمحة : أقام ببلخ ، وصحب أحمد بن خضرويه ، وغيره . وله تصانيف في الرياضات .

الشهوات : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان ؛ يقول : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمد بن محمد البلخي ؛ يقول : سمعت أبا بكر الورَّاق ؛ يقول :

مَن أرضى الجوارحَ بالشهوات غَرَس في قلبه شَجَر الندامات . لمخالفته ما يقرِّبه لمولاه ، وهذا يجده عنده في الدنيا ؛ وهو ظاهر في الآخرة ، لأنَّه إذا رأى جزاء الأعمال ودرجاتِ المجتهدين في الطاعات مع خلوِّهِ عن ذلك باشتغاله بالشهوات . . توالت على قلبه الندامات والحَسَرات .

من حكمه : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي ؛ يقول : سمعت أبا بكر البلخي ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الورَّاق ؛ يقول . . في ذمِّ الطمع فيما بأيدي الناس : لو قيل للطمع (من أبوك)؟ قال : الشكُّ في المقدور : يتولَّد عنه كما يتولَّد الولد عن أبيه ، إذ لو تيقن العبد أنَّ رزقه المقدَّر له لا بدَّ أن يأتيَهُ في وقته . . لقلَّ أو زال عنه طمعه فيما بأيدي الناس . ولو قيل للطَّمعِ : (ما حرفتك ؟) قال : اكتسابُ الذلِّ .

كما أنَّ الحرفة هي التي يكتسب الإنسان منها قوَّته ويلازمها . . كذلك من قوي طمعه لا يزال متذلِّلاً لأبناء الدنيا .

ولو قيل للطمع : (ما غايَتُك ؟) قال : الحرمان ؛ لأنَّه متى كان أصله شكّاً في المقدور وحرفته دوامُ الذُّلِّ لمن لا يصلح التذلُّل له . . كان جديراً بأن لا ينيل الله مَن طمع ما طمع فيه ، لأنَّه لم يتوصَّل إليه بطريقه المعتبر .

مفتاح البركة : وكان أبو بكر الورَّاقُ يمنَعُ أصحابَه في ابتداء أمره عن الأسفار والسِّيَّاحات ؛ ويقول : مفتاح كلِّ بركة الصبرُ في موضع إرادتك : سلوكك إلى

أن تصحَّ لك الإرادة ، فإذا صحَّت لك الإرادةُ ؛ فقد ظهرت عليك أوائل البركة .

توضيح : لأنَّ من عزم على سلوك طريق الإرادة وعمارة أوقاته بالطاعات ؛ وكان ضعيف النفس قليل الاعتياد للخير . . إنَّما يستعين على ذلك بقطع المشغلات والتفرُّغ له والصبر عليه ، فلو أَخَذ يسافر ويسّيح عرَّض نفسه لكثير من الآفات ، ويشتِّت قلبه .

حقيقة الإرادة : وحقيقة الإرادة عندهم إفراغ الجهد في الطاعات ، لأنَّهم قالوا : الإرادة بدء طريق السالكين إلى الله ، وإنَّما يُسلَك طريق الله بالطاعات .

حقيقة المريد : قالوا : والمريد مَن لا إرادة له . بمعنى أنَّه لا يتصرَّف بهواه ، بل بأمر مولاه .

من نصحه : ومن كلام الورّاق : لا تصحب من يمدحك بخلاف ما أنت عليه ؛ فإنَّه إذا غضب عليك ذمَّك بما ليس فيك .

* * *

ومنهم : ٣٧ ـ أبو سعيد أحمد بن عيسى الخرَّاز ؛
نسبة إلى خرز الجلود من القِرَب ونحوها

من أهل بغداد .

رتبته : صحب ذا النون المصريَّ ، والنِّباجيَّ ، وأبا عبيد البُسْري ، والسريَّ السقطي ، وبشراًالحافيَّ ، وغيرهم .

وفاته : مات سنة : سبع وسبعين ومئتين . وقيل : سنة ستٍّ وثمانين ومئتين .

قال أبو سعيد الخراز : كلُّ باطن يخالفه ظاهرٌ من العلم ؛ بأن يقع في القلب شيء لا تشهد بصحَّته الشريعة فهو باطل : ليس بحقٍّ .

يحاور إبليس : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا العبَّاس الصيَّاد ؛ يقول : سمعتُ أبا سعيد الخرَّاز ؛ يقول : رأيت إبليسَ في النوم ؛ وهو يمرُّ عني ناحيةً : بعيداً ! فقلت له : تعال ؛ مالك تمشي بعيداً ! استنكاراً لعادته مع بني أدم ؟!. فقال لي : إيش أعملُ بكم أيُّها الزُّهَّاد ؛ وأنتم طرحتم عن نفوسكم ما أُخادِع به الناس !! فقلت : وما هو ؟ قال : الدنيا . فلما ولَّىٰ عني ؛ التفتَ إليَّ . . وقال : غير أنَّ لي فيكم لطيفةً : أمراً يخفىٰ عليكم كونُه يضرُّكم ! فقلت : وما هي ؟ قال : صحبةُ الأحداث : الشباب المُرْد ، ومثلها صحبة النساء الأجانب .

مهالك الإنسان : وبهذه الحكايات عُرِف أنَّ جميع ما يتوسَّل به الشيطان إلى إهلاك الإنسان شهواتُه المعلَّقة بالدنيا ، فكلُّ مَن زهد فيها . . ضعفت خواطر الشيطان عنده ، وقَلَّ قبولُه لها .

صحبته الصوفية : وقال أبو سعيد الخرَّاز : صحبتُ الصوفية ما صحبتُ فما وقع بيني وبينهم خلاف . قالوا له : لم ؟ قال : لأني كنتُ معهم قائماً علىٰ نفسي : أتحمَّل عليها ، فلا أؤاخذ أحداً ما بدا منه .

كمال العقل : وفي ذلك تنبيه على كمال عقله ؛ وأنَّ الذين خالطهم لم يطَّلع منهم على ما يوجب إنكاره عليهم ، دِيْناً ، وإلاّ لأنكر ! وإنما كان يترك إنكار ما يختصُّ به من الأذىٰ !! لمعرفته بقَدْر نفسه ، وشدّة مجاهدته في عمل ما يلحقه بذلك .

حكمه : ومن كلامه : بئس في طبع المؤمن قولُ (لا) . لأنَّه إذا نظر إلى ما بينه وبين ربِّه من أحكام الكرم . . استحيا أن يقول (لا) .

وقال في معنى قوله تعالىٰ ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] : خزائنُ السماء الغيوبُ ، وخزائن الأرض القلوب .

* * *

---

(١) الآية : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المنافقون .

ومنهم : ٣٨ـ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المَغرِبي نسبة إلى بلاد المغرب

رتبته : أستاذُ إبراهيم بن شيبان ، وتلميذ علي بن رزين .

وفاته : عاش مئة وعشرين سنة . ومات سنة : تسع وتسعين ومئتين .

حاله : كان عجيبَ الشَّأن ؛ لم يأكل ممَّا وصلتْ إليه يدُ ـ وفي نسخة : أيدي ـ بني آدم سنين كثيرة !!

زهده : وكان يتناول من أصول الحشيش أشياءَ تعوَّد أكلها .

من حكمه : وقال أبو عبد الله المغربي : **أفضلُ الأعمال عَمارة الأوقات بالموافقات بين أعمال القلب والجوارح ؛ بأن تكون واقعة على أفضل ما يرضي الله** ـ وفي نسخة : بالمراقبات ـ .

العزُّ والذلُّ : وقال أيضاً : **أعظم الناس ذُلاًّ فقيرٌ داهن غنياً ؛ أو تواضع له** . لأنَّه تذلَّل لمن لا يصلح التذلُّل له ، **وأعظم الخلق عزّاً غنيٌّ تذلَّل للفقراء ، وحفظ حرمَتَهم** . لأنَّ ذلك إنَّما يفعل لله ؛ ولطلب ثوابه ، فقد تعزَّز بتذلُّله لمن يُعزُّه ، وينال منه بركة فعله .

* * *

* *

*

ومنهم : ٣٩ـ أبو العبَّاس أحمد بن محمد بن مسروق

أصله ونشأته : من أهل طوس ، سكن بغداد ، وصحب الحارث المحاسبيَّ ، والسريَّ السَّقَطي .

وفاته : توفي ببغداد سنة : تسع ـ وقيل : سنة ثمان ـ وتسعين ومئتين .

من حكمه : قال ابن مسروق : مَن راقب الله تعالىٰ في خطَرات قلبه الداعية لأفعال قلبه وجوارحه . . عَصَمهُ الله في حركات جوارحه ، التابعة لحركات قلبه ، لأنَّ مَن راقب الله قبل أفعال قلبه وبعد عروض الخواطر ؛ ولم يعزم على الفعل حتَّىٰ يعلم حكمه : أيرضي الله ؛ أو يسخطه . . سَلِمَ مِنَ الزلل في حركات قلبه وجوارحه .

حقيقة التقوى : وقال أيضاً : تعظيمُ حُرُمات المؤمنين من تعظيم حُرُمات الله تعالىٰ ، لأنَّه تعالى « حَرَّم المؤمن دمه وعرضه وماله »[١] ، وجعل له حرمة ، فالقائم بها لله إنما قام بها امتثالاً لأمر الله وخوفاً منه . وبه يصل العبد إلى محلِّ حقيقةِ التقوىٰ : إلى الحالة التي تسمَّى « حقيقة » عند القوم ؛ وهي غلبة حالة الحقِّ على المحق[٢] .

١ـ شجرة المعرفة : وقال : شجرة المعرفة بأن يعرف الله بأنَّه الخالق الواحد الذي لا ربَّ سواه تُسقىٰ بماء الفكرة : تفكُّر في تفاصيل أفعاله تعالىٰ ، وانفراده بها عن جميع المخلوقات . ومعنى (سقي معرفتِه بذلك) أنَّه ينشرح به صدره ،

---

(١) يشير إلىٰ قوله ﷺ : « كُلُّ ٱلْمُسْلِمِ عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِ حَرَامٌ . . مَالُهُ ، وَعِرْضُهُ ، وَدَمُهُ . حَسْبُ ٱمْرِىءٍ مِنَ ٱلشَّرِّ أَنْ يَحقِرُ أَخَاهُ ٱلْمُسْلِمَ » . أخرجه مسلم : ٢٥٦٤ ، وأبو داود : ٤٨٨٢ ، والترمذي : ١٩٢٨ ، وصححه . وابن ماجه : ٣٩٣٣ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) وذلك بفناء مرادات العبد في مرادات الرَّب سبحانه وتعالىٰ وبمداومة متابعة رسوله وحبيبه ﷺ (عروسي : ١/ ١٧٠) .

ويتَّسع نظره في المخلوقات وينتفع به ؛ كما أن الشجرة إذا سُقيت بالماء حَسُنت فروعها وأخضرَّ ورقها ، وطاب ثمرها وانتفع بها جانيها .

٢ـ **شجرة الغفلة** : **وشجرةُ الغفلة** عن الله تسقىٰ **بماءِ الجهل** بمقدار ما فاته من الله من الخيرات ، فكلَّما توالت غفلته عن شيء بَعُدَت عنه فوائده ، فالغفلة عن الفوائد سببه الجهل بها .

٣ـ **شجرة التوبة** : **وشجرةُ التوبة تسقىٰ بماء الندامة** ، لأنَّ العبد إذا كان معرضاً عن مولاه ثمَّ مَنَّ عليه بالتوبة نَدِم على ما مضىٰ منه ، وعزم على أن لا يعود إلى ذلك .

٤ـ **شجرة المحبَّة** : **وشجرةُ المحبَّة** من العبد لله ؛ ومن الله للعبد **تسقىٰ بماء الاتفاق** : اتفاق مراد العبد ومطلوب الربِّ تعالىٰ ، **وبماء الموافقة** للكتاب والسنَّة التي بها يحصل رضا الله على العبد ، وإذا رضي عليه أحَّبه ، وإذا أحبَّه والىٰ عليه نعمه .

معرفة الجاهل : **وقال** ابن مسروق : **متىٰ طَمِعتَ فِي المعرفة** بالله ؛ **ولم تُحكِمْ** : تتقن **قبلَها** مدارجَ الإرادة : السلوك . . **فأنت في جهل** ، لأنَّ العارف مَن توالىٰ ذكره لمعروفه وقلَّت غفلته عنه ، حتى **قال** بعضهم : ما رأيت شيئاً حتَّى رأيتُ الله قبله[1] . لشدَّة يقظته وكثرة ذكره لربِّه .

مدارج السلوك : ومدارج السلوك : أولاً التوبة عن المحرَّمات . ثم ٢ـ عن المكروهات ؛ وهوالورع . ثم ٣ـ عن الشبهات ؛ وهو الزهد . ثمَّ ٤ـ عن السكون عن الأسباب المعتادة ؛ وهو التوكُّل . ثمَّ ٥ـ الرضا بما يجريه الحقُّ من المؤلمات ، ثمَّ ٦ـ المحبَّة له تعالىٰ ؛ وإفراغ الجهد في الموافقات التي هي إفراغ الجهد في الطاعات كما مرَّ .

---

(١) وذلك بفناء العبد عن جميع الخلق ، فلم يشهد إلاَّ الملكَ الحقَّ ! فمثله ممَّن يستدلُّ بالمؤثر علىٰ الأثر ؛ وبالمخبر عن الخبر . . وذلك أشرف المقامات ، لشهود الخالق قبل المخلوقات . (عروسي : ١/ ١٧٠) .

قلت : وليتَّضح له جلاء هذا المعنىٰ . . انظر ما سيأتي من جواب ابن الصائغ عن صفاته تعالىٰ ص١٩٥ .

غفلة المريد : ومتىٰ طلبتَ الإرادة قبل تصحيح مقام التوبة ؛ فأنت في غفلة عمَّا تطلب . لأنَّ التوبة مقدَّمة على الإرادة التي هي إفراغ الجهد في الطاعات . . كما مرَّ .

* * *

ومنهم : ٤٠ـ أبو الحسن عليُّ بن سهل الأَصبهاني ؛

نسبة إلى أَصبهان : أشهر بلدة بالجبل

رتبته : من أقران الجنيد . قَصَده عمروُ بن عثمان المكيُّ في دين رَكِبه ، فقضاه عنه ، وهو ثلاثون ألف درهم !! . فيه تنبيه على كمال رغبته في الخير .

لقي أبا تراب النخشبيَّ والطبقة : الذين في طبقته .

من حكمه : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر محمد بن عبد الله الطبريَّ ؛ يقول : سمعتُ عليَّ بن سهل ؛ يقول : **المبادرةُ إلى الطاعات من علامة التوفيق** ، لأنَّه إنَّما بادر إليها بعون الله وخلق قدرتها له ، وهذا معنى التوفيق ، **والتقاعدُ عن المخالفات** للطاعات من علامات حسن الرعاية لخواطر القلب ، وللعلم بمحمودها ومذمومها . **ومراعاة الأسرار** : أعمال القلوب **من علامات التيقُّظ** . . لأفعاله كلِّها بمعرفة محمودها ومذمومها ، إذ لو لم يكن متيقِّظا لها لم يراعِ أسرار قلبه . وأصل ذلك خبر : « مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِيْنَ صَبَاحَاً ظَهَرَتْ يَنَابِيْعُ ٱلحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَىٰ لِسَانِهِ »[1] .

وإظهار الدعاوىٰ من رعونات البشرية . لأنَّ من علم أنَّ جميع ما هو فيه من

---

(١) أخرجه القضاعي : ٤٦٦ ؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرجه أبو نعيم في « الحلية » : ٥/١٨٩ ؛ عن أبي أيوب بلفظ « يوماً » بدل « صباحاً » وابن عدي في « الكامل » : ٥/١٩٤٥ . وأخرجه أحمد مرسلاً عن مكحول .

الطاعات والنعم من فضل ربِّه ، ثمَّ ادَّعاه وإضافةُ لنفسه لجريانه على يده . . مع معرفته بعجزه وعدمِ تأثير قدرته . . كان ذلك من رعونته وحمقه ؟!

ومَن لم تصحَّ مبادئُ إرادته بإتباع الكتاب والسنة لا يَسْلَمُ في منتهىٰ عواقبه ، لأنَّ البناء الصحيح إنَّما يكون باتباع ذلك ، وكمالِ الصدق والصبر .

وهذا أقرب من قولهم (من لم يكن له في بدايته قومةٌ لم يكن له في نهايته جلسة) : من لم يكن له اجتهاد في مباديه مع قوة شبيبته وصحَّته في بدنه على ما يرومه من الخيرات . . لم يقدر على ذلك بعد عجزه .

* * *

ومنهم : ٤١ـ أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجُرَيري ؛

نسبة إلى جُرَير بن عباد ؛ من بني (بكر بن وائل)

رتبته : من كبار أصحاب الجنيد ، وصحب سهل بن عبد الله التُّستَري وقد أُقعد : أُجلس بعد الجنيد في مكانه ، وكان عالماً بعلوم هذه الطائفة الصوفية ، كبيرَ الحال .

وفاته : مات سنة : إحدى عشرة وثلاث مئة .

بعد موته : سمعت أبا عبد الله الشيرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أحمد بن عطاء الرُّوذَبَارِيَّ ؛ يقول : مات الجُرَيري سنة الهبير التي كان فيها هلاك الناس ، وتهبيرهم : تقطعيهم ، فجُزْت : مررت به بعد سنة ؛ فإذا هو مستندٌ جالس وركبته إلى صدره ، وهو مشيرٌ إلى توحيد الله بأصبعه .

توضيح : فيه تنبيه على أنه كان مشغولاً بالله تعالىٰ في وقت اشتغال الناس بأنفسهم عن أديانهم لشدَّة ما يطرقهم من المصائب الدنيوية ، لأنَّه لمَّا وقع هذا الأمر العظيم . . علم أنَّه لا نجاة منه إلاَّ بربِّه فأقبل عليه ، وجلس مكانه متوجه القبلة ؛ معرضاً عن غيره ، فمات وهو كذلك مشير إليه .

من كلامه :

١ـ النفس : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا الحسين الفارسي ؛ يقول : سمعتُ أبا محمد الجُرَيريَّ ؛ يقول : مَن استولت عليه النَّفس : شهواتُها من الغضب والكِبْر والحسد ونحوها . . صار أسيراً في حكم الشهوات ؛ محصوراً في سجن الهوى : لا يتفرَّغ للطاعات ، ولا يفرِّق بين ما ينفعه وما يضرُّه عند ربِّه ، وحَرَّم الله علىٰ قلبه الفوائدَ ، فلا يستلِذُّ بكلام الحقِّ تعالىٰ ؛ ولا يستَحْلِيه ؛ وإن كَثُر تردادُه على لسانه ؛ لقوله تعالىٰ ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[1]: سأصرف قلوبَهم عن فهم كتابي فلا يفهمونه ؛ ولا يجدون له لذَّةً لامتلاء قلوبهم بالشهوات فلا يتفرَّغون للتفهُّم .

٢ـ الأصول والفروع : وقال الجُرَيري : رؤيةُ الأصول ؛ وهي الكتاب والسنة والإجماع تكون **باستعمال الفروع ، وتصحيحُ الفروع** المأخوذةِ منها تكون **بمعارضة الأصول** ، فكلَّما أراد العبد أن يعمل عملاً ؛ من صلاة أو صوم أو غيرهما . . فلا بدَّ أن يلتفت لأصوله ويعرف حكمه منها ، وبهذا الاعتبار يكون الفرع مذكِّراً للأصل لاحتياجه إليه ، وكذا لا يصحُّ له فرع حتى يعرضَه على الأصل ؛ فيشهد بصحَّته ! فكلٌّ منهما محتاج إلى الآخر ، إلاَّ أنَّ الفرع مذكِّر للأصل لضرورة الردِّ إليه ، والأصل شاهدٌ للفرع بالصحَّة لضرورة شهادته له بها ، **ولا سبيل إلى مقام مشاهدة الأصول** المذكورة **إلاَّ بتعظيم ما عَظَّم الله من الوسائط** بين الربِّ وعبده ، وهم الرسول وأصحابه والعلماء **والفروع** ، لأنَّ الله شرَّفَهما وعظَّمَهما ، فلا سبيل إلى أن يعظم العبد الأصول حتى يعظم فروعها والناقلين له إلى عباده .

مقامه : وفي ذلك تنبيه على أنَّ الجُرَيري عارف بكمال الشريعة أصولها وفروعها .

أدبه : ومن كلامه : ما مددتُ رجلي في الخلوة منذ عشرين سنة ، فإنَّ حسن الأدب مع الله أولىٰ .

* * *

ومنهم : ٤٢ـ أبو العبَّاس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأَدَمي ؛ نسبة إلى بيع الأَدم ؛ جمع أديم

طبقته ووفاته : من كبار مشايخ الصوفية وعلمائِهم ، كان الخرَّاز يعظِّمُ شأنه ، وهو من إخوان[1] الجنيد ، وصحب إبراهيم المارستانيَّ . مات سنة : تسع ثلاث مئة .

من حكمه :

١ـ أدب الشريعة : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ أبا سعيد القرشيَّ ؛ يقول : سمعت ابن عطاء ؛ يقول : مَن ألزم نفسَه آداب الشريعة نوَّر الله قلبَه بنور المعرفة ، ولا مَقام أشرف من مَقام متابعة الحبيب ﷺ ؛ في أوامره ؛ وأفعاله ؛ وأخلاقه .

لأنَّه ﷺ عارف بأفضل ما يحبُّه مولاه ، وما يقرِّبُه إليه ويرضاه ، فهو إنَّما يسلك بنفسه أفضل الطاعات بمعونة الله له في سائر الحركات والسَّكَنات ، فمن اتَّبعه في ذلك فلا مقام أفضل من مقامه ! ومنه محبَّةُ الله له ، قال تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[2]

٢ـ الغفلة : وقال ابن عطاء : أعظمُ الغفلةِ غفلةُ العبد عن ربِّه عزَّ وجلَّ ، وغفلتُه عن أوامره ونواهيه ، وغفلتُه عن آداب معاملته . لأنَّ الغفلة تَعْظُم بحسب المغفول عنه ، ١ـ فمن غفل عن الله كان ذلك أشدَّ الغفلة ؛ لكونه غفل عن الأصل العظيم في عبادته ، بل قد يؤدي إلى الكفر . ويليها ٢ـ الغفلةُ عن أوامره ونواهيه ، وتليها ٣ـ الغفلة عن الآداب والفضائل .

وهذا الترتيب مفاد من كلامه ؛ من حيث إنَّ العادة تقديمُ الأهمِّ فالأهم .

---

(١) في (م) أقران .

(٢) الآية : ٣١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

٣ـ **الإجابة** : سمعت أبا عبد الله الشيرازيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ عبد الرحمان بن أحمد الصوفيَّ ؛ يقول : سمعتُ أحمد بن عطاء ؛ يقول : **كُلُّ ما سُئِلت عنه** ؛ مما يتعلَّق بالله ؛ أو بصفاته ؛ أو بأحكامه . . **فاطلبه صحَّةً في مفازة العلم** : مجاله . شبَّهها بالمفازة وهي الصحراء المتَّسعة !! لاتساع مجال العلم ؛ وهي الأدلَّة المأخوذة من الكتاب والسنة .

فإن لم تجده فيها ؛ ففي ـ : **فأطلبه في ـ مَيدان**[1] **الحكمة** ؛ وهو قول العلماء العاملين ، وسمَّاه « ميداناً » ! لأنَّه محلُّ النظر ومجاري العبر ، **فإن لم تجده فيه ؟ فزِنْه بالتوحيد** ، هل تليق نسبته إلى الله تعالىٰ صفة أو فعلاً أوْلاً !! **فإن لم تجده في هذه المواضع الثلاثة !! فاضرب به وجه الشيطان** . . فإنَّه خاطر مذموم ؛ وإن استحسنتَه .

وفي ذلك تنبيهٌ على كمال علمه بمعرفته طرق الأحكام ، والخروج عما يلقيه الشيطان في قلوب العوام لتزلَّ بهم الأقدام .

علامة الوليِّ : وقال رضي الله تعالىٰ عنه : علامة الوليِّ أربعةٌ ١ـ صيانة سرِّه فيما بينه وبين الله ، و٢ـ حفظ جوارحه فيما بينه وبين أمره ، و٣ـ احتمال الأذىٰ فيما بينه وبين خلقه ، و٤ـ مداراته للخلق على تفاوت عقولهم .

الذهب والفضة : وقال : لما عصىٰ آدم ربَّه بكىٰ عليه كلُّ شيء في الجنة إلاَّ الذهب والفضة !! فأوحىٰ الله إليهما ﴿ لِمَ لاَ تَبْكِيَانِ عَلَىٰ آدَمَ !؟﴾ فقالا : ما لنا نبكي على من يعصيك !! فقال ﴿ وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لأَجْعَلَنَّ قِيْمَةَ كُلِّ شَيْءٍ بِكُمَا ، وَلأَجْعَلَنَّ بَنِي آدَمَ خَدَماً لَكُمَا ﴾ .

* * *
* *
*

---

(١) بفتح الميم أشهر من كسرها (الشارح) .

ومنهم : ٤٣ـ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الخوَّاص ؛ نسبة إلى نسج الخوص[١]

رتبته : من أقران الجنيد ؛ والنُّوري . وله في التوكُّل والرياضات حَظٌّ كبير .

وفاته : مات بالري سنة : إحدى وتسعين ومئتين .

محنته : كان « مبطوناً »[٢] في المسجد ؛ فكان كلَّما قام من مجلسه توضَّأ - وفي رواية : دخل الماء فاغتسل - وعادَ إلى المسجد وصلَّىٰ فيه ركعتين ، فدخل مرَّة الماء ؛ فمات فيه رحمه الله .

من حكمه : ١ ـ **العلم والعالم** : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت الخوَّاص ؛ يقول : **ليس العلمُ : النافع بكثرةِ الرواية ، فليس المُكثِر منها بعالم !! إنَّما العالمُ من اتبع العلمَ واستعمَله ؛ واقتدىٰ بالسُّنن : الأخبار ؛ وإن كان قليل العلم** . لأنَّ كثرة الرواية ترجع إلى كثرة نقل الحديث من طرق ، وكذا قراءة القرآن بالروايات ! فليس العلم بذلك ، وإنَّما هو بالعمل وباقتداء السنن ؛ وإن قلَّ العلم ، لأنَّه إذا عرف ربَّه وأحكامه ؛ ووعده ووعيده ؛ ونفسه وشيطانه ودنياه . . عرف أنَّه لا خلاص له إلاَّ بطاعة الله وكرمه .

٢ ـ **دواء القلب** : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أحمد بن علي بن جعفر ؛ يقول : سمعت الأزديَّ ؛ يقول : سمعت الخَوَّاص ؛ يقول :

دواءُ القلب خمسة أشياء : ١ـ قراءة القرآن بالتدبُّر ، و٢ـ خلاء البطن ، و٣ـ قيام الليل ، و٤ـ التضرُّع عند السَّحَر ، و٥ـ مجالسة الصالحين .

---

(١) القصب . أو قشره خاصّة .

(٢) مصاباً بداء استطلاق البطن ؛ وهي الإسهال .

وهي كلُّها متظافرة على الخير يُعين بعضها بعضاً على تحصيله . وأُسُّها خلاءُ الباطن من الطعام ، فإنَّه يلزم منه قلَّة النوم وسرعة الفهم ، والبكاءُ وقت التضرُّع ، وهذه الحالة ترجىٰ فيها الإجابة ، قال تعالىٰ ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾[1] .

* * *

ومنهم : ٤٤ـ أبو محمد عبد الله بن محمد الخراز

أصله ورتبته : من أهل الري . جاور بمكَّة . صحب أبا حفص ، وأبا عمران الكبير . وكان من المتورعين .

وفاته : مات قبل العشرة والثلاث مئة .

من مواعظه : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي ؛ يقول : سمعتُ أبا نصرٍ الطوسيَّ ؛ يقول : سمعتُ الدُّقِّيَّ ؛ يقول: دخلتُ علىٰ عبد الله الخرَّاز ؛ ولي أربعةُ أيَّام لم آكل ؛ فقال : يجوعُ أحدكم أربعةَ أيامٍ ، ويصبحُ ينادىٰ عليه : الجوع!! ثم قال : إيش يكون ؛ لو أنَّ كلَّ نفس منفوسة : مولودة تَلِفَتْ فيمَا تؤمِّلُه عند الله ! تَرىٰ يكون ذلك كثيراً !!

في ذلك تقويةٌ لقلوب المريدين ، وحملُهم على الجِدِّ فيما هم فيه ؛ لينالوا ما وعدهم الله به .

وفيه مكاشفة بما عليه التلميذ ! لا سيما قوله (أربعة أيام) ، فلما رأى عليه أثار الجوع ؛ ورأى نفسه قد ذَلَّت وانكسرت من الجوع قوَّاها وأعانها بذلك ، ثم عرف ما يرجوه من الله تعالىٰ على مجاهدته له ، وأنَّ نفسه لو تلفت

---

(١) الآية : ٤٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

لِمَا ترجو من فضل ربِّها لكان تلفُها يسيراً في جنب ما تؤمِّل ، ولم يأمره بحمل ما لا يطيقه ، وإنَّما قوَّىٰ نفسه حتى لا يختلَّ حاله ويرجع عن طريقته ، فإنَّ الرفق بالنفس في السير أولىٰ ، وتركُها بلا مجاهدة مع هواها علامةُ الخذلان .

طعام وطعام ! : وقال أبو محمد عبد الله الخراز : **الجوعُ طعامُ الزاهدين**[1] ، لأنَّهم إنَّما يعتانون على فراغهم للخيرات به ، كما يعتان الخلق على الحياة بالطعام ، **والذِّكر طعام العارفين بالله**[2] ، لأنَّهم بعيدون عن المشغلات عنه ؛ معرضون عن الدنيا ، بل وعن غيرها من جزاء الطاعات ، فلا يعتانون[3] على ذلك إلاَّ بذكر الله لأُنسهم به وتلذُّذهم بقربه .

* * *

ومنهم : ٤٥ـ أبو الحسن بُنان بن محمد الحَمَّال

موطنه ووفاته : واسطيُّ الأصل . أقام بمصر، ومات بها سنة : ست عشرة وثلاث مئة .

رتبته : كبيرُ الشأن ، صاحبُ الكرامات .

أجلُّ الأحوال : سُئِل بُنان عن أجلِّ أحوال الصوفية ؛ فقال : **١ـ الثقةُ بالمضمون ؛** وهو الرزق ، ليستريح من المشغلات عن الطاعات ، **و٢ـ القيامُ بالأوامر :**

---

(١) لأنّه سبب في خلوِّ الأسرار عن الأغيار ؛ فتتراسل بذلك بوارق الأنوار إلىٰ قلوب الأخيار (عروسي) .

(٢) مراده الذكر باللسان وبالقلب ، وإنَّما كان طعامُهم الذكرَ ! لأنَّهم تحقَّقوا بالله ، ورفضوا ما سواه فكانت حياتهم بالذكر وتنعُّماتهم بالفكر وأُنسهم بالقُرب ، فجنَّاتهم بالمشاهدات ، ونارهم بالغفلات ، فرضي الله تعالىٰ عنهم وعنا (عروسي : ١/١٧٦) .

(٣) يطلبون العون .

بالمطلوب بها من العبادات ، قال تعالىٰ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] ، و٣ـ مراعاةُ خواطر السرِّ : القلب ، لتكون الأعمال خالصة لله تعالىٰ ؛ لا لطلب الجزاء الذي وعد الله به عليها ؛ ولا لغيره . و٤ـ التخلِّي من الكونَيْن : كونَيْ الدنيا والآخرة ؛ بأن يُعرض العبد عن حظوظ النفس ؛ فلا يسكن بقلبه لغير مولاه فيهما .

بُنان والسبع : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ الحسن بن أحمد الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا علي الرُّوذَباريَّ ؛ يقول : **أُلقي بُنَان الحَمَّالُ بين يدي السبع** ؛ بأمر ابن طولون لمَّا أمره بالمعروف ، أو : لمَّا نُسب إلى خطإٍ في الدين ، فإنَّ الصوفية تجري على ألسنتهم كلماتٌ لا يفهمها غيرهم، فينسب قائلها إلىٰ ذلك ؛ فمنهم من ينسب إلى الزندقة، ومنهم من ينسب إلى الحلول ويُمشىٰ به إلىٰ السلاطين،

فجعل السَّبُع يشمُّه ولا يضرُّه ! فلما أُخرج : أُطلق بسبب ما رُؤي منه من هذه الكرامة . . **قيل له : ما الذي كان في قلبك حيث شمَّك السَّبُعُ ؟ قال : كنتُ أفكِّر في اختلاف العلماء في سُؤُر السَّبُع** . هل هو نجس ؛ أوْ لا .

فيه تنبيه على كمال تثبُّته ونظره **لأفعال الله تعالى وأحكامه**، أما نظره **لأفعاله!** فلعدم التفاته للسبع الذي يُهلِك غالباً. وإنَّما كان نظره لما ينزله الله به من قضائه، **وأمَّا نظره لأحكامه !** فلتفكُّره في الطهارة والنجاسة بالنظر إلى سؤر السباع .

* * *

(١) الآية : ٥٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الذاريات .

ومنهم : ٤٦ـ أبو حمزة البغدادي البزَّاز ؛
لم أقف له على اسم !!

رتبته : مات قبل الجنيد ، في سنة يأتي بيانها . وكان من أقرانه . صَحب السرِيَّ السقطي ، والحسنَ المسوحي ، وكان عالماً بالقراءات ؛ فقيهاً .

وكان من أولاد عيسىٰ بن أبان ، وكان أحمدُ ابن حنبل يقول له في المسائل التي يسأل عنها : ما تقول فيها ؛ يا صوفيُّ ؟

وفاته : قيل : كان يتكلَّم في مجلسه يومَ جمعة ، فتغيَّر عليه الحال ؛ فسقط عن كرسيه ، ومات في الجمعة الثانية . وقيل : مات سنة تسع وثمانين ومئتين .

من حكمه :

١ـ طريق الحق : قال أبو حمزة : من عَلِم طريقَ الحقِّ تعالىٰ سَهُل عليه سلوكُه ؛ لاطلاعه على فائدته العظيمة . ولا دليلَ على الطريق إلى الله تعالىٰ إلاَّ متابعةُ الرسول ﷺ في أحواله ؛ وأفعاله ؛ وأقواله ، قال تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(1) .

٢ـ وسائل النجاة : وقال أبو حمزة : مَن رُزِق ثلاثةَ أشياء مع ثلاثة أخرى مكمِّلة لها ؛ فقد نجا من الآفات : ١ـ بطن خال من الطعام مع قلب قانع ، و٢ـ فقر من الدنيا دائم ؛ معه زهدٌ حاضر ، و٣ـ صبر كامل ؛ معه ذكر دائم . إذ لا يكمل خلوُّ بطنه إلاّ بقلَّة تشوُّقه عنه ولا يقل تشوُّقه إلا بالقنع ، ولا يكمل فقره إلاَّ بإعراضه بقلبه عن الدنيا ، ولا يكمل صبره إلاَّ بدوام ذكر الله ؛ فيكون صبره عما فاته على ما هو فيه من شغله بالله ـ وفي نسخة بدل « معه » : « مع » في الموضعين الأخيرين ، كما في الأول ـ .

---

(1) الآية : ٨٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

ومنهم : ٤٧ـ أبو بكر محمد بن موسى الواسطيُّ ؛
نسبة إلى واسط العراق مدينة مشهورة

أصله ورتبته : **خُراساني الأصل** ؛ نسبة إلى خراسان بلادٍ من الريِّ ، وقيل : من جبل حلوان إلى مطلع الشمس من **فرغانة** ،

صحب الجُنَيد والنُّوريَّ . عالم كبير - وفي نسخة : عالماً كبيرَ الشأن - .

وفاته : **أقام بمرو ؛ ومات بها بعد العشرين والثلاث مئة** .

من حكمه : **قال** أبو بكر **الواسطيُّ** : **الخوفُ** والرجاء زِمامان ؛ يمنعان **العبدَ**[١] ويمسكانه من سوء **الأدب** مع الله ومع خلقه ، فإنَّه إن لاح له محبوب ومالت نفسه إليه وهو مكروه لمولاه . . ردّها عنه بزمام الخوف ، وإن عرف طاعة الله ووجد نفسه فاترة عنها . . حفظ نفسه ، وأمسكها عن الإعراض عنها بزمام رجاء قربه من ربه .

وكثيراً ما يطلق على الرجاء « زمامٌ » بمعنى أنَّه يقود إلى الطاعات ، وعلى الخوف « سائق » بمعنىٰ أنَّه يمنع من المَكروهات ! وكلٌّ صحيح .

وقال الواسطي : **مطالعة الأعواض على الطاعات من نِسْيَان الفضل** .

لأنَّ العبد إذا عرف أنَّ جميع ما فيه من الطاعات من فضل ربِّه ومِلكٌ له . . استحيا منه أن يضيفَها لنفسه ؛ فضلاً عن أن يطلب عنها عوضاً ، أو يتشوَّف إليه ، إذ لا يليق بمن كان مع سائر أفعاله ملكاً لغيره أن يطلب جزاءً على خدمته ؛ وينزِّل نفسه منزلة الأحرار المستأجَرِين .

---

(١) فالأوفق بحال الإنسان أن يكون حاله متوسِّطاً بين الرجاء والخوف ؛ وذلك باستعمال كلٍّ فيما يناسبه بشاهد أحكام الشريعة ، وحينئذ يداوم علىٰ المجاهدات بسائق الرجاء ، وعلىٰ ترك المألوفات بزاجر الخوف . والله أعلم . (عروسي : ١/ ١٧٩) .

وقال الواسطي : إذا أراد الله هَوَان عبده ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف . يريد به صحبةَ الأحداث : الشباب المُرْد ، أو المُحْدِثين في دين الله تعالىٰ ما ليس منه فنبغي التباعد عنهم ؛ كما ينبغي التباعد عن الأنتان والجيف حقيقةً ، بل القُرْب منهم أشدُّ ضرراً من القرب من هذين ، لأنَّ ضرر القرب منهم عائد على الأديان ، وضرر القرب من هذين عائد على الأبدان .

المتشبِّهون بالحقِّ : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد العزيز المروزيَّ ؛ يقول : سمعت الواسطي ؛ يقول . . في ذمٍّ قوم تشبَّهوا بأهل الحقِّ وليسوا منهم : جعلوا سوءَ أدبهم إخلاصاً ، لأنَّ الإخلاص هو الإعراض عن الخلق[1] ، فغلطوا وأعرضوا عن العلماء والأولياء فأساؤا الأدب معهم ؛ زعماً منهم أنهم مُخلِصون لا يلتفتون لغير الله ، وجعلوا شَرَه نفوسهم انبساطاً ؛ لأنَّ الانبساط هو حُسن العشرة في المطعم والملبس والكلام وحسن التصرُّف ، فغلطوا وجعلوا شرههم في ذلك انبساطاً ! وليس بانبساط ، بل هو شَرَهٌ ورغبةُ نفس ، وجعلوا دَنَاءَة الهمم جَلادةً ، لأنَّ الجلادة هي التصبُّر في الأمور والتجلُّد لها ، فغلطوا وجعلوا فتورهم عن الطاعة جلادة وليس بجلادة ! بل هي دناءة همَّة وقلّة رغبة في الخير فعَمُوا بذلك عن الطريق ، وسلكوا فيه المضيق الذي لا يصل منه الإنسان إلى خير ! فلا حياة : نشاط تنمو : تزيد في شواهدهم : مشاهدتهم ، ولا عبادة تزكو : تزيد في محاضرتهم ومخاطبتهم ، لقلة استحسان ما هم عليه ، بل يتضرَّر مَن خالطهم بمشاهدتهم ورؤية أحوالهم ، فإنَّهم إن نطقوا ! فبالغَصب ، وإن خاطبوا ! فبالكبر لاعتقادهم عظمة أنفسهم ، تَوَثُّبُ : استيلاءُ أنفسِهم على الأمور ظلماً ينبىءُ عن خُبث ضمائِرِهم ، وشَرَهُهم في المأكول يُظهِر ما في سويداء أسرارهم : حبة قلوبهم ! قاتلهم الله : لعنهم أنىٰ يؤفكون : كيف يصرفون عن الحق مع قيام الدليل !؟ .

حرصه على السنَّة : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : سمع بعض

---

(١) أقول : ذلك لازم لمعنىٰ الإخلاص ، لا حقيقة معناه ، إذ هي تخليص القصد له تعالىٰ في كلِّ شيءٍ . (عروسي) .

المراوزة: إنساناً صيدلانياً؛ يقول: اجتاز الواسطيُّ يومَ جمعة بباب حانوتي؛ قاصداً إلى الجامع، فانقطع شسعُ نعله: أحدُ سيوره التي تشدُّ هي بها؛ فقلت له: أيُّها الشيخ؛ أتأذنُ لِي أن أُصلح نعلَك؟ فقال: أَصلِحْ. فأصلحتُ شسعه. فقال: أتدري لم انقطعَ شِسْعُ نعلي؟ فقلت له: حتَّىٰ يقول الشيخ!!

فقال: لأنِّي ما اغتسلتُ للجمعة! فقلت له: يا سيدي؛ ههنا حمَّام تدخلُه؟

فقال نعم. فأدخلته الحمَّام فاغتسل.

في هذا تنبيه على كمال مراقبته لأفعال الله تعالى به وتأديبه له، فرأى أنَّه لمَّا قصَّر؛ قصَّر به وأدَّبه، لكنه تعالىٰ لَمَّا أدَّبه جَبَره بكونه اغتسل ومضىٰ إلى الجمعة مغتسلاً مبادراً، وهذا من عنايته به!.

* * *

ومنهم: ٤٨ـ أبو الحسن ابن الصائغ
واسمه: عليُّ بن محمد بن سهل الدَّيْنَوري؛
نسبة إلى دَيْنَوَر: بلدة من بلاد الجبل

لمحة موجزة: أقام بمصر، ومات بها، وكان من كبار المشايخ.

هيبته: قال أبو عثمان المَغربي: ما رأيت من المشايخ أنورَ من أبي يعقوب النَّهرجُوري، ولا أكثرَ هيبةً من أبي الحسن ابن الصائغ.

وفاته: مات سنة: ثلاثين وثلاث مئة.

من أجوبته: ١ـ **صفات الله**: وقد سُئِل ابن الصَّائغ عن الاستدلال بالشاهد على الغائب؛ فقال: كيف يستدلُّ بصفاتِ مَن له مِثْل ونظير علىٰ مَن لا مِثْل له ولا نظير؟!.

قاله في معرض الردِّ على من أثبت له تعالىٰ الجهة والجسمية، والحق صفات القديم بصفات الحادث، وإلاَّ! فلا استبعاد في الاستدلال المذكور؛

من حيث إنَّ الفرض أنَّ الفعل لا بدّ له من فاعل وهو الله ، كما أن كلَّ فعل في الشاهد كذلك .

صفة المريد : وسئل عن صفة المريد ؛ **فقال** : صفتُه **ما قال الله عزَّ وجل** ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ . . الآية[1] . يشير بذلك إلى أن المريد التائب كلَّما تفكَّر في سابق ذنوبه وكثرة تفريطه . . توالت عليه الهموم والأحزان، وكلَّما رأىٰ كسله وقلَّة رغبته في الخير . . لم يستقرَّ به مكان ، وعَلِم أن لا ملجأ من الله إلاَّ إليه ، فبكىٰ وتضرّع وأعرض عن كلِّ مشغل لقلبه وبدنه .

الأحوال : وقال أيضاً :الأحوال الآتي بيانُها مع بيان المقامات لسرعة تغيرها **كالبروق**؛ من حيث إنَّ البرق يلمع للبصر ثمَّ يقلع ، **فإذا ثبتت** تلك الأحوال في الشخص ؛ وتوالت عليه صارت حديثَ نفس بأن يحدِّث نفسه بما كان عليه كما قال، **فهو** : مجموعُها **حديث النفس وملاومة الطبع** الوجه وملاءمة الطبع ؛ يقال لاءمت بين القوم ملاءمةً : إذا أصلحتَ وجمعتَ بينهم ، وإذا اتفق الشيآن فقد ٱلتأما ، ومنه قولهم (هذا المقام لا يلائمني) . ولا تقل (لا يلاؤمني) . فإن هذا من اللوم ؛ قاله الجوهري . ـ وفي نسخة : وملازمة الطبع . وفي أخرى : ومداومة الطبع ـ.

* * *

ومنهم : ٤٩ـ أبو إسحاق إبراهيم بن داود الرَّقِّي ؛
نسبة إلى الرَّقة مدينة على طرف الفرات

طبقته : من كبار مشايخ الشام . من أقران الجنيد ، وابن الجلاَّء .

حياته : وقد عُمِّر ؛ وعاش إلى سنة : ست وعشرين وثلاث مئة . .

من كلامه : ١ـ المعرفة : وقال إبراهيم الرقِّي : **المعرفة إثباتُ الحقِّ على ما هو ؛**

---

(١) الآية : ١١٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

خارجاً عن كلِّ ما هو موهوم . لأنه تعالى منزَّه عن كلِّ ما هو موهوم ؛ أو معلوم من المحدَثات ، فمن عرفه تعالىٰ بإنفراده في ذاته وصفاته وأفعاله منزِّهاً له عن مشابهات خلقه . . فهو العارف ، ومن توهَّم فيه شيئاً من صفات المخلوقين ؛ كمكان وزمان وهيئة . . لم يعرفه ! فلا يسمَّىٰ « عارفاً » .

٢ـ **القدرة** : **وقال** : **القدرة** . . بمعنىٰ المقدور ؛ من ليل ونهار وحيوان وغيرها من سائر الحوادث **ظاهرة** للأبصار بعد عدمها ، **والأعين مفتوحة** ؛ **ولكن أنوار البصائر** : بصائر العقول **قد ضَعُفت** عن إدراكها لتراكم المعاصي والأشغال الدنيوية عليها ؛ بحيث منعَتْها من الاستدلال بالصنعة على الصانع .

٣ـ **الشهرة والخلق** : **وقال** : **أضعفُ الخلق مَن ضَعُف عن ردِّ شهواته** التي تؤذيه ، وإذا لم يقدر العبد على ردِّها عن نفسه التي هي أحبُّ الأشياء إليه . . كان أضعف الخلق ، **وأقوى الخلق مَن قَويَ على ردِّها** . لأنَّ العبد طبعت نفسه على الميل لكلِّ لذيذ والنُّفرةِ عن كلِّ كريه ، فمخالفةُ طبعها وردُّها عن هواها من أصعب الأمور ، فمن قويَ على ذلك . . فهو أقوى الخلق وأشفقُهم عن نفسه .

٤ـ **علامة المحبَّة** : **وقال** : **علامةُ محبَّة الله إيثارُ طاعته** ؛ **ومتابعةُ نبيِّه** ﷺ . لأنَّ المتابعة ثمرة المحبَّة ، فمن ادَّعىٰ أنه يحبُّ محبوباً ؛ ولم يتابعه . . كان كاذباً في محبَّته .

٥ـ ميزان القيمة : ومن كلام الرَّقِّيِّ : قيمةُ كلِّ إنسان بِقَدْر همَّته ، فإن كانت همَّتُه الدنيا . . فلا قيمة له ، وإن كانت همَّتُه رضا الله . . فلا يمكن إدراك غايةِ قيمته ، ولا الوقوفُ عليها .

* * *

* *

*

ومنهم : ٥٠ـ ممشاد الدَّيْنَوَري

رتبته ووفاته : من كبار مشايخهم : الصوفية ، مات سنة : تسع وتسعين ومئتين .

من كلامه :

١ـ أدب المريد : قال مِمْشاد : أدب المريد مع الخلق في ١ـ التزام حُرُمات المشايخ ، و٢ـ خدمةِ الإخوان ، و٣ـ مع الحقِّ تعالىٰ في الخروجِ عن الأسباب ، و٤ـ حفظ آدابِ الشرع على نفسه . ولا يكمل ذلك إلا بالعلم والعمل به .

وقال ممشاد : ما دخلتُ قطُّ على أحدٍ من شيوخي إلاَّ وأنا خالٍ من جميع ما لي ؛ من حال ومقام وغيرهما . . انتظر بركات مايَرِدُ عليَّ من رؤيته ومجالسته وكلامه ، فإنَّ مَن دَخَل علىٰ شيخ بحظِّه : برؤية نفسه ؛ أو بنيَّة الامتحان ، أو معرفة ما عنده . . انقطع عن بركات رؤيته ومجالسته ، وكلامه . فلا يحصل له بركاتها إلاَّ إذا حسَّن ظنَّه به ، وقصده لينال من علمه ؛ أو أدبه ؛ أو بركة دعائه .

من حكمه : ومن كلامه : صحبة أهل الصلاح تورث في القلب الصلاح ، وصحبة أهل الفساد تورث في القلب الفساد .

* * *

* *

*

ومنهم : ٥١- خير بن عبد الله النَّسَّاج ؛
نسبة إلى نسج الثياب

طبقته ووفاته : صحب أبا حمزة البغداديَّ ، ولقي السَّريَّ السَّقَطيَّ ، وكان من أقران أبي الحسين النُّوري . إلاَّ أنه عُمِّر عمراً طويلاً . وعاش ـ كما قيل ـ مئة وعشرين سنة . ومات سنة : اثنين وعشرين وثلاث مئة .

وتاب في مجلسه الشِّبليُّ ؛ والخَوَّاص ، وكان أستاذَ الجماعة .

سبب تسميته : وقيل : كان اسمه محمَّد بن إسماعيل ؛ أصله من « سامُرَّه » : مدينة ويقال لها « سامرَّا » ، و« سُرَّ مَنْ رَأىٰ » ، ونزل بغداد .

وإنما سُمِّيَ « خير النساج » !! لأنَّه خرج إلى الحج ؛ وكان قد عاهد الله أن لا يأكل الرُّطَب فغلبته نفسه يوماً ؛ فأخذ نصف رِطل وأكل منه واحدة ، فأخذه رجلٌ على باب الكوفة ؛ وقال له : يا خيرُ ؛ يا آبق ؛ تهرب مني !

وكان له عبد اسمه « خير » قد هرب منه فوقع على المذكور شَبَهه من سواد وغيره ؛ فقال : أنت عبدي ، واسمك « خير » ، وكان أسودَ ؛ فبقي متحيِّراً !! وعلم من أين أُخذ ! فلم يخالفه للضرورة ؛ فلم يبقَ له إلاَّ الرضا بما قدَّره الله عليه إلى أن يُفرِّج عنه !!

فاستعمله الرَّجُل في نسج الخزِّ الذي كان ينسجه عبده ، فكان يقول له : يا خير ! فيقول : لبيك .

ثم قال له الرَّجُل بعد سنين ـ وقيل : بعد أربعة أشهر ـ : غلطتُ فيك ؛ لا أنت عبدي ، ولا اسمك خير ، فامض إلى حال سبيلك ! فمضىٰ إلى حال سبيله .

وعنه أنه قال : فقمتُ ليلةً فتوضَّأْت وقمت إلى صلاة الغداة فسجدت ؛ وقلت في سجودي : إلهي ؛ لا أعود إلى ما فعلت ! فأصبحت وقد ذهب عني

الشَّبَهُ ، وعدت إلى صورتي التي كنت عليها ، فأُطلقت .

وثبت على هذا الاسم . **وقال : لا أُغيِّر اسماً سمَّاني به رجلٌ مسلم .**

تأديب الخوف : وقال : الخوف سوطُ الله يقوِّم به أنفساً قد تعوَّدَت سوء الأدب مع الحقِّ ؛ أو الخلق ممَّن أمر بحسن الأدب معه ، وكلٌّ من الخوف وسوء الأدب درجاتٌ ، وكلُّ مقام شريف يتأتَّىٰ للعبد أن يحسن أدبه فيه ، وإن يسيئه فلا يتخلَّص من سوء أدبه إلاَّ بالخوف ، والعبدُ قد يخاف البعد ! وقد يخاف الحجاب ! وقد يخاف التأديب على سوء الأدب ! .

وفاته : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا الحسن القزويني ؛ يقول : سمعت أبا الحسين المالكيَّ ؛ يقول : سألت مَن حَضَر موتَ خيرٍ النَّساجِّ ؛ عن أمره ! فقال : لَمَّا حضرت صلاة المغرب غُشي عليه ، ثم فتح عينيه ؛ وأومأ إلى ملك الموت في ناحية البيت ؛ وقال له : قِفْ ؛ عافاك الله ، فإنَّما أنت عبدٌ مأمور ، وأنا عبد مأمور . وما أُمرتَ أنت به لا يفوتُك ، وما أُمرتُ أنا به يفوتني .

ودعا بماءٍ فتوضَّأَ للصَّلاة ، ثمَّ تمدَّد . وغَمَّضَ عينيه ، وتشهَّدَ ، ومات .

بشارته : فرئي في المنام ؛ فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال لسائله : **لا تسألني عن هذا ، ولكن استرحت من دنياكم الوَضِرة** : ذي الرائحة الكريهة ، ـ وفي نسخة : القذرة ـ .

هذا من جملة الكرامات بأن يكرم الله عبدَه برؤية ملك الموت ، وبإعلام الله له بوقت موته ليتأهَّب للقدوم عليه ، وليجريَ على لسانه ما فيه بيان فضيلته عند ربِّه واغتنام طاعته .

* * *

* *

*

ومنهم : ٥٢ـ أبو حمزة الخراساني

نسبته : **بنيسابور ، أصلُه من محلة« ملقاباذ »** .

رتبته : **من أقران الجنيد ، والخرَّاز ، وأبي تراب النخشبي . وكان ورعاً ، ديِّنا .**

من حكمه : **قال أبو حمزة** : **مَن استشعر ذكر الموت** : فطن له واتخذه شعاره ، والشِّعار في الأصل . . من الثياب : ما يلاصق البدن ويلازمه ، والدِّثار : ما كان فوقه ـ أي : من لازَمَ قلبُه ذكرَ الموت ـ **حَبَّب اللهُ إليه كلَّ باق ، وبغَّض إليه كلَّ فان** . لأنَّ ذلك يحمل على العمل وتحسينه ، والإعراض عن يسير الدنيا وتحقيره ، قال ﷺ : « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ ٱللَّذَّاتِ » . يعني الموت . رواه الترمذي وحسَّنه ، والحاكم وصحَّحه[١] ، وفي رواية[٢] : « فَإِنَّهُ مَا كَانَ فِي كَثِيْرٍ ـ: من الأمل ـ إِلاَّ قَلَّلَهُ وَلاَ فِي قَلِيْلٍ ـ: من العمل ـ إِلاَّ كَثَّرَهُ » . والموت مفارقةَ الروح الجسد[٣] .

عيش العارف : **وقال أيضاً** **:العارف بالله يدافع عيشه** الذي تقوم به حياته **يوماً بيوم** ، **ويأخذ عيشه** ؛ بأن يشتغل في دنياه بما يقرِّبُه من ربِّه من العبادات **يوماً ليوم** .

وشتَّان ما بين العيشين واليومين[٤] !!

---

(١) هو عند الترمذي : ٢٣٠٧ ، والحاكم : ٣٢١/٤ وأقرَّ تصحيحه الذهبي ، وأخرجه ابن ماجه : ٤٢٥٨ ، وابن حبان (موارد : ٢٥٥٩) .

(٢) أخرجها البيهقي في « الشعب » ؛ عن عمر رضي الله عنه بلفظ : « فَإِنَّهُ لاَ يَكُونُ فيْ كَثِيرٍ إِلاَّ قَلَّلَهُ ، وَلاَ فِي قَلِيْلٍ إِلاَّ أَجْزَأَهُ » .

(٣) وقيل : إنّه عدم الحياة عمَّا من شأنه أن يكون حيّا ، وعلىٰ ذلك فمعناه عَدَميٌّ ! .
وقيل : إنّه عَرَض يضادُّ الحياة .

(٤) وهو الموافق لقوله عزَّ وجلَّ ﴿ خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ فيكون وصفاً وجوديّاً ، ولذلك تعلَّق به الإيجاد . (عروسي : ١٨٦/١) .

وصيته : وقال له رجل : أوصني . فقال : هيِّئْ زادك للسَّفر الذي بين يديك[1] .

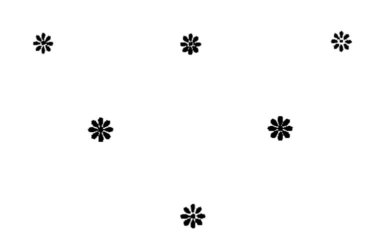
لأنَّ الزاد هو الوسيلة في الوصول إلى المقصود ، وزادُ العبد في الوصول إلى ربِّه ملازمةُ طاعته ودوام ذكره ؛ له وفاء بقوله تعالىٰ ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[2] .

إحرامه : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا الطيِّب العكي ؛ يقول : سمعتُ أبا الحسن المصريَّ ؛ يقول : سمعت أبا حمزة الخُرَاسانيَّ ؛ يقول : كنت قد بقيت مُحرِماً في عباء : كساء ، ويقال فيه « عباة » و« عباية » . . أُسافر كلَّ سنةٍ ألف فرسخ ، تطلع الشمس عليَّ وتغرب وأنا مسافر ؛ كلما حَلَلْتُ أحرمت .

أي : كان إذا تحلَّل من حجة جدَّد إحرامه بمكَّة ومضىٰ إلى بلاد مسافراً السفر المذكور ، وأقام مُحرِماً إلى أن يرجع إلى مكة ؛ فيأتي بمناسك الحج ثمَّ يتحلَّل ويحرم وهكذا ! وكان مقصوده دوامَ شعثه وقلَّة تنعُّمه بلباسه وتنظُّفه !

وهذا يُؤذِن بأنَّ ذلك فيه زيادة فضيلة عند الصوفية ، والأفضل عند الفقهاء خلافُ ذلك ، إذ الأفضل أن يحرم بالحجِّ من الميقات ؛ وفي أشهر الحجِّ .

وفاته : توفي سنة تسعين ومئتين . لو قدَّمه على عادته في ذلك !! كان أولىٰ .



---

(١) فيما ذكره تنبيه علىٰ تذكر عدم الإقامة في هذه الدار ، فهو فيها كالمسافر . . في الخطر وانقضاء المدَّة ، بل ربَّما يعلم المسافر زمن سفره ؛ ولا كذلك هو . لجهل وقت الموت ! فحينئذ ينبغي الاستعداد بالزاد خشية العطب بدونه ، ولا سيَّما . . والسفر طويل والخير قليل (عروسي : ١/١٨٦) .

(٢) الآية : ١٩٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

ومنهم : ٥٣ـ أبو بكر دُلَف بن جَحْدر الشبلي ؛
نسبة إلى شبلة : قريةٍ من قرىٰ أُسْرُوشْنَة

موطنه : بغداديُّ المولد والمنشأ . وأصله من « أُسْرُوشْنَة » .

رتبته : صحب الجنيدَ ومن في عصره ، وكان شيخَ وقته : لا نظير له في وقته . . حالاً ، وظُرْفاً ؛ من الظرافة وهي الكياسة ، وعلماً . مالكيُّ المذهب . عاش سبعاً وثمانين سنة ، ومات في ذي الحجة سنة : أربع وثلاثين وثلاث مئة . وقبره ببغداد .

صدقه : ولما تاب الشبليُّ في مجلس « خير النَّسَّاج » أتىٰ الشبليُّ « دماوند » وجمع أهلها ؛ وقال لهم : كنت واليَ بلدكم ؛ فاجعلوني في حلّ .

هذا من كمال صدقه وعدم التفاته إلى حظِّ نفسه ؛ والتذلُّل في استحلال الخصوم ، لأنَّ الغالب على الولاة عدمُ جريانهم على مقتضىٰ العلم ، فلمَّا تاب تنصَّل من حقوق الخالق وبقي عليه حقوق المخلوقين ، فأتىٰ إلى البلدة التي كان والياً عليها وجمع أهلها ؛ وقال لهم ما ذِكر .

مجاهداته : وكانت مجاهدته في بدايته فوقَ الحدِّ المعتاد غالباً .

سمعتُ الأستاذ: أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : بلغني أنَّه اكتحل بكذا ، وكذا . . من الملح ؛ ليعتاد السَّهرَ ، ولا يأخذه النوم .

فيه دلالة على كمال حرصه على الخير ، وكأنَّه بالغ فيما فعله ! وإلاَّ فقد كان يمكنه أن ينال اعتياد السهر بقلَّة الأكل والشرب وكان يبالغ في تعظيم الشرع .

تعظيمه للشرع : ولو لم يكن من تعظيمه للشرع إلاَّ ما حكاه « بكران » الدَّيْنَوَري في آخر عمره ؛ لكان كثيراً . . في التعظيم ؛ وهو ما ذكره بقوله :

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا العبَّاس البغداديَّ يقول : كان الشبليُّ رحمه الله ؛ يقول : ينشد في آخر أيامه . . وقد

نقله الله من مقامات مذمومة إلى مقامات محمودة :

وَكَمْ مِنْ مَوْضِعٍ لَوْ مِتُّ فِيْهِ لَكُنْتُ بِهِ نَكَالاً : عبرة لغيري **فِي ٱلعَشِيْرَهْ**

في الدنيا والآخرة ، فأراد بالموضع المقاماتِ المذمومةَ التي نقله الله منها إلى المقامات المحمودة ، وفيما قاله شكر لله تعالىٰ على ما نقله الله إليه مما كان عليه .

اقتداؤه : **وكان الشِّبليُّ ؛ إذا دخل شهر رمضان جَدَّ في الطاعات فوق مَن عاصره ؛ ويقول : هذا شهرٌ عظَّمه ربي ، فأنا أوَّلَ مَن يعظِّمُه** . . ممن عاصرني .

سمعت الأستاذ أبا عليٍّ يحكي ذلك عنه . وإنَّما قال ذلك !! ليقتديَ به تلامذته .

كسب يمينه : ومن كلامه . . وقد سئل عن حديث : « خَيْرُ كَسْبِ ٱلْمَرْءِ عَمَلُ يَمِيْنِهِ » : إذا كان الليل فخذ ماءً وتهيَّأْ للصلاة وصلِّ ما شئت ، ومدَّ يدك وأسأل الله ؛ فذلك كسبُ يمينك .

إني بخيل : وعنه أنه قال : كنت جالساً يوماً فجرىٰ بخاطري أنِّي بخيل ! فقلت (أنا بخيل)!! فجاوبني خاطري ؛ وقال : بلىٰ إنك بخيل . فقلتُ : مهما فتح الله عليَّ اليوم ؛ لأدفعنَّه إلى أوّل فقير يلقاني . قال : فبينا أنا أتفكَّر إذ دخل عليَّ شخص ومعه خمسون ديناراً ؛ فقال : اجعل هذا في مصالحك . فأخذتها وخرجت وإذا أنا بفقير مكفوف بين يدي مُزيِّن يحلقُ رأسه . فتقدَّمتُ إليه وناولته الصُّرة ، فقال لي : أعطها للمزيِّن . فقلت : إنها دنانير . فقال : أو ليس قد قلنا (إنَّك بخيل)؟! فناولتها للمزيِّن ؛ فقال لي : من عادتنا أنَّ الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجراً . فرميتها في دجلة ؛ وقلت : ما أعزَّكِ أحدٌ إلا أذلَّه الله .

* * *

* *

*

ومنهم : ٥٤ـ أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش

أصله : **نيسابوريٌّ ؛ وأصله من محلة « الحِيْرة » . وقيل : من « ملقاباذ » .**

رتبته : **صحب أبا حفص** الحدَّاد ، **وأبا عثمان** الحيري ، **ولقي الجُنَيد ، وكان كبيرَ الشأن .**

وفاته : **وكان يقيم في مسجد « الشُّونِيْزِيَّة »** ؛ نسبة إلى « شونيز » مقبرة ببغداد .

مات ببغداد سنة : ثمان وعشرين وثلاث مئة .

من كلامه : **الإرادة** : **قال المرتعش** : **الإرادة** : **حبسُ النفس** : **صبرُها عن مراداتِها**[1] ، **والإقبال على أوامر الله تعالىٰ** ، **والرِّضا** من العبد **بمواردِ القضاء عليه** ، وافق الوارد هواه ؛ أو خالفه ! وذلك لأنَّ ما يؤمر العبد بالصبر عنه أو عليه . . ثلاثة أشياء : ١ـ صبر عن المنهيَّات . . من محرمات ومكروهات ، و٢ـ صبر على المأمورات . . من واجبات ومندوبات ، و٣ـ صبر على ما ينزل بالعبد من الله ممَّا يخالف هواه ، وهو المعبَّر عنه بقوله (والرضا) . . إلخ .

عمق نظره : **وقيل له** ـ: للمرتعش ـ: **إن فلاناً يمشي على الماء .**

فقال : **عندي أنَّ من مَكَّنه الله تعالىٰ من مخالفة هواه ؛ فهو أعظمُ من المشي في الهواء** الذي هو أعظم من المشي على الماء ، وذلك لأنَّ المشي عليهما من خوارق العادات ، وهي لا تعدُّ كرامة إلاَّ إذا قارنتها الاستقامة ؛ بأن لا يُخِلَّ العبد بشيء من مأموراته ومنهيَّاته ، والاستقامة هي الأصل ؛ والدليلُ على صحَّة الكرامات ، فمن مكَّنهُ الله من نفسه وقهر له هواه حتَّىٰ لم يُخِلّ بشيء من ذلك ؛ فهو المستقيم ، فالاستقامة أفضل من أعلى الكرامات ، إذ حاصل كلامه

---

(١) فيؤوَّل كلامه رضي الله عنه إلىٰ أن الإرادة ترك الإرادة ، وذلك معناه القيام علىٰ النفس بالرياضات والمجاهدات حتَّىٰ تفنىٰ عن مراداتها استغناءً بمرادات الحقّ تبارك وتعالىٰ والله أعلم (عروسي : ١/ ١٨٩) .

أنَّه لَمَّا قيل له (إنَّ فلاناً يمشي على الماء !) قال : من وهبه الله الاستقامة فقد وهب له ما هو أفضلُ من المشي في الهواء الذي هو أفضل من المشي على الماء ، فقد قيل للنَّبيِّ ﷺ : إنَّ عيسىٰ ابن مريم ﷺ مشىٰ على الماء ؟! فقال : « لَوْ ٱزْدَادَ يَقِيْنَاً لَمَشَىٰ فِي ٱلْهَوَاءِ !»[1] .

* * *

ومنهم : ٥٥ـ أبو عليٍّ أحمدُ بن محمد الرُّوْذَباري[2] ؛ نسبة إلى « رُوْذَبار » موضع عند « طوس » وقيل : قرية من قرىٰ بغداد

موطنه : بغداديٌّ ، أقام بمصر

وفاته : ومات بها سنة : اثنتين ـ وقيل : ثلاث ـ وعشرين وثلاث مئة .

رتبته : صحب الجنيد ، والنُّوريَّ ، وابن الجلاَّء ، والطبقة : ومن في طبقتهم .

سَمْته : وهو أظرفُ المشايخ في وقته وأعلمُهم بالطريقة : بطريقتهم في التصوّف .

رأيه في أهل اللهو : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا القاسم الدمشقيَّ ؛ يقول : سئل أبو علي الرُّوْذَباريّ ؛ عمن يسمع الملاهي ؛ ويقول : هي لي حلال ، لأني وصلت إلى درجة لا تؤثِّرُ فيَّ اختلاف الأحوال ! ؟

فقال : نعم ؛ وصل ، ولكن وصل إلى سَقَر !! : جهنم ، لأنَّ الملاهي محرّمة فكيف لا تؤثِّر في مرتكبها !! .

مذهب التصوُّف : وسُئل عن التصوف ! وقد رأى قوماً يزعمون أنَّهم صوفيَّة ؛ وهم

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » : ٣٠٣ معضلاً ، والديلمي : ٥١٣٧ ؛ عن معاذ.

(٢) ضبطه المناوي في « طبقات الصوفية » بالدال المهملة بدل الذال !! .

يشتغلون بالهزل من اللهو واللعب والبطالة ، كمن يشتغل بالسماع مع الزَّمْر والغناء ؛ فقال : هذا مذهبٌ كلُّه جِدٌّ ، فلا تخلطوه بشيء من الهزل .

علامة الاغترار : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعتُ أبا علي الرُّوذَباريَّ ؛ يقول : مِن علامةِ الاغترار أن تُسيءَ . . فيحسنُ الله إليك ؛ فتتركَ أنت الإنابة : الإقبال عليه والتوبة ؛ توهُّماً منك أنَّك تسامَحُ في الهفوات ، وترىٰ أنَّ ذلك من بسط الحقِّ لك !! .

وذلك لأنَّ العبد يستحقُّ على إساءته العقوبة ، فإذا لم يؤاخِذْه الحقُّ فوراً اغترَّ بذلك وظنَّ أنَّه يُعفىٰ عنه ؟ فكيف إذا أحسن إليه !! وإنَّما لم يعاجله بالعقوبة !! لأنَّه لا يخاف الفوت ، فمن وقع في معصية وأراد الله توفيقه . . عجَّل له العقوبة[1] ؛ وألهمه التوبة على الفور ، وإن أراد خُذْلانه لم يعاجلْه بالعقوبة ، وأسبغ عليه نعم الدنيا ليغفل عن التوبة فيدوم إصراره فيزدادَ إثماً ! قال تعالىٰ ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ ﴾[2] ، وقال ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ . . الآية[3] ، وقال ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾[4] .

أساتذته : وقال أبو عليٍّ : كان أستاذي في التصوف الجُنَيدُ . وفي الفقه أبو العباس ابن سُرَيج[5] . وفي الأدب ثعلب ، وفي الحديث إبراهيم الحربيُّ ؛ قاله تحدّثاً بالنعمة ، ودلالة على الخير ، فإنَّ مَن أخذ عن هؤلاء الأئمة يُرغَب في الاقتداء به .

حكمه : ومن كلامه : مَن رُزق ثلاثة أشياء ؛ فقد سلم من الآفات : ١ـ بطن جائع . . معه قلب قانع ، و٢ـ فقر دائم . . معه زهد حاضر ، و٢ـ صبر كامل . . معه قناعة دائمة . وهذا قريب ممَّا مرَّ ص ١٩٢ عن أبي حمزة البزار .

---

(١) ويدلُّ لذلك خبرُ : « إِذَا أَحَبَّ ٱللهُ عَبْداً عَجَّلَ لَهُ ٱلعُقُوبة في ٱلدُّنيَا » (عروسي : ١/ ١٩١) .
قلت : سيأتي تخريجه في ترجمة النهرجوري ص ٢١٢ .

(٢) الآية : ١٧٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

(٣) الآية : ٤٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

(٤) الآية : ٤٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : القلم .

(٥) وكان هو أيضاً أخذ عن الجنيد كما مر في (بركة مجالسته) ص١٥٠ .

ومنهم : ٥٦ـ أبو محمد عبد الله بن مَنازل

رتبته : شيخ المُلاَمَتِيَّة الذين يخربون على أنفسهم ، وأوحد وقته .

صحب حمدون القَصَّار . وكان عالماً ، وكتب الحديث الكثير .

وفاته : ومات بنيسابور سنة : تسع وعشرين ـ أو : ثلاثين ـ وثلاث مئة .

درجات الابتلاء : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله بن المعلِّم ؛ يقول : سمعت عبد الله بن مَنازل ؛ يقول : **لَمْ يضيِّعْ أحدٌ فريضة من الفرائض إلاَّ ابتلاه الله تعالىٰ بتضييع السنن ، لأنَّ مَن ضيَّع الآكد فهو لغيره أضيع . ولم يُبْلَ أحدٌ بتضييع السنن ، إلاَّ يوشك أن يبلىٰ بالبدع ، لأنَّها ضدُّها .**

أفضل الأوقات : سمعتُ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا أحمد بن عيسىٰ ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن مَنازل ؛ يقول : **أفضلُ أوقاتك وقتٌ تسَلَمُ فيه من هواجس نفسك** : خواطرها الداعية إلى الراحات والشهوات ، **ووقتٌ يسلَمُ الناس فيه من سوءِ ظنِّكَ بهم** ، ولا يسلم العبد من ذلك إلاَّ إذا كان مشغولاً بإصلاح نفسه ؛ مقبلاً على مرضاة ربِّه ، والوقت الزمان ، وقد يطلق عندالقوم على حال العبد في الوقت ، وكلٌّ صحيح هنا ؛ وإن رُجِّح الثاني بأنَّ الفضل إنَّما يرجع إلى فعل العبد وحالِه ؛ لا إلى الزمان ! وسيأتي بيانُ حقيقة الوقت في محلِّه ص٢٤٩ .

* * *

ومنهم : ٥٧ـ أبو عليٍّ محمَّدُ بن عبد الوهاب الثَّقَفي ؛ نسبة إلى ثقيف جده

طبقته : إمام الوقت ، صحب أبا حفص وحمدون القصار . وبه ظهر التصوُّف بنيسابور .

وفاته : مات سنة : ثمان وعشرين وثلاث مئة .

من كلامه : ١ـ أدب الأستاذ : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت أبا عليٍّ الثَّقَفيَّ ؛ يقول : لو أنَّ رجلاً جَمَع العلومَ كلَّها ، وصحِب طوائفَ الناس . . لا يبلغ مبلغ الرِّجال إلاَّ بالرياضة ؛ من شيخ عارف أو إمام في الفقه ، أو مؤدِّب ناصح . ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يُرِيه عيوبَ أعماله ، ورعوناتِ نفسِه : حمقَها لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات . وإلى ذلك يشير قولهم : (من لم يكن له شيخ كان الشيطان شيخَه)، لأنَّ النفس كثيرة التلبيس عظيمةُ الخداع توهِمُ العبد أنه صادق وهو كاذب ، وأنَّه موفٍ بعزمه وهو ناكث ، وأنَّه زاهد وهو راغب ، وأنه معتمدٌ على الله متوكِّل وهو ساكن إلى الأسباب .

يقظة السالك : وإنَّما يعرف ذلك من نفسه بتنبيهِ شيخ يُلقي إليه قيادَهُ ؛ أو فقيه يستفتيه في سائر أموره ، أو صاحبٍ ناصح ينبِّهُه على ما ظهر له من نقص .

ومن لم يتأدَّبْ في نفسه ويجاهد هواه حتى يعرف أسباب الصلاح والفساد بالطريق القويم . . لم يصلح أن يكون طبيباً يداوي غيره من العباد .

٢ـ طيب المعاش : وقال أبو عليٍّ رحمه الله : يأتي علىٰ هذه الأُمَّة زمان لا تطيبُ المعيشة فيه لمؤمن ، ولا يسلمُ من الإهانة إلاَّ بعد استناده إلى منافق له باطن وظاهر .

معاملة الناس : ولذلك قيل : يعامل الناس في أوّل الأمر ١ـ بالدين ، فإنَّ دينهم يحجزُهم عن الظلم ، فإن ضَعُف دينهم عوملوا ٢ـ بالمروءة ، لأنَّ مَن له مروءة لا يرضى بتعاطي الظلم حفظاً لمروءته ، فإن ضعفت مروءتهم عوملوا

٣ـ بالرغبة في الخير ، فينال بعضهم من بعض بحسن الثناء عليه في معاملته ، فإن ضعفت الرغبة في الخير عوملوا بالرهبة : الخوف من الأذيّة ، فإنَّ مَن أُمِن شرُّه استهين وظُلم ، ومَن لم يُؤمَن منه ذلك قضيت حوائجه ، فإن استند إلى ظالم كان ذلك أسرعَ لقضاء حوائجه ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون !!

٣ـ أف من الدنيا : وقال أبو علي : أفٍّ[1] : تَبَّاً وقبحاً من أشغال الدنيا ؛ مالاً وجاهاً إذا أقبلت ، وأفٍّ من حسراتها إذا أدبرت ؛ بعد تعلُّق القلب بها ، والعاقل من لا يركَنُ إلى شيء صفته أنَّه إذا أقبل كان شغلاً ، وإذا أدبر كان حسرة : أشدَّ تلهُّفاً على ما فاته لأنَّ الدنيا كلَّما اتسعت على العبد . . كَثُر شغله بها وحفظه وتمنيته لها ، وفيما قاله دليلٌ على تحقير الدنيا واستنقاص أهلها .

الأمر الميؤوس : ومن كلامه : لا يلتمس تقويم من لا يستقيم ، ولا تأديب من لا يتأدَّب .

ما يجب حفظه : وقال : أربعة أشياء لا بدَّ للعاقل من حفظها : ١ـ الأمانة ، و٢ـ الصدق و٣ـ الأخ الصالح ، و٤ـ السريرة .

* * *

ومنهم : ٥٨ـ أبو الخير الأقطع

لمحة : مغربيُّ الأصل ، سكن « تِينَات» : قرية على أميال من المصيصة ؛ وهي مدينة على ساحل البحر .

وله كرامة ، وفِراسة حادَّة . كان كبير الشأن .

وفاته : مات سنة : نَيِّف وأربعين وثلاث مئة .

الحال الشريفة : قال أبو الخير ـ وفي نسخة : وقال ـ :ما بلغ أحدٌ إلىٰ حالةٍ شريفة إلاَّ

---

(١) قال الشارح : بكسر الفاء ؛ وفتحها ؛ وضمِّها . . مع تنوينه ودونه بمعنى مصدر .
قلت : فهي هكذا (أفٍّ) ، (أفٌّ) ، (أفّاً) ، (أفِّ) ، (أفُّ) ، (أفَّ) .

١ـ بملازمة الموافقة للعلم والعمل به ، و٢ـ معانقة : ملازمة الأدب مع الحق والخلق الصادق ذلك بملازمة أداء النوافل ،و٣ـ أداء الفرائض ، و٤ـ صحبة الصالحين : لا يكمل العبد في خير حتى يلازم فرضه ونفله ، لخبر : « مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ٱلْمُتَقَرِّبُونَ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا ٱفْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ يَزَالُ ٱلعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ » . . الحديث وتقدم بيانه في أوائل الكتاب ص ٣٦ .

* * *

ومنهم : ٥٩ـ أبو بكر محمد بن علي بن جعفر الكَتَّاني ؛ نسبة إلى الكَتَّان وعمله

أصله ورتبته : بغداديُّ الأصل ، صحب الجُنَيد ، والخرَّاز ، والنوريَّ .

وفاته : وجاور بمكَّة إلىٰ أن مات سنة : اثنتين وعشرين وثلاث مئة .

ضيعة العمر : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ، يقول : نظر الكَتَّاني إلى شيخ أبيضَ الرَّأس واللحية يسأل الناس ؛ فقال : هذا رجل أضاعَ حقَّ الله في صِغره فضَيَّعه في كبره : لو تعوَّدَ في صغره القناعة باليسير وتخلَّق بالورع والتوكل . . لم يحوجْه الله آخر عمره إلى سؤال الناس ، وأمَّا التصدِّي للسؤال على الطرقات! فهو في غاية البشاعة كما لا يخفىٰ .

زمام الشيطان : وقال الكَتَّاني : الشهوةُ لبني آدم زمام الشيطان : يجرُّهم بها إلى المعاصي ، فمن أخذ الشيطان بزمامه بأن تمكَّن منه لشدَّة محبَّته لشهواته . . كان عبدَه ، فيكون من أصحاب السعير .

* * *

ومنهم : ٦٠ـ أبو يعقوب إسحاق بن محمد النَّهرَجوري ؛ نسبة إلى « نَهْرَجُور » بلدة بالمشرق

طبقته : صحب أبا عَمرو المكيَّ ، وأبا يعقوب السوسيَّ ، والجنيد . . وغيرهم .

وفاته : مات بمكَّة مجاوراً بها ، سنة : ثلاث مئة .

حكمه : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ أبا الحسين أحمدَ بن عليٍّ ؛ يقول : سمعت النَّهرَجوري ؛ يقول : **الدنيا بحر ؛ والآخرة ساحل له ، والمركب التقوىٰ ؛ والنَّاس سَفْر : مسافرون في المركب .**

هذا من باب الاعتبار ، لأنَّ الناس في الدنيا ليسوا مقيمين ، لأنَّها ليست دار قرار ! فهم فيها كالمسافرين باختلاف الليل والنهار إلى آخر أعمارهم ؛ فأَشبهت البحر ، والآخرة دار استيطان فأشبهت ساحل البحر ، فمن سافر إليها بحسن استعداد وكمالِ زادٍ . . وصل إلى محلِّ القرار سالماً غانماً ، ومن فرَّط في ذلك [illegible] وهلك ، وتوالىٰ عليه الأ[illegible]ل الوصول وبعده ، لأنَّ الآخرة دارُ الجزاء .

لطمة بنظرة : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ النَّهرجوريَّ ؛ يقول : **رأيت رجلاً في الطواف بفرد عين . . يقول : أعوذُ بك منك . فقلت : ما هذا الدعاء ؟ فقال : نظرتُ يوماً إلى شخص ؛ فاستحسنته ، وإذا لطمةٌ وقعت على بصري ، فسالت عيني !! فسمعتُ هاتفاً ؛ يقول : لطمة بنظرة ، ولو زدت لزدناك . فخذ حذرك منا !!**

كرامة التعجيل : هذا من جملة الكرامات ، فإنَّ مَن عجِّلت له عقوبتُه على عمله في الدنيا حتى يسلم من عذاب الآخرة . . فقد أُكرم ، إذ ليس بين العذابين نسبةٌ . وقد روىٰ التِّرمذيُّ خبر : « إِذَا أَرَادَ ٱللهُ بِعَبْدٍ خَيْرَاً عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِ شَرَّاً أَمْسَكَ عَنْهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ حَتَّىٰ يُوافِيَ بِهِ يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ »[1] .

---

(١) هو عنده برقم ٢٣٩٨ ، وأحمد : ٤/ ٨٧ ؛ عن أنس وعبد الله بن مغفل رضي الله عنهما . =

تعقيب : قيل : ولما كان في اللفظ المذكور بشاعة[1] . . أنكره النَّهْرَجوري بقوله (ما هذا الدعاء !) فاحتاج قائله إلى أن يعرِّفه سببه ، ولو قال (أعوذ برضاك من سخطك)!! لكان ظاهراً .

أفضل الأحوال : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أحمد بن عليٍّ ؛ يقول : سمعت النَّهرَجوريَّ ؛ يقول : **أفضلُ الأحوال ما قارَنَ العلم** : ما شهد له العلم بالصحَّة والكمال، فإنَّهُ الدالُّ على الفاضل؛ والأفضل من الأحوال والأعمال ، وأفضلُ الأعمال ما وقع على أعلى درجات الكمال، وتبرَّأ منه فاعله ورآه فضلاً من ربِّه .

* * *

ومنهم : ٦١ـ أبو الحسين عليُّ بن محمَّد المزيِّن ؛ وهو مَنْ يحلق الشعر

موطنه وطبقته : من أهل بغداد ، من أصحاب سهل بن عبد الله التُّستَريِّ ، والجنيد ، والطبقة : ومن في طبقتهما .

= لكن أخرجه الترمذي : ٣٤٨٣ وقال : حسن صحيح غريب ؛ عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ عاد رجلاً قد جُهد حتىٰ صار مثل الفرخ ! فقال له « أَمَا كُنْتَ تَدْعُو ! أَمَا كُنْتَ تَسْأَلُ رَبَّكَ ٱلعَافِيَةَ ؟! قال : كنت أقول (اللَّهُمَّ ؛ ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجِّله لي في الدنيا) . فقال النبيُّ ﷺ : « سُبْحَانَ ٱللهِ !! إِنَّكَ لاَ تُطِيْقُهُ ، أو : لا تَسْتَطِيْعُهُ ، أَفَلا كُنْتَ تَقُولُ (اللَّهُمَّ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ) !! .

(١) أراد بها (أعوذ بك منك) !! ولكن من العجب استبشاع هذه اللفظة الكريمة مع ورودها في السنة المطهَّرة حيث أخرج مالك : ١٥٠ ، وأحمد : ٦/ ٢٠١ ، وأبو داود : ١٤٢٧ والترمذي : ٣٤٩١ ؛ ٣٥٦١ ، والنسائي : ١٧٤٨ ، وابن ماجه ١١٧٩ ؛ عن عائشه رضي الله عنها :
« اللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ . . لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ » .

وفاته : مات بمكة ؛ مجاوراً سنة : ثمان وعشرين وثلاث مئة . وكان وَرِعاً كبيراً .

من حكمه : **١ـ الحسنة والذنب** : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت المزِّين ؛ يقول : **الذَّنبُ بعد الذنب عقوبةُ الذَّنبِ الأوَّل ؛** حيث لم ينبَّه للتوبة ، فإنَّه لو تاب بعد الأوَّل مُحي عنه وسلم من العقوبة بالثاني ، والحسَنَةُ بعد الحسنة ثوابُ الحسنة الأُولى ؛ عجَّله له مولاه في دنياه ، وله في أخراه ثوابُ كلٍّ من الحسنتين .

٢ـ التوحيد : وسُئل المزيِّن عن التوحيد ؟ فقال : أن تعلم أنَّ أوصافه تعالى بائنةٌ ـ وفي نسخة : مباينة ـ لأوصاف خلقه ، فإنَّه باينهم بصفاته قدماً ؛ كما باينوه بصفاتهم حَدَثاً . فلا شَبَه بينهما ؛ في ذات ولا صفة ولا فعل .

٣ـ الحاجة والاستغناء : وقال المزيِّن : مَن لم يستغنِ بالله أحوجَهُ الله إلى الخلق ، ومن استغنىٰ بالله أحوجَ الله الخلق إليه . لأنَّ ما يحتاج الناس إليه في دنياهم أعمال وعلوم ؛ وأقواتٌ وحسن معاشرة ، فمتى مكَّن الله تعالىٰ العبد في العلم والعمل به ؛ ويسَّر له أرزاقه وحسَّن أخلاقه . . عاش مستغنياً بمولاه ، واحتاج إليه مَن لم يكن كذلك .

* * *

ومنهم : ٦٢ـ أبو علي ابن الكاتب ؛ واسمه الحسن بن أحمد

طبقته : صحب أبا عليٍّ الرُّوْذَباري ، وأبا بكر المصريَّ ، وغيرهما .

رتبته ووفاته : كان كبيراً في حاله : شأنه . مات سنة : نيِّف وأربعين وثلاث مئة .

من حكمه : **١ـ خوف القلب** : قال ابن الكاتب : إذا سكن الخوفُ : خوفُ زلل اللسان القلبَ لم ينطق اللِّسان إلاَّ بما يعنيه ؛ ليسلم من ذلك .

تنزيهه بالعلم : وقال ابن الكاتب : المعتزلة نزَّهوا الله تعالى عن أن يخلق الشرَّ والكفر وسائر المعاصي . . من حيث العقل : من حيث إنَّهم اعتمدوا محض النظر العقلي فأخطأوا لغفلتهم عن الدليل السمعي ، كقوله تعالىٰ ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] ، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2] . والصوفية نزَّهوه من حيث العلمُ : من حيث إنَّهم اعتمدوا مع النظر العقلي الدليلَ السمعيَّ فأصابوا فيما اعتقدوه ؛ من أنه تعالى يخلق ما ذُكر .

* * *

ومنهم : ٦٣ـ مظفَّر القِرْمِسِيْنِي
نسبة إلى « قِرْمِسِيْن » : مدينة بجبال العراق

طبقته : من مشايخ الجبل : جبل سفح قاسيون صحب عبد الله الخراز ، وغيره .

من كلامه : ١ـ أوجه الصوم : قال مظفر القِرْمِسِيْني : الصوم على ثلاثة أوجه :

١ـ صومُ الروح ؛ وهو يحصل بقصر الأمل . . بإمساكها عن طوله المؤدِّي غالباً إلى عدم الاجتهاد في الخيرات ، و٢ـ صوم العقل الذي به تعرف المصالح والمفاسد ؛ وهو يحصل بخلاف الهوى : بإمساكه عن الميل إلى الهوى ، و٣ـ صوم النفس : ذات الإنسان وهو يحصل بالإمساك عن الطعام الشامل للشراب ، و عن المحارم من المحرّمات ونحوها .

والمراد أنَّ حقيقة صومها الإمساكُ عن الطعام ونحوه ، وكماله الإمساك عن المحرَّمات ونحوها ؛ كالغيبة والنميمة والكذب ، لخبر البخاريِّ[3] : « مَنْ

(١) الآية : ٣٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : فُصِّلت .

(٢) الآية : ٩٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الصافات .

(٣) في جامعه الصحيح برقم : ١٩٠٣ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

لَمْ يَدَعْ قَوْلَ ٱلزُّورِ وَٱلعَمَلَ بِهِ ؛ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ » .

٢ـ **أخسُّ الإحسان : وقال مظفَّر : أخسُّ الإرفاق :** الإحسان إرفاقُ النِّسوان لك ؛ علىٰ أيِّ وجه كان من أوجه الإرفاق الحاصل مع مخالطتهن ؛ أو بدونها ، مع تلفظ ؛ أو بدونه ، لأنَّ ذلك محلُّ تهمة ، ولأنَّهُنَّ ربَّما يرفقْن من أموال أزواجهن بغير إذنهم ، ويزعمن أنَّ ذلك برٌّ وخير لَهُنَّ ولأزواجهنَّ .

٣ـ **ثمرة الجوع : وقال : الجوع إذا ساعدَتْه القناعة ؛ فهو ١ـ مزرعة الفكرة ،** والتأمُّل في أنواع العلوم ؛ ومعرفة المصالح والمفاسد ، **و٢ـ ينبوع الحكمة ؛** وهي إصابة الصواب كما مرّ مع زيادة ، **و٣ـ حياةُ الفطنة :** الفهم للمفاسد والمصالح ، **و٤ـ مصباحُ القلبِ :** منوِّره بالعلم . وهذا كلُّه لبعده عن المشغلات من محبَّة كثرة الطعام والتلذُّذ بأنواع المشتهيات .

٤ـ **أفضل الأعمال : وقال : أفضل أعمالِ العبيد حفظُ أوقاتهم الحاضرة ؛** لأنَّ الماضية قد تخلُص بالتوبة ؛ أو بغيرها ، والآتية لعله لم يدركها !! وهو : حفظهم لها أن **لا يقصِّروا في أمر مطلوب شرعاً ، ولا يتجاوزوا عن حدٍّ حدَّه** الشرع .

٥ـ **سبب الأدب : وقال : مَن لم يأخذ الأدب عن حكيم ؛** وهو مَن يضعُ الأشياء مواضعها ، ويقابل أمراض القلوب بأدويتها . . **لم يتأدَّب به مريدٌ** . لأنَّ من لم يكن كذلك لا يُقتدىٰ به ، لأنَّ مَن سلك طريقاً واحداً من طرق الخير وجاءه مريد ليقتديَ به فدَلَّه على طريقه الذي سلكه مع اختلاف أمراض القلوب . . كان كطبيب يسقي الناس من إناء واحد ، لكونه تداوى به ، وربَّما ضرَّت غيره ؛ فضلاً عن أن تنفعه .

* * *

* *

*

ومنهم : ٦٤ـ أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهري

طبقته ووفاته : من أقران الشِّبلي ، من مشايخ الجبل ، عالمٌ ورع ، صحب يوسف ابن الحسين ، وغيرَه . مات بقرب من الثلاثين وثلاث مئة .

رغبة الفقير : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر بن طاهر ؛ يقول : **مِن حِكم الفقير المبنيّ طريقته على الزهد في الدنيا أنَّ لا يكون له رغبة فيها ، لأنَّها حقيرة لا تزن عند الله جناحَ بعوضة ، فحقُّه أن لا يأخذ منها إلاَّ ما تدعو إليه الضرورة ، فإنْ كان ؛ ولا بدَّ له من الرغبة في شيء منها ؛ بأن لم يصل إلى مقام الزهد بالكليَّة . . فلا تجاوز رغبته كفايته . يعني القدر المحتاج هو إليه . فإنَّها تختلف باختلاف الأشخاص !!**

الأخ والدنيا : وبهذا الإسناد قال أبو بكر الأبهريُّ : **إذا أحببتَ أخاً في الله ؛ فأقلل مخالطته** ـ وفي نسخة : من مخالطته ـ **في الدنيا . فإنَّ القلوب لها إقبال وإدبار ، فإن دعتك حاجة إلى مخالطته فيها فاعتمد على إيثارك له على نفسك ؛ لا بإيثارك نفسك عليه .**

* * *

ومنهم : ٦٥ ـ أبو الحسن بن بُنان

طبقته : ينتمي : ينتسب . . له صحبة إلى أبي سعيد الخراز ، من كبار مشايخ مصر .

قلب الصوفي : قال ابن بُنان : **كلُّ صوفيٍّ كان همُّ الرِّزق قائماً في قلبه[1] ؛ فلزوم**

---

(١) مشغلاً له بسبب قلَّة يقينه ، فعلاجه ملازمته للعمل بالعلم ؛ فإنَّه دواء له ينشأ عنه قوَّة اليقين=

العمل بالعلم أقربُ له[1] من غيره في الخلوص من ذلك ، لأنَّ عُمدَته[2] فراغُ قلبه من المشغلات ، وأشدُّ المشغلات له ما تدعو إليه الحاجة من أنواع الدنيا ؛

فمتى كان القلب مشغولا بذلك اشتغل عما خلق له من معرفة الله تعالى ومعرفة الآخرة ، ومتى قوي يقينه وتوكُّلُه على مولاه بما يحتاجه أعرضت نفسه عن الأسباب الدنيوية وسكن قلبه لله تعالىٰ .

سكون القلب : وعلامةُ سكونِ القلب إلى الله تعالى أن يكون بما في يدِ الله : عنده ـ وفي نسخة : يدي الله ـ أوثقَ منه بما في يده : عنده[3] ، قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾[4] وقال ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[5] .

دناءة الأخلاق : وقال أبو الحسين : اجتنبوا دَناءة الأخلاق ؛ كترك العفو عن الزلَّات ، ومساعدة ذوي الحاجات والأعمال الصالحات . . كما تجتنبون الحرام[6] ـ وفي نسخة : المحارم ـ لأنَّ ارتكاب ذلك وإن كان مباحاً . . ربَّما يوقع في الحرام ، فالانكفاف عن المباح يحفظ العبد عن الوقوع في الحرام ، أمَّا

= وحسن التوكُّل عليه تعالىٰ فيما يحتاجه لمعاشه (عروسي : ١/ ١٩٩) .

(١) أقرب لخلاصه ، لأنه برجوعه إلىٰ ما ذكر يثق بأن ما قُدِّر كونه لا بدَّ من وجوده ، وما لا فمحال وجوده ، وبذلك يزول ما في قلبه . والله أعلم (عروسي : ١/ ١٩٩) .

(٢) في زوال دائه فراغ قلبه من تلك الوساوس الشيطانية التي لا يزيلها إلاّ علمه بأن الأمر دائر بين ما يكون وما لا يكون ، والسعي والهمَّة لا تأثير لهما في كون ما لا يكون ، ولا في جلبه ، ولا في ردِّ ما يكون ولذا قيل :

مَا لاَ يَكُـونُ فَـلا يَكُـونُ بحيْلَـةٍ ... أَبَـداً وَمـا هُـوَ كـائِـنٌ سَيَكُـونُ
يَسْعـىٰ ٱلـذَّكِـيُّ فَـلا يَنـالُ بِسَعْيِـهِ ... حظّـاً وَيَحْظَـىٰ عَـاجِـزٌ وَمَهِيْـنُ

(عروسي)

(٣) لأنّ ما بيده عرضة للتلف بسارق ؛ أو حريق ؛ أو غيرهما من أسباب التلف ، ولا كذلك ما عنده تعالىٰ ، فإذا تمَّ له هذا المقام تيسَّرت له الخيرات ؛ كالصدقة وأعمال البرِّ وسرعة القيام بأداء الحقوق المتعلِّقة بالحق وبالخلق . (عروسي : ١/ ١٩٩) .

(٤) الآية : ٥٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الذرايات .

(٥) الآيتان : ٢٢ و٢٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الذاريات .

(٦) مراده التشبيه في مطلق النهي ، وإلاّ فالنهيُ عن المحرَّم آكد بسبب الوعيد عليه (عروسي)

أدنئ الأخلاق كالرياء والعجب والحسد والشماتة ! فمحرَّم يجب اجتنابه .

حكمه : ومن كلامه : لا يعظِّمُ أقدار الأولياء إلا من كان عظيم القدر عند الله .

* * *

ومنهم : ٦٦ ـ أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان القِرْمِسِيْنِي

طبقته : شيخ وقته ، صحب أبا عبد الله المغربي ، وأبا إسحاق الخوَّاص ، وغيرهما .

وفاته : مات سنة : ثلاثين وثلاث مئة .

من حكمه : **١ ـ لزوم الرُّخص** : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا يزيد المروزيَّ الفقيه ؛ يقول : سمعتُ إبراهيم بن شيبان ؛ يقول : مَن أراد أن يتعطَّل عن أعمال البرِّ ؛ ويتبطَّل منها ! فليلزم الرُّخص ؛ بأن يترك المندوبات ويرتكب المكروهاتِ والشبهات ، ويقتصر على فعل الواجبات وترك المحرَّمات ، والراغبون في تحصيل المكارم والأخلاقِ الحميدة لا يرضون به ، بل يطلبون الأَوْلى لكمال جدِّهم ورغبتهم في عمارة أوقاتهم بأفضل أعمالهم .

٢ ـ الفناء والبقاء : وبهذا الإسناد قال أبو إسحاق : علم الفناء عن غير الله ، و علم البقاء مع الله يدور كلٌّ منهما على إخلاص الوحدانية ؛ علماً وحالاً ، وعلى صحَّة العبوديَّة ؛ جهداً وامتثالاً ، فمتى جهد العبد في موافقة مولاه وكَمُلَ إخلاصه له ؛ وإعراضُه عمن سواه . . فني عن غيره ؛ لكمال شُغْله به وبنجواه ، ومتى جدّ في ذلك واشتدّ رجاؤه فيما طَلَب . . فني عن نفسه ؛ وبقي مع مولاه والبقاء بعد الفناء ، فإن الفناء إعراضٌ عن غير الله ، والبقاء استغراق في ذكره وقربه ، وما كان غير هذا : غيرَ ما ذكر من إخلاص الوحدانية وصحَّة العبودية . . فهو المغاليطُ والزندقة والوسوسة .

٣ـ السَّفِلة : **وقال إبراهيم القرمسيني : السَّفِلة ؛ وهم أراذل الناس مَن يعصي الله عزَّ وجلَّ ؛ ولم يتب .**

٤ـ هتك الستر : ومن كلامه : مَن ترك حرمة المشايخ ٱبتُلِيَ بالدعاوي الكاذبة ؛ وافتُضِح بها ، ومن تكلَّم في الإخلاص ولم يطالب نفسه به . . ابتلاه الله بهتك ستره عند أقرانه وإخوانه .

٥ـ وصية والده : ومن كلامه : قال لي أبي : يا بُنَيَّ ؛ تعلَّم العلم لآداب الظاهر ، واستعمل الورع لآداب الباطن ، وإياك أن يشغلك عن الله شاغلٌ ، فقلَّ مَن أعرض عنه فأقبل عليه .

* * *

ومنهم : ٦٧ـ أبو بكر الحسين بن علي بن يزدانيار

من أَرمينية ؛ بلدة من بلاد الروم ـ وفي نسخة ؛ أرمية ـ

درجته : **له طريقة يختصُّ بها في التصوُّف ، وكان عالماً ورعاً ، وكان ينكر على بعض العارفين**ـ وفي نسخة : العراقيين ـ **في إطلاقاتٍ وألفاظ لهم .**

الطمع : **قال ابن يزدانيار : إيَّاك أن تطمَع في الأُنس بالله . . وأنت تحبُّ الأنس بالناس . وإيَّاك أن تطمَع في حبِّ الله . . وأنت تحبُّ الفضول في القول والعمل ، وإيَّاك أن تطمع في المنزلة عند الله . . وأنت تحب المنزلة عند الناس !!** إذ الأمر العظيم لا يُنال إلاَّ مع الهمَّة واجتماع القلب ، فكمال كلٍّ من الأُنس بالله والمحبَّة له وارتفاع المنزلة عنده . . إنَّما يكون بكمال الإخلاص ، والإعراض عما ينال من الناس من مدح وذم ونحوهما ؛ ممَّا يعبَّر عنه بالوساوس .

* * *

ومنهم : ٦٨ـ أبو سعيد ابن الأعرابي

اسمه : واسمه أحمد بن محمد بن زياد البَصري ؛ نسبة إلى البَصرة [١]: البلدة **المشهورة ، جاور الحرم :** فيه .

وفاته : ومات به سنة : إحدىٰ وأربعين وثلاث مئة ؛ عن ثلاث وتسعين سنة .

طبقته : صحب الجنيد ، وعَمْرو بن عثمان المكيَّ ، والنُّوري ، وغيرَهم .

أخسر الأخسرين : قال ابن الأعرابيِّ : أخسرُ الأخسرين مَن أبدىٰ للناس صالحَ أعماله ، وبارز بالقبيحِ مَن هو أقربُ إليه من حبل الوريد . لأنَّه حينئذ خسر الدنيا والآخرة ، لأنَّه معذَّب القلب في دنياه متعوب في رضا مَن لا ينفعه رضاه ، ولا ينال مع ذلك إلاَّ ما قدَّره له مولاه ، ومحاسب ومعذب في أُخراه إلاَّ أنْ يعفوَ عنه مَن خلقه وسوَّاه .

أخلاق الفقراء : وسئل أبو سعيد عن أخلاق الفقراء ؛ **فقال :** أخلاقهم ١ـ السكون عند الفقد و٢ـ الاضطراب عند الوجد ، و٣ـ الأُنس بالهموم ، و٤ـ الوحشة عند الأفراح .

والإضافة في (حبل الوريد) !! للبيان ، ولكلٍّ إنسان وريدان ؛ وهما عِرْقان بصفحَتَيْ العُنُق .

* * *

* *

*

ومنهم : ٦٩ـ أبو عَمْرو محمد بن إبراهيم الزُّجاجي ، ويقال : الزَّجَّاجي نسبة إلى عمل الزُّجاج وبيعِه النَّيْسَابُوري

مجاورته : جاور بمكَّة سنين كثيرة . ومات بها .

طبقته : صحب الجنيد ، وأبا عثمان ، والنُّوري ، والخوَّاص ، ورُوَيْماً .

وفاته : مات سنة : ثمان وأربعين وثلاث مئة .

خشيته : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت جدِّي أبا عَمْرو بن نُجَيد ؛ يقول : سُئل أبو عَمْرو الزُّجاجي : ما بالك تتغير عند التكبيرة الأولىٰ : تكبيرة الإحرام في الفرائض !؟ فقال : لأني أخشىٰ أنِّي أفتتح فريضتي بخلاف الصِّدق ؛ فأكون كاذباً لكوني أخبرت بما ليس متحققِّاً فيَّ . فمن يقول (الله أكبر) . . وفي قلبه شيءٌ أكبر منه ؛ أو قد كَبَّر شيئاً سواه على مرور الأوقات ؛ فقد كَذَّب نفسه على لسانه .

ومن ثَمَّ كان عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه إذا توضَّأَ أصفرَّ لونه وتغيَّر ، فإذا سُئل عن ذلك . . فقال : ويلكم أتدرون بين يدي مَنْ أُريدُ أنْ أقوم له !

وهذا جارٍ فيما بين الغافلين في دنياهم . . إذا دُعُوا إلى الحضور بين يدي السلاطين لَحِقَهم ما ذكرناه خوفاً من أدنىٰ ضرر ؛ فكيف بسلطان السلاطين !!؟

وقال أبو عمرو الزُّجَاجي : مَن تكلَّم عن حالة لم يصل إليها ؛ موهماً أنَّه نالها . . كان كلامه فتنةً : بليَّة ومحنة لمن يسمعه ، لأنَّه قد يغترُّ به فيدَّعي مثله ، بل وفتنة له ، لأنَّه يعترض عليه ، ولأنَّ حاله يناقض ما تكلَّم به ، و كان كلامه دعوى باطلةً تتولَّد في قلبه ، فيكون متشبِّعاً بما لم ينله[1] ! وحَرمَه الله بسبب ذلك الوصولَ إلى تلك الحال .

---

(١) فيكون كلابس ثَوبَيْ زور كما أشار له الحديث الشريف ، فيما أخرجه البخاري : ٥٢١٩ ، ومسلم : ١٢٧ ـ ٢١٣٠ عن أسماء رضي الله عنها .

أدبه : وقد جاور بمكَّة سنين كثيرة ، لم يتطهَّر في الحرم ، بل كان يخرج إلى الحِلِّ ويتطهَّر فيه احتراماً للحرم

* * *

ومنهم : ٧٠ـ أبو محمد جعفر بن محمد بن نُصَير[1]

موطنه وطبقته : بغداديُّ المنشأ والمولد ، صحب الجُنَيد ؛ وانتمىٰ إليه ، وصحب النُّوريَّ ، ورُوَيماً ، وسُمنون ، والطبقة : ومن في طبقتهم .

وحجَّ قريباً من ستِّين حِجَّة ،

وفاته : مات ببغداد سنة : ثمان وأربعين وثلاث مئة .

لذَّتان : قال جعفر : لا يجدُ العبد لَذَّة المعاملة مع الله مع لَذَّة النفس ؛ لأنَّ أهل الحقائق قطعوا العلائق التي تقطعهم عن الحقِّ ؛ قبل أن تقطعَهم العلائقُ . قال تعالى ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾[2] وذلك لأنَّ القلب إذا امتلأ بشيء شُغِل به عن غيره ؛ فلا يجد أحدٌ اللَّذة مع الله ؛ والأُنسَ به والتنعُّم بمناجاته . . إلاَّ إذا تفرَّغ له بالكلية ، ومَن كان كذلكِ . . أعرض عن شهوات نفسه .

بركات العلم : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان ؛ يقول : سمعت جعفراً ؛ يقول : إنَّ ما بين العبد وبين الوجود : وجودِ الحقِّ تعالى بأن يديم نظره إليه ، ويعبده كأنَّه يراه . . أن تسكن التقوى ؛ بفعل المأمورات وترك المنهيَّات قلبَه ، فإذا سكنت التقوىٰ قلبَه نزلت عليه بركات العلم ، وزالت عنه رغبة الدنيا ، لما يراه من لَذَّة المناجاة .

* * *

---

(١) الخوَّاص ويعرف بـ « الخَلَدي » .

(٢) الآية : ٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

ومنهم : ٧١ـ أبو العباس السَيَّاري ؛
نسبة إلى سَيَّار : جدِّه

واسمه : القاسم بن القاسم . من « مرو » .

رتبته : صحب الواسطيَّ ، وانتمىٰ إليه في علوم هذه الطائفة ، وكان عالماً .

وفاته : مات سنة : اثنتين وأربعين وثلاث مئة .

رياضة المريد : سُئِل أبو العبَّاس السَيَّاري : بماذا يروضُ المريد نفسه؟! فقال :

١ـ بالصبر على فعل الأوامر ، و٢ـ اجتناب النواهي ، و٣ـ صحبة الصالحين ، و٤ـ خدمة الفقراء . فلا يروضُها إلا بالأمور الشرعية ؛ لا بما زعمه بعضهم من أنَّه يروضها بما شاء حتَّى بالغناء والشَّبَّابة ونحوهما .

مشاهدة الحق : وقال أبو العبَّاس : ما اَلتَذَّ عاقلٌ بمشاهدة الحقِّ قطُّ ، لأنَّ مشاهدةَ الحقِّ الكاملة ؛ بأن يفقد العبد فيها إحساسه بنفسه . . فناءٌ ليس فيها لذَّة . فالمراد فناء الفناء ، لأنَّ العبد متى كَمُل شغله بربِّه حتَّى فنيَ عن ذكر غيره من قلبه . . كان فناء ، وإن قوي شغلُه به حتَّى نسي نفسه كان فناءَ الفناء ، فالمشاهدةُ مقولة بالتشكيك [1] ، لأنَّ فيها أعلى وهو المسمَّى بفناء الفناء كما ذكر ، وأدنىٰ أن يكون العبد مشاهداً لمولاه قليلَ الغفلة عنه ؛ ناظراً لما يَرِدُ عليه من فضله ؛ وهو مدرِك لنفسه ومولاه وتفضُّلِه عليه ، فهذا فناءٌ فيه لذة .

أوجه الفناء : قالوا : والفناء على ثلاثة أوجه : ١ـ فناء في الأفعال ؛ لا فاعل إلا الله ، و٢ـ فناء في الصفات ؛ لا حيَّ ولا عالمَ ، ولا قادر ولا مريد ، لا سميع ولا بصير ، ولا متكلِّم على الحقيقة إلا الله . و٣ـ فناء في الذات ؛ لا موجود على الإطلاق إلا الله وأنشدوا في ذلك :

---

(١) التشكيك : دلالة اللفظ أو العبارة علىٰ عدَّة معان يمكن استعمالها وتأويلها باستعمالات متعددة دون تصوُّر ثابت لأحدها .

فَيَفْنَىٰ ثُمَّ يَفْنَىٰ ثُمَّ يَفْنَىٰ   فَكَانَ فَنَاؤُهُ عَيْنَ ٱلبَقَاءِ[1]

* * *

ومنهم : ٧٢ـ أبو بكر محمد بن داود الدَّيْنَوَري المعروف بـ« الدُّقِّي »

أقام بالشام ، وعاش أكثرَ من مئة سنة .

حياته ووفاته : **مات بدمشق[2] بعد الخمسين** ـ قال السراج ابن الملقِّن : سنة ستين ـ **وثلاث مئة .**

صحب ابن الجلاَّء ، والزَّقَّاق .

من كلامه : قال أبو بكر الدُّقِّي : **المَعِدَةُ موضعٌ يجمع الأطعمة ، فإذا طَرَحتَ فيها الحلال صَدَرت الأعضاء بالأعمال الصالحة** ، لإجراء عادة الله تعالىٰ بأنَّ مَن أَكَل الحلال نَشِط لعلم الطاعات ، **وإذا طَرَحت فيها الشُّبْهة اشتبه عليك الطريقُ**

---

(١) البيت من البحر الوافر .
فقوله (يفنىٰ) أوّلا . . فهو عن الفعل بذَوْقِ ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٩٦/ الصافات] .
وقوله (ثم يفنىٰ) ثانياً . . فهو عن الوصف بذوق ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [١٧/ الأنفال] .
قوله (ثم يفنىٰ) ثالثاً . . أي عن الذات بذوقِ « كانَ ٱللهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ ، ويَبْقَىٰ ٱللهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ » .
وقوله (فكان فناؤه عين البقاء) . . المراد الفناء بأوجهه الثلاثة المتقدِّمة عينَ البقاء ، وذلك لأنه بفنائه المذكور يبقىٰ به سبحانه وتعالىٰ ، ولا بُعدَ في كون العَدَم من أسباب الوجود حيث المؤثِّر الربُّ المقصود   (عروسي : ٣/٢) .

(٢) لكن نقل العروسيُّ عن المُناوي أنه دفن في القرافة !! .
وفي الجيزة من مدن القاهرة محلَّة تعرف بـ « الدقِّي » نسبة إليه .

إلى الله تعالى ، وإذا طرحتَ فيها التَّبِعات كان بينكَ وبينَ أمرِ الله حجابٌ . لأنَّ الشهوة غلبت على القلب فأعمَتْه .

ومن كلامه : من عرف ربَّه لم ينقطع رجاؤه ، ومن عرف نفسه لم يُعجَب بعمله ، ومن ذكر الله لجأ إليه ، ومَن نسيَ الله لجأ إلى المخلوقين . والمؤمن لا يسهو حتى يغفل ، فإذا تذكَّر حزن واستغفر . أي : إذا سها لا يستمرُّ سهوه حتَّىٰ يغفل ، بل إذا سها يعقبه التذكُّر ، فإذا تذكَّر حزن واستغفر .

* * *

ومنهم : ٧٣ـ أبو محمد عبد الله بن محمد الرَّازيُّ

مولده ومنشأه بنيسابور .

طبقته : صحب أبا عثمان الحِيريَّ ، والجُنَيْد ، ويوسف بن الحسين ، ورُوَيماً ، وسُمْنوناً ، وغيرهم .

وفاته : مات سنة : ثلاث وخمسين وثلاث مئة .

جوابه عن الناس : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ عبد الله الرازيَّ ؛ يقول ؛ وقد سئل : ما بال : حالُ الناس يعرفون عيوبَهم ؛ ولا يرجعون إلى الصواب ؟ .

فقال : لأنَّهم اشتغلوا بالمباهاة بالعلم ولم يشتغلوا باستعماله : بالعمل به ، واشتغلوا بالظواهر : بآدابها ولم يشتغلوا بآداب البواطن . . فأعمىٰ الله قلوبهم ، وقيَّد جوارحهم عن العبادات ، لأنَّ العبد إنَّما يرجع عن خطئه وزلله بكمال خوفه من ربِّه وشدَّة حذره من مقته ، وإنَّما يحصل له ذلك بدوام فكره في وعده ووعيده الناشيء عن صلاح القلب الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ : « أَلَاَ وَإِنَّ فِي ٱلجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ ٱلجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ ٱلجَسَدُ كُلُّه»[1] .

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٣٤ .

ومنهم : ٧٤ـ أبو عَمْرو إسماعيل بن نُجَيد

طبقته : صحب أبا عثمان ، ولقي الجنيد ، وكان كبيرَ الشأن .

وفاته : آخرُ من مات من أصحاب أبي عثمان . توفِّيَ بمكَّة سنة : ست وستين وثلاث مئة .

الحال والعلم : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت جَدِّي[١] أبا عَمْرو ابن نُجَيد ؛ يقول : **كلُّ حال لا يكون عن نتيجة علم ؛ فإنَّ ضرره على صاحبه أكثرُ من نفعه** . لأنَّ العلم بالأشياء هو الذي يفيد القلوب الأحوال ، كالعلم بالمخوف ؛ فإنَّه يفيد القلب الهرب ، وكالعلم بالمرجوِّ ؛ فإنَّه يفيد القلبَ شدَّة الطلب ، وكالعلم بالنعم ؛ فإنَّه يفيد القلب محبَّة المنعم .

وكلُّ حال لا يكون عن علم فهو مذموم ، لأنَّ فاعله مراءٍ متشبِّعٌ بما لم ينله .

التصوف وآفة العبد : قال ـ أي الشيخ أبو عبد الرحمان ـ **وسمعتُهُ** ـ أي : أبا عَمْرو ابن نُجَيد ـ **يقول : مَن ضيَّع في وقت من أوقاته فريضة افترضها** ـ وفي نسخة : افترض ـ الله عليه ؛ بأن تركها بالكلية أو أتىٰ بها مختلة الشرط . . **حَرَمَهُ الله لَّذة تلك الفريضة ؛ ولو** ـ وفي نسخة : إلا ـ **بعد حين** .

المعنى على النسخة الأولى أنَّه يزيل لذَّتها من قلبه بأن يصيبه ولو بعد حين، وإن قضاها. وعلى الثانية: أنَّه يزيل لذَّتها إلاَّ أن يعفو عنه فيعيد له لذَّتها.

خلق التصوُّف : قال : وسئل عن التصوُّف ؛ فقال : **هو الصَّبر تحت امتثال الأمر والنهي** .

هذا تفسير باللازم ، فإنَّ التصوُّف هو التخلُّق بأخلاق الصوفية وذلك إنَّما يحصل بالصبر المذكور .

آفة العبد : قال : **وقال** ـ وفي نسخة : سمعت السُّلَمِيّ ؛ يقول : سمعت جدِّي ؛ يقول ـ : **آفة العبد رضاه من نفسه بما هو فيه من المقامات** . أي : مع امتناعه من طلب زيادة عليه ، وإلاَّ ! فهو حسن ، فلم يزل العلماء الراضون بقضاء الله

---

(١) والد أمِّه ، لأن السلميَّ سبطه رحمهما الله تعالىٰ .

تعالى الواقع يسألونه الزيادةَ ، وقد قال تعالىٰ لنبيِّه ﷺ ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[1] .

وفي نسخة أخرى عقب قوله (بما هو فيه) : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول ذلك .

* * *

ومنهم : ٧٥ـ أبو الحسن عليُّ بن أحمدَ بنِ سهل البُوشَنْجِي ؛ نسبة إلى « بُوشَنْج » : بلدة على سبعة فراسخ من هراة

رتبته ووفاته : أحد فتيان خراسان ، لقي أبا عثمان ، وابن عطاء ، والجُرَيري ، وأبا عَمْرو الدِّمَشْقِي . مات سنة : ثمان وأربعين وثلاث مئة بنيسابور .

وكان أعلم أهل وقته بالتوحيد والطريق ، وأحسنَهم طريقة في الفتوَّة والتجريد .

المروءة عنده : وسئل البُوشَنجي عن المروءة ؛ فقال : هي ترك استعمال ما هو محرَّم عليك مع الملائكة الكرام الكاتبين ؛ ككشف العورة في الخلق .

والمروءة الكاملة أن يتحفَّظ العبد في جميع حركاته بقلبه وجوارحه حتَّىٰ لا يكون منها ما يكرهه مولاه ؛ ولا غيره من خلقه .

من أدعيته : وقال له إنسان : (أُدعُ الله لي) . فقال : أعاذك الله من فتنتك .

لأنَّ العبد قد يفتتن بالمال والولد والجاه وغيرها مما يُحبُّ ، ويشتغل به عن دينه ، قال تعالىٰ ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾[2] . . فدعا له بالسلامة من كلِّ فتنة .

طرفا الإيمان : وقال البُوشَنْجِيُّ أيضاً : أوَّل الإيمان منوطٌ بآخرهِ . لأنَّ أوّله الشهادتان بالنطق مع التصديق بالقلب . وإذا عمل بمقتضىٰ ذلك أفرد ربَّه بالقصد والعلم ، ورسولَه بالحقِّ فيما قال وفعل ، فإذا كَمُل في ذلك حتَّىٰ لم يرَ

---

(١) الآية : ١١٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : طه .

(٢) الآية : ١٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التغابن .

غير ربِّه . . فقد وصل إلى غاية الإيمان ؛ وهو مقام الإحسان ؛ وهو أن يعبد العبد ربَّه كأنه يراه ، فأوّله نطق وتصديق ، وآخره شغل بربّه عن غيره .

ويحتمل وجهاً آخر ؛ وهو أن يكون ما سبق للعبد في الأزل هو ما يجري عليه في الأبد ؛ من إيمان أو كفر ؛ أو طاعة أو معصية !

ويحتمل وجهاً آخر نفي الاغترار عن العمال بأوائل الأمور حتَّىٰ يتحقَّقوا ما يُختم لهم به من المقدور .

منازل الناس : ومن كلام البُوشَنْجِي : الناس على ثلاث منازل : ١ـ الأولياء ؛ وهم الذين باطنهم أفضلُ من ظاهرهم ، و٢ـ العلماء ؛ وهم الذين سرُّهم وعلانيَّتُهم سواءٌ ، و٣ـ الجهال ؛ وهم الذين علانيتُهم بخلاف أسرارهم . . لا ينصفون من أنفسهم ؛ ويطلبون الإنصاف من غيرهم .

* * *

ومنهم : ٧٦ـ أبو عبد الله محمد بن خفيف الشِّيرازي ؛
نسبة إلى « شيراز » قصبة فارس

صحبته : صحب **رُوَيماً ، والجُرَيري ، وأبا العبَّاس بنَ عطاء ، وغيرهم** .

وفاته : مات في رمضان سنة : **إحدىٰ وسبعين وثلاث مئة** بشيراز ؛ عن مئة وأربع سنين .

رتبته : **وهو شيخُ الشيوخ وأوحدُ وقته** ؛ شافعيُّ المذهب .

من كلامه : قال ابن خفيف : **الإرادة من العبد استدامةُ الكدِّ ؛ وترك الراحة** ، لأنَّ الوصول إلى الدرجات العُلا إنَّما يحصل بذلك ، ويكون مع ذلك متبرِّئاً من إرادته ، ولهذا قالوا : المريد مَن لا إرادة له .

ضرر المريد : وقال : **ليس شيءٌ أضرَّ بالمريد من مسامحة النفس في ركوب**

الرُّخص : ارتكابها وقبولِ التأويلاتِ المفضية إلى الراحات والبِطالات ، لأنَّ ذلك يضادُّ اجتهاده في الخيرات .

يجيب عن القرب : وسئل عن القُرْب ؛ فقال : قربُك منه تعالىٰ بملازمة الموافقات ، لأوامره ونواهيه التي منها استشعار قلبك نظره إليك ، وقلَّة غفلتك عنه ، وقربُه منك بدوام التوفيق لك ، وتوالي نعم الله عليك ، فليس القرب هنا بالتداني والمسافة ! لأنَّ ذلك من لواحق الأجسام ، والله تعالى منزَّهٌ عنه .

صلاته : سمعتُ أبا عبد الله الصوفيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا عبد الله ابن خفيف ؛ يقول :

ربَّما كنتُ أقرأُ في ابتداء أمري في ركعة واحدة عشَرَة آلاف مرة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، وربَّما كنتُ أقرأُ في ركعة واحدة القرآنَ كلَّه ، وربما كنتُ أصلِّي من الغداة إلىٰ العصر ألف ركعة ! .

قال ذلك لمريديه ليجِدُّوا فيما هم فيه ويعرِّفَهم بتقصيرهم فيما يدَّعون سلوكه .

الصوفية والشيطان : سمعتُ أبا عبد الله ابنَ باكويه الشِيرازيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا أحمد الصغير ؛ يقول : دخل يوماً من الأيام فقيرٌ ؛ فقال للشيخ أبي عبد الله ابن خفيف : بي وسوسة !! فقال الشيخ : عَهدِي بالصوفية يسخرون من الشيطان ، والآن الشيطانُ يسخرُ منهم[١] !! لأنَّ النفوس إنَّما يتكرَّر عليها الوساوس من الشيطان ؛ بسبب تعلُّقها بالمحبوبات ، ورجاء موافقتها له في ذلك ؛ وهذا حاله مع الضُّعفاء .

أما المتثبِّتون فلا يتأثَّرون بوسوسته ، بل يستهزؤون به لقلَّة رغبتهم فيما دعاهم إليه من الخسران ؛ وشدَّة رغبتهم في الخيرات .

محاسبته : وسمعته ـ أي : ابن باكويه ـ؛ يقول : سمعت أبا العبَّاس الكرخيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا عبد الله ابن خفيف ؛ يقول : ضَعُفْتُ عن القيام في النوافل ؛ فجعلت ـ وفي نسخة : وقد جعلت ـ بَدَلَ كلِّ ركعة من أورادي ركعتين قاعداً ، للخبر الصحيح : « صَلَاةُ ٱلقَاعِدِ عَلَىٰ ٱلنِّصْفِ مِنْ صَلَاةِ ٱلقَائِمِ »[٢] .

---

(١) في (ح) : بهم .

(٢) بل ربَّما كان أجره تامّاً ، لأنَّ جلوسه لعذر الضعف ، والحديث في غير صاحب العذر (عروسي) . =

في ذلك دِلالة على كمال اجتهاده ، وحمل الحديث على ظاهره احتياطاً ورغبة في الأجر ، وإلاَّ فغيره من الفقهاء حملوه على القادر ، فالعاجز يساويه في الأجر .

تواضعه : ومن كلامه : الأكل مع الفقراء قربة إلى الله تعالىٰ .

* * *

ومنهم : ٧٧ـ أبو الحسين بُندار بن الحسين الشِّيرازيُّ

رتبته : كان عالماً بالأصول ، كبيراً في الحال . صحب الشبليَّ .

وفاته : مات بـ« آذَرْبَيْجَان » سنة : ثلاث وخمسين وثلاث مئة .

من حكمه : ١ـ نفسك : قال بُندار بن الحسين : لا تخاصم لنفسك ، فإنَّها ليست لك ، دعها لمالكها ؛ يفعل بها ما يريد . فيه إشارة للأمر بترك الأخلاق الذميمة ، إذ العبد إنَّما يخاصم عن ملكه ، فإذا علم أن نفسه وما يملكه ملكٌ لربِّه اعتمد عليه ، واكتفى بحسن نظره إليه ، فإنه القادر على جلب ما ينفعها ؛ ودفع ما يضرُّها عنها ، وحصل له التوكُّل والرضا بما يجريه الحقُّ عليه في السعة وغيرها .

٢ـ صحبة المبتدعة : وقال بُندار : صُحبة أهل البدع تورِث الإعراض عن الحقِّ . لأنَّ النفوس تأنس بما ترىٰ وتسمع ، فربَّما ترىٰ أفعال المبتدع وأقواله طاعة فتعمل بها .

= قلت : والحديث أخرجه البخاري : ١١١٦ ؛ عن عمران بن حصين بلفظ : « مَنْ صَلَّىٰ قاعِداً فَلَهُ نِصْفُ أَجْرِ ٱلقَائِمِ ، وَمَنْ صَلَّىٰ نائِماً فَلَهُ نِصْفُ أَجْرِ ٱلقاعِدِ » .

٣ـ **الهوى والأمل** : **وقال بُندار** : **أُترك ما تهوىٰ لما تأمُل**[(١)] . لأنَّ من لم يكن كذلك لم يعمل لآخرته ، ولم ينتقل عن درجته في دنياه وحالته ، فالعبد مأمورٌ بأن يترك ما يهواه في دنياه ، ومجازاتُه على عمله الصالح في أخراه ، فإنَّ مايناله أفضلُ ممَّا يتركه ، وأنفع له في أخراه ودنياه ؛ لما يأمله من خير الله كمناجاته لمولاه في دنياه .

٤ ـ الأدب : ومن كلامه : ليس من الأدب أن تسأل رفيقك (إلى أين ؟) ، أو (في أيش ؟) .

٥ـ حالات المُقبِل : وقال : ١ـ مَن أقبل على الدنيا وسكن إليها أحرقته بنيرانها ؛ وصار رماداً لا قيمة له ولا قَدْرَ ، و٢ـ مَن أقبل على الآخرة وسكن إليها أحرقته بنورها ، وصار سبيكة من ذهب ينتفع بها ، و٣ـ مَن أقبل على الله أحرقه التوحيد وصار جوهراً لا قيمة له .

* * *

ومنهم : ٧٨ ـ أبو بكر الطمستاني

قال جماعة : ولعله الطَمِنْسي ؛ نسبة إلى « طَمِنْس » : قرية من قرىٰ « مَارِيْدَان » فاشتبه على الكاتب!

رتبته : **صحب إبراهيم الدباغ ، وغيرُه ، وكان أوحدَ وقته ؛ علماً ، وحالاً** .

وفاته : **مات بنيسابور بعد سنة أربعين وثلاث مئة** .

من حكمه : **١ـ النعمة العظمى** : **قال أبو بكر الطَمِسْتَاني** : **النّعمة العظمىٰ** ؛

(١) ما تهوىٰ : ما تميل إليه من شهوات النفس ، ما تأمل : ما ترجوه مما وعد به سيد الكائنات ، وذلك إنّما يكون بدوام المجاهدة في العبادة مع إخلاصها ؛ فيثمر قوَّة اليقين حتىٰ يصير الوعد كنصب العين (عروسي : ٢/٨) .

الخروجُ : البعدُ **من النفس** ، وهي عندهم الأخلاق الذميمة والشهوات الرديئة ؛ كما مرَّ **والنفسُ أعظمُ حجاب بينك وبين الله** ، فما دام العبد واقفاً مع شهواته محجوباً بمستحسناته ؛ فهو بعيد من الخيرات .

٢ـ **همُّ القلب** : **سمعتُ أبا عبد الله الشِّيرازيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ منصور بن عبد الله الأصبهاني ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الطمستاني ؛ يقول : إذا هَمَّ** : عزم **القلب**[1] على ما لا يرضي الله **عوقب في الوقت** ، فإنَّه إذا تفطَّن لذلك من عَلَتْ رتبته وجد أثر ذلك في قلبه ؛ من الوحشة وعدم الحضور وتاب منه .

مؤاخذة العزم : وفيه دلالة على أنَّ العبد يؤاخذ بعزمه على الأفعال ؛ وإن لم يفعلها ! خلافاً لمن زعم أنَّه لا يؤاخَذ به حتَّىٰ يفعلها . والمراد العزم المصمم .

٣ـ **الصادق المصيب** : **وقال** الطَمِسْتَاني : **الطريقُ واضحٌ** ، **والكتابُ والسنَّة** : الدليلُ عليه منهما **قائمٌ بين أظهرنا** : بيننا ، **وفضل الصحابة** على غيرهم **معلوم** ؛ وإن بالغ غيرهم في الاجتهاد ! **لسبقهم إلى الهجرة** والجهادِ مع النَّبيِّ ﷺ ، **ولصحبتهم** له ، وأما نحن **فمن صحب منَّا الكتاب والسنة** : عمل بما فيها ؛ **وتغرَّب** : **بَعُدَ عن نفسه** ، وعن **الخلق** ، **وهاجر بقلبه إلى الله تعالى** ؛ **فهو الصادق المصيب** دون غيره .

* * *

ومنهم : ٧٩ـ أبو العبَّاس أحمدُ بن محمَّد الدَّيْنَوَري

رتبته : **صحب يوسف بن الحسين ؛ وابن عطاء ؛ والجُرَيريَّ . وكان عالماً فاضلاً .**

حياته ووفاته : **ورد نَيسابور ، وأقامَ بها مدَّة ، وكان يعظُ الناس بها ، ويتكلَّم على**

---

(١) **أقول** : الذي يظهر من كلامهم وتشديداتهم حمل الهمِّ علىٰ مجرَّد الخاطر القلبي ؛ وإن لم يصل إلىٰ درجة العزم ، ويكون من قبيل (حسنات الأبرار سيئآت المقربين) غير أن الشارح نفعنا الله به مشَّاه علىٰ ما هو المنقول في أحكام الفروع وهو الأليق بالرفق (عروسي : ٢/ ٩) .

لسان المعرفة ، ثمَّ ذهب إلى «سمرقند» ؛ ومات بها : بعد الأربعين وثلاث مئة .

مراحل الذكر : قال أبو العبَّاس الدَّيْنَوَري : أدنىٰ الذكر أن تنسىٰ ما دونه : غيرَه ، ويعبَّرُ عنه بـ(الفناء) ، ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر في حالة الذكر عن الذكر . ويعبَّر عنه بـ(فناء الفناء) ، فإذا لم يبقَ في قلب العبد حالةَ ذكره لله شيءٌ من المخلوقات غير ذكره له فقد فني عن غير الله ، وإن كان مدركاً لفنائه ونفسه ، فإن قوي اشتغالُه بالله حتَّى غاب في ذكره عن شعوره بذكره ونفسه ؛ فقد فني عن فنائه ونفسه أيضاً ، ولم يبقَ عنده إلا الله ! فجعل رضي الله عنه أوَّل المقامات فناء العبد عن غيره من المخلوقات ، وأعلاها فناءه عن نفسه أيضاً ؛ شغلاً بمذكوره . وسيأتي ذلك في محلِّه[1] .

الظاهر والباطن : وقال أبو العبَّاس الدينوري : لسان الظاهر ؛ وهو الدليل الشرعي المثبت للأحكام الخمسة لا يغيِّر : لا ينافي حكمَ الباطن[2] الصحيح ؛ وهو ما وقع في القلب من مواهب الله تعالى وخوارق العادات ، بل يعضُدُه ويشهد بصحَّته .

تعقيب : وفيه ردٌّ على من يزعم أنَّ العبد يصل إلى حالة لا يمكنه مخالفةُ ما يقع له ؛ لكونه عن ربِّه صحيحاً حقَّاً ، لأنَّ مَن لم يزن ما يقع له بميزان الشرع . . بل يزعم أنه تلقَّاه عن ربِّه ؛ فقد كذب وأخطأ ، وليس بمحفوظ ! لأنَّ أحكامه تعالىٰ إنَّما يتلقَّاها عنه الأنبياء وغيرهم ، إنَّما يعرف صحَّة ما وقع له بشهادة الأدلَّة الشرعية ، ويكون ذلك دليلاً على حفظ الله له ؛ كما قال في خبر : « كُنْتُ سَمْعَهُ ٱلَّذِي يَسْمَعُ بِهِ »[3] .

---

(١) انظر مبحث الفناء والبقاء ص ٢٨٢ .

(٢) محصَّلُه أن الوصول إلىٰ الحقيقة . . لما لم يكن له طريق غير المتابعة لزم أن لا تنشأ عنه في حقيقة الطريقة إلا ما يشهد له ذلك الظاهر بالموافقة والصحة . والله أعلم .
وأيضاً فإن الشريعة والحقيقة واحدة ، إنما الاختلاف في التعبير ، فلا شريعة إلا بحقيقة ، ولا حقيقة إلا بشريعة كما يدلُّ علىٰ ذلك قصة موسىٰ والخضر عليهما السلام (عروسي : ٢/ ١٠) .

(٣) تقدم تخريجه ص ٣٦ .

أدعياء التصوُّف : وقال أبو العبَّاس الدَّيْنَوَريُّ في حقِّ المتشبِّهين بالصوفية وليسوا منهم : **نقضوا أركان التصوف** ؛ **وهدموا سبيلها** : طريقَها ، **وغيَّروا معانيَها بأساميَ أحدثوها** ؛ بأن أخذوا الأساميَ الدَّالَّة على الأخلاق الحميدة فوضعوها للأخلاق الذميمة ؛ ليظنَّ الجاهل أنهم متَّصفون بمعانيها الأصلية ؛ وليس كذلك !!

١ـ **طمعهم** : فالمراد بإحداثهم الأسماء إحداثُهم معانيَها . . حيث **سمَّوا الطمع** زيادة ؛ وهي تعلُّق أنفسهم بالمحبوبات وتشوُّقها لما بأيدي غيرهم ! **والزيادة المحمودة** إنَّما هي التعلُّق بالله وزوال الغفلة عنه .

وفي نسخة : ريادة ـ بالراء ـ وهي أن يمضي أحدهم لأخيه المرتفع عليه في دنياه لينال منه ما يهواه منها ويتعلَّل بالزيارة !

٢ـ **إخلاصهم** : وسمَّوْا **سوءَ الأدب إخلاصاً** ؛ بأن يتكلَّم أحدُهم بين يدي ذوي الفضل بما يقبُح النطق به ؛ ويتعلَّل بأنَّه مخلص لا يُخفي خلافَ ما يُظهر !

والإخلاص المحمود إنَّما هو إفراد الله بالقلب ، وعدمُ الرِّياء في الطاعات !

٣ـ **شطحهم** : وسمَّوْا **الخروجَ عن الحق شَطْحا** ، بأن يجريَ على ألسنتهم كلماتٌ لا تشهد لها الشريعة بالصحَّة ! **والشطح المحمودُ** إنَّما هو ما يجري على ألسنتهم وقتَ غلبة الأحوال عليهم !! والحفظ عن ذلك أكملُ .

٤ـ **طيبهم** : وسَمَّوْا **التلذُّذ بالمذموم طيبة** ؛ بأن يتحدَّث بما جرىٰ له في صبوته متلذِّذاً بذلك مع أقرانه . . من أهل غفلته ! **والطيبة المحمودة** ذكرُ كرامات الأولياء !

حكايات الأولياء : وقد قيل للجُنَيد : ما فائدة هذه الحكايات التي يتداولها المريدون بينهم ؟ فقال : يقوِّي الله بها قلوبهم . فقيل له : فما الدليل عليه من كتاب الله ؟ قال : قوله تعالىٰ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[1] .

---

(١) الآية : ١٢٠ ، من السورة التي ذكر فيها : هود عليه السلام .

٥ـ **ابتلاؤهم** : وسمَّوْا **اتباع الهوىٰ** من حبِّ الشهوة . . كحبِّ امرأة ونحوها **ابتلاء** ، حتىٰ إذا عُوتب فيه ؛ فيقول (أنا مبتلىٰ) ! **والابتلاءُ المحمود** إنَّما هو ما يصيب اللهُ به العبد ممَّا يحصل به الثواب مع الصبر كالفقر والمرض .

٦ـ **وصولهم** : وسَمَّوْا **الرجوعَ إلى الدنيا وصولاً** ؛ بأن يوصل الناس من اشتهر بالخير والزهد بما في أيديهم من الأموال ! **والوصول المحمود** إنَّما هو انقطاعُ قلب العبد عن الخلق ؛ شغلاً بربِّه فضلاً عما في أيديهم !

٧ـ **صولتهم** : وسَمَّوْا **سوء الخلق** ؛ بأن يتنمَّر العبد ويتغيَّر على من خالفه في غرضه ؛ أو عاتبه في غيَّته **صولة** !

والصولة المحمودة إنَّما هي تغيير المنكر والإعراض عما لا يرضي الله تعالى !

٨ـ **جلادتهم** : وسَمَّوْا **البخل** ؛ بأن يشحَّ العبد على السائل بما طلبه منه **جلادة** ؛ من حيث لا ينخدع بسؤال سائل ! **والجلادة المحمودة** إنَّما هي صبر العبد على مشاقِّ الأعمال ، وما ينزل به من ربِّه ، فيتحمَّل ذلك ولا يتضجَّر !

٩ـ **عملهم** : وسَمَّوْا **السؤال** ؛ بأن يدور العبد في الأسواق بزِنْبيل أو نحوه . . يسأل الناس ليكسر به نفسه **عملاً** ؛ وهو مذموم ، إذ لا يليق بمن ترك الدنيا زهداً أن يتعاطىٰ ما ذمَّتْه الشريعة من السؤال من غير حاجة تبيحُه ! .

والأَخبار الدَّالَّة على ذمِّ السؤال كثيرةٌ ، كخبر : « إِنَّ ٱلْمَسْأَلَةَ فِيْ وَجْهِ صَاحِبِهَا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كُدُوحٌ ؛ أَوْ خُمُوشٌ »[1] .

والعمل الممدوح إنَّما هو فعل المأمورات وترك المنهيات .

١٠ـ **ملامتهم** : وسَمَّوْا **بذاءة اللسان** ؛ وهي أن يذكر العبد عيوب أخيه **ملامة** ؛ بأن يتعلَّل بكونه يلومه ليرجع عن نقائصه ! **والملامة المحمودة** أن يذكر له ما فيه

---

(١) أخرجه الدارمي : ١/٣٨٦ ، وأبو داود : ١٦٢٦ ، والترمذي : ٦٥٠ وحسَّنه ، والنسائي : ١٨٤٠ ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه .
والكُدُوح : آثار الخَدْش والعض . والخُمُوش : الخدوش .

على وجه النَّصيحة خُفية ؛ أو بحضرة مَن يعرف ذلك ليساعده على رجوعه عما هو عليه !! لأنَّه قصد بذلك النصيحة ؛ ولم يكشف عنه ما هو مستور .

وما : وليس **هذا** : ما ذُكر من المذمومات **كان طريق القوم** !!. فليحترز عنه العبدُ ويتبع ما ذكر من المحبوبات .

قد مِتُّ : وتكلم أبو العبَّاس يوماً فصاحت عجوز في المجلس صيحةً ! فقال لها : موتي . فقامت وخطت خَطَوات ؛ ثم ٱلتفتت إليه ؛ وقالت : قد مِتُّ . ووقعت ميتة .

* * *

ومنهم : ٨٠ـ أبو عثمان سعيد بن سلام المغربيُّ القيرواني البغدادي ؛ ثمَّ النَّيْسابوريُّ

رتبته : **واحد عصره** في الورع والزهد ، والصبرِ على العزلة ؛ **لم يوصف** بذلك **مثله قبله** إلا قليل .

صحبته : **صحب ابن الكاتب ، وحبيباً المغربيَّ ، وأبا عَمْرو الزُّجَاجي ، ولقي النَّهْرَجُوري ، وابنَ الصائغ وغيرهم** . وجاور بمكَّة سنين .

وفاته : **مات** بنَيْسابور **سنة** : **ثلاث وسبعين وثلاث مئة** .

وصيته : **وأوصىٰ بأن يصلِّيَ عليه الإمام أبو بكر ابن فُوْرَك رحمه الله تعالىٰ** . ودفن بجانب أبي عثمان الحِيْري .

سماع العبد : **سمعتُ الأستاذ أبا بكر ابن فُوْرَك رحمه الله ؛ يقول** : **كنتُ عند أبي عثمان المغربي حين قرُب أجله ، وعليٌّ القوَّالُ الصغيرُ يقول** : ينشد شيئاً من كلام القوم ، **فلما تغيَّر عليه الحالُ** ؛ من شدَّة ألمه ونزعِ روحه وغمض

عينيه . . أشرنا علىٰ عليٍّ المذكور بالسكوت ، فسكت . ففتح الشيخُ أبو عثمان عينيه ، وقال : لم لا يقول عليٌّ المذكور شيئاً !؟ فقلت لبعض الحاضرين : سَلُوه ، وقولوا له : علامَ يسمع المستمع ؟: على أيِّ وجه يسمع العبد من الوجوه الفاضلة[1] ! فإنِّي أحتَشِمُه وأستحي منه أن أسأله في تلك الحالة التي اشتدَّ عليه فيها ألمه . فسألوه عن ذلك ؛ فقال لهم : إنَّما يسمع المستمع من حيث يَسمع : من حيث يُسْمِعُه الله تعالىٰ ، لاختلاف مقامات الناس ومعرفتهم بالله ومحبَّتهم له ؛ فقد يسمع العبد من الخوف ، وقد يسمع من الرجاء ، وقد يسمع من المحبَّة ! وكلٌّ منهم على درجات .

إيضاح : وفيما نُقِلَ عنه ما يدلُّ على كمال شغله بحاله ؛ ومراعاته لقلبه ؛ وعدم التفائه لما هو فيه من ألم موته ، فإنَّه إنَّما غمَّض عينيه لشدَّة ما هو فيه ؛ حتى توهَّم الحاضرون موته ؛ فأمروا القوَّال بالسكوت !

رياضته : وكان أبو عثمان في الرياضة كبيرَ الشأن . وكمالُها يكون بكمال التقوىٰ ، فإنَّ المُتَّقِي يروض نفسه حتَّى تستأنس بالله تعالى .

من كلامه : ١ـ التقوى : وقال أبو عثمان : التقوىٰ هو الوقوف مع الحدود التي شرعها الله تعالىٰ لا يقصر فيها ، ولا يتعدَّاها ! بل يأتي بها على وجهها .

٢ـ صحبة الأغنياء : وقال : مَن آثر صحبةَ الأغنياء على مجالسة الفقراء . . ابتلاه الله بموت القلب[2] . لأنَّه لا يُؤْثِر صحبة الأغنياء إلاَّ لمحبَّته للدنيا ؛ وهي تَشغل القلب عن الآخرة ، وتُغفله عنها .

وعبَّر عن هذا بموت القلب ! لأنَّ حياته إنَّما هي حركتُه واشتغاله بما خلق

---

(١) فالسماع له وجوه فاضلة يعدُّ بها من الاشتغال بأمر الدين ؛ مع أنَّه تقدَّم عن بعضهم أنَّه نوع من البطالة ينافي الجدَّ والاجتهاد في العبادة !! فلعلَّه بحسب اختلاف الواردات علىٰ القلوب !! والله أعلم (عروسي : ٢/ ١٣) .

(٢) لأنه إنّما ينشأُ له ذلك من اغتيال النفس بشهواتها الدنيوية ؛ وترك ما خلقت له من العبادة ، ومحصَّلُه أنَّ الميل للأغنياء من حيث غناهم مذموم ، أمَّا من جهة علمهم ؛ أو صلاحهم ؛ أو كرمهم . . فلا بأس به (عروسي : ١/ ١٣) .

له ، فلمَّا لم يعمل به أشبه المَيْت ! وقد قال تعالىٰ في حقِّ الغافلين ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾[1] .

٣ـ نصحه : ومن كلامه : مَن اشتغل بأحوال الناس ضيَّع حاله ، ومن مدَّ يده إلى طعام الأغنياء بِشَرَهٍ وَشَهْوَة لا يفلح أبداً .

* * *

ومنهم : ٨١ـ أبو القاسم إبراهيم بن محمد النَّصْرَاباذي ؛ نسبة إلى « نَصْرَاباذ » : محلة من محالِّ « نَيْسابور »

رتبته : شيخ « خراسان » في وقته ، صحب الشبليَّ ، وأبا عليٍّ الرُّوْذَباري ، والمرتعش .

وفاته : جاور بمكَّة سنة : ست وستين وثلاث مئة . ومات بها سنة : تسع وستين وثلاث مئة .

علمه : وكان عالماً بالحديث ، كثيرَ الرواية[2] .

قال السُّلَمي : لما همَّ بالحجِّ صَحِبتُه ، فكان كلَّ منزلة ؛ أو بلدة يقصد سماع الحديث فيها ، فلمَّا دخل بغداد جاء إلى القطيعي فردَّ على قارئه مرة ؛ ثمَّ أخرى ! فقال له : إن كنتَ تُحسِن القراءة فتقدَّم واقرأ . فأخذ الجزء منه وقرأ قراءة تحيَّر منها القوم ، ثمَّ قرأ في مجلس واحد ما كان يريد أن يقرأ في خمسة أيام .

---

(١) الآية : ٢١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .

(٢) أخذ الحديث عن ابن أبي حاتم ، والطحاويِّ ، وغيرهما . وعنه الحاكم وغيره .
(عروسي : ١/ ١٤ ؛ عن المناوي) .

بوادي الحق : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت النَّصْرَاباذي ؛ يقول : **إذا بدا لك شيء من بوادي**[1] **الحقِّ فلا تلتفت معها إلى جنة ؛ ولا إلى نار ، فإذا رجعت عن تلك الحال ؛ فَعظِّم ما عَظَّمه الله** : ينبغي للعبد إذا فتح الله عليه باباً . . لاحظ فيه كمال مولاه ؛ وكمالَ صفاته ؛ واشتغل به . . أن لا يلتفت في وقت شغله به إلى غيره ؛ لئلاَّ يتكدَّر عليه حالُه ، فإذا رجع إلى إدراك نفسه وغيرِه من الخلق وخفَّ ما به . . فليعظِّم ما عظَّمه الله من نَبيٍّ ومَلَك ووليٍّ وغيرهم ، ليقوم بما وجب عليه له ، فإنَّه تعالىٰ عظَّم الجنَّة والنار وكرَّرهما في كتابه ؛ لتحصيل الخوف والرجاء منه ، فمن عرف أنَّ غير الله لا يضرُّ ولا ينفع ؛ ولا يعطي ولا يمنع . . فلا يحمله ذلك على الإعراض عما سواه ممَّن أمر الله بتعظيمه ، وممَّا خوف منه كالنار .

الأمر والنهي : وسمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : قيل للنَّصْرَاباذي : **إنَّ بعض الناس يجالس النسوان ؛ ويقول : أنا معصوم في رؤيتهنَّ ؟! فقال : ما دامت الأشباح** : الأشخاص **باقيةً في الدنيا ؛ فإنَّ الأمر والنهي باقٍ كلٌّ منهما** ، **والتحليل والتحريم مخاطَب به** : بكلٍّ منهما ، **ولن يجترىءَ علىٰ الشبهات إلاَّ من تعرَّض للمحرَّمات** .

وفي نسخة : إلاَّ مَن هو يتعرَّض للمحرَّمات : عرضةٌ لها . لأنَّ العبد وإن كان محفوظاً في وقت . . فهو منهيٌّ عن التعرُّض للشبهات ، فمن استبرأَهَا سَلِم ؛ ومن تعرَّض لها تعرَّض للهلاك ، ففي الخبر الصحيح : « اَلحَلاَلُ بَيِّنٌ وَٱلحَرَامُ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ ، فَمَنْ ٱتَّقَىٰ ٱلشُّبُهَاتِ فَقَدْ ٱسْتَبَرَأَ لِدِيْنِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي ٱلشُّبُهَاتِ فَقَدْ حَامَ حَوْلَ ٱلحِمَىٰ ، وَمَنْ حَامَ حَوْلَ ٱلحِمَىٰ . . يُوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيْهِ »[2] .

---

(١) جمع بادية ؛ وهي ما يفجأُ قلب العبد من الغيب ؛ فتوجب له بسطاً ؛ أو قبضاً . ومحلُّ تلك البادية إنَّما هو القلب الذي هو بيت الحكمة ، والبيت المحرَّم لكونه حرم علىٰ غير الحقِّ فافهم (عروسي : ١/ ١٤) .

(٢) تقدم تخريجه ص ١٣٤ .

من حكمه : أصل التصوُّف : وسمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : قال النَّصْرَاباذي :

أـ أصلِ الطاعات : أصلُ التَّصوُّف :

١ـ ملازمةُ الكتاب والسنة ، لأنَّهما أصلٌ في كلِّ طاعة .

ب ـ نجاة الأسواء :

و٢ـ تركُ الأهواء والبدع[1] ، لأنَّه نجاةٌ من كلِّ سوء .

ج ـ المشايخ المعظمون :

و٣ـ تعظيمُ حرمات المشايخ الذين كَمُل لهم العلم والعمل ، وأعرضوا عن المشغلات من المباحات ؛ فضلاً عن غيرها ؛ لأنَّه ينبغي تعظيم مَن عظَّمه الله تعالىٰ كما مرَّ .

د ـ كمال المعرفة :

و٤ـ رؤيةُ أعذار الخلق : قبولُها منهم ، لدلالتها على كمال المعرفة بانفراد الحقِّ بالأفعال[2] ، وعلى خروج غيره عن القدرة على إحداث شيء ، فإذا عَلِم العبدُ ذلك عَذَر الخلق فيما يقصِّرون فيه ، لعلمه بعجزهم عما يُصلِحُهُم ويدفع عنهم ما يؤذيهم .

الصراط المستقيم : ومع هذا يقيم عليهم الحدود ، وينكر عليهم ما لا ينبغي فعلُه ؛ امتثالاً لأمر الله تعالىٰ ، وهذا هو الصراط المستقيم الذي هو أدقُّ من الشعر وأحدُّ من السيف . . **إثبات الكسب للعبد وتبرِّيه من الأفعال** .

---

(١) إنما نصَّ عليهما ؛ مع دخولهما فيما قبلهما !! للاهتمام ، لكونهما أصل المفاسد الدينية (عروسي : ٢/ ١٥) .

(٢) ولذلك قيل (من نظر إلىٰ الخلق بعين نفسه مقتهم ، ومن نظر إليه بعين الحقِّ عَذَرهم ، لكونهم محلاًّ لتصريف القدرة العلية ! و﴿ لا يسأل عمّا يفعل ﴾ (عروسي : ٢/ ١٥) .

هـ ـ باب القُرب :

و٥ـ المداومة على الأوراد[1] التي رتَّبها في عبادة ربِّه ، لأنَّها أصل عظيم في توالي الألطاف وحياة القلوب ، كما قال تعالىٰ علىٰ لسان نبيِّه : «﴿ وَلاَ يَـزَالُ عَبْـدِي يَتَقَـرَّبُ إِلَـيَّ بِـالنَّـوَافِـلِ حَتَّـىٰ أُحِبَّـهُ ، فَـإِذَا أَحْبَبْتُهُ . . . ﴾» . الحديث .

و ـ فعل العزائم :

و٦ـ ترك ارتكاب الرُّخص ؛ من الميل إلى الراحات ، والتنعُّم بأنواع الملذوذات .

ز ـ هجر التأويل :

و٧ـ ترك ارتكاب **التأويلات** في هذه الأمور ؛ بأن يتأوَّل العبد في نفسه أنَّه لا إثم عليه في فعلها ؛ ولا في تركها ، ويغفل عن كونها مرغباً فيها ؛ أو في تركها لنيل الدرجات العليَّة ، وكمالِ القرب من خالق البريَّة .

* * *

ومنهم : ٨٢ـ أبو الحسن عليُّ بن إبراهيم الحُصْري ؛ نسبة إلى عمل الحُصْر وبيعِها البَصري

لمحة : سكن بغداد ، عجيب الحال واللسان ، شيخ وقته ؛ ينتمي : ينتسب صحبةً إلى الشِّبلي .

وفاته : مات ببغداد سنة : إحدى وسبعين وثلاث مئة .

---

(١) الواجب منها والمندوب ، وإن أفهم الشارح تخصيصه بالمندوب لغرض إيراد الحديث القدسي الذي ذكره . (عروسي) .
قلت : الواجب منها لا يحتاج إلىٰ ذكر في أصول التصوف ، لأنَّه من أصول الإسلام !! فلذا أشار إلى المندوب .

عبادته : قال الحُصْري : الناسُ يقولون (الحصري لا يقولُ بالنوافل) : لا يعتني بها ؛ وعليَّ أوراد منها : رتَّبتُها عليَّ من حال الشباب لو تركتُ منهاركعةً . . لعوتبت ! !

فيه دلالة على كمال اجتهاده وتحسُّسه لزيادته ونقصه ، إذ لا يدرك العتاب من الحقِّ عند التقصير إلاَّ خواصُّ الخلق ، كما قال بعضهم : إنِّي لأَعصي الله تعالىٰ فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي .

من حكمه : وقال الحُصْري :مَن ادَّعىٰ بشيءٍ في شيء من الحقيقة : نيل شيء منها ؛ ولم يَظهر عليه دلائل صدقِه . . كَذَّبته شواهدُ كشفِ البراهين فيما ادَّعاه ؛ فمن ادَّعىٰ الزهد في الدنيا مثلاً . . وكان ظاهره مشغولاً بالتنعُّم والتلذُّذ بالمطعومات والملبوسات ودائمَ الكسل والراحات ، واستمرارِ الحرص على إقامة الجاه ونفوذ الكلمات . . كذَّبته شواهدُ حاله فيما اَدَّعاه .

* * *

ومنهم : ٨٣ـ أبو عبد الله أحمدُ بن عطاء الرُّوْذَباري (ابن أخت الشيخ أبيَ عليٍّ الرُّوذَباري)

مقامه : شيخ الشام في وقته .

وفاته : مات بـ« صور » سنة : تسع وستين وثلاث مئة .

ذكر الدابَّة : سمعت محمَّد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت عليَّ بن سعيد المصيصي ؛ يقول : سمعت أحمدَ بن عطاء الرُّوذَباريَّ ؛ يقول : كنتُ راكباً جملاً ، فغاصت رِجلا الجَمَل في الرمل ؛ فقلت : جلَّ الله ! فقال الجمل : جَلَّ الله ! !

توضيح : هذا أمر خارق للعادة وهو كلام الجمل بلسان عربي ، أو فهم الشيخ لكلام الجمل بلغتِه ؛ فأخبر عما فهمه ، قال تعالىٰ ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا

نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[١] ، وقال في قصّة السيِّد سليمانَ عليه السلام مع النملة ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾[٢] !؟ ففهم سليمان كلامها ؛ وسأل الله أن يرزقه شكرَ ما أنعم به عليه .

دعوة الصوفية : وكان أبو عبد الله الرُّوذَباري إذا دعا أصحابه ؛ بأن دُعي هو ليدعوَهم معه إلى دُعوة : طعام في دور السُّوقة ـ خلاف الملك ؛ قاله الجوهريُّ ـ ومَن ليس من أهل التصوُّف ـ هو من عطف الخاصّ على العامّ ـ لا يخبر الفقراء بذلك ، وكان يُطعِمُهم شيئاً ، فإذا فرغوا من أكلهم أخبرَهم بذلك ؛ ومضىٰ بهم ، فكانوا قد أكلوا في الوقت الذي دُعوا فيه ؛ فلا[٣] يمكنهم أن يمدُّوا أيديهم إلى طعام الدعوة إلاَّ بالتعزُّز : التقلُّل ، يقال (عزَّ الشيء) . . قلَّ .

تعليل : وإنَّما كان يفعل ذلك بهم !! لئلا تسوءَ ظُنون عوامِّ الناس الذين لا يعرفون من العبادة إلاَّ الإعراض عن الطعام وقلَّة المنام . . بهذه الطائفة الصوفية من حيث إنَّهم يستنقصونهم بسبب رغبتهم في الأكل إذا كانوا على جوع ؛ فيأثمون بسببهم[٤] .

وحُكي مثل ذلك عن أبي مدين شعيب[٥] .

أما غير عوامِّهم . . فلا يستنقص هؤلاء بكثرة أكلهم ، بل ينشرح ويُسرُّ بها ، لعلمه بما أدخله عليهم من الراحات ، وبكونهم استصلحوا طعامه .

يتجسس ليتحسس : وقيل : كان أبو عبد الله الرُّوذَباري يمشي علىٰ أثر الفقراء يوماً ؛

---

(١) الآية : ٤٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

(٢) الآية : ١٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النمل .

(٣) في (ح) : ولا .

(٤) يؤخذ منه وجوب التحرُّز عن التعرُّض إلىٰ موجبات الوقيعة في الأعراض (عروسي : ٢/ ١٧) قلت وشاهده : رحم الله . . .

(٥) وسمعت عن شيخنا العلامة الشرقاوي مثل ذلك مع طائفة من العلماء . فالله تعالىٰ ينفعنا بمقاصد أحبابه (عروسي) .
قلت : وكان مثلُ ذلك لشيخنا العلامة الشيخ محمد صالح الفرفور تغمده الله بفيض رحمته .

وكذا كانت عادته أن يمشيَ على أَثْرهم : يتأخَّرُهم ، فلا يكون مقدَّما متبوعاً ، تواضعاً ، ولأنَّه إذا تأخَّرَهم لاحظهم بنظره ، واستشعروا منه ذلك ؛ فيلزمون الأدب بين يديه ، وكانوا يمضون : مضوا معه مرة إلى دعوة ؛ فقال إنسان بَقَّال . . يبيع البقل في حانوته : هؤلاء هم المستَحِلُّون لأموال الناس ! وَبَسَط لسانَه بالحطِّ عليهم .

وقال في أثناء كلامه : إنَّ واحداً منهم قد استقرضَ مني مئة درهم ؛ ولم يَرُدَّها عليَّ ؛ ولست[1] أدري أينَ أطلبُه ؟!

فلما دخلوا دارَ الدعوة ؛ قال أبو عبد الله الرُّوْذَباري لصاحب الدار ـ وكان من محبِّي هذه الطائفة ـ اِئتني بمئة درهم ؛ إن أردت سكونَ قلبي . وكان يعلم منه سروره بذلك ! فأتاه بها في الوقت ؛ فقال لبعض أصحابه : اِحمل هذه المئة إلى البقَّال الفلانيِّ ، وقل له : هذه المئة التي استقرَضَها منك بعض أصحابنا ، وقد وقع له في التأخير بها عذرٌ ، وقد بعثها الآن . . فأقبل عذره . .

فمضىٰ الرجل ؛ وفعل ما أمره به ، فلما رجعوا من الدعوة اجتازوا بحانوت البقَّال ؛ فأخذ البقَّال في مدحهم يقول : ـ وفي نسخة : وقال ـ هؤلاء همُ السادة الثِّقاةُ الأمناء الصلحاء ! وما أشبه ذلك من أوصافهم الحميدة ! قصد الشيخ بذلك لَمَّا لم يحتمل سماع ذمِّ البقَّال لهذه الطائفة أن يحفظ قلب البقَّال ، ويصون عرض هذه الطائفة ، وفيه طلب حفظ قلوب المسلمين من إساءة الظنِّ[2] .

أقبح القبيح : وقال أبو عبد الله الرُّوذَباري : أقبحُ من كلِّ قبيح صوفيٌّ شحيح .

إذ أوَّل درجات التصوُّف الإعراض عن الدُّنيا . . حلالها وحرامها ؛ ليندفع

---

(١) في (ح) : يردَّها مني ؛ ولا أدري . . .

(٢) فيه دلالة علىٰ ذلك لأنه يجب لأجل عدم التعرُّض للوقيعة في الغير ؛ صونا للدين (عروسي : ٢/ ١٨) .

قلت : فيه ترغيب أكيد بقوله ﷺ فيما أخرجه أحمد : ٦/ ٤٤٩ ، والترمذي : ١٩٣٢ ؛ عن أبي الدرداء : « مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيْهِ . . رَدَّ ٱللهُ عَنْ وَجْهِهِ ٱلنَّارَ يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ » . وفي رواية البيهقي : ٨/ ١٦٨ : « . . كانَ لَهُ حِجاباً مِن ٱلنَّارِ » .

عنه بذلك سائر الأخلاق الذميمة التي من جملتها الشُّحُّ ! ويتفرَّغ للتخلُّق بالأخلاق الحميدة ؛ من التوكُّل والرِّضا والتسليم والمراقبة والمحبَّة والأُنس ونحوها .

فمن تخلَّىٰ عن الصفات الذميمة بالصفات الحميدة سُمِّيَ صوفيّاً ، فإذا أخلَّ بأوّل الدرجات كان أقبح القبيح من الصفات ، لأنَّه شحَّ على نفسه وعلى غيره بالمال ؛ لكمال محبَّته له وحرصه عليه .

* * *

خاتمة باب التراجم

قال أبو القاسم الأستاذُ الإمام [جمال الإسلام][م] ؛ رضي الله عنه : ـ وفي نسخة : قال الأستاذ الإمام أبو القاسم عبدُ الكريم القشيريُّ رحمة الله عليه ـ: **هذا** : ما مرَّ في هذا الباب هو ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة ؛ وعدَّتهم ثلاثة وثمانون .

الغَرَض من ذكرهم هٰهنا : وكان الغرضُ من ـ وفي نسخة : في ـ **ذِكرهم في هذا الموضع التنبيهُ علىٰ أنَّهم مجمعون على تعظيم الشريعة ؛ متَّصفون بسلوك طرق الرياضة ، مقيمون على متابعة السنة ؛ غيرُ مخلِّين بشيءٍ من آداب الديانة ؛ متَّفقون علىٰ أنَّ من خلا من المعاملات والمجاهدات مع الله تعالىٰ . . ولم يَبْنِ أمرَه على أساس الورع والتقوىٰ ؛ كان مفترياً** : مختلِقاً **على الله سبحانه وتعالىٰ فيما يدَّعيه ؛ مفتوناً** : مصاباً بالفتن ؛ من ذهاب عقل ومال وغيرهما . . **هلك في نفسه ؛ وأهلك مَن اغترَّ به ممَّن رَكَن إلى أباطيله** .

ولو تقصَّينا وتتبَّعنا ما ورد عنهم ؛ من ألفاظهم وحكاياتهم ، ووصف سِيرَهم ممَّا يدلُّ على أحوالهم . . لطال به الكتاب وحصل منه المَلاَل .

وفي هذا القدر الذي لَوَّحنا به في تحصيل المقصود غُنية عمّا عداه ؛ وهو

خلق قدرة الطاعة في العبد ؛ عكس الخذلان وبالله التوفيق .

فأما المشايخ الذين أدركناهم[1] : لقيناهم والذين عاصرناهم ؛ وإن لم يتَّفق لنا لُقيَاهم مثل الأستاذ الشهيد ؛ لسان وقته ، وأوحد عصره أبي عليٍّ الحسن بن عليٍّ الدَّقَّاق[2] ، والشيخ نسيجُ وحده : الذي لا نظير له في علم ؛ ولا في غيره في وقته أبي عبد الرحمان السُّلَمي ، وأبي الحسن عليّ بن جهضم[3] (مجاور الحرم الشريف المكي)، والشيخ أبي العبَّاس القصَّاب[4] بطُبْرُستان . وأحمد الأسود بالدَّيْنَوَر ؛ وأبي القاسم الصَّيرفيُّ بنيسابور ، وأبي سهل الخشَّاب الكبير بها : نيسابور ، ومنصور بن خلف المغربي ، وأبي سعيد الماليني ، وأبي طاهر الخوزندي ، ـ وفي نسخة : الخزندي ـ قدس : طهَّر الله أرواحهم ، لو أخَّر هذا عن قوله (وغيرهم)!! كان أولىٰ . فلو اشتغلنا بذكرهم وتفصيل أحوالهم ؛ لخرجنا عن المقصود في الإيجاز . ولحصلت السآمة ، ومع ذلك غير ملتبس على أحد من أحوالهم حسنُ سيرتهم في معاملاتهم مع الله تعالىٰ ، بل هو ظاهر لكلِّ أحد .

وسنورد من حكاياتهم طَرَفاً في مواضعَ من هذه الرسالة [في الأجزاء التالية][م] إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

---

(١) لما أنهىٰ الكلام علىٰ ذكر ما تيسَّر له من المشايخ للغرض الذي أفصح عنه . . أراد أيضاً الاعتذار عن عدم استيعابهم بخوف الخروج عن المقصود له من الإيجاز وخوف الملل من الغير ، مع أنَّ مَن تركه أشهر من أن يذكر ؛ وأبعدُ مَن أن ينكر ، علىٰ أنه سيأتي له النقل من حكاياتهم ما يغني عن ذكرهم كغيرهم (عروسي : ٢/١٨) .

(٢) هو عمه (والد زوجته) وأول شيوخه بنيسابور انظر من ترجمته ص ١٨ ، ٢٠ .

(٣) انظر ترجمته ص ٨٦٦ عند الكلام عن كتابه « بهجة الأسرار » .

(٤) في م : القصار .

باب
في تفسير ألفاظ تدور بين هذه الطائفة
وبيان ما يشكل منها على غيرهم

الغاية منها : اعلم ؛ أنَّ من المعلوم أنَّ كلَّ طائفة من العلماء لهم ألفاظ ؛ يستعملونها فيما بينهم انفردوا بها عمن سواهم ؛ حيث تواطأوا : توافقوا عليها لأغراض لهم فيها ؛ من تقريب للفهم على المخاطبين بها ، أو تسهيل ـ الأَوْلىٰ : وتسهيل . . ليكون عطفَ تفسير ـ على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم مقاصدهم بإطلاقها . . كأهل أصول الدين ؛ حيث اصطلحوا على إطلاق العالَم والحيز والوقت والجوهر والكون والحال وغيرها لمعانٍ أرادوها ، وربَّما وافق بعضها مقتضىٰ اللغة على وضعها الحقيقي .

وهذه الطائفة التي من جملة طوائف العلماء يستعملون ألفاظاً فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم : بعضهم مع بعض والإجمال والستر علىٰ مَن باينهم : خالفهم في طريقتهم ؛ لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب منهم غَيْرةً منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها ، فلا يَعرِف مرادَهم فيقع فيهم بجهله بما أرادوه فيهلك ، إذ ليست حقائقهم مجموعةً بنوع تكلُّف ، أو مجلوبة بضرب تصرُّف ، بل هي معانٍ أودعها الله تعالىٰ قلوب قوم ، واستخلص لحقائقها أسرارَ قوم آخرين من فوق أولئك ، لأنَّ هذه الطائفة يتفاوتون في السلوك ؛ وفي المواهب .

ونحن نريد نشرح ظواهر هذه الألفاظ عندهم دون التوغُّل في كشف حقائقها لقصور العبارة عن ذلك ؛ تسهيلا للفهم على مَن يريد الوقوف على معانيهم . . من سالكي طرقهم ومُتَّبعي سُنَّتهم : طريقهم .

فـ١ـ من ذلك : الوقت

حقيقته : حقيقةُ الوقت عند أهل التحقيق منهم ؛ ومن المتكلِّمين وغيرهم : حادِثٌ متوهَّم وقوعه في المستقبل ؛ عُلِّق حصوله على حادث متحقِّق وقوعه فيه . صوابه :

حادث متحقِّق عُلِّق عليه حصول حادث متوهَّم ، بدليل قوله : فالحادث المتحقِّقُ وقتٌ للحادث المتوهَّم ؛ تقول : (آتيك رأسَ الشهر) ، فالإتيان حادث متوَّهم وقوعه في المستقبل ، ورأسُ الشهر حادثٌ متحقِّق وقوعه فيه فرأس الشهر وقتُ الإتيان .

ثمَّ بيَّن أنَّ هذه الطائفة أطلقوا « الوقت » على معانٍ ؛ وإن لم تُنَافِ ما ذكر ؛ فقال :

تقلُّب الوقت : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاقَ رحمه الله ؛ يقول : الوقت ما أنت فيه ـ وفي نسخة : به ـ إن كنت بالدنيا . . فوقتُك الدنيا ، وإن كنت بالعُقبىٰ . . فوقتك العقبىٰ ، وإن كنت بالسرور . . فوقتُك السرور ، وإن كنت بالحزن . . فوقتك الحزن . .

يريد رحمه الله بهذا : أنَّ الوقت ما كان هو الغالبَ : يغلب على الإنسان في حاله الذي هو فيه . . ممَّا نزل به ؛ من قبض وبسط ، وسرور وحزن ونحوهما ، فسمِّيَ الوقت باسم ما يلازمه غالباً .

وقد يعنون بالوقت ما هو : ما العبد فيه من الزمان الحالِّ . فإنَّ قوماً قالوا : الوقت ما بين الزَّمانين ؛ يعني الماضي والمستقبل .

الصوفي والوقت : ويقولون : (الصوفيُّ ابن وقته) . يريدون بذلك أنَّه لا التفات له إلى ماض ولا مستقبل ، بل هو مشتغلٌ بعمارة وقته بما هو أولىٰ به من العبادات في الحال ؛ قائمٌ بما هو مطالب به من الله في الحين .

وقيل : الفقير لا يُهِمُّه : يقلقُه ، و[يَهِمُّه] : يدينه ماضي وقته وآتيه ، بل يُهِمُّه وقته الذي هو فيه .

ولهذا قيل : الاشتغالُ بفوات وقت ماضٍ تضْييعُ وقتٍ ثان ، ومثله الاشتغال بمجيءِ وقت مستقبل .

وقد يريدون بالوقت ما يصادفُهم من تصريف الحقِّ لهم : ما يصرفهم الحقُّ فيه مما سبقت به المقادير . . دون ما يختارونه لأنفسهم .

بحكم الوقت : ويقولون : فلانٌ متَّصف بحكم الوقت . أي : أنَّه مستسلم ومنقاد لما يبدو له من الغيب ؛ من غير اختيار له[1] . فأيُّ حال أقامهم الحقُّ فيه . . من قبض أو بسط ؛ أو خيرٍ أو شرٍّ . . سَمَّوْه وقتا ؛ باسم ما يصادفه من التصريف ! وهذا فيما ليس لله تعالى عليهم فيه أمرٌ ؛ أو اقتضاء لمطلوبٍ فعلُه وتركُه بحقِّ شرع : بحقٍّ شرعي . أمَّا ما لله عليهم فيه ذلك ! فلا يقولون (إنَّه وقت) بالمعنىٰ المذكور ، لأنَّ العبد مأمور بالتألُّم له والندم عليه والبعد عنه ، إذ التضييع لما أُمرت به ؛ من الله تعالىٰ وإحالة الأمر فيه على التقدير الأزليِّ ؛ وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير . . خروجٌ عن الدين .

فإذا قال العبد (أنا راضٍ بما أقامني الحقُّ فيه من الوقت على الإطلاق . . لزم أن يرضىٰ في وقت بإخلاله بالواجبات ، وفي وقت بارتكاب المحرَّمات ، وفي وقت بارتكاب المكروهات ، فإنَّ ذلك من تصريف الحقِّ في الخلق ، ومن ٱسترسل في ذلك خَرَج عن الدين[2] .

الوقت سيف : ومن كلامهم : (الوقت سيف) كما أن السيفَ قاطع ؛ فالوقت بما

---

(١) وذلك هو القيام بحقِّ العبودية . قال في « التنوير » : فتأدَّب بها يا أيها المؤمن ، ولا تطلب منه أن يخرجك من أمر ويستعملك فيما سواه إذا كان ما أقمت فيه موافقاً للسان العلم ، فإن ذلك من سوء الأدب مع الله تعالىٰ ، فاصبر ولا تطلب الخروج لنفسك فتعطىٰ ما طلبت ؛ وتمنع الراحة فيه ، فرُبَّ تارك شيئاً وداخل في غيره فيتعب ويقابل بوجود التعسر عقوبة لوجود الاختيار (عروسي : ٢/ ٢٤) .

(٢) لأنَّ معناه الانقياد لأحكام الشريعة ؛ ولا انقياد مع ما ذكر ! (عروسي) .

يمضيه الحق : يقدِّرُه ويجريه على العبد غالب : واقع عليه جزماً .

فوظيفة العبد الصبرُ تحت جريان المقدور حتَّى يتقبَّله بالرضا حيث يصحُّ الرضا به ، فإن التسخُّط لا يزيل شيئاً من المقدور .

مخالطة السيف : وقيل : السيف ليِّنٌ مَسُّه ، **قاطعٌ حدُّه** ، **فمن لايَنَه** كأن وضع يديه على عَرْضه واعتدل معه سَلِم ، **ومن خاشنه** كأن وضع يديه على خَدَّيه وحزَّهما . . **اصطُلِم** : استؤصل ، **كذلك الوقت** : مَن استسلم وانقاد **لحُكمه** فيما يصحُّ الرضا به ؛ من البلايا والعوافي ، والقبض والبسط ونحوها . . **نجا** ، **ومن عارضه** : حُكمَه . . **انتكس وتردَّىٰ** : انقلب على رأسه ـ يعني : خرج عن الدين ؛ أو كمالِه ـ

فحقُّ العبد الصبرُ على ما ذكر ، ولزوم الأدب ، إذ القلق في مثل ذلك يمنعه الراحة ! وربَّما يمنعه من نيل مراده !!

وأنشدوا في ذلك[1] قول القائل :

وَكَٱلسَّيْفِ إِنْ لاَيَنْتَهُ أنت لاَنَ لـك **مَتْنُه** : وسطه . والمراد : عرضه ـ وفي نسخة : مسُّه ـ .

وَحَدَّاهُ إِنْ خَاشَنْتَهُ : السيف **خَشِنَانِ** يخشى منهما الاصطلام

ومن ساعَدَه الوقت في الخيرات الدينية . . . **فالوقت له وقت** محمود .

ومَن ناكَدَه الوقتُ . . **فالوقت عليه مقتٌ** : بغض من الله .

وسمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاقَ ؛ **يقول** : **الوقتُ مِبْرَد يَسحَقُك** ؛ **ولا يمحقك** .

يعني : لو محاك وأفناك لتخلَّصتَ حين فَنِيت . لكنَّه يأخذ منك ؛ ولا يمحوك بالكليَّة ، يعني أنَّ في أرباب الأوقات المحمودة بقايا يعرفون بها أحوالهم التي أقيموا فيها ، ويشغلهم ذلك عن إدراك غيرهم من المخلوقات ، فباعتبار عدم إدراكهم لغيرهم سُحِقوا ، وباعتبار إدراكهم لأنفسهم لم يُمحَقوا ،

---

(١) وَكَٱلسَّيْفِ إِنْ لاَيَنْتَهُ لاَنَ مَتْنُهُ وَحَدَّاهُ إِنْ خَاشَنْتَهُ خَشِنَانِ

ولو قويت عليهم أحوالُهم وغابوا عن أنفسهم لمُحقُوا . ولهذا كان يُنشد في هذا المعنى(١) :

كُلَّ يَوْمٍ يَمُرُّ بي يَأْخُذُ مني بَعْضِي يُـورِثُ ٱلقَلْـبَ حَسْـرَةً ثُـمَّ يَمْضِـي

لأنّـه يشتغـل بمـا هـو فيـه عـن أحكـام نفسـه ، وعـن إدراك غيـره مـن المخلوقات ، ويغيب عن ذلك بما بَدَا له في وقته ، فإذا زال عنه أورثه حسرة على عدم دوام غَيْبته واستغراقه .

وكان هو ينشد أيضاً (٢) في هذا المعنىٰ :

كَأَهْلِ : أنا في ذلك كأهل ٱلنَّارِ إِنْ نَضِجَتْ جُلُودٌ

أُعِيْدتْ لِلشَّقَاءِ لَهُمْ جُلُودُ

أي : أنَّ راحتهم وعذابهم لا يدومان لتغيُّر أحوالهم .

وفي معناه(٣) قول القائل :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَٱسْتَرَاحَ بعد موته بِمَيْتٍ إِنَّمَـــا ٱلمَيْـــتُ مَيِّـــتُ ٱلأَحَيَـــاءِ

نبَّه بشطره الأوَّل على كمال فنائه ، وبالثاني على تبدُّل أحواله وسَحْقه بالحال دون مَحْقه !

الكَيِّس : وَالكَيِّسُ مَن كانِ متَّصفاً بحكم وقتِه ؛ إن كان وقتُه الصحوَ . . فقيامُه بالشريعة ، لأنَّه مطالَب بما يجريه الحقُّ عليه من أحكامها ، وإن كان وقتُه المحوَ . . فالغالبُ عليه أحكامُ الحقيقة ، لأنَّ مَن غاب عن إدراك نفسه وغيره . . فهو مشغول بالحقِّ عن الخلق ، ومع ذلك لا يجري عليه حينئذ ما يخالف الشريعة ، فحصل من مجموع ما ذُكر أنَّهم يطلقون الوقت ١ـ على ما غلب من الحال ، و٢ـ على ما كان عمارة للزمان ، و٣ـ على ما يصرِّف الله العبدَ فيه من المقدورات بغير اختيار ، وإنَّهم لَقَّبوا الوقت أنَّه سيف !! لأنَّه

---

(١) كُـلَّ يَـوْمٍ يَمُـرُّ يَـأْخُـذُ بَعْضِـي يُورِثُ ٱلقَلْبَ حَسْرَةً ثُمَّ يَمْضِي

(٢) كَـأَهْـلِ ٱلنَّـارِ إِنْ نَضِجَـتْ جُلُـودٌ أُعِيْـدَت لِلشَّقَـاءِ لَهُـمْ جُلُـودُ

(٣) لَيْـسَ مَـنْ مَـاتَ فَـٱسْتَـراحَ بِمَيْـتٍ إِنَّمَـا ٱلمَيْـتُ مَيِّـتُ ٱلأَحْيَـاءِ

يقطع عمر العبد ، فإذا لم يقطعه بخير انقطع عمره بغفلة ، وإنَّهم لقَّبُوه أيضاً بأنَّه مِبْرد بمعنىٰ أنَّه لا يستغرق العبد حتَّىٰ يغيب عن إحساسه ، بل لا بدَّ أن يدرك ما هو فيه ؛ من غلبة حال ، أو عمارة ، أو تصريفٍ من الحق ، ولو استغرق . . لم يسمُّوه وقتاً !! .

* * *

و٢ـ من ذلك : المَقام

المَقام : موضع القيام ، و[المُقام] : موضع الإقامة . وقد قُرِىءَ بهما قوله تعالىٰ ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾[1] . قال الجوهري : وقد يكون كلٌّ منهما بمعنىٰ الإقامة ، وبمعنىٰ موضع القيام !! .

معناه : **والمُقام** بلغَتيْه عند القوم : **ما يتحقَّق** : يتَّصف **به العبدُ بمنازلته** : بنزوله فيه وانتقاله إليه باكتسابه له **من الآداب** بيانٌ **ممَّا يتوصَّل إليه بنوع تصرُّف ، ويتحقَّق** : يتَّصفُ **به بضرب تطلُّب ، ومقاساةِ تكلُّف** .

فالمقام ما يُنال بتكسُّب وتطلُّب : مع الموهبة إلى أن يكمُل العبد فيه ، بخلاف الحال كما سيأتي ص ٢٥٥ . وقوله (مما . . الخ) بيان للآداب .

مكانه : **فمُقامُ كلِّ أحد موضعُ إقامته** وقيامه **عند ذلك** : عند اكتسابه ما يوصله إليه ، **وما هو مشتغلٌ بالرياضة له** . عطفُ تفسير على موضع (إقامته عند ذلك) .

شرطه : **وشرطه** : المشتغل بمقامه **أن لا** يتشوَّف إلى أن **يرتقيَ من مقام إلى مقام آخرَ** أرفع منه ؛ **ما لم يستوفِ أحكامَ ذلك المقام** ، لأنَّ اشتغاله بالأرفع يشغله عما هو فيه ، **فإنَّ من لا قناعةَ له لا يصحُّ له التوكُّل** : مَن اشتغل بمقام القناعة ؛ ولم

---

(١) الآية : ١٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

يُحكِمه لا يصحُّ منه أن يرتقيَ إلى مقام التوكُّل ، ولكلِّ مقام بدءٌ ونهاية ، وبينهما أحوال متفاوتة .

مثاله في مقام الخوف من الله مثلاً : أن يبدأ بترك الكبائر ؛ خوفاً من الله ، فإذا ارتقىٰ عن ذلك ترك الصغائر أيضاً ، ثمَّ المكروهات ، ثمَّ الشُّبه ؛ ثمَّ التوسع في الحلال . . . إلى أن ينتهيَ إلى ترك كلِّ ما يشغله عن الله .

التوكُّل والتسليم : ومن لاتوكُّلَ له لايصحُّ له التسليم، وكذلك من لا توبةَ له لا تصحُّ له الإنابة ، ومن لا ورع له لا يصحُّ له الزهد . وسيأتي بيان هذه الألفاظ .

والمُقام هو الإقامة كما مرّ ، **كالمُدْخَل بمعنى الإدخال ، والمُخرَج بمعنى الإخراج** . قال تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾[1] : أدخلني المدينة إدخالاً مرضيّاً لا أرىٰ فيه ما أكرهه ، وأخرجني من مكَّة إخراجاً لا ألتفت بقلبي إليها . **ولا يصحُّ لأحدٍ منازلةُ مقامٍ** : نزوله فيه ؛ بأن يشتغل بما يتوصَّل به إليه . . **إلاَّ بشهود** : رؤية **إقامةِ الله تعالىٰ إيَّاه بذلك المقام** فيه ! **ليصحَّ بناءُ أمره على قاعدة صحيحة**، وهي رؤية فضل الله عليه في إقامته في ذلك المقام .

تذكير : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله **تعالى ؛ يقول : لما دخل الواسطيُّ نيسابور ؛ سأل أصحاب أبي عثمان** : سعيدِ بن سلام المغربي بـ (**بماذا كان يأمركم شيخُكم ؟**)

فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ، ورؤيةِ التقصير فيها . فقال أمركم بالمجوسيَّة المحضة ؛ من حيث إنَّ المجوس عَبَدوا النور والظلمة ، وجعلوا الخير من النور ؛ والشرَّ من الظلمة ! فذكروا فاعلَيْن مع الله .

فنبَّه الواسطيُّ هؤلاء على أنَّ شيخهم جعلهم فاعلين مع الله بقوله (أمركم بالمجوسية المحضة) ، **هلاَّ أمركم بالغَيْبة عنها** ! ! بأن تتبرَّؤا من أفعالكم برؤية **منشئها ومجريها** سبحانه وتعالىٰ ؛ بأن تروا أنَّها من الله فضلاً ورحمة عليكم ! ؟

فعلىٰ العبد أن يرىٰ في كلِّ مقامٍ يتطلَّبه أنَّ له معيناً عليه ، فيبرأ من المجوسيَّةِ ومِن رأي القدرية الذين أثبتوا لأنفسهم أفعالاً ، فإنَّهم يضيفون الشرَّ

---

(١) الآية : ٨٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

لأنفسهم ؛ والخير إلى الله تعالىٰ ! وهو الله تعالىٰ خالق كلِّ شيء . . من خيرٍ وشرٍّ .

وإنَّما أراد الواسطيُّ بهذا الذي قاله لأصحاب أبي عثمان صيانَتَهُم عن محلِّ الإعجاب بأنفسهم فيما التزموه من الطاعات ؛ **لا تعريجاً** منه في أوطان التقصير !؟ بأن أمرهم بالتقصير في الطاعات ، **أو تجويزاً منه للإخلال بأدب من** الآداب ! بأن أمرهم أن يتركوا أيقاعها مطلقاً ؛ أو على أكمل وجوهها ! أي لم يأمرهم بشيء من ذلك .

* * *

و٣ـ من ذلك : الحال

معناه وأمثلته : والحال ـ عند القوم ـ : **معنىً يَرِدُ علىٰ القلب من غير تعمُّد منهم ؛ ولا اجتلاب** . وعَطَف على ذلك عَطْفَ تفسير قولَه (**ولا اكتساب لهم** . من **طَرَب** ، **أو حِزْب** ـ أي : ورد ، وفي نسخة : أو حزن ـ **أو بسط** ، **أو قبض** ، **أو شوق** ، **أو انزعاج** ، **أو هيبة** ، **أو اهتياج** : نوران ؛ ولو بلا طرب

فروق : ١ـ فالأحوال مواهب ترقِّي إلىٰ المقامات ، والمقامات مكاسب بمواهب ، لأنها إنَّما تُنال بالكسب مع الموهبة .ـ. كما مرّ ، فالعبدُ بالأحوال يترقَّىٰ إلى المقامات[1] الممتزج فيها الكسبُ بالموهبة ، ولا يلوح له حال من مقام أعلىٰ من مقامه إلاَّ وقد قَرُب ترقِّيه إليه ، فلا يزال العبد يترقَّىٰ إلى المقامات بزيادة الأحوال .

ويقال أيضاً ٣ـ الأحوال تأتي من عين الجود ؛ والمقامات تحصل ببذل المجهود ، **وصاحبُ المقام مُتمَكِّنٌ** ـ وفي نسخة : ممكَّن ـ **في مقامه** ، **وصاحبُ الحال مُتَرَقٍّ** ـ وفي نسخة : مرقّىٰ ـ **عن حاله** . **فالمقامات** مستقرَّة والأحوال متغيِّرة .

---

(١) لأنَّ الأحوال مبادئ للمقامات ، ولذلك قيل (إذا دامت الحال صارت مقاماً لصاحبها) . (عروسي : ٢/ ٣٠) .

قال العلامة القَوْنَوي : والتحقيقُ أَنَّ الجميع مواهب ، إلاَّ أنَّ المقامات يظهر فيها الكسب ويبطن فيها الموهبة ، والأحوال بالعكس .

وقد تصير الأحوال مقامات ! وذلك عند استقرارها وأسبابها ؛ وهي الطاعة قد يعرفها العبد ؛ وقد لا يعرفها أصلاً ، وقد لا يعرفها في الحال كأن يجدَ من نفسه القبضَ والبسط ؛ ولا يعرف سببه . . لغفلة ؛ أو نسيان .

تنقُّل العارف : **وسئل ذو النون المصريُّ ؛ عن حال العارف** بالله ؟ **فقال** : كان ها هنا[1] : فيَّ العارف فذهب عنه ، لاشتغاله عنه بمن خصَّه به وتولاَّه .

زوال الأحوال : **وقال بعض المشايخ** : **الأحوال كالبروق** في سرعة زوالها[2] ، فإن بقي شيء منها مع العبد !! **فحديث نفس** : غالباً في حديث نفسه بالحال ؛ لا نفس الحال .

أزمنة الحال : **وقالوا أيضاً** : **الأحوالُ كاسمها** ؛ **يعني** كلٌّ منهم **أنَّها كما تَحُلُّ بالقلب تزول في الوقت** : في الحال ، وهذه الكاف تسمَّىٰ « كاف المباغتة » و : « المبادرة » ، ولا حاجة لقوله (في الوقت) ! **وأنشدوا**[3] :

لَوْ لَمْ تَحُلْ : الحال مَا سُمِّيَتْ حَالاً وَكُلُّ مَا حَالَ فَقَدْ زَالاَ
انْظُرْ إِلَىٰ ٱلفَيْءِ إِذَا مَا ٱنْتَهَىٰ يَأْخُذُ فِي ٱلنَّقْصِ إِذَا طَالاَ

---

(١) أي في ذاته ، فذهب . . باعتبار حاله . أي : فذهب عنه ذلك الحال لاشتغاله عنه بمَن خصَّه به وتولاَّه ؛ وهو الله تعالىٰ ، ويحتمل أنَّه يشير إلىٰ مقام محو العبادة وعين العابد . فافهم (عروسي : ٢/ ٣٠) .

(٢) وإنَّما كانت كذلك ! لأجل صيانتها عن أن يدَّعيَها العباد بواسطة وجود الاستعداد ، فتكون مبتذلة ؛ فيبطل سرُّ التخصيص ، ولأنها من بساط عزيز ، وما كان من عزيز لا يكون إلاَّ عزيزاً ، لا ينبغي أن يكون إلاّ عزيزاً ، ولتعظم المنَّة بها ، وتحقيق الشكر علىٰ المواجهة بها علىٰ قدرها ، فقد قيل (إذا عمَّت النعم صُغِّرت وكُفرت ، وإذا خصِّصت عُظِّمت وشُكرت) . والله أعلم (عروسي : ٢/ ٣٠) .

(٣) لَوْ لَمْ تَحُلْ مَا سُمِّيَتْ حَالا وَكُلُّ مَا حَالَ فَقَدْ زَالا
انْظُرْ إلىٰ ٱلفَيْءِ إذا ما ٱنتَهىٰ يَأْخُذُ في ٱلنَّقْصِ إذا طَالاَ

أي : إذا انتهى طولُه فهو تأكيد للشرط قبله ! أي عند انتهائه يأخذ في الزوال بسرعة ؛ فكذا الحال ، فالأحوال لا تبقىٰ .

استقرار الحال : وأشار قومٌ إلى بقاء الأحوال ودوامِها ؛ وقالوا : إنَّها إذا لم تَدُم ولم تتَوالَ ؛ فهي لوائحُ وبوادِهُ ؛ من (لاح له المعنى وبَدَهَه) فلم يثبت له ، ولم يصل صاحبها بعدُ إلى الأحوال ، لعدم بقائها لكنه يصلُ إليها فهي باقية ، فإذا دامت تلك الصفةُ وتوالت ! فعند ذلك تسمَّى « حالا » .

الرضا بالحال : وهذا أبو عثمان الحيري ؛ يقول : لي منذ أربعينَ سَنَةً مَا أقامني الله في حال فكرهتُه . أشار بذلك إلى دوام الرضا ؛ والرِّضا من جملة الأحوال! حيث توالىٰ . وأنت خبير بأنّ ذلك كلَّه إنَّما يدلُّ على بقائها إن توالت أمثالها ، فإذا توالت أمثالها سُمِّيت « أحوالاً » ، وإلاَّ فـ « لوائح » و« بوادِهُ » ! ومِن ثَمَّ اختار ما ذكره بقوله :

لزومية الحال : فالواجب في هذا المبحث أن يقال : إنَّ من أشار إلى بقاء الأحوال فصحيح ما قال ؛ فقد يصير المعنىٰ : الحال بتواليه شِرْباً : حظًّا يعني مقاماً لأحدٍ فيربِّي : الأحد فيه .

طوارق الأحوال وترقيها : ولكنْ لصاحب هذه الحال : الشِّرب وهو المقام أحوالٌ : هي طوارق لا تدوم يكون أوّل مقام آخر ، وأحوالُه هذه فوقَ أحواله التي صارت شِرباً له ، فإذا دامت هذه الطوارق : الأحوال بتواليها له كما دامت الأحوال المتقدِّمة . . ارتقىٰ إلى أحوال أخر فوق هذه الأحوال ، وألطف من هذه : منها ، فأقام الظاهر مقام المضمر ، فأبداً يكون هو في الترقِّي في الدرجات العلية .

* * *

* *

*

مطلب مهم
في الأغيان الواردة على سيدنا رسول الله ﷺ

ترقيه ﷺ : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول في معنى قوله ﷺ : «إنَّه لَيُغَانُ[1] ـ: يغطىٰ ـ عَلَىٰ قَلبِي حَتَّىٰ أَسْتَغْفِرَ ٱللهَ تعَالىٰ فِي ٱليَوْم سَبْعِيْنَ مَرَّةً» . وفي رواية : أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِيْنَ مَرَّةً » . وفي رواية : أَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ مَرَّةً »[2] . . إنَّه كان ﷺ أبداً في التَّرقِّي[3] من أحواله إلى أحوال أخر ، فإذا ارتقىٰ من حالة إلى

(١) قال بعضهم : هي أغيان أنوار ؛ لا أغيان أغيار ، لأنها بالنسبة لما ينتقل إليه ﷺ من الرتب والدرجات بواسطة ترقيِّه . . يعدُّ ما قبلها أغياناً وإن كانت أنواراً !! فيعدُّ المفضول غينا بالنسبة للفاضل ، والفاضل غينا بالنسبة للأفضل ، وهذا مفاد كلام الدقَّاق كما نبَّه عليه الشارح رحمه ا الله ، وهذا طريق الأدب معه ﷺ (عروسي : ٢/ ٣٢ ؛ بتصرُّف) .

(٢) أما رواية السبعين فأخرجها ابن ماجه : ٣٨١٦ ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » ؛ عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه . ومن شواهدها ما أخرجه ابن أبي الدنيا ، والبيهقي ؛ عن أنس رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ في مسيره فقال : « ٱسْتَغْفِرُوا اللهَ » فاستغفرنا فقال : أَتِمُّوهَا سَبْعِيْنَ . . . مَا مِنْ عَبْدٍ ؛ وَلا أَمَةٍ يَسْتَغْفِرُ ٱللهَ فِي يَوْم سَبْعِيْنَ مَرَّةً إِلاَّ غَفَرَ ٱللهُ لَهُ سَبْعَ مِئَةِ ذَنْبٍ ، وَقَدْ خَابَ عَبْدٌ ؛ أَوْ أَمَةٌ عَمِلَ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِ مِئَةِ ذَنْبٍ !» .
ورواية الأكثر من سبعين أخرجها البخاريُّ : ٦٣٠٧ ؛ وأحمد : ٢/ ٢٨٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه : « وَٱللهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ . . . » .
ورواية المئة أخرجها مسلم : ٤١ ـ ٢٧٠٢ ، وأحمد : ٤/ ٢١١ و٢٦٠ ، وعبد بن حميد : ٣٦٤ ، وأبو داود : ١٥١٥ ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » : ٤٤٢ ؛ عن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه .

(٣) اعلم أنَّ النبوَّة علىٰ قسمين : ١ ـ **نبوَّة تعريف** ؛ وهي الإنباء عن معرفة الذات والأسماء والصفات .
و٢ ـ **نبوَّة تشريف** ؛ وهي جميع ذلك مع تبليغ الأحكام والتأديب بالأخلاق ، والتعليم بالحكمة ، والقيام بالسياسة . ومن ذلك ما نحن فيه (عروسي : بتصرف) .

حالة أعلىٰ ممَّا كان فيها فربَّما حصل له ملاحظةٌ ؛ وهو في حالته التي ارتقىٰ إليها . . إلىٰ ما ارتقىٰ : حالته التي ارتقىٰ عنها ، فكان يعدُّها « غَيْنًا » : ستراً رقيقاً . يعني تغطيةً لقلبه بالإِضافة إلى ما ـ أي : حالته التي ـ حصل فيها ؛ فاستغفر الله سبعين مرّة ، فقال (أستغفر الله وأتوب إليه) .

وقيل : قال ذلك على جهة التعليم لأمَّته لغلبة الخطإِ عليهم .

وقيل : إنَّه كان كلَّما ذَكَر أمته ؛ وما يكون منهم بعده . . أستغفر الله لهم .

وقيل : إنَّ الإغانة حالةُ غشيةٍ وإعظام تغشىٰ قلبه ، فيستغفر حينئذ شكراً لله وملازمة للعبودية ؛ كما قال في ملازمة العبادة : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدَاً شَكُورَاً »[1] .

فأبداً كانت أحوالُه ﷺ في التزايد والترقي .

ألطاف الحقِّ : ومقدروات الحقِّ ـ سبحانه وتعالىٰ ـ من الألطاف لا نهاية لها !!

فإذا كان حقُّ الحقِّ تعالى العزِّ : الرفعة ، وكان الوصولُ إليه بالتحقيق محالا ! فالعبد أبداً في ارتقاء أحواله ، فلا معنى : حالا يوصل إليه . . إلاَّ وفي مقدروه سبحانه وتعالىٰ ما هو فوقه يقدرُ أن يوصِلَه إليه . وعلىٰ هذا يُحمل قولُهم (حسناتُ الأبرارِ : أوائل الدرجات التي نالوها سَيِّئَات المقرَّبين) لنزولها عن درجتهم .

وسئل الجنيد عن هذا . . أعني عن قولهم (حسنات الأبرار سيئآت المقرَّبين) فأنشد جوابا للسائل[2] :

طَـوَارِقُ أَنْـوَارٍ تَلُـوحُ إِذَا بَـدَتْ   فَتُظْهِرُ كِتْمَاناً وَتُخْبِرُ عَنْ جَمْعِ

أي : المقامات أوّلها طوارق تلوح إذا ظهرت ، ونهايتها أنَّها إذا قويت بعد ظهورها أظهرت الجمع ، وكمال الحال وكتمان السرّ ؛ فأوَّل المقام طوارق ؛ ونهايته جمعٌ وكمالُ حال وكتمانُ سرٍّ ، فأشار بالأوّل إلىٰ مقام الأبرار ، وبالثاني إلى مقام المقرَّبين[3] .

---

(1) متفق عليه ؛ البخاري : ٤٨٣٦ ، ومسلم : ٧٩ ـ ٢٨١٩ وأحمد : ٤/ ٢٥١ ؛ عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

(2) من البحر الوافر .

(3) حاصل المقامَيْن أن يقال : مَن سبق له الاصطفاء والاختيار وقدّر له أن يكون من الأبرار . . =

و٤ ؛ ٥ـ من ذلك : القبضُ والبسط

وهما حالتان تحصلان للعبد بعد ترقّي العبد عن حالة الخوف والرجاء[١] .

معناهما للعارف : فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنِف : للمبتدىء خوفُه ؛ وهو المريد ، والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنِف أيضاً .

الفرق بينهما : ومن الفصل : الفرق بين القبض والخوف ؛ الذي هو بمنزلته . . وبين البسط والرجاء ؛ الذي هو بمنزلته : أنَّ الخوف إنَّما يكون من شيءٍ يحصل في المستقبل ، إمَّا لكونه أن يخاف منه فوتَ أمر محبوبٍ ؛ أو هجومَ أمر محذور .

وكذا الرَّجاء . . إنَّما يكون بتأميل : برجاء حصول أمر محبوبٍ في المستقبل ، أو بتطلُّع زوال محذور ؛ وكفايةِ مكروهٍ في المستأنَف : المستقبل .

وأما القبض ! فلمعنىً حاصلٍ في الوقت ، وكذلك البسطُ .

معنىٰ ذلك أنَّ العبد قد يتقدَّم له الخوف من ضرر يخشاه في المستقبل ، فإذا حلَّ به انقبض . والرجاء تأميل حصول محبوب في المستقبل ، فإذا حصل

= يوفَّق إلىٰ المتابعات فيحلَّىٰ بحلية أهل العنايات ، وتتوالىٰ طوارق الواردات علىٰ قلبه ؛ فيندرج في عليِّ المقام ، فيدوم مشاهداً للحقِّ بالإيجاد . . فيستوي منه الباطن والظاهر ، ثم إذا ترقَّىٰ وتحقَّق تزايدت علىٰ سرِّه الأنوار فينفىٰ عما مُنح بالثبوت في مقامات المقرَّبين ؛ فيكون دائماً علىٰ شهود الحقِّ قبل الخلق ويثبت علىٰ هذا الطريق

(عروسي : ٢/ ٣٣ ؛ بتصرف) .

(١) قد يجد شبه حال القبض والبسط ، ويظنُّ العبد ذلك قبضاً وبسطاً ! وليس هو ذلك !! وإنَّما هو غمٌّ يعتريه فيظنُّه قبضاً ، واهتزاز ونشاط طبيعيٌّ فيظنُّه بسطاً !! والهمُّ والنشاط يحدثان ويصدران من محلِّ النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها . . . فالبسط في مقام القلب بمثابة الرجاء في مقام النفس ، والقبض كالخوف (عروسي : ٢/ ٣٣ ؛ بتصرف واختصار) .

انبسط ، فمتعلَّق الخوف والرجاء أمرٌ يحصل في الآجل ، ومتعلِّق القبض والبسط أمرُ يحصل في الوقت العاجل ؛ كما أشار إلىٰ ذلك بقوله :

فصاحب الخوف والرجاء تعلَّق قلبُه في حالتيه : خوفه ورجائه **بآجله** ، **وصاحبُ القبض والبسط أخِيْذ** : أسير **وقته بواردٍ غلب عليه في عاجله** . **وكلٌّ** منهما قد يعرف المتَّصف به سببه ، وقد لا يعرفه ، وقد يكون عَرَفه ونسيَه . . كما مرّ .

موجب التفاوت : **ثمَّ تتفاوت نعوتُهم** : أوصافهم **في القبض والبسط** ؛ **على حسب تفاوتهم في أحوالهم** :

١ـ **فمن واردٍ يوجب قبضا فيحصل** ؛ **ولكن يبقىٰ في صاحبه مساغٌ للأشياء الأُخَر** المغايرةِ لأحواله المشتغل هو بها من المحادثات والمكالمات وقضاء الحاجات ، **لأنه غير مستوفٍ** ، بل بقيَ فيه بقية كما مرّ . و٢ـ **من مقبوضٍ** ، يعني : ومن وارد يوجب لصاحبه قبضا **لا مساغَ لغير واردهِ فيه** ، **لأنَّه مأخوذ عنه بالكلية بوارده** ؛ **كما قال بعضهم** . . جواباً لمن طلب منه كلامه : (**أنا رَدْمٌ** : **لا مساغَ فيَّ**) .

وكذلك المبسوط : ١ـ **قد يكون فيه بَسْطٌ يَسَعُ الخلق** ؛ **فلا يستوحش من أكثر الأشياء** ، و٢ـ **يكون مبسوطاً** منشرح الصدر **لا يؤثِّر فيه** : لا يكدِّره **شيءٌ بحال من الأحوال** .

محرَّرُ الرِّق في الأزل : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ **يقول** : **دَخَل بعضُهم علىٰ أبي بكر القحطي** ؛ **وكان له ابن يتعاطىٰ ما يتعاطاه الشبَّان** ؛ من اللهو واللعب ؛ **وكان ممرُّ هذا الداخل على هذا الابن** ؛ **وإذا هو مع أقرانه في اشتغاله ببطالته ولهوه** !! **فَرقَّ قلبه** : خاف **وتألَّم للقَحَطي** ؛ **وقال** : **مسكينٌ هذا الشيخ** ؛ **كيف ابتُليَ بمقاساة هذا الابن** !؟ قاله ظنّاً منه أنَّه عارف بحاله .

فلما دخل على القحطي وَجَده كأنَّه لا خبرَ له عما ـ وفي نسخة : بما ـ **يجري من ابنه من الملاهي واللعب** ، **فتعجَّب منه** ؛ **وقال** : **فدَيتُ بتألمِّي من لا تؤثِّر فيه الجبال الرواسي** !! .

فقال القحطي ؛ لفهمه أنَّه عناه . . مجيباً له : إنَّا قد حُرِّرنا عن رِقِّ الأشياء في الأزل . هذا يحتمل أنَّه علم بحال ابنه لكنه لم يشتغل به ؛ لمَا خصَّه به مولاه . . من كمال اشتغاله به وبمناجاته ! ويحتمل أنَّه لم يعلم به ، وقال له ذلك جواباً لتعجُّبه من حاله .

وفيه أيضاً دليل على كمال اشتغاله بمولاه ، وعلى كمال بسطه بما هو فيه من فضل ربِّه .

سببه القبض : ومن أدنىٰ موجباتِ القبض الحاصل للعبد أن يَرِدَ على قلبه واردٌ موجِبَة إشارةٌ إلىٰ استحقاق عتاب أو رَمزٍ باستحقاقِ تأديب على تقصير ؛ فيحصل في القلب لا محالةَ قبضٌ .

وقد يكون موجِبَ بعضِ الواردات على قلبه إشارةٌ إلى تقريب من الله إليه ؛ أو إقبالٌ منه عليه بنوع لطف وترحيب . من قولك (رحَّبت به) . . إذا قلتَ له مرحباً : سعة ، فيحصل للقلب بسط واتساع .

تلازمهما : وفي الجملة : قبضُ كلِّ أحد حسب بسطه : على قَدْره قوَّةً وضعفاً ، وبسطُه علىٰ حسب قبضه .

القبض والمجهول : وقد يكون : يوجد قبضٌ ينشئه الله بغتة يُشكل على صاحبه سبُبه : كان يجد في قلبه قَبْضاً ؛ لا يدري موجِبه ولا سببه هو عطف تفسير .

فسبيلُ صاحبِ هذا القبض التسليمُ والصبر ، حتىٰ يمضيَ عليه ذلك الوقت الذي فيه القبض ويفرَّج عنه ، لأنه لو تكلَّف نفيَه : القبضَ ، أو استقبلَ الوقتَ : وقت القبض قبل هجومه عليه بأن رفعه عنه باختياره . . زاد ذلك في قبضه .

ولعله يُعتدُّ بمعنىٰ يعدُّ ذلك منه سوءُ أدب .

وإذا استسلم لحكم الوقت ! ! فعن قريب يزول القبض ؛ ببركة التسليم ، فإن الحقَّ سبحانه وتعالىٰ قال ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ ﴾[1] .

---

(١) الآية : ٢٤٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

البسط المجهول : وقد يكون : يوجد بسطٌ يَرِد على العبد بغتةً ، ويصادف صاحبَهُ فلتةً ؛ لا يعرف له سبباً ، يَهُزُّ صاحبَه ويستفِزُّه : يستخفُّه ؛ فسبيل صاحبه السُّكون ، ومراعاةُ الأدب ، فإنَّ في هذا الوقت : فإنَّ له في هذا الوقت خطراً عظيماً فليحذر صاحبُه مكراً خفِيّاً .

كذا قال ـ لو قال : (كما قال) كان أولى . وفي نسخة : قال ـ بعضهم بدون « كذا » . فُتِح عليَّ بابٌ من البسط فزللت زَلَّة ؛ فحجبت عن مقامي .

ولهذا قالوا : قِفْ على البساط ؛ وَإِيَّاكَ والانبساط .

البساط ما جعل للعبد ، والانبساط ما فعله بنفسه واختاره .

استهلاك العبد : وقد عَدَّ أهل التحقيق حالَتيْ القبضِ والبسط من جملة ما استعاذوا منه ، لأنَّهما بالإضافة إلى ما فوقهما من استهلاك العبد واندراجه في الحقيقة فقرٌ وضُرٌّ .

ثمَّ بيَّن أسبابهما مع زيادة ؛ فقال:

حال الجُنَيد : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت الحسين بن يحيى ؛ يقول : سمعت جعفر بن محمد ؛ يقول : سمعتُ الجنيد ؛ يقول : الخوفُ من الله . . لإفضائه إلى استغراق قلب الخائف والغَيْبَةِ عن غير مولاه يقبضني ، والرجاءُ منه . . لما يؤمِّله الراجي من فضله يبسطني ، والحقيقة ؛ وهي غَلَبة ذكر الحقِّ على القلب وكمالُ شغله به حتَّى لا يشعرُ بغيره تجمعني عليه تعالىٰ ، والحقُّ يفرِّقني .

وذلك لأنّه إذا قبضني الله تعالىٰ بالخوف منه أفناني عني لاشتغالي به ، وإذا بسطني بالرجاء رَدَّني عليَّ ! فانظر فيما عليَّ من الحقِّ ! وإذا جمعني بالحقيقة أحضرني عنده ، وإذا فرَّقني بالحقِّ أشهدني غيري ؛ من الخلق . . فغطَّاني عنه ـ أي : عن الحق ـ

فهو تعالىٰ في ذلك كلِّه محرِّكي غيرُ ممسكي ، ـ وفي نسخة : مُسَكِّني ـ وموحشي غيرُ مؤنسي : ينقلني من حال إلى حال ، فأنا بحضوري عنده أذوقُ طعم وجودي : أتلذَّذ به ! فليته أفناني عنِّي ؛ فمتَّعني بأنسه ومناجاته ، أو غيَّبني عني بالكلية ؛ فروَّحني . تمنَّىٰ أحد الحالين والله تعالىٰ يربِّيه بنقله من حال إلى آخر لمصلحته ، وهو أعلمُ منه بها .

و٦ ؛ ٧ـ من ذلك : الهيبة والأنس

رتبتهما : وهما فوق القبض والبسط رتبةً ، فكما أن القبض فوقَ رتبةِ : منزلة الخوف ؛ والبسط فوقَ منزلة الرجاء . . فالهيبة أعلىٰ من القبض : فوقَه ، والأنس أتمُّ من البسط[1]: فوقه . فالهيبة ناشئة من القبض الناشىء من الخوف ، والأُنس ناشىءٌ من البسط الناشىءِ من الرجاء ، لأنَّ مَن خاف من الله وعرف تقصيره في حقِّه تعالىٰ انقبض قلبه، وبقي مشغولاً بالله فيحصل له الأُنس به ، ومَن أمل وصوله إلى خير انبسط قلبه وبقي مشغولاً بالله ، فيحصل له الأُنس به .

حقُّ الهيبة : وحقُ الهيبة الغيبة للهائب ؛ فكلُّ هائب من شيء غائبٌ عن غيره .

ثمَّ الهائبون يتفاوتون في الهيبة على حسب تباينهم في الغَيْبة ؛ فمنهم مَن تطول غيبته ، ومنهم من تقصر غيبته . . على حسب هيبته ممن اشتغل به ؛ وإجلالِه له .

حقُّ الأنس : وحقُّ الأُنس صحْو بحقٍّ ، فكلُّ مستأنس لشيء من مقام شريف ونحوه صاحٍ لانشراح صدره .

ثمَّ المستأنسون يتباينون حسبَ : على حَسَب **تباينهم في الشِّرب** : الحظِّ .

محلُّ الأنس : ولهذا قالوا : أدنىٰ محلٍّ : مقام الأنسِ بالله **أنَّه لو طُرح في لظىٰ** : جهنم في نار **لم يتكّدر عليه أُنسه** . وشاهدُه ما فُعل بأبي مسلم الخَوْلاني لمَّا

---

(١) اعلم أنَّ الأُنس له أقسام ؛ ١ ـ أنسٌ بالخلوة ، و٢ ـ أُنس بالعبادة ، و٣ ـ أُنس به تعالىٰ .
أما الأنس بالخلوة ؛ فصاحبه ينقص بالانفصال عنها .
والأُنس بالعبادة يتمُّ بحسب اعتيادها مع النظر إلىٰ وعد جزائها .
والأنس به تعالىٰ ينشأ عن كمال المعرفة بعظمته تعالىٰ وجلاله وجماله وباقي كمالاته .
وصاحبه يستوي عنده الاجتماع بالخلق والانفراد عنهم ، وهو خُلُق الأنبياء والمرسلين .
(عروسي : ٢/٣٩ ؛ باختصار) .

أحرقه العَنَسي المتنبِّىء بالنار لم تؤِّثر فيه ؛ ولم يرجع عن دينه[1] !

ومِن كماله ما فُعل بالخليل عليه السلام لمَّا أُوقد له نار لا يمكن أحدٌ أن يَقْرُب منها ؛ وجعل في منجنيق ورُمي به في الهواء ليقع في النار فلقيَه جبريلُ في الهواء منصبَّاً إلى الأرض في النار ؛ فقال : ألك حاجة ؟! فقال : أما إليك فلا !!.

فلم يتحرَّك عما هو عليه من الأُنس ، ولم يركن إليه مع قدرته بإذن ربِّه على طفئها ، فتداركه الله تعالىٰ بقوله ﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[2] .

حدُّ الأُنس : **قال الجنيد رحمه الله : كنت أسمعُ السَّرِيَّ السقطيَّ ؛ يقول : (يبلغُ العبدُ في الإنس بالله إلى حدٍّ لو ضُرب وجهُه بالسيف لم يشعر) ! وكان في قلبي منه شيء ! حتَّىٰ بان لي أن الأمر كذلك !!.** حيث ذاق ذلك ؛ وعلم أنّ كمال الاستغراق يزيل الإحساس بالنفس بالكليّة ، وشاهدِه خبر : « إِنَّ ٱلشَّهِيْدَ إِنَّمَا يَجِدُ مِنَ ٱلمَوْتِ كَمَا نَجِدُ مِنَ ٱلقَرْصَةِ »[3] لخِفَّة ذلك عليه بكمال شغله بجهاده ؛ فيأتيه الموت بالسيف . . ولا يحسُّ به إلاَّ كما يحسُّ بالقرصة .

وحُكي عن أبي مقاتل العكِّي أنَّه قال : دخلتُ على الشِّبليِّ ؛ وهو ينتفُ الشعرَ من حاجبه بمِنْقَاش[4] ؛ فقلت له : يا سيِّدي ؛ أنتَ تفعل هذا بنفسك ؛

---

(1) **الخولاني** هو ريحانة الشام أبو مسلم عبد الله بن ثُوَب ، أصله من اليمن ، أدرك الجاهلية وأسلم في حياة رسول الله ﷺ لكن لم يلقه ! فهو تابعيٌّ مخضرم ، عابد زاهد ، من حكماء هذه الأمة وفقهاء التابعين ، قدم المدينة علىٰ عهد عمر ، ثم هاجر إلىٰ الشام وتوفي بها ودفن في داريا (من ريف دمشق) سنة اثنتين وستين . وقصته مع الأسود العنسي معروفة .

والعنسي هذا كان قد تنبأ باليمن ، وأراد لأبي مسلم أن يشهد له ، فشهد بتكذيبه مما أثار غضبه عليه فأجج ناراً عظيمة ورماه بها ، لكن أبا مسلم خرج يسعىٰ وقد خَمَدت من حوله النيران ، فلم يجد العنسي بدّاً من نفيه لئلا يفسد عليه حاشيته ، فقدم المدينة ، ولما رآه عمر رضي الله عنه قال : الحمد لله الذي لم يمتني حتىٰ أراني من أمة محمد ﷺ أمثال خليل الرحمان إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وانظر ما سيأتي ص ١٠١٠ ، ١٠١٢ .

(2) الآية : ٦٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

(3) أخرجه أحمد ٢/٢٩٧ ، والترمذي : ١٦٦٨ ، والنسائي : ٣١٦١ ، وابن ماجه : ٢٨٠٢ ، والدارمي : ٢/٢٠٥ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(4) منه يعلم أنّه يصدر عنهم أشياء ظاهرها المخالفة بسبب غلبة الحقيقة عليهم ؛ فيتداوون بها ، وربُّك أعلم بأسرار خلقه (عروسي : ٢/٤١) .=

ويعودُ ألمه إلىٰ قلبي ! ! !

فقال : ويلك ؛ الحقيقةُ ظاهرة لي ؛ ولست أطيقُها ـ وفي نسخة : أطيقه : الحال الذي ورد عليَّ !ـ فهوذا : فالسبب هذا ، **فأنا أُدخِل الألم علىٰ نفسي ؛ لعلِّي أُحسُّ به فيَسْتَتِرُ عَنِّي ألمُ ما لا أطيقه ! فلستُ أجدُ الألم ؟** من نتف الشعر المذكور ، **وليس يستتر عني ألم الحقيقة ؛ وليس لي به طاقة . .**

توضيح : فيه دلالة على أنَّ مبادىء أوائل استغراقه كان في أمرٍ لا يطيق حمله ، فكان يجذب شعر حاجبه ليُحِسَّ بالألم فيتفرَّق عنه ما أدرك أوائله ، وأحسَّ من نفسه العجز عنه !! ففيه دلالة على عِظم ما يُدخِل الله العبد فيه من الأحوال العالية التي لا قدرة له على حملها ؛ كما مرّت الإشارة إليه .

حالهما : وحال الهيبة والأنس ؛ وإن جَلَّتا !! عظمتا . . فأهل الحقيقة يعدُّونَهما نقصاً ، لتضمُّنِهما تغيُّر العبد من حال إلى حال ، فإنَّ أهلَ التمكين ؛ وهم المتمكِّنون في مقاماتِهم سَمَت : ارتفعت أحوالُهم عن التغيُّر ؛ وهم محوٌ في وجود العين : الحقِّ ، فلا هيبةَ لهم ؛ ولا أنس ، ولا علمَ ولا حِسّ . بخلاف صاحبَيْ الهيبة والأُنس ، فإنَّهُما مفرِّقان لإدراك الأول كونه هائباً ، والثاني كونه مستأنساً ، **ولأنَّهُما مع الوجد ؛ وهو هيبة وإجلال وطرب وأُنس . . لا مع الوجود** ، فلم يكمل استغراقه .

حالةٌ وترقٍّ : والحكاية الدَّالة على هذا معروفةٌ ؛ عن أبي سعيد الخَرَّاز رحمه الله ؛

أنه قال : تِهتُ في البادية مَرَّة ؛ وأنا سائح طيِّبُ العيش . . مستأنسٌ بالله ؛ فرحٌ بكمال أنسي ؛ كما قال تعالىٰ ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1] .

فكنت أقول[2] **إخباراً عن حالي بما أجراه الحقُّ على لساني :**

= قلت : لا مخالفة في النتف لمن كان ملتحياً ! لأنَّ ما يزال من شعر الوجه زائداً عن اللحية . . يجوز إزالته بأية وسيلة أراد ! طالما لن يكن فيه تشبه أو تغيير لخلق الله .

(١) الآية : ٥٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : يونس عليه الصلاة والسلام .

(٢) أَتِيــهُ فَــلا أَدْري مِــنَ ٱلتِّيْــهِ مَــنْ أَنــا   سِوىٰ ما يَقُولُ ٱلنَّاسُ فِيَّ وَفِيْ جِنْسِي !=

أَتِيْهُ فَلاَ أَدْرِي مِنَ ٱلتِّيْهِ : من أجله المقتضي لكمال شغلي بحالي مَنْ أَنَا : فلا أدري نفسي وما يتعلَّق بها

سِوَىٰ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِيَّ وَفِي جِنْسِي ممَّا مَنَّ اللهُ به عليَّ فأُدركه

أَتِيْهُ عَلَىٰ جِنِّ ٱلبِلاَدِ وَإِنْسِهَا : لم ألتفت إلى جنٍّ ولا إنس

فَإِنْ لَمْ أَجِدْ شَخْصَاً منهما أَتِيْهُ عَلَىٰ نَفْسِي : لم ألتفت إليها

قال : فسمعتُ لَمَّا أعجبني حالي وما أنا فيه من حسن مقامي هاتفاً من ملك أو وليٍّ أو جنيٍّ من قِبَل الله يهتف : يصيح بي ؛ ويقول[1] :

أَيَا مَنْ يَرَىٰ ٱلأَسْبَابَ : أسبابَ الوصول إلى الحقيقة من الهيبة والأُنس ونحوهما أَعْلَىٰ وُجُودِهِ

وَيَفْرَحُ بِالتِّيْهِ ٱلدَّنِيِّ وَبِٱلأُنْسِ

فَلَوْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ ٱلوُجُودِ : وجود الحقِّ حَقِيْقَةً بأن غلب وجوده على قلبك

لَغِبْتَ عَنِ ٱلأَكْوَانِ وَالعرشِ وٱلكُرْسِي

الشامل لهما الأكوان ، وإنَّما أفردهما بالذكر ! لعظم أمرهما ، والمراد : لَغِبْتُ عن سائر المخلوقات ؛ من مقامٍ وحالٍ ووَجْدٍ وغيرهما . . كما ذكر بعضها بقوله :

وَكُنْتَ بِلاَ حَالٍ بل كنت مَعَ ٱللهِ وَاقِفَاً تُصَانُ عَنِ التِّذْكَارِ لِلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ

وإنَّما يرتقي العبدُ عن هذه الحالة إلىٰ أخرى أرفعَ منها بالوجود .

دَلَّه الحقُّ تعالىٰ بما سمعه من الهاتف على مقامٍ أرفعَ من مقامه !! لئلا يعجب بنفسه ، ولتتعلَّق همَّتُه بما هو أرفعُ منه ، فعلم أنَّ الوجود أرفع من الوجد . وسيأتي بيانهما على الإِثْر .

= أَتِيْــهُ عَلَــىٰ جِــنِّ ٱلبِــلادِ وَإِنْسِهَــا فَإِنْ لَمْ أَجِدْ شَخْصاً أَتِيْهُ عَلَىٰ نَفْسِي !

والبيتان من البحر : الطويل .

(١) أَيَا مَنْ يَرَىٰ ٱلأَسْبَابَ أَعْلَىٰ وُجُودِهِ وَيَفْـرَحُ بِـٱلتِّيْـهِ ٱلـدَّنِـيِّ وَبِـٱلأُنْـسِ
فَلَوْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ ٱلوُجُودِ حَقِيْقَةً لَغِبْتَ عن ٱلأكوانِ وَٱلعَرْشِ وَٱلكُرْسِي
وَكُنْـتَ بِـلا حَـالٍ مَـعَ ٱللهِ وَاقِفـاً تُصَانُ عَنِ ٱلتِّذْكَارِ لِلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ

و٨ ؛ ٩ ؛ ١٠ـ من ذلك : التواجد ، والوجد ، والوجود[١]

معانيها : ١ـ التواجد : **فالتواجد استدعاءُ الوجد** : طلبه واكتسابه بضرب اختيار ، وقريب منه قول الغزالي : التواجد استدعاءُ الوجد ؛ والتشبُّه في تكلُّفه بالصادقين من أهل الوجد . فالتواجد تفاعل في اكتساب الوجد ؛ وإن كان أصلُ باب التفاعل . . إنَّما يصحُّ من اثنين ، لكنه لما استدعىٰ الوجد وعَسُر عليه ، ثمَّ استدعاه أشبه التفاعل .

والوجد غلبة ما كان يبعثه ؛ ويتواجد له على قلبه ، كما يُعلَم ممَّا يأتي .

---

(١) اعلم وفَّقني الله وإيَّاك أنَّ الوجد له أسباب ؛ وإليه أبواب ، وعليه حدود ، وله شروط ؛ وزمان ؛ ومكان ؛ وإخوان .

أما **أسبابه** . . فـ ١ ـ العلم بلا غفلة ، و٢ ـ العمل بلا فترة .

وأما **أبوابه** . . فـ ١ ـ الصفاء فلا جفوة ، و٢ ـ الوفاء فلا هفوة .

وأمّا **حدوده** . . فـ ١ ـ صحوٌ بلا سُكْر ، و٢ ـ حضور بلا غَيْبة ، و٣ ـ معرفة بلا نكرة .

وأما **شروطه** . . فـ ١ ـ قيام بلا سهو ، و٢ ـ حركة بلا كسل ، و٣ ـ أدب بلا لهو ، و٤ ـ إنصاف بلا لغو .

وأمّا **زمانه** . . فـ ١ ـ وقت بلا مقت ، و٢ ـ ساعة بلا إضاعة .

وأمّا **مكانه** . . فـ ١ ـ جلوس خالٍ عن الأهواء ؛ وعارٍ عن الدعوىٰ ؛ وعامر بالتقوىٰ .

وأمّا **إخوانه** . . فـ ١ ـ إخوان ليست فيهم خوَّان ، و٢ ـ نُدْمانٌ ليس فيهم نَدْمان . (عروسي : ٢/ ٤٢) .

واعلم أن حال **التواجد** مثل حال موسىٰ عليه السلام حين لاحت له أنوار الطور . . ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ ، وحال **الوجد** مثل حاله حين أتىٰ الشجرة فوجد ناراً لا تشبه النار . . إن بَعُد عنها قَرُبت ، وإن قَرُب منها بَعُدت فهو عنها في عجب وطرب . . بين وجد وفقد ، وحال صاحب **الوجود** كحاله عليه السلام حين سمع ﴿ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ فافهم . (عروسي : ٢/ ٤٤) .

والوجود حصول ذلك في القلب وتواليه عليه ؛ من غير تكلُّف .

وفسَّر أبو بكر الكلاباذي التواجد بظهور أثر الوجد الباطني على الظاهر للمبتدئين، فالتواجد شأن المبتدئين، فإنَّهم لضعفهم لا يقدرون على حمل ما يَرِدُ على بواطنهم من الأحوال ، فيظهر أثره على ظاهرهم ؛ نحو البكاء والشهيق .

بخلاف الأقوياء فإنَّهم كالجبال ؛ فلا انزعاج لهم في الظاهر ؛ ولا اضطراب لتمكُّنهم . وإن اتفق لهم مبادى تغيُّر في بعض الأحوال ؟ سكنوا عقب ذلك ، لقوَّتهم على حمل الواردات .

وقد رُوي إنَّه قرىء شيء من القرآن بحضرة أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه فتواجد بعض الحاضرين وبكىٰ ! فقال أبو بكر : هكذا كنَّا حتَّىٰ قست قلوبنا : قويت وصلُبَت في دين الله تعالىٰ ، وزال عنها الضعف الذي كان بها في ابتداء الأمر ؛ كما لهذا الذي بكىٰ ، وذلك لإلفها وأُنسها بمعاني القرآن ، فصارت لا تستغرب شيئاً منها إذا ورد عليها ، بخلاف المبتدىء !

وليس لصاحبه ـ أي : التواجد ـ **كمالُ الوجد ؛ إذ لو كان** . . له ذلك . . **لكان واجداً** : ذا وجودٍ ؛ لا ذا وجدٍ ! **وباب التفاعل أكثره على إظهار الصِّفة** ؛ و الحالة أنَّها **ليست كذلك** : مظهرة . . . وجدت أم لا ؛ نحو (تعامى) و(تجاهل) .

قال الشاعر[1] :

إِذَا تَخَازَرْتُ وَمَا بِي مِنْ خَزَرْ : صغرُ عين

ثُمَّ كَسَرْتُ ٱلعَيْنَ مِنْ غَيْرِ عَوَرْ

حكمه : فقوم قالوا : التواجدُ غيرُ مسلَّم لصاحبه ، لما يتضمَّنـه من التكلُّف .

وهذا يبعد عن التحقيق .

وقوم قالوا : إنَّه مسلَّم للفقراء المجرَّدين ، الذين ترصَّدوا لوجدان هذه المعاني ، بخلاف غيرهم .

---

(١) إذا تَخازَرْتُ وَمَا بِي من خَزَرْ ثُمَّ كَسَرْتُ ٱلعَيْنَ مِنْ غَيْرِ عَوَر

قيل : وفي هذا نظرٌ ! فإن المتواجد . . إن كان صادقاً في تطلُّب وَجْدِه ؛ فلا فرق بين المتجرّد وغيره في صحّة تطلُّبه ، وإلاَّ ! فهو مرائي أو متشبِّعٌ بما لم ينل !! وكلٌّ منهما محذور . والمختارُ صحّة التواجد مطلقاً .

صحته : وأصلهم في صحّته شيئآن : أحدهما خبرُ رسول الله ﷺ : « اِبْكُوا ـ : إن طرقكم البكاء لله ـ فَإِن لَمْ تَبْكُوا فتَبَاكُوا[1] » : فاستجلبوا البكاء بالتفكُّر في أسبابه .

تحكُّمه في وجده : وثانيهما الحكاية المعروفة لأبي محمد الجُرَيري رحمه الله ؛ أنه قال :

كنتُ عند الجنيد رحمه الله ، وهناك ابنُ مسروقٍ وغيرُه ؛ وثَمَّ قوَّال ينشد لهم ، فقام ابن مسروق وغيره مستمعين . . والجنيدُ ساكن ؛ فقلت له : يا سيدي ؛ مالك في السماع شيء ؟! .

فقال الجنيد : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ .

فيه دلالة على قوَّة حفظه لحاله مع كمال وَجْده ! ثم قال : وأنت يا أبا محمد ؛ ـ يعني الجُرَيري ـ مالَكَ في السماع شيء !؟

فقلت : يا سيِّدي ؛ أنا إذا حضرت موضعاً فيه سماعٌ وهناك محتَشَم : مستحياً منه . . أمسكت على نفسي وجدي : لكمال قوَّته ، فإذا خلوت بنفسي . . أرسلتُ وَجْدي الذي كنت أمسكتُه على نفسي فتواجدت به .

فأطلق أبو محمد في هذه الحكاية « التواجد » ؛ ولم ينكر ه عليه الجنيد !! فدلَّ على صحَّته .

حرمة الشيوخ : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول :

لَمَّا راعىٰ أبو محمد أدبَ الأكابر ـ وفي نسخة : الأدب للأكابر ـ في حال السماع ؛ حفظ الله عليه وقته ، لبركات الأدب معهم . . حتَّىٰ يقول : أمسكتُ على نفسي بحضرتهم وجدي ، فإذا خلوت بنفسي أرسلت وجدي الذي كنتُ أمسكتُه على نفسي ؛ فتواجدت به ، لأنه لا يمكن لا يتأتَّىٰ لك إرسالُ الوجد إذا

---

(١) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » : ٣٥٦ ؛ عن عبد الله بن عَمْرو ، وأحمد في « الزهد » : ١٣٥ ؛ عن أبي بكر رضي الله عنه ، والبغـوي في « شرح السنَّة » : ٤٤١٨ ؛ عن أنس رضي الله عنهم .

شئتَ بعد ذهاب الوقت وغَلَباته ، ولكنَّه لَمَّا كان صادقاً في مراعاة حرمة الشيوخ حفظ الله تعالىٰ عليه وقته ، حتى أرسل وجده عند الخلوة .

فالتواجدُ : كمالُه ابتداءُ الوجد على الوصف الذي جرىٰ ذكره ، وبعد حصول هذا يحصل الوجدُ .

٢ـ الوجد : والوجد : ما يصادف قلبك وَيَرِدُ عليك ؛ بلا تعمُّدٍ وتكلُّف .

ولهذا قال المشايخ من الصوفية : الوجد المصادفةُ ، والمواجيدُ ـ جمع وجد ؛ على غير قياس ـ ثمراتُ الأوراد : مترتِّبة عليها بواسطة المنازلات ـ كما سيأتي ـ تفضلاً ؛ لا بالاكتساب ، فكلٌّ من ازدادت وظائفه من الأوراد . . ازدادت من الله لطائفه الأخروية والدنيوية .

تكلُّف الوجد : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاقَ رحمه الله ؛ يقول : الوارداتُ إنَّما تحصُل من حيث الأورادُ ، فـعليه من لا وِرد له بظاهره ؛ لا ورد له في سرائره ، وكلٌّ وجد فيه من صاحبه شيءٌ من صنعه . . فليس بوجد حقيقيٍّ .

وكما أنَّ ما يتكلَّفه العبدُ من معاملاتٍ ظاهره الصالحة يوجب له حلاوةَ الطاعات في قلبه ؛ فما ينازله : ينتقل إليه العبدُ من أحكام باطنه ؛ من درجات المقامات . . كورع وزهد وتوكُّل ورضا وتسليم ومحبَّة وأُنْس . . يوجب له المواجيد ؛ من رجاءٍ لحصول ما طلبه ، أو خوفٍ من فواته ، أو شكر لإسباغه ، أو شوقٍ لكمال حصوله .

فالحلاوات الحاصلة في القلب ثمراتُ المعاملات المستقيمة ،

والمواجيد نتائج المنازلات التي هي نتائج الأوراد والمعاملات .

٣ـ الوجود : وأما الوجود ! فهو إنَّما يحصل بعد الارتقاء عن الوجد ، ولا يكون وجودُ الحقِّ عند العبد إلاَّ بعد خمود البشرية : غيبته عن إحساسه بها ، لأنَّه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة . لأنَّ العبد ما دام مدرِكاً لنفسه ممتَّعاً بوجده . . فبشريته حاصلة ، وإذا اشتغل بالحقِّ كمالَ الشغل حتى نسي كونه مشتغلاً به . . صار الغالبُ عليه إدراكَ الحقِّ خاصَّة ، وعبَّروا عن هذه الحالة بالوجود .

الوجد والفقد : وهذا معنى قول أبي الحسين النوري (أنا منذ عشرين سنة بين الوجد والفَقْد) : إذا وجدتُ ربي فقدتُ قلبي ، وإذا وجدت قلبي فقدت ربِّي : فأنا مستغرق في وجود الحقِّ ، فلا يصحُّ وجوده عند العبد إلاَّ بعد غفلته عن قلبه .

وهذا معنى قولِ الجنيد (علم التوحيد : تحصيله تصوُّراً وتصديقاً مباينٌ لوجوده : ـ التوحيد ـ ووجودُه مباينٌ لعلمه) .

يعني أنَّ العبد يكون عالماً بالتوحيد بالاستدلال بالآثار ، ولا يكون واجدا له ، لأنَّ وجوده لا يبقىٰ للعبد معه إحساسٌ بنفسه ؛ فضلاً عن علمه ؛ به واستدلالِه عليه .

توسط الوجد : وفي هذا المعنى أنشدوا[1] :

وجُودِي ـ وهو الحالة التي يغلب فيها على القلب إدراك الحقِّ ـ أَنْ أَغِيْبَ عَن ٱلوُجُودِ : الخلق

بِمَا يَبْدُو عَلَيَّ مِنَ ٱلشُّهُودِ

فصاحبُ الشهود حالُه الوجود ، والوجدُ حينئذ مفقودٌ عنه ؛ لاشتغاله بالشهود .

خلاصة : فالتواجد بداية ، والوجود نهاية ، والوجدُ واسطة بين البداية والنهاية .

فعُلم من جميع ما ذُكر أنَّ الوجود استغراقٌ في الحقِّ ، والتواجد طلب الوجد ، والوجد إدراك آثار الوجود ؛ والتنعُّم بآثار قُرْبه ، فلهذا كان واسطةً بين الطلب ووجود الأدب .

وأشار إلى انتقال أحوال الطالب بذلك ؛ فقال :

لازم المواجيد : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق ؛ رحمه الله يقول :

التواجدُ يوجب استيعاب العبد بالاجتهاد في طلب الوجد ، والوجد يوجب استغراق العبد في مطلوبه ، والوجودُ يوجب استهلاك العبد بكمال اشتغاله بالحقِّ بحيث ينسىٰ نفسه ، فضلاً عن غيره .

مثاله : فهو ـ: العبد ـ كمن شَهِد البحر وأهواله ؛ ثمَّ ركب البحر لحاجة دعت إلى

---

(١) وُجُودِي أَنْ أَغِيْبَ عَنِ ٱلوُجُودِ   بِمَا يَبْدُو عَلَيَّ مِنَ ٱلشُّهُودِ
والبيت من البحر الوافر .

ركوبه ، ثم غرق في البحر ! فإنَّ إقدامه على ركوبه إنَّما حصل بطلبه واجتهاده في حصول مقصدوه . فإذا ركبه واختلفت عليه أمواجه . . قوي عليه حالُه واشتدَّ قلقه ، فإذا غرق فيه . . زال عنه خوفه وقلقُه لحصول المخوِف واستغراقه فيه ، ولذلك قيل :

إِنَّمَـــا أَجْـــزَعُ مِمَّـــا أَتَّقِـــي   فَإِذَا حَلَّ فَمَالِي وَٱلْجَزَعْ !؟[1]

ترتيب الأحوال : وترتيبُ هذا الأمر ؛ وهو الانتقال من حال إلى حال : ١ـ قصودٌ ، ثم ٢ـ ورود ، ثم ٣ـ شهود ، ثم ٤ـ جمود ، ثم ٥ـ خمود .

وبمقدار الوجود يحصل الخمود ، وصاحبُ الوجود له صحوٌ ومحو[2] ، فحالُ صحوه بقاؤه بالحقِّ ، وحالُ محوِه فناؤه بالحقِّ ، وهاتان الحالتان أبداً متعاقبتان عليه . .

فإذا غلب عليه الصَّحوُ بالحقِّ . . فبه يصول ؛ وبه يقول ، قال ﷺ : فيما أخبر عن الحقِّ في خبر : « ﴿ فَبِي يَسْمَعُ ، وَبِي يُبْصِرُ ﴾ »[3] . وفي خبر آخر : « بِكَ أَصُولُ وَبكَ أَقُولُ »[4] . وفي آخر : « بِكَ خَاصَمْتُ وَبِكَ حَاكَمْتُ »[5] .

أثر الوجد : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمِيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت منصور

---

(١) أجزع : أخاف . أتقي : أحذر . حلَّ : وقع . والبيت من البحر السريع .

(٢) **واعلم** أنّ المحو أنواع . . ١ ـ **فمحو** أرباب **الظواهر** رفعُ أوصاف العادة والخصال الذميمة ، و٢ ـ **محو أرباب السرائر** إزالةُ العلل والآفات ، و٣ ـ **المحو الحقيقيُّ** هو فناء الكثرة في الوحدة ، و٤ ـ **محو عين العبد** هو إسقاط إضافة الوجود إلىٰ الأعيان ، إذ هي شؤون ذاتية ظهرت في الحضرة الواحدية بحكم العالمية . (عروسي : ٢/ ٤٨) .

(٣) تقدَّم تخريجه ص ٣٦ .

(٤) أخرجه : أحمد : ٢/ ١٣٢ ، وأبو داود : ٢٦٢٣ بلفظ « اللَّهُمَّ ؛ أَنْتَ عَضُدِيْ ونَصِيْرِي ؛ بِكَ أَحُولُ ، وَبِكَ أَصُولُ ، وبِكَ أُقاتِلْ . وأخرجه النسائي في « عمل اليوم والليلة » : ٥٦٢ ، والحاكم : ٢/ ١٠٠ وصحَّحه ووافقه الذهبي .
قال العروسي (٢/ ٤٩) : فيكون حاله في الأقوال والأفعال بلسان الحقِّ . وبذلك قد ينسبهم أهل الغفلة إلىٰ الزندقة والكفر والابتداع .

(٥) أخرجه مسلم : ١٩٩ ـ ٧٦٩ ؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ابن عبد الله ؛ يقول : وقف رجلٌ علي حلقة الشبليِّ ؛ فسأله :

هل تظهر آثارُ صِحَّة الوجود على الواجدين ؟ .

فقال : نعم ؛ يظهر نورٌ يزهِرُ مقارناً لنيران الاشتياق : مترتِّباً عليه ، فتلوحُ على الهياكل : الأشخاص آثارُها ، لأنَّ العبد متى قوي اشتياقه لمطلوبه حتَّى شغله عن نفسه بما أطلعه الله عليه من خَفيٍّ لطفه . . ظهر ذلك على بدنه ؛ فيُكلَّم ولا يسمع ، ويُمرُّ به ولا يَشعُر ، ويظهر نور باطنه على وجهه وبدنه ؛ ـ كما قال ابن المعتز[1] :

وَأَمْطَرَ ٱلكَأسُ مَاءً مِنْ أَبَارِقِهَا : الكأس التي فيها الخمرة

فَأَنْبَتَ ٱلدُّرَّ فِي أَرْضٍ مِنْ ٱلذَّهَبِ

وَسَبَّحَ ٱلقَوْمُ لَمَّا أَنْ رَأَوْا عَجَباً نُوراً مِنَ ٱلمَاءِ فِي نَارٍ مِنَ ٱلعِنَبِ

شبَّه الخمرة من حيث تأثيرُها بالنار ؛ ومن حيث صفاؤُها الحاصلُ من الماء : عصير العنب بالنُّور

سُلاَفَةٌ : خمرة وَرِثَتْهَا عَادُ عَنْ إِرَمٍ كَانَتْ ذَخِيْرَةَ كِسْرَىٰ عَنْ أَبٍ فَأَبِ

قيل : لا حاجة للتشبيه بما قاله من ذكر الوصف للخمر وكمال وصفها ، وإنها مدَّخرة أبا عن أب ؛ بل لو تَرَكه كان أولى ، لكنَّه إنَّما قصد به لطافةَ ما وجده من حاله ، وحسنَ ما يشاهده وكمال نوره في محلِّه .

الدُّقِّي وجهم : وقيل لأبي بكر الدُّقِّي (إنَّ جهماً الدُّقِّيَّ أخذ شجرة بيده في حال السماع في ثورانه ؛ فقلعها من أصلها) !؟ فاجتمعا في دعوة : وليمةٍ ، وكان الدُّقِّيُّ قد كُفَّ بصره ، فقام جهمٌ الدُّقِّيُّ يدور في حال هيجانه ؛ وربَّما وجد في نفسه

---

(١) هو (خليفة يوم وليلة) أبو العباس عبد الله بن محمد (المعتز بالله) اِبن المتوكل (حفيد الرشيد) شاعر مبدع وله تصانيف أخرىٰ ، توفي خنقاً سنة ست وتسعين ومئة .
والأبيات في ديوانه ص٧٥ (ط . صادر) وهي من البحر البسيط :

وَأَمْطَـرَ ٱلكَـأْسُ مَـاءً مِـنْ أَبَـارِقِهـا فَأَنْبَتَ ٱلدُّرَّ فِي أَرْضٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ
وَسَبَّـحَ ٱلقَـوْمُ لَمَّـا أَنْ رَأَوْا عَجَبـاً نُوراً مِنَ ٱلمَاءِ فِيْ نَارٍ مِنَ ٱلعِنَبِ
سُـلافَـةٌ وَرِثَتْهَـا عَـادُ عَـنْ إِرَمٍ كَانَتْ ذَخِيْرَةَ كِسْرَىٰ عَنْ أَبٍ فَأَبِ

استحساناً لكمال حاله وقوّته ! فأوقع الله في نفس الدُّقِّي أن يُعجز جهماً ليرجع عن ذلك ويتأدَّب في نفسه ! فقال الدُّقِّيُّ : إذا قرب مني ، أَرُونِيْهِ : أعلموني به .

وكان الدُّقِّيُّ ضعيفاً فمرَّ به ، فلما قرب منه . . قالوا له : هذا هو . فأخذ الدقي مع ضعفه ساقَ جهمٍ مع قوَّته فوقفه ، فلم يمكنه أن يتحرَّك . فقال جهم : أيُّها الشيخ ؛ التوبةَ . . التوبة . . عما وقع لي من استحسان حالي ! فَخَلاه .

قال الأستاذ الإمام القشيريُّ أدام الله جماله : فكان ثورانُ جهمٍ في حقٍّ ، وإمساكُ الدُّقي بساقه بحقٍّ ، ولما علم جهمٌ أنَّ حال الدَّقِّيَ فوقَ حالهِ . . رجع إلى الإنصاف واستسلم : انقاد له .

وكذا كلُّ مَن كان حاله بحقٍّ لا يستعصي عليه شيءٌ . لأنَّ الفاعل به ذلك هو الله ، ولا يقاوم عظمة الله شيء ! فأمَّا إذا كان الغالبُ عليه المحوَ ؛ وهو الاستغراق بالكلية ! فلا علمَ ؛ ولا عقل ؛ ولا فهم ؛ ولا حِسَّ له لأنه غائب عن نفسه[1] .

أبو عقال المغربي : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلمي رحمه الله يذكر بإسناده : أنَّ أبا عِقال المغربيَّ أقام بمكَّة أربع سنين لم يأكل ؛ ولم يشرب . . إلىٰ أن مات ! هذا من خوارق العادات . ودخل بعض الفقراء علىٰ أبي عقال ؛ فقال له : سلامٌ عليكم . فقال له أبو عقال : وعليكم السلام . فقال له الرجل (أنا فلان) . فقال أبو عقال (أنت فلان ؛ كيف أنت ؟ وكيف حالك ؟) . . وغاب عن حالته .

قال هذا الرجل : فقلت له (سلام عليكم) . فقال لي (وعليكم السلام) . كأنه لم يرني قطُّ !! .

فقلت (أنا فلان) . فقال لي (أنت فلان ؛ كيف أنت ؟ وكيف حالك ؟) . . وغاب كأنه لم يرني قطُّ !!

---

(١) واعلم أنَّ المحو والرجوع إلىٰ حال الصحو من بساط الحكم في الأوَّل ، ومن بساط الحكمة في الثاني ، وكلاهما من ربٍّ واحد ، إذ الأوَّل من حكم الحقيقة ، والثاني من حكمة الشريعة ، فإذا نظر العبد إلىٰ أنَّ الله واحد في مِنَّته لا ينسب لغيره شيئاً ، إذ هو الذي أجرىٰ المنَّة علىٰ يد الغير ؛ وجعل الشكر عليها عين العبودية فيشكره بشكره ؛ كما يذكره بذكره . . لا من الغير ؛ ولا له . فافهم (عروسي : ٢/ ٥٠) .

ففعلتُ مثل هذا غير مرَّة !؟ فعلمتُ أنَّ الرجل غائبٌ فتركته ، وخرجت من عنده .

صفة أهل الحقيقة : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت عمرَ بنَ محمد بنِ أحمدَ ؛ يقول : سمعتُ امرأةَ أبي عبد الله التروغندي ؛ تقول : **لما كانت أيَّام المجاعة ؛ والناس يموتون من الجوع ؛ دخل [أبو][م] عبد الله التروغندي بيتَه ؛ فرأى في بيته مقدار مَنَوَيْن حِنَطةً** ـ تثنية مَنَا ؛ بالقصر ؛ وهو أفصح من مَنَين ؛ وهو رطلان . قاله الجوهريُّ ـ **فقال : اَلنَّاسُ يموتون من الجوع وفي بيتي حنطة !! فخُولِط في عقله** ؛ بحيث غاب عن نفسه من شدَّة ما دخل عليه بسبب حرصه على الطعام في وقت الاحتياج إليه ، إذ كان حقُّه أن يخرج الفاضل عن قوته ، **فما كان يفيق إلاَّ في أوقات الصلاة يصلِّي الفريضة ، ثم يعود إلى حالته ، فلم يزل كذلك إلى أن مات !** .

دلَّت هذه الحكاية علىٰ أن هذا الرجل كان محفوظاً عليه آداب الشريعة عن غَلَبات أحكام الحقيقة عليه ؛ حيث حفظ في أوقات الصلاة ليصلِّيَ فرضه .

وهذا هو صفةُ أهل الحقيقة ، ثم كان سببُ غيبته عن تمييزه الحاصلة بجوعه لجوع غيره شفقته على المسلمين ، **وهذا** ـ أي : كون المستغرِق يُحفَظ حتَّى يُرَدّ إلى إقامة فرضه ، ثمَّ يردُّ إلى ما كان فيه ـ وفي نسخة : وهذه . أي : الحالة المذكورة ـ **أقوىٰ سِمَة** : علامة للحقيقة لتحقُّقه في حاله المتلبِّس به .

* * *

و١١ ؛ ١٢ـ من ذلك : الجمع والفرق

استعمالهما : لفظ « الجمع والتفرقة » يجري في كلامهم كثيراً .

والجمع مأخوذ من جمع الهِمَّة على الحقِّ تعالىٰ ، والتفرقة مأخوذة من تفرقته في الكائنات مع الحقِّ . والجامع والمفرِّق في الحقيقة هو الله تعالىٰ .

تعريفهما : وكان الأستاذ أبو عليٍّ الدَّقَّاقُ رحمه الله ؛ يقول : الفرقُ ما نسب إليك ، والجمع ما سُلِب عنك .

معناهما : ومعناه : أنَّ ما يكون كسباً للعبد ؛ من إقامة العبودية ، وما يليق بأحوال البشرية ؛ فهو فرق . وما يكون من قبل الحق ؛ من إبداء معان وإسداء : إصابةِ لطف وإحسان . . فهو جمع .

اختلاف الوصف : هذا أدنىٰ أحوالهم في الجمع والفرق ، لأنَّه : أدنىٰ أحوالهم كائن من شهود الأفعال ، فمن أشهده الحقُّ ـ سبحانه ـ أفعالَه من طاعاته ومخالفاته ؛ فهو عبدٌ بوصف التَّفرقة بين العابد والمعبود ، ومن أشهده الحقُّ ـ سبحانه ـ ما يوليه : يعطيه أفعال نفسه سبحانه ؛ فهو : عبدٌ بشاهد : بوصف الجمع ؛ بمعنى مجموع الهمَّة على الحقِّ تعالى .

فإثبات أحوال الخلق عند العبد من باب التفرقة ، وإثبات أحوال الحقِّ عنده من نعت الجمع .

تلازمهما : ولا بدَّ للعبد في سلوكه لمولاه من الجمع والفرق ، فإنَّ من لا تفرقة له لا عبوديَّة له ، ومن لا جمعَ له لا معرفة له ، فقوله ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ إشارة إلى الفرق . . المقتضي للتفرقة بين العابد والمعبود ، وقوله ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ إشارة إلى الجمع المقتضي للتبرِّي من الحول والقوة إلاَّ بالحقِّ ، ويقال (فلان في عين الجمع) : بعين استيلاءِ مراقبة الحقِّ على باطنه ، فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة ، ثم ذكر نوعاً آخر من (التفرقة والجمع) أرفعَ مما مرَّ ؛ فقال :

محمل التفرقة : وإذا خاطب العبدُ الحقَّ سبحانه بلسانِ نجواه . . إما سائلاً ؛ أو داعياً ؛ أو مُثنياً ؛ أو شاكراً ؛ أو متنصِّلاً من ذنبه ؛ أو مبتهلاً : متضرِّعاً . . قام في محلِّ التفرقة ، وإن رأىٰ ذلك من فضل ربهِّ ، لكونه يرىٰ نفسه سائلاً أو داعياً أو غيره .

شاهد الجمع : وإذا أصغىٰ بسرِّه إلى ما يناجيه به مولاه ، واستمع بقلبه ما يخاطبه به ؛ فيما ناداه ، أو ناجاه ، أو عَرَّفه معناه ، أو لوَّح به لقلبه وأراه ؛ فهو بشاهد الجمع لما غلب على قلبه من فعل ربِّه به ، وكونه محلاًّ لجريان لطفه به .

الجمع الأتمُّ : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : أنشد قَوَّالٌ بين يدي الأستاذ أبي سهل الصُّعْلُوكي رحمه الله :

. . . . جَعَلْتُ تَنَزُّهِي نَظَرِي إِلَيْكَ

وكان أبو القاسم النَّصراباذي رحمه الله حاضراً ، فقال الأستاذ أبو سهل : جعلتَ بنصب - وفي نسخة : بفتح - التاء . وقال النصراباذي : بل (جعلتُ) بضمِّ التاء .

فقال الأستاذ أبو سهل : أليسَ عينُ الجمع أتمَّ !؟ . لأنَّ نسبة الأفعال إلى الله أتمُّ من نسبتها إلى العبد ! فسكت النصراباذي ؛ تسليماً للصعلوكي ، واعترافاً بفضيلة ما قاله .

وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ أيضاً يحكي هذه الحكاية علىٰ هذا الوجه .

توضيح : ومعنىٰ هذا : أنَّ من قال « جعلتُ » - بضمِّ التاء - يكون إخباراً عن حال نفسه ، فكأنَّ العبد يقول هذا من عنده . وإذا قال « جعلتَ » - بالفتح - فكأنه يتبرَّأُ من أن يكون ذلك بتكلُّفه ، بل يخاطب مولاه فيقول : أنتَ الذي خَصَصْتَنِي بهذا ؛ لا أنا الذي فعلتُه بتكلُّفِي ؟! .

فالأول على خطر الدعوىٰ لنفسه ، والثاني بوصف التبرِّي من الحول ؛ وبوصف الإقرار بالفضل والطَّول : الغنىٰ . وفرقٌ بين مَن يقول (بجهدي أعبدُك) ؛ وبين من يقول (بفضلك ولطفك أشهدُك) !! . وجَمْع الجمع فوق هذا .

* * *

* *

*

و١٣ـ من ذلك : جمع الجمع

وقد أخذ في بيانه مع بيان الجمع أيضاً بنوع آخر ؛ فقال :

معناه : ويختلف الناس في هذه الجملة على حسب تبايُنِ أحوالهم ، وتفاوتِ درجاتهم ؛ فمن أثبت نفسه وأثبتَ الخلق : سائرَهم وشاهد إيقاع أفعاله طاعةً لله تعالىٰ ؛ فهو بعين التفرقة . . إن أثبت ذلك ؛ ولكن شاهدَ معه الكلَّ قائماً بالحق : بسببه بأن شاهد أفعاله جارية عليه ؛ فضلاً من الله . فهذا هو جمع : نوعٌ آخرُ من الجمع .

جمع الجمع : وإذا كان مختطَفاً عن شهود الخلق ؛ مصطَلَماً : مستأصلاً يعني غافلاً عن نفسه ؛ مأخوذاً بالكلية عن الإحساس بكلٍّ غير بما ـ أي : بسبب ما ـ ظهر واستولى عليه من سلطان الحقيقة ؛ وهي : الحالة التي يغلب فيها على القلب إدراك الحقِّ تعالىٰ . فذاك جمع الجمع .

الفرق الأول : فالتفرقة : شهودُ الأغيار طاعةً لله عزَّ وجلَّ ، والجمع : شهود الأغيار بالله ، وجمع الجمع : الاستهلاكُ بالكلية ؛ وفناء الإحساس بما سوىٰ الله عزَّ وجلَّ عند غَلَبات الحقيقة .

فالحاصل : أنَّ مَن كانت أفعاله لله تعالىٰ وشاهدها طاعة له تعالىٰ . . فهو في التفرقة ، ومن شاهدها جارية عليه فضلاً من الله . . فقد شاهدها بالله فهو في الجمع ، ومن غفل عنها وعن نفسه شغلاً بالله . . فهو في جمع الجمع .

وبعد هذا : جمعِ الجمع حالةٌ عزيزة شريفة يسمِّيها القوم : الفرق الثاني[1] : التفرقة الثانية بالنسبة للتفرقة الأولىٰ .

الفرق الثاني : معناه : وهو : أن يُرَدَّ العبدُ بعد استغراقه إلى الصَّحو عند أوقاتِ أداءِ

---

(١) وهو الإعادة إلىٰ الإحساس بعد المحو بغَلَبات الحقيقة ، ويكون الصَّحو حينئذ بشعائر الشريعة (عروسي : ٢/ ٥٧) .

الفرائض ، ليجري عليه القيام بالفرائض في أوقاتها[1] ؛ فيكون رجوعاً لله : لطاعته بالله تعالى ؛ لا للعبد : لأفعاله ؛ بالعبد .

حال صاحبه : فالعبدُ يطالِعُ نفسَه في هذه الحالة ، في تصريف الحقِّ سبحانه ؛ يشهد مُبدِئَ ذاته وعينَه بقدرته ، ويشهد مُجرِي أفعاله وأحواله عليه ؛ بعلمه ومشيئته ـ بضمِّ ميم « مُبدِئ » و« مُجري » .

والحاصل : أنَّ التفرقة الأُولى وقوف مع أحواله وأعماله ؛ وإيقاعه طاعة لربِّه ، والثانية أن يُرَدَّ إلى نفسه بعد استغراقه ليوقع فرض ربِّه عليه في وقته ، ثم يرجع إلى ما كان فيه من حاله ، وإنَّما كانت هذه عزيزة شريفة !! لكمال حفظ الله لمن أوصله إليه ، وحفظ وقته عليه ، ولو دام استغراقه . . لم يكن آثماً لعذره ، لكن رجوعه إلى القيام بوظائفه زيادة فضيلة له عند ربِّه .

وبالجملة : فرقٌ بين أن يدرك طاعته بنفسه . . وهو مدرِكٌ لها ؛ وأن يدرك نفسه في طاعته مصرفاً فيها ؛ فهو في التفرقة الثانية لم يخرج من جمع الجمع إليها ، بل يردُّه إلى الجمع . بخلاف الأولى ؛ فإنَّ رجوعه فيها إلى نفسه وإدراكه عملَه خروجٌ عن الجمع بالكلية .

ثم ذكر نوعاً آخر من التفرقة والجمع ؛ وهو بالنظر إلى ما سبق للخلق في الإرادة الأزلية ؛ فقال :

تصريف الخلق : وأشار بعضهم بلفظ « **الجمع والفرق** » إلى تصريف الحقِّ جميع الخلق .

فجَمَع الكلَّ من الخلق في التقليب والتصريف ؛ من حيث إنَّه مُنشِئُ ذواتِهم ، ومُجرِي صفاتِهم ، فصاروا مجموعين ، لدخولهم فيما سبق لهم عنده ، ثمَّ فَرَّقهم في التنويع ؛ ففريقاً أسعدَهم ؛ وفريقاً أبعدهم وأشقاهم ، وفريقاً هداهم ؛ وفريقاً أضلَّهم وأعماهم ، وفريقاً حَجَبَهم عنه ؛ وفريقاً جذَبهم إليه ؛ وفريقاً آنسهم بوصله ؛ وفريقاً آيَسهم من رحمته ؛ وفريقاً أكرمهم بتوفيقه ؛ وفريقاً اصطلمهم : غيَّبهم عند رَوْمِهم لتحقيقه ، وفريقاً أصحاهم ؛ وفريقاً محاهم ؛ وفريقاً قَرَّبَهُم ؛ وفريقاً غيَّبهم مطلقاً ؛ وفريقاً أدناهم وأحضرهم ؛ ثمَّ

---

(١) انظر ص ٢٧٦ ما تقدم عن (صفة أهل الحقيقة) .

سقاهم فأسكرهم ؛ وفريقاً أشقاهم وأَخَّرهم ؛ ثمَّ أقصاهم وهجرهم .

وأنواع أفعاله لا يحيط بها حصر ، ولا يأتي علىٰ تفصيلها شرحٌ ولا ذكر ! فالحاصل أنَّ الجمع باعتبار أنَّ كلَّ ما هم فيه مرادٌ له تعالىٰ . . سابق ؛ لا يتغير ولا يتبدل ، والتفرقة باعتبار ما خَصَّ كلاًّ منهم به من قَدَره وأجراه عليه في أبده .

وأنشدوا للجنيد رحمه الله في معنى الجمع والتفرقة[1] :

وَتَحَقَّقْتُكَ بأن أفردتك يا ربِّ فِي سِرْ

رِي فَنَاجَاكَ لِسَانِي ؛ هذا تفرقة ، ولذلك قال :

فَٱجْتَمَعْنَا لِمَعانِي ؛ وهي حال الحقيقة ،

وَٱفْتَرَقْنَا لِمَعَانِي ؛ وهي حال العبادة

إنْ يَكُنْ غَيَّبَكَ ٱلتعـ

ـظيمُ عَن لَحْظِ عَيَانِي في الدنيا ؛ بأن لا أراك فيها ببصري لجلالك وضعفي .

فَلَقَدْ صَيَّرَكَ ٱلوَجْـ

ـدُ مِنَ ٱلأَحْشَاءِ دَانِي : قريباً مني تفضُّلُك عليَّ ، فأراك في الدنيا ببصيرتي .

وأنشدوا أيضاً[2] :

إِذَا مَا بَدَا لي الحقُّ تَعَاظَمْتُهُ فغبت فيه ؛ هذا جمع ،

---

(١) وَتَحقَّقْتُـــــكَ فِـــــيْ سِـــــرْ ... رِي فَنَــــاجَــــاكَ لِسَــــانِــــي
فَــــٱجْتَمَعْنَــــا لِمَعَــــانِــــي ... وَٱفْتَــــرَقْنَــــا لِمَعَــــانِــــي
إنْ يَكُــــنْ غَيَّبَــــكَ ٱلتَّعْـ ... ـظِيْــــمُ عَــــنْ لَحْــــظِ عَيَــــانِــــي
فَلَقَــــدْ صَيَّــــرَكَ ٱلــــوَجْـ ... ـــــدُ مِــــنَ ٱلأَحْشَــــاءِ دَانِــــي
والأبيات من الرمل .

(٢) إذا مــا بَــدَا لِــي تَعَــاظَمْتُــهُ ... فَأَصْدُرُ فِي حَالِ مَنْ لَمْ يُرِدْ
جُمِعْــتُ وَفُــرِّقْــتُ عَنِّــي بِــهِ ... فَفَــرْدُ ٱلتَّــواصِــلِ مَثْنــىٰ ٱلعَــدَدْ
والبيتان من المتقارب .

فَأَصْدُرُ فِي حَالِ مَن لَمْ يَرِدْ ؛ هذا تفرقة : فأرجع إليه في وصف مَن لم يرد محلَّ الورود ، بل ردَّني إليه بفضله فاستغرقتُ فيه ،

فقد جُمِعْتُ وَفُرِّقْتُ عَنِّي : عن نفسي بِهِ ، فالجمع والتفرقة منه وهو واحد ، وأنا المفرَّق المجموع في حالين ،

فَفَرْدُ ٱلتَّوَاصِلِ : فالفرد الذي هو محلُّ التواصل بينه وبين مولاه مَثْنَىٰ ٱلعَدَدْ : اثنان من العدد باعتبار كونه مفرَّقاً ومجموعاً ؛ وهما الحالان .

* * *

و١٤ ؛ ١٥ـ الفَناء والبقاء

وقد بيَّنَهما فقال :

معناهما : أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة : ذهابها عن العبد .

وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة به .

حال العبد بينهما : وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين !! فمن المعلوم لكلِّ عاقل أنَّه إذا لم يكن أحدُ القسمين موجودا كان القسمُ الآخر لا محالة ، فمَنْ فنيَ عن أوصافه المذمومة ؛ كرغبته في الدنيا . . ظهرت عليه الصفاتُ المحمودة ؛ كزهده في الدنيا ، ومَن غلبتْ عليه الخِصال المذمومةُ ٱستترت عنه الصفات المحمودة .

على أن جماعة لم يخصُّوا ذلك بالأوصاف المذمومة ، بل قالوا : ١ـ تارة يفنى العبد عن الأشخاص : يذهب عنه ، و٢ـ تارة يذهب عنه العلوم بالمعلومات ، و٣ـ تارة تذهب عنه الأخلاق المذمومة ، و٤ـ تارة تذهب عنه الأحوال ؛ شغلاً بمحوِّلها .

صفات العبد : واعلم أنَّ الذي يتَّصفُ ـ وفي نسخة : خصَّ ـ به العبد : أفعال ، وأخلاق ، وأحوال . .

فالأفعال : تصرُّفاته باختياره وكسبه .

والأخلاق : جِبِلَّةٌ : طبيعة فيه ، ولكن قد تتغيَّر بمعالجته على مستمرِّ العادة ـ أي : العادة المستمرة ـ .

والأحوال : موهبة تَرِدُ على العبد على وجه الابتداء ، لكن صفاؤها بعد زكاء الأعمال وإخلاصِها لله تعالىٰ ، فهي كالأخلاق من هذا الوجه ؛ وهو تمكُّن العبد من تغييرهما ، لأنَّ العبد إذا نازَل الأخلاق : نازلها وانتقل فيها بقلبه وكسبه . . فينفي من النفي بجهده سَفْسَافها : دنيئَها ؛ كالكبر والغضب ، والحقد والحسد وسوء الخلق . . مَنَّ الله عليه بتحسين أخلاقه المحمودة ؛ كالتواضع والصبر ، وسلامة الباطن ، والزهد وحسن الخُلُق ، روى البيهقيُّ خبر : « إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ ٱلأُمُورِ ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا »[1] . فكذلك إذا واظب على تزكية أعماله ؛ ببذل وُسْعِهِ واجتهاده في تزكيتها وإخلاصها . . . مَنَّ الله عليه بتصفية أحواله ، بل بتوفية أحواله المحمودة .

الأخلاق والأحوال : فوجهُ الشَّبَه بين الأخلاق والأحوال ما مرّ من تمكُّن العبد من تغييرهما : الأخلاق بالرياضة ، والأحوال بإخلاص الأعمال وتصفيتها والدوام عليها .

أنواع الفناء :

١ـ عن شهواته : فمن ترك مذمومَ أفعاله بلسان الشريعة ؛ يقال : إنَّه فَنِي عن شهواته ، فإذا فني عن شهواته . . بقي بِنِيَّته وإخلاصه في عبوديَّته .

٢ـ عن رغبته : ومن زَهِد في دنياه بقلبه ؛ يقال : فني عن رغبته فيها ، فإذا فني عن رغبته فيها . . بقي بصدق إنابته .

٣ـ عن سوء خلقه : ومَن عالج أخلاقَه ؛ فنفىٰ عن قلبه الحسدَ والحقد ، والبخل ، والشحَّ ، والغضب ، والكبر . . وأمثال هذا من رعونات النفس ؛ يقال : فني عن سوء الخلق . فإذا فني عن سوء الخلق . . بقيَ بالفتوَّة والصدق .

---

(١) أخرجه البيهقي في « السنن » : ١٠/١٩١ ، والطبراني في الكبير : ٢٨٩٤ ؛ عن الحسين بن علي وحسَّنه السيوطي .

٤ـ عن حُسْبَان حدثان : ومَن شاهد جَرَيان القدرة في تصاريف الأحكام ؛ من السعادة والضلالة والطاعة والعصيان . . يقال : فني عن حسبان الحدثان : عدَّ الحدوث من الخلق ، فإذا فني عن توهُّم كون الآثار من الأغيار : الأكساب من العبد ؛ لما غلب على قلبه من انفراد الحقِّ بإيجادها . . بقي بصفات الحقِّ تعالىٰ ؛ نظرا إلى قدرته تعالىٰ وإرادته وعلمه .

٥ـ عن الخلق : ومَن استولىٰ عليه سلطانُ الحقيقة حتَّىٰ لم يشهد من الأغيار . . لا عيناً ؛ ولا أثراً ، ولا رسماً ؛ ولا طللا ؛ وهو ما شخص من آثار الدار . . يقال : إنَّه فني عن الخلق وبقي بالحق .

تكميل : هذا القسم يحتمل أنَّه الذي قسمه الأستاذ أبو عبد الله محمد الأنصاريُّ الهرويُّ إلى ثلاثة أقسام حيث قال : الفناء اضمحلال ما دون الحقِّ : علماً ، ثمَّ حجداً ، ثمَّ حقّاً ، فإذا ذهب عنْ قلب العبد العلمُ بالخَلْق شغلاً بالحقِّ . . فقد فني عنه علماً ، فإذا زادت كراهته له . . فني عنه حجداً : إنكاراً ، فإذا ذهب عن قلبه بالكلِّيَّة . . فني عنه حقّاً ، فبمقدار شغله بالحقِّ . . يكون فناؤه عن غيره .

ويحتمل أنَّه القسم الثالث منها !! وهذه الأقسام أرفع ممَّا مرَّ أوَّل المبحث ، لأنها في الفناء عن غير الحقِّ والبقاء مع الحقِّ ؛ وما مرَّ ثَمَّ هو الفناء عن الأخلاق الذميمة ؛ والبقاءُ مع الأخلاق الحميدة .

تحصيل : ففناء العبد عن أفعاله الذميمة ، وأحواله الخسيسة ؛ يكون بعدم هذه الأفعال : بخلوصه عنها .

وفناؤه عن نفسه ؛ وعن الخلق ! يكون بزوال إحساسه بنفسه وبهم . بحيث يكمُل شغله بربِّه .

فإذا فني عن الأحوال[1] والأفعال ، والأخلاق الذميمة ؛ فلا يجوز أن يكون ما فني عنه من ذلك موجوداً عنده ، إذ لا يتحقَّق فناؤه عنه إلاّ بانسلاخه عنه ببقائه مع الأخلاق الحميدة .

---

(١) يرشد كلامه إلىٰ الفرق بين الفناء عمّا للنفس ، وبين الفناء عن النفس والخلق معاً ؛ بأن الأوَّل عدم محض ينافيه وجود شيء ممّا للنفس من الأحوال وغيرها ، والثاني غفلة عن شهودها فقط مع تحقُّق النفس والخلق في ذاتهما (عروسي : ٢/ ٦٤) .

وإذا قيل : فني عن نفسه ؛ وعن الخلق !! فنفسه موجودة ؛ والخلق موجودون . ـ وفي نسخة : فتكون نفسه موجودة ؛ والخلق موجودين ـ .

ولكنه لا علم له بهم . . ولا به ، ولا إحساسَ ؛ ولا خبر ! فتكون نفسهُ موجودةً ؛ والخلق موجودين . . ولكنه غافلٌ عن نفسه وعن الخلق أجمعين ؛ غيرُ محسٍّ بنفسه وبالخلق ، لكمال اشتغاله بما هو أرفع من ذلك .

وبهذا علم أنَّ مَن قال (الفناء ذهاب البشرية) . . لم يُرِدْ به ذهابَها بالكلية ؛ فإنَّها موجودة في نفسها مع لوازمها من اللَّذات والآلام ، بل أراد أنَّها مغمورة بما يطرأ عليها من لَذَّات وآلامٍ أُخَر أعظم من تلك .

مثل الفناء : ولهذا قد ترى الرجل يدخل علىٰ ذي سلطان ؛ أو محتَشَم ، فيذهل عن نفسه وعن أهل مجلسه ممَّا حصل عنده ؛ من الهيبة والتعظيم والإجلال له ، وربَّما يذهل عن ذلك المحتَشَم ، حتَّىٰ إذا سُئِل بعد خروجه من عنده ، عن أهل مجلسه وهيئة ذلك الصدر : المحتشَم وهيئة نفسه وما قاله . . لم يمكنه الإخبار عن شيء من ذلك ؛ لغفلته عنه !! .

قال الله تعالىٰ ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ : أعظمنه ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ بالسكاكين ؛ حيث لم يجدن عند لقاء يوسف عليه السلام على الوهلة : البغتة أَلَم قطع الأيدي ، وَهُنَّ أضعف النَّاس عن تحمُّله ، وقلن ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ ؛ ولقد كان بشراً !! .

وقلن ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[1] !! لما حواه من الحسن الذي لا يكون عادة في البشر ولم يكن ملكاً !! .

فهذا تغافلُ : غفلةُ مخلوقٍ عن أحواله عند لقاءِ مخلوق آخر ، منازعته بيسير من الكمال والجمال ، فما ظَنُّك بمن تكاشُف بشهود الحقِّ سبحانه المنزَّه عن الأشياء والأمثال ، المنفرد بصفات الكمال والجلال !! فلو تغافَلَ : غفل عن إحساسه وأبناء جنسه ؛ فأيُّ أعجوبة فيه ؟! . إذا تقرَّر ذلك . .

ثمرات الفناء : فمَن فنيَ عن جهله . . بقيَ بعلمه ، ومَن فني عن شهوته . . بقي

---

(١) الآية : ٣١ ؛ من السورة التي ذكر فيها يوسف عليه الصلاة والسلام .

بإنابته ، ومَن فني عن رغبته . . بقي بزهادته . . ومن فني عن مُنْيَته : طَلِبته . . بقي بإرادته تعالىٰ .

تعميم : وكذلك القول في جميع صفاته ، فإذا فني العبد عن صفته بما جرىٰ ذكره ؛ من الصفات الجليلة . . يرتقي عن ذلك بفنائه عن رؤية فنائه . لأنه إذا فني عن الأغيار . . فتارة يكون ذاكراً لفنائه ، وتارة يقوى شهوده وشغله بمن استغرق فيه حتى لا يُحسُّ بفنائه ؛ لعدم ذكره أحوالَ نفسه ، وهذا (فناء الفناء) ! فإنه فناء عن فنائه . وإلى هذا مع زيادةٍ أشار قائلُهم بقوله[1] :

وقَومٌ تَاهَ فِي أَرْضٍ بقَفْرٍ لَمَّا أحبُّوه في الفَلَوات والصحاري

وَقَوْمٌ تَاهَ فِي مَيْدَانِ حُبِّهْ حتى شغلهم ذلك عن أنفسهم

فَـأُفْنُـوا ثُـمَّ أُفْنُـوا ثُـمَّ أُفْنُـوا وَأُبْقُوا بِالْبَقَا مِنْ أجل قَرْبِ رَبِّهْ

أَفرَدَ ضمير القوم . . تارة باعتبار لفظه ، وجَمَعه أخرى باعتبار معناه .

ترتيبه : فالأوَّل فناؤه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحقِّ ثمَّ ؛ أي : والثاني وهو أعلى من الأوَّل كما أشار إليه بـ « ثمَّ » فناؤه عن صفات الحقِّ بشهود الحقِّ ، ثمَّ ـ أي : والثالث . . وهو أعظم من الأوَّل والثاني ؛ كما أشار إليه بـ « ثم » ـ فناؤه عن شهودِ فنائه ؛ باستهلاكه فِي وجود الحقِّ .

توضيحه : جعل الفناء والبقاء على ثلاث درجات ١ـ فناء العبد عن صفات نفسه ؛ من أعماله وأخلاقه وأحواله ببقائه مشاهداً لصفات ربِّه ، فإذا اشتغل بكمال الذات المنزَّهة عن الجهات . . فنيَ عن ذكر الصفات ؛ وبقي ذاكراً لفنائه عن الصفات ، فإذا اشتغل بالذات . . فنيَ عن فنائه ؛ وبقي ذاكراً للذات ، وهذا فناء الفناء .

* * *

---

(١) وَقَـوْمٌ تَـاهَ فِـيْ أَرْضٍ بِقَفْـرٍ وَقَـوْمٌ تَـاهَ فِـيْ مَيْـدَانِ حُبِّـهْ
فَـأُفْنُـوا ثُـمَّ أُفْنُـوا ثُـمَّ أُفْنُـوا وَأُبْقُوا بِـالْبَقَـا مِـنْ أَجْـلِ قُـرْبِـهْ
والبيتان من البحر الوافر .

و١٦ ؛ ١٧ـ من ذلك : الغَيْبة والحضور ، ويعبَّر عنه بـ« الشهود »

١ـ الغيبة : فالغَيْبة : غَيبةُ القلب عن علمِ ما يجري من أحوال الخلق ، لاشتغال الحسِّ بما ورد عليه ، بما هو أهمُّ عنده مما هو فيه ، ثمَّ قد يغيب عن القلب إحساسه بنفسه وغيره بواردٍ ورد عليه ؛ من تَذَكُّر ثواب ، أو تفكُّر عقاب ، أو شوق لمحبوب ؛ فيستغرق قلبه فيه ؛ حتَّىٰ لا يلتفت لما سواه ، ولا يُحسُّ بمَن حضره ، فيُكلَّمُ فلا يَسمع ، ويُمَرُّ به فلا يشعر .

مثالها : كما رُوي : أنَّ الربيع بن خَيْثَم كان يذهب إلى ابن مسعود رضي الله عنه فمرَّ بحانوت حَدَّاد ، فرأىٰ الحديدةَ المُحمَّاة في الكِيْر ؛ فغشي عليه ؛ لتذكُّره خروج المذنبين من النار ! أو عند حالهم فيها . . ولم يفق إلى الغد !! مع أنَّه ينادىٰ كلَّ صلاة (يا ربيع . . يا ربيع) فلا يَسمع ولا يعقل ؛ لغلبة حاله واستغراقه في خوفه !! فهو حاضر بقلبه مع المخوف . . غائب عن كلِّ مألوف ، فلما أفاق ؛ سُئل عن ذلك ؟ فقال : تذكَّرتُ كونَ أهلِ النار في النار .

تجاوز الغَيْبة : فهذه غيبة زادت علىٰ حدِّها ؛ حتى صارت غَشْية .

ألهتني عن هذه : وروي عن عليٍّ بن الحسين رضي الله عنه أنَّه كان في سجوده ؛ فوقع حريقٌ في داره ؛ ووقعت حركة وضجَّة عظيمة لذلك على العادة . . فلم ينصرف عن صلاته ، فسُئِل عن حاله؟ فقال : ألهتني النَّار الكبرىٰ عن هذه النار ! باعتبار ما ورد عليه من الآيات التي فيها ذكر النار ، فغاب عما جرىٰ من الحريق !

وربَّما تكونُ الغَيْبة من العبد عن إحساسه بنفسه وغيره ؛ لاشتغاله بمعنىً ـ: بواردٍ ـ مكاشَف به من قِبَل الحقّ سبحانه !

تفاوت الأحوال : ثمَّ إنَّهم ـ أي : مَن يرد عليهم الوارد ـ مختلفون في ذلك ؛ على حسب أحوالهم . فقد يكون الوارد واردَ تعظيم وإجلال ؛ وقد يكون وارد إعطاء وإفضال ! وقد يكون وارد استصغار نفس وعمل واستقلال ! وقد يكون

واردَ بسط وإدلال ! وقد يكون وارد عِزَّة !! فيورث ذبولاً واضمحلالا .

غيبة أبي حفص الحدَّاد : ومن المشهور أنَّ ابتداء حال أبي حفص النيسابوري الحدَّاد : السبب في ترك الحرفة : أنَّه كان علىٰ ـ بمعنىٰ في ـ حانوته ، فقرأ قارىءٌ آية من القرآن ، فورد على قلب أبي حفص واردٌ . . وَجَد به وجداً بحسب ما فتح الله به ، واستغرق فيه ؛ حتىٰ تغافل : غفل به عن إحساسه ؛ فأدخل يده في النار ، وأخرج الحديدة المحمَّاة بيده ، فرأىٰ تلميذٌ له ذلك ؛ فقال : يا أستاذْ ؛ ما هذا !! فنظر أبو حفص إلى ما ظهر عليه من الكرامة ؛ فترك الحرفة وقام من حانوته ، خشية الفتنة !

فالربيع بن خيثم كان وارده الخوفَ من النار ، وهذا كان وارده يشغله عن الخوف من النار .

غيبة الشبلي : وكان الجنيد قاعداً ؛ وعنده امرأتُه ، فدخل عليه الشِّبليُّ ، فأرادت امرأته أن تستتر من الشبلي ؛ فقال لها الجنيد : لا خبرَ للشبلي عنْكِ[1] لا علم له بك فاقعدي .

فلم يزل يكلِّمُه الجنيد بالعلم ؛ ويتحدَّث معه في حاله حتَّىٰ بكىٰ الشبليُّ بعد أن سُرِّيَ عنه ، فلما أخذ الشبليُّ في البكاء ؛ قال الجنيد لامرأته : استتري ؛ فقد أفاقَ الشبلي من غَيْبَته .

وهذا من الواردات المشغلة عن الوقوع في المحذورات ، فيكون العبد في هذه الحالة غيرَ مؤاخذ بما يجري عليه . ويحفظه الحقُّ فيها عن الوقوع في شيء من المحرمات .

غيبة الدقَّاق : سمعت أبا نصر المؤذِّنَ بـ (نَسَا) وكان رجلاً صالحاً ؛ قال : كنتُ أقرأُ القرآن في مجلس الأستاذ أبي عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله بـ (نَسَا) وقت [كونه][م] هناك ؛ وكان يتكلَّم في الحجِّ كثيراً ، فأثَّر في قلبي كلامُه ، وخرجتُ إلى الحجِّ تلك السنة وتركت الحانوت والحرفة . وكان الأستاذ أبو عليٍّ رحمه الله خرج إلى الحج أيضا في تلك السنة ، وكنتُ في مدَّة كونِه بـ (نَسَا) أخدُمُه ،

---

(١) في (ح) : منك .

وأواظب علىٰ القراءة في مجلسه ؛ فرأيته يوماً في البادية قد مضىٰ لقضاء حاجته فيها ، ثمَّ تَطَهَّر بسبب وارد ورد عيه أشغله بالله ونسيَ قُمْقُمةً فيها ماءٌ كانت بيده ! فحملتُها ، فلمَّا عاد إلى رحله وضعتُها عنده ؛ فقال : جزاكَ الله خيراً ، حيث حملتَ هذا .

ثم نظر إليَّ طويلاً كأنَّه لم يرني قطُّ ؛ وقال : رأيتُك مرَّة !! من أنت ؟ فتألّمْتُ لذلك . فقلتُ : المستغاثُ بالله !! قد صحبتُك مدَّة . . وخرجتُ من مسكني ومالي بسببك ، وتقطَّعتُ - وفي نسخة : وانقطعت - في المفازة والأسفار بك : بسببك ؛ وأنت الساعةَ تقولُ (رأيتُك مرَّة ؛ من أنت!!) . وهذا إما لكثرة ورود الأحوال عليه حتى لا يتفرَّغ لملاحظة مَن يصحبه ، أو لحال عظيم ورد عليه في هذا الوقت . . شغله عن إحساسه والنظر لما يعهده ؛ ويعرفه من جلسائه وأصحابه ومن يخدمه ! .

٢- **الحضور** : وأما الحضور ! فقد يكون مَن قام به حاضراً بالحقِّ ، لأنَّه إذا غاب عن الخلق حَضر بالحقِّ ، على معنى أنَّه يكون كأنَّه حاضرٌ ، وذلك لاستيلاء ذكر الحقِّ على قلبه ؛ فهو حاضر بقلبه بين يدي ربِّه [تعالى](م) ، فعلىٰ حسب : قَدْر غيبته عن الخلق يكون حضورُه بالحقِّ ، فإن غاب عن الخلق بالكلِّيَّة . . كان الحضور على حسب الغَيْبة ؛ فيكون حاضراً معه بالكلية .

حضور بحق : فإذا قيل (فلانٌ حاضر مع ربِّه) !! فمعناه أنَّه حاضرٌ بقلبه لربِّه ، غيرُ غافل عنه ؛ ولا ساهٍ ، بل مستديمٌ لذِكْره . ثُمَّ يكون مكاشَفاً في حضوره علىٰ حسب رتبته - وفي نسخة : مرتبته - بمعانٍ يخصُّه الحقُّ سبحانَه بها .

حضور بخلق : وقد يقال لرجوع العبد إلى ما كان فيه من إحساسه بأحوال نفسه ؛ وأحوال الخلق (إنَّه حضر): رجع عن غَيْبَته - أي : يقال الحضور للرجوع المذكور - فهذا يكون حضوراً بخلق ، والأوَّل حضوراً بحقٍّ .

فالحاضر بالمعنى الأول غائبٌ حاضر بالنسبة إلى شيئين ، وبالمعنى الثاني غائب حاضر بالنسبة إلى شيء واحد في وقتين ، وذلك كأنْ يمنَّ الله تعالىٰ عليه بالاشتغال بطرق محمودة ؛ كالحلم والعفو عن مَن يؤذيه ، فهو غائب عن أخلاقه المذمومة . . من الانتصار لنفسه والحقد على مَن يؤذيه ، حاضرٌ مع

أخلاقه المحمودة ! وقد يرجع إلى أخلاقه المذمومة ؛ فيكون غائباً عنها وحاضرا فيها في وقتين !!

أحوالهم : وقد تختلف أحوالُهم في الغَيْبة ؛ فمنهم من لا تمتدُّ غَيبَتُه ؛ مع طولها أو قِصَرها ، ومنهم مَن تدومُ غَيْبَتُه .

غيبة أبي يزيد : وقد حُكي أنَّ ذا النون المصريَّ بعث إنساناً من أصحابه إلىٰ أبي يزيد البَسطامي ؛ لينقل إليه صفة أبي يزيد : أحوالَه ، ولم يكن المبعوث يعرفه ! فلمَّا جاءَ الرَّجُل المبعوث إلى بَسطام ؛ سأل عن دار أبي يزيد ، فدُلَّ عليها ، فدخل عليه . فقال له أبو يزيد : ما تريد ؟ فقال : أريدُ أبا يزيد . فقال له : مَن أبو يزيد !؟ وأين أبو يزيد !؟ أنا في طلب أبي يزيد !!

فيه دليل على كمال استغراقه في أكثر أوقاته ؛ وهو يحبُّ أن لو خُفِّف عنه ما هو فيه ليرجع إلى إحساسه ؛ وينتفعَ بما لا بدّ له منه ، فخرج الرجل من عنده ؛ وقال (هذا مجنون)

ورجع الرجل إلىٰ ذي النون ؛ فأخبره[1] بذلك . فعرف مقام أبي يزيد وأنَّه مشغول عن نفسه بالكليّة [بما شهده !][م] فبكىٰ ذو النون ؛ وقال : أخي أبو يزيد ذَهَب في الذاهبين : المشغولين بالله تعالىٰ عن أنفسهم وسائرِ الخلق إلى الله تعالى .

* * *

* *

*

(١) في (ح) : وأخبره .

و١٨ ؛ ١٩ ـ من ذلك : الصحو والسكر

معنى الصحو : فالصَّحو رجوعٌ إلى الإحساس بعد الغيبة بالسُّكْر ، بخلاف الصحو قبلها[1] .

معنى السُكر : والسُّكر غيبةٌ بواردٍ قوي . فالسُّكر أخصُّ[2] من الغيبة مطلقاً .

ثم ذكر فرقاً آخِر بينهما ؛ فقال :

حال الغائب والمتساكر : والسُّكْر زيادة على الغَيْبة من وجه ؛ وذلك أنَّ صاحب السُكر قد يكون مبسوطاً ؛ وذلك إذا لم يكن مستوفىً في حال سُكْرِه ؛ بأن بقي فيه بقايا لإدراك الأشياء ، وقد يسقط إخطار الأشياء عن قلبه في حال سُكْره ؛ فيكون مستوفىً فيه ، وتلك : الحالة الأولىٰ حالُ المُتَساكر الذي لم يستوفِهِ الوارد فيها ؛ فيكون للإحساس فيه مساغ ، وقد يقوىٰ سُكرُه ! وهي الحالة الثانية التي استوفاها الوارد فيها حتَّىٰ يزيدَ على الغَيْبة ، فربَّما يكون صاحبُ السُّكر أشدَّ : أقوىٰ غَيْبة من صاحبِ الغَيْبة ؛ وذلك إذا قويَ سُكْره ، وربَّما يكون صاحبُ الغَيْبة أتمَّ في الغَيْبة من صاحب السكر ؛ وذلك إذا كان متساكراً غيرَ مستَوْفىً في سكره .

فالسكر فوق الغَيبة من وجه ، والغَيبة فوق السُّكر من وجه . وقيل : السكر يلزمه الطَّرَب ، بخلاف الغيبة . ولو حذف « ربما » في الموضعين !؟ كان أحسن وأخصر .

ثمَّ أشار إلى فرق آخر بينهما فقال :

أهلهما : والغَيبة قد تكون للعُبَّاد والمبتدئين بما يغلب على قلوبهم من مُوجَب الرَّغبة

---

(١) اعلم أنَّ الصحو لا يقال إلاّ لمن سبق له سُكْر (عروسي : ٢/ ٦٩) .

(٢) لأنه لا يكون إلاّ عن وارد ، بخلاف الغَيبة فإنها تكون به وبدونه (عروسي ٢/ ٧٠) .

والرَّهبة ، ومقتضَيات الخوف والرجاء . والسُّكر لا يكون إلاَّ لأصحابِ المواجيدوأهل المحبَّة .

فإذا كُوشف العبد بنعت الجمال حصل السُّكر ؛ وطرب الروح ، وهام القلب ، وسقط التمييز بين ما يؤلمه وما يُلذُّه ، لأنَّ التجلِّياتِ الجماليةَ وشهودَ الصفات الكمالية إذا استولت على العبد بحيث لا يشهد سوى الحقِّ ؛ فتصير الأشياء بالنسبة إليه شيئاً واحداً ، فحينئذ لا يميِّز بين الأشياء ، لغلبة رؤية ما للحقِّ عليه .

وفي معناه : السكر الناشىء من كشف الجمال أنشدوا[1] :

فَصَحْوُكَ مِنْ لَفْظِي : قولي هُوَ ٱلوَصْلُ كُلُّهُ

وَسُكْرُكَ مِنْ لَحْظِي : ملاحظتك لجمالي يُبِيْحُ لَكَ ٱلشُّرْبَا

فَمَا مَلَّ سَاقِيْهَا : المتفضِّل بالإلهام والكشف ، وَمَا مَلَّ شَارِبٌ

عُقَارَ لَحَاظٍ : خمرَ ملاحظة الجمال كَاسُهُ يُسْكِرُ ٱللُّبَّا : العقل .

فبيَّن بذلك أنَّ صحوه بما يفهمه من صريح المقال ، وأنَّ مكره بملاحظة الجلال والكمال ، وأنَّ ما سَكِر به هو ما لَحَظهُ وشاهده من صفات الجلال والكمال .

وشبهه بالعُقار : الخمر ! لكونها مسكرة ، فالمرادبالشارب المتنعِّم باللطف .

وأنشدوا[2] أيضاً :

فَأَسْكَرَ ٱلقَوْمَ دَوْرُ كَاسٍ : شرب الكأس الدائر

وَكَانَ سُكْرِي مِنَ ٱلمُدِيْرِ !!

فبيَّن به أنَّ سكره من الفاعل ؛ لا من الفعل ، بخلاف غيره .

وأنشدوا[3] أيضاً :

---

(١) فَصَحْوُكَ مِنْ لَفْظِي هُوَ ٱلوَصْلُ كُلُّهُ ... وَسُكْرُكَ مِنْ لَحْظِي يُبِيْحُ لَكَ ٱلشُّرْبَا
فَمَا مَلَّ سَاقِيْهَا وَمَا مَلَّ شَارِبٌ ... عُقَارَ لَحَاظٍ كَاسُهُ يُسْكِرُ ٱللُّبَّا
والبيتان من البحر الطويل .

(٢) فَأَسْكَرَ ٱلقَوْمَ دَوْرُ كَاسٍ ... وَكَانَ سُكْرِي مِنَ ٱلمُدِيْرِ

(٣) لِيْ سَكْرَتَانِ وَلِلنُّدْمَانِ وَاحِدَةٌ ... شَيْءٌ خُصِصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي =

لِيْ سَكْرَتَانِ ، وَلِلنُّدْمَانِ ؛ جمع نَدمان ، والمشهور في جمعه : ندامىٰ وَاحِدَةٌ
شَيءٌ خُصِصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي .

فبيَّن به أنَّ له سكرتين : سكرة بالنِّعم وبمحبَّته لها ، وسكرة بالجمال والكمال من المتفضِّل بذلك ، ولغيره من الندامىٰ سكرة واحدة وهي الأولىٰ ؛ وهي كثيرة في المحبِّين ، لأنَّ النفوس مجبولةٌ على حبِّ مَن أحسن إليها ، والثانية قليلة ؛ فإنَّها من صفة العارفين .

وأنشدوا[1] أيضاً :

سُكْرَانِ ؛ تثنية سُكر سُكْرُ هَوَىً ؛ هو محبَّة النعم التي نالها واستغرق فيها ، وَسُكْرُ مُدَامَةٍ وهو محبَّة الجمال والكمال التي هو متشوِّق إليها
فَمَتَىٰ يُفِيْقُ فَتَىً بِهِ سُكْرَانِ بالنسبة لمن به سُكر واحد !!

تلازمهما : واعلم أنَّ الصَّحوَ على حسب السُّكر ، فمن كان سُكره بحقٍّ . . كان صحوُه بحقٍّ ، ومن كان سكره في حقٍّ . . كان صحوه في حقٍّ ، ومن كان سكره لحقٍّ . . كان صحوه لحقٍّ . **والفرق بين الثلاثة** : أنَّ **الأوَّل** بعَوْن بلا سبب[2] ، **والثاني** في طلب[3] ، **والثالث** استغراق في الأدب[4] .

ومن كان سُكره بحَظٍّ مشوباً . . كان صحُوه بحظٍّ مصحوباً ، ومَن كان مُحِقّاً في حاله : في حال صحوه ـ كما وجد في نسخة كذلك ـ **كان محفوظاً في سكره** .

إشارتهما : والسُّكر والصَّحو يشيران إلىٰ طَرف من التفرقة المقابلة للجمع ، وإذا **ظهر من سلطان الحقيقة** ؛ وهي غَلَبة ذكر الحقِّ على القلب . . **علم** : علامة ؛

= والبيت من البحر البسيط .

(1) سُكْرانِ . . سُكْرُ هَوىً وَسُكْرُ مُدَامَةٍ فَمَتَىٰ يُفِيْقُ فَتَىً بِهِ سُكْرَانِ !!
والبيت من البحر الطويل .

(2) حاصل بإعانة الحقِّ تعالىٰ من غير سبب يظهر لأحد .

(3) استدعاء مطلوب بشاهد المتابعة ، فهو من عمل التكليف والأخذ بالأسباب .

(4) يظهر أنه أعمُّ مما قبله ! لعمومه لما له سبب ؛ ولغيره مما منحه الربُّ تعالىٰ (عروسي : ٢/ ٧٢) .

فصفة العبد الثُّبور : الهلاك والقهر . وفي معناه أنشدوا[1] :

إذَا طَلَعَ الصَّبَاحُ لِنَجْمِ رَاح : لإناءِ خمر
تَسَاوَىٰ فِيْهِ سَكْرَانٌ وَصَاح لتمكُّن السكر من السكران .

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[2] . .

هذا : موسىٰ مع رسالته وجلالة قَدْره خَرَّ صَعِقا : مغشياً عليه لهول ما رأىٰ ، وهذا : الجبل مع صلابته وقوَّته صار دَكًّاً : مدكوكاً مستوياً بالأرض متكسِّراً .

والعبد في حال سُكره كائن بشاهد الحال ، وفي حال صحوه كائن بشرط : بشاهد العلم إلاَّ أنَّه في حال سُكْرِه محفوظٌ بالله لا يتكَلَّفه باضطراب وغيره ، وفي حال صحوه متحِّفظ بتصرَّفه الحاصل بفعل الله ، وإذا كان بشاهد الحال . . لزمه السكون تحت ما وُهِب له ، وإن كان بشاهد العلم . . لزمه حسن العمل والأدب .

والصحُو والسُكر . . إنَّما يكون بعد الذوق والشرب !

وقد أخذ في بيانهما ؛ فقال :

* * *

و ٢٠ ؛ ٢١ـ من ذلك : الذوق والشرب

ومن جملة ما يجري في كلامهم : الذوق والشرب .

معناهما : ويعبِّرون بذلك عما يجدونُه من ثمرات التجلِّي ، ونتائج الكشوفات ، وبوادِهِ الواردات . من (بَدَهَهُ الأمر) : فَجَأَه .

---

(١) إذا طَلَعَ ٱلصَّبَاحُ لِنَجْمِ رَاح   تَسَاوىٰ فِيْهِ سَكْرَانٌ وَصَاح
والبيت من البحر الوافر .

(٢) الآية : ١٤٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

درجاتها : وأوَّل ذلك إدراكاً يقال له : الذوق ، ثمَّ إذا تمكن فيه يقال له : الشُّرب ، ثمَّ إذا تمكن فيه يقال له الرَّيُّ ، فصفاءُ معاملاتهم مع الله يوجب لهم ذوق المعاني .

ووفاء منازلاتهم وانتقالهم في أحوالهم يوجب لهم الشُّرب .

ودوام مواصلاتهم لمعاملاتهم ووفاء منازلاتهم يقتضي لهم الرَّيَّ .

فصاحب الذوق متساكر ، وصاحب الشرب سكران ، وصاحب الرّيِّ صاح . قال السُّهرَوَردي : السكر لأرباب القلوب ، والصحو للمكاشفين .

ومن قَوِيَ حبُّه لله تسرمَدَ شربُه : دام ، فإذا دامت به تلك الصفةُ لم يورثه الشُّرب سكراً ، ولهذا قال الجنيد في هذه الحالة ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾[1] فكان من دامت به تلك الصفة صاحياً بالحقِّ ؛ فانياً عن كلِّ حظٍّ ، لم يتأثَّر بما يرد عليه ، ولا يتغيَّر عما هو به .

ومن صفا سِرُّه . . لم يتكدَّر عليه الشُّرب ، ومن صار الشُّرب له غذاءً . . لم يصبر عنه ؛ ولم يبقَ بدونه ـ وفي نسخة : دونه ـ .

وأنشدوا[2] في ذلك :

إِنَّمَا ٱلكَأْسُ رَضَاعٌ بَيْنَنَا

فَإِذَا لَمْ نَذُقْهَا : كأس المحبَّة الدائرة بين المحبِّ والمحبوب لَمْ نَعِشْ

فالحقُّ تعالىٰ يوالي عليهم أحوال المحبَّة ، كلَّما توالت عليهم طاشوا في طلبها وعاشوا بشربها ، وأنشدوا[3] فيه أيضاً :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ (ذَكَرْتُ رَبِّي) ... فَهَلْ أَنْسَىٰ فَأَذْكُرَ مَا نَسِيْتُ !؟

شَرِبتُ ٱلحُبَّ كَأْسَاً بَعْدَ كَأْسٍ ... فَمَا نَفِدَ : فني ٱلشَّرَابُ وَلاَ رَوِيْتُ

---

(١) انظر ص ٢٧٠ مما تقدم ، وسيأتي ص ٣٠٨ ، ص ٩٤٩ .

(٢) إِنَّمَا ٱلكَأْسُ رَضَاعٌ بَيْنَنَا ... فَإِذا لَمْ نَذُقْهَا لَمْ نَعِشْ

والبيت من البحر السريع .

(٣) عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ (ذَكَرْتُ رَبِّي) ! ... فَهَلْ أَنْسَىٰ فَأَذْكُرَ مَا نَسِيْتُ !؟

شَرِبْتُ ٱلحُبَّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ ... فَمَا نَفِدَ ٱلشَّرَابُ وَلاَ رَوِيْتُ

والبيتان من الوافر .

بين حالين : ويقال في ذلك : كتب يحيىٰ بن معاذ إلى أبي يزيد البَسطامِي : (ها هنا ـ: في هذا المقام ـ مَنْ شرب كأساً من المحبَّة لم يظمأ بعده) ! لدوام تعلُّق قلبه بمحبوبه ، لما وهب من مقام المحبة . فكتب إليه أبو يزيد : (عجبتُ من ضعف حالك !! إذ ها هنا . . مَن يحتسي بحارَ الكون ؛ وهو فاغرٌ : فاتح فاه يستزيدُ) من كمال المحبة ، فإنَّ مَن تمكَّن فيها قلَّ سكره وقويَ على حمل ما يَرِدُ عليه من أعبائها ؛ لكمال تمكُّنه في مقامه .

واعلم أنَّ كاساتِ القُرْب : مواهبُ الحقِّ لمن قَرَّبه تبدو من الغَيْب ، ولا تُدارُ إلاَّ على أسرارٍ مُعتقَة ، وأرواحٍ عن رِقِّ الأشياء محرَّرة : لا تردُ إلا على أرباب القلوب الزاهدة في الدنيا المُعْتقة عن رِقِّ الشهوات ، المحرَّرة عن التعلُّق بالعادات الجارية في عموم الأوقات .

* * *

و٢٢ ؛ ٢٣ـ من ذلك : المحو والإثبات

معناهما : المحو : رفعُ أوصاف العادة بغيرها . والإثبات : إقامةُ أحكام العبادة .

لازمهما : فمن نفىٰ عن أحواله الخصال الذميمة ، وأتىٰ بَدَلَها بالأفعال والأحوال الحميدة ؛ فهو صاحبُ محوٍ وإثبات . . فمحو الجهل يحصل بإثبات العلم ، ومحو الكسل يحصل بملازمة العمل ، وكذا القول في سائر ما يمحىٰ ويثبت في القلوب والجوارح من الصفات .

المعطَّل المهمَل : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : قال بعض المشايخ لواحد من تلامذته : إيش ـ: أيُّ شيء ـ تمحو ؟ وإيش ـ: أيُّ شيء ـ تثبت ؟ .

سأله عن حاله في وقته ! ليعرف مقامه الذي هو فيه .

فسكت الرجل ! فقال له : أما علمتَ أنَّ الوقتَ محوٌ وإثبات !! إذ من

لا محوَ له ؛ ولا إثبات ، فهو معطَّل مهمَلٌ . نبَّهه لَمَّا سكت . . على ما ينبغي له الاشتغال به في وقته ، حيث عرَّفه أنَّ العبد متى لم يكن مشتغلاً بإزالة الصفات الذميمة بإثبات أضدادها من الصفات الحميدة ؛ فهو معطَّل مهمَل .

أقسامهما : وينقسم المحو انقساماً آخر أعلى ممَّا مرَّ ؛

١ـ من محوِ العادة إلىٰ محوِ الزلَّة عن الظواهر : الأبدان ، و٢ـ محوِ الغفلة عن الضمائر : القلوب ، و٣ـ محوِ العلَّة عن السرائر . ففي محو الزلَّة إثباتُ المعاملات مع الله تعالىٰ ، وفي محو الغفلة إثباتُ المنازلات من المقامات ، وفي محو العلَّة ؛ وهي المشغلة عن الله تعالىٰ إثباتُ المواصلات به تعالىٰ[1] .

هذا المذكور محو وإثبات بشرط العبودية : بالإضافة إلى العبد .

أسبابهما : وأما ـ وفي نسخة : فأما ـ حقيقة المحو والإثبات !! وهي التي من جهة الحقِّ تعالىٰ . . فصادران ـ الأولىٰ : فصادرة ـ عن القُدرة الإلهية ، فالمحو : ما سَتَره الحقُّ تعالىٰ ونفاه عن العبد ، والإثبات : ما أظهره الحقُّ وأبداه .

ضبطهما : والمحوُ والإثبات من هذه الجهة مقصوران على المشيئة من الله تعالىٰ ، ولا نهاية لهما . . قال الله سبحانه وتعالىٰ ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ ؟ قيل : يمحو عن قلوب العارفين ذكرَ غيرِ الله تعالىٰ ، ويثبتُ على ألسنة المريدين ذكر الله . وجمهور المفسرين على أنَّ المعنىٰ يمحو ما يشاء ويثبت من الأحكام وغيرها ، فلا نهاية لذلك .

رتبتهما : ومحو الحقِّ لكلِّ أحد وإثباته له يكون علىٰ ما يليق بحاله . ومَن محاه الحقُّ سبحانه وتعالىٰ عن مشاهدةٍ : مشاهدته لنفسه وأفعاله . . أثبته بحقِّ حقِّه . ومن محاه الحقُّ عن إثباتِهِ به : بحقِّ حقِّه . . ردَّه إلى شهودِ الأغيار ؛ وأثبتَه في أودية التَّفرقة .

---

(١) محصَّله أن المحو والإثبات ١ ـ قد يعتبر من جهة العبد ، و٢ ـ قد يلاحظ من حيث فعلُ الربِّ .
أمَّا الأول فأقسام ثلاثة :
١ ـ محو المخالفات الظاهرة والباطنة برعاية المتابعات ، و٢ ـ محو الغفلات بنفي الحظوظ والمألوفات بدوام المراقبات . و٣ ـ محو العلل المشغلات بحقّق دوام المواصلات .
وأمّا **الثاني** فهو ما نزه الحقُّ عبده عنه ونفاه بما أثبته له من المقامات والمكاشفات ، وذلك لا نهاية له إلاّ أنّه بمشيئة الحقّ سبحانه وتعالىٰ (عروسي : ٢/ ٧٥) .

وقال رجل للشِّبليِّ رحمه الله : مالي أراك قلقاً كالطالب ؛ غائباً !! أليس هو : الحق معك ؛ وأنت معه ؟

فقال الشِّبليُّ : لو كنت أنا معه بنفسي كنتُ أنا : ثابتاً مختاراً لما أنا فيه . .

ولكنِّي محوٌ فيما هو مجريه عليَّ من أحكام القدرة بالتصرُّف فيَّ كيف شاء .

كلَّمَه السائل بأحكام العبودية ؛ وأجابه الشبليُّ بأحكام الربوبيَّة .

ولمَّا كان المحق مناسباً للمحو . . ذكره بقوله :

تتمة المحق : والمحقُ فوق المحو ، لأنَّ المحوَ في العادة يُبقي أثراً ، والمَحْقُ لا يبقِي أثراً ، بل يزيل الشيء بالكليَّة .

همة القوم : وغايةُ هِمَّة القوم وطلبُهم أن يمحَقَهم الحقُّ عن شاهدهم : مشاهدتهم لأنفسهم ، ثمَّ لا يَرُدُّهم إليهم بعدما محقهم عنهم .

ومتىٰ ردّهم إليهم لقيام حقِّه ورجاء فضله . . لم يكن ذلك نقصاً ، بل هم في ذلك محلٌّ لجريان فعله ؛ لا شغل لهم بغيره .

* * *

و٢٤ ؛ ٢٥ ـ من ذلك : الستر والتجلِّي

تمهيد : الستر ١ـ من قِبَل العبد كون البشرية حائلة بين السرِّ وشهود الغيب ، فإذا ظهر النور الغيبي . . أزال حجاب البشرية ، و٢ـ من قِبَل الحقِّ سَتْرُه عن العبد حاله ، والتجلِّي من قِبَل العبد زوال حجاب البشرية ، وانصقال مرآة القلب عن صدإِ طبائع البشرية . و٣ـ من قِبَل الحقِّ كشفهُ عن العبد حاله .

وسئل بعضهم عن التجلِّي والتحلِّي والتخلِّي ؛ فقال :

التحلِّي ظهور الذات في حجب الأسماء والصفات تنزُّلاً .

والتجلِّي القيام بمعاني الأسماء تعبُّداً وتمثُّلا .

والتخلِّي سقوط الإرادة والاختيار ؛ اعتماداً وتوكُّلاً .

أحوالهما : العوامُّ من الصوفية في غطاء الستر ؛ بأن يُخفي الله عنهم أحوالهم ، والخواصُّ منهم في دوام التجلِّي من الله لقلوبهم ، حتى يعبدوا الله كأنَّهم يرونه ، وفي الخبر : « إِنَّ ٱللَّهَ إِذَا تَجَلَّىٰ لِشَيْءٍ خَشَعَ لَهُ »[1] ؛ هيبة . فصاحب السَّتْر بوصف شهوده ، وصاحبُ التجلِّي أبداً كائن بنعت خشوعه .

حال الستر : و١ـ الستر للعوامِّ : ستر عيوبهم عنهم عقوبة لهم وبلاء ، وأما سترُ ما لا حاجة لهم به من العلوم ؛ ولا قدرة لهم عليه عنهم . . لضعفهم عن إدراكه ! فرحمة لهم .

و٢ـ الستر للخواصِّ : ستر ما يكاشفهم الله به عنهم رحمة لهم ، إذ لولا أنَّه يسترُ عليهم ـ بمعنىٰ : عنهم ـ **ما** يكاشفهم به ويظهره عليهم ؛ لتلاشَوْا عند سلطان الحقيقة ، ولكنَّه كما يظهر لهم ما يكاشفهم به : عند ظهوره لهم . . يستره عليهم .

أما ستر ما يوجب لهم الغفلة عنهم ! فنقص .

أوجه الستر : فالستر والتجلِّي يختلفان باختلاف الأحوال . وبما تقرَّر عُلم أنَّ الستر على وجهين : ١ـ ستر الله لعبده بإخفاء حاله عن غيره ، و٢ـ ستره عليه مما يجوز أن يظهره له ، فإن سَتَرَ عنه عيوبَه . . كان ستره بلاءً ، وإن ستر عنه نظره إلى أعماله واستحسانه لأحواله . . كان سترُه رحمةً له .

من تجلِّي البشر : سمعت منصورَ المغربيَّ ؛ يقول : وافىٰ بعض الفقراء حيّاً من أحياء العرب ؛ فأضافه شابٌّ ، فبينا الشابُّ في خدمةِ هذا الفقير ؛ إذ غُشيَ عليه ، فسأل الفقيرُ عن حاله ؟! . فقالوا في جوابه : له بنتُ عمٍّ ؛ وقد عَلِقَها : تعلَّق قلبه بها ، فمشت في خيمتها ، فرأىٰ الشابُّ غبارَ ذيلها ؛ فغُشي عليه ! .

---

(١) أخرجه النسائي : ١٤٨٤ ؛ عن النعمان ، والديلمي : ٦٥٠ عن أبي بكر. وانظر شرح السيوطي على النسائي .

فمضىٰ الفقير إلى باب الخيمة ؛ وقال لبنت عمِّه : إنَّ للغريب مثلي فيكم حرمةً وذِماماً ـ بمعنى : الحرمة ـ وقد جئتُ مستشفعاً إليكِ في أمر هذا الشابِّ ، فتعطَّفي عليه ؛ فيما هو به من هواكِ : حبِّه لك ! !

فقالت له المرأة : سبحان الله ؛ أنت سليم القلب ، إنَّه لا يُطِيقُ شهودَ غبار ذيلي ؛ فكيف يُطِيق صحبتي ؟! إشارة إلى الستر الذي هو رحمة من الحق فيمن لم يُطِقْ التجلِّي .

العوامُّ والخواصُّ : وعوامُ هذه الطائفة عيشُهم في التجلِّي ، وبلاؤهم في الستر ؛ كما مرّ .

وأما الخواصُّ ! ! فهم بين طَيْش وعيش ؛ لأنَّهم إذا تجلَّىٰ لهم الحقُّ طاشوا ، وإذا سَتَر عليهم رُدُّوا إلىٰ الحظِّ : حظِّهم فعاشوا .

ستر التعليل : وقيل : إنَّما قال الحقُّ تعالىٰ لموسى عليه السلام ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[1] . . الآية ليستر عليه ببعض ما يعلِّلُه به : يلهيه به بعضَ ما أثر فيه من المكاشفة بِفَجْأة السماع .

أشار بذلك إلى أنَّ الحقَّ يلاطِف بعض أوليائه ؛ ويؤنسهم قبل أن يَفْجَأَهم فلا يطيقون حمله ! فهذا الستر رحمة في حقِّهم .

وقال ﷺ : « إِنَّهُ لَيُغَانُ ـ: يغطَّىٰ ـ عَلَىٰ قَلْبِي حَتَّىٰ أَسْتَغْفِرُ ٱللهَ فِي ٱلْيَوْمِ سَبْعِيْنَ مَرَّةً »[2] . والاستغفار طلبُ الستر للذنب وشِبْهه ، لأنَّ الغَفْر هو السَّترُ ؛ ومنه : غَفْرُ الثوب ، والمِغْفَر وغيره ، فكأنَّه أخبر أنَّه بطلب السَّتر علىٰ قلبه عند سَطَوات الحقيقة ؛ إذ الخلقُ لا بقاء لهم مع وجود الحقِّ ! وفي الخبر : « لَوْ كَشَفَ للعبد عَنْ وَجْهِهِ : عن ذات الحقِّ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ : نورُهُ وجلاله وعظمته مَا أَدْرَكَ بَصَرُهُ »[3] . أي : العبد .

أشار إلى أن العبد لا يطيق رؤية الحقِّ تعالىٰ ؛ ولا كمال جلاله ، وإنَّما

---

(١) الآية : ١٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها طه عليه الصلاة والسلام .

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٥٨ .

(٣) أخرجه أحمد : ٤/ ٤٠٠ ، وابن ماجه : ١٩٦ ؛ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

يكشف لكلٍّ عبد من رؤيته في الدنيا ما تقوى عليه بصيرته ، وفي الأخرة ما يدركه بصره ؛ لا على الوجه المعهود ! وليس المراد بقولهم (المكاشفة والمشاهدة . . ونحوهما من الألفاظ) معاينة الذات حقيقةً ، فإنَّ ذلك لا يقع في الدنيا ولا في الآخرة على الوجه المعهود ؛ بل على وجهٍ آخرَ . . لا يحيط به التعريف ؛ من غير تعطيل ولا تكييف ، كأن يكشف له علَّة صفات الجلال والجمال ، فإنَّ مَن غلب على قلبه أمرٌ كَثُر تصوّره له ، وإخطاره بباله بحيث يصير كا لمشاهد له ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ في تفسير الإحسان : « أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ »[1] .

* * *

و٢٦ ؛ ٢٧ ؛ ٢٨ ؛ ٢٩ ؛ ٣٠ ـ من ذلك : المحاضرة ، والكشف ، والمكاشفة ، والمشاهدة ، والمعاينة

وهما أكملُ من المكاشفة . . لا بالعكس ؛ خلافاً للغزالي ، والمكاشفة والكشف أكملُ من المحاضرة ؛ كما أشار إلى ذلك في غير الكشف بقوله :

درجاتها ومعانيها : **المحاضرة** تكون **ابتداءً** : أول المراتب ، **ثمَّ المكاشفةُ** ـ وفي نسخة : والمكاشفة بعده ـ **ثم المشاهدة** .

١ـ **المحاضرة** : **فالمحاضرة** : **حضور القلب** مع الله تعالىٰ بالبرهان ، **وقد يكون** حضوره بتواتر **البرهان** ، **وهو بعْدُ وراءَ الستر** : الحجاب ، **وإن كان حاضراً باستيلاء سُلطانِ الذِّكر** . وبعدها الكشف ؛

٢ـ الكشف : وهو إزالة الستر الحسيِّ واستنشاق الأسرار الإلٰهية من وراء الحجب البشرية .

---

(١) تقدم تخريجه ص ٣٦ .

٣ـ المكاشفة : ثم بعدَه المكاشفة ؛ وهو : حضورُه : القلب بنعت البيانِ التامِّ بالبرهان ؛ غيرَ مفتقرٍ في هذه الحالة إلى تأمُّل الدليل ، وتطلُّب السبيل : الطريق ، ولا متسجيرَ : مستعبد من دواعي الرَّيب ، ولا محجوبَ عن نعت الغيب . لأنَّه صار كالعِلم الضروري الذي لا يستطيع دفعه عن نفسه .

٤ـ المشاهدة : ثم المشاهدة ؛ وهي : حضورُ الحقِّ تعالىٰ من غير بقاءِ تهمة ، لما شاهده من الكمال ، وتطلق المشاهدة على رؤية الأشياء بأدلَّة التوحيد ، وعلى رؤية الحقِّ في الأشياء ، وعلى حقيقة اليقين ؛ وهو الموافق لماذكره المصنف .

والضمير إذا وقع بين مؤنَّث ومذكَّر يجوز تأنيثه وتذكيره ؛ كما سلكه في ضميرَيْ « المكاشفة » و« المشاهدة » . فإذا أصحت سماءُ السرِّ عن غيوم الستر : الحجاب . . فشمس الشهودِ للحقِّ مشرقةٌ عن برج الشَّرَف .

حق المشاهدة : وحقُّ المشاهدة ما قاله الجنيد رحمه الله : وجودُ الحقِّ تعالىٰ مع فُقْدَانك وفنائك .

أحوالِ : فصاحب المحاضرة مربوطٌ بآياته : براهينه وخوارق عاداته ، وصاحبُ المكاشفة مبسوطٌ بصفاته ونعوته ، وصاحبُ المشاهدة ملقىً بذاته لفنائه عما سوى الحقِّ .

علاقات : وأيضاً صاحب المحاضرة يهديه عقلُه بالنظر في الأدلَّة ، وصاحب المكاشفة يدنيه : يقرِّبُه علمه بالحقِّ وصفاته ، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته بذلك .

تحقيق المشاهدة : ولم يزد في بيان تحقيق المشاهدةِ أحدٌ علىٰ ما قاله عمرو بن عثمان المكيُّ رحمه الله ! !

ومعنىٰ ما قاله : أنَّه تتوالىٰ أنوارُ التجلِّي على قلبه ؛ من غير أن يتخلَّلها سترٌ : حجاب وانقطاع ، وتتوالىٰ كما لو قُدِّر اتصال البروق في الليلة الظلماء ، فكما أنَّ الليلة الظلماءَ تتوالىٰ البروق فيها ، واتصالها : اتصال بعضها ببعض إذا قُدِّرت وجوداتُها تصيرُ في نحو ضوء النهار . . فكذلك إذا دام به دوامُ التجلِّي بدوام أنوار المعارف عليه ؛ ولم يتخلَّلْها غفلة مَتَع : ارتفع وطال نهاره فلا ليل له .

وأنشدوا[1] في معناه :

لَيْلِـي بِـوَجْهِـكَ مُشْـرِقٌ وَظَـلاَمُـهُ فِـي ٱلنَّـاسِ سَـارِي

وَٱلنَّاسُ فِي سُدَفِ ؛ وهي الظلمة : ظلم ٱلظَّلاَمِ

وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ ٱلنَّهَارِ .

وقال النُّوري : لا يصحُّ للعبد المشاهدةُ ؛ وقد بقي له عرقٌ قائم ، لاستغراق قلبه في ذات الحقِّ وصفاته .

وقال استشهاداً لذلك : إذا طلع الصباح استُغنيَ عن المصباح : إذا وصل العبد إلى هذه الحالة استغنىٰ بها عن الأسباب .

توضيح وَهَم : وتوهَّم قومٌ أنَّ المشاهدةَ تشير إلى طَرَف من التَّفرقة ، لأنَّ باب المفاعلة في علم العربية تقتضي أن يكون الفعل بين اثنتين فأكثر ؛ يفعل أحدهما بالآخر ما فعل الآخر به ، نحو (ضارب زيد عمرا) فلا بدّ للعبد أن يدرك نفسه وربَّه .

وهذا وَهَم[2] : غلط من صاحبه : قائله ، فإنَّ في ظهورِ الحقِّ سبحانه ثبورَ الخلق : هلاكهم وفناءهم عن أنفسهم بأن لا يدركوها ، ولا يلزم من ذلك تفرقة ! !

و أيضاً بابُ المفاعلة جملتُها لا تقضي مشاركة الاثنين ، بل بعضها يقضيها ؛ وبعضها لا يقتضيها ، فإنَّها تأتي بمعنى (فعل) ؛ نحو : سافر ، وطارَق النعل ، وأمثاله ! ! نحو دافع : سَفَر وطَرَق ودَفَع ، وبمعنىٰ (فعَّله) : للتكثير ؛ نحو ضاعفته : ضعَّفْتُه وبمعنىٰ (أفعل) نحو عافاك الله : أعفاك .

كأس المشاورة : وأنشدوا[3] في هذا المعنىٰ ـ أعني في قوة الوارد المقتضيةِ للاستغراق ـ :

---

(١) لَيْلِـي بِـوَجْهِـكَ مُشْـرِقٌ وَظَـلامُـهُ فِـي ٱلنَّـاسُ سَـارِي
وَٱلنَّـاسُ فِـي سُـدَفِ ٱلظَّـلاَ مِ وَأَنْـتَ فِـي ضَـوْءِ ٱلنَّهَـارِ
وهما من مجزوء الكامل .

(٢) بفتح الهاء من (وَهِم في الحساب) بكسرها ـ أي : غلط ، وبإسكانها من (وهَم في الشيء) بفتحها ، أي ذهب وَهَمه إليها (الشارح) .

(٣) فَلَمَّـا ٱسْتَبَـانَ ٱلصُّبْـحُ أَدْرَجَ ضَـوْؤُهُ بِـأَنْـوارِهِ أَنْـوَارَ ضَـوْءِ ٱلكَـوَاكِـبِ
يُجَرِّعُهُمْ كَأساً لَو ٱبْتُلِي بِهِ ٱللَّظىٰ بِتَجْـرِيْعِـهِ طَـارَتْ كَـأَسْـرَعِ ذاهِـبِ =

فَلَمَّا ٱسْتَبَانَ : تبيَّن وظهر ٱلصُّبْحُ أَدْرَجَ : غيَّبَ ضَوؤُهُ الحاصل بِأَنْوَارِهِ أَنوَارَ ضَوْءِ ٱلكَوَاكِبِ فاستغنى عن ضوئها ، ثم أشار إلى كمال الوارد عليهم بحيث لم يبقَ لهم متَّسع لغيره بقوله :

يُجَرِّعُهُمْ كَأْسَاً من ذلك الوارد لَوْ ٱبْتُلِيَ بِهِ ٱللَّظَىٰ ـ وفي نسخة : ابتليت لظىٰ ـ : جهنم بِتَجْرِيْعِهِ طَارَتْ : ذهبت وفنيت كَأَسْرَعِ ذَاهِبِ .

فهذه **كأس ؛ أيُّ كأسٌ !!** كأس **تصطلمُهُم عنهم** : تستأصلهم عن أنفسهم ، وأكدَّ ذلك بقوله : **وتُفنيهم** ، **وتختطِفُهم منهم** : من أنفسهم **ولا تبقيهم** .

كأس . . لا تَبقِي ولا تذر منهم شيئاً ، تمحوهم بالكلية ، ولا تبقي شظيَّة : فلقة من آثار البشرية . **كما قال قائلهم**[1] : سَارُوا : عن إحساسهم بأنفسهم ، فَلَمْ يَبْقَ لهم لاَ رَسْمٌ وَلاَ أَثَرُ .

٥ـ المعاينة : قيل : غايتُها تحقيقُ إحاطة الذات التي لا يصحُّ مع وجودها كونُ الغير .

تعقيب : **واعلم** أنَّ معاني هذه الألفاظ وراء طَوْر العقل ، لا يعرفها إلاَّ أهل العنايات ، لأنَّها تتعلَّق بتوحيد الله ، وتوحيدُه تعالىٰ المتعلِّق بذاته وصفاته لا يصحُّ أن يكون من مدركَات كلِّ العقول .

* * *

ومن ذلك : ٣٠ـ اللوائح ، و٣١ـ الطوالع ، و٣٢ـ اللوامع

قال الأستاذ رضي الله عنه : **هذه الألفاظ** كناية عن اختلاف أحوال أرباب السلوك ، وما يفتح الله به عليهم من المقامات التي يرومون بلوغ كمالها ؛ كالزهد والتوكُّل والرضا والتسليم والمحبة ، وهي **متقاربةُ المعنىٰ** ، **لا يكاد**

= والبيتان من البحر الطويل .

(١) سَارُوا فَلَمْ يَبْقَ لاَ رَسْمٌ ولاَ أَثَرُ . . . .
من البحر البسيط .

يحصل بينها كبيرُ فرق . . وإن كان الطوالع أتمَّ ، ثمَّ اللوامع ؛ كما يعلم ممَّا يأتي ، وهي من صفات أصحاب البدايات الصاعدين في الترقِّي بالقلب ؛ فلم يَدُم لهم بعدُ مع اتصافهم بها ضياءُ شموس المعارف . لكنَّ الحقَّ سبحانه وتعالىٰ يؤتي : يعطيهم رزقَ قلوبهم في كلِّ حين - ونسخة : من كلِّ خير - ؛ كما قال ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾[1] ، فكلَّما أظلم - وفي نسخة : أظلمت - عليهم سماءُ القلوب بسحاب الحظوظ : حظوظ أنفسهم . . سَنَحَ : ظهر لهم فيها لوائح الكشف ، وتلألأ لهم لوامع القرب . وهم في زمانِ سترِهم : حجبهم عنها يرقبون فَجْأَةَ[2] اللَّوائح : حصولها بغتة . فهم كما قال القائل[3] :

يَا أَيُّهَا ٱلبَرْقُ ٱلَّذِي يَلْمَعُ

مِنْ أَيِّ أَكْنَافِ ٱلسَّمَا : جوانِبها تَسْطَعُ !؟ أي : لا نعلم له سببا ، بل هو من فضل ربِّه وإلهامه ، وبعد هذا البيت :

هٰـذَا ؛ وَلَـوْ يُقْـضَ لَنَـا فُـرْقَـةٌ ... قُلْ لِي فَيَوْمَ ٱلبَيْنِ مَا تَصْنَعُ ؟

إِنْ كَـانَ إِبْـرَاقُـكَ دَاعِي قِلَـىٰ ... فَـإِنَّ قَلْبِـي بِـٱلقِلَـىٰ مُـوجَـعُ

ترتُّبها : فتكون الأشياء التي تظهر لهم أوَّلاً : لوائح ، ثمَّ لوامِع ، ثمَّ طوالِع ؛ وهي أسماء لأحوال السالكين كما مرّ ، لكن محلُّها غير المتمكِّنين في أحوالهم ، أمَّا المتمكِّنون فيها! فلا تسمَّىٰ أحوالهم بها، بل بالوجد والوجود وغيرهما ممَّا مرّ .

فاللوائح كالبروق . . ما ظهرت حتَّىٰ استترت لسرعة هجومها وذهابها ، كما قال القائل[4] في معنى ذلك :

اِفْتَـرَقْنَـا حَـوْلاً فَلَمَّـا ٱلتَقَيْنَـا ... كَانَ تَسْلِيْمُهُ عَلَيَّ وَدَاعَا كذلك .

---

(١) الآية : ٦٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : مريم .

(٢) فُجَآءة - بضمِّ الفاء وفتح الجيم والمدِّ . وفَجْأَة ؛ بفتح الفاء وإسكان الجيم أي : بغتة (الشارح) .

(٣) يَـا أَيُّهَـا ٱلبَـرْقُ ٱلَّـذي يَلْمَـعُ ... مِـنْ أَيِّ أَكْنـافِ ٱلسَّمَـا تَسْطَـعُ ؟!
والأبيات من مجزوء الرجز .

(٤) البيت من الخفيف .

وأنشدوا[1] أيضاً في ذلك :

يَـاذَا ٱلَّـذِي زَارَ وَمَـا زَارا   كَـأَنَّـهُ مُقْتَبِـسٌ نَـارَا
مَـرَّ بِبَـابِ ٱلـدَّارِ مُسْتَعْجِـلاً   مَـا ضَـرَّهُ لَـوْ دَخَـلَ ٱلـدَّارَ !؟

٢ـ اللوامع : واللوامع أظهرُ من اللوائح ؛ وليس زوالها بتلك السرعة التي للوائح ، فقد تبقى اللوامع وقتين ، وثلاثة مثلاً . .

ولكنْ كما قالوا[2] :

....   وَٱلعَيْنُ بَاكِيَةٌ لَمْ تَشْبَعِ ٱلنَّظَرَا

وكما قالوا :

لَمْ تَرِدْ مَاءَ وَجْهِهِ ٱلعَيْنُ إلاَّ   شَـرَقَـتْ قَبْـلَ رَيِّهَـا بِـرَقِيْـبِ

: حافظ ، شبَّه به زوال الحال في الرجوع إلى إدراك النَّفَس بساعة بعد أخرى . .

فإذَا لَمَعَ الطالع قَطَعك عَنْكَ ، وَجَمَعَكَ به ، لكن لم يسفر نورُ نهاره حتىٰ كرَّ عليه عساكِرُ الليل لسرعة زواله ، فهؤلاء بين رَوْح ونوح : راحة ونياحة : بسط وقبض ، لأنهم بين كشف وستر ، كما قالوا[3] :

فَٱللَّيْلُ يَشْمَلُنَا بِفَاضِلِ بُرْدِهِ   وَٱلصُّبْحُ يُلْحِفُنَا رِدَاءً مُـذْهَبَا

٣ـ الطوالع : والطوالع أبقىٰ وقتاً ، وأقوىٰ سلطاناً ، وأدومُ مكثاً ، وأذهبُ للظُّلْمة ، وأنفىٰ للتُّهمة ، لكنَّها موقوفةٌ على خطر الأفول : لكنها على خطر غروبها ليست برفيعة الأوج : بعالية الارتفاع ، ولا بدائمة المكث .

ثمَّ أوقات حصولها وشيكةُ الارتحال : سريعة الزوال ، وأحوالُ أفولها : غروبها طويلةُ الأذيال . يعني الغيبة لقلَّة تمكُّن صاحبها .

قضاياها : وهذه المعاني التي هي : اللوائح واللوامع والطوالع . . تختلف في القضايا : الأحكام .

---

(١) من مجزوء الرجز .
(٢) من الخفيف .
(٣) من البسيط .

قضايا اللوائح واللوامع : فمنها ما إذا فات : غاب لم يبقَ عنها ـ الأَوْلىٰ : عنه ـ أثر على صاحبه ؛ لضعفه وقلَّة تأثيره فيه ، كالشوارق من الكواكب : إذا أفلت : غابت فكأنَّ الليل كان دائماً ! وهذا شامل للوائح واللوامع . وأما الطوالع ! فهي ما ذكره بقوله :

قضية الطوالع : ومنها ما يبقىٰ عنه أثر . فإن زال رَقْمُه : أثره . . بقِي ألمُه ، وإن غَرَبت أنوارُه . . بقيت آثاره كالشمس ، فصاحبُه بعد سكونِ غلَيانه : قَلَقه يعيش في ضياء بركاته ، فإلى أن يلوحَ ذلك ثانياً يُزجِي : فهو يدافع وقتُه إلى أن يظهر له ذلك الأثر ثانياً على : لأجل انتظار عَوْدِه ، ويعيش بما وجد في كونه ويعيش في زمن وجوده بما كان قد وجده . وحاصله أنَّه يمشي حاله بآثار ما سبق إلى أن يعيده الحقُّ فيزيل عنه ما هو فيه من القلق والكرب .

* * *

ومن ذلك : ٣٣ـ البَوَادِهُ ، و٣٤ـ الهجوم

معانيها : البوادِهُ من بَدَهَهُ الشيءُ : فَجَأَهُ : مَا يَفْجَأُ قلبَك من الغيب على سبيل الوَهلة : البغتة ، أَوْ له موجِب ؛ وهو إما موجِبُ فرح ، وإما موجِبُ ترح : حزن .

والهجوم : ما يَرِدُ على القلب بقوَّة الوقت والحال ؛ من غير تصنُّعٍ : تكلُّف ونظر منك في سبب . وكلاهما يقع ابتداءً ، لكن الأوَّل له سببٌ ، والثاني لا سبب له . وكلٌّ منهما يختلف في الأنواع والأحوال الواردة على العبد على حسب قوَّة الوارد وضعفِه .

أنواعهما : فمنهم مَن تُغَيِّرُه البوادِهُ ، وتُصَرِّفُه الهَوَاجمُ ؛ فيتأثَّر بها لقوَّة الوارد عليه ، فينشأ عنه الحركة والصياح والذهول والذُّبول .

ومنهم من لا يتأثَّر بها ، بل قد يكون فوقَ ما يفجَأُهُ حالاً وقوَّةً ، لضعف

الوارد ، فيكون أقوىٰ وأثبت منه في الحمل ؛ فلا يظهر عليه أثره ! كما قيل للجُنَيد رضي الله عنه . . لَمَّا كان في السماع فتحرَّك الناس . . ولم يتحرّك : يا سيدي ؛ مالك في هذا شيء ؟ فأجاب السائل بقوله تعالىٰ ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾ أي : أنَّه يجدُّ كما يَجِدُّون ، وهو أقوىٰ على حفظه منهم ، ومن ثَمَّ قال المصنِّف : **أولئك سادات الوقت ؛ كما قيل**[1] :

لاَ تَهْتَدِي نُوَبُ ٱلزَّمَانِ إِلَيْهِمُ : لا تتغيَّر أحوالهم ، بخلاف ما يطرأ على العالم من السَّعَة والضيق ، والعوافي والبلايا وغيرها ممَّا يحدث في الزمان .

وَلَهُمْ عَلَىٰ ٱلخَطْبِ ٱلجَلِيْلُ : على ما يطرقهم من الأمور العظيمة في أنفسهم **لِجَامُ** : قوّة وثبات وحفظ .

* * *

ومن ذلك : ٣٥ـ التلوين ، و٣٦ـ التمكين

أصحابها : التلوين : صفةُ أرباب الأحوال ، والتمكين : صفةُ أهل الحقائق .

التلوين يقال لنيل الحال والرجوع عنه ، فصاحبه يكون تارة مع الحقِّ ، وتارة مع نفسه ؛ فهو متلوّن . ويقال للانتقال من منزل إلى آخر إلى أن يصل إلى مطلوبه الأقصىٰ ؛ فيصير متمكِّناً .

فما دام العبد في الطريق ؛ فهو صاحبُ تلوين ، لأنَّه يرتقي من حال إلى حال ، وينتقل من وصف إلى وصف ، ويخرج من مرحَل : محلِّ الرحيل ؛ **ويحصل في مربَع** : محلِّ الربيع ، **فإذا وصل إلى مقام التوحيد وغلب على قلبه الحقُّ حتَّى لم يلتفت إلى غيره . . تمكَّن في مقامه .**

---

(١) لاَ تَهْتَـدِي نُـوَبُ ٱلـزَّمـانِ إِلَيْهِـمُ وَلَهُمْ عَلَىٰ ٱلخَطْبِ ٱلجَلِيْلِ لِجَامُ
والبيت من البحر الكامل .

وأنشدوا[1] في معنى ذلك :

ما زِلْتُ أَنْزِلُ فِي وِدَادِكَ مَنْزِلاً

تَتَحَيَّرُ ٱلأَلْبَابُ دُونَ - وفي نسخة : عند - نُزُولِهِ

التلوين والتمكين : وصاحب التلوين أبداً في الزيادة ينتقل ؛ وصاحب التمكين وَصَل إلى مقام التوحيد ثمَّ اتَّصل بحال الحقِّ ؛ بأن غلب على قلبه حاله . . حتَّى لم يلتفت إلى غيره .

المتمكِّن الواصل : وأمارةُ أنَّه اتَّصل بذلك : أنَّه بالكليَّة عن كُليَّته بَطل : خَنَست نفسه ؛ وكلَّت عن طلب شيء آخر ، لخمودها وذبولها تحت سلطان الحقيقة ، ومن ثَمَّ قال بعض المشايخ : اِنتهىٰ سفر الطَّالبين إلى الظَّفرِ بنفوسهم : غايةُ مطلوب السالكين الظفرُ بنفوسهم ؛ وإليه انتهىٰ سفرهم ، فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا .

قال الأستاذ رحمه الله : يريدُ كلٌّ منهم انخناسَ أحكام البشريَّة ، واستيلاءَ سلطان الحقيقة عليها ؛ بأن تخنس نفوسهم ، ويستوليَ على الإحساس بها سلطانُ الحقيقة ، فإذا دام للعبد هذه الحالةُ ؛ فهو صاحب تمكين .

ثمَّ أوضح ما مرّ من التلوين والتمكين بما ذكره بقوله :

نبيِّنا وموسىٰ عليهما الصلاة والسلام : كان الشيخ أبو عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول :

كان موسىٰ عليه السلام صاحبَ تلوين ؛ حيث كلَّم ربَّه فرجع من سماع الكلام منه إلى الناس ، واحتاج إلى ستر وجهه ؛ بأن أتىٰ إليهم متبرقعاً ، لأنَّه أثَّر فيه الحال . ونبيُّنا ﷺ كان صاحبَ تمكين ؛ حيث ذهب ليلة الإسراء وشاهد ما شاهد فرجعَ كما ذَهَب ، لأنَّه لم يؤثِّرْ فيه ما شاهَدهُ تلكَ الليلة لتمكُّنه . ومِن ثَمَّ قال : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ . . وَلاَ فَخْر »[2] .

---

(١) مـا زِلْـتُ أَنْـزِلُ فِـي وِدَادِكَ مَنْـزِلاً　　تَتَحَيَّـرُ ٱلأَلْبَـابُ دُونَ نُـزُولِـهِ
والبيت من البحر الكامل .

(٢) أخرجه أحمد : ٣/٢ ، والترمذي : ٣٦١٥ ؛ وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه : ٤٣٠٨ ؛ عن أبي سعيد رضي الله عنه . =

وكان أبو عليٍّ يستشهد علىٰ هذا بقصَّة يوسف عليه السلام ؛ من أنَّ النِّسوة اللاتي رأين يوسف عليه السلام قَطَّعْن أَيدِيَهُنَّ لِمَا وَرَد عليهنَّ من شهود يوسف عليه السلام على وجه الفَجْأة : البغتة ، وامرأة العزيز كانت أتمَّ في بلاء يوسف وحبِّه منهنَّ ؛ ثُمَّ لم - الأولىٰ : فلم - تتغيَّر عليها شَعرةٌ من شعرها ؛ ولا شيء من بشرتها ذلك اليوم !! لأنَّها كانت صاحبةَ تمكين في حديث : قصَّة يوسف عليه السلام ؛ لأنَّها لَمَّا توالىٰ عليها النظر إليه وعلى قلبها جمالُه . . لم تلتفت إليه وقت خروجه على النسوة اللاتي لم يُطِقْنَ ما أطاقت لغلبة شُغْلِهِنَّ به على إحساسهنَّ ، وكنَّ صاحباتِ تلوين لتغير أحوالهن .

سبب التغير : قال الأستاذ : واعلم أنَّ التغيُّر الحاصل بما يَرِد علىٰ العبد يكون لأحد أمرين : إمَّا ١ـ لِقوَّة الوارد ، أو٢ـ لضعفِ صاحبه عن تحمُّله . والسكونُ من صاحبه يكون لأحد أمرين : ١ـ إمَّا لِقوَّته ، أو ٢ـ لضعفِ الوارد عليه . فإن كان الوارد قويّاً وصاحبُه ضعيفاً . . لم يحمله ، وإن كان بالعكس ؟ حمله . . ولم يتغيَّر .

أصل دوام التمكين : سمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : أصول القوم الجارية في جواز دوام التمكين على العبد تتخرَّج على وجهين :

ما لا يدوم : أحدُهما ما لا سبيل إليه : إلى دوامه ،

لأنه قال ﷺ ـ لمَّا قال له حنظلةُ . . وهو يبكي : نافق حنظلة ، فإنَّا نكون عند تذكُّرنا الآخرة والجنة والنار كأنَّا رأيَ عين ، فإذا فارقناك عاسفنا الأهل فزال عنَّا ذلك ! ـ: « لَوْ بَقِيْتُم ـ : دمتم ـ عَلَىٰ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ فِي طُرُقِكُمْ وَعَلَىٰ فِرَاشِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً »[1] .

ولأنَّه ﷺ قال : « لِيْ وَقْتٌ لاَ يَسَعُنِي فِيْهِ غَيْرُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ »[2] . أخبر عن وقت مخصوص به ، لا يشتغل فيه بغير الله !! وبقيّة الأوقات يشتغل فيها بمصالح الناس من نسائه وغيرهنَّ .

---

(١) أخرجه مسلم : ١٢ ـ ٢٧٥٠ والترمذي ٢٥١٦ ؛ عن حنظلة بن الربيع الأُسيدي رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الخطيب وبمثله الترمذي وابن راهويه .

ولا يلزم منهنَّ أن يكون في غفلة وميل إلى الدنيا ، بل كلُّ ما فيه هو طاعة لربِّه ، حتَّىٰ ما كان من بَسْطه معهم ؛ كقوله لصغير : « يَا أَبَا عُمَيْر ؛ مَا فَعَلَ ٱلنُّغَيْر »[١] . وقوله للمرأة : « فِي عَيْنِ زَوْجِكِ بَيَاضٌ »[٢] . ومِن ثَمَّ قال : « إِنِّي أَمْزَحُ وَلاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقّاً »[٣] .

ولا يلزم أن تكون أحوالُه متساوية في سائر الأوقات ، بل على حسب ما يَرِدُ على قلبه من فتح ربِّه ، ورؤية جلاله وجماله وغيرِها ، فتارة يستغرق فيه بحيث لا يلتفت إلى غيره ؛ كما في نزول الوحي عليه ، ومكالمةِ جبريل له ، وتفَصُّد جبينه بالعرق لشدّة ما فيه واستغراقه ، وتارة لا يستغرق بهذه الحيثيّة .

قال أبو عليٍّ رحمه الله تعالىٰ :

ما يصحُّ دوامه : والوجه الثاني أنَّه يصحُّ دوام الأحوال على العبد ؛ لأنَّ أهل الحقائق ارتقوا عن وصف التأثُّر بالطوارق ، إلى حالة لا يتأثَّرون فيها بذلك ، والذي في الخبر السابق أنَّه ﷺ قال لحنظلة : « لَوْ بَقِيْتُمْ عَلَىٰ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ ٱلمَلاَئِكَةُ » . فَلَمْ يعلِّق الأمر فيه على أمر مستحيل ؛ حتَّىٰ يدلَّ على أنَّه لا سبيل إليه وأيضاً مصافحةُ الملائكةِ لمن ذُكِر معلوم أنَّها دونَ ما أثبت

---

(١) النُّغَيْر ـ تصغير نُغَر ؛ وهو طائر صغير .
والحديث متفق عليه عند البخاري : ٦١٢٩ ، ومسلم : ٣٠ ـ ٢١٥٠ ؛ عن أنس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وغيره ؛ عن عبد الله بن سَهْم الفِهري : « أَهُوَ ٱلَّذِي بِعَيْنَيْهِ بَيَاضٌ !؟» . ذكره عياض في « الشفا » .

(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » : ١٣٤٤٣ ، و« الصغير » : ٢/ ٧ ؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما، وعنه وعن أبي هريرة في «الأوسط» : ٩٩٩ ، والخطيب ؛ عن أنس رضي الله عنه .
ومن شواهده : قالوا : يا رسول الله ؛ إنك تداعبنا ؟! . قال : « إنِّي لا أَقُولُ إلاّ حقّاً » أخرجه أحمد : ٢/ ٣٤٠ و٣٦٠ ، والترمذي : ١٩٩٠ وقال : حسن صحيح ؛ وفي « الشمائل » : ٢٣٢ ، والبخاري في « الأدب المفرد » : ٢٦٥، والبيهقيُّ : ١٠/ ٢٤٢ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

لأهل البداية ؛ من قوله ﷺ : « إِنَّ ٱلمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَها لِطَالِبِ ٱلعِلْمِ رِضَاً بِمَا يَصْنَعُ »[1] .

توضيح : وأمَّا ما قال من قوله (: « لي وَقْتٌ . . لاَ يَسَعُنِي فِيْهِ غَيْرُ رَبِّي ») !! فإنَّما قال علىٰ حسب فهم السامع ، وإلاَّ فهو في جميع أحواله كان قائماً بالحقيقة ، فكلُّ ما هو فيه حقٌّ وطاعة لربِّه .

ولا يلزم أن تكون أحواله متساوية في سائر الأوقات ؛ كما تقرّر .

والأوْلى أن يقال : إنَّ العبد ما دام في الترقِّي ، فـهو صاحبُ تلوين ، يصحُّ في نعته الزيادة في الأحوال ؛ والنقصانُ منها ، فإذا وصل إلى الحقِّ بٱنخِناس أحكام البشريَّة . . مكَّنه الحقُّ سبحانه ، بأن لا يَرُدَّه إلى معلولات النفس ؛ فهو متمكِّن في حاله . . على حسب محلِّه واستحقاقه لما وصل إليه

تمكنُّ الواردات : فعُلم أنَّ التمكُّن عدم التغيُّر بالواردات ؛ وإنِ اختلفت أنواعها وما دام العبد متغيِّراً . . فهو صاحب تلوين ، ومتى كان حاملاً لجميع أصناف ما يَرِدُ عليه وإن اختلفت في القوَّة والضعف . . فهو صاحب تمكين ، لكمال قوّته وعون ربِّه .

ترقِّي الكمالات : ثمَّ ما يتحِفه الحقُّ سبحانه ؛ من البرِّ واللُّطف في كلِّ نَفَس ؛ فلا حدَّ لمقدوراته ، فهو ـ أي : العبد ـ في الزيادات متلوِّنٌ ، بل ملوَّن من قبل الحقِّ ، وفي أصل حالِه متمكِّن ؛ فأبداً يتمكَّن في حالةٍ أعلىٰ ممَّا كان فيها قبلَه : قبلَ حاله الذي هو فيه ، ثمَّ يرتقي عنها إلى ما فوقَ ذلك ، إذ لا غاية لمقدوراتِ الحقِّ سبحانه في كلِّ جنس ـ وفي نسخة : حين ـ .

مع المحو لا تمكين : فأمَّا المصطَلَم : الغائب عن شاهده ، المستوفىٰ إحساسُه بالكلية !! فقد زالت عنه غلبة البشرية ، فللبشريَّة لا محالةَ حدٌّ معروف ، وإذا بطل العبد باصطلامه عن جملته ونفسه وحِسِّه ، وكذلك عن سائر المكوِّنات بأسرها ، ثمَّ دامت به هذه الغيبة! فهو محوٌ ؛ فلا تمكين له إذاً ، ولا تلوينَ ،

---

(١) أخرجه أحمد : ٥/١٩٦ ، وأبو داود : ٣٦٤١ ، والترمذي : ٢٦٨٢ ، وابن ماجه : ٢٢٣ ، والدارمي : ١/٩٨ ، وابن حبان (موارد : ٨٠) ؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

ولا مقام ، ولا حال .

وما دام بهذا الوصف !! فلا تشريفَ ؛ ولا تكليف ، ولا نقص لشَبَهه بالمغمىٰ عليه ، وهذا ليس بمحمود كامل ! وإنَّما المحمودُ الكامل مَن كَمُل اشتغاله بمولاه حتَّى غفل عن نفسه ؛ فضلاً عمن سواه ، فلم يغب عن شعوره بنفسه إلاَّ لكمال شُغْله بربِّه ، بخلاف المصطلَم الذي لا شعور له بنفسه . . ولا بربِّه . . ولا بغيرهما ، **اللهم** ؛ **إلاَّ أن يُرَدَّ** إلى نفسه وإحساسه **بما يجري عليه من غير** شيء منه ، بأن يدرك ما يجريه الحقُّ عليه ويصرِّفُه فيه ، **فذلك العبد متصرِّف في ظنون الخلق** ؛ من حيث إنَّه يأتي بما يلزمه بعد أن يَرُدَّه الحقُّ في غيبته إلى صحوه **مُصرَّف في التحقيق** ؛ من حيث إنَّ الحقَّ وفَّقه وغيَّبه عن شهود غيره ، **قال الله تعالىٰ** ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا ـ : لأنَّ أعينهم مفتَّحة ـ وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾[1] لئلاَّ تأكلَ الأرض لحومهم . **وبالله التوفيق** .

* * *

ومن ذلك : ٣٧ـ القرب ، و٣٨ـ البعد

من الله ومن العبد ؛ لا بالأبدان كما سيأتي ، ولاستحالته عليه تعالىٰ ، بل لَمَّا أخذ في بيانه بقوله :

معنى القرب ورتبته : **أوَّل رتبةٍ في القرب من الله القربُ من طاعته ، والاتصافُ في دوام الأوقات بعبادته** . .

معنى البعد : **وأمَّا البعد منه ! فهو التدنُّس والتلطُّخ بمخالفته تعالى ، والتجافي** : البعد عن طاعته .

فأوَّل البعد بعدٌ عن التوفيق ، ثمَّ بعدٌ عن التحقيق ، بل البعدُ عن التوفيق في

---

(١) الآية : ١٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الكهف .

الحقيقة هو البعدُ عن التحقيق بالنسبة إليه تعالىٰ ، وقد قال النبيُّ ﷺ في الخبر الصحيح . . مُخبِراً عن الحقِّ سبحانه : « ﴿ مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ٱلْمُتَقَرِّبُونَ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا ٱفْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ يَزَالُ ٱلعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِٱلنَوَافِلِ حَتَّىٰ يُحِبَّنِي وَأُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ . . كُنْتُ لَهُ سَمْعَاً وَبَصَرَاً ، وَيَدَا وَرِجْلاً - وروي : كُنْتُ سَمْعَهُ ٱلَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ ٱلَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ ٱلَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ ٱلَّتِي يَمْشِي بِهَا - فَبِيْ يُبْصِرُ ، وَبِي يَسْمَعُ . . » الخبرُ[1] .

ففيه إشارة إلى أنَّ قرب العبد من ربِّه إنَّما هو بطاعاته ، وأوّله القيام بالواجبات ، والبعد عن المحرَّمات ، ثمَّ القيام بالمندوبات . والكفُّ عن المكروهات والشبهات ، ثمَّ القيام بملازمة أفضل المندوبات . فإذا تعالت درجته ودامت مراقبته لأحكام ربِّه . . انتقلت همَّته إلى مقام الإحسان ؛ وهو مقام المقرَّبين ؛ وهو رؤية ربِّه في سائر الحركات والسكنات ، فإذا دام ذلك عليه . . أحبَّ مولاه ، لما رأى مِن توالي إحسانه إليه ، وإذا أحبَّه . . تزايد أدبه معه ، وحينئذ يكون في أعلى مراتب القرب ، فيحبّه مولاه ، ويسبغ عليه نعمه وألطافه ، ويجري عليه كراماتِه ، وهذا هو المراد بقوله ﴿ كُنْتُ سَمْعَهُ . . ﴾ إلخ . إذ ظاهره غيرُ مراد قطعاً ، فالمراد أنْ أحفظَه وأُسبغ عليه النعم والألطاف ؛ في سائر حركاته وسكاته .

قرب العبد : فقُرْب العبد أوَّلاً من الحقِّ قربٌ بإيمانه وتصديقه ، ثمَّ قربٌ بإحسانه وتحقيقه .

قرب الربِّ : وقربُ الحقِّ سبحانه من العبد ما ـ : بما ـ يخصُّه اليومَ : في الدُّنيا به من العرفان ، وفي الآخرة ما ـ : بما ـ يُكرِمُه به من الشهود والعِيان ، وفيما بين ذلك : في أثنائه الشاملِ له ما ذكر من وجوه اللُّطف والامتنان عليه .

شرط القرب : ولا يكون قرب العبد من الحقِّ إلاَّ ببعده عن الخلق .

وهذا القرب من صفات القلوب ؛ دون أحكام الظاهر والكون : الوجود من القرب بالأبدان لاستحالته في حقِّه ؛ كما مرّ . . وكما سيأتي !

---

(١) بنصبه أي : أُذكر الخبرَ ، ويجوز رفعه وجرُّه (الشارح) . وتقدم تخريجه ص ٣٦ .

حالات قرب الحق : وقربُ الحقِّ سبحانَه من العبد ؛ يكون بالعلم والإحاطة وغيرهما كالحفظ وتوالي فضله على خلقه ، فقربه منه بالعلم ، والقدرة ! عامٌّ للكافَّة من الخلق .

وباللطف والنُّصرة !! خاصٌّ بالمؤمنين ، ثمَّ : قُرْبُه منه بخصائص التأنيس به تعالىٰ مختصٌّ بالأولياء ، فقربُه من العبد كقرب العبد منه متفاوتُ الرتبة ، ومع ذلك فقربه من العبد إنَّما هو بالنسبة لشيء من ذلك ؛ لا بالنسبة للأبدان ؛ كما تقرَّر .

قال الله تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾[1] : بالعلم . وقال تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ـ: بالعلم ـ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[2] ، وقال ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ـ بالعلم ـ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[3] ، وقال تعالىٰ ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾[4] :ـ بعلمه .

تحقُّق القرب : ومن تحقَّق الوصول بقُرْب الحقِّ منه . . فأَدْوَنُهُ دوام مراقبته إيَّاه ، لأنَّ عليه رقيبَ التقوى ، ثمَّ عليه رقيبُ الحفاظ له ولأفعاله ، ورقيب الوفاء بما عُوهد عليه ، ثم رقيب الحياء من الوقوع فيما لا يليق .

وإذا وصل العبد إلى دوام مراقبته لربِّه واشتدّ حياؤه منه حتَّى لا يخرج عن الحق . . حَسُن منه أن يقول هذه الأبيات التي ذكرها المصنف بقوله :

وأنشدوا[5] في ذلك :

---

(١) الآية : ٨٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الواقعة .

(٢) الآية : ١٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : قٓ .

(٣) الآية : ٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحديد .

(٤) الآية : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المجادلة .

(٥)
كَأَنَّ رَقِيْباً مِنْكَ يَرْعىٰ خَواطِري ... وَآخرَ يَرْعىٰ ناظِري وَلِسَاني
فَما رَمَقَتْ عَيْنايَ بَعْدَكَ مَنْظَراً ... يَسُوْؤُكَ إلاَّ قُلْتُ : قَدْ رَمَقَاني
وَلاَ بَدَرَتْ مِنْ فِيَّ دُونَكَ لَفْظَةٌ ... لِغَيْرِكَ إلاَّ قُلْتُ قَدْ سَمِعَاني
وَلاَ خَطَرَتْ فِي ٱلسِّرِّ بَعْدَكَ خَطْرَةٌ ... لِغَيْرِكَ إلاَّ عَرَّجَا بِعِنَاني
وَإِخْوَانُ صِدْقٍ قَدْ سَئِمْتُ حَدِيْثَهُمْ ... وأَمْسَكْتُ عَنْهُمْ نَاظِري وَلِسَانِي
وَمَا ٱلزُّهْدُ أَسْلىٰ عَنْهُمُ غَيْرَ أَنَّنِي ... وَجَدْتُكَ مَشْهوداً بِكُلِّ مَكَانِ

والأبيات من البحر الطويل .

كَأَنَّ رَقِيْباً مِنْكَ يارب يَرْعَىٰ خَوَاطِرِي

وَآخَرَ يَرْعَىٰ نَاظِرِي وَلِسَانِي من الوقوع فيما لا يليق .

فَمَا رَمَقَتْ عَيْنَايَ بَعْدَكَ : بعد نظرهما إليك مَنْظَراً

يَسُؤُكَ في شريعتك إلاَّ قُلْتُ : قَدْ رَمقانِي : الرقيبان في ذلك ؛ فلا أقع فيه !

وَلاَ بَدَرَتْ مِنْ فِيَّ : أسرعَتْ من فمي دُونَكَ : بعدَك لَفْظَةٌ

لِغَيْرِكَ إلاَّ قُلْتُ قَدْ سَمِعَانِي ـ أي : الرقيبان ـ .

وَلاَ خَطَرَتْ فِي ٱلسِّرِّ بَعْدَكَ خَطْرَةٌ

لِغَيْرِكَ إلاَّ عَرَّجَا بِعِنَانِي عنها ، شبَّهَ ما يقوده للطاعة بعِنان الفرَس .

وَلي إِخْوَانُ صِدْقٍ قَدْ سَئِمْتُ : مللتُ حَدِيْثَهَمْ

وَأَمْسَكْتُ عَنْهُمْ نَاظِرِي وَلِسَانِي

وَمَا ٱلزُّهْدُ أَسْلَىٰ عَنْهُمُ غَيْرَ أَنَّنِي

وَجَدْتُكَ مَشهُودَاً وأنا بِكُلِّ مَكَانِ : اشتغلتُ بربِّي عنهم ؛ لا زهداً عنهم ، كما أزهد عن غيرهم من أرباب الدنيا ، بل لكمال شغلي بمحبوبي !

المقدَّم اليقظ : وكان بعض المشايخ يخصُّ واحداً من تلامذته بإقباله الزائد عليه ، فقال أصحابُه له في ذلك !! : سألوه عن سببه !؟ فدفع إلى كلِّ واحد منهم طيراً ؛ وقال (اذبحوه بحيث لا يراه أحد) فمضىٰ كلُّ واحد إلى مكان وذبح الطير الذي معه ؛ بمكان خال . . وجاء هذا الإنسان ؛ والطيرُ معه غيرُ مذبوح ؛ فسأله الشيخ !؟ فقال : أمرتني أن أذبَحَه بحيث لا يراهُ أحدٌ ، ولم يكنُ موضعٌ إلاَّ والحقُّ سبحانه يراه !! . فلم يمكنّي ذبحه .

فقال الشيخ : لهذا أُقدِّم هذا عليكم ؛ إذ الغالب عليكُمْ حديثُ الخلق ، فيغلب عليكم الغفلة عن الحقِّ ، وهذا غير غافلٍ عن الحقِّ تعالىٰ .

حجاب القرب : ورؤية القُرب من الله حجابٌ عن القرب ، لأنَّه إذا رأى قربه منه . . فقد رأىٰ غيره ! فكمال قربه أن يشتغل بربِّه عن قربه منه ، ومن شاهد لنفسه محلاً ؛ أو نَفَساً فهو ممكورٌ به مغرور به .

ولهذا قالوا (أوحشَك الله من قُرْبه) : من شهودِك لقُرْبه : لقربك منه ـ يعني : شَغَلك الله به شغلاً حتَّى لا تجد لقربك منه أثراً ـ فإنَّ الاستئناس : استئناسَ العبدِ بقربه من الله من سِمات : علامات العزَّة به وبُعدِه من الحقِّ ؛ إذ الحقُّ سبحانَه وراءَ ـ أي : أمام ـ كلِّ أُنس .

مواضع الحقيقة : وإنَّ مواضعَ الحقيقة : موجباتها توجب الدَّهَش : التحيُّر ، والمحقُ : يوجب دَهَشك بالحقِّ ، ومَحَقك عن غيره .

وفي قريب من هذا قالوا :

مِحْنَتِـــي فِيْـــكَ أَنَّنِـــي مَـــا أُبَـــالِـــي بِمِحْنَتِـــي

هذا ساقط من نسخ

قُـــرْبُكُـــمْ مِثْـــلُ بُعْـــدِكُـــمْ فَمَتَـــىٰ وَقْـــتُ رَاحَتِـــي!!

وكان الأستاذ أبو عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ كثيراً ما ينشد[1] :

وِدَادُكُمُ : رؤيتي لمودَّتي لكم هَجْرٌ ، وَحُبُّكُمُ : ورؤيتي لمحبَّتي لكم قِلَيً : بغضٌ لكم وإعراض عنكم .

وَقُرْبُكُمُ بُعْدٌ : ووقوفي مع قربكم يدلُّ على بُعْدي عنكم ، وهو محلُّ الاستشهاد . وَسِلْمُكُمُ : صلحكم حَرْبُ . يعني : متى ردَدْتُموني إلى نفسي وحسن حالي أبعدتُموني عنكم .

قرْبُ النُّوري : ورأىٰ أبو الحسين النُّوريُّ بعض أصحابِ أبي حمزة ؛ فقال :

أنت من أصحاب أبي حمزة الذي يشير إلى القرب !؟ إذا لقيته ؛ فقل له : إن أبا الحسين النُّوري يُقرِئُك السَّلام ؛ ويقول لك : قربُ القُرب فيما نحن فيه : رؤيتك له بعدُ العبد . لدلالتها على اشتغالك عنه بغيره .

فتلخَّص أنَّ المراد بالقرب هذا ؛ القرب المعنوي .

---

(١) وِدَادُكُـــمُ هَجْـــرٌ وَحُبُّكُـــمُ قِلًـــىً وَقُـــرْبُكُمُ بُعْـــدٌ وَسِلْمُكُـــمُ حَـــرْبُ
والبيت من الطويل .

قرب الذات : فأمَّا القربُ بالَّذات : بالبدن من المكان !! فتعالىٰ الله الملكُ الحقُّ عنه ، فإنَّه تعالى متقدِّسٌ : متنزِّهٌ عن الحدود والأقطار ، والنهاية والمقدار ، ونحوها ممَّا يدلُّ على الجسمية ، ما اتصل به مخلوق ، إذ لا تحلُّه الحوادث ، ولا انفصلَ عنه حادثٌ مسبوقٌ به ، لتنزُّهه عن ذلك ؛ كما قال جَلَّت : عظُمت الصمديَّة : صمدِيَّتهُ تعالىٰ عن قبول الوصل والفصل .

أنواع القرب : وقربهُ تعالىٰ ثلاثة أقسام بيَّنها بقوله :

فـ١ـ قربٌ هو في نعته تعالىٰ محال ؛ وهو : تداني الذوات : الأبدان . . كما مرّ .

و٢ـ قربٌ هو واجب : ثابت قطعاً في نعته ؛ وهو : قربٌ بالعلم والرؤية ونحوهما .

و٣ـ قربٌ هو جائز في وصفه : نعته يخصُّ به من يشاء من عباده ، وهو قربُ الفعل باللُّطف والإنعام .

* * *

ومن ذلك : ٣٩ـ الشريعة ، و٤٠ـ الحقيقة ، و٤١ـ الطريقة

معناهما : الشريعة : أمر للعبد بالتزام العبودية ، **والحقيقة** : مشاهدة الربوبيَّة : رؤيته إيَّاها بقلبه . ويعبَّر عن ذلك بأن الشريعة معرفة السلوك إلى الله تعالىٰ . **والحقيقة** دوامُ النظر إليه ، **والطريقة** سلوك طريق الشريعة : العمل بمقتضاها .

وبعضهم لم يفرّق بينها وبين الشريعة !! والشريعة ظاهرُ الحقيقة ، والحقيقة باطن الشريعة ، وهما متلازمان لا يتمُّ أحدُهما إلاَّ بالآخر .

شرطهما : فكُلُّ شريعةٍ غيرُ مؤيَّدة بالحقيقة فغير مقبول ـ وفي نسخة : مقبولة ـ .

وكلُّ حقيقةٍ غيرُ مقيَّدة بالشريعة فغير محصول ـ وفي نسخة : محصولة ـ فمَن

لا حقيقة له لا شريعة له ، ومَن لا شريعة له لا حقيقة له ، لأنَّ الحقيقة أصلُ الإيمان ، والشريعة القيام بالأركان ، فمن عرف الحقَّ ولم يعبده . . تعرّض للخسارات ، ومَن لم يعرفه . . استحالت منه الطاعات .

فوارق : فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقةُ إنباءٌ : إخبار عن تصريف الحقِّ : بأن يشاهد ثم يخبر عنه ، فالشريعة أخذاً مما مرَّ أن تعبدَه تعالىٰ ، والحقيقة أن تشهَدَه ، والطريقة أن تقصده .

والشريعةُ قيامٌ من العبد بما أمره الله به ، والحقيقةُ شهودٌ لما قضىٰ الله به وقدَّر ، وأخفىٰ وأظهر .

الشريعة والحقيقة : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول :

قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ **حفظ للشريعة** ؛ من حيث إنَّ العبد أضاف العمل إلى نفسه ورأىٰ أنَّه عامل ، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **إقرارٌ بالحقيقة** ؛ من حيث تبرُّؤه من القيام بشيء من عبادته ، وافتقارُه فيها إلىٰ عون ربِّه .

اتحادهما : واعلم أنَّ الشريعة حقيقةٌ ؛ من حيث إنَّها وجبت بأمره .

والحقيقةُ ـ أيضاً ـ شريعةٌ ؛ من حيث إنَّ المعارف : معرفة العارفين به سبحانه أيضاً وجبت بأمره ؛ وذلك لأنَّ الشريعة يغلب فيها حال مراعاة الأوقات والأعمال الموصلة إلى الخيرات التي منها رؤية خالق الأرض والسماوات .

والحقيقة يغلب فيها حالُ الإيمانِ على القلب حتَّىٰ يصير مشاهداً بقلبه لربِّه ، فلما كانت الأعمالُ الغالبةُ في الشريعة لا تصحُّ إلاَّ بالتوحيد والإيمان . . كانت كلُّ شريعة حقيقةً ـ أي : هي ثمرتها ـ ولَمَّا كان الإيمان الغالبُ في الحقيقة مطلوباً شرعاً . . كانت كلُّ حقيقة شريعةً ، وإنَّما وقعت التفرقة بينهما بالنظر للغلبة في حال العابد والعارف ، ولَمَّا كان العابدُ يغلب عليه الوقوف مع الأعمال وإتقانها وإخلاصها . . سمِّي صاحب شريعة ، ولَمَّا كان العارف يغلب عليه حال الحق ؛ ويرىٰ أنَّ جميع ما هو فيه من فضله . . سمِّيَ صاحبَ حقيقة ، فقد تبيَّن أنَّ بينهما اجتماعا وافتراقاً بالاعتبار .

* * *

ومن ذلك : ٤٢ـ النفَس

معناه : النَّفَس : **ترويحُ القلوب بلطائف الغيوب** . لأنَّ النَّفَس إنَّما هو ترويح الحصر ، إذ المتنفِّس يجد راحته بنفسه ، ولو أمسك عن تنفُّسه لهلك .

مفارقه : **وصاحب الأنفاس أرقُّ وأصفىٰ من صاحبِ الأحوال** ، وأرباب الأوقات هم الحافظون لأحوالهم في أوقاتهم ؛ لئلاَّ يضيع عليهم ، فمَن غلب عليه شغله بالأولىٰ به في وقته . . سمِّي (صاحب وقت) ، ومَن توالت عليه أحواله المتوالية على قلبه . . وهو حامل لها متأدِّب مع الحقِّ فيما يَرِدُ عليهم منها . . سمِّي (صاحب حال) ، ومَن تنفَّس وروَّح قلبه بما وهبه الحقُّ له من لطائف غيبه وإكرامه . . سمِّي (صاحب نفس) .

فكأنَّ صاحب الوقت مبتدِئٌ ، وصاحبُ الأنفاس منتهٍ ، وصاحب الأحوال بينهما .

تقسيمات : **فالأحوال وسائط ، والأنفاس نهاية الترقي** ، والأوقات بدايته ، **فالأوقاتُ لأصحاب القلوب ، والأحوالُ لأرباب الأرواح ، والأنفاس لأهل السرائر** .

وقالوا ـ أي الصوفية ـ : **أفضلُ العبادات عدُّ الأنفاس مع الله سبحانه وتعالىٰ** .

وقالوا : خَلَقَ الله تعالى القلوبَ وجعلها معادنَ المعرفة به ، وخلقَ الأسرار وراءَها : بعدها **وجعلها محلاًّ للتوحيد . فكُلُّ نَفَس حصل من غير دلالة المعرفة وإشارةِ التوحيد على بساط الاضطرار** ؛ إلى قضاء الوطر . . **فهو ميت ، وصاحبُه مسؤل عنه** .

مستحق للنَّفس : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **العارف لا يسلَم له النَّفَس ؛ لأنه لا مسامحةَ تجري معه فيه** ، إذ لا تفرقة عنده ؛ لكمال شغله بربِّه . . حتى غَفَل عن جميع أحواله وأنفاسه ! **والمحبُّ لا بدَّ له من نَفَس** ، إذ **لو لا أن يكون له نَفَسٌ لتلاشىٰ وهلك ؛ لعدم طاقته على تركه** .

درجات الأنفاس : قال الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد الأنصاري : والنَّفَس على ثلاث درجات[1] .

١ـ نفس في حين الضيق مملوء من الكظم متعلِّق بالعلم . . إن تنفَّس تنفَّس بتنفُّس المتأسِّف ، وإن نطق نطق بالحزن .

و٢ـ نفس في حين التجلِّي مملوء من نور الوجود ؛ شاخص إلى روح المعاينة .

و٣ـ نفس مطهَّر بماء القدس ؛ قائم بإشارات الأزل .

والنَّفَس الأول للعُثُور سراج : لأنه يخلِّصُه من عثرةِ وقعته .

والثاني للقاصد معراج : لأنَّه يتوصَّل به إلى مطلوبه ؛ من استغراقه في توحيده . والثالث للمحبِّ تاج : لأنَّه قد وصل إلى مطلوبه ، فصار تنفُّسه بما وجده من محبوبه تاجاً يتشرَّف به ، ولذلك قالوا : إنَّ العارف لا يسلم له النَّفَس لكمال شغله بربِّه ، وإنَّما النَّفَس للمحبِّ ! .

* * *

* *

*

---

(١) لأنَّ الأحوال المتعاقبة على العبد بتصريف الحقِّ . .
١ ـ تارة تنشأُ عن الالتفات إلى مظاهر الجلال فتورث القلب ضيقا ؛ فيتنفَّسُ بالتأسُّف وينطق بالحزن فيتَّقد له بذلك سراج البشائر .
و٢ ـ تارة تنشأُ من تجلِّي نور الحقِّ المرقِّي إلى معارج المشاهدة والمعاينة فلا ينطق إلا بمحبوبه .
و٣ ـ تارة تنشأُ من ماء القدس الوارد بإشارات الأزل فتتحلَّىٰ الحال بتاجات هامات الانمحاق فحينئذ يتلاشى العبد ؛ ويفنىٰ عن نفسه ومالَها . والله أعلم (عروسي : ٢/ ٩٦ بتصرُّف) .

ومن ذلك : ٤٣ـ الخواطر [١]

لمحة : هي أقوال ينشِئُها الحقُّ تعالى في قلوب الخلق . . تارة بلا واسطة مخلوق ، وتارة بواسطة مخلوق ؛ من مَلَك أو شيطان أو نَفْس ! وقد أخذ في بيانها فقال :

معناه : **والخوطِرُ خطابٌ** ـ أو ما في معناه ـ **يَرِدُ على الضمائر** : القلوب .

مصادره : وهو قد يكون بإلقاء مَلَك ، و قد يكون بإلقاءِ شيطان ، وقد يكونُ أحاديثَ النَّفس ، وقد يكون من قِبَل الحقِّ سبحانَه بلا واسطة .

أنواعه : فإذا كان إلقاؤه من المَلك ! فهو « **الإلهام** » ؛ وهو إلقاء معنىً في القلب بطريق الفيض ، وإذا كان من قِبَل النَّفْس !! قيل له « **الهواجس** » ، و« التسويل » و« التطويع » ، قال تعالى ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾[٢] ، وقال ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾[٣] والهواجس ؛ جمع هاجس . . وهو الخاطر . فقد يعبِّرون بالهاجس عن الخاطر الأوَّل ؛ وهو الخاطر الربَّاني ، وهو لا

---

(١) **اعلم** أنها أقسام خمسة : ١ ـ ربَّاني ، و٢ ـ ملكي ، و٣ ـ عقلي ، و٤ ـ نفساني ، و٥ ـ شيطاني .
فالأوّل يرد على القلب بإرادة الربِّ ؛ وهو لا يخطىء أبداً ، ويكون من ١ ـ حضرة الربوبية ، و٢ ـ الحضرة الرحمانية ، و٣ ـ الحضرة الإلهية ، **والفرق بينها** أن **الرَّبانيَّ** يرد بالجلال ؛ وهو **يمحقُ ويفني** ، **والرحمانيُّ** بالجمال ؛ وهو يُثبتُ ويُبقي ، **والإلهي** بالكمال ؛ وهو يُصلح ويهدي . والعبد يستعدُّ في الجلال **بالصبر** ، وفي الجمال **بالشكر** ، وفي الكمال بالسكينة . **والثلاثة للعارفين** . **و٢ ـ الملكي** ، **و٣ ـ العقلي** لأهل المجاهدات ، **و٤ ـ النفساني** ، **و٥ ـ الشيطاني** لأهل الغفلات .
والخاطر إذا تمكّن صار **همّاً** ، وإذا زاد تمكُّنه صار **عزماً** ، وهو يصير قبل الشروع **قصداً** ، ومع أوَّل الفعل **نيّة** . والله أعلم (عروسي : ٢/٩٦ ؛ بتصرف) .

(٢) الآية : ١٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها يوسف عليه السلام .

(٣) الآية : ٣٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المائدة .

يخطىء أبداً . وقد يسمّىٰ « السبب » و« تفرُّد الخاطر » ! فإذا تحقّق في النفس سمَّوه « إرادة » ، فإذا تردّد الثالثة سمَّوه « همًّا » ثم « عزما » . وعند التوجُّه إلى الفعل « قصداً » ، ومع الشروع في الفعل « نية » .

وإذا كان من قِبَل الشيطان ! قيل له ـ وفي نسخة : فهو ـ فهو « الوسواس » ، قال تعالىٰ ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾[1] .

وإذا كان من قِبَل الله سبحانه ؛ وإلقائِه في القلب ! ! فهو « خاطر حقٍّ » .

وجملة ذلك من قَبِيل الكلام النفسي الملقىٰ في الضمائر .

تفحُّصه : وإذا كان من قبَل المَلَك ! ! فإنَّما يُعلَم صدقُه بموافقة العلم الشرعي ، ولهذا قالوا : كلُّ خاطر لا يشهدُ له ظاهرٌ من الشرع فهو باطل .

وإذا كان من قِبَل الشيطان ! فأكثرهُ يدعو إلى المعاصي ، وأقلُّه يدعو إلى خيرٍ في الظاهر . . وهو من باب : « صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ »[2] .

وإذا كان من قِبَل النَّفس ! فأكثره يدعو إلى اتباع الشهوة ؛ أو إلى استشعار : طلبِ أكبر ، أو إلى ما هو من خصائِص أوصاف النَّفْس ؛ التي قال الله فيها ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[3] ، وأمَّا أقلُّه فيدعو إلى خير ؛ كما ذكره بقوله تعالىٰ ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ .

تمحيصه : ثمَّ إذا عرف العبد كونَ الخاطرِ خيراً قَبِلَه[4] . وإن لم يعرف كونَه من

---

(١) الآية : ٢٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

(٢) يشير به إلىٰ ما أخرج البخاريُّ : ٢٣١١ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه إذ كان حارساً لبيت المال فجاءه الشيطان في هيئة ذي حاجة وعيال فأسره أبو هريرة ثم رحمه فأفلته ! فعل ذلك مرتين ويسأله النبي ﷺ : « مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ ٱلْبَارِحَةَ !؟» ثم علَّم أبا هريرة فضائل آية الكرسيِّ في الحفظ . . فقال النبيُّ ﷺ : « أما إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ! تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاثِ لَيَالٍ ؛ يا أَبا هُرَيْرَةَ ؟! قال : لا . قال : « ذاكَ شَيْطانٌ » .

(٣) الآية : ٥٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها يوسف عليه الصلاة والسلام .

(٤) ولا يتمُّ له هذه المعرفة إلاَّ بالعرض علىٰ الكتاب والسنَّة ، فما وافقهما قبله وعمل به ، وإلاّ ردّه . سواء كان رحمانياً ؛ أو ملكياً ؛ أو نفسانياً ؛ أو شهوانياً . (عروسي : ٢/ ٩٧ ؛ باختصار) .

الحقِّ تعالى ؛ أو من المَلَك ، وإن علم كونه شرّاً ردَّه ونفاه ؛ وإن لم يعرف كونه من النفس . . أو من الشيطان . وإنَّما فرقوا بين خاطريهما !! لأنَّ الشيطان يكفي في ردّه المخالفةُ ، والنفس يحتاج مع ذلك إلى مخالفة شهواتها ؛ وأن يقطع عنها ملذوذاتها . . عقوبةً لها ؛ لئلا تعود إلى ما دعت إليه .

أكل الحرام : **واتفق المشايخ علىٰ أنَّ مَن كان أكلُه من الحرام . . لم يفرِّق بين الإلهام والوسواس** ، لأنَّ ذلك لا يقع إلاَّ لمن قلت همَّته ، ولأنَّ التمييز بينهما إنَّما يقع بدقيق النظر في الأحكام ، وكمالِ العلم بالحلال والحرام .

أثر التوكُّل : وسمعت الشيخ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **مَن كان قوتُه معلوماً** : معيَّناً من جهة . . **لم يفرِّق بين الإلهام والوسواس** ، لأنَّ سكونه إلى جهة معينة يمنعه من النظر في كمال حاله وهو تحسُّسه لما يَرِدُ على قلبه ، فمَن لم يبلغ درجة التوكُّل والإعراض عن السكون إلى الأسباب المعيَّنة المعتادة . . لم ينل كمالَ إفراغ القلب للتفريق بين الإلهام والوسوسة في خواطر قلبه .

واتفقوا علىٰ أنَّ مَن سكنت عنه هواجسُ : خواطر **نفسه بصدق مجاهدته . . نطَق ببيانِ قلبه بحكم مكابدته** : مجاهدته ، فالنطق المذكور ثمرتُها ، كما يشير إليه قوله تعالىٰ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(١) .

النفْس والقلب : **وأجمعَ الشيوخُ أيضاً علىٰ أنَّ النفس لا تصدُق** غالباً في مواعيدها ؛ لسرعة خلفها وكسلها ونُفرتها عن المشقَّات ، **وعلى أنَّ القلب** ـ يعني : العقل ـ **لا يكذب** . لأنَّ العبد إذا عرف الحقَّ بعقله . . نطق لسانه بما حقَّقه في قلبه ، لأنَّه ترجمان القلب ؛ فإذا صدق . . صدق ترجمانه !

ولهذا **قال بعضُ المشايخ** لبعض تلامذته : **إنَّ نفسَك لا تصدُق وقلبَك لا يكذب ، ولو اجتهدت كُلَّ الجهد أن تخاطِبَك روحُك! لم تخاطبْك** . لأنَّها إمَّا جوهر أو عرض(٢) ، وعلى كلِّ حال . . فهي معنىً به حياة الجسم لا غير ،

---

(١) الآية : ٦٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : العنكبوت .

(٢) الذي حقَّقه العزُّ أنَّها من الجواهر المجرَّدة ، وهي علىٰ شكل أشباحها ؛ لها تعلُّق بالجسم تعلُّقَ حياة . . لا هي متَّصلةٌ بالأجسام ، ولا هي منفصلة عنها . فسبحان العليم الخبير . (عروسي : ٢/ ٩٨) .

ولها تعلُّق بالمقامات العالية المشتغلة بها عن مخاطبتك، فلا يصدُر عنها خاطر !

الهاجس والوسواس : **وفرَّق الجنيد بين هواجس النفس ووساوس الشيطان ؛ بأن النَّفس إذا طالبتك بشيء ألحَّت عليك في طلبه ؛ لأنَّها مائلة لكلِّ لذيذ ، فإذا ٱلتذَّت بشيء تعلَّقت به ؛ فلا تزالُ تعاوِدُك مرَّة بعد أخرى ؛ ولو بعد حين حتَّىٰ تصلَ منك إلى مرادها** ، وتُحصِّل مقصودَها ، **اللهم ؛ إلاَّ أن يدومَ صدق المجاهدة لها** . . فلا تصلُ إلى مرادها ، **ثم إنَّها مع ذلك تعاوِدُك وتعاودك** !! .

وأمَّا الشيطان ! فإنه إذا دعاك إلى زَلَّة ؛ **فخالفته !! يترك ذلك ويوسوس لك بزلَّة أخرى ، لأنَّ جميع المخالفات له سواء ، وإنَّما يريد أن يكون داعياً لك أبداً إلى زلَّة ما ، ولا غرض له في تخصيص شرٍّ واحدٍ دون واحد** .

خاطرا الحق والمَلَك : **وقد قيل** في الفرق بين خاطر المَلَك وخاطر الحقِّ تعالىٰ : **كلُّ خاطر يكون من الملك فرُبَّما يوافِقُه صاحبه** : الخاطر . . **وربَّما يخالفه** !! لأنَّ الملك إذا أمر بخير زَيَّن الشيطان للنفس الكسل والراحة ، فلذلك كان خاطر المَلَك يتردَّد ؛ لما يقابله من تزيين الشيطان .

فأمَّا خاطرٌ يكون من الحقِّ سبحانه . . ينشئه لصلاح عبده !! **فلا يحصل خلافٌ من العبد له** ، إذ لا طمع له في منازعته لربِّه فيما أنشأه له في قلبه ، لكنه إنَّما يعرف كونَه من الحقِّ بعمله من الشرع . . كما مرّ .

تعدد الخواطر : **وتكلَّم الشيوخُ في الخاطر الثاني الموافق للأوَّل؛ إذا كان الخاطران من الحقِّ سبحانه** ، **هل هو أقوىٰ من الأوَّل** ؟! أو الأوَّل أقوىٰ منه !؟ أو هما سواء !؟

١ـ **الجنيد** : **فقال الجنيد** : **الخاطرُ الأوَّل أقوىٰ لأنَّه** سابق ، ولأنَّه إذا بقي مع الثاني رجع صاحبُه **إلى التأمُّل** في أيِّهما أقوىٰ . **وهذا** : **التأمُّل بشرط العلم** بالأقوى منهما ، وهو الآن لا يعلمه . . فيفوت علمه به ، **فترك الأول يُضعف الثاني** ، لأنَّه المقتضي لفوت العمل بواسطة التأمُّل .

٢ـ **ابن عطاء** : وقال ابن عطاء الله رحمه الله : **الثانِي أقوىٰ** ، **لأنَّه ازداد قوَّة بالأوَّل** الذي صار مقدِّمة له .

٣ـ **ابن خفيف** : **وقال أبو عبد الله ابن خفيف** ؛ **من المتأخرين** : **هما سواء** ، **لأنَّ**

كليهما من الحقِّ سبحانه ، ولأنَّ كلاًّ منهما لا يُرَدُّ لو انفرد ؛ فلا مزيةَ لأحدهما على الآخر !

وإنَّما يقوى حال العبد في نفسه لتواردهما عليه ، لا لأنَّ أحدَهما أقوىٰ من الآخر . وهذا هو الصحيح .

ولا يقال للأوَّل ميزةٌ ببقائه !! لأنَّــا نقول : الأوَّل لا يبقى في حال وجودِ الثاني ، لأنَّ الآثارَ والأعراض لا يجوز عليها البقاء ، إذ لو جاز بقاء العَرَض . . لكان البقاء معنىً قائماً به ، فيلزم قيامُ المعنى بالمعنىٰ !! وهو محال ؛ كما هو مقرّر في محله .

تتمة : واعلم أنَّه قد يزاد على الخواطر الأربعة اثنان : ٥ـ خاطر اليقين ؛ وهو يكون مع خاطر الحقِّ ؛ أو الملك ، و٦ـ خاطرالعقل ؛ وهو يكون تارة مع خاطر النفس ؛ أو الشيطان ، وتارة مع خاطر الحقِّ ؛ أو الملك !

والمشهور الاقتصار على الأربعة بجعل هذين راجعَيْن إليها ؛ كما لا يخفىٰ .

* * *

ومن ذلك : ٤٤ـ علم اليقين ، و٤٥ـ عين اليقين ، و٤٦ـ حقُّ اليقين

اليقين والعلم : اليقين عند جماعةٍ توالي العلم بالمعلوم ، حتَّى لا يكاد يغفل عنه ، فهو أخصُّ من العلم ، وعند آخرين : هو العلم . وسيأتي .

وهذه الألفاظ عبارات عن علوم جليَّة مع تفاوتها في القوَّة ؛ بناء على أنَّ اليقين مقول على إفراده بالتشكيك ! والثلاثة مذكورة في القرآن ؛ قال تعالىٰ ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾[1] ، وقال ﴿ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾[2] ، وقال ﴿ إِنَّ هَٰذَا

---

(١) الآية : ٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التكاثر .

(٢) الآية : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الواقعة .

﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[1] .

معانيها: **فاليقين**: هو العلمُ؛ وهو الذي لا يتداخل ـ وفي نسخة: يداخل ـ صاحبَه ريبٌ: شكٌّ على مطلق العرف: عرف العلماء، ولا يطلق اليقين في وصف الحقِّ سبحانه؛ لعدم التوقيف عليه. بخلاف العلم؛ وإذا كانت الثلاثة علوماً جليّة.

فعلم اليقين هو اليقين، وكذلك عين اليقين نفسُ اليقين، وكذا حقُّ اليقين نفس اليقين. فالثلاثة بمعنىً واحدٍ لغةً، والإضافة فيها بيانية.

وأمَّا معناها في اصطلاح الصوفية! فهو ما ذكر بقوله:

لازمها: **فعِلْم** ـ الأولى: وعلم ـ **اليقين ـ على موجَب اصطلاحهم ـ ما كان بشرط البرهان**: بطريقه. **وعينُ اليقين ما كان بحكم البيان**: بطريق الكشف والنوال.

وحقُّ اليقين ما كان بنعت العيان: بطريق المشاهدة.

وعبَّر بعضهم عن ذلك بأنَّ علم اليقين هو العلم الذي لا يقبل الاحتمال؛ وإن لم يتوالَ على القلب. وعين اليقين هو العلم المتوالي على القلب ذكرُه بحيث يقلُّ الغفلات عنه؛ وإن ذكر صاحبه غيره. وحقُّ اليقين هو الذي غلب ذكره على القلب حتَّى اشتغل به عن ذكر غيره.

أصحابها: **فعلمُ اليقين لأرباب العقول الذين عَلِمُوه بالبرهان، وعين اليقين لأصحاب العلوم الذين ثبتت علومهم**، وتوالت على قلوبهم؛ حتَّى استغنوا عن البرهان. **وحقُّ اليقين لأصحاب المعارف** الذين غلب على قلوبهم ما شغلهم عن ذكر غيرِ ربِّهم وهو حال الحقيقة، وهي الحالة التي يغلب فيها على القلب إدراكُ الحقِّ.. كما مرّ.

وقيل: اليقين ١ـ اسم، و٢ـ رسم، و٣ـ علم، و٤ـ عين، و٥ـ حقٌّ. فالاسم والرسم للعوامِّ، وعلم اليقين للأولياء، وعين اليقين لخواصِّ الأولياء، وحقُّ اليقين للأنبياء. وحقيقةُ حقِّ اليقين اختُصَّ بها نبيُّنا ﷺ.

وللكلام في الإفصاح عن هذا المذكور مجال آخر، وتحقيقه ـ يعني ملخَّصه ـ

---

(١) الآية: ٩٥؛ من السورة التي ذكر فيها: الواقعة.

يعودُ إلى ما ذكرناه ! فاقتصرنا من ذلك على هذا القدر الذي ذكرناه على جهة التنبيه على ما لم يفصح به هنا .

قال الشيخ علاء الدين القونوي : والظاهر أنَّ الأولين من الثلاثة المذكورة من قبيل العلوم والمعارف ، والثالث من قبيل الأحوال والمقامات .

ثمَّ قال : وقال بعضهم : علم اليقين حالُ التفرقة ، وعين اليقين حالُ الجمع ، وحقُّ اليقين حالُ جمع الجمع .

❊ ❊ ❊

ومن ذلك : ٤٧ ـ الوارد

ويجري في كلامهم ذكر الواردات كثيراً .

معناه : والوارد ما يَرِدُ على القلوب من الخواطر المحمودة ، ممَّا لا يكون بتعمُّد العبد : بتكسبُه ، بل هو كلامٌ يفهمه العبد من غير صوت ؛ كما مرّت الإشارة إليه ! **وكذلك يَرِدُ عليها ممَّا لا يكون من قبيل الخواطر ؛ فهو أيضاً وارد .**

والواردُ قد يترتَّب على سببٍ ثم ينساه العبد ؛ كأن يفكِّر في أمر من أمور آخرته ؛ فيوجب له فكرهُ قبضاً مثلاً ، ثمَّ ينسىٰ ذلك ويحسُّ القبض ، وقد لا يترتَّب على سبب ، بل ينشئه الحقُّ في قلب العبد ؛ تنبيهاً على ما كان ؛ أو ما يكون . . من قبض وبسط وسرور وفرح وغيرها .

مصدره : ثمَّ قد يكون من الواردات واردٌ من الحقِّ تعالىٰ ، وواردٌ من العلم .

إذا تقرر ذلك . . **فالواردات أعمُّ من الخواطر ، لأنَّ الخواطر تختصُّ بنوع الخطاب ؛ أو ما يتضمَّن معناه** ـ كما مرّ في مبحثها ـ **بخلاف الواردات .**

الداء دواء : ومِن الوارد الذي لا يعرف صاحبُه سببَه حين وروده ما جرىٰ للجنيد رحمه الله أنَّه قال : قمت ليلة إلى وِرْدي فوجدت قبضاً ؛ ولم أقدر على

الصلاة ! فأردت أن أقرأ القرآن فلم أستطع ! ففتحت باب الدار وخرجت ليزول ما أجدُه ، فإذا برجل ملفوف في عباءة مطروحٍ في الطريق !! فلَمَّا أحسَّ بي ؛ قال لي : إلى الساعة ؛ يا أبا القاسم ؟! فقلت : يا سيِّدي ؛ من غير موعد !! فقال : بلى ، ولكن سألت محرِّك القلوب أن يحرِّك قلبك . فقلتُ : قد فعل ؛ فما حاجتك ؟ فقال : متى يكون داءُ النفس دواءَها ؟ فقلت : إذا خالفت النفس هواها . . صار داؤها دواءَها . فقال لنفسه : قد سمعتِ ؛ وقد أجبتك بهذا سبعَ مرات !! فأبيت أن تسمعيه إلاَّ من الجنيد ! ثمَّ ذهب ولم أعرفه !!

أنواعه : **والوارداتُ تكون تارةً واردَ سرور ، وتارةً واردَ حزن ، وتارةً واردَ قبض ، وتارةً واردَ بسط !! إلى غير ذلك من المعاني .**

* * *

ومن ذلك ٤٨ ـ لفظ : الشاهد

هذا اللفظ يُطلَق حقيقة على مَن له شهادة لغيره ؛ أو عليه ، وعلى المعاين للشيء ، ومجازاً على المشاهِد لغيره . . بمعنى الحاضر عنده ، أو المنزَّل منزلَتَه ؛ كما قال : **كثيراً ما يجري في كلامِهم (فلانٌ بشاهد العلم)** متلبِّسٌ به ، و(**فلان بشاهد الوجد**) ، و(**فلان بشاهد الحال**) .

معناه : **ويريدون بالشاهد** : ـ وفي نسخة : بلفظ الشاهد ـ **ما يكون حاضرَ قلب الإنسان** ؛ **وهو** : **ما كان الغالب عليه ذكرُه ، حتَّى كأنَّه يراه ويبصره** ؛ **وإن كان غائباً عنه** . **فكلُّ ما يستولي على قلبِ صاحبه ذكرُه** ؛ **فهو شاهده** ، **فإن كان الغالبُ عليه العلمَ** . . **فهو بشاهد العلم** : بما غلب على قلبه رؤيتُه ومشاهدته .

وإن كان الغالبَ عليه الوجدُ . فهو بشاهد الوجد ؛ **يقال (إنَّه بشاهد الوجد)** .

وعلى هذا معنى الشاهدِ الحاضرُ ، فكلُّ ما هو حاضرٌ قلبك ؛ فهو شاهدُك ؛ وإن لم يرك .

مشاهدة الشبلي : وقد سئل الشبليُّ رحمه الله عن المشاهدة ؛ فقال : مِن أين لنا مشاهدة الحقِّ ؟ : رؤيتُه ، وإنَّما لنا شاهدُ الحقُّ [1]، وهو حالنا الذي يشهد لنا بمعرفته ودوام ذكره !! كما بيَّنه المصنِّف بقوله :

شاهد الحق : أشار بـ(شاهد الحقِّ) إلىٰ الحال المستولي على قلبه ؛ والغالب عليه مِن ذكر الحقِّ ، والحاضر في قلبه دائماً من ذكر الحقِّ .

شاهد الخلق : ومَن حصل له مع مخلوقٍ تعلُّق بالقلب ؛ بحيث استولىٰ عليه . . يقال (إنَّه شاهِدُه) يعني : أنَّه حاضر قلبه ، فإنَّ المحبَّة توجبُ دوامَ ذكرِ المحبوب ؛ واستيلاءَه عليه .

اشتقاق متكلَّف : وبعضهم تكلَّف في مراعاة هذا الاشتقاق ؛ ومأخذ التسمية بِلفظ الشاهد ؛ فقال :

إنَّما سُمِّي ما ذكر (الشاهدُ)! أخذاً من الشهادة بمعنىٰ المعاينة ، فكأنَّه إذا طالع شخصاً بوصف الجمال . . جرىٰ هذا البعض على عادة طائفة . . كانوا يأخذون أجمل شابٍّ ويجمِّلونه بأجمل الثياب والهيئآت ويوقد بيده شمعة في حال السماع ، ويمتحِن كلٌّ منهم حال نفسه : هل هو مشغول بجماله وبشريَّتُه ملتفتة إليه ؟، أو مشغول عنه بما هو فيه من حال السماع بحيث سقطت بشريَّته عنه ؟!

فإن كانت بشريَّتُه ساقطةً عنه ؛ ولم يَشغله شهودُ ذلك الشخص عما هو به من الحال المتلبِّس به ، ولا أثرَّت فيه صحبَتُه بوجه من الوجوه ؛ فهو : ذلك الشخص شاهدٌ له على فناء نفسه وسقوط بشريَّته .

ومن أثَّر فيه ذلك ؛ بحيث لم تسقط بشريَّته عنه ؛ وشَغَله شهود ذلك الشخص عما هو به من حاله !! فهو شاهد عليه في بقاء نفسه ؛ وقيامِه بأحكام بشرِيَّته . .

فهو بما تقرّر . . إمَّا شاهد له ؛ أو شاهد عليه .

تأويل فاسد : وعلىٰ هذا الطريق المذموم الذي سلكه هذا البعض ؛ ولم يُعهَد في

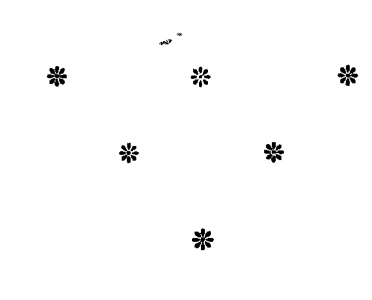
---

(١) في (م) الحق لنا شاهد .

الصدر الأوّل حُمِل قوله ﷺ : « رَأَيْتُ رَبِّي لَيْلَةَ ٱلمِعْرَاجِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ »[1] : أحسن صورة رأيتُها تلك الليلة ؛ من رؤيتي صور الملائكة والأنبياء وغيرهم . . على ما هم عليه ، لم تَشغلني تلك الرؤية عن رؤيته تعالى ، بل رأيت في تلك الحالة المصوِّر في حال الصورة التي رأيتها ، والمنشئَ في حال الإنشاء الذي رأيتُه ، ولم أشتغل بالصورة والإنشاء ! يريدُ بذلك رؤيةَ العلم ؛ لا إدراك البصر .

طريق مذموم : وهذا الطريق المذموم يُستغنىٰ عنه بأفضل العبادات ؛ وهي الصلاة ، فإنَّ الداخل فيها يجدُ ما يجده من ذلك الشخص ؛ بأن يمتحن فيها نفسه : هل هو مشغول فيها برؤية ربِّه وكمال مناجاته ، أو مشغول بصورتها . . متفكِّر في سوء عاداته وشهواته !؟

تعقيب : وأما ما حملوا عليه الخبر ممَّا ذكر !؟ فبعيد ، إذ لا خصوصية له ﷺ بذلك في تلك الليلة على سائر أحواله في الأرض ، فإنَّه في سائرها ناظر إلى ربِّه ، لا يشغله شيء من الصورة الجميلة عنه ، بل إن صحَّ الخبر فمحلُّه أنَّ رؤيته ﷺ لربِّه كانت في أحسن صورة هو عليها ، لأنَّه تعالىٰ خَلَق له من الإدراك الذي رأى به ربَّه المنزَّه عن الأجسام والجهات والصور والهيئآت ما لم يخلقه له قبل ، فتلك الصورة راجعة إلى حاله ﷺ التي خصَّه بها ربُّه من الإدراك الشريف الذي يخلقه لأوليائه في الدار الآخرة ، ويخصُّهم به وتكون الصورة معنوية ؛ لا محسوسة .



(١) ذكره المتقي الهندي في « كنز العمال » : ١١٥١ ، وأخرج شطره الأول الترمذي : ٣٢٣٥ تعليقاً ؛ من قول البخاري . والدارمي : ٢/ ١٢٦ ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » ص٣٧٨ ، والطبري في « تفسيره » : ٧/ ١٦٢ ، وعزاه السيوطي في « الدر المنثور » ٣/ ٢٤ إلىٰ ابن مردويه ؛ عن عبد الرحمان بن عائش بدون التصريح بالمعراج فيحتمل المقام .

ومن ذلك : ٤٩ ـ النَّفْس

معناها : نَفْس الشيءِ ـ في اللغة ـ: وجوده . وتطلق ١ـ على الحقيقة ؛ يقال (نفس الجوهر) ، و(نفس العرض) ، و(نفس العلم) ، و(نفس الجهل) : حقيقة كلٍّ منها . و٢ـ على الدم ؛ كقول الفقهاء (مَالَهُ نَفْسٌ سَائِلَةٌ إِذَا وَقَعَ فِي مَائِعٍ نَجَّسَهُ) . و٣ـ على القالَب الموضوع ؛ وهو الجملة .

معناه الخاصُّ : وعند القوم : الصوفية **ليس المراد من اطلاق لفظ النَفْس** على شيء **الوجودُ ، ولا القالَبُ الموضوع وإنَّما أرادوا بالنَّفْس : ما كان معلولاً من أوصاف العبد ؛ ومذموماً من أخلاقه وأفعاله** .

معنى آخر : وكثيراً ما يعبِّرون بها عن مبدإِ الصفات المذمومة ، لقوله تعالىٰ ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[1] ولذلك عُدَّت أعدىٰ عدوٍّ الإنسان لصعوبة الخلاص من شرِّها ، ألا ترىٰ أنَّ الإنسان إذا صالح سائر الأعداء أمِن من شرِّهم ، وإن صالح نفسه أهلكَتْه !! ولذلك كان جهادُهاالجهادَ الأكبر .

معلولات الأوصاف : ثمَّ إنَّ المعلولاتِ من أوصاف العبد الشاملةَ لأفعاله وأخلاقه على ضربين : **أحدهما : ما يكون كسباً له ؛ كمعاصيه ومخالفاته** لأمر ربِّه ، كالزنا والسرقة وشرب الخمر والغِيْبة .

والثاني : أخلاقه الدنيئة ؛ التي طبع عليها ؛ كالجبن والجَرَاءة والميل للَّذيذ ، والنُّفْرة عن الكريه ؛ **فهي في أنفسها مذمومةٌ** ، ومع ذلك . . **فإذا عالَجَها العبدُ ونازَلَها** : نَزَلها وانتقل فيها **تنتفي عنه بالمجاهدة تلك الأخلاق علىٰ مستمرِّ العادَّة** : على العادة المستمرَّة ؛ وإن لم يتغيَّر الطبع ؛ وهو الميل لكلِّ لذيذ ، والنُّفْرة عن كلِّ كريه ، فالنفس بطبعها تميل إلى الدنيا لكونها

---

(١) الآية : ٥٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها يوسف عليه الصلاة والسلام .

لا تعرف حَسَناً غيرها ، فإذا عرفت نقصها وحجبها عن الخيرات . . نفرت عنها ، فالذي كان لذيذاً لها صار كريهاً . . وطبعُها لم يتغيَّر ، وإنَّما تغيَّر ظنُّه باللذيذ والكريه ، وكذلك مَن نظر إلى الأعمال الصالحة ومشقَّة القيام بها يجد نفسه نافرة عنها ، فإذا عرف ما يترتَّب عليها من الفوائد . . مال إليها وكره تركَها ، فالذي كان كارها له . . صار مائلاً إليه ؛ والطبع لم يتغير !

والقسم : الضرب **الأول** ؛ **من أحكام النفس** : **ما نُهي عنه نَهيَ تحريم** ، **أو نهيَ تنزيه** .

وأما القسم : الضرب **الثاني** ؛ **من قسمَي النفْس** تفنُّن في العبارة ! وإلاَّ ! فالمناسب أن يعبِّر فيهما معا بقوله (من أحكام النفس)، أو بقوله (من قسمي النفس) . . **فَسَفْسَاف الأخلاق** ، **والدَّنيْءُ منها** . العطف فيه للتفسير .

هذا حَدُّه : الثاني **على الجملة** ، **ثم تفصيلُها** ! أي : وأما تفصيل الجملة ! **فالكبر** ، **والغضب** ، **والحقد** ، **والحسد** ، **وسوء الخلق** ، **وقلَّة الاحتمال** ، **وغير ذلك من الأخلاق المذمومة** .

أشدُّ أحكامها : **وأشدُّ أحكام النفس وأصعبُها** في ذاتها **توهُّمُها أنَّ شيئاً** يصدر **منها حَسَن** ، **أو أنّ لها استحقاق قَدْر** ، **ولهذا عُدَّ ذلك من الشرك الخفيِّ** ! وهو ظاهر .

معالجاتها : **ومعالجةُ الأخلاق وترك النفس** ؛ **وكَسْرِها أتمُّ** : أ**شدُّ من مقاساة الجوع والعطش والسفر** ـ وفي نسخة : والسهر ـ **وغير ذلك من المجاهدات التي تتضمَّنُ سقوطَ القوَّة** ؛ **وإن كان ذلك أيضاً من جملة** معالجة **ترك النفس** وكسرها .

معانٍ ومدلولات : والنفس . . والروح . . والقلب . . والسرُّ . . والعقل عند محقِّقي الصوفية بمعنىً واحد ؛ وهو ما يفارق الإنسان بموته من اللطيفة الإنسانية والحقيقة الربانية ، ومن هؤلاء الغزاليُّ حيث قال : **النفسُ** يقال ١ـ للدم ، و٢ـ للحقيقة الربانية ، **والعقلُ** ١ـ للعلم و٢ـ للحقيقة الربانية ، **والسرُّ** ١ـ لما يُكتَم ، و٢ـ الحقيقة الربانية ، **والقلبُ** ١ـ للَّحم الصنوبريِّ الشَّكل ، و٢ـ للحقيقة الربانية ، **والروحُ** ١ـ للبخار الذي في جوف هذا الشكل ، و٢ـ للحقيقة الربانية .

وفرَّق جماعةٌ منهم المصنِّفُ بينها كما يعلم مما هنا . . مع ما يأتي !!
فالنفس على ما قدّمه هي الأوصاف والأخلاق المذمومة .

ويحتمل أن تكون النفس لطيفةً مودَعة في هذا القالَب ، هي محلُّ الأخلاق المعلولة .

كما أنَّ الروح لطيفةٌ ، مودعةٌ في هذا القالَب هي محلُّ الأخلاق المحمودة . ويعبر عن هذا بأن الروح جوهر نورانيٌّ عُلْوي ربَّاني ، والنفس ظُلمانية سُفْليّة شيطانية . وأما القلب فتقلَّب بينهما ؛ فالروح طيِّبة شأنها الموافقة ، والنفس خبيثةٌ شأنها المخالفة ، والقلب إن مال إلى الروح اتَّصف بصفتها وانقهرت النفس معهما ، أو إلى النفس فبالعكس .

وتكون الجملة : جملة الإنسان مُسَخَّراً بعضُها لبعض ، والجميع إنسان واحد .

ولا يؤثِّر في الفرق بينهما اشتراكُهما في اللطافة كما نبَّه عليه بقوله :

وكونُ النفس والروح من الأجسام اللطيفة في الصور ؛ ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة . . في أنَّه لا يؤثِّرُ في الفرق بينهما ، واللطافة فيما ذكر كلطافة الهواء في البدن ؛ والزُّبْد في اللبن ؛ والدُّهن في الجوز ونحوه .

وكما يصحّ أن يكون البصرُ : العين محلّ الرؤية للمرئيَّات ، والأذن محلَّ السمع للمسموعات ، والأنفُ محلَّ الشمِّ للمشمومات ، والفمُ ـ الأولىٰ : والحلق أو اللسان ـ محلَّ الذوق للمذوقات ، ومع ذلك السميعُ ، والبصير ، والشامُّ ، والذائق . . إنَّما هي الجملة التي هي الإنسان ؛ فكذلك محلُّ الأوصاف الحميدة : القلب والروح . ومحلُّ الأوصاف المذمومة النفس .

والنَّفْس جزء من هذه الجملة ، والقلبُ جزءٌ من هذه الجملة ، والحكم بمحليَّة الأوصاف لها ، والاسم . . وهو لفظ المحلِّ راجعٌ كلٌّ منهما إلى الجملة .

وهذا باعتبار العرف كما يقال للجالس في بقعة من المسجد (إنَّه جالس في المسجد)! وإلاَّ . . فالتحقيق أنَّ المعنىٰ إذا قام بجزء استحال رجوع حكمه واسمه لغيره .

ومن ذلك : ٤٩ـ الروح

معناها : الأرواحُ مختلَف فيها عند أهل التحقيق من أهل السنة والجماعة ؛

فمنهم مَن يقول : إنَّها الحياة فقط . ورُدَّ بأنَّ الحياة عَرَض والعرض لا يبقىٰ زمنين . . كما مرّ .

ومنهم من يقول : إنَّها ممَّا استأثر الله بعلمه ، لقوله تعالىٰ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1] وتقدم فيها أوائل الكتاب ص٥٧ زيادةٌ على ذلك .

ومنهم من يقول . . وهم جمهور المتكلمين : إنَّها أعيانٌ مودَعةٌ في هذه القوالب .

قوالب الأرواح : لطيفة أجرىٰ الله سبحانه العادة بخلق الحياة في القالب ؛ ما دامت الأرواح في الأبدان . وعليه جرى المصنِّف فيما مرّ في المبحث السابق ص٣٣٤، ويعبَّر عنه بأنَّها جسم لطيف يشتبكُ بالبدن اشتباكَ الماء بالعود الأخضر ، فالروح هو الذي يفارق الإنسان بموته ويقبضه المَلَك ، ويكون في علّيِّين للسعداء ؛ وفي سجِّين للأشقياء ، وفي حواصل طير خضر للشهداء . . كما جاءت به الأخبار .

فالإنسانُ حيٌّ بالحياة القائمة به ، ولكنَّ الأرواحَ مودَعةٌ في القوالب ؛ ولها ترقٍّ : صعود عن البدن في حال النوم ، ومفارقةٌ للبدن حينئذ ـ العطف فيه للتفسير ـ ثمَّ بعد مفارقتها للبدن لها رجوعٌ إليه . ـ وفي نسخة : إليها : القوالبِ ـ .

تركُّب الإنسان : ويقول : إنَّ الإنسان هو الروح والجسد معاً ؛ لأنَّ الله سبحانه سخَّر هذه الجملة بعضها لبعض . . كما مرّ .

والحشر يكون للجملة ، والمُثاب والمُعاقَب الجملةُ .

الروح والطبّ : وفسَّر الأطبَّاء الروح بأنَّها بخار لطيف ، وقسموها إلى ثلاثة أقسام :

---

(١) الآية : ٨٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

١ـ روح حيواني محلُّه القلب ؛ حامل للقوىٰ الحيوانية التي بها تكون الحياة . و٢ـ روح نفساني محلُّه الدِّماغ ؛ حامل للقوىٰ النفسانية التي بها يكون الإحساس والحركات . و٣ـ روح طبيعيٌّ محلُّه الكبد ؛ حامل للقوىٰ الطبيعية التي بها يكون التوليد والتغذية والتنمية . . وهذه كلها أجسام لطيفة .

حدوثها : **والأرواحُ مخلوقة** لكونها من الجملة المخلوقة ، **ومَن قال بقِدَمِها** من القائلين بالحلول !! **فهو مخطىءٌ خطأ عظيماً** ، **والأخبار** التي فيها وصفُها بالهبوط والعروج ، والتردُّد في البرزخ **تدلُّ على أنَّها أعيانٌ لطيفة** .

مع أنَّ المقصود منها هنا آثارها ، وهو المعنى الذي له تعلُّق بالمشاهدات ، وبالاطلاع على المغيَّبات ، وحصول الإنس بالله والقرب منه .

أرواح الجسد : **واعلم** أنَّ في كلِّ جسد روحين . . **إحداهما** : روحُ اليقظة ؛ وهي التي ما دامت في الجسد كان متيقِّظاً ، فإذا فارقته نام ورأت المرائي . **ثانيتُهما** : روح الحياة ؛ وهي التي ما دامت في الجسد كان حيَّاً ، فإذا فارقته مات ، فالنوم انقطاعُ الروح عن ظاهر البدن فقط ، والموت انقطاعها عن ظاهره وباطنه . والروحان في باطن الإنسان .

وقد يكون في باطنه **روح ثالثة** ؛ وهي روح الشيطان !! واحدة اللطيفة الإنسانية . . لكنها تختلف **باعتباراتٍ** مختلفة ، ومقرُّها الصدر ، لقوله تعالىٰ ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾[1] .

تذييل : ولا تموت أرواح الحياة ، بل ترفع إلى السماء حيَّة ، لكن لا تفتح أبوابها لأرواح الكفَّار . ثمَّ إذا نزلت تكون في القبور مجرّدة عن الأجساد . . منعَّمة بالثواب ؛ أو معذَّبة بالعقاب .

نبَّه على ذلك الشيخ عزُّ الدين بنُ عبد السلام . وقد أخذ في الآية بظاهرها من بقاء الصدور على معناها ! وأكثر المفسِّرين على أنَّ المراد بها القلوب ؛ كما في قوله تعالىٰ ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[2] .

---

(١) الآية : ٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الناس .

(٢) الآية : ١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الشرح .

ومن ذلك : ٥٠ـ السِّرُّ

ماهيته : وهو عند القوم . . يحتمل أنَّها ـ وفي نسخة : أنَّه ـ **لطيفة مودَعةٌ في القالَب** ؛ كالأرواح .

وأصولُهم تقتضي أنَّها محلُّ المشاهدة ؛ كما أنَّ الأرواح محلٌّ للمحبَّة ، والقلوب محلٌّ للمعارف . قال العلامة علاء الدين القونوي : والظاهرُ أنَّها أسماء لحقيقة واحدة ؛ وهي اللطيفة الإنسانية . . لكنها تختلف باعتبارات مختلفة .

السرُّ وسرُّه والقلب : وقالوا أيضاً : **السِّرُّ مالَكَ** لكونها من الجملة المخلوقة عليه إشراف وإطلاع ، **وسِرُّ السرِّ مالا اُطِّلاع عليه لغير الحقِّ سبحانه** لغفلة صاحبه عنه ، لكمال شغله بمن أسرّه له .

السرُّ والصوفية : وعند القوم . . **علىٰ موجَب مواضعاتهم** : اصطلاحاتهم ، وعلى مقتضىٰ **أصولهم** : السرُّ بحيث يخفىٰ على الإنس والجنِّ والمَلَك **ألطف وأشرف من الروح** ، والروحُ **أشرفُ من القلب** . باعتبار شرف آثارها . . إذ أثر القلب العلمُ ، وأثر الروح المحبَّة ، وأثر السرِّ المشاهدةُ ، لأنَّ الشيء إنَّما يجب بعد العلم به ، وإذا أحبَّ تعلَّقت الهمَّة به ؛ ودام النظر إلى مشاهدته ، فكانت المشاهدة فوق المحبَّة ، والمحبَّة فوق العلم .

ويقولون أيضاً : **الأسرارُ معتَقةٌ عن رِقِّ الأغيار** . من الآثار والأطلاق ـ جمع طَلَل ؛ وهو ما شَخَص من آثار الدار ـ .

معنى آخر : ويطلق لفظ « السر » أيضاً **علىٰ ما يكون مصوناً** : محفوظاً مكتوماً **بين العبد والحقِّ سبحانه في الأحوال** : الواردات على العبد . قالوا : فمن لم يكن بينه وبين الله سرٌّ ؛ فهو مُصِرٌّ . ـ والأَوْلىٰ : قول غيره مَن ـ

فالسرُّ مختصٌّ بمن طَهُر قلبه من كلِّ نقص .

وعليه يحمل قولُ من قال : (أَسْرَارُنَا بِكْرٌ ؛ لَمْ يَفْتَضَّهَا وَهَمُ وَاهِمٍ) .
وقول الذين يقولون (صدورُ الأحرار قبور الأسرار) .
وقول الذين قالوا (لو عرف زِرِّي سِرِّي لَطَرحتُه) .

فهذا طَرَف من تفسير إطلاقاتهم الألفاظ المذكورة في هذا المبحث وغيره ممَّا مرّ . وبيانُ عباراتِهم فيما انفردوا به من ألفاظ ذكرناها على شروط الإيجاز والاختصار .

آخر باب المصطلحات : ولنذكر الآن أبواباً في شرح المقامات التي هي مدارِجُ : طرقُ أرباب السلوك .

ثمَّ نذكر بعدَها أبواباً في تفصيل الأحوال علىٰ الحدِّ الذي يسهِّلُه الله تعالىٰ ؛ بفضله إن شاء الله تعالىٰ .



١ـ باب التوبة[1]

فضيلتها : هي أصل كلِّ مقام ، ومفتاحُ كلِّ حال ، فمن لا توبة له لا مقام له .

معناها لغة : وهي ـ كما يؤخذ مما يأتي ؛ لغةً ـ: الرجوع من شيء إلى آخر .

معناها شرعاً : وشرعاً : الرجوع ـ في الواجبة ـ عن الذنب ؛ بأن يُقلِعَ عنه ، و٢ـ يندم عليه ، و٣ـ يعزم على أن لا يعود إليه ، و٤ـ يرضيَ الآدمي في ظُلاَمته . . إن تعلَّقت به .

وفي المندوبة . . عن البطالات والمباحات إلى الطاعات ، أو عن أدنىٰ

---

(١) اعلم أن للتوبة شروطاً ، وحقائقَ ، وسرائرَ ، وأنواعاً .
فشرائطها ثلاثة : ١ ـ الندم ، و٢ ـ الاعتذار ، و٣ ـ الإقلاع .
وحقائقها ثلاثة : ١ ـ تعظيم الجناية ، و٢ ـ اتهام التوبة ، و٣ ـ طلب إعذار الخليقة .
وسرائر تلك الحقائق ثلاثة : ١ ـ تمييز التقية من الغِرَّة ، و٢ ـ نسيان الجناية ، و٣ ـ التوبة من التوبة .
وأنواعها ثلاثة : ١ ـ توبة العوامِّ من الهنَّات ، و٢ ـ توبة الخواصِّ من العادات ، و٣ ـ توبة خواصِّ الخواصِّ من السوىٰ والأغيار .
والذنوب ثلاثة : ١ ـ ذنوب الأعمال المتعلِّقة بالجوارح ، و٢ ـ ذنوب الأحوال المتعلِّقة بالقب والروح والسرِّ ، و٣ ـ ذنوب الوجود المتعلِّقة باللطيفة الأنانية الإنسانية المختفية في الهيكل المحجوب عن الأنوار .
ثم اعلم أن مِن أصول التوبة ١ ـ العَلم بالذنب للانخلاع عنه ، و٢ ـ العلم بالربِّ للخشية منه ورجائه .
(عروسي : ٢/١٠٩ ؛ ١١٠ بتصرف واختصار) .

المندوبات إلى أرفعِها في الدرجات، ومنه قوله تعالىٰ ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[1]: رجّاع إلى طاعة الله . ويقال للتوبة الأوبةُ والإنابة ، لكن باعتبارات تأتي .

الحضُّ عليها : وبكلٍّ حال فهي مطلوبة ، قال الله تعالىٰ ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] : تفوزون بالمقصود ، وقال تعالىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[3] .

علامة التوبة : وقد أخبرنا الإمام أبو بكر محمد بن الحسين بن فُوْرَك رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أحمد بن محمود بن خُرَّاز ؛ قال : حدَّثنا محمد بن فضل بن جابر ؛ قال : حدَّثنا سعيد بن عبد الله ؛ قال : حدَّثنا أحمدُ بن زكريا ؛ قال : حدَّثني أبي ؛ قال : سمعت أنس بن مالك ؛ يقول :

سمعت رسول الله ﷺ ؛ يقول : « **التَّائِبُ مِنَ ٱلذَّنْبِ كَمَن لاَّ ذَنْبَ لَهُ ، وَإِذَا أَحَبَّ ٱللهُ عَبْدَاً لَمْ يَضُرَّهُ ذَنْبٌ ، ثُمَّ تَلاَ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[4]** » .

وذلك لأنَّه إذا أحبَّه ألهمه التوبة من الذنب ؛ أو غفر له ، لقوله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[5] . قيل : يا رسول الله ؛ وما علامة التوبة ؟ قال : « **النَّدَامةُ** » : على ما تاب منه .

أحبُّ شيء : أخبرنا عليُّ بن أحمدَ بنِ عبدان الأهوازيُّ ؛ قال : أخبرنا أبو الحسين أحمد بن عبيد الصفار ؛ قال : أخبرنا محمد بن الفضل بن جابر ؛ قال : أخبرنا الحكم بن موسىٰ ؛ قال : حدَّثنا غسَّان بن عبيد ؛ عن أبي عاتكةَ : طريفِ بن سليمان ؛ عن أنس بن مالك : أنَّ

---

(١) الآية : ٣٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : صٓ .
(٢) الآية : ٣١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النور .
(٣) الآية : ٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التحريم .
(٤) أخرجه ابن ماجه : ٤٢٥٠ ؛ عن ابن مسعود ، والحكيم الترمذيُّ في « نوادر الأصول » ٢٣٩ ؛ عن أبي سعيد الأنصاري . ورمز السيوطي لحسنه . وهذه الآية هي الآية ٢٢٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .
(٥) الآية : ٤٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

رسول الله ﷺ ؛ قال : « مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَىٰ ٱللهِ مِنْ شَابٍّ تَائِبٍ »[1] . سواء في ذلك التوبة الواجبة والمندوبة .

رتبتها : فالتوبة الواجبة أوّل منزل من منازل السالكين ، وأوّل مقامٍ من مقامات الطالبين .

معناها : ١ـ إجمالاً : وحقيقةُ التوبة ـ في لغة العرب ـ : الرجوع ، يقال (تاب) : رجع .

فالتوبة الواجبة : الرجوعُ عمَّا كان مذموماً في الشرع ؛ من ترك واجب ، أو فعل محرّم . . إلىٰ ما هو محمودٌ فيه . وقال النَّبيُّ ﷺ : « النَدَمُ تَوْبَةٌ »[2] .

شرط التوبة : فأرباب الأصول من أهل السنَّة قالوا : شرط التوبة حتَّى تصحَّ : ـ لتصحَّ ، وفي نسخة : شرط صحة التوبة ـ ثلاثةُ أشياء :

١ـ الندمُ على ما عَمِلَ من المخالفات للشرع .

و٢ـ تَرْكُ الزلَّة : الإقلاع عنها في الحال .

و٣ـ العزم على أن لا يعود في الاستقبال إلى مثل ما عَمل من المعاصي .

فهذه الأركان مع إرضاء الآدميِّ في ظُلامته ؛ إن كانت . . لا بدَّ منها حتَّىٰ تصحَّ توبَتُه .

١ـ أهل الأصول : قال هؤلاء : أرباب الأصول من أهل السنة : و أمَّا ما في الخبر السابق ؛ من أنَّ « ٱلنَّدَم تَوْبَةٌ » !! فهو إنَّما نصَّ علىٰ معظمِه ـ : ركنِها . والأولىٰ : معظمها : أركانها ـ كما قال عليه الصلاةُ والسلام : « ٱلْحَجُّ عَرَفَه »[3] : معظمُ أركانِهِ عرفة : الوقوف بها ، لا أنَّه لا ركنَ في الحجِّ سوىٰ

---

(١) عزاه السيوطي في « الجامع الصغير » : ٨٠٥٠ إلىٰ أبي المظفر السمعاني في « أماليه » عن سلمان ورمز لضعفه .

(٢) أخرجه أحمد : ١/ ٣٧٦ ، وابن ماجه : ٤٢٥٢ ، والبخاري في « التاريخ » ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » : ص١٦٢ وص٢٣٩ عن ابن مسعود وأنس وأبي سعيد الخدري . رضي الله عنهم .

(٣) أخرجه أحمد : ٤/ ٣٣٥ ، وأبو داود : ١٩٤٩ ، والترمذي : ٨٨٩ ؛ وقال : حسن صحيح ، والنسائي : ٣٠١٦ ، والدارمي : ٢/ ٥٩ ، وابن ماجه : ٣٠١٥ ، والحاكم : ١/ ٤٦٤ ؛ وصحَّحه وأقرَّه الذهبي ، وابن حبان (موارد : ١٠٠٩) ؛ عن عبد الرحمان بن يعمر الدِّيْلي .

الوقوف بعرفات ، ولكن معظمُ أركانه الوقوفُ بها . كذلك قوله « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » : أي معظمُ أركانها الندم .

٢ـ **أهل التحقيق** ٭ ومن أهل التحقيق مَنْ قال : يكفي النَّدَم في تحقيق ذلك : ما ذكره من التوبة ، لأنَّ الندم يستتبعُ الركنين الآخرين اللذين قدَّمهما ، فإنَّه يستحيل على التائب تقديرُ أن يكون نادماً علىٰ ما هو مصرٌّ على مثله ؛ أو عازم على الإتيان بمثله .

وهذا معنى التوبة علىٰ جهة التحديد لها والإجمال .

٢ـ **تفصيلاً** : فأمَّا معناها على جهة الشرح والإبانة لها !! فإنَّ للتوبة أسباباً تقتضيها ، وتقتضي الدوام عليها ، وترتيباً وأقساماً .

انتباه القلب : فأوَّل ذلك : ما ذكر من الأسباب ؛ وهو أوّل الأخذ في التوبة انتباهُ القلب عن رَقْدَة الغفلة ، ورؤيةُ العبدِ ما هو عليه من سوء الحالة التي هو متلبِّس بها .

طريقه : ويصلُ إلى هذه الجملة بالتوفيق للإصغاء إلىٰ ما يخطُر بباله : بقلبه من زواجر الحقِّ ـ سبحانه ـ بسمع قلبه ؛ بأن يُخطِر الله بقلبه التفكُّر فيما هو فيه ، وموعظة في قلبه لإصلاح شأنه ، فإنَّه قد جاءَ في الخبر : « وَاعِظُ ٱللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ ٱمْرِىءٍ مُسْلِمٍ »[١] ، فإذا تنبَّه قلبُه وتفكَّر فيما ذُكِر بحيث يعزم على التوبة منه حَيِيَ من موت الغفلات ، وهذا يعبَّر عنه بصلاح القلب . وفي الخبر : « إنَّ فِي ٱلْبَدَنِ لَمُضْغَةً ـ وفي نسخة : مُضغَةَ . وفي أخرى : بَضْعَةَ ـ إذا صَلُحَتْ صَلُحَ جَمِيْعُ ٱلْبَدَنِ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ جَمِيْعُ ٱلْبَدَنِ ، أَلَا وَهِيَ ٱلْقَلْبُ »[٢] .

بداية التوفيق : **العجبُ عنه** : فإذا فكَّر بقلبه في سوء ما يصنعه ، وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال . . سنح : خطر في قلبه إرادةُ التوبة ؛ والإقلاعُ عن قبيح المعاملات ، فيمدُّه الحقُّ سبحانه بتصحيح العزيمة ، والأخذِ في جميل ـ وفي نسخة : جميع ـ الرُّجعىٰ إلى الطاعة .

والتأهُّب لأسباب التوبة بداية التوفيق ؛ فصلاح القلب يحصل بما ينبِّهُه الله

---

(١) أخرجه أحمد : ٤/ ١٨٣ ؛ عن النواس بن سمعان رضي الله عنه .

(٢) تقدم تخريجه من المتفق عليه « الحلال بين والحرام بين . . . » ص ١٣٤ ، ص ٢٢٦ .

عليه من الخيرات ، وإذا صلح سَعِدَت الجوارح في جهات البرِّ والطاعات ، وترك المذمومات التي منها خُلْطة قُرَناء السوء ؛ كما قال :

١ـ **هجر القرناء** : فأوّل ذلك هجر أخدان السوء : أصدقائه ، فعلى العبد الفرارُ منهم أشدَّ من فراره من الأُسْد والحيَّات ، فإنَّ ضرر هؤلاء في الدنيا خاصَّة ، وضررُ أولئك في الدنيا والآخرة فإنَّهم هم الذين يحملونه على ردِّ هذا القصد الجميل ، ويشوِّشون عليه صِحَّة هذا العزم الجليل .

تمام الهجر : ولا يتمُّ ذلك إلاَّ بالمواظبةِ على المَشَاهد : مشاهدِ الخبر التي تزيدُ رغبتَه في التوبة ، وتوفِّرُ دواعيه على إتمام ما عَزَم عليه . ممَّا يقوِّي خوفه ورجاءَه ، ومن ذلك خُلْطَته بالصالحين ، أو سماع أقوالهم وأفعالهم المرسومة في الكتب عنهم ، إذ بذلك يتوصَّل إلى معرفة أمور كثيرة يجهل وجوبها ؛ أو ندبها ؛ أو حِلَّها ، أو كراهتها ؛ أو تحريمها . . لا سيما الغيبةُ والنميمة والحسد والغش في المعاملات ، فعند ذلك تنحلُّ من ـ وفي نسخة : عن ـ قلبه عُقدة الإصرار علىٰ ما هو عليه من قبيح الفِعال ؛ فيقفُ عن تعاطي المحظورات ، ويكبَحُ : يجذب لِجام نفسه عن متابعةِ الشَّهَوات ، فيفارق الزلَّة في الحال ، ويبرم العزيمة علىٰ أن لا يعود إلىٰ مثله : الذنب ـ والأَوْلى ؛ كما في نسخة : مثلها : الزلة ـ في الاستقبال .

صدق التوفيق : فإن مضىٰ على موجَب قصده من الرجوع عن الزلَّة ، ونَفَّذ في حاله بمقتضىٰ عزمه على ذلك ! فهو الموفَّق صِدْقا .

نقض التوبة : وإن نقض التوبة مرَّة ؛ أو مرَّاتٍ . . وكان مع ذلك تحملُه إرادته على تجديدها !! فقد يكون مثل هذا أيضاً كثيراً ؛ فلا ينبغي قطعُ الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء الذين ينقضون توبتهم ، فلا تمنعه زلَّتُه بعد التوبة من توبة أخرىٰ ، ولا ييأس من رَوْح الله . فربَّما كان ذنبه إذا تاب منه ثمَّ عاد إليه سببَ سعادته ؛ كما جاء في الخبر الصحيح : « إِنَّ العَبْدَ لَيُذْنِبُ ٱلذَّنْبَ فَيُدْخِلُهُ ذَنْبُهُ ٱلْجَنَّةَ » . قيل كيف ذلك !؟ قال : « لاَ يَزَالُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ تَائِبَاً مِنْهُ »[1] . وذلك لعِظَم

---

(١) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » ص : ٥٢ ؛ عن الحسن مرسلاً ، وهو حسن كما قال السيوطي في « الجامع » : ٢٠٦٤ . =

ما وقع فيه ، فيجدُّ في الأعمال ولا يراها كافية فيما وقع فيه ، ولذلك قيل : زلَّة واحدة بعد التوبة أعظمُ من سبعين زلَّة قبلها . فيحمله ذلك على الجدِّ في الأعمال ، وكلَّما زلَّ . . عاد ، فإنَّ لكلِّ أجلٍ : مدَّةٍ كتاباً مكتوب فيه تحديدُه .

العُصفور والكركيُّ : حُكيَ عن أبي سليمان الداراني ؛ أنَّه قال : اختلفتُ إلى مجلس قاصٍّ يقصُّ على الناس القصص ويذكِّرُهم بها ، فسمعت كلامه فاستحسنته ، فأثَّر كلامُه في قلبي ، فلما قمتُ من مجلسه . . لم يبقَ في قلبي منه شيءٌ !! . فعدتُ إليه ثانياً ؛ فسمعتُ كلامه فبقي كلامه : أثره في قلبي في الطريق ، ثمَّ زال عن قلبي ! فعدت إليه ثالثاً فبقي أثرُ كلامه في قلبي حتَّى رجعتُ إلى منزلي . فكسرتُ آلات المخالفات لله تعالىٰ ، ولزمت الطريق الموصلة إليه .

فحكىٰ الدارانيُّ هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال : **عُصفور اصطاد كركيا**[1] !!

أراد بالعُصفور ذلك القاصَّ ، وبالكركي أبا سليمان الدارانيّ . يعني أنَّ الدرجة التي وصل إليها الدارانيُّ من درجات الولايات أفضلُ من تذكير ذلك القاصِّ .

ترك العمل : ويُحكىٰ عن أبي حفص الحدَّادِ ؛ أنَّه قال : تركتُ العمل : الكسب كذا وكذا مرَّة ؛ فعدتُ إليه ، ثمَّ تركني العملُ ؛ فلم أَعُد بَعْدَهُ إليه . يعني ترك العمل في الدنيا ليتفرَّغ في العبادة ، ثمَّ غلبتهُ محبَّته فعاد إليه ، ثم غلب عليه محبَّة تركه لشدَّة محبَّته في الخير . . فتركه ، ثم غلب عليه محبَّة العمل فعاد إليه ، ثمَّ قوي حالُه فترك العمل ؛ ولم يَعُدْ إليه ، ثم نَفَرت نفسه عنه ؛ ورغب فيما هو أفضلُ منه ، وربَّما كان سببُ ترك العمل له ما حُكي أنَّه كان يعمل الحديد في دكَّانه ، فغلب عليه حاله فأدخل يده في الكير وأخذ الحديدة بيده

= ومن شواهده ما أخرجه أبو نعيم في « الحلية » ، وابن عساكر ؛ عن أبي هريرة : « إِنَّ ٱلعَبْدَ لَيَعْمَلُ ٱلذَّنْبَ فَإِذا ذَكَرَهُ أَحْزَنَهُ ، وَإِذَا نَظَرَ ٱللهُ إِلَيْهِ قَدْ أَحْزَنَهُ غَفَرَ لَهُ مَا صَنَعَ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ فِي كَفَّارَتِهِ . . بِلاَ صَلاةٍ وَلاَ صِيامٍ » . (الجامع : ٢٠٧١) .

(١) الكركي : طائر كبير ، طويل العنق والرجلين ، نحيف الجسم بلا ذيل ، أغبر اللون . والمراد أن أبا سليمان ذو شأن عظيم وكانت توبته علىٰ يد من هو أقلُّ حالاً وشأناً منه !! وقد أجري هذا مجرىٰ المثل ؛ كما يقال (جدي لعب بعقل تيس) !! .

وجعل يطرقها ؛ وهو لا يشعر ! فلما كلَّمه تلميذه في ذلك . . رجع إلى حاله ، وهرب من الشهرة ، وعلم أنَّ المراد منه ترك ما هو فيه .

لمن تصحب : وقيل : إنَّ أبا عَمْرو ابن نُجَيد في ابتداء أمره اختلف إلى مجلس أبي عثمان سعيدِ بن سلام الحرَّاني . وهو يذكِّر الناس ؛ فسمع كلامه ، فأثَّر في قلبه كلامُه ؛ فتاب عمَّا كان عليه .

ثمَّ إنَّه وقعتْ له فترةٌ وعودة إلى ما كان عليه قبل التوبة ؛ فكان يهربُ من أبي عثمان إذا رآه ويتأخَّرُ عن مجلسه ، فلم يحضره ؛ حياءً من رؤيته له بعد زلَّته ، فاستقبله أبو عثمان يوماً في طريق فحاد أبو عمرو عن الطريق - وفي نسخة : عن طريقه - وسلك طريقاً أخرى ، فتبعه أبو عثمان . . فما زال به يقفو : يتبع أثره . . حتَّى لحقه . ثمَّ قال له : يا بني ؛ لا تصحب من - وفي نسخة : مع من : لا توقع صحبتك مع من - لا يُحبُّك إلاَّ معصوماً ، لأنَّ العصمة . . إنَّما تكون للأنبياء ، فمتىٰ كان أحد لا يصحبُك إلاَّ إذا كنت معصوماً فلا تصحبه ، فإنَّ مآل صحبتكما إلى الانقطاع ؛ لعدم الوفاء بما يريده . فسكن بهذا الكلام قلبه ؛ وقال له : إنَّما ينفعُك أبو عثمان - يعني نفسه - في مثل هذه الحالة التي وقعتْ لك ! قال : فتابَ أبو عَمْرو ابن نُجَيد ، وعاد إلى الإرادة : الحالةِ التي فتر عنها ونَفَذ فيها .

فيه تنبيهٌ على أن الشيخ يحمل من تلميذه بعضَ ما يبدو منه من الزلل لضعف عقله وقلَّة أُنسه بأسباب الدين .

يعود مقبولاً : سمعت الشيخ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : تاب بعضُ المريدين ، ثم وقعتْ له فترة وعودةٌ إلى ما كان عليه قبل التوبة ! فكان يفكِّر وقتاً : لو عاد إلى توبته كيف حكمه !؟ فهتف به هاتف . . من ملك ؛ أو وليٍّ ؛ أو جنيٍّ ؛ يقول : يا فلان ؛ أطعتنا فشكرناك ، ثمَّ تركتنا فأمهلناك ، وإن عدت إلينا قبلناك ! . فعاد الفتىٰ الذي تاب ثمَّ فتر إلى الإرادة : الحالة التي فتر عنها ونَفَذ فيها .

في ذلك تنبيهٌ على أنَّ باب التوبة مفتوحٌ بعد الزَّلل ، وأنَّ العبد إذا زلَّ لا يعاجَل بالانتقام .

صادق التوبة : فإذا ترك المعاصي، وحَلَّ عن قلبه عُقدة الإصرار على شيء منها ؛ وعزم على أن لاَّ يعود إلى مثله : مثلِ ما عصى الله به !! فعند ذلك يخلُص إلى قلبه صادقُ الندم : الندمُ الصادق . . فيتأسَّف : يشتدُّ حزنه علىٰ ما عَمِلَه ، ويأخذ في التحسُّر علىٰ ما ضيَّعه من أحواله ، وارتكبَه من قبيح أعماله ؛ فتتمُّ توبته ، وتصدُق مجاهَدَتهُ ، ويستبدل ـ وفي نسخة : واستبدل ـ بمخالطته الناس العزلةَ والخلوة ، وبصحبته : وبإيقاع صحبته مع أخدان[1] السوء : أصدقائه التوحُّش عنهم ، والخلوةَ دونَهم ؛ ويصلُ لَيلَهُ بنَهارِهِ في التلهُّف : التحسُّر ، ويعتنق في عموم أحواله بصدق التأسُّف ؛ بحيث يمحو بصَوْب : بنزول دمعِ عَبْرَته ما يجلب للدمع آثار عَثْرته : زلَّته يأسُو ـ من الأسىٰ ؛ وهو المداواة ـ : يداوي بحسن توبته كُلُوم : جروح حَوْبته : إثمه ـ يقال حُبْتُ بكذا : أثمتُ ، تحوب حوباً وحوبة وحيابة ؛ قاله الجوهري ـ وبحيث يُعرَف من بين أمثاله بذبوله ، ويُستدلُّ على صِحَّة حاله بنُحُوله .

أوَّل منازلها التوبة : ولن يتمَّ له شيءٌ من هذا[2] : مما ذكر من التوبة الصحيحة إلاَّ بعد فراغه من إرضاء خصومه ، والخروجِ عمَّا[3] لزمه من مظالمه ؛ فإنَّ أوَّلَ منزلةٍ من التوبةِ من التائب إرضاءُ الخصوم بما أمكنه ، فإن اتَّسع ذاتُ يده : صاحبها : ما فيها لإيصال حقوقهم إليهم ، أو سَمَحت أنفسُهم بإحلالهِ والبراءةِ عنه ـ الأَوْلىٰ : عنها ـ: بأن يحلِّلوه أو يبرؤوه منها فذاك ، وإلاَّ ! فالعزمُ: فالواجب العزم بقلبه على أن يخرج عن حقوقهم عند الإمكان : عند تمكُّنه من ذلك ، والرجوع إلى الله سبحانه بصدق الابتهال : التضرُّع بالدعاء ، والدعاءُ لهم .

فعطفُ الدعاءِ على الابتهال !! من عطف العامِّ على الخاصِّ .

صفات التائبين : وللتائبين صفاتٌ وأحوال ؛ هي من خصالهم ، يَعدُّ ذلك : مجموعها من جملة التوبة كمالِها ، لكونها من صفاتهم ؛ لا لأنها من شَرْطِ صحَّتها .

---

(١) في (م) : إخوان .

(٢) في (م) : ذلك .

(٣) في (ح) : مما .

وإلى ذلك تشير أقاويلُ الشيوخ في معنىٰ التوبة :

مراتبها : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله تعالىٰ ؛ يقول : التوبَة على ثلاثة أقسام . . باعتبار الحامل عليها ؛ وإن كانت الأسماء مختلفة ! أوَّلها التوبة ، وأوسطها الإنابة ، وآخرها الأوبة . والكلُّ يرجع إلى معنى الرجوع ، فجعل التوبة بدايةً ، والأوبة نهايةً ، والإنابة واسطَتَهُما .

فكلُّ مَن تاب لخوفِ ـ وفي نسخة : من خوفِ ـ العقوبة ؛ فهو صاحب توبة .

ومَن تاب طمعاً في الثواب ! ! فهو صاحب إنابة ؛ وإن كان صاحبَ توبة ، ومَن تاب مراعاة للأمر : لامتثاله ؛ لا لرغبة[1] في الثواب ؛ أو رهبةٍ من العقاب ؟ فهو صاحب أوبة ؛ وإن كان صاحبَ توبة .

موصوفها : ويقال أيضاً : التوبةُ صفة المؤمنين ، قال الله تعالىٰ ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] .

والإنابة صفةُ الأولياء والمقرَّبين ، قال الله تعالىٰ ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾[3] : مقبلٍ على طاعته ، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين ، قال الله تعالىٰ ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[4] : رجَّاع في التسبيح والذِّكر في جميع الأوقات ، فمن تاب خوفاً من العقاب ورجاءً للثواب ؛ فهو طالب حظِّ نفسه غيرُ مخلِص لله تعالىٰ ، ومَن تاب حياء من الله لقدرته عليه وعلمِه به . . لا خوفاً من ناره ؛ ولا رجاء لثوابه ! ! فهو المخلِص في توبته .

ومَن تاب عن كلِّ ما سوى الله تعالىٰ ؟ فهو المقرَّب وهو أرفع درجةً . ومن ثمَّ قيل (حسنات الأبرار سيئآت المقربين) . وقيل : (إخلاص المريدين رياءُ العارفين) . لأنَّ المريد إذا تقرَّب بالطاعة ونظر إليها . . لم يكن منافياً لإخلاصه فيها ، بخلاف العارف ، فإنَّه إذا اشتغل سِرُّه بغير الله نافىٰ ذلك عرفانه .

---

(١) في (م) : للرغبة .
(٢) الآية : ٣١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النور .
(٣) الآية : ٣٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : قٓ .
(٤) الآية : ٣٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : صٓ .

معانيها : سمعتُ الشيخ أبا عبدالرحمان السُلميَّ ؛ يقول : سمعتُ منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعتُ جعفر بن نصير ؛ يقول : سمعتُ الجنيد ، يقول : **التوبة مبنيّة على ثلاثة معان** ؛ وتقدَّم أنَّها شروط لها : **أوَّلها** : **النَدمُ** ؛ على ما تاب منه . **والثاني** : **العزمُ على ترك المعاودة إلى ما ارتكبه ممَّا نهىٰ الله عنه** ، وكأنَّه ضمَّنه الإقلاع عن الذنب ؛ لِمَا مرَّ أنَّه شرط أيضاً .

بَعْدَها : **والثالث السعيُ** ـ وفي نسخة : يسعى ـ **في أداء المظالم لمستحقِّها** . . إن علمه ، وإلاَّ تصدَّق به عنه ، ولا يخفىٰ أنَّ لكلِّ جارحة حظّاً من التوبة ، فللقلب نيّة الترك والنَّدم ، وللعين الغضُّ عن غير المباح ، ولليد تركُ البطش فيه ، وللرَّجل ترك السعي فيه ، وللسمع تركُ الإصغاء له وهكذا . .

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَري : **التوبةُ تركُ التسويف** . هذا ليس بتوبة ! بل من أسبابها : تجب المبادرة إليها ، ولا يكفي فيها العزم عليها ، فالعازم عليها مع التمكُّن من تنجيزها ليس بتائب ؛ بل مسوِّف .

مسلكها : سمعتُ الأستاذ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرازي ؛ يقول : سمعتُ أبا عبد الله القرشي ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : سمعت الحارث ؛ يقول : **ما قلتُ قطُّ (اللهم ، إنِّي أسألُك التوبة)؛ ولكني أقولُ (أسألك شهوةَ التوبة)** : لأنَّها الأكمل ، لأنَّه إذا رُزقَها حملته على سائر مقامات التوبة ؛ كالتوبة ١ـ من المكروهات ، و٢ـ من ترك المندوبات ، و٣ـ من ترك الأَوْلىٰ ، و٤ـ من الغفلات ، و٥ـ من رؤية الأعمال الصالحات ؛ فلا يزال بسؤاله لها مترقِّياً في درجات التوبة . ويحتمل أنَّه رأى التوبة منزلة رفيعة ؛ ولم يَرَ نفسه أهلاً لسؤالها ، فسأل سببها ؛ وهو : أن يحرِّك الله همَّته لها .

صفاء أو جفاء :أخبرنا أبو عبد الله الشيرازيُّ رحمه الله ؛ قال : سمعتُ أبا عبد الله بن مصلح ، بالأهواز ؛ يقول : سمعتُ ابن زيري ؛ يقول : سمعتُ الجنيد ؛ يقول : **دخلتُ على السَّرِيِّ السقطي يوماً فرأيته متغيِّراً ؛ فقلت له : مالك متغيِّراً!؟**

فقال : دخل عليَّ شابٌ ، فسألني عن التوبة ، فقلت له : هي أن لا تنسىٰ ذنَبك . . فعارضني ؛ وقال : بل التوبة أن تنسىٰ ذنبك .

فقلت للسريِّ: إنَّ الأمر عندي ما قاله الشابُّ . فقال : لِمَ كان ذلك؟!

قلت : **لأنِّي إذا كنتُ في حالِ الجفاءِ ؛ فنقلني الحق إلى حال الوفاء** : الصفاء **فذكر الجفاءِ**- يعني : الذنب - **في حال الصَّفاءِ**- يعني : التوبةِ - **جفاءٌ** .

فسكت السَّرِيُّ . وهو حسن إذ الغرض من ذكر الذنب الحملُ على الأعمال الجميلة ؛ لخبر : « إنَّ ٱلعَبْدَ لَيُذْنِبُ ٱلذَّنْبَ فَيُدْخِلُهُ ذَنْبُهُ ٱلجَنَّةَ »[1] قيل : كيف يدخلهُ ذنبُه الجنةَ ؛ يا رسول الله ؟! قال : « لَا يَزَالُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ تَائِبَاً مِنْهُ هَارِبَاً » .

فإذا حصل للعبد حالٌ شريف واستغرق فيه . . فاشتغاله بذنبه حينئذ يفسد عليه ما هو فيه ، فالسَّرِيُّ كلَّم الشابَّ بما هو الأَوْلىٰ في حقِّ التائبين ؛ فإنَّ ذكر ذنوبهم يهيِّج خوفهم ويحملُهم على ما هو إصلاح أحوالهم ، وكان الشابُّ ممن ارتفعت درجته في ذلك ! فكلَّم السريَّ بما يناسب حالَه المستلزم باستغراق صاحبه في نسيان !؟ فنبَّهه بذلك على مقام شريف في درجات التوبة ، ولذلك ٱغتمَّ وتغيَّر لإشكال الأمر عليه ، وهذا شأنه تعالىٰ أن يؤدّب الكبار بالصغار في السن ليفتقروا إليه .

توبة المريدين والمحققين : **سمعتُ أبا حاتم السِّجستاني رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا نصر** السرَّاج الصوفيَّ ؛ يقول : سُئِل سهل بن عبد الله عن التوبة ؛ **فقال هي (أن لا تنسىٰ ذنبك)** . ووجهه ما مرَّ آنفاً . **وسئل الجنيد عن التوبة ؛ فقال(أن تنسىٰ ذنبك)** .
ومن ثَمَّ **قال أبو نصر السرَّاج : أشار سهل إلى أحوال المريدين** : المبتدئين **والمتعرِّضين** ، لارتكاب الذنوب . **تارة لهم ، وتارة عليهم** : أنَّهم يتوبون وينكثون ، فإذا ذكروا ذنوبهم ثار عليهم الخوف المانع لهم من النكث . **فأما الجنيدُ !! فإنَّه أشار إلى توبةِ المحقِّقين ؛ فإنَّهم لا يذكرُون ذنوبهم مما غَلَب علىٰ قلوبهم من عظمةِ الله تعالىٰ ، ودوام ذكره ، وشُغْلهم وإعراضهم عن غيره** ؛ حتَّى عن أنفسهم .

وقيل : معنىٰ نسيانك الذنب أن تخرج حلاوته من قلبك خروجا لا يبقىٰ له في سرِّك أثر حتَّىٰ يكون كمن لا يعرفه قطُّ .

وقيل : المراد بنسيانه تركُ العود إليه .

---

(١) تقدم تخريجه ص٣٤٣ .

رُوَيْم والتوبة : قال أبو نصر : وهو ـ أي: ما قاله الجنيد ـ مثلُ ما ـ هي مصدرية ـ سُئِل رويم عن التوبة ؛ فقال : هي التوبة من التوبة . أي : من رؤية كونه تائباً ، فإنَّه لا يرى ذلك إلا إذا كان مفرَّق القلب ؛ ناظراً لنفسه وتوبته ، فينحجب بذلك ، فكمال توبته دوام شغله بربّه حتى ينسى توبته ؛ كما قال الجنيد .

وقيل : معنى كلام رُوَيم ما قالته رابعة (أستغفر الله من قلَّة صدقي في قولي « أستغفر الله ») إشارة إلى التوبة من التقصير في الأعمال ، والاستغفار عما عساه أن يقع فيها من ذهول ؛ أو إهمال ؛ أو نحوه مما لا يليق بحضرة الحقِّ تعالىٰ .

توبة العوامِّ والخواصِّ : وسئل ذو النون المصريُّ ؛ عن التوبة ؟ فقال : توبةُ العوامِّ تكون من الذنوب وهي واجبة ، وتوبةُ الخواصِّ تكون من الغفلة ؛ وهي مندوبة .

مرامُها : وقال أبو الحسين النوريُّ : التوبةُ أن تتوبَ من كلِّ شيءٍ سوىٰ الله عزَّ وجل .

شتان بين تائبَيْن : سمعت محمد بن أحمد بن محمد الصوفيَّ ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن علي ابن محمد التميمي ؛ يقول : شتَّان : بَعُدَ ما بين ١ـ تائب يتوب من الزلاَّت ؛ و٢ـ تائب يتوب من الغفلات ؛ و٣ـ تائب يتوب من رؤية الحسنات !! وأفضلهم الأخيرُ[1] ، وأفضل منه التائب من كلِّ ما سوىٰ الله ؛ إن لم يرجع إليه .

التوبة النصوح : وقال الواسطيُّ : التوبةُ النَّصوح لا تبقي على صاحبها أثراً من المعصية ؛ سرَّاً ولا جهراً ، ومن كانت توبته نصوحاً : خالصة لله لا يبالي كيف أمسىٰ . . وكيف أصبح !!

مناجاة تائب : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ ؛ يقول : سمعتُ محمد بن إبراهيم بن الفضل الهاشميَّ ؛ يقول : سمعتُ محمد بن الرومي ؛ يقول : سمعتُ يحيىٰ بن معاذ ؛ يقول :

إلهي ؛ لا أقولُ عند عدم رجائي الحفظ والمعونة من الله (تبتُ من ذنبي . . ولا أعودُ إليه) ؛ لما أعرف من خُلُقي وطبيعتي ، ولا أضمنُ لنفسي

---

(١) فإنَّ الأوّل من المهتدين ، والثاني من الأبرار المحبِّين ، والثالث من الواصلين المحبوبين . (عروسي : ٢/١١٩) .

تركَ ارتكاب الذنوب في المستقبل ؛ لما أعرف من ضعفي ، ثمَّ إنِّي مع ذلك أقول عند رجائي الحفظ والمعونة من الله (تبت ولا أعود) لعلِّي [أن](م) أموتَ قبل أن أعود .

توبة الكاذبين : وقال ذو النون المصريُّ : **الاستغفارُ من الذنب من غير إقلاعٍ عنه توبةُ الكاذبين** . فلا يكفي مجرَّد الاستغفار ؛ وإن كان فيه أجر .

الخارج إلى الله :

١ـ **عن وجود** : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت النصراباذيَّ ؛ يقول : سمعتُ ابن يزدانيار ؛ يقول ؛ **وقد سُئل عن العبد إذا خرج إلى الله : علىٰ أيِّ أصل يخرجُ إليه ؟**

فقال : علىٰ أن لا يعود إلىٰ ما مِنْهُ خرج بالتوبة ، ولا يراعي غيرَ مَن إليه خرج ؛ وهو الله تعالى ، فلا يلتفت لمدح الناس وذمِّهم له ، ويحفظ سِرَّه عن ملاحظةِ ما تبرَّأَ وخرج منه . فيكون قد خرج [منه](م) ؛ ظاهر أو باطناً .

٢ـ **عن عدم** : فقيل له : **هذا حكمُ مَن خرج إلى الله تعالىٰ عن وجودٍ : مال ! فكيف حُكمُ مَن خرج إليه عن عدم لذلك !؟ فقال : حكمُه وجود الحلاوة في المستأنَف** : المستقبل عوضاً عن المرارة التي كان يجدها بفقره في الزمن **السَّالف** : الماضي ، كما قيل[1] :

إِذَا ٱفْتَقَرُوا عَضُّوا عَلَىٰ ٱلفَقْرِ ضِنَّةً　　وَإِنْ أَيْسَرُوا عَادُوا سِرَاعَاً إِلَىٰ ٱلفَقْرِ

من ثمارها : وسئل البوشنجي عن التوبة ؛ **فقال : إذا ذكرت الذنب ثم لا تجدُ حلاوةً عند ذكره ؛ بل تجد كراهته . . فهو التوبة** .

وزاد بعضهم : وأن تجد له مع كراهتك له أثرَ ذلك في ظاهرك .

وقد مرَّ بعضهم بمكان فغُشي عليه فيه وسقط على الأرض ، فلما أفاق سئل عن ذلك ؛ فقال : هذا المكان كنت عصيت الله فيه .

وهذا إنَّما يحصل بكمال المعرفة بجلال الله ودوام مراقبته والاستحياء منه ، فإذا وصل العبد إلى هذه المنزلة . . ظهرت عليه آثارها .

---

(١) من البحر الطويل .

حقيقتها : وقال يحيى بن معاذ : زَلَّة واحدة للتائب أقبحُ من سبعين زلَّة قبلَها[1] .

وقال ذو النون المصريُّ : حقيقةُ التوبة : بمعنىٰ الغالب من حالها أن تضيقَ عليك الأرض بما رَحُبت : مع رُحْبها : سعتها حتى لا يكون لك قرارٌ . . ولا مكان تطمئنُّ إليه . ثمَّ تضيقُ عليك نفسك : قلبك للغمِّ والوحشة بتأخير توبتك ، ولا يسعه سرور ولا أُنس ، كما أخبر الله تعالى في كتابه بقوله ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ ـ : أيقنوا ـ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ـ : وفَّقهم للتوبة ـ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾[2] فتابوا .

نوعا التوبة : وقال ابن عطاء : التوبةُ باعتبار الحامل عليها توبتان : توبةُ الإنابة ، وتوبةُ الاستجابة . فتوبة الإنابة أن يتوب العبد خوفاً من عقوبته ، وهي توبة واجبة .

وتوبة الاستجابة أن يتوب حياءً من كرمه وقربه تعالىٰ ، وهي مندوبة وظاهرة ، كما قال العلامة القونوي : إنَّ الثانية أعلىٰ رتبة من الأُولىٰ ؛ وإن كانت مندوبة ، وتلك واجبة ! لأنَّ صاحبها ليس طالباً حظَّ نفسه ؛ بل عبوديَّة ربِّه ، بخلاف صاحب الأولىٰ .

وسمِّيت الأُولىٰ « الإنابة » ! لافتقارها إلى الإنابة إلى الله المفسَّرة بالرجوع إليه عما سواه . والثانية توبة « الاستجابة » ! لاقترانها بالقُرْب في قوله تعالىٰ ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي ﴾[3] . وتقدَّم ص ٣٤٧ عن الدقَّاق أنَّ التوبة تكون للخوف من العقاب ؛ وأنها للمؤمنين . والإنابة للطمع في الثواب ؛ وأنها للأولياء ، والأوبة لمَراعاة الأمر ؛ وأنَّها للأنبياء .

دار الذنوب والخطر : وقيل لأبي حفص : لِمَ يبغضُ التائبُ مما ارتكبه الدُّنيا ؟! قال : لأنها دارٌ باشرَ فيها . . لما احتوت عليه من الشهوات الذنوبَ ، ولبغض الله وذمِّه لها ؛ في خبر : « لَوْ كَانَتْ ٱلدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ ٱللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِراً

---

(١) انظر ما يأتي ص ٣٥٥ .

(٢) الآية : ١١٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

(٣) الآية ١٨٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ »[1] . فقيل له (فهي أيضاً دارٌ أكرَمه الله فيها بالتوبة ؟!) فقال : إنَّه من الذنب على يقين ، ومن قبولِ توبته : العفوِ عما تاب عنه علىٰ خطر ؛ لاحتمال عدم قبولها ! .

طرب داودي : وقال الواسطيُّ : طَرَبُ داود عليه السلام : سروره وخوفه من الله وما هو فيه من حلاوة الطاعة أوقعه في أنفاس متصاعدة ـ يعني في حزن طويل ـ وهو على[2] حالته الثانية ؛ وهي حالة حزنه أتمُّ منه في وقت ما سَتر عليه أمره : في حالته الأولى ، وهي حالة طاعته في كمال ٱجتهاده ؛ ورؤية تقصيره فيها . والطرب ؟ قال الجوهري : خفَّةٌ تصيب الإنسان ، لشدّة حزن ؛ أو سرور .

التوبة القولية : وقال بعضهم : توبةُ الكذَّابين كائنة على أطراف ألسنتهم ـ يعني قولُ (أستغفر الله) . . من ذنبي ـ من غير إقلاع عنه ؛ كما مرّ عن ذي النون .

كسب التوبة : وسئل أبو حفص عن التوبة ؛ فقال : ليس للعبد في التوبة شيءٌ : تأثير ، لأنَّ التوبةَ واصلة إليه ؛ لا ناشئة منه كسائر الطاعات ؛ فإنَّ الله تعالىٰ هو الموفِّق لها والمعينُ عليها . وما قاله مأخوذ من قوله تعالىٰ ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾[3] : وفقهم الله للتوبة فتابوا .

عتاب وبشرى : وقيل : أوحىٰ الله تعالى إلى آدم : ﴿يَا آدَمُ ، وَرَّثْتَ ذُرِّيَّتَكَ ٱلتَّعَبَ وَٱلنَّصَبَ ؛ بخروجك من الجنة ـ أي : بسببه ، والعطف للتفسير ـ وَوَرَّثْتَهُمْ أيضاً ٱلتَّوْبَةَ ، مَنْ دَعَانِي مِنْهُمْ بِدَعْوَتِكَ : بسؤالك التوبة عليك . . لَبَّيْتُه كَتَلْبِيَتِكَ : أجبتُه إليها كما أجبتُك !

فيه حثٌّ على التوبة ، وأنَّ الله تفضَّل بها على ذرِّيَّة آدم ، كما تفضَّل بها عليه .

ويؤيِّدُه قوله « ﴿ يَا آدَمُ ؛ أنا أَحْشُرُ ٱلتَّائِبِيْنَ ، مِنَ ٱلقُبُورِ مُسْتَبْشِرِيْنَ بالخير

---

(١) أخرجه بلفظ « تعدل » بدل (تزن) : الترمذيُّ : ٢٣٢٠ ، وابن ماجه : ٤١١٠ ، والبغوي في « شرح السنة » : ٤٠٢٧ ، وأبو نعيم في « الحلية » : ٣/ ٢٥٣ ، والضياء المقدسي في « المختارة » .

(٢) في (م) : في .

(٣) الآية : ١١٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

ضَاحِكِيْنَ ، لما مننت به عليهم من فضلي ونعمتي وَدُعَاؤُهُمْ مع ذلك مُسْتَجَابٌ ﴾ » .

لو تبتُ !!: وقال رجل لرابعةَ العدويةِ رضي الله عنها : إنِّي قد أكثرتُ من الذنوب والمعاصي ؛ فلو تبتُ إلى الله ؛ هل يتوب عليَّ !؟ فقالت : لا ، إذ لا تأثير لفعلك حتى يكون سبباً موجِباً لتوبته عليكَ ، بل لو تاب هو عليكَ : وفَّقك للتوبة . . لتُبْتَ . لأنَّه المؤثِّر في الأفعال ، وقد قال ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ . . كما مرّ ص ٣٥٣ . ولا ينافيه قولُه تعالىٰ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[1] .

تشويق وتحذير : قال الأستاذُ الإمام رضي الله عنه : واعلم أنَّ الله تعالى قال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[2] . ومَن قارَف الزلَّة ؛ فهو من خطئه بارتكابها على يقين ، فإذا تاب فإنَّه من القبول لتوبته على شكٍّ ، لاحتمال عدم قبولها ! لا سيَّما إذا كان مِن شرطِه وحقِّه : مريدِها أن يكون مستحِقّاً لمحبَّة الحقِّ تعالىٰ إياه ، و المسافة من حين التلبُّس بالمعصية إلى أن يبلغ العاصي محلاًّ يجدُ في أوصافه أمارةَ استحقاق محبَّةِ الله تعالى إيَّاه مسافةً بعيدة ، فالواجبُ إذن على العبد . . إذا عَلم أنَّه ارتكب ما تَجِبُ منه التَّوبة دوامُ الانكسار ، وملازمةُ التنصُّل منه والاستغفار .

ويقاس بما تجبُ التوبة منه ما تندب منه ؛ كما قالوا : « استشعار الوجَل : الخوف مستمرٌّ إلى الأجل » . يعني : ينبغي للعبد أن يكون خائفاً من عدم صلاح أعماله مستمرّاً عليه إلى حين موته ؛ كما قال تعالى ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾[3] ثمّ حثَّ على اتِّباع النَّبيِّ ﷺ بقوله :

متابعته ﷺ : وقال عزَّ مِن قائل ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[4] .

---

(١) الآية : ٢٥ من السورة التي ذكر فيها : الشورىٰ .

(٢) الآية : ٢٢٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

(٣) الآية : ٦٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المؤمنون . وانظر ص ٤٣٨ .

(٤) الآية : ٣١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

وكان من سُنَّته ﷺ دوامُ الاستغفار ، وقال ﷺ : « إنَّه لَيُغَانُ : ليغطَّىٰ علىٰ قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ ٱللهَ فِي ٱلْيَوْمِ سَبْعِيْنَ مَرَّةً »[1] . وروي : « مِئَةَ مَرَّةٍ » وفائدة استغفاره . . مع أنَّه مغفورٌ له !! طلبُ ما عسىٰ أن يكون فاته شيء حالَ الغنىٰ ؛ وطلبُ زيادة الدرجات ؛ والاستدعاءُ لمحبَّة الله له الخاصَّة بالأنبياء ! قال الله تعالىٰ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ . وأيضاً المغفرة هي الستر ، وطلبه الستر معناه (استر عني المَقامَ الذي ارتقيت منه . . حتَّى أُكمل آداب المقام الذي ٱرتقيت إليه) . لأنَّ نظره إلى الأوّل يمنعُه من تكميل آداب الثاني . أو (استر عني المقام الثاني حتَّىٰ أُكمِل الأوَّل) وبالجملة فمقاماته كلُّها عالية ليس فيها أدنىٰ حتَّىٰ يستغفرَ اللهَ منه ! وإنَّما مراده طلب ما ذكر .

زلة ؟؟! : سمعتُ أبا عبد الله الصوفيَّ ؛ يقول : سمعتُ الحسين بن علي ؛ يقول : سمعتُ محمد بن أحمد ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن سهل ؛ يقول : سمعتُ يحيىٰ بن معاذ ؛ يقول : **زلَّةٌ واحدة بعدَ التوبة أقبحُ من سبعينَ قبلها** . لأنَّ الفعل القبيح من العالِم بكمال قُبْحه أقبحُ من غيره ، ولهذا كان عذاب العالِم أشدَّ من عذاب الجاهل .

وذكر السبعين هنا ؛ وفي الخبر السابق !! ليس للتقييد ، بل للمبالغة ؛ كما قي قوله تعالىٰ ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾[2] . وكذا ذكر المئة في الرواية السابقة .

حاصل الأمر : سمعت محمد بن الحسين؛ يقول: سمعتُ أبا عبد الله الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا عثمان ؛ يقول ـ في قوله عز وجل ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ . . قال : معنى إيابهم رجوعُهم إلى الله تعالىٰ ؛ وإن تمادىٰ بهم **الجَوَلان** : **الطواف في المخالفات للأوامر** !

فيه الحثُّ على التوبة اختياراً ، فإنَّهم إن لم يرجعوا إليه اختياراً . . رجعوا إليه اضطراراً يوم القيامة؛ وهو المراد بقوله ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ وقولُه (قال) زائدٌ.

عبد سقط : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا عَمْرو الأنماطيَّ ؛ يقول : ركب عليُّ بن عيسىٰ الوزيرُ في موكِب عظيم ؛

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٥٨ .

(٢) الآية : ٨٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

كَمّاً وكيفاً ؛ فجعل الغرباء الذين لا يعرفونه ممَّن يحبُّ الدنيا ويستحسنُها . . يقولون : (من هذا ؟ من هذا !؟) تعجُّباً مما هو فيه من المملكة . فقالت امرأة قائمة على الطريق . . زاهدة في الدنيا ؛ عارفة بها وبالآخرة : إلىٰ متى تقولون (من هذا ؟) ! . هذا عبدٌ سقط من عين الله : حِفْظِه . . فابتلاه الله بما ترون ؛ من اشتغاله بالدنيا عن الآخرة . فسمع عليُّ بن عيسى ذلك ؛ فكانت موعظةً له ! . فرجع إلى منزله ، واستعفىٰ عن الوزارة ، وذهب إلى مكَّة وجاورَ بها . فكان كلامُ هذا المرأة سببَ توبته وسعادته .

* * *

٢ـ باب المجاهدة

معناها : وهي الأعمال التي تزيل الأخلاق الذميمة . . وتحصِّل الأخلاق الحميدة ، سواء كانت من أعمال القلوب ؛ أم الجوارح . وهي مطلوبة[١] .

ثمرتها : قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ـ : طرقَنا الحميدة ـ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٢] .

أفضل الجهاد : أخبرنا أبو الحسين عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد

---

(١) وجوباً ؛ أو ندباً بحسب المجاهَد فيه ، سواء أعمال الجوارح ؛ أو القلوب . بقطع الشهوات والمألوفات عن النفس بالمجاهدة ، وهي شعوب ، ومنازل ، وموارد ، ومناهل فينبغي علىٰ العاقل أن يحاسب نفسه ما استطاع ، فلا يسامحها بحظ أو مألوف أو خاطر ، إذ **الخواطر علىٰ قسمين** : ١ ـ محمود ؛ وهو ربانيُّ ، وملكي ، و٢ ـ مذموم ؛ وهو نفساني وشيطانيّ ، ولكن المذموم قد يلتبس بالربَّاني ؛ أو الملكي !! فلا بد من شيخ عارف ناصح يبيِّن ذلك وينصح للمريد وببيان ما يلزمه ويعينه علىٰ نفسه .

(عروسي : ٢/ ١٢٤ ؛ بتصرف واختصار) .

(٢) الآية : ٦٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : العنكبوت .

الصفَّار ؛ قال : حدَّثنا العبَّاس بن الفضل الإسقاطي ؛ قال : حدَّثنا ابن كاسب ؛ قال : حدَّثنا ابنُ عيينة ؛ عن عليِّ بن زيد ؛ عن أبي نَضْرة ؛ عن أبي سعيد الخُدْري ؛ قال : سئل رسول الله ﷺ ؛ عن أفضل الجهاد ؟! فقال : « كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ »(١) . فدمعت عينا أبي سعيد .

تكميل : فإن قلتَ : روى البخاريُّ خبر (إِنَّ أَفْضَلَ ٱلأَعْمَالِ ٱلإِيْمَانُ ثُمَّ ٱلجِهَادُ)(٢) ؛ وخبر (إِنَّ أَفْضَلَهَا ٱلصَّلاَةُ لِوَقْتِهَا)(٣)

قلتُ : الأجوبة مختلفة في أوقات ، فأجاب في كلٍّ منها بما هو الأفضل في حقِّ السامع ؛ فمن ظهر منه قِلَّةُ الكلام في العدل عند السلطان قال له (أفضلُها كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ) ، ومن ظهر منه قِلَّةُ إيمان . . قال له (أفضلُها ٱلإِيْمَانُ) ، ومَن ظهر منه قلَّةُ صلاة . . قال له (أفضلُها الصلاةُ) .

ومجاهدةُ كلِّ أحد تكون بقيامه بحقوق ما أقيم فيه ؛ من أمرية وتحابُب في الله ، وتعلُّق قلبه في المساجد . . وغير ذلك . فالأمير يقوم بما يتعلَّق به من حقوق الناس ، والمتحابُّون في الله لا يصحُّ لهم الحبُّ فيه . . حتى تزول عنهم محبَّة الدنيا بالكلية ، ويُؤْثِر كلٌّ منهم صاحبه بما أمكنه ! .

أثرها : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : مَن زَيَّنَ ظاهره بالمجاهدة . . حَسَّن الله سرائرَه بالمشاهدة ، قال الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

شرطيتها : واعلم أنَّ مَن لم يكن في بدايته صاحبَ مجاهدة . . لم يجد من هذه الطريقة شَمَّة . لأنه إذا اجتهد في شبيبته في الأعمال . . وجد بركة ذلك حين عجزه وكِبَر سنِّه .

---

(١) أخرجه أحمد : ٣/١٩ ، وأبو داود : ٤٣٤٤ ، والترمذي : ٢١٧٤ ، وابن ماجه : ٤٠١١ ؛ عن أبي سعيد الخدري .

(٢) في صحيحه الجامع : ٢٦ ، ومسلم : ١٣٥ ـ ٨٣ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري : ٥٢٧ ، ومسلم : ١٣٩ ـ ٨٥ ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه .

أثر البداية : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ ؛ يقول : سمعت أبا عثمان المغربيَّ ؛ يقول : **مَن ظَنَّ أن يفتحَ له شيءٌ من هذه الطريقة ، أو يكشفَ له عن شيءٍ منها ؛ إلاَّ بلزوم المجاهدة ـ يعني : بغير لزومها ـ فهو في غلط** .

سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **مَن لم يكن له في بدايته قَوْمة . . لم يكن له في نهايته جَلْسة** .

وعن أبي محمَّد الجُرَيري ؛ قال : سمعت الجنيد ؛ يقول : ما أخذنا التصوّف من القيل والقال[1] ، ولكن من الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات . **(انظر ص١٤٨)**

وقد قيل : حقيقة الإرادة استدامة الجدِّ وترك الراحة .

بطالة المريد : وقال أبو عثمان : **عقوبة قلب المريد أن يُحجَب عن حقيقة المعاملات والمقامات إلى أضدادها** ، ومبنى طريق القوم في معاملاتهم على حسب المتابعة ، ومَن ظنَّ أنَّه يبلغ غرضاً ؛ أو يظفر بمراد . . لا من طريق المتابعة ؛ فهو مخذول مغرور . قال أبو سعيد الخرَّاز : كلُّ باطن يخالفه ظاهرٌ . . فهو باطل .

الحكمة والبدعة : وقال بعضهم : **مَن أَمَّر السُّنَّة على نفسه قولاً وفعلاً . . نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً . . نطق بالبدعة** .

أثر المجاهدة : وسمعته أيضاً ؛ يقول : **قولُهم (الحركةُ لله بركة)؛ إذ حركات الظواهر بالمجاهدات توجب بركات السرائر ؛ من تنوير القلوب ونفي الغفلة عنها بتكرار النِّيَّات ؛ بالحضور مع الله في سائر الأوقات** .

يعالج نفسه : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أحمد بن عليٍّ بنِ جعفرَ ؛ يقول : سمعت الحسين بن عَلُّوَيْهِ ؛ يقول : قال أبو يزيد البَسطامي : **كنت اثنتي عشرة سنةً**

---

(١) أي : لم نكتف بنقل عبارات القوم وذكر أخلاقهم ؛ وما كانوا عليه من المعاملات ، لأنَّ الاكتفاء بذلك ضارٌّ غير نافع ، إذ هو مما تقوم به الحُجَّة علىٰ غير المتخلِّق بأخلاقهم (عروسي : ٢/١٢٦) .

حدَّادَ نفسي ، وخمس سنين كنتُ مرآة قلبي ، وسنةً أنظرُ فيما بينهما ؛ فإذا في وسَطي زُنَّار ظاهر ـ وهو خيطٌ غليظ يشدُّ به الذِّميُّ وسطه ـ فعملت في قطعه اثنتي عشرة سنة ، ثم نظرتُ ؛ فإذا في باطني زُنَّار ؛ فعملت في قطعه خمس سنين ؛ أَنظرُ كيف أقطعه !؟ . فكُشف لي ، فنظرتُ إلى الخلق فرأيتُهم موتىٰ ! فكبَّرتُ عليهم أربعَ تكبيرات .

توضيح : أشار بذلك إلى كمال مجاهدته في أوّل بدايته ، إذ شأن الحدَّاد أن يحميَ الحديد ثمَّ يطرقَه حتَّىٰ يبرد فتخرج أوساخه ، ثم يعيده إلى النار فيعدِّلُه حتَّىٰ يستقيم على ما يُراد منه . فلذلك قال : أقمت ثنتي عشرة سنة أُعدِّل جوارحي . . من سمعي وبصري ولساني وسائر أعضائي ؛ بالخوف والرجاء حتَّىٰ استقامت على الخير ، ثمَّ عملتُ في قلبي في إزالة الذميمة والتخلُّق بالأخلاق الحميدة خمسَ سنين ، ثمَّ نظرت فيما حصل لي من الخير من جمال باطني وظاهري سنة . . فوجدت نفسي ملتفتة إلى الخلق ، مُحِبَّة لاطِّلاعهم على حسن أعمالي ومدحِهم لي على ذلك ، فشبَّهتهُ بعلامة الشرك ؛ وهو الزُّنَّار الظاهر ! لما فيه من الالتفات إلى غير الله ، فعملت في قطعه ثنتي عشرة سنة ، ثمَّ نظرت . . فإذا بباطني استحسانٌ لأعمالي ولمدح الناس لها على ذلك ، فشبَّهتهُ بالزُّنَّار الباطن ؛ وهو العُجب بالعمل ؛ أو بمدحه ! فعملت في قطعه خمس سنين ، ثم نظرت في الخلاص مِّن ذلك ! فوجدت الطريق فيه أن يغلب على قلبي حالُ انفراد الحقِّ تعالى بالأفعال ؛ وهو أنَّه لا ضارَّ ولا نافع ؛ ولا معطي ولا مانع . . إلاَّ هو . فشبَّهتُ غيرَه من الخلق بالموتىٰ ، فكبَّرتُ عليهم أربع تكبيرات ونفسي منهم .

فعاش رحمه الله بذلك الحياة الحقيقية التي أحياه الله بها وشغله به عمَّن سواه .

عبادة ضعيف : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا العبَّاس البغداديَّ ؛ يقول : سمعتُ جعفراً ؛ يقول : سمعتُ الجنيد ؛ يقول : سمعت السَّرِيَّ السَّقَطيَّ ؛ يقول :

يا معاشر الشباب ؛ جِدُّوا : اجتهدوا في العبادة ، قبل أن تبلغوا مبلغي ؛ فتضعفوا وتقصِّروا عنها ؛ كما ضَعُفت وقصَّرت عنها .

وكان هو في ذلك السنِّ ـ وفي نسخة : الوقت ـ لا يلحقُه الشابُّ في العبادةِ .

أصول المجاهدة : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ عبد العزيز النجرانيَّ ؛ يقول : سمعتُ الحسن القزَّاز ؛ يقول :

بُنِيَ هذا الأمرُ : علمُ التصوّف علىٰ ثلاثة أشياء(١) :

١ـ أن لا تأكل إلاَّ عند الفاقة ، و٢ـ لا تنام عن فعل الطاعات إلاَّ عند الغَلَبة ، و٣ـ لا تتكلَّم إلاَّ عند الضرورة . لعموم خبر : « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ ٱلْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ »(٢) . ولخبر : « حَسْبُ ٱبْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ »(٣) . ولقوله تعالىٰ ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ﴾ . . الآية(٤) .

وقال مالك رضي الله عنه : مَنْ عَدَّ كلامه مِن عمله . . قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه . وفي الخبر : « وَهَلْ يَكُبُّ ٱلنَّاسَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ! ! »(٥) . وعمر الإنسان رأسُ ماله الذي فيه تجارتُه ، فإذا ضيَّعه فيما لا يعنيه . . فقد أتلفه في لا شيء .

عقبات الصالحين : وسمعتُه أيضا ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت محمد ابن حامد ؛ يقول : سمعت أحمد بن خضرويه ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن أدهم ؛ يقول :

---

(١) والناس أيضاً ثلاثة : ١ ـ رجل نهض لأمر ربِّه وخدمته لمحض العبودية وحقِّ الخدمة . . فهو حرٌّ كامل . و٢ ـ رجل نهض لحسن الخدمة ، أو حُسْن مَن نُسبت إليه الخدمة . . فهو مريد طالب ؛ أو عارف مستبشر ، و٣ ـ رجل نهض لرجاء الثواب ؛ وخوف العقاب فهو من عوامِّ المؤمنين وعامَّة أصحاب اليمين (عروسي : ٢/١٢٨) .

(٢) تقدم تخريجه ص ١٠٧ . وسيأتي ص٣٧٤ ، وص٣٨٩ بسند المؤلف .

(٣) تقدم تخريجه ص ٨١ .

(٤) الآية : ١١٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

(٥) أخرجه الترمذي : ٢٦١٦ ؛ وقال : حسن صحيح ، وأحمد : ٥/ ٢٣٠ ، وابن ماجه : ٣٩٧٣ ، وابن حبان : ٢١٤ ؛ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

لَن ينالَ الرَّجلُ درجةَ الصالحين ؛ حتىٰ يجوزَ سِتَّ عَقَبات[1] :

أولها : أن يُغْلِق ـ مِن (أَغْلَق) ـ باب النعمة ؛ ويفتحَ باب الشدَّة .

والثاني : أن يُغْلِق باب العزَّة ؛ ويفتح باب الذُّلِّ .

والثالث : أن يُغْلِق بابِ الرَّاحة ؛ ويفتح باب الجهد .

والرابع : أن يُغْلِق باب النَّوم ؛ ويفتح باب السهر .

والخامس : أن يُغْلِق باب الغنىٰ ؛ ويفتح باب الفقر .

والسادس : أن يُغْلِق باب الأمل ؛ ويفتح باب الاستعداد للموت .

ولا تحصُلُ هذه الخصال إلاَّ بالمبالغة في المجاهدة ، لأنَّها خلاف المعتاد للناس ، فإنهم يفزعون من التعب والفقر والشدَّة والسهر والذُّلِّ والاستعداد للموت ، ويجمعها كلَّها الأخيرُ . فإنَّه إنَّما يحصل بالقيام بالطاعات ومفارقةِ الشهوات .

وهذه الحكاية قدَّمها الشيخ أيضاً ص ٧٨ في (باب ذكر مشايخ هذه الطريقة) بالسند المذكور ، لكنَّه ذكر ثَمَّ بدل شيخه السُّلَمي شيخَه محمد بن الحسين ! وأنَّ إبراهيم ذكر ذلك لرجل في الطواف !! .

الدين والنفس : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ـ الأنسب بما تقدَّم؛ وبما يأتي أن يقول: وسمعته ـ؛ يقول : سمعتُ جدِّي أبا عَمْرو ابن نُجَيد ؛ يقول : مَن كَرُمت عليه نفسُه ووافقها فيما تحبُّ من الشهوات وترك مشقَّة الطاعات . . هان عليه ذنبه !!

عفَّة الصوفيِّ : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت أبا عليٍّ الرُّوذَباريَّ ؛ يقول : إذا قال الصوفيُّ بعد خمسة أيام أو نحوها : (أنا جائع)! فألزموه السوق ، وأْمروه بالكسب له : بأن يكتسب لنفسه . نبَّه بذلك على أنَّ العبد لا يعرِّض نفسه إلى الطلب من الناس بترك التكسُّب ؛ وإن كان قليلَ الصبر على الجوع ! .

أصل المجاهدة : واعلم أنَّ أصل المجاهدة ومِلاكَها ؛ وهو : ما يقوم بها فطمُ

---

(١) تقدم ص ٧٨ فإعادته لأجل المبالغة في الحثِّ علىٰ الجدِّ والاجتهاد في العبادة (عروسي : ٢/ ١٢٨) .

النفس : قطعُها عن المألوفات ، وحملُها على خلاف هواها في عموم الأوقات . فإنَّ العبد كلَّما اندفع عنه الصارف والمانع سَهُل عليه تحصيل العمل النافع ، ولذلك قال المشايخ (الإرادةُ ترك ما عليه العادة) والنفس تحتاج إلى سائق وقائد في ابتداء أمرها ؛ فالرجاء يقودُها ؛ والخوفُ يسوقها . فإذا استقام السائق والقائد . . مشت إلى الخير بسهولة ، ومتى أفرط القائدُ ذلَّلها وأمَّنها ، ومتى أفرط السائق قَنَّطَها وقتَلَها .

آفة النفس وعلاجها : وللنفس صفتان مانعتان لهامن الخير : انهماكٌ في الشهوات ، وامتناعٌ عن الطَّاعات ، فإذا جَمَحتْ : غلبت صاحبَها عند ركوب الهوىٰ . . يجب[1] كبحُها : جذبُها بلجام التَّقوىٰ ، وإذا حَرُنت عليه : وقفت ؛ ولم تنقد عند القيام بالموافقات : المأمورِ بها . . يجب عليه سوقُها علىٰ خلاف الهوىٰ ، وإذا ثارت : هاجت عند غضبها ؛ من استنقاص قَدْرِها ؟ فمِنَ الواجب على صاحبها مراعاةُ حالها ، فما من مُنَازلة : نزول في مرتبة أحسنُ عاقبةً من غضب يُكسَر سلطانُه : قوَّتُه بخُلقٌ حسن ، وتخمد نيرانه : يُسكَن لهبُها برفق ، فإذا استحلَتْ شرابَ الرُّعونة : الحمق . . فضاقت في نفسها عن كلِّ شيء إلاَّ عن إظهار مناقبها ، والتزيُّنِ لمن ينظر إليها ويلاحظها ؛ فمن الواجب على صاحبها كسْرُ ذلك عليها ، وإحلالُها بعقوبة الذُّلِّ بما يذكِّرُها من حقارة قدرِها ، وخساسة أصلها ، وقذارة فِعلها .

معالجة الجموح : قال الغزاليُّ : كسرُ النفس الجموح يحصل بثلاثة أشياء :

أحدها : منعُها الشهوات ، فإنَّ الدابَّة الحرون تلين إذا نقص من علفها ،

ثانيها : حَمْلُها أثقال العبادات ، فإنَّ الدابة إذا زيد في حملها مع نقص علفها . . تذلَّلت وانقادت .

ثالثها : الاستعانة بالله . وإلاَّ فلا مخلص ! أما تسمع قول يوسف عليه السلام (إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ) !

---

(١) في (م) : وجب .

مجاهدة العوامِّ والخواصِّ : وجُهد العوامِّ : يكون في توفية الأعمال : تمامِها وتكثيرها ، وقصد الخواصّ : يكون إلى تصفية الأحوال : تكميلِها ، فإنَّ مقاساةَ الجوع والسَّهر ؛ وإن كان شديداً هو بالنسبة إلى مراعاة الأحوال ؛ والانتقال عن الأخلاق الذميمة ، والتخلُّق بالأخلاق الحميدة . . سهلٌ يسير ، ومعالجة الأخلاق والتلقِّي من سَفْسَافها : دنيئها صعبٌ شديد .

غوامض الآفات : ومن غوامض آفاتِ النفس ركونُها إلى استحلاءِ المدح لها ، فإنَّ مَن تحسَّىٰ منه جَرْعة حَمَل لأجله السماوات والأرضين ـ مثلاً ـ على أشفاره : أطرافِ أجفانه التي ينبت عليها الهدب ، لأنَّ العبد يتحمَّل في وقت الهوى وشدَّة الرغبة في المقصود ما لا يتحمَّلُه في غير ذلك الوقت ؛ لا سيما إذا غلب على ظنِّه أنَّ ذلك المقصودَ ينقله إلى ما هو أعلى منه .

علامة الآفات : وأمارة ذلك أنَّه إذا انقطع عنه ذلك الشِّربُ : نصيبُه من المدح آل : رجع حالُه إلى الكسل : التثاقل عن الأعمال ، والفشل : الضعف عنها .

يحاسب نفسه : ولهذا كان بعضُ المشايخ يصلِّي في مسجده في الصفِّ الأوَّل سنينَ كثيرةً ، فعاقه يوماً عن الابتكار إلى المسجد عائقٌ ، فصلَّىٰ في الصف الأخير ؛ فوجد في نفسه انكساراً وتألُّماً !! فقام عنده أنَّ سببه أنَّ نفسه كانت فَرِحة بمدح الناس لها ؛ وملازمتِها للصفِّ الأوَّل مرائية بذلك . فلم يرَ بعد ذلك مدَّة ، فسئل عن السبب !! فقال : كنت أقضي صلاةَ كذا وكذا سنةً صلَّيْتُها في الصف الأول . . وعندي أنِّي مخلصٌ فيها لله سبحانه وتعالى ، فداخَلَني يومَ تأخُّري عن البكور إلى المسجد من أجل شهودِ النَّاس إيَّايَ في الصف الأخير نوعُ خجل منهم ؛ فعلمتُ أن نشاطي طولَ عمري إنَّما كان على رؤيتهم إيَّاي في الصفِّ الأوَّل ، فقضيت صلواتي .

فاضح نفسه : ويحكىٰ عن أبي محمَّد المرتعش ؛ أنه قال : حججتُ كذا وكذا حِجَّة علىٰ التجريد ؛ أقاسي فيها التعب والجوع ! فبان لي أنَّ جميع ذلك كان مشوباً بحظِّي ! وذلك أنَّ والدتي سألتني يوماً أن أستقيَ لها جَرَّة ماءٍ ، فثقل ذلك على نفسي !! فعلمت أنَّ مطاوعةَ نفسي في أعمال الحِجَّاتِ كانت لحظٍّ وشَوْبٍ ، ـ وفي نسخة : وشِرْب ـ لنفسي ! إذ لو كانت نفسي فانية عن حظِّها . . لم يصعب

عليها ما هو حقٌّ : واجب عليها في الشرع . . ويسهل عليها ما هو نفل فيه .

العجوز المنصفة : وكانت امرأة قد طعنت في السنِّ ، فسُئِلت عن حالها ؛ فقالت : كنتُ في حال الشباب أجدُ من نفسي نشاطاً في العمل ؛ وأحوالا تزعجني . . أظنُّها قوَّةَ الحال الذي يحصل للصوفيِّ !! فلما كَبِرتُ زالت هذه الأحوال عنِّي ؛ فعلمت أنَّ ذلك إنَّما كان قوَّةَ : عملَ قُوَّةِ الشباب والنفس ، فتوهَّمْتُها أحوالا ، إذ لو كانت عين اليقين والعرفان . . لدامت بدوامها في كلِّ زمان .

إعذار : سمعت الشيخ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : ما سمع هذه الحكاية أحدٌ من الشيوخ إلاَّ رَقَّ لهذه العجوز ؛ وقال : إنَّها كانت منصفة من نفسها .

العزُّ والذلُّ : سمعتُ محمَّد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان ؛ يقول : سمعت يوسف بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ ذا النون المصريَّ ؛ يقول : ما أعزَّ الله عبداً بعزٍّ هو أعزُّ له من أنْ يَدُلَّهُ على ذُلِّ نفسه ، وما أذلَّ الله عبداً بذُلٍّ هو أذلُّ له من أن يحجُبَه عن ذُلِّ نفسه . وذُلُّها بأن يعرِّفه الله قدرَها في أصلها وتقلُّبِها في أطوار خلقها . . من دم إلى نطفة ؛ إلى علقة ؛ إلى مضغة ، وعجزُها عن جلب ما ينفعها ؛ ودفع ما يضرُّها عنها ، وبأن يعرِّفه أنَّها مربوبة مكلَّفة مسؤولةٌ ، مؤاخذة . . بكلِّ حركة وسكون ؛ من أفعالها ؛ فإن حَسُنت وقامت بما كلَّفها به ربُّها . . سعدت ونجت ، وإن أهملت وفرَّطت . . عثرت وهلكت ، فما أعزَّ الله عبداً بعزٍّ أعزَّ له من أن يدلَّه على هذه الأمور . فإذا عرف قَدْر نفسه . . سَلِم من عُجْبِها وكِبْرها وسائر آفاتها ، وإن عرف تكليفها ؛ وما هي مؤاخذةٌ به . . اجتهد في العمل للقيام بما عليها ؛ وأخذ مالها .

يركب ما يهاب : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعتُ محمَّد بن عبد الله الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ إبراهيم الخوَّاصَ ؛ يقول : ما هالني : أفزعني شيءٌ يجوِّزُه الشرع ؛ من جوع وسهر ومخالفةِ ما اعتيد من كسب الأرزاق التي فيها شبهة . . إلاَّ ركبتُه .

الراحة : وسمعتهُ أيضاً ؛ يقول : سمعتُ عبد الله الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ محمد بن الفضل ؛ يقول : الراحةُ هو الخلاصُ من أماني النفس : شهواتها واختياراتها .

فكمالُ الراحة في الدين بلوغُ العبد إلى مقام التوكُّل والرِّضا ، ولا يتمُّ ذلك له إلاَّ بعلمه أنَّ الحقَّ سبحانه أرحمُ به ؛ وأعلمُ بما يصلحه .

أسباب الآفة : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان ؛ يقول : سمعتُ منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت أبا عليٍّ الرُّوْذَبارِيَّ ؛ يقول : **دخلت الآفةُ علىٰ الخلق من ثلاثة :**

١ـ سُقْم الطبيعة ، و٢ـ ملازمة العادة ، و٣ـ فساد الصحبة مع النفس .

١ـ سقم الطبيعة : فسألته : ما سُقْم الطبيعة؟ فقال : أكل الحرام ؛ لأنَّه يلازم سَقَمها .

٢ ـ ملازمة العادة : فقلت : ما ملازمة العادة؟ فقال : النظر والاستمتاعُ بالحرام ، والغيبة .

وذلك بأن لا يثبت في أموره حتَّى يعرفَ ما يجوز له ؛ وما لا يجوز ، بل يجري على مقتضىٰ عادته لصَبْوَته .

٣ـ فساد الصحبة : قلت له : فما فساد الصحبة مع النفس ؟ قال : كلَّما هاج في النفس شهوة تَبِعْتَها . فالصحبة النافعة معها التي بها نجاتُها أن يخالف العبد هواها ؛ ويحملها على ما طلبه منها ربُّها .

تذييل : فحصل من مجموع ذلك أنَّ الفساد دخل من أكل الحرام ، وقلَّة التثبُّت قبل الفعل ، والتصرُّف بمقتضىٰ الهوى ، وعطفُ الاستمتاع على النظر . . من عطف العامِّ على الخاصِّ ، عكس عطفِ الغيبة على الحرام .

سجنك : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعتُ النَّصراباذيَّ ؛ يقول : **سجنُك نفسك** . فـأنت محبوسٌ فيها ، إذا خرجتَ منها : بإعراضك عن شهواتها ؛ وعن العمل بمقتضىٰ أوامرها ، وجعل تصرُّفاتِك كلِّها لأوامر الله خاصَّة . . **وقعتَ في راحة الأبد** ، بقربه تعالىٰ منك . وهذا قريب ممَّا قال أبو يزيد : رأيتُ الحقَّ سبحانه في المنام ؛ فقلتُ : يا رب ؛ كيف أجدُك . قال ﴿فارق نفسك وتعال﴾ . وسيأتي هذا في الباب الآتي ص ٣٧٣ .

أجل الأحكام : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ محمَّداً الفراءَ ؛ يقول : سمعت أبا الحسين الورَّاقَ ؛ يقول : **كان أجلُّ أحكامنا . . في مبادىء أمرنا في (مسجد أبي عثمان الحيريِّ) ١ـ الإيثارَ بما يفتح علينا** ؛ بأن نعطيَ ما نحن محتاجون إليه لمن نراه مساوياً لنا ؛ أو أحوجَ منا ونصبرُ ، **و٢ـ أن لا نبيت علىٰ معلوم** ، بل إذا أخذنا قَدْرَ حاجتنا وفَضَل شيء أخرجناه للمحتاج ، **و٣ـ أنَّ مَن استقبَلَنا بمكروه** وإساءة لا ننتقمُ لأنفسنا منه ، بل نعتذرُ إليه ؛ بإنَّنا الذين أحوجناه إلى الإساءة

علينا حيث لم نبادر إلى حصول مقصوده قبلها[1] ، ونتواضعُ له ، ونتذلَّل حتَّىٰ يزول ما في نفسه منا . و٤ـ إذا وقع في قلوبنا حقارةٌ وٱزدراءٌ لأحدٍ . . قُمْنَا بخدمته والإحسانِ إليه والتواضع له . . حتَّىٰ يزول ما في نفسه منا ؛ وما في نفسنا منه .

ظلمة وسراج : وقال أبو حفص : النفس ظُلْمَةٌ كلُّها ، وسراجُها سِرُّها ـ سيذكر معناه ـ ونورُ سراجِها التوفيقُ ، فمَن لم يصحبه في سِرِّه ـ يعني : معاملته لربِّه ـ توفيقٌ من ربِّه . . كان ظلمةً كلَّه . لأنَّه يبقىٰ في ظلمةِ جهله وشهواته ، ومَن صحبه من ذلك توفيقٌ في علمه وعمله . . بقي في نور علمه .

تكميل : قال الأستاذ الإمام القشيريُّ رحمه الله : معنى قوله (سراجها سِرُّها) يريد به سرَّ العبد الذي بينه وبين الله تعالىٰ ، وهو محلُّ إخلاصه ، ومحلُّ معاملته لربِّه .

وبه ـ أي : ـ بما قاله أبو حفص ؛ من أنَّ نورَ سراجِ النفس . . إنَّما هو بتوفيق الله ـ المحدث لأفعال الشرِّ ، يعرف العبد أنَّ الحادثاتِ إنَّما تحدث بالله ؛ لا بنفسه ، ولا هي ناشئة من نفسه ، ليكون متبرِّئاً من حوله وقوَّتِه على استدامةِ أوقاته ، ثمَّ هو بالتوفيق يعتصِمُ من شرور نفسه ، فإنَّ مَن لم يدركه التوفيق من ربِّه . . لم ينفعه علمُه بنفسه ؛ ولا بربِّه .

ولهذا قال الشيوخ : مَن لم يكن له سِرٌّ : بينه وبين الله فهو مُصِرٌّ : على المخالفات .

الرضا عن النفس : وقال أبو عثمان : لا يرىٰ أحدٌ عيبَ نفسه ؛ وهو يستحسنُ ـ وفي نسخة : مستحسنٌ ـ من نفسه شيئاً ، وإنَّما يرىٰ عيوبَ نفسه مَن يتَّهمُها في جميع الأحوال . لأنَّ العبد متى حَسَّن ظنَّه بنفسه ورضي بأفعالها . . لم يتَّهمْها ؛ فلم يفتِّشْها ؛ فلم يطَّلع على عيبها ! وهذا غرور . ولذلك قيل[2] :

وَعَيْنُ ٱلرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيْلَةٌ   وَلٰكِنَّ عَيْنَ ٱلسُّخْطِ تُبْدِي ٱلْمَسَاوِيَا

---

(١) قبل إساءته ، إذ المتسبب كالمباشر .

(٢) من البحر البسيط .

فلا بدَّ للعبد أن يسيء ظنَّه بنفسه لما يعرفه من عوائدها الرديئة ، ورضاها بالأقوال دون الأفعال ، ومدح الناس لها ولو بالمحال ! فعلمه بذلك يوجب له تهمتَها وتفتيشَها ليتخلَّص من خِدَعها وخِدَع إبليس .

الجاهل بعيبه : وقال أبو حفص : ما أسرعَ هلاكَ من لا يعرف عيبه ؛ فإن المعاصيَ الناشئة من عدم معرفة عيب النفس واْتهامها بريدُ الكفر : طريقُه .

وقال أبو سليمان داودُ بن نصير الطائيُّ : ما استحسنتُ من نفسي عملاً فاحتسبت : فاْعتدَدْت به ! أي : الغالبُ من الاستحسان الغير الشرعيِّ فسادُ الأعمال .

المحذَّرُ منهم :

١ـ **جيران الأغنياء** : وقال السَّرِيُّ السَّقَطي : إيَّاكم وجيرانَ الأغنياء ، يعني : مجاورتهم ، لأنَّ الطبع يميل إلى أفعال جاره ، فإذا جاورهم العبد . . ورأىٰ ما هم فيه من السَّعَة والتحدُّث بأمرهم . . مالت نفسه إلى ما هم فيه ، فبُعده عنهم أولىٰ به ، ليدوم له قناعتُه بفقره ، والرضا بما قسم له ربُّه ، ويتأسَّىٰ بنبيِّه ﷺ في تخلُّقه في الفقر ، ودعائه الإله به ، كما قال : « اَللَّهُمَّ ؛ اْجْعَلْ قُوْتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافاً . . لاَ إِقْتَاراً ؛ وَلاَ إِسْرَافاً »[1] .

٢ـ **قُرّاء الأسواق** : وإيَّاكم وقُرَّاءَ الأسواق ، لأنَّهم يهينون كتاب الله تعالىٰ بتلاوته فيها ، لا سيَّما إذا جعلوه سبباً لطلب الدنيا ، كما هو الغالب !

٣ـ **علماء الأمراء** : وإيَّاكم وعلماءَ الأمراء ، لأنَّ الغالب من حال الأمراء عدمُ الجَرَيان على القوانين الشرعية ، فالعالِم إذا لازَمَهم على ما هم عليه !! فإمَّا أن يعينَهم بالقول والتحسين ، وإمَّا أن يُقرَّ ما هم عليه ؛ من غير كراهة ولا إنكار . وكلاهما خطأ .

أسباب الفساد : وقال ذو النُّون المصريُّ : إنَّما دخل الفسادُ على الخَلْق من ستَّةِ أشياء :

١ـ **فقد الرغبة** : الأوَّل : ضعف النية المطلوبة بعمل الآخرة ، لأنَّ العبد إذا ضعفت

---

(١) أخرجه البخاري : ٦٤٦٠ ، ومسلم : ١٨ ـ ١٠٥٥ ، ولفظه لمسلم دون (لا إقتاراً ولا إسرافاً) ؟ وانظر «مصابيح السنة » : ٤٠٠٦ ، و« الجامع الصغير » : ١٤٤٩ .

نيّته في العمل . . قلّت رَغبته فيه ، بل ربَّما نفر عنه .

٢ـ **تبعية الشهوة** : والثاني : أن صارت أبدانُهم رهينةٌ لشهواتهم . هذا ثمرة الأوَّل ؛ لأنَّ العبد إنَّما ينتقل عن شهواته بقوَّة نيّته وعزمه في طاعته ، فإذا فاته ذلك . . صار بدنه رهيناً لشهواته ، فصارت حركاتُه وسُكناتُه في مصلحة نفسه وهواها .

٣ـ **غدر الأَمَل** : والثالث : أنْ غَلَبهم طولُ الأمل مع قرب الأجل . لأنَّهم إذا أجَّلوا للطاعة أجلاً خَسِروا أنفسهم في الحال ، وقد يقطعهم الموت قبل بلوغ الأجل ! وإن داموا إليه ؟ تأكَّد تعلُّق قلوبهم بالشهوات ، وعسرت عليها الطاعات .

٤ـ **ضعف اليقين** : والرابع : أنْ آثروا رضا المخلوقين على رِضا الخالق . لأنَّ ذلك ناشىءٌ من قلَّة الدِّين وضعف الإيمان ؛ بأنَّه لا ضارَّ ولا نافع ؛ ولا معطيَ ولا مانع . . إلاَّ الله .

٥ـ **هجر السنَّة** : والخامس : أن اتَّبعوا أهواءَهم ونبذوا : ألقَوْا سُنَّة نبيِّهم ﷺ وراء ظهورهم . لأنَّ ذلك من سوء الاعتقاد وقبح الأعمال .

٦ـ **قبح الاتباع** : والسادس : أن جعلوا قليلَ زَلاَّت السَّلف رضي الله عنهم حُجَّةً لأنفسهم ، ودفنوا كثيرَ مناقبهم . هذا ثمرة الخامس ؛ وهو اتِّباع الهوى واعتقاد أنَّه على الحقِّ فيما فعل أو نوىٰ ، فإذا عُورِض من اتَّصف بذلك فيما هو فيه . . قال (قد فعل ذلك مَن هو أفضل منِّي) ، ويتمسَّك بقضيَّته في ظنِّه أنَّها زلَّة ؛ وليست كذلك ! ويترك كثيرَ مناقبهم ؛ وجميلَ فضائلهم . . فلا يقتدي بها ، لكونه بعيداً عما هم فيه من الخيرات ؛ والجدِّ في الطاعات .

* * *

* *

*

٣ـ باب الخلوة والعزلة[١] ؛
وهي قبل الخلوة ؛ كما يعلم مما سيأتي

الرغبة فيهما : وهما مطلوبتان .

خير المعايش : أخبرنا أبو الحسن عليُّ بن أحمدَ بنِ عبدان ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصري ؛ قال : حدَّثنا عبدالعزيز بن معاوية ؛ قال : حدَّثنا القَعْنَبيُّ ؛ قال : حدَّثنا عبد العزيز ابن أبي حازم ؛ عن أبيه ؛ عن بَعْجَةَ بنِ عبد الله بن بدر الجُهَني ؛ عن أبي هريرة ؛ قال :

قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ مِنْ خَيْرِ مَعَايِشِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمْ رَجُلاً آخِذاً بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيْلِ ٱللهِ . . إِنْ سَمِعَ فَزْعَةً ؛ أَوْ هَيْعَةً . . كَانَ عَلَىٰ مَتْنِ فَرَسِهِ ـ : ظهرها ـ يَبْتَغِي ٱلمَوْتَ ؛ أَوْ ٱلقَتْلَ فِي مَظَانِّهِ ، أَوْ رَجُلاً فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ فِي رَأْسِ شَعْفَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلشِّعَافِ ؛ أَوْ فِي بَطْنِ وَادٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَوْدِيَةِ . . يُقِيْمُ ٱلصَّلاةَ ، وَيُؤْتِي ٱلزَّكَاةَ ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُ ٱليَقِيْنُ : الموت ، لَيْسَ هو مِنَ ٱلنَّاسِ إِلاَّ فِي خَيْرٍ » .

---

(١) والناس في ذلك علىٰ ثلاثة أقسام ؛

١ ـ منفرد بقلبه ؛ لا بشخصه ، وهو كائن بائن ، وهو حال أهل الكمال .

و٢ ـ منفرد بشخصه دون قلبه ، وهو سالم إن توفرت فيه شرائطها ؛ لكن لا عبرة به .

و٣ ـ منفرد بقلبه وشخصه ، وهو المستخلي ، وهو ثلاثة أنواع :

١ ـ معتزل ليسلم ، وشرطه القيام بواجباته وسلامة الناس من سوء ظنه .

و٢ ـ معتزل ليغنم ، وشرطه التحفظ في السنَّة مع الجدِّ في العمل .

و٣ ـ معتزل لينعم ، وشرطه تحرير الأقوال والتبرِّي من المقال .

(عروسي : ٢/١٣٦ بتصرف) .

ثم ذكر عن بعض شيوخ الشيخ عبد الرحمان الصقلي أنَّه قال : كنت أخلو لأَسْلَم ، فصرت أخلو لأغنم ، فصرت أخلو لأفهم ، فصرت أخلو لأعلم ، فصرت أخلو لأتنعَّم . . والله أجل وأعلم .

هذا الخبر رُوي بألفاظ مختلفة[1] ، وكلُّها متَّفقةٌ على أنَّ البعد عن الناس للتفرُّغ للعبادة أفضلُ من الاختلاط بهم . . على ما يأتي بيانه .

والشَّفْعة رأس الجبل ، وجمعها شَعَف وشُعُوف وشِعَاف وشَعَفات ؛ ذكره الجوهريُّ .

أصحابهما : قال الأستاذ : الخلوة صفةُ أهل الصفوة . والعزلةُ من أمارات أَهل الوُصْلة إلى الله تعالى ، ومحلُّ طلبها من العبد إذا استغنىٰ عن الناس ؛ واستغنَوْا عنه . والاَّ ! فمتى دعاه الشرع إلى الخُلطة بهم . . إمَّا في التعلُّم منهم ، أو التعليم لهم . . فلا خير في البُعد عنهم .

وبهذا يجمع بين الأدلَّة الدالَّة على طلب العزلة ؛ والأدلَّةِ الدالَّة على طلب الخلطة .

شرطهما : ولا بدَّ للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه . أي : عن الناس ليَبْعُد عما طُبعوا عليه من الأخلاق الرديئة ؛ والأعمال الذميمة . ثمَّ في نهايته : ثمَّ لا بدَّ له في نهاية حاله من الخلوة ؛ لتحقُّقه بأُنسه تعالى . لأنَّها تجمع همَّته على مقصوده وانفراده بمحبوبه ، لتكمُل مناجاتُه ويترقَّىٰ في درجات قربه .

حقيقتهما : وحقيقةُ الخلوة الانقطاعُ من الخلق إلى الحقِّ ، لأنَّه سَفَر من النفس إلى القلب ، ومن القلب إلى الروح ، ومن الروح إلى السرِّ ، ومن السرِّ إلى واهب الكلِّ .

حقُّ العزلة : ومن حَقِّ العبد ـ إذا آثر العزلة على الخلطة ـ : ١ـ أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامةَ الناس من شرِّه .

و٢ـ لا يقصدُ سلامَتَه من شرِّ الخلق ، فإنْ الأوَّل من هٰذين القسمين نتيجةُ استصغار نفسه ؛ ومعرفته بآفاتها وسوء أخلاقها . والثاني منهما شهودُ مزيَّتِهِ : فضيلته على الخلق . ومَن استصغر نفسه فهو متواضع ، ومن رأى لنفسه مزيَّة على أحدٍ . . بأن تعاظم بها ؛ واستصغر غيره !! فهو متكبِّر . قال ﷺ :

---

(١) أخرجه مسلم : ١٢٥ ـ ١٨٨٩ ، وابن ماجه : ٣٩٧٧ .

« اَلْكِبْرُ بَطَرُ ٱلحَقِّ وَغَمْطُ ٱلنَّاسِ »[1] : ردُّ الحقِّ واستصغارُ الناس .

حارس الكلب : وقد رُؤي بعض الرهبان ؛ فقيل له : إنَّك راهب !! فقال : لا ؛ بل أنا حارسُ كلبٍ ؛ وهو نفسي إنَّ نفسي كلب : ككلب يَعقُر الخلقَ ؛ أخرجتُها من بينهم ليَسْلَموا منها . فيه استصغارُ نفسِه ورؤية نقصها .

جمعتها عنك : ومرَّ إنسان : رجلٌ ببعض الصالحين : بشيخ منهم ؛ فجمع ذلك الشيخُ ثيابَه منه ! فقال له الرجل : لِمَ تجمع عني ثيابك ! ليست ثيابي نجسة ؟!

فقال له الشيخ : وَهِمْتَ في ظنِّك (أنِّي أعتقدتُ أنَّ ثيابَك نجسةٌ) بل ثيابي هي النجسة ؛ جمعتُها عنك ؛ لئلا تُنَجِّس ثيابَك ، لا لكي لا تُنَجِّس ثيابي بثيابك!

تعقيب : ومعلوم أنَّ ثياب كلٍّ منهما . . لم تكن نجسة ، ولكنَّ الشيخ أدّب هذا الرجل على سوءِ ظنِّه بالناس المفهومِ من كلامه السابق ، لأنَّه لا يدري لِمَ جمع الشيخ ثيابه ، ولعله جمعها لمقصودٍ آخر ؛ لا لنجاستها !!

توضيح : وثيابُ الإنسان قد تطلق على حالته التي هو فيها . . من سوء خُلُقه ؛ وكثرةِ وقوعه في الغِيبة والكذب والكلام فيما لا يَعنيه ونحوها ، فكأنَّه قال (نفسي هي الحقيرة التي لا تصلُح أن تخالط الناس) ! وهذا هو اللائق بما قصده ؛ من أنَّ العبد يقصد بعزلته عن الناس سلامتَهُم من شرِّه ؛ لا سلامته من شرِّهم .

آدابها : ومن آداب العزلة : ١ـ أن يُحَصِّل العبد قبل اعتزاله من العلوم ما يصحِّح به عُقْد توحيده ؛ لكيلا يستهويَه الشيطانُ أي : يطلب منه عند انفراده به أن يتبّع هواه بوساوسه ؛ في إيمانه وسائر طاعته ، ثمَّ بعد تحصيله ذلك . .

٢ـ يُحَصِّل من علوم الشرع ما يؤدِّي به فرضه ونفله ، ليكون بناءُ أمره على أساس مُحكَمٍ : متقنٍ ، فمن ٱختلَّ اعتقاده ؛ أو علمُه بالأحكام . . وقع فيما لا ينبغي .

حقيقتها : والعزلة في الحقيقة[2] اعتزالُ الخصال المذمومة ، والاتِّصافُ

---

(١) أخرجه مسلم : ١٤٧ ـ ٩١ ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أفاد أن العزلة قد تكون بالأبدان والقلوب ، أو بالأبدان دون القلوب ، أو بالقلوب دون=

بالحميدة[1] ؛ وإن اختلط صاحبها بالناس ! فمتى كان العبد بهذه الصفة . . كان في عزلة ؛ وإن كان بين الناس . لأنَّ ما يحصل بها حاصلٌ مع ذلك ، لأنَّه حينئذ لا يضرُّ الناس ؛ ولا يتضرَّر بهم ، لعفوه عما يبدو منهم ، لعلمه ببرائتهم منه ، وبراءته من الاتِّصاف بالخير إلاَّ بعون الله تعالى ، **فالتأثير** : فتأثير العزلة إنَّما هو لتبديل الصفات ؛ **لا للتنائي** : التباعد عن الأوطان ، **ولهذا قيل** : من العارف بالله ؟ **قالوا** : **كائنٌ بائن** ، **يعني** : **كائنٌ مع الخلق** بالظاهر ؛ **بائنٌ عنهم بالسرِّ** : فيما بينه وبين الله ، ومنهم من يعبِّرُ عنه بقوله : كائن بجسمه مع الخلق . . بائن عنهم بشغله مع الحقِّ ؛ من الإخلاص والتعظيم ، والإجلال والتفكُّر ونحوها .

انفرد بالسرِّ : **سمعتُ الأستاذَ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله** ؛ **يقول** : **اِلبَس مع الناس ما يَلبَسُون** ، **وتناول** : وكُلْ **معهم ممَّا** ـ وفي نسخة : ما ـ **يأكلون** ، **وانفرد عنهم بالسرِّ** : فيما بينك وبين الله .

هذا الحديث : وسمعته أيضاً ؛ يقول : **جاءني إنسان** ؛ **وقال** : **جئتك من مسافة بعيدة** ـ يعني : أنا محبٌّ فيك ؛ وفي قُرْبك ؛ والتخلُّق بأخلاقك وزيارتك !ـ **فقلت** : **ليس هذا الحديث** : علمَ الصوفية : حصولُه من حيث **قطعُ المسافات ومقاساةُ الأسفار** ، بل من حيث تغيير الأخلاق الذميمة بالحميدة ، وهي مراده

= الأبدان ، **وأنفعها** ما كان بالقلوب ، ومع الأبدان **أتمُّ** . والغرض الحث على ما به الانتفاع . ومع هذا فللعزلة بالأبدان سرٌّ ظاهر في البداية ، أو في زماننا . (عروسي : ٢/ ١٣٩)

(١) **فائدة جليلة** : قال أبو العبَّاس المرسي رحمه الله : أوقات العبد أربعة لا خامس لها ، ولله تعالى عليه في كل وقت منها سهم من العبودية ؛ وهي :

١ ـ **الطاعة** ؛ وسبيله فيها شهود المنَّة من الله تعالى عليه أنْ هداه لها ووفَّقه للقيام بها . **و٢ ـ النعمة** ، وسبيله فيها الشكر ؛ وهو فرح القلب بالله . **و٣ ـ المعصية** ؛ وسبيله فيها التوبة والاستغفار . **و٤ ـ البلية** ، وسبيله فيها الرضا والصبر .

وقال ﷺ « مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ ، وَٱبْتُلِيَ فَصَبَرَ ، وَظُلِمَ فَغَفَرَ ، وَظَلَمَ فَٱسْتَغْفَرَ » . قالوا : ما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « أولئكَ لَهُمُ ٱلأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدونَ » .

فتدبَّر (عروسي ؛ بتصرف وتنسيق) .

بقوله : فارق نفسك ولو بخطوة ؛ فقد حصل مقصودك ؛ من مخالفة الهوى ، والجريِ على سمت التقوىٰ .

يجد ربّه : ويحكىٰ عن أبي يزيد البسطامي ؛ قال : رأيتُ ربِّي عزَّ وجلَّ في المنام ؛ فقلت له : كيف أجدك ؟ : كيف الطريق إلى القرب منك ؟!

فقال له : فارق نفسك وتعال . أي : إذا خالفت هواك وعملت بما أمرتك به . . فقد وجدتني وقَرُبت مني . وما يرىٰ في المنام مثالٌ لا عين ، الممثَّل به ، لأنَّ الشخص الواحد يراه عددٌ كثير في أماكنَ مختلفةٍ في وقت واحد . . يراه واحد شيخاً ، وآخر شابّاً ، وآخر كهلاً !!

وحقيقة الرؤيا الصالحة أن يخلق الله في قلب النائم وفي حواسّه الأشياءَ كما يخلقها في اليقظان . وسيأتي بيانه في (باب رؤيا القوم) ص ١٠٣٧ .

شرط الخلوة : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا عثمان المَغربيَّ ؛ يقول : مَن اختار الخلوةَ على الصحبة ؛ ينبغي أن يكون خالياً من جميع الأذكار إلاَّ ذكرَ ربِّه ، وخالياً من جميع الإرادات إلاَّ إرادةَ رضا ربِّه ، وخالياً من مطالبة النفس من جميع الأسباب ، لأنَّ الشيء العزيز لا يَنال العبدُ بعضَه حتَّى يعطيَه كلَّه ، ولا أعزَّ من قرب الله تعالىٰ وحفظه ، فإن لم يكن بهذه الصفة ! فإنَّ خلوتَه تُوقِعُه في فتنة ؛ أو بلية . فإنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَجْرِي مِن ٱبْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ ٱلدَّمِ[1] ، وقد صحَّ في الخبر : « يَأْتِي ٱلشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ وَيَقُوْلُ (مَنْ خَلَقَ كَذَا ؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا ؟) حَتَّىٰ يَقُوْلَ لَهُ (مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ ؟) فَإِذَا وَجَد ذَلِكَ ! فَلْيَسْتَعِذْ بِٱللهِ وَلْيَنْتَهِ[2] .

فعلىٰ العبد أن يُديمَ ذكره لربِّه ويعرضَ عن الأسباب المشوِّشة عليه ، ويجتهد في تحصيل رضاه عنه ؛ حتَّىٰ يحفظه عن عدوِّه ويكفيه شرَّه .

دواعي السلوة : وقيل : الانفراد في الخلوة أجمعُ لدواعي السَلْوة : دواعي تطييب النفس . يقال (سقيتني سلوة وسلواناً) : طيَّبتَ نفسي عنك[3] ؛ قاله الجوهريُّ .

---

(١) متفق عليه عند البخاري : ٢٠٣٨ ، ومسلم : ٢٤ ـ ٢١٧٥ ؛ عن صفيَّةَ بنتِ حُيَي رضي الله عنها .

(٢) متفق عليه عند البخاري : ٣٢٧٦ ، ومسلم : ٢٠٩ ـ ١٣٢ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أصل السلوة : تراب من قبر يمزج بالماء ثم يسقىٰ منه المحبُّ ؛ فيذهب ما به .

ميزان الأنس : وقال يحيىٰ بن معاذ : انظر إذا حصل لك أنس . . هل أُنْسُك كان بالخلوة ، أو أُنْسُك كان معه تعالى بدوام مناجاته ؛ وما يُجريه عليك من عطائه وأنواع كراماته في الخلوة !!؟ فإن كان أُنسُك كائناً بالخلوة ؟ ذَهَب أُنسُكَ ؛ وتألَّمتَ إذَا خرجتَ منها واختلطت بالناس ، وإن كان أُنسك كائناً به تعالىٰ في الخلوة ؛ لكمال معرفتك به ، ودوامِ مناجاتك له . . استوت لك الأماكن في الصحاري والبراري وغيرهما ، فأنت في خلوتك بربِّك ؛ وإن اختلطت بالناس ! ولذلك قالوا : (الصوفي كائن بائن) ؛ كما مرّ .

وعطف البراري علىٰ الصحاري !! للتأكيد، كعطف الرحمة على الصلوات في قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ ﴾[1] وحسَّنه تغاير اللفظ .

خير الدَّارين وشرُّهما : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعتُ محمد بن حامد ؛ يقول : جاء رجل إلى زيارة أبي بكر الورَّاق ، فلمَّا أن زاره ثم أراد أن يرجع ؛ قال له : أوصني . فقال : وجدتُ خيرَ الدُنيا والآخرة في الخلوة عن الناس ، وفي القِلَّة من الطعام والمنام والكلام ، وشرَّهما في الكثرة من ذلك ؛ وفي الاختلاط بالناس ؛ إذا استغنى العبد عنهم ، واستغنوا عنه كما مرّ ص ١٠٧ ، وتقدّم ص ٣٦٠ خبر : « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ ٱلْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيْهِ » . والذي لا يعنيه ما لا تدعو إليه حاجة ؛ وهي . . إمَّا دينية ؛ أو دنيوية ، فالدينية ما لا يعتان به على العلم والعمل ، والدنيوية ما يستقيم به البدن والعقل .

في الزحام : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعت الجُرَيري يقول . . وقد سئل عن العزلة الحقيقية ؛ فقال : هي الدخولُ ـ أي : أن تدخل ـ بين الزِّحام الحاصل بخُلطة الناس : بينهم ؛ وتحفظ سرَّك أن لا يزاحموك : يشغلوك عنه ، وتعزل نفسَك عن الآثام [أو الأنام][2] ؛ ويكون سِرُّك مربوطاً

---

(١) الآية : ١٥٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

(٢) في الشرح : بالمثلثة ، أو بالنون . يعني : الآثام أو الأنام .

بالحقِّ تعالىٰ . ما قالوه مأخوذ من قولهم (الصوفي كائن بائن) وتقدم ص ٣٧٢ [وسيأتي ص٨٨١] بيانه .

وقيل : مَن آثر العُزْلَةَ عن الناس على الخلطة بهم حَصَل العزُّ له من الله تعالى . في كلامه الجناس المحرَّف[١] .

شرط صحة الخلوة : وقال سهل : لا تصحُّ الخلوة إلاَّ بأكل الحلال ؛ الذي لا يحصل للعبد إلا بعد تحصيل ما يحتاج إليه من العلم والعمل ، ومنه العلم بالحلال والحرام ؛ وأخذ القَدْر الذي يكفيه من الحلال ؛ وصرف الفاضل لمستحقِّه .

ولا يصحُّ أكل الحلال إلاَّ بأداء حقِّ الله ؛ من زكاة وغيرها ، وما قاله هو الخلوة بالله ، وهي أفضل الخلوات ، فإنَّ مَن كانت خلوته بُعدَه عن الناس . . تشوَّش حاله منهم إذا خالطهم ، بخلاف مَن كانت خلوتُه بالله ، لكمال معرفته به ؛ ودوام مناجاته له ؛ كما عُلم مما مرّ .

باعث الإخلاص : وقال ذو النون المصريُّ : لم أَر شيئاً أبعثَ على الإخلاص من الخلوة . لسلامة صاحبها من المراآة والإعجاب ، فإذا تكرَّر عليه ذلك بحيث لم يبقَ في قلبه ٱلتفاتٌ لغير الله ؛ من طلب حَمْد ، وخوفِ ذمٍّ ، وجزاء على عمل . . كان مخلصاً حقيقة ، لأنَّه لم يَرَ إلاَّ واحداً .

وبهذا الاعتبار قيل (رياء العارفين أفضلُ من إخلاص المريدين)! فعند العارف ٱلتفاتُ نفسه إلى حسن عمله رياءٌ، إذ هو ٱلتفاتٌ إلى غير الله في العمل .

باعث الوصول : وقال أبو عبد الله الرمليُّ : ليكن خِدْنَك : رفيقك وصاحبك الخلوةُ التي تلازمها ، وطعامَك الذي تقتات به على أمرك الجوعُ ، لأنَّه معين لك على صلاح قلبك وخفَّه بدنك ، وحدِيثَك الذي يتحدّث به لسانك المناجاةُ : المكالمة مع الله من سؤال ودعاء ؛ وذكر وثناء . . وغيرها من أنواع المناجاة ، فإمَّا أن تموت ؛ وأنت ساعٍ في الوصول إلى الله ، وإمَّا أن تصل إلى الله سبحانه قبل الموت .

---

(١) أي : الناقص ، وهو الذي اختلَّت أحد شرائطه : ١ ـ نوع الحروف ، و٢ ـ شكلها ، و٣ ـ ترتيبها ، و٤ ـ عددها .

تأصيل : وبالجملة إذا بعد العبد بالخلوة عن المشوِّشات وفرغ قلبه ونشطت جوارحه بالجوع ، ودام شغله بالله ، وتبرَّأ من حوله وقوَّته .. استقامت أحواله فيما يرومه من نيل الدرجات والولايات .

تفاوت : وقال ذو النون المصريُّ : ليس مَن احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله تعالىٰ !! لأنَّ احتجابَ العبد عنهم بالخلوة حجابٌ محسوس ؛ يمكن الخلقَ الاطلاع عليه في وقت ، واحتجابُه عنهم بالله حجابٌ معنويٌّ يصونه عنهم من جميع الآفات ، ولا يدرك هذاالمحجوبَ إلاَّ مَن قارَبَه في الدرجات ، فإنَّ حاله إنَّما يدرك بالأَمَارات .

مكابدةٌ أو مداراة : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ جعفر بن نصير ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : مكابدةُ العزلة أيسرُ على العبد من مداراة الخُلطة . لأنَّ مكابدة العزلة اشتغالٌ بالنفس خاصَّة ؛ وردٌّ لها عما تشتهيه ، بخلاف مداراة الخلطة بالناس .. مع اختلاف أخلاقهم وشهواتهم وأغراضهم ؛ وما يبدو منهم من الأذىٰ ؛ وما يحتاج إليه من الحلم والصفح .

الخير أو السلامة : وقال مكحول : إن كان في مخالطة الناس خيرٌ .. فإنَّ في العزلة السلامةَ من الشرِّ ، والسلامة منه آكد من تحصيل الخير !

نعم إن وجبت الخلطة لتحصيل علم ؛ أو عمل .. لم تصحَّ الخلوة ؛ كما مرّ .

جليس الصديقين : وقال يـحيىٰ بن معاذ : الوحدةُ جليسُ ـ يعني شعار ـ الصِّدِّيقين . لأنَّها أُنسهم ، إذ تصفو فيها مناجاتهم ، ويقوىٰ فيها جدُّهم وصدقُهم ؛ واستغراقهم في مطلوبهم ؛ وتلذُّذهم بمحبوبهم .

علامة الإفلاس : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان[1] ؛ يقول : سُمِعَ أبو بكر الشبليُّ ؛ يقول : الإفلاسَ .. الإفلاس : احذروا ذلك يا ناس !!

---

(١) في (م) : أبا عليٍّ الدَّقَّاق ؟!.

فقيل له : يا أبا بكر ؛ ما علامة الإفلاس ؟

قال : مِن علامة الإفلاسِ الاستئناسُ بالناس . إذ لو كمل وَجْدُهم وتحقَّقوا بموجودهم لاشتغلوا عن أنفسهم فضلاً عن غيرهم ، فمِن علامات الإفلاس التلذُّذ بحديث الناس . وقولُه (من علامة الإفلاس) محذوفٌ من بعض النسخ .

المداراة والمراءاة : وقال يحيىٰ بن [أبي][م] كثير : مَن خالط الناس دَارَاهم ؛ بأن يتألَّفهم ويطيِّب نفوسهم ، ويؤثرهم على نفسه بالدنيا ، ومَن داراهم رَاءآهم ؛ بأن يدعَ لهم شيئاً من دينه متابعةً للهوى !

حذَّر بذلك من الخلطة ، لأنها تُحوِجُ إلى المداراة التي يخشىٰ منها أن يخرج العبد منها إلى المراءاة والمداهنة ، أو التشبُّع بما لم ينل من مقامات الدين . والخلوةُ تريحه من جميع ذلك .

استيحاش الوحدة : وقال شعيبُ بن حرب : دخلتُ على مالك بن مسعود بالكوفة . . وهو في داره وحدَه ؛ فقلت له : أما تستوحش وحدك ؟! . فقال : ما كنت قبل كلامك هذا أرىٰ : أظن أنَّ أحداً يستوحش مع الله تعالى !

فيه دليل على كمال معرفته بربِّه ، وكمال محبَّته له ؛ وأنسه به ، حتَّىٰ استنكر وقوع ذلك من الناس ، فعبَّر عن حاله وحكم به على غيره من الخلق !

وَكُــلُّ إِنَــاءٍ بِــالَّــذِي فِيْــهِ يَنْضَــحُ

اختيار الوحدة : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا عَمْرو الأنماطيَّ ؛ يقول : سمعتُ الجنيد ؛ يقول : مَن أرادَ أن يسلَم له دينُه ، ويستريحَ بدنُه وقلبُه ؛ فليعتزل الناس ، فإنَّ هذا زمانُ وحشة : يُستوحَش فيه من الناس ، والعاقلُ مَن اختار فيه الوحدة .

تعقيب : هذا قول الجنيد في زمنه ! فكيف تُطلب السلامةُ بغير عزلة في زماننا . . الذي لا يجتمع فيه اثنان ويفترقان غالباً . . إلا عن خسارة !! منها ما يذكره أحدُهما للآخر . . من ذكر نقصِ بعض الإخوان ؛ متوجِّعاً بذلك ، ومتألِّماً به ؛ وهو غِيبة وخِدْعة من الشيطان .

لأمثالنا : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : قال أبو يعقوب السوسي : الانفرادُ عن الناس لا يقوىٰ عليه إلاَّ الأقوياءُ في الدِّيْن ، ولأمثالنا من الضعفاء الاجتماعُ مع الناس [أوفرُ و][م] أنفع من الانفراد ؛ من حيث إنَّه إنَّما يعمل بعضهم على رؤية بعض ، لأنَّهم إذا انفردوا كَسُلوا ، وإذا اجتمعوا بغيرهم ورأوه يعمل . . حرَّكَتْهم رؤيتهم ونشَّطتْهم للعمل ، فالخلطة أنفعُ لهم ؛ بشرط سلامتهم من الرياء !!! .

وصية الشبليِّ : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا عثمان سعيد بن [أبي][م] سعيد ؛ يقول : سمعتُ أبا العبَّاس الدامغانيَّ ؛ يقول : أوصاني الشبليُّ ؛ وقال : اِلزم الوحدة ، وأمحُ اسمك عن القوم ؛ بحيث ينساك مَن كان يخالطك ، واستقبل الجدارَ : القبلة باشتغالك بالله وبكثرة سهرك حتَّىٰ ـ : إلى أن ـ تموت .

من أين لك ؟! : حُكي أنَّ رجلاً سمع كلام الجنيد الذي يبدو على لسانه من مواهب الحقِّ تعالىٰ ؛ فقال له : من أين لك هذا ؟! فقال : مِنْ جلوسي تلك الأسطوانة كذا كذا سنةً .

استئناس الوحدة : وجاء رجل إلى شعيب بن حرب ؛ فقال له : ما جاء بك ؟ فقال : أكونُ معك .

قال : يا أخي ؛ إنَّ العبادة لا تكون بالشَّركة ؛ لأنَّها إنَّما تكون بالإخلاص لله وحده . . لا شريك له ، ومَن لم يستأنس بالله . . لم يستأنس بشيء يعبد به !!

ولَمَّا كان العبد قد يفتقر في عبادته ـ لكونه ضعيفاً ـ إلى رؤية غيره ومساعدته فيها . . وكان شعيبٌ قويّاً . . أراد أن ينقل هذا الرجل إلى مقام القوَّة ليشتغل بالله وحده ، ولا يفتقرَ في عبادته إلى رؤية غيره ومساعدتِه فيها .

صاحب الخضر : حُكي أنَّ بعضَهم قيل له : ما أعجبُ[1] ما لقيتَ في سياحتك ؟!

فقال لهم : لقيني الخَضِر ؛ فطلب منِّي الصحبة : فخشيتُ أن يُفسِد عليَّ توكُّلي ، لأنَّ الخضر إمَّا وليٌّ . . أو نبيٌّ !! على الخلاف فيه ، ومن صَحِب مَن

---

(١) في (م) : أعذب . وهذا البعض هو الخواص كما سيأتي ص ٥٢٨ .

هذه صفتُه . . سكن قلبه إليه ، وعلم أنَّه لا يعجزه شيء مما هو محتاج إليه . وهذا اعتمادٌ على غير الله !! وهو قوي على مقام التوكُّل العالي ، فخشي أن يَفسد عليه حالُه بسكونه إلى مَن علت عند ربِّه منزلتُه .

وبذلك عُلِم أنَّ كراهة الخُلطة للعبد . . إمَّا لخوف ضَرر عليه ؛ أو على غيره .

يأنس بمصحفه : وقيل لبعضهم : ها هنا أحدٌ تستأنس أنت به ؟!!

فقال : نعم . . ومدَّ يده إلى مُصحَفه ووضَعه في حِجْره ؛ فقال : هذا ؛ أستأنس به .

وفي معناه أنشدوا[1] :

وَكُتْبُكَ يا ربِّي حَوْلي لاَتُفَارِقُ مَضْجَعِي   وَفِيْهَـا شِفَـاءٌ لِلَّـذي أَنَـا كَـاتِـمُ

وذلك لأنَّ مَن فهم كتاب الله وتفكَّر فيه . . عظمت في قلبه معرفتُه تعالى ، وغلب عليه جلالُه وعظمته ، فكان له كتابه أحسنَ جليس ؛ وأعظم أنيس .

عزلة وقال رجلٌ لذي النون المصري : متى تصحُّ لي العزلة !؟ قال : إذا قَوِيتَ علىٰ عزلة نفسك . وعزلتها بمفارقة أخلاقها الذميمة واتِّصافها بالحميدة ، فمتى فارق العبد الملذوذات وتحمَّل لمولاه المشقَّات في الطاعات . . فقد بَعُدت عنه الآفات ، وخفَّت عليه العزلة ومفارقة المشتهيات .

دواء القلب : وقيل لابن المبارك : ما دواءُ القلب ؟

فقال : قلَّة الملاقاةِ للناس ، لأنَّ الأخوين في الله إذا تلاقيا بَعُدت سلامتهما مع كمال جِدِّهما في الخير ؛ وشدّة حذرهما من الشرِّ . . فكيف ممن سواهما !!

وقيل لبعض الصالحين : إنَّ فلاناً يحبُّك ويكثر ذكرك ! قال : إنَّه لحبيب لي ؛ وأعرفُ قدره ، لكن يهون عليَّ أن ألقىٰ الشيطان مئة مرّة . . ولا ألقاه مرّة واحدة . فقيل له : كيف ذلك ؟ فقال : أخشىٰ أن أتزيَّن له ويتزيَّن لي . أي :

---

(١) وَكُتْبُكَ حَوْلِي لاَ تُفَارِقُ مَضْجَعي   وَفِيْها شِفَـاءٌ لِلَّـذِي أَنَـا كَـاتِـمُ

والبيت من البحر الطويل .

لأنَّ الشيطان عرفتُ عداوته فيشتدُّ حذري منه ؛ والأخ الصالحُ . . النفسُ مطمئنَّة ساكنة له .

العبد المنتقل : وقيل : **إذا أراد الله أن ينقل العبدَ من ذُلِّ المعصية إلى عزِّ الطاعة آنَسه بالوحدة ؛ وأغناه بالقناعة ؛ وبَصَّره بعيوب نفسه ، فمن أُعطي ذلك . . فقد أعطيَ خيرَ الدنيا والآخرة** ، لأنَّ الوحدة تُسلِمُه من آفات الخلطة ، والقناعةُ تريحه من أسباب الكثرة ، ورؤيته لعيوب نفسه تعينُه على الانتقال عن الأخلاق الذميمة إلى الأخلاق الحميدة . والله أعلم .

* * *

٤ ـ باب التقوى

معناها : هي اسم جامع للحذر من جميع ما أمر الله أن يُحذَر منه ؛ كما يُؤخَذ مما يأتي ، فتارة يحذر العبد تضييع الواجبات ؛ أو المندوبات . . فيتَّقيه ، وتارة يحذر ارتكاب المحرَّمات ؛ أو المكروهات . . فيتقيه ، وتارة يحذر فوات أعالي الدرجات . . فيتقيه ؛ بأن لا يشتغل بأدونها .

فضيلتها : واتفقت الأُمَّة على فضيلة التقوى وطلبها . **قال الله تعالىٰ** ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[١] ، وقال ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[٢] . وقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[٣] .

جماع الخير : وأخبرنا أبو الحسن عليُّ بن أحمدَ بنِ عبدان ؛ **قال** : **أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ؛ قال : أخبرنا محمد بن الفضل بن جابر ؛ قال : حدَّثنا ابن عبد الأعلى القرشي ؛**

---

(١) الآية : ١٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحجرات .
(٢) الآية : ١٣١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .
(٣) الآية : ٧٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

قال : حدَّثنا يعقوب العمي ؛ عن ليث ؛ عن مجاهد ؛ عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه ؛ قال :

جاء رجل إلى النَّبيِّ ﷺ ؛ فقال : يا نبيَّ الله ؛ أوصني . فقال : « عَلَيْكَ بِتَقْوَىٰ ٱللهِ ؛ فإِنَّهُ جِمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ[1] **ـ**: جميعه **ـ وَعَلَيْكَ بِٱلْجِهَادِ ؛ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ ٱلْمُسْلِمِ ـ** : شعاره وانقطاعه للعبادة **ـ وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ ٱللهِ ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ »**[2] يهديك إلى الصراط المستقيم .

آل محمَّد ﷺ : وأخبرنا عليُّ بن أحمد بن عبدان ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد ؛ قال : أخبرنا عبَّاس بن المفضَّل الإسقاطي ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن يونس ؛ قال : حدَّثنا أبو هرمز نافعُ بن هرمز ؛ قال : سمعتُ أنساً رضي الله عنه ؛ يقول : **« قيل : يا نبي الله ؛** ـ وفي نسخة : يا محمد ـ **مَن آلُ مُحَمَّدٍ ؟ قال : « كُلُّ تَقيٍّ »**[3] من أتباعه . وهذا ممَّا ٱختاره الأزهريُّ وغيره من المحققين . وقيل : آله عترتُه . والأَصحُّ عند الشافعيِّ وجمهورِ الأصحاب أَنَّهم مؤمنو بني هاشم وبني المطَّلب .

جِماعُ الخيرات : وبالجملة التَّقوىٰ جماع الخيرات كلِّها ، **وحقيقة التقوى : التحرُّز بطاعة الله سبحانه عن عقوبته ؛ يقال (اتَّقىٰ فلاناً بترسه)** : تحرَّز به عمَّا يضرُّه من عدوّه .

مراتب التقوىٰ : **وأصل التقوى : ١ـ اتقاءُ الشرك** بالله . **ثمَّ بعده : ٢ـ اتقاءُ المعاصي**

---

(١) صدق رسول الله ﷺ ، فقد ذكر العروسي : ٢/ ١٤٤ ، ١٤٥ ؛ نقلاً عن اليافعي في « نشر المحاسن الغالية » ما ملخَّصه : أنه تبارك وتعالىٰ أكرم المتقين بكرامات : ١ ـ العلم ، و٢ ـ العاقبة الحميدة ، و٣ ـ الفرقان بنور القلب ، و٤ ـ محبة الله ، و٥ ـ نصرة الله ، و٦ ـ حسن الدنيا وخيرية الآخرة ، و٧ ـ النجاة ، و٨ ـ الركوب من القبور إلىٰ القصور ، و٩ ـ عموم الكرامة ، و١٠ ـ القبول ، و١١ ـ الوقاية من العذاب ، و١٢ ـ جوار الحقِّ تعالىٰ ، و١٣ ـ حسن المخرج والرزق ، و١٤ ـ تيسير الأمور في الدارين والخلاص من شدائدها ، و١٥ ـ تكفير السيئآت ، و١٦ ـ تعظيم الأجور ، و١٧ ـ وراثة الجنة ، و١٨ ـ الفوز والنجاة من النار ، و١٩ ـ كتابة الرحمة ، و٢٠ ـ صلاح الأعمال وزكاءها . وقد ذكر لكلٍّ منها آياتها التي أخذت منها فارجع إليها .

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في « مسنده » : ١٠٠٠ ، والطبراني في « الصغير » : ٢/ ٦٦ ؛ عن أبي سعيد الخدري وبزيادة : « وَٱخْزُنْ لِسَانَكَ إِلاَّ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّكَ بِذَلِكَ تَغْلِبُ ٱلشَّيْطَانَ » .

(٣) أخرجه الطبراني في « الأوسط » : « آلُ مُحَمَّدٍ كُلُّ تَقِيٍّ » .

والسيِّئات غير الشرك ، ثمَّ بعده ؛ ٣ـ اتقاء الشبهات ؛ ثمَّ : ٤ـ يَدَع : يترك بعده الفضلات ؛ كخلاف الأولىٰ . وقد نزَّل بعضُهم قولَه تعالىٰ ﴿ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ﴾[1] على هذه المراتب دفعاً للتكرار .

كذلك سمَعتَ الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول ـ أي : هكذا يقول ـ سمعته ؛ يقول ذلك : ولكلٍّ قسم من ذلك باب يذكر فيه .

حقُّ التقوىٰ : وجاء في تفسير قوله عزَّ وجلَّ ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾[2] أنَّ معناه أن يطاع الله . . فلا يعصى ؛ ويذكَرَ . . فلا يُنسى ، ويُشكر . . فلا يُكفَر . وهذا أعلى درجات التقوى ، إذ حقُّ التقوىٰ أن يتَّقيَ العبد الغَفَلات عن ذكر ربِّه ومكرِه .

وهذا عزيزٌ ربَّما يُعجَز عنه ! ولهذا لمَّا سمع الصحابة رضي الله عنهم ذلك خافوا العجز عن القيام به ؛ فأنزل الله تخفيفاً عليهم ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[3] .

مطامح : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أحمد بن عليٍّ بن جعفر ؛ يقول : سمعتُ أحمد بن عاصم ؛ يقول : سمعت سهل بن عبد الله ؛ يقول : **لا معينَ إلاَّ الله تعالى ، ولا دليلَ إلاَّ رسول الله ﷺ ، ولا زادَ إلاَّ التقوىٰ : العمل الصالح ، ولا عملَ إلاَّ الصبرُ عليه** ـ : على العمل ـ لأنَّ الله تعالى يبتلي عبده بالمرض والعافية ؛ والفقر والغنىٰ . . وغيرها . فإنْ صَبَر على المشقِّ المؤلم أثابه ، وإن شكر على النعم أثابه .

قسمة الدنيا والآخرة : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت الكَتَّاني ؛ يقول : **قسمت الدنيا على البلوىٰ ، وقسمت الآخرة** ـ وفي نسخة : الجنة ـ **على التقوىٰ** ، لقوله تعالىٰ ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[4] ولخبر : « إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ »[5] .

---

(١) الآية : ٩٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المائدة .
(٢) الآية : ١٠٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .
(٣) الآية : ١٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التغابن .
(٤) الآية : ١٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الطور .
(٥) أخرجه مسلم : ٥٥ ـ ٢٥٧٧ ، والترمذي : ٢٤٩٥ ، وابن ماجه : ٤٢٥٧ ؛ من حديث قدسي طويل «﴿ يا عبادي إني حرمت الظلم ﴾» . . عن أبي ذرٍّ الغفاريِّ رضي الله عنه . . =

وسيلة الكشف : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت الجُرَيري ؛ يقول : مَن لم يُحكِم بينه وبين الله عزَّ وجلَّ التقوىٰ والمراقبة ؛ بأن يأتي بالمأمورات وينكفَّ عن المنهيَّات على وجهها . . لم يصل إلى الكشف والمشاهدة . والمراد بها غلبةُ حال الحقِّ على القلب حتَّىٰ لا يلتفت إلى غيره . وتقدم تحقيقهما ص ٣٠١ .

مرادها : وقال النصراباذي : التقوىٰ أن يتَّقيَ العبدُ ما سوىٰ الله تعالىٰ ممَّا يشغله عنه .

صحَّة التقوى : وقال سهل : مَن أراد أن يُفتحَ له بابُ التقوى[1] فليترك الذنوب كلَّها ؛ بأن يجتهدَ في أن لا يقع في شيءٍ منها .

اشتياق للآخرة : وقال النصراباذي : مَن لزم التقوىٰ اشتاقَ إلى مفارقة الدنيا ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ ﴾[2]

هوان الدنيا : وقال بعضهم : من تحقَّق ودخل في التقوىٰ هوَّن الله علىٰ قلبه الإعراض عن الدنيا . وذلك لأنَّ النفس مائلة إلى كلِّ لذيذ ، فإذا تقابل عندها لذيذان مالت إلى ألذِّهما ، والحامل على الطاعات رجاءُ الخلود في الجنان ؛ ورضا الملك الديَّان ، فإذا عمَّر العبد بها أوقاتَه حتَّىٰ رزقه الله فيها اللذَّة وتنعَّم بالمناجاة . . زهَّده في الدنيا ، واشتاق إلى شغله بالآخرة .

وسيلتها : وقال أبو عبد الله الرُّوذَباريُّ : التقوى مجانبةُ ما يبعدك عن الله تعالى ؛ من ترك الواجبات وارتكاب المحرَّماتِ ؛ خوفاً من العقاب . . أو فواتِ درجات الأحباب .

مَن التقيُّ ؟ : وقال ذو النون المصريُّ : التقيُّ من لا يُدَنِّس ظاهرَه بالمعارضات : بالاعتراضات من جهة الشرع بشيء من المخالفات ، ولا باطنه بالعُلالات ؛ جمع علالة أيضاً ؛ وهي ما تعلَّلْتَ به . والمراد أنَّه يُعرِض بباطنه عن المشتهيات ، ويحسن نيَّته في التجرُّد لنيل المقامات العاليات ، ويكون واقفاً مع الله موقفَ الاتفاق منه مع الله ؛ بأن يكون راضياً بما يجريه الله ويرضاه ،

= بلفظ «﴿ إِنَّما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيْها لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيْكُمْ إِيَّاها ﴾».

(١) في (م): أن يصحَّ له التقوىٰ.

(٢) الآية : ٣٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

فيتفَّق رضاه بما رضيَه مولاه ؛ فيصدُقُ به قوله تعالىٰ ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ﴾[1] .

ظاهر التقوىٰ وباطنه : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا الحسين الفارسيَّ ؛ يقول : سمعت ابن عطاءٍ ؛ يقول : **للتقوىٰ ظاهر** يحلُّ بظاهر البدن ، **وباطن** يحُلُّ بباطنه وهو القلب ، **فظاهره** ـ أي : ما ذكر من التقوى ـ **محافظة الحدود** : حدود الله فلا يتجاوزها ، **وباطنه النية والإخلاص** اللذان محلُّهما القلب ، والقلب أوَّل عامل من العبد ، لأنَّه محلُّ ورود الخواطر من الحقِّ ؛ ومن عدوِّه ، فإذا ثبت العبد وميَّز بين الدواعي إلى الأعمال وعرف داعيَ الحقِّ من داعي عدوّه . . قصد إيقاع عمله على وجه الإخلاص .

الرجال الحقّ : **وقال ذو النون المصريُّ رحمه الله منشداً**[2] :

وَلاَ عَيْشَ إِلاَّ مَعْ رِجَالٍ قُلُوبُهُمْ   تَحِنُّ إِلَىٰ ٱلتَّقْوىٰ وَتَرْتَاحُ لِلذِّكْرِ
سُكُونٌ إِلَىٰ رَوْحِ ٱلْيَقِيْنِ وَطِيْبِهِ   كَمَا سَكَنَ ٱلطِّفْلُ ٱلرَّضِيْعُ إِلَىٰ ٱلْحِجْرِ

ـ وفي نسخة : بالذكر ـ لأنَّ العيش الطيِّب إنَّما يكون مع حياة القلب ، وحياته بزوال الغفلة عنه ؛ ودوام اليقظة لِمَا خُلق له ، وإذا صَلُح القلب صَلُح الجسد كلُّه ، وإذا فسد فسد الجسد كلُّه ، وإن صلحا معاً ؛ ووجد القلب من يقصد مقصده . . تظافرت الهمم على نيل المطلوب ، فهؤلاء القوم إذا وجدوا . . حملوا الضعيف بقوَّتِهم ، وعاشت همَّتُه برؤيتهم ورؤية مجاهدتهم .

دلائل التقوى : **وقيل** : **يستدَلُّ على تقوىٰ الرجل بثلاث** : **١ـ بحسنِ** ـ وفي نسخة : حسنُ ـ **التوكُّل** منه **على الله تعالىٰ فيما لم ينل** من الرِّزق ، **و٢ـ حسن الرِّضا** منه **فيما قد نال** من ذلك ، **و٣ـ حسنُ الصَّبرِ** منه **علىٰ ما قد فات** ممَّا يحبُّه .

مجلى التقوى : **وقال طلقُ بن حبيب** : **التقوىٰ** : الواجبة بقرينة آخر كلامه . . **عملٌ بطاعة الله ؛ على نور من الله ؛ مخافةَ عقاب الله** .

كمال التقوى : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمَّداً

---

(١) الآية : ٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البينة .
(٢) من البحر الطويل ، والبيت الثاني ليس في (ح) .

الفرَّاء ؛ يحكي عن أبي جعفر : أنه قال : **التقوىٰ : كمالُها في الحلال المحضِ :** المباح الخالص لا غير ، كالخوف من العقاب ، والرجاء للثواب .

وكمال تقوىٰ العبد أن يتَّقيَ ما لا يضرُّه في دنياه ولا أخراه ، وإنَّما يخشىٰ من شغله به أن يشغل قلبه عمن يحبُّه ليكمل أدبه معه ؛ فيغيب به عمن سواه .

ربح المتقي : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت أبا الحسين الزنجاني ؛ يقول : **مَن كان رأسُ ماله التَّقوى كَلَّت الألسنُ عن وصف ربحه !!** .

أخذاً من قوله تعالىٰ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1] ، وقوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[2] ، وقوله ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3] .

التقوىٰ والمتقي : وقال الواسطيُّ رحمه الله : **التقوىٰ : أن يتَّقيَ العبد مِنْ تقواه** ـ يعني : من رؤية تقواه ـ؛ بأن يُعرِض عنها ؛ ولا يركن إليها ؛ شغلاً بمولاه . . حذراً من سكونه إلى غير مَن تولاَّه .

١ـ ابن سيرين : والمتَّقي هو مثل ابن سيرين ؛ حيث اشترىٰ أربعين حُبًّا : خابية سمناً ، فأخرج غلامُه فأرة من حُبٍّ فيها ، فسأله : من أيِّ حُبٍّ أخرجتها ؟ فقال : لا أدري . فَصبَّها كلَّها على الأرض ؛ تورعاً ، لالتباس حُبِّ الفأرة المتنجِّس بها عليه بغيره ، فكمال الورع أن يترك العبد ما لا بأس به حذراً ممَّا به بأس .

٢ـ أبو يزيد : ومثل أبي يزيد البَسطامي حيث اشترىٰ بـ« همذان » حَبَّ القُرطُم ؛ ففضل منه شيءٌ، فلما رجع إلى «بَسطام» رأىٰ فيه نملتين، فرجع إلى « همذان » فوضع النملتين[4] ؛ تورُّعاً حيث ردّهما إلى موطنهما وأُنسهما بأهليهما ، وقد قال تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[5] .

---

(١) الآيتان : ٢ و٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الطلاق .

(٢) الآية : ٢٨٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

(٣) الآية : ٢٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنفال .

(٤) وبَسطام في شمالي إيران ، وهمذان في جنوبها فبينهما ما يزين عن ثلاثين يوماً مشياً . والله أعلم .

(٥) الآية : ٣٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

٣ـ أبو حنيفة : ويحكىٰ عن أبي حنيفة أنَّه كان[1] لا يجلس في ظلِّ شجرةِ غريمه .
ويقول : قد جاء في الخبر : « كُلُّ قَرْضٍ جَرَّ نَفْعاً ؛ فهَوَ رِباً »[2] .

٤ـ غاسل الثوب : وقيل : إنَّ أبا يزيد غَسَل ثوبه في الصحراء مع صاحب له ؛ فقال له صاحبه : تعلِّقُ الثوب في جدارِ الكرم . فقال : لا تغرز الوتِدِ في جدران الناس بغير إذنهم . فقال : نُعلِّقُه في الشجر . فقال : لا ؛ إنَّه يكسر الأغصان ؛ لثقلها بالميل . فقال : نبسطه على الإِذخِرة[3] . فقال : لا ؛ إنَّه عَلَف الدوابِّ ؛ لا نستره عنها .

فولَّىٰ ظهره إلى الشمس ؛ والقميص : الثوب على ظهره ، حتَّى جفَّ جانب منه ، ثم قَلَبه على الوجه الآخر حتَّىٰ جفَّ الجانب الآخر .

فيه تنبيه على التورُّع والاحتراز عن مثل ذلك .

٥ـ يستحلُّ من انحناء : وقيل : إنَّ أبا يزيد أيضاً دخل يوماً الجامع ؛ فغرز عصاه في الأرض ، وكانت رملاً أو تراباً يمكن غرز العصا فيها ، وكانت الشيوخ يغرِزون فيها عصيَّهم ، ليسهل عليهم أخذها وقت القيام والمشي عليها ، فَسقطت عصاه ؛ ووقعتْ على عصَا شيخٍ بجنبه رَكَز عصاه في الأرض فألقتها . فانحنىٰ الشيخُ بعد قيامه ؛ وأخذ عصاه ، فمضىٰ أبو يزيد إلى بيت الشيخ واستَحَلَّه ؛ وقال : كان السببَ في انحنائك تفريطي في غرزِ ـ وفي نسخة : كان بسبب ـ عصايَ ؛ حيث احتجتَ به إلىٰ أن تَنْحَنِيَ . وإنَّما لم يستحلَّه في الحال ! أما لخوفه من شهرةِ نفسه بكمال هذا الورع ، أو ليحمِّل نفسه بمشيه إلى منزل الشيخ بعض التعب ؛ للأدب أو لكمال الأجر !

٦ـ عتبة الغلام : ورُئِيَ عتبةُ الغلام بمكان وبدنه يتصبَّب عَرَقا في الشتاء ؛ بحيث غشي عليه ، فقيل له في ذلك !! . فقال : إنَّه مكانٌ عَصَيْتُ فيه ربي !! فسئل عنه ، ـ أي: عن عصيانه فيه ـ فقال : كَشَطْتُ من هذا الجدار قطعةَ طين ، غَسَل

---

(١) عبارة (ط) : ويحكىٰ أن أبا حنيفة كان . .
(٢) أخرجه الحارث بن أبي أسامة؛ عن عليٍّ كرَّم الله وجهه كما في «المطالب العالية»: ١٣٧٣ .
(٣) نبت طويل الساق غير مملوك لأحد ، والتورع فيه كيلا تتركه البهائم إذا تكسَّر .

بها ضيفٌ لي يَده ؛ ولم أستَحِلَّ من صاحبه !! خشي على نفسه من ذلك مع أنَّ مثله يُتَسامح فيه !

٧ـ إبراهيم بن أدهم : وقال إبراهيم بن أدهم : بِتُّ ليلةً تحت الصخرة ببيت المقدس ؛ فلما كان بعضُ الليل نزل ملكان ، فقال أحدهما لصاحبه : مَن ها هنا ؟ فقال الآخر : إبراهيمُ بن أدهم ، فقال : ذاك الذي حطَّ اللهُ سبحانه درجةً من درجاته .

فقال : لِمَ ؟ قال له : لأنَّه اشترىٰ بالبصرة تمراً ؛ من رجل بقَّال . . فوقعت تمرة على تمره من تَمْر البقَّال ؛ فلم يردَّها على صاحبها .

رُدَّت درجته : قال إبراهيم بن أدهم : فمضيتُ إلى البصرة ، واشتريتُ التَّمر ـ أي : تمراً ـ من ذلك البقال ـ وفي نسخة : الرجل ـ ، وأوقعتُ تمرةً منه على تمرِهِ الذي باعني منه ، ورجعتُ إلى بيت المقدس ، وبتُّ في الصخرة ، فما كان بعضُ الليل ؛ إذا أنا بالمَلَكين ـ وفي نسخة : بملكين ـ نزلا من السماء . فقال أحدهما لصاحبه : مَنْ هاهنا ؟ فقال الآخر : إبراهيمُ بن أدهم . فقال : ذلك الذي ردَّ الله مكانَه ورُفعت درجته .

نبَّهه بذلك على إبراء ذِمَّته مما ذكر . . وهو لا يشعر ! فهو زيادة كرامة .

وكلُّ ما ذكر غاية في الورع والتقوى .

وجوه التقوى : وقيل : التقوىٰ على وجوه متفاوتة ، لأن أهلها مسلمون وصالحون ، وأولياء وأنبياء ، ولكلٍّ منهم تقوىٰ . . إذ ١ـ للعامَّة تقوىٰ الشِّرك ؛ لأنَّهم تابوا عنه ، و٢ـ للخواصِّ : بالنسبة للعامَّة ؛ وهم الصالحون تقوىٰ المعاصي غيرِ الشرك ، لأنَّهم تابوا عنها ، و٣ـ للأولياء تقوىٰ التوسُّل بالأفعال التي هي الوسائل إلى أعلىٰ الدرجات ، و٤ـ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام تقوىٰ نسبة الأفعال لأنفسهم ، إذ تقواهم ناشئة منه تعالى راجعة إليه . أي : إلى تفضُّله بأن يروا أنَّه المتفضِّل عليهم بالوسائل ، والمعين لهم على القيام بها .

سادة الناس : وعن أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ أنَّه قال : سادةُ الناس في الدنيا الأسخياءُ بأموالهم وجاههم وأنفسهم ، لأنَّهم الذين يُقصَدون

في الحوائج والمهمَّات والنوازل . وسادة الناس في الآخرة الأتقياء ، لأنَّهم الذين يشفعون في الخلق وتفزعُ الناس إليهم في الشدائد .

غض النظر : أخبرنا عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ ؛ قال : أخبرنا أبو الحسن البَصري ؛ قال : حدَّثنا[1] بشر بن موسىٰ ؛ قال : حدَّثنا محمد بن عبد الله بن المبارك ؛ عن يحيىٰ بن أيوب ؛ عن عبيد الله بن زَحْر ؛ عن عليِّ بن يزيد[2] ؛ عن القاسم ؛ عن أبي أمامة ؛

عن النَّبيِّ ﷺ ؛ قال : « مَنْ نَظَرَ إِلَىٰ مَحَاسِنِ ٱمْرَأَةٍ فَغَضَّ بَصَرَهُ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ . . أَحْدَثَ ٱللهُ تَعَالَىٰ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلاَوَتَهَا فِي قَلْبِهِ »[3] . لمبادرته إلى الكفِّ عن وقوعه في محرَّم .

مسالك النجاة : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ أبا العبَّاس محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ محمد بن عبد الله الفرغاني ؛ يقول : كان الجُنَيدُ جالساً مع رُوَيم ؛ والجُرَيري ؛ وابن عطاء ؛ فقال الجنيد :

١ـ صدق اللَّجاء : ما نجا مَن نجا إلاَّ بصدقِ اللَّجَاء : الالتجاء إلى الله ، قال الله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ . . الآية[4] .

٢ـ صدق التقوى : وقال رُوَيم رحمه الله : مانجا من نجا إلاَّ بصدق التقوىٰ ؛ ـ وفي نسخة : التقَىٰ ـ قال الله تعالىٰ ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ . . ﴾[5]

٣ـ مراعاة الوفاء : وقال الجُرَيري : ما نجا مَن نجا إلاَّ بمراعاة الوفاء بالعهود ، قال الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾[6] .

٤ـ تحقيق الحياء : وقال ابن عطاء : ما نجا مَن نجا إلاَّ بتحقيق الحياء من الله ، قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾[7] : ما صدر منه : يعلمه فيجازيَه عليه ، وهذه

---

(١) في (م) : أخبرنا .

(٢) في (م) : زيد .

(٣) أخرجه أحمد : ٥/ ٢٦٤ ، والطبراني في « الكبير » ٧٨٤٢ ؛ عن أبي أمامة رضي الله عنه .

(٤) الآية : ١١٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

(٥) الآية : ٦١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الزمر .

(٦) الآية : ٢٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الرعد .

(٧) الآية : ١٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : العلق .

الأقوال الأربعة ناظرة إلى أسباب النجاة المكتسبة من العبد ، والثاني منها ـ وهو قول رُوَيم ـ مستلزِم للبقيّة ، لأنَّ حصول مقتضاها إنَّما هو بصدق التقوىٰ المصرَّح به فيه ، وهو المناسب للباب .

٥ـ **الحكم والقضاء** : وقال الأستاذ الإمام أبو القاسم القُشيريُّ رحمه الله : ما نجا مَن نجا إلاَّ بالحكم والقضاء ، قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ . . الآية[1] .

٦ـ **سَبْق الاجتباء** : وقال أيضاً : ما نجا مَن نجا إلاَّ بما سبق له من الاجتباء ، قال الله تعالى ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] . هذا القول مُعرِض عن الأسباب ، فإن قائله إنَّما تكلَّم على ما سبق لمن نجا عند الله .

* * *

٥ ـ باب الورع

معناه : هو ترك الشبهات كما سيأتي ، وهو الورع المندوب الشائع ، وقد يطلق على ترك المحرّمات ؛ وهو الورع الواجب ، وكلٌّ منهما مطلوب .

أصله : أخبرنا أبو الحسين عبد الرحمان بن إبراهيم بن محمد بن يحيىٰ المزكِّي ؛ رحمه الله تعالىٰ ؛ قال : حدَّثنا محمد بن داود بن سليمان الزاهد ؛ قال : أخبرني محمد بن الحسين ابن قتيبة ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن أبي طاهر الخراساني ؛ قال : حدَّثنا يحيىٰ بن العيزار ؛ قال : حدَّثنا محمد بن يوسف الفِريابي ؛ عن سفيان ؛ عن الأجلح ؛ عن عبد الله بن بُرَيدة ؛ عن أبي الأسود الدُّؤلي ؛ عن أبي ذرٍّ ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « **مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ ٱلْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيْهِ** » .

---

(١) من الآية : ١٠١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنبياء .

(٢) الآية : ٨٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

رواه البخاريُّ وغيره[1] ، ورووا خبر أنَّه ﷺ وجد تمرة في منزله ؛ أو على الطريق ، فقال : « لَوْلاَ أَنْ أَخْشَىٰ أَنْ تَكُونَ مِنْ تَمْرِ ٱلصَّدَقَةِ لأَكَلْتُهَا »[2] .

معناه : أمَّا الورعُ فإنَّه ترك الشبهات ؛ خوفاً من الله تعالىٰ . .

كذلك قال إبراهيم بن أدهم : الورعُ تركُ كلِّ شبهة .

قال الإمام القشيريُّ : وتركُ ما لا يعنيك المذكورُ في الحديث السابق هو تركُ الفَضلات : الحلال ؛ وما لا تدعو إليه حاجةٌ دينية . ويقال له الزهد .

ورع الصدِّيق : وقال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه : كُنَّا ندعُ : نترك سبعين باباً من الحلال ؛ مخافة أن نقعَ في باب من الحرام ؛ لا سيَّما في المطعم ، لخبر : « كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَٱلنَّارُ أَوْلَىٰ بِهِ »[3] .

والمراد بالسبعين المبالغةُ في كثرة ترك الحلال ، ويحتمل إرادة العدد المخصوص ؛ كما قيل في قوله تعالى ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾[4] .

أعبد الناس : وقال النَّبيُّ ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه : « كُنْ وَرِعاً تَكُنْ أَعْبَدَ ٱلنَّاسِ »[5] . لما فيه من مخالفة الهوى والإعراض عن الشبهات ، وقد روىٰ البخاريُّ وغيره[6] : « ٱلحَلاَلُ بَيِّنٌ وَٱلحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ ، فَمَنْ ٱتَّقَىٰ ٱلشُّبُهَاتِ فَقَدْ ٱسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ حَامَ حَوْلَ ٱلحِمَىٰ يُوْشِكُ أَنْ يَقَعَ

---

(١) تقدم تخريجه ص ٣٦٠ .

(٢) متفق عليه عند البخاري : ٢٠٥٥ ، ومسلم : ١٦٤ ـ ١٠٧١ ؛ عن أنس رضي الله عنه . . مرَّ النبي ﷺ بتمرة في الطريق . . .) .

(٣) أخرجه أحمد : ٣/ ٣٢١، والترمذي ٦١٤ ، والدارمي : ٢/ ٣١٨ عن جابر بن عبد الله . . . « يَا كَعْبُ بنَ عَجْرَةَ ؛ إِنَّهُ لا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلاَّ كانَتْ ٱلنَّارُ أَوْلىٰ بِهِ » .

(٤) الآية : ٨٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

(٥) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » : ٥٣٦٦ ، بزيادة : وَكُنْ قَنِعاً تَكُنْ أَشْكَرَ ٱلنَّاسِ . . . » . وانظر ما سيأتي ص ٥١٣ ـ ٥١٤ .
والمشهور عن أبي هريرة « اِتَّقِ ٱلمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ ٱلنَّاسِ . . . » !! أخرجه أحمد : ٢/ ٣١٠ ، والترمذي : ٢٣٠٥ ؛ وقال : غريب . وابن ماجه : ٤٢١٧ . وغيرهم .

(٦) تقدم تخريجه ص ١٣٤ ، وص ٣٤٢ .

فِيْهِ » . فتركُ الشُّبُهات على هذا أفضلُ من فعل المندوبات ، لأنَّ السلامة مقدّمة على الغنيمة .

أهل الورع : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا العبَّاس البغداديَّ ؛ يقول : سمعتُ جعفر بن محمد ؛ يقول : سمعتُ الجُنَيد ؛ يقول : سمعتُ السريَّ السَّقَطي ؛ يقول : **كانَ أهل الورعِ في أوقاتهم أربعة** :

١ـ حذيفة المرتعش ، و٢ـ يوسف بن أسباط ، و٣ـ إبراهيم بن أدهم ، و٤ـ سليمان الخوَّاص . . فنظروا في الورع ، **فلما ضاقت عليهم الأمور** ؛ بأن بالغوا في التفتيش عن الحلال ؛ فلم يقدروا على صفائه . . **فَزِعوا إلى التقلُّل** ممَّا حصل لهم من كسبهم صافياً بحسب إمكانهم ؛ زيادة عن ورعهم ، إذ لا حساب عليهم فيه ، ففي الخبر الصحيح : « لاَ حَقَّ لاِبْنِ آدَمَ إِلاَّ فِي ثَلاَثٍ . . بَيْتٍ يَسْكُنُهُ ، وَثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ ، وَجِلْفِ ٱلْخُبْزِ وَٱلْمَاءِ ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ حِسَابٌ »[1] .

ورع الشبلي : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعتُ أبا القاسم الدمشقيَّ ؛ يقول : سمعتُ الشبليَّ ؛ يقول : **الورعُ أن تتورَّع عن كلِّ ما سِوىٰ الله تعالى** . لأنَّ الورع مجانبة الشيء ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (وَرِّعُوا اللِّصَّ وَلاَ تُرَاعُوهُ) : جنِّبوه رحالكم ؛ ولا ترصُدُوه حتَّىٰ يقع . ومنه قول العرب (ورِّع الإبل) : جنِّبها أكل ما يضرُّها .

شدَّة الورع : وسمعته أيضاً ؛ يقول : أخبرنا أبو جعفر الرازيُّ ؛ قال : حدَّثنا العبَّاس بن حمزة ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن أبي الحواريِّ ؛ قال : حدَّثنا إسحاق بن خلف ؛ قال : **الورعُ في المنطق الذي أهلَك أكثرِ الناس** ؛ وحذَّر منه النبيُّون والصدِّيقون **أشدُّ** وأكمل منه ـ أي : من الورع ـ **في الذهب والفضة** ، لأنَّ مَن قوي على الأقوى . . كان على الأضعف أقوىٰ ، **والزهد في الرياسة** التي قيل فيها (آخر

---

(١) أخرجه أحمد : ١/ ٦٢ ، والترمذي : ٢٣٤١ ؛ وقال : حسن صحيح ، والحاكم : ٤/ ٣١٢ وصححه بموافقة الذهبي . عن عثمان رضي الله عنه .
والجِلْف : الغليظ القاسي من الخبز .

ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حبُّ الرِّياسة) التي منها ٱلتفات العبد إلى أعماله وحسن هيئته ، وامتيازه بمقامه الشريف عن غيره أشدُّ وأكمل منه ـ أي : من الزهد ـ في الذهب والفضة ، لأنَّك تبذلُهما في طلب الرئاسة وتحصِّلُها بهما .

الورع والقناعة : وقال أبو سليمان الداراني : الورعُ أوَّل الزهد ، لأنَّه ترك الشبهات ، والزهد ترك الحلال الخالص ، ومَن عجز عن الأوّل فعجزه عن الثاني أولىٰ ، كما أنَّ القناعةَ طرفٌ من الرضا ؛ من حيث إنَّ القانع يقنع بما فتح الله به عليه من الخير ، والراضي يرضىٰ بجميع ما يجريه الحقُّ عليه . . سواء وافَقَ هواه أو خالفه ؛ إذا كان فيه رضا الله .

ثواب الورع : وقال أبو عثمان : ثوابُ الورع عند الله وفوائده عظيمة ؛ وأقلُّها خِفَّة الحساب في الآخرة . لأنَّ صاحبَه يحاسب نفسه في الدنيا ؛ كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا ، وَزِنُوا أَنْفَسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا)[1] .

سياج الورع : وقال يحيىٰ بن معاذ : الورعُ الوقوف على حدِّ العلم : على ما يشهد به العلم الشرعيُّ ؛ من أنَّه لا شبهة فيه من غير تأويل . فمن تأوّل ؛ فقال (لم يثبت أنَّ هذا حرام فأترُكَه) ! فليس متورِّعاً ، ففرق بين مَن يقول (لا أقدِمُ على شبهة ، وإنَّما أقدِمُ على ما ثبت حلُّه) ، ومَن يقول (أقدِمُ على ما لم يثبت تحريمه) .

أنموذج الورع : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ الحسين بن أحمد بن جعفر ؛ يقول : سمعتُ محمد بن داود الدَّيْنَوَري ؛ يقول : سمعت عبد الله ابن الجلاَّء ؛ يقول :

أعرفُ مَن أقام بمكَّة ثلاثين سنة لم يشرب من ماء زمزم ؛ مع كثرة ميل الناس إلى تحصيل بركته . . إلاَّ ما استقاه بركوته ، ورِشائه : حبله !! لعلمه بالوجه الذي اتخذ منهما ، بخلاف رِكوة غيره ورِشائه اللذين يؤتىٰ بهما غالباً من أموال السلاطين ، ولم يتناول شيئاً من طعامٍ جُلب من مصرٍ . بل كان يصبر

---

(١) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » : ص١٠٣ ، وأحمد في « الزهد » برقم : ١٤٩ بأزيد مما هٰهنا . وعزاه في « كنز العمال » : ٤٤٢٠٣ لغيرهما أيضاً .

عنه إلى أن يجد ما يحصِّلُه بكسبه ، لأنَّ ما يكسبه أبعدَ عن الوقوع في الشبهات .

عليه اسم الله : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت عليَّ بن موسى التاهرتي ؛ يقول : وقع من عبد الله بن مروان فَلْس في بئر قذِرة : مكروهة ، فٱكترىٰ عليه بثلاثة عشر ديناراً حتَّىٰ أخرجه منها .

فقيل له في ذلك !! فقال : كان عليه اسمُ الله تعالى .

فيه تنبيه على كمال تعظيمه لربِّه حتَّىٰ عظَّم ما عليه اسمُه .

ومن ذلك ما حُكِيَ أنَّ بشر بن الحارث إنَّما رفعه الله على أقرانه . . لكونه وجد رقعة فيها اسم الله ؛ فاشترىٰ طيباً وطيَّبها ورفعها في موضع ، فرآى في منامه أنَّه قيل له ﴿ لأطيِّبن اسمك في الدنيا والآخرة ﴾ .

أوجه الورع : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا الحسن الفارسيَّ ؛ يقول : سمعتُ ابن عُلَّوَيْه ؛ يقول : سمعت يحيىٰ بن معاذ ؛ يقول : الورع على وجهين :

١ـ ورعٌ في الظاهر ؛ وهو : أن لا يتحرَّك إلاَّ لله تعالى ،

و٢ـ ورع في الباطن ؛ وهو : أن لا يدخل قلبَك سوىٰ الله تعالى .

فالجمع بينهما بأن يتورّع عن غير الله . . عقداً وفعلاً ؛ من أعلى مقامات الورع .

ثمرة الورع : وقال يحيىٰ بن معاذ : مَن لم ينظر في الدَّقيق من الورع . . لم يصل إلى الجليل من العطاء . لأنَّ العبد . . إنَّما يشرُف عند مولاه بعلوّ همَّته في طلبه لما يرضاه ، فمن دقَّ نظرُه فيما يخشاه . . نال من فضل الله أشرف عطاياه ، ومن لا فلا .

دقَّة النظر : وقيل : مَن دَقَّ في الدِّيْن نَظَرُه جَلَّ : عَظُم في القيامة خطره : قَدْره ومنزلته .

التسامح بالحذر : وقال ابن الجلاَّء : مَن لم يصحبه التُّقىٰ في فقره وسلوكه . . أكل الحرام النَّصَّ . لأنَّ التقوى هي الحذرُ ممَّا حذَّر الله منه ، فإذا لم يكن عند العبد

حذر من ذلك ؛ وأقدم على كلِّ ما تهواه نفسه . . أكل الحرام الصِّرف .

دقة المحاسبة : **وقال يونس بن عبيد** : **الورع** : **الخروجُ عن كلِّ شبهة ، ومحاسبةُ النفس في كلِّ طرفة ولحظة** . فالورع يكون في خواطر القلوب ؛ وفي سائر أفعال الجوارح . . عباداتٍ كانت ؛ أو عاداتٍ .

ميزان الورع : **وقال سفيان الثوريُّ** : **ما رأيت أسهلَ من الورع** : على من كَمُل زهده في الحلال ، لأنَّه إذا كمل إعراضه عن الحلال . . فهو على المشكل أشدُّ إعراضاً ؛ وأخفُّ تحمُّلاً **ما حاك** : **تحرك في نفسك تركتَه** . يعني : والورع تركُك ما حاك في نفسك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس .

ورع اللسان : **وقال معروفٌ الكرخيُّ** : **احفظ لسانَك من المدح كما تحفظه من الذَّمِّ** . فالورع يجري في المدح كما يجري في الذَّمِّ ، وفي الحديث في الفضول ، لأنَّ العبد قد يمدح غيره ، فإن مَدَحه بضدِّ ما يعتقده كان كاذباً ، أو بما يعتقد . . فقد يدخل الممدوح في ضرر ، ويقطع ظهره لوقوعه في كِبْر أو عُجْب أو غيرهما مما يرتبط برؤية النفس ورفعتها ، وقد جاء في الخبر : « كَفَىٰ بِٱلْمَرْءِ إِثْمَاً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ »[1] . فَليحفَظْ لسانَهُ عن نقل أخبار الناس ، خوفاً من الوقوع في الكذب .

أشدُّ الأعمال : **وقال بشر بن الحارث** : **أشدُّ الأعمال** : أشقُّها على النفوس **ثلاثة** : أحدها ١ـ **الجودُ في القلَّة** والحاجة ، لأنَّ الحامل عليه حينئذ كمال الإيثار والإعراض عن النفس وحظِّها ، و٢ـ ثانيها : **الورع في الخلوة** عن الناس ، لأنَّ العبد قد يتورّع عن الشيء ، إذا كان مع الناس لكونه مرائياً ؛ أو يجد معيناً ، فإنَّ العبد قد يعمل برؤية غيره وينشط بنشاطه ، بخلاف من يتورّع وحده بحيث لا يراه أحد ، فإنَّ ذلك . . إنَّما هو لكمال إخلاصه وخوفه ، **و٣ـ** ثالثها **كلمة الحقِّ عند** مَن **يخاف منه ويرجىٰ** فيها السلامة منه ، لما فيه من كمال التغرير بالنفس وتعريضها للإهانة .

---

(١) أخرجه مسلم : ٥ ـ ٥ بلفظ « كَذِباً » ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وعنه بلفظ « إثماً » وأبو داوود : ٤٩٩٢ ، والحاكم : ١/ ١١٢ .

أخت بشر : **وقيل : جاءت أخت بشر الحافي إلى أحمد ابن حنبل** . . وكانت لا تحبُّ أن تتصرف في شيء من أموال الولاة ؛ **وقالت له : إنّا نغزل على سطوحنا ، فتمرُّ بنا مشاعل الولاة الظاهرية**[1] ، **ويقع الشعاعُ** : شعاعُها علينا ، فيزداد النورية عندنا زيادةً على نور السماء . . **أفيجوز لنا الغزل في شعاعها** ؟ .

فقال أحمد لها ؛ لمعرفته رفعةَ سؤالها وكمالِ حالها :: **مَن أنتِ** . . **عافاكِ الله تعالى** ؟ . **فقالت : أختُ بشر الحافي** .

فبكى أحمد ابن حنبل رحمه الله على ذهاب بشر وأمثاله من الدنيا ؛ **وقال لها : مِن بيتكم يخرج الورع الصادق !! لا تغزلي في شعاعها** .

في ذلك تنبيه على أن المفتي ينبغي له أن يراعيَ في الفتيا حال السائل ، فإن لم يعرف حاله الكامل . . أفتاه بالجائز ، وإلا فبالأفضل والأكمل ، وذلك لأنَّ غزلها في الشعاع وإن لم يكن تصرُّفاً في مال الغير ؛ كالاستظلال بجداره ، والنظر في المرآة المنصوبة . . فيه مظنَّة انتفاع به في الجملة .

هيبتهم من ورعهم : **وقال عليٌّ العطّار** : **مررت بالبصرة في بعض الشوارع** ؛ **فإذا مشايخ قعود** . . **وصبيان بجانبهم يلعبون** بما يكره ويستحيىٰ منه !! **فقلت لهم : أما تستحيون من هؤلاء المشايخ** ؟! .

فقال صبيٌّ من بينهم : هؤلاءِ المشايِخُ ؛ قلَّ ورعهم فقَلَّت هيبَتُهم . إذ لو كمُل ورعهم لنَهَونا عن ذلك ، فلمَّا لم ينهونا . . قلَّت حرمَتُهم عندنا .

في ذلك تنبيه على ما تضمَّنه الخبر الصحيح ؛ من تأديب الصبيان وأمرِهم بالصلاة . . وهم أبناء سبع سنين وضربِهم عليها وهم أبناء اثنتي عشرة سنة .

ابن دينار ورطب البصرة : **وقيل : إنَّ مالك بن دينار مكث بالبصرة أربعين سنة** ؛ **فلم يصحَّ** : **يقع له أن يأكل شيئاً من تمر البصرة ؛ ولا من رُطَبها حتَّى مات ؛ ولم يذقه** !! تورعاً ، إمَّا لشبهة يعرفها فيه ، أو لمخالفة شهوته ، أو لغير ذلك .

---

(١) الظاهرية : أعوان السلطان الذين يظهرون للحوائج العامة .

وكان إذا انقضىٰ وقت الرُّطَب . . قال : يا أهل البصرة ؛ هذا بطني ما نقص منه شيءٌ ، ولا زاد فيكم شيء .

الورع الكامل : ومن ذلك ما حُكيَ أنَّ بشر بن الحارث قال : إني لأشتهي الشِّواء منذ أربعين سنة . . ما صفا لي ثمنه ! كما مرّ مع بيانه في ترجمته ص ٩٩ ، وهذا من الورع الكامل .

يتورع عن عارية : وقيل لإبراهيم بن أدهم : ألا تشرب من ماء زمزم ؟ فقال : لو كان لي دلو لشربت منه . فلم يشرب بدلو غيره تورُّعاً ؛ وإن كان الماء في نفسه حلالاً فاضلاً .

ورع بالفطرة : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : كان الحارث المحاسبيُّ إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهةٌ . . ضرب على رأس إصبعه عِرْقٌ ، فيعلم أنَّه غيرُ حلال . كما مرَّ أيضاً في ترجمته ص ١٠٣ .

هذا من حفظ الله تعالى لأوليائه وتنبيههم على ما خفي عليهم من الأمارات ، وإن لم يؤثّر مثل ذلك في الأحكام ! لأنَّه ليس بدليل شرعي ومن ذلك ما تقرّر في الشرع أنَّ العيب يوجب الردَّ . فهذا لا يعرف إلا بدليله الشرعي ، وأمَّا أنَّه عيب ؛ أوْ لا ! فيعرف بأهل الخبرة ، ولا يلزم أن يكون المعرِّف له دليلاً شرعياً .

يفضحه بورعه : وقيل : إنَّ بشراً الحافيَ دُعيَ إلىٰ دَعوة وهي الطعام ، فوُضع بين يديه طعامٌ ، فجهد أن يمدَّ يده إليه ؛ فلم تمتدَّ ! ففعل ذلك ثلاثَ مرَّات ! ! فقال رجل يعرف ذلك منه : إنَّ يدَه لا تمتَدُّ إلى طعامٍ فيه شبهةٌ ! ما كان أغنىٰ صاحبَ هذه الدعوة أن يدعوَ هذا الشيخ ؟! . هذا مِن جنس ما قبلَه ، وكلٌّ منهما يدلُّ على أَنَّ لكلٍّ من الطعام الحلال وغيره تأثيراً في القلوب . . سواء أعرف الآكلُ ذلك . . أم لا ! فللأوَّل تنوير في القلوب ونشاط في الجوارح وغيرهما من أمارات الخير ، وللثاني عكس ذلك ، وقول القائل (إنَّ يده لا تمتدُّ . . إلخ) في هذا المحلِّ مشوش على صاحب هذه الدعوة ؛ وعلى بعض الحاضرين .

الحلال الصافي : أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيىٰ الصوفيُّ ؛ قال : سمعت عبد الله بن علي بن

يحيىٰ التميمي ؛ قال : سمعت أحمد بن محمد بن سالم بالبصرة ؛ يقول : سُئِل سهل بنُ عبد الله التُّستَري عن الحلال الصافي ؛ فقال : الحلال الصافي هو الذي لا يُعصىٰ الله تعالى فيه . بأن يُملَك بوجه شرعي لا شبهة فيه ؛ خلافاً لمن زعم أنَّه لا حلال إلاَّ ما لم تتناوله الأيدي ؛ كالحشيش النابت في الصحاري .

وقال سهل : الحلال الصافي هو الذي لا ينسى الله تعالى فيه ؛ بأن لا يحبَّه العبد محبَّة شديدة بحيث يَشغلُه عن رؤية ربِّه ومناجاته .

ملاك الدين وآفته : ودخل الحسن البِصري مكَّة ؛ فرأى غلاماً من أولاد عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظُ النَّاس ! فوقف[1] عليه الحسنُ ؛ وقال له : ما ملاك الدين ؟ ـ أي : أصله ـ فقال : الورع . فقال له : فما آفةُ الدِّين ؟ فقال : الطمع في الدنيا . فتعجَّب الحسن منه فمتى غفل العبد عن الورع الواجب والمندوب ، أو ارتكب الطمع بحيث لم يتوقَّف عن شيء يحصل له تلف دينه .

قيمةُ الورع : وقال الحسن أيضاً : مثقالُ ذرَّة من الورع السالم من الرياء والكِبْر والعُجْب خيرٌ من ألف مثقال من الصوم والصلاة . لأنَّ فيهما الغنيمة . . وفي الورعِ السلامةُ ، وهي مقدَّمة على الغنيمة . . كما مرّ .

نخبة القُرَب : وأوحىٰ الله سبحانه إلى موسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿ لَمْ ـ وفي نسخة : لا ـ يَتَقَرَّبْ إِلَيَّ ٱلْمُتَقَرِّبُونَ بِمِثْلِ ٱلوَرَعِ وَٱلزُّهْدِ ﴾ لذلك .

جلساء الله : وقال أبو هريرة رضي الله عنه : جلساءُ الله تعالىٰ غداً : يوم القيامة أهلُ الورع والزهد ، لأنَّهم تقرَّبوا إليه بأفضل القُرُبات ؛ وهو بغض ما أبغضه الله . . وكراهةُ ما كَرهه علىٰ ما دلّت عليه الأدلَّة ، لخبر : « لَوْ كَانَتِ ٱلدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ ٱللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ . . مَا سَقَىٰ كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ »[2] .

فاقد الورع : التُّستَري : اشتدَّت رغبته في الدنيا ؛ وفي أكله ما يطيب . وما لا يطيب . .

---

(1) في (م) : فوثب .

(2) تقدم تخريجه عن الترمذي وابن ماجه وغيرهما ص ٣٥٣ .

أكمل الورع : وقيل حُمِل إلى عمرَ بنِ عبد العزيز رضي الله عنه مِسكٌ من الغنائم ؛ فقبض على مَشَامِّه[1] ؛ وقال : إنَّما ينتفع مِن هذا بريحه ، وأنا أكره أن أجد ريحَه ؛ دون المسلمين . هذا من أكمل الورع .

ورع خليفة : وحُكي أنَّه أمر من يقسمه أن يبعد عنه ؛ لئلا يجدَ رائحته حين قسمه بين الناس ؛ خوفاً من أن يتنعَّم برائحته هو ومَن حضره . . دون بقية المسلمين الذين هم شركاءُ ! وهذه عادته في الورع .

ورع حمدون : وسئل أبو عثمان الحيريُّ عن الورع ؛ فقال : كان أبو صالحٍ حمدونٌ عند صديق له ؛ وهو في النَّزع . . فمات الرجل ، فنفث أبو صالح في السِّراج ! .

فقيل له في ذلك ! فقال : إلى الآن كان الدُّهن له في المَسْرَجة ، ومن الآن صارَ الدُّهن للورثة ! أُطلبوا دهناً غيره . . فعلَهُ تَوَرُّعا . وتقدَّم ص ١٤٦ فيه كلام في ترجمته .

مأتم الذنب : وقال كَهْمَسُ : أذنبت ذنباً وها أنا أبكي عليه منذ أربعين سنة ؛ وذلك أنَّه زارني أخٌ لي ؛ فاشتريت لأجله بدانق سمكة مشويَّة ليأكلها ، فلما فرغ من أكلها . . أخذتُ قطعةَ طينٍ من دارِ[2] جارٍ لي حتَّى غَسَل بها يده ، ولم أستحِلَّه قبل أخذي لها !! فبكاؤه على أخذه مع عمله بتحريمه وتركِه الاستحلالَ قبل أخذه .

وفي ذلك دلالة على غاية احترازه من الذنوب المستحقَرة عند الناس .

سيعلم المستخفُّ : وكان رجل يكتب رقعة ؛ وهو في بيت بكراء ، فأراد أن يُترب الكتاب من جدار البيت ؛ وكان مبنيّاً بالطين أو نحوه ! فخطر بباله : بقلبه أنَّ البيت بالكِراء !! ثمَّ إنَّه خطر بباله أنَّه لا خطر لهذا القَدْر الذي لا يُتحاشىٰ عنه عادة . فترَّب الكتاب ، فسمع هاتفاً[3] يقول : سيعلم المستَخِفُّ بالتراب

---

(١) أمسك أنفه كيلا يتمتَّع برائحة من الغنيمة قبل قسمها ، لأنَّها حقَّ العامَّة .

(٢) في (م) جدار . وما ههنا أعمُّ ، إذ هو شامل لنحو حديقته مثلاً . وانظر ص٣٨٦ (عتبة الغلام) .

(٣) حكمته قبل استصغار الزلاّت ، وفي ذلك عناية الله بهذا العبد لأجل أنّه يبعده عن مثله . =

ما يلقاه غداً : يوم القيامة من طول الحساب !! في ذلك تنبيهٌ على رفعةِ منزلة هذا الرجل عند الله تعالىٰ ، لكونه نبَّه على البعد عن مثل ذلك .

يجرِّب ابنَ حنبل : ورهَن أحمدُ ابن حنبل رحمه الله تعالىٰ سطلاً له عند بقَّال بمكَّة حرسها الله تعالىٰ ، فلما أراد فَكَاكه . . أخرج البقَّالُ إليه سطلين ، وقال : خُذ أيَّهما هو لك .

فقال أحمد : أشكل عليَّ سطلي ! فهو لك ؛ والدراهم لك .

فقال البقَّال : سطلك هذا ؛ وأنا أردتُ أن أجرِّبك .

فقال أحمد : لا آخذه . ومضىٰ ، وترك السَّطل عنده . تورُّعاً وتعريفاً له بأنَّ أهل الدين والزهد لا يلتفتون لشيء من الدنيا ليتأدّب بذلك ؛ ولا يمتحن أحداً[1] .

ورع ابن المبارك : وقيل : سيَّب ابن المبارك دابَّة قيمتُها كثيرةٌ ، وصلَّىٰ صلاة الظهر ، فرتعت الدابة في زرع قرية سُلطانية : زُرعت بأموال السلطان . . وهي مشتركة بين المسلمين ! فترك ابن المبارك الدابَّة . . ولم يركبها . بأن أباحها لمن يتملَّكُها . . ووهبها لصاحب الزرع ؛ تورُّعاً لِمَا حصل لها من القوَّة بما أكلته من الزرع المذكور .

وقيل : رجع ابن المبارك من « مرو » إلى « الشام » في ـ : بسبب ـ قلمٍ استعاره ؛ فلم يردَّه على صاحبه[2] . لأنَّ العارية مضمونةٌ مؤدّاة ! فرجع ليؤدِّيَها ، وإن كان مثلُ ذلك قد يُتسامح فيه !! .

ورع النَّخَعيّ : واستأجر إبراهيم النَّخَعيُّ دابَّة ، فسقط سوطه من يده ، فنزل ، وربط الدابة ، ورجع فأخذ السوط ؛ من الموضع الذي سقط فيه ! فقيل له : لو حَوَّلْت الدابَّة إلى الموضع الذي سَقط فيه السوط ؛ فأخذته . . كان أسهلَ لك ! فقال : إنَّما استأجرتُها لأمضيَ عليها هكذا . . لا هكذا !! ـ : إلى هذه الجهة . . لا إلى هذه الجهة ! ـ

= وهكذا عباد الله المحبوبون (عروسي : ٢/ ١٦١) .

(١) يذكِّرنا شَبَه امتحان آخر مع الشيخ الذي أبعد ثيابه عن جليسه انظر ص ٣٧١ (جمعتها عنك) .

(٢) ربَّما كان ذلك أكثر من شهر ونصف سيراً .

فعل ذلك تورُّعاً ؛ وإن كان تركُه ممَّا يُستامح فيه .

وفيه ورع آخر[1] ؛ وهو أنه كان يمكنه أنْ يقف موضعه ويأمرَ غيره أن يناوله السوط . . ولا يرجع ، ولكنه تورَّع عن سؤال الناس وتسخيرهم ، كما حُكي أنَّ أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه .

ورع الصدِّيق : كان راكباً على بعير ؛ فسقط مِقود البعير من يده إلى الأرض ! فنوَّخ بعيره وأخذ مِقوده وركب عليه ، فقيل له في ذلك !! فقال : سمعت رسول ﷺ يقول « لَا تَسْأَلُوا ٱلنَّاسَ شَيْئًا »[2] .

شهرة بثلاثين سنة : وقال أبو بكر الزَّقَّاق : تهتُ في تيه بني إسرائيل خمسةَ عشرَ يوماً . . فلما وافيت الطريق : رجعت وغلب عليَّ العطش . . استقبلني جنديٌّ ؛ فسقاني شربة من ماء ، فعادت : رجعت قسوتُها على قلبي ، وتألَّمتُ بها ثلاثين سنة . لأنَّ الغالب على الجند قلَّةُ التحفُّظ فيما يأخذونه .

وتقدّمت هذه الحكاية في ترجمته ص ١٦٥ .

ورع رابعة : وقيل : خاطت رابعة العدوية شِقًّا فِي قميصها ؛ في ضوء مَشْعَلة سلطان ، ففقدت قلبَها : حضورَه زماناً حتَّىٰ تذكَّرت ! هذه القصَّة التي حصل بها قسوة قلبها ؛ فَشقَّت قميصَها . . فوجدت قلبها : حضورَه . هذا من جنس ما مرَّ ص ٣٩٦ عن المحاسبيِّ وبشرٍ . وذلك حفظ وتأديب من الله تعالىٰ لمن عَظُمَت رتبتُه .

جزاء الثَّورِيّ : ورُئي سفيان الثوري في المنام ؛ وله جناحان يطير بهما في الجنة . . من شجرة إلى شجرة !! فقيل له : بِمَ نلت هذا؟ . فقال : بالورع . . بالورع . هذا المنام ترغيبٌ في الورع ، ولهذا أكَّد طلبه بتكرير قوله (بالورع) وسائر المنامات التي تذكَرُ أمثلةٌ تدلُّ على الترغيب والترهيب لمن أراد الله به خيراً ؛ لا أدلَّةٌ شرعيَّة .

---

(١) وهو بترك ذلِّ سؤال الغير أن يناوله السوط ، وهما مما ينبغي لأرباب النفوس الغالية التخلُّق به ، إذ هو من الأخلاق المحمدية (عروسي : ٢/ ١٦٢) .

(٢) أخرجه أحمد : ١/ ١١ ، وفيه : إن حبيبي رسول الله ﷺ أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً .

أشقُّ شيء : ووقف حَسَّان بن أبي سِنَان على أصحاب الحسن البصري ، فقال لهم : أيُّ شيءٍ أشدُّ : أشقُّ عليكم ؟! فقالوا : الورع .

فقال : ولا شيءَ أخفُّ عليَّ منه !!

فقالوا : فكيف ؟! فقال : لم أَرْوَ : لم أشرب من نهركم منذ أربعين سنة . تورُّعاً لاحتمال أنَّ النهر حصل بظلم في حفره وتهيئته ! وهذا منه يدلُّ على كمال زهده ، لأنَّ مَن تعوّد الزهد خفَّ عليه الورع ، فأراد رحمه الله أن ينقل أصحاب الحسن من الورع إلى الزهد ، فدلَّهم على ذلك بفعله الذي هو أنجعُ في الوعظ من قوله ؛ وهو أنَّه لم يشرب من نهرهم المتيسِّر عليهم أربعين سنة .

حبسته إبرة : وكان حسَّان بن أبي سِنان لا ينام بالليل مضطجعاً ، بل على حالته التي هو عليها ، ولا يأكل سميناً ، ولا يشرب ماء بارداً سِتِّين سنة ، لكمال شُغْله بربِّه ! فرئي في المنام بعدَ موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ . فقال : خيراً ، إلاَّ أنِّي محبوس عن الجنة بإبرة : بسبب إبرة استعرتُها ؛ فلم أردَّها إلى صاحبها .

هذا يدلُّ على كمال ورعه مع أنَّه لم يسامَح بإبرة ، فإذا كان الحبيبُ القريب لم يسامَح في حقوق الناس . . فكيف بمَن أكثر ليله ونهاره يتمضمض بأعراض الناس في الغيبة والنميمة والسبِّ والقذفَ وغيرها من المحرمات !!؟ فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون . وهذا من جنس ما مرَّ في القلم والتمرة .

غبار الكيال : وكان لعبد الواحد بن زيد غلامٌ خدمه سنين عديدة ، وتعبَّد أربعين سنة ! وكان في ابتداءِ أمره كيَّالاً ، فلما مات رُئي في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : خيراً ؛ غير أني محبوس عن الجنَّة ، وقد أخرج : أظهر الله عليَّ من غبار القفيز الذي ٱكتلتُه أربعين قفيزاً . لأنَّ الكيَّال إذا ٱكتال ما فيه تراب . . حصل التراب في أسفل الكيل ، فإن لم ينفضْهُ في الحال وٱكتال به مرة أخرى . . تزايد التراب وحصل بواسطته في المدّة الطويلة نقصٌ كثير فيما يكال ، فحبس عن الجنة بذلك !

وروىٰ البخاريُّ خبر : « إِنَّ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ إِذَا تَخَلَّصُوا مِنَ ٱلصِّرَاطِ . . حُبِسُوا عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ ٱلجَنَّةِ وَٱلنَّارِ لِيُقْتَصَّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ ٱلجَنَّةِ فَلأَحَدُهُمْ أَعْرَفُ بِمَنْزِلِهِ فِي ٱلجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ ٱلَّذِي كَانَ فِي ٱلدُّنْيَا !! يُلْهَمُونَ ذَلِكَ »[1] .

وحمل عليه بعضُ المفسِّرين قوله تعالىٰ ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾[2]

والقفيز يقال لما يكال ؛ ولما يُكالُ به ، وهو الأصل . قال الجوهريُّ : القفيز مكيالٌ ؛ وهو ثمانية مكاكيك ، والمكُّوك مكيال ؛ وهو ثلاثة أمنان وسبعة أثمان مَنٍّ ، والمَنُّ رِطلان[3] .

عيسى والحمَّال : ومرَّ عيسىٰ ابن مريم عليهما السلام بمَقْبُرة ؛ فنادىٰ رَجُلاً منها : من أهلها ، فأحياه الله تعالى ؛ فقال : مَن أنت ؟ وكيف حالك ؟! .

فقال : كنتُ حمَّالا أنقُلُ للناس أمتعتهم ، فنقلتُ لإنسان يوماً حطبا ، فكسرت منه خِلالا . . تخلَّلتُ به ، فأنا مطالَبٌ به منذ مِتُّ . وإن كان مثلُه ممَّا يسامح فيه !! وذلك لخبر : « أَدِّ ٱلأَمَانَةَ إِلَىٰ مَنْ ٱئْتَمَنَكَ ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ »[4] .

حياء الورع : وتكلَّم أبو سعيد الخرَّاز في الورع . . فمرَّ به عبَّاس بن المهتدي ؛ فقال : يا أبا سعيد ؛ أما تستحي من الله !! تجلس تحت سقف أبي الدَّوانيق ؛ وتشرب من بِركة زبيدة ، وتتعامل مع غيرك بالدراهم المُزَيَّفة : المغشوشة . . **ومع ذلك تتكلَّم في الورع !!؟** . . هذا توبيخٌ لمن يتكلَّم في الورع . . ولم يتخلَّق بكماله ، وهو داخل في قوله تعالىٰ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) هو عند البخاري : ٢٤٤٠ ، وأحمد : ٣/ ١٣ ، وعبد بن حميد : ٩٣٥ ، والبخاري في « الأدب المفرد » : ٤٨٦ .

(٢) الآية : ٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : سيدنا محمد ﷺ .

(٣) القفيز : مكيال يقدر بـ ٣٣ ليتر ، والمكوك : ٤,١٢٥ ليتر ؛ كذا في آخر «مصابيح السنة» بتحقيق الأخ الدكتور يوسف المرعشلي وتقدم ص ١١٩ تقدير الرطل والأوقية عن النووي وابن الرفعة .

(٤) أخرجه أبو داود : ٣٥٣٥ ، والترمذي : ١٢٦٤ ؛ وقال : حسن غريب ، والدارمي : ٢/ ٢٦٤ ، والحاكم : ٢/ ٤٦ .

الورع . . ولم يتخلّق بكماله ، وهو داخل في قوله تعالىٰ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[1] ومدّع لنفسه أنَّه متخلِّق بما لم ينل ، أو مُراءٍ طالبٌ للمنزلة في قلوب الخلق .

❊ ❊ ❊

٦ ـ باب الزهد

تمهيد : هو الإعراض بالقلب عن الدنيا[2] ، وهو رأسُ كلِّ طاعة[3] ، لأنَّه ضدُّ حبِّ الدنيا الذي هو رأسُ كلِّ خطيئة[4] . ولو لم يكن فيه إلاّ أنَّه بعد به عن الدُّنيا التي هي ملعونةُ الله . . لكفىٰ به فضلاً وشرفاً .

ثمرة الزهد : أخبرنا حمزة بن يوسف السَّهمي الجرجاني ؛ قال : أخبرنا أبو الحسن عبيد الله بن أحمد بن يعقوب المقري ببغداد ؛ قال : حدَّثنا جعفر بن مجاشع ؛ قال : حدَّثنا زيد بن

---

(١) الآيتان : ٢ و٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الصف .

(٢) له اعتبارات متفاوتة ؛ فـ ١ ـ **زهد المريد** في أمتعة الدنيا والأموال ، و٢ ـ **زهد العابد** فيما يشتغل منه البال ، و٣ ـ **زهد الأكمل** في مباح الحلال ، و٤ ـ **زهد السالك** فيما يحجب عن قيام الدين ، و٥ ـ **زهد أهل الأحوال** في أحوال غيرهم من الرجال ، و٦ ـ **زهد أرباب المقامات** فيما يصدُّهم عن المشاهدات ، و٧ ـ **زهد أصحاب المعارف** فيما يعطِّلهم عن العوارف ، و٨ ـ **زهد المحققين الكبار** فيما سوىٰ الحق من الأغيار . فهؤلاء يرون الزهد عين الحجاب (عروسي : ٢/ ١٦٣) .

(٣) **اعلم** أنَّ الزهد ينقسم إلىٰ ١ ـ **واجب** ؛ وهو الزهد في الحرام ، و٢ ـ **مندوب** ؛ وهو الزهد في المكروه . و٣ ـ **أندب** ؛ وهو ترك الفضول من الحلال .
فالزاهد مَن لم يغلب الحرام صبره ؛ ولا الحلال شكره ، وهذا من ثمرات الزهد . (عروسي : ٢/ ١٦٤) .

(٤) يشير به إلىٰ قوله ﷺ فيما أخرجه البيهقي في « الشُّعب » ؛ عن الحسن **مرسلاً** : « حُبُّ ٱلدُّنۡيَا رَأۡسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ » .

سعيد ؛ عن أبي فروة ؛ عن أبي خَلاَّد ـ وكانت له صحبة بالنَّبيِّ ﷺ ـ قال :

قال النَّبيُّ ﷺ : « إِذَا رَأَيْتُمُ ٱلرَّجُلَ قَدْ أُوتِيَ زُهْداً فِي ٱلدُّنيا ، وَمَنْطِقاً فيها بالوعظ ؛ فَتَقَرَّبُوا مِنْهُ ؛ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ ـ وروي : يلقَّىٰ ـ ٱلحِكْمَةَ »[1] .

الخلاف فيه : وقد اختلف الناس في الزهد ؛ لا من حيث معناه ، بل مِن حيث حكمُه والقنع بما تيسَّر ؛ وغيرهما كما سيأتي .

فمنهم مَن قال : الزهد يكون في الحرام ؛ لأنَّ الحلالَ مباحٌ من قِبَل الله سبحانه وتعالىٰ ؛ فإذا أنعم الله علىٰ عبده بمال من حلال ، وتعبَّده بالشكر عليه ، فتركه له باختياره لا يقدَّمُ علىٰ إمساكه له بحقِّ إذنه تعالىٰ له فيه ، فلا يكون تركُه زهداً عند هذا القائل !

ومنهم مَن قال : الزهدُ في الحلال والحرام ، لكنه في الحرام واجبٌ ، وفي الحلال فضيلةٌ ؛ فإنَّ إقلالَ المال والعبد صابرٌ في ـ **بمعنىٰ على** ـ حاله ؛ راضٍ بما قسم الله تعالى له ، قانعٌ بما يعطيه . . . ـ أتمُّ مِن توسُّعه وتبسُّطه في الدنيا . . فإنَّ الله سبحانه زَهَّد الخلقَ في الدنيا بقوله ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾[2] ، وغير ذلك من الآيات الواردة في ذمِّ الدُّنيا والتزهيد فيها . كقوله تعالىٰ ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[3] وللخبر : « لَوْ كَانَتْ ٱلدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ ٱللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ »[4] . وخبر البخاريِّ[5] : « تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّيْنَارِ وَٱلدِّرْهَمِ وَٱلقَطِيْفَةِ

---

(١) أخرجه ابن ماجه : ٤١٠١ بمسند المؤلف من الحكم بن هشام . . . وفيه : « وقلَّة منطق » بدل « منطقاً » وأبو نعيم في « الحلية » ١٠ : ٤٠٥ والبيهقي في « الشعب » عن أبي خلاد وأبي هريرة ورمز السيوطي في « الجامع » : ٦٣٥ لضعفه .

(٢) الآية : ٧٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

(٣) الآية : ٣٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الزخرف .

(٤) تقدم تخريجه ص٣٥٣ ، وص ٣٩٧ .

(٥) تقدم تخريجه في المتفق عليه ص ١٣١ ، وانظر ص ٥٩١ ، ٦٠٤ ، ٦٥١ .

وَٱلْخَمِيْصَةِ ؛ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ . . وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ » ، وخبر الترمذي[1] : « مَا ٱلدُّنْيَا فِي ٱلآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبُعَهُ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا يَرْجِعُ !! » . إلى قول مَنْ قال (الفقير الصابر أفضلُ من الغني الشاكر) .

ومنهم مَن قال : إذا أنفقَ العبدُ ماله في الطاعة . . وعَلِم من حاله الصبر ، وترك التعرُّض لما نهاه الشرع عنه في حال العسر ؛ فيحنئذ يكون زهده في المال الحلالِ - وفي نسخة : في المال غير الحلال - أتمَّ منه في الحرام .

ومنهم مَن قال : ينبغي للعبد أن لا يختار تركَ الحلال بتكلُّفه ، ولا طلبَ الفضول مما - أي : من شيء - لا يحتاج إليه ، ويراعي القسمة -: قسمةَ الله له ولغيره - فإنْ رَزَقه الله مالاً من حلال شكره ، وإن وَقَفه على حدِّ الكفاف . . لم يتكلَّف في طلب ما هو فضول المال ، فالصبر أحسنُ بصاحب الفقر ، والشكرُ أليقُ بصاحب المال الحلال .

معنى الزهد : وتكلَّموا في معنى الزهد ! فكلٌّ نَطَق عن وقته ، وأشارَ إلى حدِّه ورسمه .

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : حدَّثنا أحمد بن إسماعيل الأزديُّ ؛ قال : حدَّثنا عمران بن موسىٰ الإسفنجي ؛ قال : حدَّثنا الدورقيُّ ؛ قال : حدَّثنا وكيع ؛ قال : قال سفيان الثوريُّ : الزُّهد في الدنيا قِصَرُ الأمل ؛ ليس بأكل الغليظ ، ولا بلبس العباء ونحوهما . وهذا في الحقيقة من أمارات الزهد !

الدنيا وأهله : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت سعيد بن أحمد ؛ يقول : سمعت عبَّاس بن عصام ؛ يقول : سمعت الجنيدَ ؛ يقول : سمعت السريَّ السَّقَطي ؛ يقول : إنَّ الله سبحانه سَلَب الدنيا عن أوليائه : منعهم إياها . . وإن أحبُّوها ؛ حفظاً لهم ، وحماها : أمسكها عن أصفيائه فلم يعطهم إيَّاها ؛ إكراما لهم لئلاَّ تشتغل قلوبُهم ، وأخرجها من قلوب أهلِ وِداده : حبِّه . . فلم يُخطِرها ببالهم شغلاً بمحبَّته والأنس به ، وأشار إلى التعاليل السابقة بقوله : لأنَّه لم يرضَها لهم . فالأولياء أخرجها عنهم خيراً ؛ لحفظهم وسلامتهم من شرِّها ، والأصفياء

---

(١) بل أخرجه مسلم : ٥٥ ـ ٢٨٥٨ ، وأحمد : ٤/٢٢٨ وبزيادة (أو أشارة بالسبابة) ، والحميدي : ٨٥٥ ، والترمذي : ٢٣٢٤ واللفظ له ، والنسائي في « الكبرىٰ » وابن ماجه : ٤١٠٨ ؛ عن المستورد بن شداد الفهري .

لم يجعلها لهم ؛ حفظاً لأحوالهم ، وأهل وداده لم يخطرها لهم ؛ لجمع هممهم عليه .

مأخذ الزهد : وقيل : **الزهدُ مأخوذ من قوله سبحانه وتعالى ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا ـ**: تحزنوا ـ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ﴾[1] فَرَحَ بَطَرٍ ؛ بل فرح شُكْرٍ .

فرح الزاهد : **فالزاهدُ** بإعراضه عن الدنيا وقلَّة رغبته فيها **لا يفرح بموجودٍ من الدُّنيا ، ولا يتأسَّف علىٰ مفقود منها** . . لاكتفائه بما ينفعه ، وهذا في الحقيقة من ثمرات الزهد وصفات الزاهدين .

معنى الزهد : **وقال أبو عثمان** رحمه الله : **الزاهد الذي يترك الدُّنيا . . ثم لا يبالي مَن أخذها** : لا يكترث به .

مدلول الزهد : **وسمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول** : **الزُّهد أن تترك الدنيا كما هي ، لا تقولُ (أبني بها رباطاً) ، أو** ـ وفي نسخة : ولا ـ **(أُعَمِّر بها مسجداً)** . أو نحوه ممَّا ترتاح النفس إليه . . من حب الثناء عليها به .

إجمال : وبالجملة فقد ٱتَّفقوا علىٰ أنَّ الزاهد إذا أعرض عن الدنيا لا يبالي ممن أخذها . . ولا فيما صرفها !! وإذا تركها لم يبقَ في قلبه ٱلتفاتٌ إليها .

الزهد والحب : **وقال يحيىٰ بن معاذ** : **الزُّهد يورث السخاء بالملك ، والحبُّ يورث السَّخاء بالروح** . فالزاهد لا كُلفةَ عليه في بذل الدنيا ؛ وإن جلَّت ، والمحبُّ يسهل عليه بذل روحه لله ، وشتَّان بين مَن هان عليه بذل ملكه لله . . ومَن هان عليه بذل نفسه له !

سهولة الزهد : **وقال ابن الجلاَّء** : **الزهد هو النظر** : نظرك **إلى الدُّنيا بعين الزوال** . . **لتصغر في عينك** ؛ وتعرف قَدْرها عند الله ؛ **فيسهلَ عليك الإعراضُ عنها** .

علامة الزهد : **وقال ابن خفيف** : **علامةُ الزهد وجودُ الراحة في الخروج عن الملك** . لعلمه بما يَلحق القلبَ عند وجوده من التشويش في حفظه ؛ ومن خوفه على قلبه . . من تعلُّقه به وكيف يصرفه !

---

(١) الآية : ٢٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحديد .

وقال أيضاً : **الزهد سلوُّ القلب عن الأسباب** : أسباب تحصيل الأملاك ، لما يحصل فيها من الآفات والتكليفات ، **ونفضُ الأيدي** عن ملك ما حصل **من الأملاك** . فخلاصُ الزاهد أن لا يطلبها لمحبَّتها ، وإذا حصلت . . أخرجها لقلَّة رغبته فيها .

وقيل : الزهد عزوفُ النفس : إعراضها **عن الدُّنيا بلا تكلُّف** فيه . لأنَّ قلبه امتلأ بصِغَر قدرها ؛ وما ترتَّب عليه من ضررها ، بخلاف المتزهِّد ! فإنَّه يتكلَّف الإعراض عنها . فقوله (بلا تكلُّف) إشارةٌ إلى الفرق بين الزاهد والمتزهِّد .

من الزاهد : **سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ النَّصرآباذيَّ ؛ يقول** : **الزاهدُ غريبٌ** : قليل في الدنيا ، **والعارفُ بالله تعالىٰ غريبٌ في الآخرة** . لأنَّ أكثر العمال لها . . إنَّما يعملون خوفاً من العقاب ؛ أو رجاءً للثواب ، ومَن لم يعمل إلاَّ لذلك . . ترك عمله إذا زال الخوف ؛ أو الرجاء ! بخلاف العارف بالله ؛ فإنَّه لمعرفة جلال الله تعالى وعظمته وتحقُّق وجوب عبوديَّته لِحَقِّ أمره ونهيه ؛ لا يترك العمل أصلاً . وهذا غريبٌ قليل في أبناء الآخرة .

وقيل : مَن صَدق في زهده في الدنيا أتته الدنيا راغمة : اضطراراً ، لأنَّ الزاهد لا رغبة له فيها ، وما قدَّر الله له مما لا بدّ منه يأتيه جميعاً رغماً ؛ لضمان الله له ، أو لأنَّ الله قد يمتحِن الزاهدين بها . . فيواليها عليهم ؛ كما قال ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[1] ، وإن أحسن العمل فيها الزهدُ .

ولهذا قيل : لو سقطت قلنسوة من السماء لَمَا وقعت إلاَّ علىٰ رأس مَن لا يريدها ولا يحبُّها ، فهي تقع له ابتلاء وامتحاناً ؛ ولا أَرَب[2] له فيها ، وليس هذا لكلِّ الزُّهَّاد ، بل يحفظ الله تعالىٰ بعضهم . . ولا يبتليهم بها بالكلية ؛ إمَّا لضعفهم ، أو لقوَّتهم .

---

(١) الآية : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الكهف .

(٢) مقصد أو حاجة .

من ثمرات الزهد : وقال الجُنَيد : **الزُّهد خلوُّ القلب عمَّا ـ:** عن محبة ما ـ خلت منه اليد من الدنيا . لا خلو اليد عن الملك ، أو ردُّ العبد ما يأتيه ؛ كما زعمه بعضهم !! لأنَّ ذلك من ثمرات الزهد . . لا نفسه ، إذ الزهد . . إنَّما يكون من أعمال القلوب .

علم الزهد : وقال أبو سليمان الدارنيُّ : **الصُّوف : لبسُه عَلَم من أعلام الزُّهد** ، فلا ينبغي للزاهد أن يلبسَ صوفاً بثلاثة دراهم . . وفي قلبه رَغبةُ خمسة دراهم أي : رغبةُ لبس صوف بخمسة دراهم .

تعقيب : أشار بذلك إلى أنَّ الزهد في القلب ليس بلبس الغليظ ؛ ولا بأكل الخشن ! وإن كان ذلك علامة له !! لأنَّ الزهد ضدُّ الرغبة ، وهو مِن أعمال القلوب كما مرّ ، وقد يتقلَّل في الطعام غيرُ الزاهد . . لشُحِّه على نفسه ؛ أو لجمعه المال لغرض !!

السلف والزهد : وقد اختلف السَّلفُ رضي الله عنهم في الزهد أيضاً !!

أمارات الزهد : فقال سفيان الثوريُّ ، وأحمد ابن حنبل ، وعيسىٰ بن يونس وغيرُهم : **الزهد في الدنيا إنَّما هو قِصَرُ الأمل** .

وهذا الذي قالوه يُحمَل على أنَّه من أمارات الزُّهد ؛ والأسبابِ الباعثة عليه ؛ والمعاني الموجبة له عرفاً . فإنَّ العبد إذا قَصُر أمله واستشعر سرعة موته وفارقته الدنيا . . قلَّت رغبته فيها وفترت همَّته عن تحصيلها ، وقد جاء في الخبر : « كَفَىٰ بِذِكْرِ ٱلمَوْتِ مُزَهِّدَاً »[1] .

١ـ ابن المبارك : وقال عبد الله بن المبارك : **الزُّهد هو الثِّقةُ بالله تعالى مع حبِّ الفقر** .

٢ـ البلخيُّ ابن أسباط : وبه قال شقيقٌ البلخيُّ ، ويوسفُ بن أسباط . وهذا أيضاً من أمارات الزهد ، فإنَّه لا يقوىٰ العبد على الزُّهد ، إلاَّ بالثِّقة بالله تعالى مع حبِّ الفقر .

٣ـ ابن زيد : وقال عبد الواحد بن زيد : **الزُّهد تركُ الدينار والدرهم ونحوهما** ؛

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة : ١٦٧٦ ، وأحمد في « الزهد » : ؟؟؟؟ ؛ عن الربيع بن أنس مرسلاً : «كَفىٰ بِٱلمَوْتِ مُزَهِّداً فِي ٱلدُّنْيَا، ومُرَغِّباً فِي ٱلآخِرَةِ». (الجامع الصغير : ٦٢٤٦) .

كمطعوم وملبوس بقلبه . أمَّا تركُها بجوارحه ! فمن ثمرات الزهد التي منها برودةُ القلب عن كسب الدنيا ، وعدمُ الالتفات إليها عند حصولها ، وصرفُها في جهتها . وذلك لأنَّ مَن قلَّت رغبته في الشيء . . لم يحفظه ؛ ولم يحرص عليه ، وبَذَلَهُ للمحتاج إليه .

٤ـ **الدارانيُّ** : وقال أبو سليمانَ الدارانيُّ : الزُّهد تركُ ما يشغل عن الله سبحانه وتعالى : بقلبه ، وإلاَّ . . فهو من ثمرات الزهد ! فقد يترك الإنسان ما يشغله عن الله . . لا لزهده ؛ بل لشغله بما هو أشرفُ منه .

٥ـ **الجنيد** : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أحمد بنَ عليٍّ ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن فاتكٍ ؛ يقول : سمعت الجُنَيد ؛ يقول . . وقد سأله رُوَيم عن الزهد ؛ فقال : هو استصغار الدُّنيا ، ومحوُ آثارِها ؛ محبةً وذكراً من القلب . هذا أيضاً من ثمرات الزهد .

عيش العارف والزاهد : وقال سَرِيٌّ السَّقَطي : لا يطيبُ عيش الزَّاهد إذا اشتغل عن نفسه بغيرها من شهواتها الدنيوية ، لأنَّ شُغْله بنفسه إنَّما هو بإعراضها عن محبوباتها الدنيوية ، فإذا عدل عنها إلى غيرها . . فقد اشتغل عنها ؛ وعن إعراضها عن ذلك ، فلا يكون زاهداً . ومتىٰ زهد في شيء من الدنيا وبقي عليه شيءٌ لم يزهد فيه . . لم يكمُلْ زهده ، ولذلك لَمَّا سُئل الجُنَيد رحمه الله عمَّن لم يبقَ عليه من الدنيا إلا التنعُّم بمصِّ نواة ؛ قال : « اَلْمُكَاتَبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دِرْهَمٌ »[1] . أشار به إلى أنَّ مَن بقي عليه ما ذُكر . . لم تكمُل حريَّتُه من رِقِّ الشهوات .

ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه عن مولاه . لأنَّ شغله إنَّما هو بمولاه ! فلا تطيب نفسه باشتغاله لها ؛ بل باشتغاله بمولاه عما سواه !!

٦ـ **الجنيد** : وسئل الجُنَيد رحمه الله عن الزهد ؛ فقال: خلوُّ اليد من الملك . . والقلبِ من التتبُّع . داوىٰ بذلك مَن رآه ينفق دنياه في جهات البِرِّ ثمَّ يتبعها

---

(١) تضمين واقتباس مما أخرجه أبو داود : ٣٩٢٦ وغيره ؛ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما . وسيأتي ص ٥٥٩ ، ٦٥١ .

تعالىٰ ، وما يجريه عليه ! لم يكمُل زهده ، فكمال زهده أن لا يلتفت إلى ما خرج من يده .

٧ـ الشبلي : **وسُئل الشِّبليُّ عن الزهد ؛ فقال : أن تزهد بقلبك فيما سوىٰ الله تعالى** حتَّىٰ في نفسك .

حقيقة الزهد : وقال يحيى بن معاذ : لا يبلغ أحدٌ حقيقةَ الزُّهد ـ وهي غلبةُ أحواله على القلب ـ **حتَّىٰ يكونَ فيه ثلاثُ خِصال ؛ أحدُها :**

١ـ عملٌ بلا علاقة : خالصاً لله تعالىٰ ؛ لا لعلَّة من علل الدنيا ؛ كحبِّ الحمد وخوف الذمِّ ، والطمع فيما في أيدي الناس في الدنيا ؛ وكخوف العقاب ورجاء الثواب في الآخرة ، فكمال زهده في الحظوظ العاجله والآجلة أن يكون عملُه لوجه ربِّه خاصَّة . . دون غيره . **و٢ـ ثانيها قول بلا طمع** : خالصٍ ، لا لطمع عاجل ولا آجل ، فيخلص في أقواله كما يخلص في أعماله . **و٣ـ ثالثها عزٌّ بلا رياسة** ؛ بأن يكون عزيزا عن أن يذلَّ نفسه في طلب الدنيا ، فيتعاطىٰ الأمور الخسيسة التي تزري بقَدْره ، فلا يكون عزُّه إلا بمولاه ، وربَّما أغناه به من فضله عما سواه .

وقال أبو حفص : الزُّهد لا يكون إلاَّ فِي الحلال الخالص ، **ولا حلال** خالصٌ **في الدنيا** ؛ إلاَّ نادرا ، لا سيما مع كثرة التخليط في التصرُّفات في هذه الأوقات . .

فلا زهد إلاَّ نادراً .

عطاء الله : وقال أبو عثمان رحمه الله : **إنَّ الله تعالىٰ يُعطِي الزاهد** في الدنيا **فوقَ ما يريد** منها ، لحاجته لكمال قنعه ، فأيُّ شيء آتاه منها فوق مراده ، **ويعطي الراغب** فيها **دون ما يريد** منها ، لأنه لكمال محبَّته فيما يريد منها . . يرىٰ أنَّ ما أعطيَه دون ما أراده ، **ويعطي المستقيم** : من استقامت أحواله ورضيَ بكفايته **موافقة ما يريد** . لأنَّه يقنع بأيِّ شيء أتاه ، فكان موافقاً لحاله .

الزاهد والعارف : وقال يحيىٰ بن معاذ : الزَّاهدُ . . لكون قلبه امتلأ بهوان الدنيا عند الله وكثرة آفاتها ؛ بحيث إنَّك تجدُ أكثر كلامه في بيان نقائصها . . كأنَّه **يَسْعُطُك**

يا طالبها **الخَلَّ والخَرْدل** ؛ من حيث إنَّه يؤلمك بكلامه ، ويُنكِر عليك ما أنت فيه ، ويصغِّر قدرك ، **والعارفُ** بالله . . لكون قلبه امتلأ بمعرفته به ؛ وبجماله وجلاله وتوالي إنعامه وأفضاله على خلقه ؛ بحيث إنَّك تجد أكثر كلامه في بيان ذلك . . كأنَّه **يُشِمُّك المسكَ والعنبر** ؛ من حيث إنَّه يرغِّبك في نيل المقامات ، ويشرح صدرك بذكر فضل الله ونعمه على خلقه ، فكلٌّ من الزاهد والعارف تكلَّم بما غلبَ عليه وامتلأ قلبه به ، وَكُلُّ إِنَاءٍ بِٱلَّذِي فِيْهِ يَنْضَحُ .

٨ـ الحسن البصري : وقال الحسن البصري : الزُهد في الدنيا أن تبغض أهلَها ؛ وتبغضَ ما فيها ؛ من حيث إنَّها مبغوضة لله تعالىٰ ، وإنَّها تشغلك عن مطلوبك . وهذا من ثمرات الزهد . . لا نفسه .

وقيل لبعضهم : ما الزهد في الدنيا ؟ قال : ترك ما فيها على من فيها : بقلبه ، أمَّا بجوارحه ! فهو من ثمرات الزهد . . لا نفسه ، كما مرَّ نظيرُه

٩ـ ذو النون : وقال رجلٌ لذي النون المصريِّ رحمه الله تعالىٰ **: متىٰ أزهدُ في الدنيا ؟** .

فقال : إذا زهدت في حظوظ نفسك ؛ من مطعم ومشرب ، وملبس ومنكح وجاه . . ونحوها . **لأنَّك** إذا زهدت فيها قلَّت رغبتك في الأسباب التي تحصِّلُها بها ، وإذا قلَّت رغبتك فيها زهدت في الدنيا .

إيثار الفتيان : وقال محمَّد بن الفضل : إيثارُ الزهَّاد يكون **عند الاستغناء** عما يؤثرون به ، **وإيثارُ الفتيان** يكون **عند الحاجة** لما يؤثِرون به ، **قال الله تعالى** في مدح الأنصار بإيثارهم مع حاجتهم ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1] .

والتفاوت بين الزهَّاد والفتيان أنَّ الزهَّاد إنَّما زهدوا في الفضول ، والفتيان في المحتاج إليه .

ما لا خلاف فيه : وقال الكتاني : الشيءُ الذَّي لم يخالف فيه كوفيٌّ . . ولا مدني ؛ ولا عرَاقيٌّ . . ولا شاميٌّ ١ـ الزُّهد في الدنيا ، و٢ـ سخاوة النفس ،

---

(١) الآية : ٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحشر .

و٣ـ النصيحة للخلق . يعني أنَّ هذه الأشياء لا يقول أحدٌ إنَّها غير محمودة ؛ بل محمودة ، ففضيلة الزهد قال بها سائر الأقاليم المذكورة وغيرها .

حانوت ورداء : وقال رجلٌ ليحيىٰ بن معاذ : متى أدخلُ حانوت التوكُّل ، وألبَس رداء الزهد ؛ وأقعد مع الزاهدين ؟

فقال : إذا صرتَ : وصلتَ من رياضتك لنفسك في السِّرِّ إلى حدٍّ لو قطع اللهُ عنك الرزقَ ثلاثة أيام . . لم تضعُف في نفسك . فأمَّا ما لم تبلغ هذه الدرجة ! فجلوسُك علىٰ بساط الزاهدين جهلٌ ؛ ثمَّ لا آمن عليك أن تُفتضحَ بينهم ! .

أدب الاستعداد : هذا منه تنبيهٌ على أنَّه لا ينبغي للعبد أن يقطع الأسباب ويتجرّد عنها حتَّىٰ يجدَ من نفسه قوَّة على الصبر على ألم الجوع نحوَ ثلاثة أيام ؛ ولا يجد منها الضعف عن عبادته ، وإلاَّ كان مغروراً ومعرّضاً نفسه إلى سؤال الخلق .

١٠ـ بشر الحافي : وقال بشرٌ الحافي : الزهد: كمالُه مَلَكٌ لا يسكن إلاَّ في قلب مُخَلَّىٰ : لا يتحقَّق إلاَّ في قلب انقطع طمعه عن الدنيا وتخلَّىٰ عن حبِّها . انظر ص٤٣٥ .

تناقض الحال : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ محمد بن محمد بن الأشعث البيكنديَّ ؛ يقول : مَن تكلَّم في الزهد[١] ووَعَظ النَّاس ؛ ثم رَغِب في مالهم . . رفع الله تعالىٰ حبَّ الآخرة من قلبه لأنه إذا زهَّدهم وأوهمهم أنَّه متخلِّقٌ بما أمرهم به ونهاهم عنه مع خلوٍّ قلبه عن ذلك . . كان مرائياً ؛ أو متشبِّعا بما لم ينله ! وكلاهما معصية توجب رفع حبِّ الآخرة من قلبه[٢] .

الزهد والحكمة : وقيل : إذا زهد العبد في الدنيا وَكَّل الله تعالىٰ به مَلَكا من

---

(١) وغير الزهد مثلُه ، فينبغي في كلِّ صفة أنَّ المتكلِّم بها يكون متحلِّياً بها حتَّىٰ يؤثِّر كلامه في المخاطب له ، وإلاّ فقد أشبه حالُه حالَ المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون . (عروسي : ٢/ ١٧٥) .

(٢) فضلاً عن أن الآخرة من أشدِّ ما ينتظره ، لموقف الخزي الذي يقال له فيه (يا فلان ؛ ألست الذي كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟!!) فيقول (بلىٰ كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه) . . نسأل الله الحفظ والسلامة .

ملائكته . . يغرسُ الحكمةَ فِي قلبه بفضله تعالى وعونه . لفراغ قلبه بالزهد عن المشغلات له بالحظوظ الدنيوية .

وقيل لبعضهم (لم زهدت في الدنيا ؟) . فقال : لزهدِها فيَّ .

لأنَّ العبد لا يناله من الدنيا التي لا تزن عند الله جناحَ بعوضة إلاَّ اليسيرُ ، فإذا بَعُد عنه أكثرُها ؛ ونال منها اليسيرَ . . حمله ذلك على الإعراض عن اليسير المفاد بقوله (لزهدها في) . وفيما قاله تنبيهٌ على أنّه أراد أن يبعد عن دعوى الزهد بالكلية حتَّى لا يرىٰ لنفسه مقاماً فيه .

أوجه الزهد : **وقال أحمد ابن حنبل : الزهد علىٰ ثلاثة أوجه :**

١ـ الأوَّل ترك الحرام بالقلب ؛ وهو زهد العوامِّ من المسلمين .

والثاني : **تركُ الفضول من الحلال بالقلب ؛ وهو : زهد الخواصِّ** منهم .

و٣ـ الثالث ترك ما يشغل العبد عن الله تعالىٰ بالقلب ؛ وهو زهد العارفين بالله تعالىٰ ، وهم خواصُّ الخواصِّ .

أمَّا ترك ذلك بالجوارح ! فهو من ثمرات الزهد . . لا نفسه ؛ كما مرّ نظيره[١] .

الأكثر قبل الأقلِّ : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **قيل لبعضهم (لِمَ زهدتَ في الدنيا ؟) قال : لَمَّا زهِدتُ في أكثرها أنِفتُ : استنكفتُ من الرَّغبة في أقلِّها** . كما مرّ قريباً .

العروس المجلوَّة : **وقال يحيىٰ بن معاذ : الدنيا كالعروس المجلُوَّة** . . تراها الأبصار وتحبُّها القلوب وتمدحها الألسن ؛ من حيث إن الله خلقها وجمَّلها بالمال والبنين وغيرهما ؛ كما قال ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ . **ومن يطلبها ويعمِّرُها ماشطتها** ؛ من حيث إنَّه يزيدها حسناً للمغرورين ، **والزاهد فيها يُسَخِّم وجهها وينتِفُ شعرها ويحرق ثوبها** ؛ من حيث إنَّه لما عرف نقصها وفناءها وقطعها للعبد عن عبادته . . اشتغل بتزهيد الخلق فيها ؛ وتقبيح محاسنها الظاهرة .

---

(١) إشارة لما مرَّ ص ٤٠٥ فما بعد عن الجنيد وغيره (السلف والزهد) .

الخلق فيها ؛ وتقبيح محاسنها الظاهرة .

والعارفُ مشتغل بالله تعالىٰ . . لا يلتفت إليها ، لكمال شغله بالله ، وبمعرفته وجماله وجلاله ، ومناجاته عن ذمِّها ؛ فضلاً عن مدحها ، كما قالت رابعة . . لَمَّا رأت طائفة من الزهَّاد يذمُّون الدنيا ويحقِّرونها (من أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره ! لو اشتغلتم بالله تعالى وبمحبَّته . . لشغلكم عمن سواه) . فالعارف قد انقطع قلبه عنها ، فلا يمدحها ولا يذمُّها ، وربما غَفَل عن ثواب آخرته .

الزهد في الناس : **سمعت أبا عبد الله الصوفيَّ ؛ يقول** : **سمعتُ أبا الطيِّب السَّامَرِّي** ؛ ـ نسبة إلى « سُرَّ مَن رأى » بلدةٍ ببلاد العجم ـ **يقول** : **سمعتُ الجنيد ؛ يقول** : **سمعت السريَّ ؛ يقول** :

مارستُ كلَّ شيءٍ من أمر الزهد ، فنلت منه ما أريد ؛ كالزهد في المطعم والملبس والمنام وفضول الكلام . . **إلاَّ الزهد في** لقاء **الناس** ؛ والتبسُّط معهم في المقال ، والاستئناس بمحادثتهم . . **فإنِّي لم أَبلُغْه ؛ ولم أُطِقْه** لعزَّته .

أما لقاؤه إيَّاهم ! لنفعه بهم في دينه ؛ أو لنفعهم به في دينهم . . فلا يزهد فيه ، ولا يذمُّ العبد فيه نفسه على عدم نيل الزهد فيه .

وقد يزهد العبد في لقاء الناس ويبقى عليه الزهد في نفسه من الراحة وحبِّ الكسل ونحوهما ، وقد يزهد في راحة نفسه . . ولا يزهد في بذل نفسه لله ؛ إذا حضر جهادٌ في سبيل الله ، فالزهد يتنوَّع على حسب المزهود فيه .

عوض الزهد : **وقيل** : **ما خرج الزاهدون** بزهدهم في الدنيا من حظِّهم الخسيس . . **إلاَّ إلى حظِّ أنفسهم** النفيس ، **لأنَّهم تركوا النعيم الفانيَ** النكِد الممزوج بالهموم والأحزان **للنعيم الباقي** الكامل الذي لا نكد فيه . . ولا ألم .

حقن وسفك : **وقال النصراباذي** : **الزهدُ حَقَن دماء الزاهدين فيه** ـ: منع مِنْ حقنه ـ بما أبقاه الله لهم من حظوظ أنفسهم ، فإنَّه أبقى لهم منها ما يعيشون به ؛ وجعله حقَّهم ، ولم يجعله منافياً لزهدهم ، فإن الزهد كما مرّ في فضول الحلال .
وَسَفك دماء العارفين بالله ؛ من حيث إنَّهم صاروا لا يلتفتون لأنفسهم . . لكمال شغلهم بربِّهم .

نفسِه ، لأنَّ أوّل ما يبدأ به الزاهد إخراجُ ماله من يده ، لأنَّه أخفُّ عليه ثم إخراج جاهه من قلبه ؛ ثم إخراج راحته من بدنه ، ثمَّ بذل نفسه لربِّه .

والمُتَزهدُ يذيب نفسه قبل إخراج ما **في كيسه** ، لأنه لا يخرج شيئاً من ماله لشدّة محبَّته له .. إلاَّ بكُرْهٍ من نفسه ؛ بأن يكرهها ويحملها على إخراجه .. فهو يذيبها قبل أن يخرج ما بيده .

الخير والشرُّ : سمعتُ محمد بن عبد الله ؛ يقول : حدَّثنا عليُّ بن الحسين المَوْصليُّ ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن الحسين ؛ قال : حدَّثنا محمد بن الحسن[1] ؛ قال : حدَّثنا محمَّد بن جعفر ؛ قال : سمعت الفضيل بن عياض ؛ يقول : **جعل الله الشرَّ كلَّه في بيت .. وجعل مفتاحَه حبَّ الدنيا** ، لخبر : « حُبُّ ٱلدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيْئَةٍ »[2] .

وجعل الخيرَ كلَّه في بيت .. وجعل مفتاحَه الزَّهد . لأنَّ العبد إذا أعرض عن الدنيا .. تيسَّرت له الخيرات لذهاب القواطع عنه والمشغلات .

* * *

٧ ـ باب الصمت

اشتقاقه : يقال (صمت يصمتُ صمتاً وصموتاً وصماتاً : سكت) .

فضليته : أخبرنا عبد الله بن يوسف الأصبهانيُّ ؛ قال : حدَّثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطَّان ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن يوسف السُّلَميُّ ؛ قال : حدَّثنا عبد الرزَّاق ؛ قال : أخبرنا معمر ؛ عن الزُّهري ؛ عن أبي سلمة ؛ عن أبي هريرة ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ .. فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وٱلْيَوْمِ

(١) في (م) : الحسين .
(٢) تقدم تخريجه ؛ عن البيهقي ص ٤٠٣ .

ٱلْآخِرِ . . فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . . فَلْيَقُلْ خَيْرَاً ؛ أَوْ لِيَصْمُتْ » رواه الشيخان[١] .

دلَّ على أنَّ المقصود من الكلام قولُ الخير ، فإن لم يعلم العبد أن في كلامه خيراً . . فالصمت خيرٌ له ، وقد قال تعالىٰ ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[٢] .

وسئل ﷺ (فيمَ النجاة ؟) فقال : « فِيْ حِفْظِ ٱللِّسَانِ »[٣] . وروىٰ الترمذيُّ خبرَ : « مَنْ صَمَتَ نَجَا »[٤] .

النجاة بالصمت : أخبرنا عليُّ بن أحمدَ بنِ عبدان ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد ؛ قال : حدَّثنا بشر بن موسىٰ الأسدي ؛ قال : حدَّثنا محمد بن سعيد الأصبهاني ؛ عن ابن المبارك ؛ عن يحيىٰ بن أيُّوب ؛ عن عبيد الله بن زحر ؛ عن عليِّ بن يزيد ؛ عن القاسم ؛ عن أبي أمامة ؛ عن عقبة بن عامر ؛ قال : قلت : يا رسول الله ؛ ما النجاة ؟ .

فقال : « اِحْفَظْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وَٱبْكِ عَلَىٰ خَطِيْئَتِكَ » . رواه الترمذي وحسَّنه بلفظ : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ »[٥] .

وآفات اللسان كثيرةٌ ؛ منها الغِيبة والنميمة ، والهمز واللَّمْز ، والاستهزاء والكذب في الأحكام وغيرها ، فلا بدّ من تثبُّت العبد ، خوفاً من دخوله في قوله تعالىٰ ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٦] وقوله ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ

---

(١) البخاري : ٦٠١٨ ، ومسلم : ٧٥ ـ ٤٧ ؛ وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الآية : ١١٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

(٣) شواهده كثيرة منها قوله ﷺ « مَنْ سَرَّهُ أَن يَسْلَمَ فَلْيَلْزَمْ ٱلصَّمْتَ » أخرجه ابن أبي الدنيا ، وأبو الشيخ ؛ عن أنس رضي الله عنه .

(٤) أخرجه الترمذيُّ : ٢٥٠١ ، وأحمد : ٢/ ١٧٧ ، والدارمي : ٢/ ٢٩٩ ؛ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٥) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » : ١٣٤ ، وأحمد ٤/ ١٤٨ ، ٥/ ٢٥٩ ، والترمذي : ٢٤٠٦ بلفظ « أَمْلِك » معناه : احفظ . وأخرجه ابن أبي الدنيا في « العزلة » و« الصمت » والبيهقي في « الزهد » . .

(٦) الآية : ١٦٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[1] .

وممَّا أنشدوه في ذلك[2] :

اِحْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا ٱلإِنْسَانُ ... لاَ يَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ

كَمْ فِي ٱلْمَقَابِرِ مِنْ قَتِيْلِ لِسَانِهِ ... قَدْ كَانَ هَابَ لِقَاءَهُ ٱلشُّجْعَانُ

أشرف الخصال : وبالجملة . . **الصمتُ سلامةٌ** ؛ وهو الأَوْلى . وهي ـ : السلامةُ ـ الأصل ، إذ لا غنيمة إلا بعد السلامة ، فكلٌّ غانم سالمٌ ، **وعليه** : الصمت ندامةٌ إذ وَرَد عنه الزجر : الزجر عنه لكون النطق مطلوبا ، **فالواجبُ** أن يعتبر الشَّرعُ ، والأمرُ ـ يعني يعتبر فيه الأمر به ـ والنهي عنه شرعا ، ومِن ثمَّ قالوا : السكوت في وقته صفةُ الرجال ؛ كأن يسكت خوفا من وقوعه في الزلل ، كما أنَّ النطق في موضعه من **أشرف الخصال** ، كأن يأمر بتغيير منكر ؛ أو يتكلَّم بكلمة حقٍّ عند من يخاف ، أو يرجىٰ خوفه .

السكوت وأدب الحضرة : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق ؛ يقول : مَن سكتَ عن الحقِّ ؛ فهو شيطانٌ أخرس .

والصمتُ من آداب الحضرة ، قال الله تعالىٰ ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[3] . وقال تعالىٰ ـ خبراً عن الجن بحضرة الرسول الله ﷺ ـ ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾[4] . وقال تعالى ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾[5] .

بين سكوتين : وكم بين عبدٍ يسكُت تصاوناً عن الكذب والغيبة . . وبين عبدٍ يسكت

---

(١) الآيتان : ٧٥ ، ٧٨ من السورة التي ذكر فيها آل عمران . علىٰ أن التلاوة هكذا . لكن وردت في « الأصل » : ٢/ ١٧٨ ؛ من حاشية العروسي ﴿ ويفترون علىٰ الله الكذب وهم يعلمون ﴾ وربما كان المراد ﴿ إن الذين يفترون علىٰ الله الكذب لا يفلحون ﴾ [١١٦/ النحل] فتنبَّه .

(٢) من البحر الكامل .

(٣) الآية : ٢٠٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

(٤) الآية : ٢٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحقاف .

(٥) الآية : ١٠٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : طٰه عليه الصلاة والسلام .

لاستيلاء سلطانِ الهيبة عليه؛ بما يطرقه من الحياء والخجل ، وغلبة الاحترام .

وقد يغلب الاحترام على قلب المحترِم بالحضور حتَّىٰ ينسى جميع ما حضر لأجله . وفي معناه أنشدوا[١] :

أُفَكِّرُ مَا أَقُولُ إِذَا ٱفْتَرَقْنَا

وَأُحْكِمُ : أتقن دَائِبَاً جادّا من (دَأَب فلان في عمله) إذا جدَّ وتعب حُجَجَ ٱلمَقَالِ

فَـأَنْسَـاهَـا إِذَا نَحْـنُ ٱلْتَقَينـا فَأَنْطِقُ . . حِينَ أَنْطِقُ بِٱلْمُحَالِ

الذي لا يفيد الغرض لما يَغشىٰ قلبي من ٱحترام الحال ؛ أو الفرح بالقرب والنوال ، فيشغَلُني لذَّة الاجتماع عن إيراد ما حرَّرتُه في فكري . وأنشدوا[٢] في معناه أيضاً :

فَيَالَيْلِ مرخَّم « ليلي » كَمْ مِنْ حَاجَةٍ لِي مُهِمَّةٍ أريد أن أذكرها لكم

إِذَا جِئْتُكُمْ لَمْ أَدْرِ يَا لَيْلُ مَا هِيَا

لِمَا حصل لي من لَذَّة الاجتماع .

وأنشدوا[٣] فيه أيضاً :

وَكَمْ حَدِيْثٍ أريد أن أذكره لَكَ ويستمرُّ عندي حَتَّىٰ إذا

مُكِّنْتُ مِنْ لُقْيَاكَ أُنْسِيْتُهُ

وقد يكون صمتُ العبد لما يصرف قلبَه من الدَّهَش[٤] عند سماع الخطاب

---

(١) أُفَكِّـرُ مَـا أَقُـولُ إِذَا ٱفْتَـرَقْنَـا وَأُحْكِـمُ دَائِبـاً حُجَـجَ ٱلمَقَـالِ
فَـأَنْسَـاهَـا إِذَا نَحْـنُ ٱلْتَقَيْنَـا فَـأَنْطِـقُ حيـن أَنْطِـقُ بِـٱلمَحَـالِ
وهما من الوافر .

(٢) فَيَا لَيْلُ ؛ كَمْ مِنْ حاجَةٍ لِيْ مُهِمَّةٍ إِذَا جِئْتُكُمْ لَمْ أَدْرِ يَا لَيْلُ مَا هِيا
والبيت من الطويل .

(٣) وَكَـمْ حَـديْـثٍ لَـكَ حَتّـىٰ إذا مُكِّنْـتُ مِـنْ لُقْيَـاكَ أُنْسِيْتُـهُ
والبيت من الهزج .

(٤) الدَّهَش : حالة توجب زوال الشعور بسبب ما يفجأُ الإنسان من الأمور العظيمة التي تعجزه عن الجواب لو سئل في هذه الحالة . (عروسي : ٢/ ١٨٠) .

ممَّن يجلُّه ؛ حتَّىٰ يعجز عن الجواب ، كما دلَّ عليه قوله تعالىٰ ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ . . ﴾[1] الآية . وسيأتي هذا في كلامه مع ما فيه .

وأنشدوا[2] :

رَأَيْـتُ ٱلْكَـلَامَ يَـزِيـنُ ٱلْفَتَـىٰ   وَلَلصَّمْتُ خَيْرٌ لِمَنْ قَدْ صَمَتْ
فِكَمْ مِن حُرُوفٍ تَجُرُّ ٱلْحُتُوفْ   وَمِنْ نَاطِقٍ وَدَّ أَن لَّوْ سَكَتْ !

أقصر السكوت : والسكوت على ضربين : ١ـ سكوتٌ بالظاهر ؛ وهو سكوت اللسان ، و٢ـ سكوت بالقلب والضمائر ؛ وهو هدوّ القلب . وعَطَف « الضمائر » ؛ وهي القلوب على « القلب » !! لاختلافهما لفظا ، كما في قوله تعالىٰ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾[3] ، وكما أنَّ سكوت اللسان يختلف تارة لخوف الزَّلل ، وتارة لاشتغاله بما هو أهمُّ ممَّا أراده . . كذلك القلب ، قد يكون سكوتُه للوثوق بالضمان ؛ وهو سكوت المتوكِّل ، وقد يكون للرضا بما يُجْرِيه الحقُّ عليه ممَّا سبق في الأزل ؛ وهو سكوت العارف !!

فالمتوكل يسكت قلبُه عن تقاضي الأرزاق ، لما وُعد به من ضمانها من مولاه ، فلا يخشىٰ فواتها .

والعارف يسكت قلبُه مقابلة للحكم بنعت الوِفاق : الموافقة لأوامر الله ونواهيه .

فهذا : المتوكِّل بجميل صُنْعِه واثق ، لعلمه بأنَّ ضامنه يوفِّي بضمانه ، وهذا : العارف بجميع حكمه قانعٌ راضٍ لا اختيار له .

وفي معناه قالوا[4] :

تَجْرِي عَلَيْكَ صُرُوفُهُ تعالىٰ : حوادثه ونوائبه
وُهُمُومُ سِرِّكَ مُطْرِقَهْ راضية

---

(١) الآية : ١٠٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المائدة .
(٢) هذان البيتان في بعض نسخ المتن بعد قوله (أنسيته) . كذا في « الحاشية » .
(٣) الآية : ١٥٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .
(٤) تَجْـــرِي عَلَيْـــكَ صُـــرُوفُـــهُ   وَهُمُـــومُ سِـــرِّكَ مُطْـــرِقَـــهْ

سبب السكوت : وربَّما يكون سببَ السكوت حيرةُ البديهة ؛ ودهشَتُها ! فإنَّه إذا ورد على العبد كشف على وصف البغتة . . خرست العبارة عند ذلك ؛ فلا بيان ، ولا نطق . وطمست الشواهد هنالك ؛ فلا علم ، ولا حسَّ ، قال الله تعالىٰ ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾[1] ، وهم عالمون بما أجابهم به الأممُ وقتَ التبليغ حتى ﴿ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ .

ويحتمل ـ كما قيل ـ أن يكون هذا أدباً في ردِّ العلم إليه تعالىٰ ! وأنَّهم لا علم لهم زيادة على علمه بما بلَّغوه للأمم ، فالمعنى (لا علم لنا زائد على ما علمت إنك أنت علام الغيوب) ، فليس في الآية ما أشار إليه المصنِّف من الغَيْبة وعدمِ الإدراك ، لأنهم قد أجابوا . ويحسن أن يُورَد هنا قوله تعالىٰ ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[2] ، لأنَّ الحقَّ تعالىٰ إذا سأل الأمم بقوله ﴿ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فأخذتهم صدمة العزَّة وسطوة السؤال حتَّىٰ ذهلوا عن الجواب ؛ وعن سؤال بعضهم بعضاً عن وجه الصواب .

إيثار السكوت : فأمّا إيثار أربابِ المجاهدة للسكوتِ على النطق !! فلما علموا ما في الكلام من الآفات ، ثمَّ لَمَّا علموا ما فيه من حظِّ النفس ؛ وإظهار صفات المدح ؛ والميل إلىٰ أن يتميَّز بين أشكاله وأقرانه بحسن النطق . . وغير هذا من آفات اللسان في الخلق ، وذلك : السكوت نعتُ أرباب الرياضات ، وهو أحدُ أركانهم في حكم المنازلة من المقامات وتهذيب الخلق .

ويدلُّ لذلك الخبر الصحيح : « إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِٱلكَلِمَةِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ »[3]

وقد قال أبو بكر الصدِّيق لعمرَ رضي الله عنهما لمَّا رآه آخذاً بلسانه ؛ وقال له عمر (مَه ؛ غفر الله لك ، هذا الذي أوردني الموارد) .

---

(١) الآية : ١٠٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المائدة .

(٢) الآية : ٦٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : القصص .

(٣) أخرجه البخاري : ٦٤٧٨ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ورئي ابن عبَّاس آخذاً بثمرة لسانه ؛ يقول له (قل خيرا تغنم ، واسكت عن شرٍّ تسلم) . فحفظ اللسان غالباً من أهمّ الأمور ، فإنَّه ترجمان ما في القلب ، وسلامتُه من الزلل يستلزم تثبُّته بقلبه ، وينبغي التحفُّظ أيضاً مما يقوم مقام اللسان . . من إشارة وكتابة ونحوهما ، فكم من ساكت هو متكلِّمٌ !!

صمت داود : وقيل : إنَّ داود الطائيَّ لمَّا أراد أن يقعد : يختلي في بيته ليسلم من آفات اللسان في الجدال والخصام . . **اعتقد** : عزم على أن **يحضر مجالس** أبي حنيفة رحمه الله ، إذ كان تلميذاً له ، **ويقعد بين أقرانه** من العلماء . . ولا يتكلَّم في مسألة ـ أي : لما أراد ذلك قال لنفسه (لا أختلي حتَّىٰ أجالس أصحابي الذين كنتُ أجالسهم في الفقه سنةً ولا أتكلم) ! فجلس معهم ؛ ولم يتكلَّم بحيث كانت تمرُّ به المسألة وهو أشهىٰ إلى الكلام فيها من العطشان إلى الماء البارد . . ولا يتكلَّم !!

فلما قوَّىٰ نفسَه على ممارسة هذه الخصلة ؛ وهي الصمتُ سَنَة كاملة . . قعد في بيته عند ذلك وآثر العزلة على الخلطة ، ومن لم يجاهد نفسه إلى أن تتغيَّر أخلاقه الذميمة إلى الحميدة . . لا يفيدُه مجرّد حبسِها ، فإنَّه إذا حبسَها بغير قصدٍ لرياضة أخلاقه ؛ ثمَّ سيَّبَها . . رجعت إلى حالها ، وكانت سلامتُه وقت حبسها خاصَّة ، وأخلاقه الذميمة باقية [(١)] .

عمر بن عبد العزيز : وكان عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله ؛ إذا كتب كتاباً واستحسن لفظه مزَّق الكتابَ وغيَّره بكتابة غيره ؛ خوفاً من العُجْب ، وأخذاً بقوله تعالىٰ ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [(٢)] .

بشر والصمت : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : أخبرنا عبد الله بن محمد الرازيُّ ؛ قال : حدَّثنا أبو العبَّاس محمَّد بن إسحاق السرَّاج ؛ قال : سمعت أحمد بن الفتح ؛ يقول : سمعت بشر بن الحارث ؛ يقول : **إذا أعجبك الكلام فأصمت ، وإذا أعجبك الصَّمتُ فتكلَّم** . لأنَّ في ذلك مخالفةً لهوى النفس ؛

---

(١) انظر ما تقدم ص ١٠٥ .

(٢) الآية : ٤٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النازعات .

ورداً لها عن هواها ، وإعجابُها بأحدهما يكون إمَّا لاستحسانها للشيء ؛ ولو كان ما استحسنته لا يخالف الشرع . . لكنَّه يحملها على الشغل به عما هو أولىٰ منه ، أو لإضافة ما استحسنه إليها ؛ ومدحها عليه ؛ ونسيانِ كونه من فضل الله .

صحَّة الصمت : وقال سهل بن عبد الله : لا يصحُّ لأحد الصمت حتَّىٰ يُلزِم نفسه الخلوة غالباً ، لأنَّ الصمت مع خلطة الناس متعذِّرٌ غالباً ، فإذا خلا بنفسه حتَّىٰ تعود السكوت . . أمكنه أن يسكت مع الخلطة ، وقد يمنُّ الله تعالىٰ على العبد بالقوَّة على مخالفة النفس فيصمتُ مع الخلطة ؛ وإن لم يتقدّمه خلوة !

ولا تصحُّ له التوبة من فضول الكلام وزلل اللسان حتَّىٰ يُلزم نفسه الصمت غالباً . لأنَّ الغالب أنَّ مَن كثر كلامه كثر خطؤه .

محلُّ الصمت : وقال أبو بكر الفارسيُّ : مَن لم يكن الصمتُ وطنَه : مقامه بأن لم يصمت بقلبه ولسانه وسائر جوارحه . . فهو في الفضول ؛ بكثرة أقواله ووساوسه وتشعُّب أفكاره ، لأنَّه إذا كان مشغوفاً بإعلام غيره بما تضمَّنه قلبُه . . كان متكلِّماً ؛ وإن كان صامتاً بلسانه . لأنَّه تارةً يسير إلى مقصوده بيده ، وتارة بعينه ، وتارة بغيرهما . . كما مرّ . ولهذا قال : والصمتُ ليس بمخصوص وقوعُه على اللسان ! لكنَّه يقع أيضاً على القلب والجوارح كلِّها .

وقال بعضهم : من لم يستغنم السكوت لم يعرف فضليته ويعدَّه غنيمة ، فإذا نطق نطق بلغوٍ ، لقلَّة خوفه من آفات اللسان .

ثمرة الصمت : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت محمَّد بن عبد الله بن شاذان ؛ يقول : سمعتُ ممشاد الدِّيْنَوَري ؛ يقول : الحكماءُ ورِثوا الحكمة بالصمت والتفكُّر .

لأنَّ الحكمة وضعُ الشيء في محلِّه ، فمن لم يثبت بقلبه وجوارحه حتَّىٰ يعرف الصواب من الخطأ . . لم يكن حكيماً ، ووقع في الخطأ .

صمت السرِّ : وسئل أبو بكر الفارسيُّ عن صمت السرِّ ؛ وهو جمع العبد همَّته على ما هو الأولىٰ به ؟ فقال : ترك الاشتغال بالماضي والمستقبل ؛ بأن يجمع العبد همَّه على ما هو الأولىٰ به في وقته . و لهذا . .

حدُّ الصمت : قال أبو بكر الفارسيُّ : إذا كان العبد ناطقاً فيما يعنيه ؛ وفيما لا بدَّ

منه . . فهو في حدِّ الصمت : لا فضول عنده ، وإن كان ناطقاً فيما لا يعنيه ! فليس بصامت . **والحاصل** أنَّ كلامه وفكره فيما يحتاج إليه لا يخرجه عن الصمت ، وفيما لا يحتاج إليه يخرجه عنه ؛ وإن سكت بلسانه .

ورُوي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ؛ أنَّه قال : **كلِّم الناسَ قليلاً . . وكلِّم ربَّك : أذكره كثيراً ؛ لعل قلبَك يرىٰ الله تعالى !!** فإذا كنت من الدائمين على ذكره . . كنت ممن يعبد الله كأنَّه يراه ، وممَّن لا يقصد في حوائجه سواه ، ويلزم من ذلك عادة أن لا يكلِّم الناس إلا لحاجة مهمَّة .

أصون الناس : وقيل لذي النون المصريِّ : **مَن أصونُ الناس لنفسه ؛ من الوقوع في الآفات . . كالغيبة والنميمة ؟ فقال : أملكهم للسانه** . لأنَّ مَن ملك لسانه حتَّى لا يتكلَّم إلاَّ بما يثاب عليه . . فقد سلم من الآفات ، وصان نفسه عن الوقوع فيها .

محتاج السجن : وقال ابن مسعود رضي الله عنه : **ما من شيءٍ من الجوارح بطولِ السجن أحقُّ من اللسان** : أحقُّ منه بذلك . و لهذا . .

أبواب اللسان : **قال عليُّ بن بكَّار : جعل الله تعالى لكلِّ شيءٍ من الجوارح غيرِ اللسان بابين ، ـ يعني : مصراعين ـ وجعل للسان أربعة أبواب ـ يعني : مصاريع ـ فالشفتان مصراعان ، والأسنان العليا والسفلىٰ مصراعان** . فمراده أنَّ ما عدا اللسان من الجوارح يكفي فيه باب واحد له مصراعان ، وإنَّ اللسان لا يكفي فيه إلاَّ بابان ؛ لكلِّ باب مصراعان ، فعلم أنَّ اللسان أحقُّ بالسجن من غيره .

وقيل لبعضهم (ما جلوسك في الصومعة ؟) فقال : لست براهب ، وإنَّما أنا حارس كلب ! لساني سَبُع ضارٍ . . إن أطلقتُه آذاني وآذىٰ الناس[1] .

حذر الصدِّيق : وقيل : إنَّ أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه ؛ **كان يمسك في فيه حَجَراً كذا كذا سنَة ؛ ليقِلَّ كلامه** . لأنَّه كلما تحرّك الحجر في فِيْه تذكَّر به ما جعله له ، فيشتدُّ حذره من زلل اللسان ، وإذا كان هذا حذرَ مَن سمَّاه النَّبيُّ ﷺ صدِّيقاً لمبالغته في الصدق . . قولاً وفعلاً ؛ فكيف بغيره ممن لا يقع منه الصدق إلا نادراً !!

---

(١) انظر ما تقدم ص ٣٧١ .

مجلى السكوت :

١ـ لسوء الأدب : وقيل : إنَّ أبا حمزة البغداديَّ رحمه الله كان حَسَن الكلام ، فهتف به هاتف ؛ فقال له : تكلَّمتَ فأحسنت ، بقيَ عليك أن تسكُتَ فتُحسِن ؟ فما تكلَّم بعد ذلك بكلام لا يثاب عليه حتَّىٰ مات ، ومات قريباً من هذه الحالة : حالةِ سكوته على رأس أسبوع ؛ أو أقلّ منه ، أو أكثر .

نبَّهه الهاتف على أن يجمع لنفسه بين إحسانيه في سكوته وكلامه ، فإحسانه في سكوته أن يسكت عما لا يثاب عليه ، وفي كلامه أن يتكلَّم بما يثاب عليه .

وربَّما يكون السكوت يقع علىٰ المتكلِّم : يُطلَب منه تأديباً له ، لأنَّه أساءَ أدَبه في شيء ارتكبه ؛ كأن استحسن حاله ومقاله ، وأضاف ذلك إلى نفسه ونسي كونه من فضل ربِّه .

كان الشبليُّ إذا قعد في حلقته مع أصحابه ولا يسألونه ؛ في الكلام . . يقول : ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾[١] .

٢ـ لأولويَّة غيره : وربَّما يقع السكوتُ علىٰ المتكلِّم ، لأنَّ في القوم مَن هو أولىٰ منه بالكلام فيما هو فيه ! سمعتُ ابن السمَّاك رحمه الله ؛ يقول : كان بين شاهٍ الكرمانيِّ ويحيىٰ بن معاذ صداقةٌ ؛ فجمعهما بلد ، فكان شاهٌ لا يحضر مجلسه . فقيل له في ذلك !! فقال : الصواب هذا : أن لا أحضره ! فما زالوا به حتَّىٰ حضر يوماً مجلسه ، وقعد ناحية لا يشعر به يحيىٰ بن معاذ ، فلما أخذ يحيىٰ في الكلام سكت ، ثمَّ قال : ها هنا مَن هو أولىٰ بالكلام مني ، وأُرتج عليه : تعذَّر عليه الكلام كأنَّه أُطبق عليه كما يرتج الباب : يغلق ! **فقال لهم شاهٌ : قلتُ لكم (الصوابُ أن لا أحضر مجلسه) فأبيتم !! نبَّه الحقُّ تعالىٰ** بذلك يحيىٰ ليتأدّب ويبحث عمن بمجلسه ليعطيَه حقَّه وينزِّلَه منزلته ، ويكون متعلِّماً منه . . لا معلِّماً له .

٣ـ غيرة وصيانة للسامع : وربَّما يقع السكوتُ علىٰ المتكلِّم لمعنىً في الحاضرين ؛

---

(١) الآية : ٨٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النمل .

وهو أنَّه يكون هناك مَن ليس بأهل لسماع ذلك الكلام ؛ بأن لا يستحقَّه ! فيصونُ الله تعالى لسان المتكلِّم ؛ عن أن يُلقيَ ذلك الكلام لغير أهله ؛ غيرةً عليه وصيانةً لذلك الكلام عن غير أهله ؛ كما حُكي عن عيسى عليه السلام أنَّه قال : (لا تعطوا الحكمة غيرَ أهلها فتظلموها) بوضعها في غير محلِّها ؛ فيفوتُ الانتفاع بها .

٤ـ افتتان السامع : وربَّما كان سببُ السكوت الذي يقع على المتكلِّم أنَّ بعض الحاضرين لا يصلح له ذلك الكلام ؛ بأن كان معلومُ الله تعالىٰ من حاله أنَّه حيث يسمع ذلك الكلام يفسد حاله ؛ فيكون ذلك فتنة له ، إمَّا لتوهُّمه أنَّه أي : الكلام ـ وقتُه وحاله : المطلوبُ له ولا يكون وقته ،أو لأنَّه بسماعه له يُحَمِّل نفَسه ما لا يطيق ؛ بأن يكون بحيث لو سمعه لثارت في قلبه أحوالٌ ، تكون سببَ ضرره وهلاكه لضعفه عن حمل ما يَرِدُ عليه ، فيرحمُه الله عزَّ وجلَّ ؛ بأن يحفظ سمعَه عن ذلك الكلام ؛ إمَّا صيانةً له ، أو عصمةً عن غلطه . وهذا من باب اللطف بالسامع والشفقة عليه .

٥ـ عدم أهلية السامع : وقال مشايخ هذه الطريقة : ربَّما يكون السبَبُ فيه ـ أي : في السكوت عن الكلام ـ حضورَ من ليس بأهل لسماعه من الجنِّ كالأنس ،إذ لا تخلو مجالس القوم من حضور جماعة من الجنِّ يستمعون ! لأنَّ الجنَّ مكلَّفون كالأنس .

واعظ الجنِّ : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : اعتللت : مرضت مرّة بـ « مرو » ؛ فاشتقت إلى أن أرجع منها إلى « نيسابور » . . فرأيت في المنام . . كأنَّ قائلاً يقول لي : لا يمكنك أن تخرج من هذا البلد ؛ فإنَّ جماعةً من الجنِّ استحلَوْا كلامك وانتفعوا به ، ويحضرون مجلسك ؛ فلأجلهم تجلسُ ها هنا . . ولا تسافر .

من أسرار الخلق : وقال بعض الحكماء رحمهم الله : إنَّما خُلِق للإنسان لسانٌ واحد . . وعينان . . وأُذنان !! ليسمعَ ويُبصِرَ أكثرَ ممَّا يقول ! : فينبغي أن يكون كلامُه أقلَّ من سماعه ورؤيته ، ولذلك حكمة أخرىٰ ؛

حكمة أخرىٰ : وهو أنَّ العبد لمَّا احتاج أن يسمع ويرىٰ من جهتيه . . تفضَّل عليه

الحقُّ بعينين وأذنين ، وأمّا اللسان فترجمانٌ عما في الضمير فلا يحتاج إلى تعدُّده .

موعظة لطيفة : **ودُعِيَ إبراهيم بن أدهمَ إلى دَعوْةٍ ؛ فلما جلس مع القوم عليها . . أخذوا في الغِيبة ، فقال : عندنا يؤكل الخبز قبل اللحم ؛ وأنتم ابتدأتُم بأكل اللحم !؟** . أشار بذلك إلى قوله تعالى ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾[1] !! .

هذا من باب التلطُّف في التنبيه على إنكار الغيبة ، وهو مطلوب . . لا سيما إذا كان مرتكبُها لا يحتمل الأمر والنهي لعظمته في نفسه ، أو لصغر قَدْر الآمر والناهي ، والأولىٰ بمن ٱبتُلي بذلك أن يعدل إلى الحكايات والأمثال ليتنبَّه المغتاب من نفسه على زلله ؛ وينكفّ عن غيبته ، فإن عجز عن ذلك !! عرَّض بحديثٍ آخرَ . . غيرِ ما هم فيه ليشتغل المغتابون عما هم فيه .

وقاية الصمت : **وقال بعضهم** : **الصمتُ** عن مكافأة المؤذي **لسانُ الحلم** : يدلُّ على حلم مَن أُوذي .

وقال بعضهم : **تعلّم الصمت كما تتعلّم الكلام** ؛ لتوقع كلاًّ منهما في محلِّه ، فإنْ كان الكلام يهديك إلى الخير . . **فإنَّ الصمت يقيك الشرَّ** ؛ وإن كانت الوقاية دون الهداية ، ولهذا قيل (إذا كان الكلام من فضة . . فإنَّ السكوت من ذهب) .

مثل اللسان : **وقيل** : **عفَّة اللسان صمتُه** . **وقيل** : **مَثَل اللسان مَثَل السبع** . . **إن لم توثقه عدا عليك** وعلى غيرك .

حال الوليِّ : وسئل أبو حفص (**أيُّ الحالين للوليِّ أفضل** . . الصمت ؛ **أو النطق ؟**)

فقال : **لو عَلِم الناطقُ ما آفة النطق لصَمت** . . **إن استطاع عُمْر نوح ليسلم** ، **ولو علم الصامِتُ ما آفة الصمت** . . **لسأل الله عزَّ وجلَّ ضِعْفَي عمر نوح حتَّىٰ ينطق ليهتديَ**[2] إلى الخير .

---

(١) الآية : ١٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحجرات .

(٢) لعل الصواب : ليهديَ !! .

طبقات الصامتين : وقيل : ١ـ صمتُ العوامِّ يكون بألسنتهم عن فضول الكلام ، و٢ـ صمتُ العارفين يكون بقلوبهم عن فضول الفكرة في غير المرام، و٣ـ صمتُ المحبِّين يكون بالتحفُّظ من خواطر أسرارهم أن تشير إلى غير محبوبهم .

حال المستغرق : وقيل لبعضهم : تكلَّمْ . فقال : ليس لي لسانٌ فأتكلَّم . فقيل له : اسمع ، فقال : ليس فيَّ مكانٌ فأسمع . أشار بذلك . . إمَّا إلى التبرِّي من الحول والقُوَّة في سائر حركاته وسكناته ومعانيه القائمة به ، أو إلى استغراقه فيما أنعم الله به عليه حتَّى شغله به عن غيره .

القلب واللسان : وقال بعضُهم : مكثتُ ثلاثين سنةً لا يسمعُ لساني إلاَّ من قلبي ، لكوني أتثبَّتُ بقلبي فلا أنطق إلاَّ بما صحَّ فيه ؛ ووزنته بميزان الشرع ، ثمَّ مكثتُ ثلاثين سنة لا يسمعُ قلبي إلاَّ من لساني . لأنِّي لَمَّا سهُلَت عليَّ المعاني . . وصارت العلوم والحكم نُصْب عينيَّ وصار الحقُّ يجريها تفضُّلاً عليَّ . . من غير احتياج إلى تفكُّر . . صار قلبي يسمع من لساني : ينتفع ويعيش بما أجراه الحقُّ عليه .

درجات الكلام : وقال بعضُهم : لو أسكتَّ لسانَك لم تنجُ من كلام قلبك ، لأنَّ الكلام في الفؤاد ، واللسانَ مترجِم عمَّا فيه ، وما فيه هو حديث النفس ولا تقدر على إسكاته ؛ ولو صرت رميماً . . لم تتخلَّص من حديث نفسك ؛ فكيف تقدر على إسكانه ؟! وأما الروح ! فهي عند جماعة من الصوفية معنىً له تعلُّق بالله تعالىٰ وصفاتِه ونيل قُرْبٍ منه ومناجاته له ، وعند كثير منهم ـ كما مرَّ بيانُه أوَّل الكتاب ـ مع زيادة : جوهر مجرّد قائم بنفسه غيرُ متحيِّز ؛ متعلِّقٌ بالبدن للتدبير والتحريك ؛ غير داخل فيه ؛ ولا خارج عنه . فلا التفات لها إلى حديث النفس لكمال شغلها عنه ، ولهذا قال : ولو جَهِدتَ كلَّ الجهد في أن تكلِّمَك روحك . . لم تكلِّمْكَ روحُك ، لأنَّها كاتمةٌ للسرِّ . والمراد أنَّ العبد إذا صمت بلسانه لا يكتفي به ، بل لا بدّ أن يقطع عن نفسه فضولَ الفكر عن قلبه .

لسان الجاهل : وقيل : لسانُ الجاهل مفتاحُ حتفه . . يعني قتله ؛ بسبب عثرة لسانه .

ففيه تنبيهٌ على التحذير من كثرة الكلام ، وقد يغلط اللسان غلطةً يكون فيها قتلُ النفس وهلاكُها في الدنيا وفي الآخرة !

سكوت المحب والعارف : وقيل : المحبُّ إذا سكت عن ذكر محبوبه . . هلك بقلقه بنيران شوقه إليه . . فلا يمكنه السكوت عنه ، بل يتروَّح من كربه ويستريح من شدَّة حَجْبه عنه . . بما يجريه الحقُّ على لسانه من ذكره ، والعارفُ إذا سكت عن ذكر معروفه . . مَلك بما منحه من شريف أحواله ! إذ شأن العارف لكمال شغله بربِّه الكتمانُ لما وجد ، وشأن المحبِّ الهَيَمانُ ؛ طلباً لما فقد .

العمل المخيف : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن محمَّد الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ محمَّد بن نصر الصائغَ ؛ يقول : سمعتُ مردويه الصائغَ ؛ يقول : سمعتُ الفضيل بن عياض رحمه الله ؛ يقول : **مَن عدَّ كلامه من عَمَلِه الذي يحصيه الله عليه ويسأله عنه . . قلَّ كلامه** ، لكونه يتثبّت فيه خوفاً من عاقبته ، فلا يتكلَّم إلاَّ فيما يَعنيه : يحتاج إليه .

* * *

٨ ـ باب الخوف

تعريفه : هو فزع القلب من مكروه يناله ؛ أو محبوب يفوته . . كما سيأتي .

سببه : وسببه تفكُّر العبد في المُخوِفات ؛ كتفكُّره في تقصيره وإهماله وقلَّة مراقبته لما يَرِدُ عليه ، وكتفكُّره فيما ذكره الله في كتابه ؛ من إهلاك مَن خالفه . . وما أعدَّه له في الآخرة !

مرادفاته : وقد يعبَّر عن الخوف بالفزع ، والرَّوع ، والرَّهَب ، والخِيْفة ، والخشية . . كما ستأتي الإشارة إليه مع زيادة .

رتبته : والخوف ممدوح ومطلوب .

الحضُّ عليه : قال الله تعالىٰ ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[1] ، وقال ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ

---

(١) المراد بالطمع إنما هو الرجاء الذي تعلّق القلب بمرغوب فيه ؛ مع الأخذ في الأسباب ، =

رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[1] ، وقال ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾[2] .

المحرَّم عن النار : أخبرنا أبو بكر محمَّدُ بن أحمد بن عبدوسٍ الحيري العدلرحمه الله ؛ قال : أخبرنا أبو بكر محمَّد بن أحمدَ بنِ دلُّويَهْ الدقَّاق ؛ قال : حدَّثنا محمد بن يزيد ؛ قال : حدَّثنا عامر ابن أبي الفرات ؛ قال : حدَّثنا المسعوديُّ ؛ عن محمَّد بن عبد الرحمان ؛ عن عيسى بن طلحة ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ :

« **لاَ يَدْخُلُ ٱلنَّارَ مَنْ بَكَىٰ مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ تَعَالَىٰ**[3] : من خوفه منه . . **حَتَّىٰ يَلِجَ ٱللَّبَنُ فِي ٱلضَّرْعِ ، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي مِنْخَرَي عَبْدٍ أَبَداً** » .

رواه الترمذي ؛ وقال : حسن صحيح[4] . والمَنخر بفتح الميم وكسرها .

مخافة الله : حدَّثنا أبو نعيم أحمد بن محمد بن إبراهيم المِهْرجاني ؛ قال : حدَّثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن بن الشَّرَفي ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن هاشم ؛ قال : حدَّثنا يحيىٰ بن سعيد القطَّان ؛ قال : حدَّثنا شعبة ؛ قال : حدَّثنا قتادةُ ؛ عن أنس ؛ قال : قال رسول الله ﷺ :

« **لوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ** : من الأهوال المخوفة **لَضَحِكْتُمْ قَلِيْلاً ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيْراً** » . رواه الشيخان[5] . ورُوي أنَّه ﷺ قال : « **مَنْ خَافَ ٱللهَ تَعَالَىٰ خَافَهُ**

= وذلك لأنَّ الطمع مذموم عقلاً وشرعاً كما لا يخفىٰ ، ووجه الدلالة من الآيات المذكورة الثناء علىٰ الخائفين ؛ وما أعدَّه الحقُّ تعالىٰ للخائف فيها (عروسي : ٢/١٨٨) .
والآية : ١٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : السجدة .

(١) الآية : ٤٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الرحمان جلَّ جلاله .

(٢) الآية : ٩٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنبياء .

(٣) أي : لا يدخلها أصلاً إن دام علىٰ الخوف بمعونة التوفيق ، أو المراد نار الخلود ؛ لا نار التطهير (عروسي : ٢/١٨٨) .

(٤) ١٦٣٣ ـ ٢٣١٢ ، وأخرجه النسائي : ٣١٠٨ ، وابن ماجه : ٢٧٧٤ بمعناه .

(٥) هو عند البخاري : ٦٤٨٥ ، ٦٦٣٧ ، ومسلم : ١١٢ ـ ٤٢٦ ؛ عن أبي هريرة وأنس (والذي نفسي بيده . . .) . .
وأخرجه من حديث طويل مع القسم (والله لو . . . .) أحمد : ٥/١٧٣ ، والترمذي : ٢٣١٢ ، وابن ماجه : ٤١٩٠ ، والحاكم : ٢/٥١٠ وصححَّه عن أبي ذر .

كُلُّ شَيْءٍ ، وَمَنْ لَمْ يَخَفْ ٱللهَ خَافَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ »[1] . ثمَّ بيَّن الخوف فقال :

متعلَّقه : الخوفُ معنىً متعلَّقُه يوجد في المستقبل ، لأنَّه ـ أي : العبد ـ إنَّما يخافُ أن يَحُلَّ به مكروه ، أو يفوتَه محبوبٌ . ولا يكون هذا إلاَّ لشيءٍ يحصُل في المستقبل . فأمَّا ما يكونُ في الحال موجوداً ! أو وجد في الماضي !! فالخوف لا يتعلَّق به .

معناه : والخوف من الله سبحانه ؛ هو : أن يخاف العبد أن يعاقبه الله تعالى . . إمَّا في الدنيا ؛ وإما في الآخرة .

فرضيته : وقد فرض الله سبحانه على العبادِ أن يخافُوه ؛ فقال تعالىٰ . . ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2] .

وقال ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[3] ، ومدح المؤمنين من الملائكة بالخوف ؛ فقال تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[4] . فوقيَّتُه تعالىٰ ليست بمكان ، بل بالإِجلال والتعظيم وكمال الاقتدار ، وبتنزيهه عن مماثلته لخلقه ، وقد يطلق الخوف من فوقهم على العذاب !! بحذف مضاف : يخافون عذاب ربِّهم من فوقهم .

مراتب الخوف : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **الخوف** : مطلقُهُ على ثلاث مراتب ؛ ١ـ الخوف ، و٢ـ الخشية ، ٣ـ والهيبة .

١ـ الخوف : فالخوف من شرط الإيمان وقضيَّتِه ، فإيمان العبد يفيده الخوفَ ، قال الله تعالىٰ ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

٢ـ الخشية : والخشيةُ من شرط العلم وقضيَّتِه ، فعلم العبد يفيده الخشيةَ ، قال الله

---

(١) عزاه في « كنز العمال » : ٥٩١٥ إلىٰ أبي الشيخ عن واثلة ، والكرخي في « أماليه » ؛ والرافعي ؛ عن ابن عمر بلفظ : « مَنْ خافَ ٱللهَ أَخافَ ٱللهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَمَنْ لَمْ يَخفِ ٱللهَ أَخَافَهُ ٱللهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » .

(٢) الآية : ١٧٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

(٣) الآية : ٥١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .

(٤) الآية : ٥٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .

تعالىٰ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[1] : به تعالىٰ .

٣ـ الهيبة : والهيبة : من شرط المعرفة وقضيَّتِها ، فمعرفة العبد تفيده الهيبة ، قال الله تعالى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾[2] . ولما كان العارفون مشغولين بربِّهم عمن سواه . . حذَّرهم من نفسه ؛ ولم يذكر شيئاً من عذابه !

توضيح : وبما قاله عُلم أنَّ الخوف يطلق على الثلاثة ، وأنَّ الخوف الثانيَ أخصُّ من الأوَّل . ونظيره الهبة . . تنقسم إلى هبة وهديَّة وصدقة . . كما هو مقرَّر في محلِّه .

تعقيب : وهذا لا ينافي قولَ بعضهم (الخشية حال من مقام الخوف ، والخوفُ اسم جامعٌ لحقيقة التقوىٰ ، والتقوىٰ معنىً جامعٌ للعبادة) !

تكميل : وفسَّر بعضهم الخشية بأنها خوف مقترن بتعظيم . وبذلك فسِّرت قراءة ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ ، لأنَّه مدح العلماء الذين وصفهم الله بالخشية ، فإن العبد إذا تفكَّر في ذنبه وشدَّة عقاب ربِّه . . رهب وهرب ، وخشي أن لا تقبل توبته فإذا منَّ عليه بالعلم وعلم أنَّه يقبل التوبة . . رجع إليه ، واعتدل خوفه ورجاؤه ، وصار من العلماء العاملين لله على الخشية ؛ لعلمه بصفاته . . وهو أنَّه شديد العقاب . . غفور رحيم .

سوط الله : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمد بن عليٍّ الحيريَّ ؛ يقول : سمعتُ محفوظاً ؛ يقول : سمعت أبا حفص ؛ يقول :

الخوفُ سوط الله يقوِّمُ به الشاردين : الهاربين بمعاصيهم عن بابه ، فلا يردُّهم عنها إلاَّ خوفُهم من عذاب ربِّهم تبارك وتعالىٰ وسطوَتِهِ .

أنواع الخوف : وقال أبو القاسم الحكيم : الخوفُ على ضربين : ١ـ رهبة ، و٢ـ خشية

١ـ الرهبة : فصاحب الرَّهبة يلتجىءُ إلى الهرب إذا خاف من شيء ، وصاحبُ الخشية يلتجيءُ إلى الربِّ . و(رَهِب) . . و(هَرَب) ؛ يصحُّ أن يقال : إنَّهما واحدٌ معنىً ، مثل (جذب) . . و(جبذ) .

٢ـ الخشية : فإذَا هرب أنجذبَ في مقتضىٰ هواه ؛ كالرهبان الذين اتَّبعوا أهواءهم ،

---

(١) الآية : ٢٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : فاطر .

(٢) الآية : ٣٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

فإذا كبحهم : جذبهم لِجام العلم . . بأنْ مَنَّ الله عليهم بالعلم ،وقاموا بحقِّ الشرع !! وعلموا أن لا ملجأ من الله إلاَّ إليه ؛ وأنّ رحمته واسعة . . **فهو** : ما اتصفوا به من ذلك **الخشية**ُ[1] .

حاصله أنَّه مدح العلماء الذين وصفهم الله بالخشية ، فإنَّ العبد إذا تفكَّر في ذنبه وشدَّة عقاب ربِّه . . رهب وهرب : خشي أنَّه لا يقبل توبته ، فإذا مَنَّ عليه بالعلم ؛ وعلم أنه يقبل التوبة . . رجع إليه ، واعتدل خوفه ورجاؤه ، وصار من العلماء العاملين لله على الخشية لعلمه بصفاته ؛ وهو أنَّه شديد العقاب . . غفور رحيم . ولعلمه بما أجاره الله عليه من المعصية والتوبة عنها ، فإذا نظر إلى وقوع المعصية خاف ، وإذا نظر إلى أنَّه تعالى منّ عليه بالتوبة . . رجا واعتدل خوفه ورجاؤه ؛ كما ذكر ، ودامت طاعته ومراقبته وخشيته .

سراج القلب : **سمعتُ محمَّد بن الحسين ؛ يقول : سمعت عبدالله بن محمد الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا عثمان ؛ يقول : سمعتُ أبا حفص ؛ يقول :**

الخوفُ سراج القلب . . به يبصر بواسطة العلم ؛ ما فيه من الخير والشرِّ .
فالخوف في الحقيقة حاملٌ له على التثبُّت ليميز الخير من الشرِّ ، وتميزه بالعلم . . لا بالخوف[2] .

---

(١) وهي أعلىٰ من مطلق الخوف ، والهيبة أشرف من الخشية ، إذ لا تكون إلا عن شهود بعد رفع الحجب عن العبد المقرَّب . **والحاصل** أن الخوف سببه مجرَّد الإيمان ، والخشية سببها الإيمان المصاحب للعلم ، والهيبة سببها الإيمان والعلم المقارن للمشاهدات والمعاينات (عروسي : ٢/ ١٩١) .

(٢) ولذلك قيل (إذا أردت أن تعرف قدرك عند مولاك فانظر فيما يقيمك فيه) لأنَّ المنازل علىٰ حسب النازل ، فإن وجَّهك إلىٰ الدنيا فقد أهانك ، وإن شغلك بالخلق فقد صرفك ، وإن وجَّهك إلىٰ العمل فقد أعانك ، وإن فتح لك في العلم فقد أرادك ، وإن فتح لك باباً إلىٰ مناجاته فقد قرَّبك ، وإن واجهك بالبلاء فقد هداك ، وإن صرفك عن الأعراض فقد أدَّبك ، وإن رضيت به وعنه فقد فتح لك باب الرضا منه ، وهو أعظم الأبواب وأكملها وأتمُّها (عروسي : ٢/ ١٩١) .

قلت : وشواهد ذلك كثيرة منها ما أخرجه الطبراني في « الكبير » : ١٨/ ٧٥٥ ؛ عن عمران بن الحصين (مَنْ خَلَقَهُ ٱللهُ لِوَاحِدَةٍ مِنَ ٱلْمَنْزِلَتَيْنِ وَفَّقَهُ لِعَمَلِهَا » .

ثمرة الخوف : سمعت الأستاذَ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **الخوفُ أن لاَّ تعلِّل نفسَك بـ « عسىٰ » و« سوف » . بل تطلب ما تأمن به ؛ وتهرب مما تخافه .**

وهذا في الخوف المعتدل ، لأنَّ الناقص لا يحمل على طلب ولا هرب ، والمفرط يوقع في القنوط واليأس من رحمة الله !! وكلاهما منهيٌّ عنه ، فالذي يحمل العبد على مسارعته إلى خلاصه ممَّا يخافه هو المعتدلُ ، وصاحبه لا يعلِّل نفسه بـ (عسىٰ) ولا بـ (سوف) بل يهرب في الحال من كلِّ مخوفٍ .

مجلىٰ الخوف : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا القاسم الدِّمشقيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا عمر الدمشقيَّ ؛ يقول : **الخائف مَن يخاف من نفسه أكثرَ ممَّا يخاف من الشيطان** . لأنَّها أعدىٰ الأعداء وأقربُهم ، وألزمهم للإنسان ، إذ لا يمكن الخلاص منها !! ولأنّه لا قدرة له عليك إلاَّ بميل نفسك إلى الشهوات ، وإن كان هو الذي يزيِّنُها لها ويذكِّرُها بأنواعها ، فكان الحذر منها أشدَّ منه ، ولذلك كانت أعدىٰ عدوٍّ للإنسان ؛ كما جاء في الخبر .

مأمن الخائف : وقال ابن الجلاَّء : **الخائفُ من تُؤَمِّنُه المخوفات** : تجعله في أمان ؛ بأن يأمن منها في حال طروقها عليه ، فلا يؤثر فيه لغيبته عنها بخوف الله ، ومَن غاب عن الأشياء غابت عنه ، ولأنَّ مَن علم أنه لا نافع ولا ضارَّ ، ولا معطي ولا مانع إلاَّ الله تعالىٰ . . لم يخف غيره ؛ من سبع ونار وغيرهما ، كما وقع للسيِّد إبراهيمَ الخليلِ عليه الصلاة والسلام ،

فمَن لم يخف غير مولاه أمِن من كلِّ مخوف ؛ وإن خاف مِن بعض المخلوقات !! فإنَّما يخاف أن يسلِّطَه الله عليه ، ويكون خوفه من البعوضة . . أن يسلِّطَها عليه أشدَّ من خوفه من الفيل ، وخوفُه من الهرِّ الذي يتأنَّس به عادة . . أن يسلِّطَه عليه أشدَّ من خوفه من الأسد ! و« مَنْ خَافَ ٱللهَ خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ »[1] . . كما جاء في الخبر .

وسببه أنّ غلبة الخوف من الله تعالىٰ على باطن الخائف من آثار مشاهدة الجلال ، ومَن تجلَّىٰ عليه بالجلال . كساه ملابس الهيبة ؛ فهابه كلُّ شيء ،

---

(١) تقدم تخريجه أوائل باب الخوف ص٤٣٠ .

فالخائف تارة يخاف من المخوفات[١] ، وتارة يأمَنُها ! والثاني أعلىٰ[٢] .

الخائف حقيقة : وقيل : **ليس الخائفُ الذي يبكي ويمسَحُ عينيه** ؛ ويتألَّم على حاله وما هو فيه من فساد دينه !! لأنَّه خوف يسير . **إنَّما الخائف** : الخوفَ المحمود **مَن يترُكُ ما يخاف أن يعذَّب** هو عليه : بسببه ، فالخوف المحمود ما صان العبدَ عن الإخلال بشيء من المأمورات ؛ أو الوقوع في شيء من المنهيَّات .

رؤية الخائف : وقيل للفضيل بن عياض : **ما لنا لا نرىٰ خائفاً !؟ فقال** لمن قال له ذلك : **لو كنتَ خائفاً لرأيتَ الخائفين ، إنَّ الخائف لا يراه إلاَّ الخائفون** . لأنَّ الخائف إنَّما يعرف خوفه بقيامه بأوامر ربِّه ؛ وبُعْده عن مناهيه ، فمن لم يعرف من الخائفين إلاَّ منزعَجاً في ظاهره ، باكياً ؛ داعياً لله أن يخلِّصه . . لم يعرفهم حقيقة ، وإنّما يعرفُهم حقيقةً مَن عرفهم بحركاتهم وسكناتهم ؛ وتحفظهم في كلامهم ؛ واستماعهم ونظرهم ؛ وسائر ما هم فيه !! ولا يعرف ذلك إلاَّ مَن كَمُل علمه وتحقَّق به في نفسه ؛ وعرف أمثاله من الناس ، فيميل إليهم بطبعه لرجاء منفعته ، ولذلك قال : **وإنَّ الثكلىٰ** ؛ وهي التي فقدت ولدها **هي التي تُحِبُّ أن ترىٰ الثَّكلىٰ** لمعرفتها بما عليه من صفات الثكلىٰ ؛ أو لمساعدتها لها على ما هي فيه من الحزن والبلاء .

داخلَ الجنة : وقال يحيىٰ بن معاذ : **مسكينٌ ٱبْنُ آدم ؛ لو خاف من النار كما يخاف من الفقر . . لدخل الجنة !!** لأنَّ خوفه من الفقر يحمله على أن يَشِحَّ بما معه على نفسه وعياله ، ويُخِلَّ بقيامه بكثير من الواجبات . . كفرض ولده ووالده ؛ وحقِّ زكاته ، ويقع في كثير من المحرَّمات لتحصيل المال ؛ كالتلبيس والغشِ في العيوب ، وتعاطي المعاملات الفاسدة ! فلو خاف من النار كما يخاف من الفقر . . لهرب من أسباب دخولها ، وتعاطىٰ أسباب دخول الجنَّات ، ولَمَا غلبت عليه الشهوات .

علامة الخوف : وقال شاهُ الكرمانيُّ : **علامةُ الخوف الحزن الدائم** . لأنَّ الخوف كما

---

(١) أي من تسليط الله إيَّاه عليه ، فالخوف من فعله تعالىٰ ؛ لا من مخلوقاته (عروسي : ٢/ ١٩٢) .

(٢) لاستغراقه في الخوف منه تعالىٰ وغيبته عمَّا سواه (عروسي : ٢/ ١٩٣) .

مرّ . . إنَّما يتعلَّق بفوات محبوب ؛ أو حصول مؤلم في المستقبل ، فيتوالىٰ على قلب العبد الفكر فيه ؛ ويورثه الغَمَّ والحزن الطويل ، ولو وقع المخوف بسرعة . . لم يثمر حزناً إلاَّ على ما فات .

هرب الخائف : **وقال أبو القاسم الحكيم** : **مَن خاف من شيءٍ** ؛ كأسد أو نار . . **هرب منه** ، **ومن خاف من الله عزَّ وجلَّ ! هرب إليه** . لأنَّ الخوف حقيقة ـ كما مرّ ـ إنَّما يكون من الله ؛ لأنَّه الفاعل لكلِّ مخوف ، فإذا خاف العبد غيرَ الله مع غفلته عن الله . . هرب منه ، وإذا ذكر الله وخشي أن يسلِّطَه عليه . . هرب إلى الله : رجع إليه ، فلا يهربُ من المخوِفات إلاَّ الغافل عن الله ، وإلا ! فمَن علم أنَّها مسخَّرة بيد الله . . هرب ورجع إلى الله القادر على خلاصه منها . . لا غيره .

سبيل الخوف : **وسئل ذو النون المصريُّ رحمه الله** (**متىٰ يتيسر** : **يسهل على العبد سبيلُ الخوف ؟**) : طريقه .

فقال : **إذا نزَّل نفسَه منزلةَ السقيم الذي يحتمي من كلِّ شيءٍ** ؛ **مخافةَ طول السِّقام** . فمتىٰ أنزلها منزلته ؛ وعرف ضعفها وعجزَها عن تحصيل ما ينفعها ؛ ودفع ما يضرُّها إلاَّ بالله؛ وأدام النظر في ذلك . . سهُل عليه أمر الخوف: عمل بمقتضاه وبَعَّد عما يخشاه ؛ ولم يلتفت لما يطرقه من المشقَّة في ارتكاب المخالفة لهواه ، لما يؤمِّلُه في عقباه ! ولذلك شبَّهه بالمريض الذي يحتاج إلى الأدوية؛ ويتحمَّل في تناولها ما تكرهُه نفسه وتأباه؛ رجاء العافية من سَقَمه وبلواه .

طمأنينة المؤمن : **وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه** : **إنَّ المؤمن** : العارف الكامل بأحكام ربِّه عليه . . **لا يطمَئِّنُ قلبه** ، **ولا تسكُن روعته** ـ وفي نسخة : روعه ـ : فزعه من الآفات التي تقع في أعماله المطلوبة منه **حتَّىٰ يخلِّفَ** : يجاوز جسرَ جهنم وراءه .

لأنَّه الصراط الذي هو آخر المخاوِف ، إذ جاء في الخبر : « أنَّه جِسْرٌ مَمْدُودٌ عَلَىٰ مَتْنِ جَهَنَّمَ »[1] .

مسكن الخوف : **وقال بشر الحافي** : **الخوف من الله مَلَك لا يسكنُ إلاَّ في قلب مُتَّقٍ** .

---

(١) تقدم تخريجه ص ٤٠٢ . (٢) انظر ص ٤١٢ ، وص ٤٦٤ ، وص ٥١٤ .

لأنَّه لا يقوىٰ ولا يكمُل ؛ ويحمل على الخير . . ويصرف عن الشرِّ إلاّ في قلب تطهَّر من الشهوات بأنواع الكسب والمجاهدات ، أو يمنّ الله بطهارته من غير كسب وتكلُّفات ، كما أنَّ الملوك لا تسكن في محلِّ الأوساخ والقاذورات !! وإذا نزِّلت بموضع وبه قَذَر غُسِل من ساعته ونُظِّف ، لأنَّ شرف همَّتِهم تنافيها .

عيب الخائف : وقال أبو عثمان الحيريُّ : **عيبُ الخائف في خوفه السكونُ إلى خوفه ، لأنَّه أمر خفيٌّ** . لأنَّ مَن سكن إلى مقامٍ شريف . . منعه سكونه عن الارتقاء إلى ما هو أكمل منه . . كما مرَّ .

حجابيَّة الخوف : وقال الواسطيُّ : **الخوفُ حجابٌ بين الله تعالىٰ وبين العبد** .

وهذا اللفظُ فيه إشكال !! لأنَّ الخوف مطلوب ؛ فكيف يكون حجاباً بين الخائف وربِّه ! وجوابه أن يقال : معناهـ : اللفظ المذكور ـ **أنَّ الخائف متطلِّعٌ لوقت ثان** . وأبناء الوقت وهم الصوفيَّة . . **لا تَطَلُّع لهم في المستقبل** ، وحسناتُ الأبرار سيئآت المقرَّبين . فعَدُّوا الخوف الذي هو تطلُّع لوقت ثانٍ حجباً وهفوة ، لأنَّ تطلُّع العبد إلى غير وقته تفرقةٌ ، واشتغاله بوقته جمعٌ .

واعترضه بعضهم . . بأن ذلك لا يدلُّ على تفرقة خارجةٍ عن مقام الخوف ، لأنَّ متعلَّق كلِّ مقام من ضرورة التخلُّق به ملاحظتُه ، فهو جمعٌ لا تفرقة .

قال : والأَوْلى أن يقال : العبد إذ وقف وسكن مع حالته في الخوف . . استحسن مقامه فيه ، وكونه استعان به على خلاصه من المكروهات ؛ ونشط به في الطاعات . . فوقوفه معه مع استحسانه له حجابٌ بينه وبين ربِّه ، بمعنىٰ أنَّه منعه من انتقاله إلى ما هو أعلى منه وأقربُ إلى ربِّه .

مهرب الخائف : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ محمد بن علي النهاوندي ؛ يقول : سمعتُ إبراهيم ابن فاتك ؛ يقول : سمعتُ النُّوريَّ ؛ يقول : **الخائفُ يهرب من ربِّه إلى ربِّه** : من معصيته إلى طاعته ؛ ومن سَخَطه إلى رضاه ، إذ لا مهرب من الله إلى غيره . . كما مرّ .

علامة الخوف : وقال بعضهم : **علامةُ الخوف التحيُّر** : القلق في أسباب النجاة ،

والفكرة في الخلاص ممَّا يوجب العقاب ، **والوقوفُ على باب الغيب** . ومَن لازم بتذلُّلِه الباب رُجيَ له نيل الثواب ؛ فضلاً عن خلاصه من العقاب .

الخوف والجنيد : سمعتُ أبا عبد الله الصوفيَّ ؛ يقول : سمعتُ عليَّ بن إبراهيم العُكْبُريَّ ؛ يقول : سمعتُ الجنيد ؛ وقد سئل عن الخوف !! فقال : **هو توقُّع العقوبة مع مجاري الأنفاس** : أزمنتِها ، لأنَّ الخوف يرفع عن القلب الحجاب ، وينيله المراقبة برضا الأكرم الوهَّاب .

خلوُّ القلب عن الخوف : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ الحسين بن أحمد الصفَّار ؛ يقول : سمعت محمد بن المسيب ؛ يقول : سمعتُ هاشم بن خالد ؛ يقول : سمعتُ أبا سليمان الداراني ؛ يقول : **ما فارق الخوفُ قلباً إلاَّ خرب** .

لأنَّ الخوف درجات ، ومَن انتقل إلى مقام شريف لم يحذر مما يفسده عليه ، أو لا يكمله ؛ أو لا يرقِّيه إلى ما هو أعلى منه . . فسد عليه ما هو فيه ، فلا يستغني مقام عن الخوف ، لكن شتَّانَ ما بين ١ ـ خوف العذاب . . وخوفِ العتاب ؛ و ٢ ـ خوف الحجاب . . وخوف فراق الأحباب !! .

صدق الخوف : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان ؛ يقول : سمعتُ أبا عثمان ؛ يقول : **صدقُ الخوف هو الورعُ عن الآثام . . ظاهراً وباطناً** .

لأنَّ الورع هو تجنُّب ما يحذر ، فكلُّ خوف لا يثمرُ تجنُّب الخوف . . فليس بخوف صحيح .

طريق الخوف : وقال ذو النون المصريُّ : **الناسُ على الطريق ما لم يَزُل عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضَلُّوا عن الطريق** . لما مرّ أنَّ الخوف لا يستغني عنه مقام .

زينة العبادة : وقال حاتم الأصمُّ : **لكلِّ شيءٍ زينةٌ ، وزينةُ العبادة الخوفُ** ، إذ لا تكمل عبادة وتحفظ مما يشينها إلاَّ بالخوف ، **وعلامةُ الخوف قِصَرُ الأمل** .

لأنَّ مَن قَصُرَ أمله حَسُن عمله ؛ لخوف هجوم موته ، وهو ينفع العاصيَ . . حيث يتخلَّص من زلله ، والمطيعَ . . حيث يجدُّ به في بلوغ أمله .

سبب الخوف : وقال رجل لبشرٍ الحافي : **أراكَ : أظنُّك تخاف الموت !!** . فما سببه ؟!

فقال : القدومُ على الله عزَّ وجلَّ شديد . فيه دليل على كمال تعظيمه لمولاه وشدّة حضوره بسؤاله عن تقواه ! ، وهذا بحسب ما يغلب على قلب العارف ممَّا يُحدِثه الحقُّ فيه . . فتارة يخاف اللقاء ، وتارة يشتاق إليه ويحبُّه ! ومحبَّتُه له تختلف . . تارة خوفاً على نفسه من التغيير ، وتارة لنيل ما يرجوه من فضل العليم الخبير .

يخاف وراء الموت : سمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول :

دخلتُ على الإمام أبي بكر ابن فُوْرَك عائداً له في مرضه ، فلما رآني دَمَعت عيناه ! فقلت له : إن شاء الله سبحانه وتعالى يعافيك ويشفيك ! .

فقال لي : تراني أنِّي أخاف الموت ! ! إنَّما أخاف ممَّا وراءَ الموت ! كأنْ لا يقبل عملي ؛ وأنْ تطرُقَه آفة .

أصحاب القلوب الوجلة : أخبرنا عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد ؛ قال : حدَّثنا محمد بن عثمان ؛ قال حدَّثنا القاسم بن محمد ؛ قال : حدثنا يحيىٰ بن يمان ؛ عن مالك بن مغول ؛ عن عبد الرحمان بن سعيد بن موهب ؛

عن عائشة رضي الله عنها ؛ قالت : قلتُ : يا رسول الله ؛ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ . . أهو الرجل يسرقُ ويزني ويشربُ الخمر ! ؟ .

قال : « لاَ ؛ وَلَكِن ٱلرَّجُلُ . . يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ ، وَيَخَافُ ألاَّ يُقْبَلَ مِنْهُ »[1] ذَلِكَ . فيه دليل على أنَّ الخوف يكون مع كمال طاعة العبد لكونه لا يعرف صحَّة عمله ولا قبولَه ؛ لخفاء ما يطرق الأعمال من الآفات .

ما يهيِّجُ الخوف : وقال ابن المبارك رحمه الله ؛ الذي يهيِّج الخوف حتَّىٰ يسكن في القلب دوامُ المراقبة في السرِّ والعلانية . إذ الحامل على دوامها . . إنَّما هو قوَّة الخوف من لحوق الضرر ، فبتوالي الخوف على القلب تحصل المراقبة ،

---

(١) أخرجه أحمد : ٦/١٥٩ ، ٢٠٥ ؛ والترمذي : ٣١٧٥ ، وابن ماجه : ٤١٩٨ ؛ عن عائشة رضي الله عنها وعن أبويها وهو بصيغة الجمع (أَهُمُ الذين يشربون . . . وفي آخره زيادة : أولئك الذين يسارعون في الخيرات .
والآية : ٦٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المؤمنون .

وعلامة سكون الخوف في القلب تواليه فيه حتى يصير كأنَّه ساكن ، فإن الأعراض لا بقاء لها .

توثيق : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ محمد بن الحسن ؛ يقول : سمعتُ أبا القاسم ابن أبي موسى ؛ يقول : سمعتُ محمَّد بن أحمد ؛ يقول : سمعتُ عليَّاً الرازيَّ[١] ؛ قال : سمعتُ ابن المبارك رحمه الله يقول ذلك - الذي يهيج الخوف . . . إلخ - .

ثمرة الخوف : وسمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن شيبان ؛ يقول : **إذا سكن الخوف القلب** بأن توالى عليه . . . **أحرق مواضع الشهوات منه** ، وطرد رغبة الدنيا عنه ، **لأنَّ الخوف يحجز عنهما** ، ويمنع من الوقوع فيما اشتملت عليه من البليَّات ، ومِن ثَمَّ كانت الدنيا رأسَ كلِّ خطيئة وخوفُ الله تعالى بابَ كلِّ خير .

من معاني الخوف : وقيل : **الخوف قوَّة العلم بمجاري الأحكام** : بتصرُّف الله في خلقه ؛ من هداية وإضلال ، وعافية ومرض وغيرها ، فمَن قويَ علمه بذلك . . لم يأمن على نفسه ؛ وإن كان في أفضل المقامات والأحوال ، وهذا العلم سببُ الخوف . . لا نفسه ، فعبَّر عنه بسببه كما عبَّر الثوري عن الزهد بقِصَر الأمل .

أثر الجلال : وقيل : **الخوف حركةُ القلب وقلقُه من جلال الربِّ وعظمته** . فمتىٰ استشعر القلب نظر الربِّ إليه في حالته التي هو فيها ؛ وإن كانت أفضلَ عباداتِه . . اضطرب قلبه ؛ واقشعرّ جلدُه ووَجِل ، كما قال تعالىٰ ﴿ إذا ذكر ٱلله وجلت قلوبهم﴾[٢] .

وظيفة القلب : وقال أبو سليمان الداراني : **ينبغي للقلب أن لا يكون الغالبُ عليه إلاَّ الخوف ، فإنَّه إذا غلب الرجاءُ على القلب . . فَسَد القلب** .

ثم **قال** لتلميذٍ له اسمه أحمد . . لَمَّا رأىٰ منه ميلا إلى الرجاء : **يا أحمد** ؛ القوم **بالخوف ارتفعوا** ، **فإن ضَيَّعوه نزلوا** . ومع ذلك **فإذا** استقامت أحوال

---

(١) في (م) : حدَّثنا عليٌّ الرازيُّ .
(٢) الآية : ٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنفال .

العبد . . كان الكمال في استواء الخوف والرجاء في القلب من غير إخلال ، وهو الذي أوصىٰ به أبو بكر عمرَ رضي الله عنهما بقوله (ليكون العبد راغباً راهباً . . لا يتألَّىٰ على الله ولا يقنط من رحمته) ؛ أخذاً من الغالب في القرآن . . من ذكر الترغيب والترهيب مقترنَيْن . ويدلُّ له قولُ عمر رضي الله عنه (لو نادىٰ منادٍ من السماء : أيُّها الناس ؛ إنكم كلُّكم داخلون النار إلاَّ رجلاً واحداً لرجوتُ أن أكون أنا هو ! ولو نادىٰ منادٍ : إنَّكم كلُّكم داخلون الجنة إلاَّ رجلاً واحداً . . لخشيت أن أكون أنا هو) .

قال بعضهم : هذا في غير حالة الاحتضار . أمَّا فيها . . فالأَوْلىٰ غلبة الرجاء وحسنُ الظنِّ . وقال الغزالي رحمه الله تعالى : إن غلب على العبد داءُ القنوط واليأس . . فالرجاء أفضلُ ، أو داءُ الأمن من مكر الله فالخوف أفضل .

زِماما النفوس : وقال الواسطيُّ : **الخوفُ والرَّجاء زمامان مستوليان على النفوس يحفظانها ؛ لئلا تخرج إلى رُعوناتها** : سكونها إلى حالتها واستحسانها ما هي علَّتُه من طاعتها ؛ أو جزعها ويأسها من فضل ربِّها عند مخالفتها ، فالخوف والرجاء يصدَّانِها عن رُعونتها ، لأنَّها إذا استحسنت أحوالها ؛ وركنت إلى أعمالها . . زجرها الخوف ، وإن يئست من فضل ربِّها وقنطت لسوء حالها . . جذبها الرجاء للسلامة .

ظهور الحقِّ : **وقال الواسطيُّ أيضاً : إذا ظهر الحقُّ على السرائر** ؛ بأن أظهر الله تعالىٰ لصاحبها . . من جماله وجلاله ما أشغله عن إحساسه بنفسه ؛ فضلاً عن غيره من المخلوقات . . **لا يبقىٰ فيها فضلة** من الإحساس **لرجاء ؛ ولا لخوف** .

توضيح : **قال المستملي : قال الأستاذ الإمام أبو القاسم القشيريُّ : وهذا فيه إشكال** على مَن لم يعرف اصطلاح القوم ؛ لأنَّ الخوف والرجاء مطلوبان ؛ فكيف يثني بفقدهما !؟

وجوابه أن يقال : **ومعناه أنَّه إذا اصطلمت** : استأصلت **شواهدُ الحقِّ تعالى الأسرارَ** ؛ بأن أطلع الله العبد . . من جماله وجلاله على ما أشغله عن إحساسه بنفسه . . مَلَكتها ، **فلا يبقىٰ فيها مساغٌ لذكر حَدَثان** ـ قال الجوهريُّ : الحدث والحديث والحادثة والحَدَثان بمعنىً ـ **والخوف والرجاء من آثار بقاء**

الإحساس بأحكام البشرية . فمع اضطرار العبد لا يُطلَب منه الخوف والرجاء ، إذ لا اختيار له حينئذ في فقدهما ؛ بخلافهما مع اختياره ! .

خائف الأغيار : وقال الحسين بن منصور : مَن خاف من شيءٍ سوى الله تعالى ، أو رجا سواه . . أُغلِق عليه أبوابُ كلِّ شيءٍ من الخير ، لأنَّ غير الله تعالىٰ لا يقدر على تحصيل نفع ولا دفع ضرر ، لأنَّه تعالىٰ هو المنفردُ بالأفعال ، ولو سَلَّط على العبد أضعفَ خلقه . . لكان أضرَّ عليه من أقواهم ، وسلَّط عليه المخافةَ : الخوف من العقاب ؛ لكونه ٱلتفت إلى غيره ، وحَجَب قلبه بسبعين حجاباً لذلك ـ وذكر السبعين !! للمبالغة لا للحصر ؛ كما قيل به في قوله تعالىٰ ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[1] ـ أيسرُها الشكُّ : التردّد الاعتباري مِن نظره إلى الأسباب الظاهرة وغفلته ؛ عن أنَّه تعالىٰ هو المنفرد بالأفعال ، فليس ذلك منه شكًّا في أنَّه الفاعل ؛ أو غيره ، وإلاَّ . . لكان كافراً ، وإنَّما هو تردّد اعتباريٌّ كما قلنا !

وإنَّ مّما أوجب على العبيد شِدَّةَ خوفهم فكرُهم في العواقب التي لا يعلمها إلاَّ الله ، وخشيةُ تغيُّر أحوالهم ، لأنَّه تعالىٰ يفعل ما يشاء ، لا يسئل عما يفعل ، ولا يقع إلا ما سبق في عمله ، والعبد لا يدري أين يصير ! لكنه إن رأى نفسه على الصراط القويم . . غلب على ظنِّه نجاتُها ، وإن رآها بعكس ذلك . . خاف عليها .

فهو . . وإن غلبت طاعاتُه يخاف التغيير والتبديل ، ولا يغتر بحالته التي هو عليها !! قال الله تعالىٰ ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[2] : يظنُّون ، وقال الله تعالىٰ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[3] . فكم مِن مغبوط في أحواله . . انعكست عليه الحالُ التي هو فيها ! ومُنِي وقُدِّر له بمقارفة : مخالطة قبيح الأعمال ؛ فَبُدِّل بالأُنس

---

(١) الآية : ٨٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة . وانظر ما تقدم ص٢٥٨ وص٣٩٠ .
(٢) الآية : ٤٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الزمر .
(٣) الآية : ١٠٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الكهف .

وحشة ، وبالحضور غيبة . . فلا يغترُّ العبد بحالته التي هو فيها ، وإن سكنت نفسه إليها ؛ وأثنىٰ عليه الناس بها !

الصفو والكدر : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقّاق رحمه الله ؛ ينشد كثيراً[1] :

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِـٱلأَيَّـامِ إِذْ حَسُنَـتْ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ ٱلقَدَرُ ؟!
وَسَالَمَتْكَ ٱللَّيَالِي فَـٱغْتَـرَرْتَ بِهَـا وَعِنْدَ صَفْوِ ٱللَّيَالِي يَحْدُثُ ٱلكَدَرُ!

خاتمة مرتدٍّ : سمعت منصور بن خلف المغربيَّ رحمه الله ؛ يقول : كان رجلان اُصطحبا في الإرادة : المشيئة ؛ وفي العبادة بُرهة : مدّة طويلة من الزمان ، ثمَّ إنَّ أحدَهما سافر ؛ وفارق صاحبه . . : مضىٰ ، وأتى عليه مدَّة من الزمان ؛ ولم يسمع منه ـ بمعنىٰ عنه ، وفي نسخة : له ـ خبراً . . فبينا هذا الآخر كان في غزاة يقاتل عسكر الروم ؛ إذ خرج على المسلمين رجل مقنَّعٌ في السلاح ، يطلب المبارزة . . فخرج إليه من أبطال المسلمين واحدٌ ، فقتله الروميُّ ! ثمَّ خرج إليه آخر ؛ فقتله ! ثمَّ ثالث ؛ فقتله ، فخرج إليه هذا الصوفيُّ . . الذي كان صاحبه ، وتطارَدَا وتضاربا . . فحَسَر الروميُّ قناعه عن وجهه ، فإذا هو صاحبُه الذي صحِبَه في الإرادة والعبادة سنين[2] ؟!! .

فقال هذا له : إيش الخبر !؟

فقال له : إنَّه ـ يعني نفسه ـ ارتدَّ وخالط القوم الذين صحبَهم من الكفَّار ، ووُلِد له أولاد ؛ واجتمع له مال .

فقال : وكنتَ تقرأُ القرآن بقراءاتٍ كثيرة !! .

فقال : لا أذكُر منه حرفا ! .

فقال له هذا الصوفي : لا تفعل ، وارجع عن صحبة هؤلاء إلى ما كنت عليه ؛ فقال : لا أفعلُ ، فلي فيهم جاهٌ ومال ، فانصرف أنتَ عنِّي ، وإلاَّ !

---

(١) من البسيط .

(٢) أقول : في إيراد مثل هذه العبارة غاية التخويف ، وما أظنُّ مثل هذا المرتد إلاّ أنه كان من المنافقين في حالته الأولىٰ ، وإلاّ فيبعد كلَّ البُعد أن مَن يذوق حلاوة الإيمان بقلبه مدَّة طويلة أنَّه يصدر منه مثل ذلك !! والله أعلم (عروسي : ٢/١٩٩) .

فعلتُ[1] بك ما فعلتُ بأولئك الثلاثة .

فقال له الصوفيُّ : اعلم أنَّك قتلتَ ثلاثة من المسلمين ، وليس عليك أَنَفَةٌ في الانصراف ، فانصرف أنت وأنا أُمهلُك إلى أن ترجع !

فرجع الرجل مولِّياً . . فتبعه هذا الصوفيُّ ؛ وطعنَهُ فقتله[2] .

فبعد تلك المجاهدات ؛ ومقاساةِ تلك الرياضات منه قُتل على النصرانية !! .

﴿ لا تأمَنَا مكري ﴾ : وقيل : لما ظهر على إبليس ما ظهر بعد مجاهدته ورياضته . . طفق جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ يبكيان زماناً طويلاً !! فأوحىٰ الله تعالىٰ إليهما ﴿ ما لكما تبكيان كُلَّ هذا البكاء !؟ ﴾ فقالا : يا ربنا ؛ لا نأمَنُ مكرَك، فنبكي خوفاً من مكرك بنا بالتغيير والتبديل ؛ كما وقع لإبليس !

فقال الله تعالى : ﴿ هكذا كونا ، لا تأمنا مكري ﴾ .

خائف العقوبة : ويُحكىٰ عن السريِّ السَّقَطي رحمه الله أنَّه قال : إنِّي لأنظر إلى أنفي في اليوم كذا وكذا مرَّة ؛ مخافةَ أن يكون قد اْسودَّ ، لِما أخافه من العقوبة !!

أعماله دليله : وقال أبو حفص : منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أنَّ الله تعالى ينظر إليَّ نظر السَّخَط والمقت ، وأعمالي تدلُّ على ذلك : لكثرة غفلاته ، أو لسوء أدبه في معاملاته مع الله ؛ ومع خلقه .

حذر الاغترار : وقال حاتم الأصمُّ : لا تغترَّ بموضع صالح ؛ فلا مكانَ أصلحُ من الجنة . . فلقي آدم عليه السلام فيها ما لَقِيَ مما هو معروف !! ولا تغترَّ بكثرة العبادة ؛ فإنَّ إبليس بعد طول تعبُّده لقي ما لقي من الردَّة وغيرها !! ولاَ تغترَّ بكثرة العلم ؛ فإنَّ « بلعام » ـ ويقال (بلعم بن باعورا ؛ من علماء بني إسرائيل ـ كان يُحسن اسمَ الله الأعظم !! فانظر ماذا لقي ! حيث كفر وصار

---

(١) في (م) : لأفعلنَّ .

(٢) ليس هذا غدراً من المسلم . ١ ـ لأنَّه أخبر أنَّه يمهله ولم يخبر أنه لا يتبعه . و٢ ـ لأنه محارب وليس مستأمناً ، و٣ ـ لأنَّه مرتدٌّ عُرض عليه الإيمان فأبىٰ فدمُهُ هدر ، و٤ ـ ليس لتلك الدار أحكام ؛ لأنَّها دار حرب . والله أعلم .

﴿ فمثله كمثل ٱلكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾[1] مع اندلاع لسانه على صدره .

ولا تغترَّ برؤية الصالحين ؛ فلا شخصَ أكبرُ قدراً من المصطفىٰ ﷺ . . و مع ذلك لم ينتفع بلقائِهِ أقاربُهُ وأعداؤه ! ! .

المجترىءُ على الله : وخرج ابن المبارك يوماً على أصحابه ؛ فقال لهم : إنِّي قد ٱجترأت البارحةَ على الله تعالىٰ حيث سألتُه الجنَّة . . وأنا حقير في نفسي ؛ ولا تصلح أحوالي لسؤالها ! ! وكان حقِّي أن أستعيذ به من النار .

استجيب لهما : وقيل : خرج عيسىٰ عليه السلام ؛ ومعه صالحٌ من صالحيْ بني إسرائيل ، فتبعهما رجلُ خاطيءٌ مشهورٌ بالفسق فيهم ، فقعد منتبَذاً : منفرداً عنهما منكسراً ذليلاً .

فدعا الله سبحانه ؛ وقال : اللهم اغفر لي .

ودعا هذا الصالحُ ؛ وقال : اللهم ؛ لا تجمع غداً : يوم القيامة بيني وبينَ ذلك العاصي . .

فأوحىٰ الله تعالىٰ إلى عيسىٰ عليه السلام : ﴿ إنِّي قد استجبت دعاءهما جميعاً ؛ رددتُ ذلك الصالح ـ لاغترار بعمله ـ وغفرتُ لذلك المجرم ﴾ لتفويضه أمره إلى ربِّه ؛ ونظره إلى عمله بعين النقص !

سبب جنونه : وقال ذو النون المصريُّ : قلت لعليم المجنون : لمَ سمِّيت مجنوناً ؟ !

قال : لما طال حبسي عنه ـ: عن رؤيته تعالىٰ ـ في الدنيا صرتُ مجنوناً لخوف فراقِه في الآخرة ؛ بأن لا أراه فيها .

وفي معناه أنشدوا[2] :

لَوْ أَنَّ مَا بِي عَلَىٰ صَخْرٍ لأَنْحَلَهُ : أهرمه وأسقمه
فَكَيْفَ يَحْمِلُهُ خَلْقٌ مِنَ ٱلطِّيْنِ ! !

---

(١) الآية : ١٧٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .
(٢) لَـوْ أَنَّ مَـا بِـي عَلَـىٰ صَخْـرٍ لأَنْحَلَـهُ فَكَيْـفَ يَحْمِلُـهُ خَلْـقٌ مِـنَ ٱلطِّيْـنِ ؟!

خوف ابن سيرين : **وقال بعضهم** : **ما رأيتُ رجلاً أعظمَ رجاءً لهذه** ـ وفي نسخة : في هذه ـ **الأُمَّة** ، **ولا أشدَّ خوفاً على نفسه من ابن سيرين** . حيث نظر إلى عمله بعين النقص وحسَّن ظنَّه بالمسلمين فرجا لهم العفو عما يقع منهم .

خوف سفيان : **وقيل** : **مرض سفيان الثوريُّ** ، **فعرض دليله** : ما يستدلُّ به على مرضه **على الطبيب** ؟! **فقال** : **هذا رجل قطع الخوفُ كَبِدَه** . **ثم جاءَ إليه وجَسَّ عِرْقه** : نبضه ، **ثمَّ قال** : **ما علمتُ أنَّ في الحنيفية مثله** ، في كمال خوفه وتغيُّره !!.

مثل المؤمن واصفرار الشمس : **وسئل الشبلي** : **لم تصفَرُّ الشمس عند الغروب** ؟!.

فقالْ : **لأنَّها عُزِلت عن مكان التمام** ؛ **فاصفرت لخوف المقام** : مقامِ التمام ، **وكذا المؤمنُ إذا قَارَبَ خروجُه من الدنيا** .. **اْصفرَّ لونُه** ، **لأنَّه يخاف المقام** .

فإذا طلعت الشمس طلعت مضيئة ؛ **كذلك المؤمن** .. **إذا بُعث من قبره خرج ووجهه يشرق** : يضيءُ .

خوف ابن حنبل : **ويحكىٰ عن أحمدَ ابنِ حنبل رحمه الله تعالى** ؛ **أنه قال** :

سألتُ ربِّي عزَّ وجلَّ أن يفتح عليَّ باباً من الخوف ففتح عليَّ به ، **فخِفْتُ على عقلي** ؛ **فقلت** : **يا ربِّ** ؛ **أعطني على قدر ما أطيق** . **فسكن عني ذلك** !

فعُلِم أنَّ الخوف يتنوَّع بتنوُّع المُخْوِف منه ؛ وإن تواليه على العبد يرقِّيه إلى أعالي الدرجات ، ويحفظ عليه ما يخاف منه الفوات . والله أعلم .

* * *

* *

*

٩ ـ باب الرجاء
بالمدِّ بمعنىٰ الأمل ، وسيأتي بيانه .

طلبه : وسببه الدوامُ على الأعمال الصالحة . وهو ممدوح ومطلوب .

البشارة به : قال الله تعالىٰ ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ ـ: بالبعث والجزاء . . . ـ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ ﴾[1] ، وقال تعالىٰ ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾[2] .

أخبرنا أبو الحسن عليُّ بن أحمد الأهوازيُّ ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد الصفَّار ؛ قال : حدَّثنا عمْرو بن مسلم الثقفيُّ ؛ قال : حدَّثنا الحسن بن خالد ؛ قال : حدَّثنا العلاء ابن زيد ؛ قال : دخلتُ على مالك بن دينار ؛ فرأيت عنده شهرَ بن حَوْشَب . . فلما خرجنا من عنده ؛ قلت لشهر : يرحمك الله تعالىٰ ؛ زوِّدني زوَّدك الله تعالى !! فقال : نعم ؛ حدَّثتني عمتِّي أمُّ الدرداء ؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه ؛ عن نبيِّ الله ﷺ ؛ عن جبريل عليه السلام ؛ قال : « قالَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يا عَبْدِي ؛ مَا عَبَدْتَنِي وَرَجَوْتَنِي ؛ وَلَمْ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً غَفَرْتُ لَكَ مَا كَانَ مِنْكَ ، وَلَو ٱسْتَقْبَلْتَنِي بِملْءِ ٱلأَرْضِ خَطَايَا وَذُنُوباً ٱسْتَقْبَلْتُكَ بِمثْلِهَا مَغْفِرَةً ؛ فَأَغْفِرُ لَكَ . . وَلاَ أُبَالِي ﴾ »[3] بأحدٍ .

فيه دلالة على سعة رحمه الله تعالىٰ للتائبين حيث يغفر لهم جميع ذنوبهم .

ويؤيِّدُه قوله تعالى ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ ﴾ . . الآية[4] ، وقوله

---

(١) الآية : ٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : العنكبوت .

(٢) الآية : ١١٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الكهف .

(٣) أخرجه الترمذي : ٣٥٤٠ ؛ وقال حسن صحيح ؛ عن أنس بن مالك . وأحمد : ٥/ ٢٧ . والدارمي : ٢/ ٣٢٢ .

(٤) الآية : ١٥٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأعراف .

تعالىٰ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1] ، وخبر : « التَّائِبُ مِنَ ٱلذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ »[2] .

كرامة المؤمن : أخبرنا عليُّ بن أحمد؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد؛ قال : حدَّثنا بشر بن موسىٰ؛ قال : حدَّثنا خلف بن الوليد؛ قال : حدَّثنا مروان بن معاوية الفِزَاريُّ؛ قال : حدَّثنا أبو سفيان طريف ؛ عن عبد الله بن الحارث ؛ عن أنس بن مالك ؛ قال : قال رسول الله ﷺ :

« يَقُولُ ٱللهُ تَعَالَىٰ يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ : ﴿ أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ شَعِيْرٍ مِنْ إِيْمَانٍ ﴾ . ثُمَّ يَقُولُ : ﴿ أَخْرِجُوا مِنَ ٱلنَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِه مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ ﴾ ، ثُمَّ يَقُولُ : ﴿ وَعِزَّتِي وَجَلالِي ؛ لاَ أَجْعَلُ مَنْ آمَنَ بِي سَاعَةً مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ كَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِي ﴾ »[3] . بل أجعله كمن آمن بي أبداً ، لأنَّ الإيمان يَجُبُّ ما قبله .

ثمراته : وثمرات الرجاء لمن داوم على الأعمال الصالحة[4] عظيمةٌ ، ويكفي فيها قولُ النَّبيِّ ﷺ : « قَالَ ٱللهُ : ﴿ مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ٱلْمُتَقَرِّبُونَ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا ٱفْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِٱلنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ ، فَإِذا أَحْبَبْتُهُ . . كُنْتُ سَمْعَهُ ٱلَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرُهُ ٱلَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ ٱلَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ ٱلَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ دَعَانِي لأُجِيْبَنَّهُ ، وَإِن سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَإِنْ ٱسْتَعَاذَنِي لأُعِيْذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ . . تَرَدُّدِي فِيْ نَفْسِ ٱلْمُؤْمِنِ ؛ يَكْرَهُ ٱلْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ﴾ » . فإنَّه يدلُّ على أنَّ هذا العبد محفوظ في سائر أعضائه ؛ فلا يتكلَّم ، ولا يسمع ولا يبصر ؛ ولا يمدّ يده ولا رجله إلا محفوظاً من الزلل . . جارياً على حسن العمل ، ويدلُّ على أنَّه مجاب الدعوة .

---

(١) الآية : ٤٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

(٢) تقدم تخريجه أوائل باب التوبة ص ٣٤٠ .

(٣) أخرجه الطبراني في « الصغير » : ٢/ ٤١ بسنده من مروان إلىٰ أنس . . .
ومن شواهد ما أخرجه مسلم : ١٤٨ ـ ٩١ ، وأبو داود : ٤٠٩١ ، والترمذي : ١٩٩٩ ، وقال حسن صحيح ؛ عن عبد الله بن مسعود : « . . لاَ يَدْخُلُ ٱلنَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقالُ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ » .

(٤) تصريح بالمعلوم من حقيقة الرجاء المشروع علىٰ ما لا يخفىٰ ، وإلا كان طمعاً محرَّماً (عروسي : ٢/ ٢٠٣) .

ثم بيَّن حقيقة الرجاء ؛ فقال :

معناه : **الرجاءُ تعلُّق القلب بمحبوبٍ** . . من جلب نفع ؛ أو دفع ضُرٍّ **سيحصلُ في المستقبل** . وذلك بأن يغلب على القلب الظنُّ بمحصوله في المستقبل .

متعلَّقه : **وكما أنَّ الخوف** المقابل للرجاء **يقع** متعلَّقهُ **في مستقبل الزمان** . . **فكذلك الرجاء ؛ يحصل لما** ـ : لمحبوب ـ **يؤمَّل** وقوعه في زمن في الاستقبال ، **وبالرجاء** المرتَّب على العمل الصالح يحصل **عيشُ القلوب** ؛ **واستقلالها** بالملاذِّ الأُخروية .

مطلب
الفرق بين الرجاء والتمنِّي

والفرق بين الرجاء وبين التمنِّي؛ وهو طلب ما لا طمع وفي وقوعه كـ (ليت الشباب يعود) : **أنَّ التمنِّي يصاحبُه**[1] **الكسل** ، **ولا يسلك** صاحبه **طريق الجهد والجدّ** في الطاعات ، **وبعكسه صاحبُ الرجاء** ، **فإنَّه** يسلك طريق ذلك .

فالرجاء محمودٌ ، **والتمنِّي معلول** : مذموم .

كلامهم عن الرجاء : **وقد تكلَّموا** ـ الصوفية ـ **في الرجاء** ؛ **فقال شاهٌ الكرمانيُّ** : **علامةُ الرجاء حسنُ الطاعة** . ومن المعهود في أعمال الدنيا أنَّ مَن وضع حبَّة في أرض طيبة قد رويت قويَ رجاؤه وظنُّه بحصول مطلوبه ، وعكسه مَن وضع حبّة في أرض سَبْخة في زمن الصيف ؛ وقال (الله قادر على أن ينبتَه فيها) . وهذا القول ؛ وإن كان صحيحاً . . لكن المتَّبَعَ ما أجراه الله من عادته في خلقه .

أنواعه : **وقال** ابن خُبَيق : أصل **الرجاءُ ثلاثة** : **١ـ رجل عمل حسنة ؛ فهو يرجو** قَبُولها . و **٢ـ رجلٌ عمِل سيِّئةً ثم تاب ؛ فهو يرجو المغفرة** . **والثالث** : **الرجل الكاذب** المغرور . . **يتمادىٰ في الذنوب ويقول** : **أرجو المغفرة** .

---

(١) (م) يورث صاحبه .

فيتمنَّاها مع إقامة الزلل ، فحقُّ الحازم أن لا يزال على وجل ؛ وإن حَسُن عمله . قال الله تعالىٰ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [١] .

وتقـدَّم في (باب الخوف) ص ٤٣٨ خبرُ عائشـة رضي الله عنهـا في تفسـير هؤلاء .

ومَن عرف نفسَه بالإساءة ينبغي ـ أي : فالأولىٰ ـ أن يكون خوفُه غالباً على رجائه . إذ الخوف يقلع به العبد عن الزلاَّت ؛ خوفاً من العقوبات ، والرجاء طمعٌ في رفيع الدرجات ، وكأنَّ هذا مقيَّدٌ لما مرَّ في الباب السابق .

من معانيه : وقيل : الرجاء ثقةُ الجود من الكريم الودود .

وقيل : **الرجاء رؤيةُ الجلال بعين الجمال** . كلٌّ منهما ليس برجاء ! بل الأوَّل سببُه ، لأنَّ الثقة بالوعد تحمل العبد على العمل الموعود عليه بالثواب ، وعلى التوبة الموعودِ بها بالغفران والصفح عن العذاب ، والثاني راجع إلى المعرفة ؛ أو إلى المرجوِّ . . دون الرجاء .

وقيل : **هو قربُ القلب من ملاطفة الربِّ** . هذا قريب مما قبله ، وفيه إشارة إلى الحضور ودوامِ العلم . . بتوالي نعم الله على العبد .

وقيـل : **هو سرور الفؤاد بحسن المعاد** : المرجع والمصير . ـ وفي نسخة : الميعاد ـ

وقيل : **هو النظر إلىٰ سعة رحمة الله تعالىٰ** . كلٌّ منهما يشمل التمنِّي ! مع أنَّ الثانيَ يرجع إلى سبب الرجاء . . دون الرجاء ! لأنَّ النظر في سعة رحمة الله تعالىٰ يحمل العبد على العمل والتوبة .

الخوف والرجاء : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ منصور ابن عبد الله ؛ يقول : سمعتُ أبا عليٍّ الرُّوذَباري ؛ يقول : **الخوفُ والرجاء هما كجناحَيْ الطائر ؛ إذا استويا استوىٰ الطير . . وتمَّ طيرانُه ، وإذا نقص أحدُهما ! وَقعَ فيه النقص ، وإذا ذهبا ؟ صارَ الطائرُ في حدِّ الموت** .

---

(١) الآية : ٦٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المؤمنون .

وذلك لأنَّه تعالى مدح مَن استقام على طاعته بقوله ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[1] بتفسير الرَّغَب بالرجاء ؛ والرَّهَب بالخوف ، فمتى استقام العبد في أحواله . . استقام في سلوكه في طاعاته باعتدال رجائه وخوفه ، ومتى قَصَّر في طاعاته . . ضعُف رجاؤه ودنا منه الضلال ، ومتى قلَّ خوفه وحذرُه من مفسدات الأعمال . . تعرض للهلاك . ومتى عدم الرجاء والخوف . . تمكَّن منه عدوُّه وهواه ، وبَعُد عن حزبِ مَن حفظه ربُّه وتولاَّه .

وبذلك عُلم وجهُ الشَّبَه بينهما وبين جناحَيْ الطائر .

علامة الرجاء : **وسمعته** : **السُّلَمي؛ يقول** : **سمعت النَّصرَاباذي؛ يقول** : **سمعت ابن أبي حاتم** ؛ **يقول** : **سمعت علي بن شَهْمَرْذان** ؛ **يقول** : **قال أحمد بن عاصم الأنطاكي** ؛ **و** قد سئل (ما علامة الرجاء في العبد ؟) قال : **أن يكون إذا أحاط به الإحسان أُلهم الشكر** ؛ **راجياً لتمام النعمة من الله تعالىٰ عليه في الدنيا ، وتمام عفوه في الآخرة** .

لأنَّ مَن توالت عليه النعم من ربِّه ورَجَا دوامها وتوالي أمثالها . . شكرها ، فإنَّ شكره عملٌ وُعِد عليه بالزيادة ، كما قال تعالىٰ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2] .

من ثمراته : **وقال أبو عبد الله ابن خفيف** : **الرجاءُ استبشارٌ بوجود فضله** . هذا ليس برجاء !! بل هو راجع إلى الفرح بالنعم ، لأنَّه استبشار بحاصل ؛ والرجاء طمعٌ فيما لم يحصل .

وقال أيضاً : الرجاء **ارتياحُ القلوب لرؤية كرم المرجوِّ المحبوب** . هذا أيضاً ليس برجاء ! بل هو راجع إلى سببه ؛ أو إلى المعرفة بكرم الله تعالىٰ وصفاته .

سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : **سمعتُ أبا عثمان المغربيَّ ؛ يقول** : **مَن حمل نفسه على الرجاء** ؛ بأن نظر إلى ما منّ الله به عليه . . **تعطَّل** عن الطاعة ؛ لأمنه مِن مَكر الله تعالىٰ ، **ومن حمل نفسه على الخوف** ؛ بأن تفكَّر فيما ارتكبه من الزلات . . **قَنِط** وأيس من رحمة الله تعالىٰ ، **ولكن يحمل مِن هٰذِهِ** الجهة **مرَّة** . . **ومن هذه** الأخرىٰ **مرَّة** . بحيث يداوي زيادة

---

(١) الآية : ٩٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنبياء .

(٢) الآية : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

الرجاء بالخوف . . وبالعكس !

وهذا طريقُ مَن أراد أن يستويَ رجاؤه وخوفه، ويستوي على سلوك الطريق .

عشية احتضاره : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : حدَّثنا أبو العبَّاس البغداديُّ ؛ قال : حدَّثنا الحسن بن صفوان؛ قال: حدَّثنا ابن أبي الدنيا؛ قال: حُدِّثتُ عن بكر بن سليم الصوَّاف ؛ قال : **دخلنا على مالك بن أنس في العَشِيَّة التي قُبض فيها؛ فقلنا. يا أبا عبد الله؛ كيف تجدُك؟ فقال : ما أدري ما أقولُ لكم !** : مما رأيت الآن من إكرام الله لي ، ومن صور الملائكة الذي يعالجون روحي ؛ بحيث عجزت عن أن أعبِّر عنه بلساني !

غيرَ أنَّكم ستعاينون من عفو الله تعالى ما لم يكن لكم في حساب ! ثمَّ ما برحنا من مكاننا **حتَّىٰ أغمَضناه** . فأولياء الله تعالىٰ أعدَّ لهم من النعيم ما لا عين رأت ؛ ولا أذن سمعت ؛ ولا خطر على قلب بشر .

توبة ورجاؤه : **وقال يحيىٰ بن معاذ : يكادُ رجائي لك يا الله مع الذنوب يغلبُ رجائي لك مع الأعمال ، لأنِّي أجدنُي أعتمدُ في الأعمال على الإخلاص ؛ وكيف أُحرِزها** : أحفظها من الآفة ؛ **وأنا بالآفة** . . من الرياء والكِبْر والعُجب ونحوهما **معروف ! وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوِك ، وكيف لا تغفرُها ؛ وأنت بالجود موصوف !!** .

شغل منازع : **وكلَّموا ذا النون المصريَّ** . . **وهو في النزع ؛ فقال : لا تشغلوني !** : عن كمال شغلي بربِّي ومناجاتي له ؛ **فقد تعجَّبتُ من كثرةِ لطفِ الله تعالىٰ معي** : بي من الخير والتقريب .

أحلى العطايا : **وقال يحيى بن معاذ : إلهي ؛ أحلىٰ العطايا** وأطيبُها وألذُّها **في قلبي رجاؤك** ؛ لما تجدِّدُه عليَّ من فضلك ، **وأعذبُ الكلام علىٰ لساني ثناؤك** لكمال محبَّتي لك ، **وأحبُّ الساعاتِ إليَّ ساعةٌ يكون فيها لقاؤك** : بموتي ؛ أو بحضوري معك . . بأن لا أشتغل بغيرك ، لما في ذلك من مراقبتك واستشعار نظرك إليَّ ؛ ودوام الأدب حينئذ .

آية البشرى : **وفي بعض التفاسير : أنَّ رسول الله ﷺ دخل على أصحابه من باب بني شيبة ؛ فرآهم يضحكون !** . **فقال** منكِراً عليهم : « **أَتَضْحَكُونَ !! لَوْ تَعْلَمُونَ**

مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيْلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيْراً » ! ثمَّ مرَّ إلى جهته ، ثمَّ رجع إليهم رجوع القهقرىٰ ؛ وقال : « نَزَلَ عَلَيَّ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَأَتَىٰ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ »[1] .

فيه دلالة على سَعَة رحمة الله تعالىٰ ؛ وكمال تجاوزه عن خَلْقه ، وعلى أنَّ رجاء العفو لا ينافيه الانبساطُ بالضَّحِك ونحوه ، وإلاَّ لشقَّ ذلك على خلقه .

مطلب
في ضحكه تعالى

اليأس والقنوط : أخبرنا أبو الحسن عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ ؛ قال : حدَّثنا أبو الحسن الصفَّار ؛ قال : حدَّثنا عبَّاس بن تميم ؛ قال : حدَّثنا يحيىٰ بن أيُّوب ؛ قال : حدَّثنا مسلم ابن سالم ؛ قال : حدَّثنا خارجةُ بن مصعب ؛ عن زيد بن أسلم ؛ عن عطاء بن يسار ؛ عن عائشة ؛ قالت : سمعتُ رسول الله ﷺ : يقول : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ لَيَضْحَكُ مِنْ يَأْسِ ٱلعِبَادِ وَقُنُوطِهِمْ وَقُرْبِ ٱلرَّحْمَةِ مِنْهُمْ » ! فقلتُ : بأبي وأمِّي يا رسول الله ؛ أَوَ يضحكُ ربُّنا عزَّ وجلَّ !؟ . فقال : « وَٱلَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ إِنَّهُ لَيَضْحَكُ » . فقالت : لا يعدِمُنَا خيراً إذا ضحك[2] ! .

إذ الضحك علامةُ الرضا ، وبذلك عُلِم أنَّه تعالىٰ لا تضرُّه معصية ؛ ولا تنفعه طاعة . فمن أطاعه فبركةُ طاعته عائدة عليه ، ومن عصاه فشؤم معصيته راجع إليه ، فإن تاب عنها فلا ييأس من رحمة الله ، فإن أيس منها !

---

(١) الآية : ٤٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحجر .
والحديث عزاه القرطبي في «تفسيره» : ١٠/ ٣٥ إلىٰ الثعلبي عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه . . . . . .
ومن شواهده ما أخرجه ابن ماجه : ١٨١ ، وأحمد : ٤/ ١١ ؛ عن أبي رزين . . « ضَحِكَ رَبُّنَا من قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غَيْرِهِ » قال : قلت : يا رسول الله ؛ أَوَيَضحَك الرَّبُّ ؟! قال : « نَعَم » . قلت : لَن نعدم من ربٍّ يضحك خيراً » .

فهو جاهل ، ومِن ثَمَّ ضحك تعالىٰ ممن ييأس ، لأنَّه أتى بشيء عجيب ؛ وهو غفلته عن سعة رحمته ، أو جهلُه واعتقاده أنَّ معصيته يرجع إلى ربه منها شيءٌ ! فضحك ربُّه مقابلةً له بضدِّ حاله . فإنَّه لَمَّا أيس من رحمته . . أسبغها عليه لا سيَّما بعد توبته .

وٱعلم أنَّ الضحك في وصفه تعالىٰ ليسَ الضحكَ المعتاد . . تعالىٰ الله عن ذلك . بل هو من صفاتِ فعله ؛ وهو إظهار فضله ، كما يقال (ضحكت الأرض بالنبات) : أخرجتهُ منها . وضَحِكُه ـ الأولىٰ : فضحكه ـ تعالىٰ من قنوطهم إظهارُ تحقيقِ فضله الذي هو ضعفُ بل أضعاف طول انتظارهم له ؛ المرتَّب عليه يأسهم .

المجوسيُّ الضيف : وقيل : إنَّ مجوسيّاً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام : طلبَ منه أن يضيِّفَه . فقال له : « إن أسلمتَ أضفتُك » . فقال المجوسيُّ : إذا أسلمتُ فأيُّ مِنَّةٍ تكون لك عليَّ !؟ فمرَّ المجوسيُّ : جاوزه . فأوحىٰ الله عزَّ وجلَّ إلى إبراهيم عليه السلام : ﴿يا إبراهيم ؛ لم تطعِمْهُ إلاَّ بتغييره دينه !! نحن منذ سبعين سنة نطعمُه على كفره!! فلو أضفتَه ليلة . . ماذا عليك!؟ من الحرج﴾ فمرَّ إبراهيم عليه السلام خلفَ المجوسيِّ ؛ وأضافه ، فقال له المجوسيُّ : أيُّ شيءٍ كان السببَ في الذي بدا لك ؟ فذكر له ذلك . فقال له المجوسيُّ : أهكذا يعاملني !؟ وفي رواية : نعم الربُّ ربٌّ يعاتب نبيَّهُ في عدوِّه ! . ثم قال : اِعرضْ عليَّ الإسلام . فعرضه عليه فأسلم[1] .

وجه تعلُّق هذا بالرجاء أنَّه تعالى يجعل الأسباب الضعيفة موصلة لغفرانِ الذنوب العظيمة ، فإذا علم العبد بذلك تعلَّق قلبه بمحبوبه ؛ من جلب نفع

---

(١) في هذه القصَّة تنبيه علىٰ أنّه لا ينبغي الاغترار بالعمل ؛ ولا القنوط من الخطيئة ، ولا احتقار مخلوق لكفره ؛ أو فسقه ، إذ العواقب مجهولة ، وأسباب السلامة قد تكون معلولة ، ولا عظم للذنوب في جانب الرحمة ، فقد تكون النجاة من عظيم الآثام بقليل بذل الحطام ، وقد يزلُّ قَدَمُ ذي الكمال بعد مجاهدة الأيام والليال ، فالله يرزقنا السلامة والتسليم ؛ لمجاري أفعال العزيز الحكيم (عروسي : ٢/٢٠٨) .

ودفع ضرر .

وفيما ذكره إشارة إلى أنَّ الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة . . حيث بسطها لأعدائه ، وبسطُ رحمته الدنيويّة يعمُّ الكافر والمؤمن ، بخلاف الأُخرويّة ، كما قال تعالىٰ ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] ولمَّا رأى المجوسيُّ فضل الله عليه في معاتبة نبيِّه لأجل عدوِّه وشكر ذلك . . جازاه الله بتوفيقه للإسلام .

رؤيا أبي سهل : سمعت الشيخ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : رأىٰ الأستاذ أبو سهل الصعلوكيَّ رحمه الله أبا سهل الزجَّاج في النوم ؛ وكان يقول بوعيدِ الأبد : بأنّ الله تعالىٰ إذا توعّد على معصية بعقاب فلا بُدَّ من وقوعه . وهو غفلة منه عن شرطه ، فإن ذلك يغفره إذا شاء ؛ كما قال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[2] فقال له : كيف حالك ؟ فقال : وجدنا الأمرَ أسهل ممَّا توهَّمْنا . يحتمل أن يكون الله غفر له اعتقاده المذكور ؛ لغفلته عن شرطه ؛ ويحتمل أنَّه تاب عن اعتقاده قبل موته ؛ ولم يعلم الرائي حاله ! فلما رآه في المنام وسأله عن حاله . . أخبره بما ذُكر .

حسن الظنِّ : سمعتُ أبا بكر ابن أشكيب ؛ يقول : رأيتُ الأستاذ أبا سهل الصعلوكيَّ في المنام علىٰ هيئة حسنة لا توصف ؛ فقلت له : يا أستاذ ؛ بمَ نلت هذا ؟ ، فقال : بحسن ظنِّي بربِّي . . بحسن ظنِّي بربِّي (مرتين) .

ورئي مالك بن دينار في المنام؛ فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : قدمِتُ على ربِّي عزَّ وجلَّ بذنوب كثيرة؛ محاها عنِّي حسنُ ظنِّي به تعالى . لقوله تعالىٰ ﴿ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي ﴾ . وقَد عرفتَ أنَّ الرؤيا . . إمَّا مبشِّرة ؛ أو منذرة . فمن غلب عليه الخوف حتَّىٰ خشي عليه من اليأس من رحمة الله تعالىٰ . . أراه الله في نومة مَن يعتقد صلاحه فيعرِّفُه سعة رحمة الله للخلق ، فيقلُّ مما فيه ويسلم من اليأس ، فتكون الرؤيا في حقِّه مبشِّرَة ، ومَن غلب عليه توالي

---

(١) الآية : ٣٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الزخرف .

(٢) الآية : ٤٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

الغفلات ؛ ثمَّ منَّ الله عليه بالتوبة ؛ واشتغل بالأعمال الصالحة ؛ وغفل بما هو فيه من حسن حاله عما كان فيه قَبْلُ . . أراه الله في نومه من يعتقد صلاحه ، وحذَّره من أدنىٰ الشُّبَه ، فيقول (كيف حالك ؟) فيقول : الساعة كما تخلَّصت من الحساب . فتكون الرؤيا في حقِّه منذرة وحاملة له على تدارُك ما فات ؛ ويقول لنفسه : إذا كان مثل هذا الصالح كما تخلَّص من الحساب . . فكيف يكون حالي ؟!

ورُوي عن النَّبيِّ ﷺ ؛ أنه قال : « يَقُولُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ؛ إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ . . ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ! ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُم[1] ، ـ وفي رواية[2] : فِيْ مَلأٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَئِهِم ـ وَإِنِ ٱقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرَاً . . ٱقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعَاً ، وَإِنِ ٱقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِراعَاً . . ٱقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعَاً ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي . . أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً ﴾ » .

توثيق وتوضيح : أخبرنا بذلك أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفرايني؛ قال : أخبرنا يعقوب بن إسحاق؛ قال : حدَّثنا عليُّ بن حرب؛ قال : حدَّثنا أبو معاوية؛ ومحمد بن عبيد؛ عن الأعمش ؛ عن أبي صالح؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ عن النَّبيِّ ﷺ يقول ذلك . ورواه مسلم أيضاً . وفيه دَلالة على أنَّ العبد إذا عمل يسيراً من الطاعة أعطاه الله من الأجر كثيراً ، وهو داخل في قوله ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾[3] .

والمراد بالقُرْب والإتيان في الخبر . . في حقِّ العبد بسرعة الامتثال ؛ وفي حقِّه تعالىٰ بسرعة الإجابة وكثرة الإجابة .

نِعمَ الربُّ : وقيل : كان عبد الله بن المبارك يقاتل « عِلْجَا » ؛ هو الكافر الغليظ الشديد . . مرَّة ، فدخل وقت صلاة العِلج ؛ فاستمهله مدّة ! فأمهله .

فلما سجد للشمس . . أراد ابن المبارك أن يضربه بسيفه ، فسمع من الهواء قائلاً

---

(١) متفق عليه من حديث البخاري : ٧٤٠٥ ، ومسلم : ٢ ـ ٢٦٧٥ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) عند مسلم : ٢٢ ـ ٢٦٨٧ ؛ عن أبي ذر رضي الله عنه بزيادة : « وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ ٱلأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئاً لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً » .

(٣) الآية : ٢٦١ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

يقول : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾[1] ، فأمسك عنه . . **فلما** سلَّم المجوسيُّ من صلاته ؛ قال له : لم أمسكتَ عما هممت به ؟! فذكر له ما سمع ؛ فقال له المجوسيُّ : نعم الربُّ ربٌّ يعاتب وليَّهُ في عدوِّه . فأسلم . . وحسن إسلامه .

فيه دلالة على كرم الله تعالىٰ . وهذه الحكاية كحكاية استضافة المجوسي إبراهيمَ عليه السلام ص ٤٥٣ .

سبب الذنب : وقيل : إنَّما أوقعهم في الذنب حين سمَّى ـ يعني أوقعهم تسمية الله ـ نفسه عفوّاً . ـ وفي نسخة : غفوراً ـ فاغترُّوا بكونه عفوًّا عن الذنوب . . فارتكبوها ، وتمادَوا فيها بلا توبة لذلك ، مع غلبة شهوتهم وهواهم ، وغفلوا عن الشرط في قوله ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[2] .

أطمعهم بمغفرته : وقيل : لو قال (لا أغفر الذنوب) . . لم يذنب مسلمٌ قطُّ ، كما أنَّه لَمَّا قال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ لم يشرك مسلم قطُّ ، في كلٍّ منهما

---

(١) إشارة إلىٰ الآية الكريمة : ٣٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

(٢) الآية : ٨٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : طه عليه الصلاة والسلام .

قوله (وغفلوا عن الشرط) . . أقول : من المقرر عند أهل السنة والجماعة أنَّ الباري عزَّ وجلَّ لا يجب عليه شيء ! إذ من المشهور قصة حوار سهل بن عبد الله التستري مع إبليس التي رواها بقوله : لقيت إبليس مرة فوقع بيني وبينه مناظرة ؛ وطال النزاع . . فكان آخر ما قال لي : يا سهل ؛ إن الله تعالىٰ يقول ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ولا يخفىٰ عليك أنني « شيء » ! ولفظة « كل » تقتضي الإحاطة والعموم ، و« شيء » أنكر النكرات فقد وسعتني أنا وجميع العصاة !! قال سهل : فوالله لقد أخرسني بلطافة سياقه وظفره بفهم هذه الآية !! فبقيت حائراً أردِّدُ هذه الآية ، فلما أتممها ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ . . . ﴾ ظننت أني ظفرت بحجة وظهرت عليه بما يقصم ظهره . فقلت : يا ملعون ؛ إن الله تعالىٰ قيدها بنعوت مخصوصة تخرجك عن العموم بقوله ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا . . . ﴾ . فتبسم الملعون ؛ وقال : يا سهل ؛ التقييد صفتك ؛ لا صفته !! ما كنت أظن أن يبلغ بك الجهل بالله ما رأيت !!! قال سهل : فرجعت إلىٰ نفسي وغصصت بريقي ، وعلمت أنه طمع في مطمع ، وانصرفنا ، وبقي الأمر عندي علىٰ المشيئة منه تعالىٰ في خلقه، لا أحكم إلا بما حكم هو تبارك وتعالىٰ. وانظر ما كتبناه في « حديقة الأذهان » (ط) .

نظر ، ولكن لمّا قال ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1] . . طمعوا في مغفرته وعفوه

العصمة والرحمة : ويحكىٰ عن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنَّه قال : كنت أنتظر مدَّةً من الزمان أن يخلوَ المطافُ لي ، فكانت ليلةٌ ظلماءُ ؛ فيها مطر شديد ! فخلا المطاف ؛ فدخلت للطواف ؛ وكنت أقول فيه : اللهم أعصمني ، اللهم أعصمني (مرتين) . فسمعتُ هاتفاً يقول لي :

﴿ يا ابن أدهم ؛ أنت تسألني العصمة ، وكلُّ الناس يسألوني العصمة ؛ فإذا عصمتُكم فلمن أرحم !! ﴾ ـ وفي نسخة : فعلى من أترحَّم ـ.

وفي ذلك دلالة على أنَّه سبق في علمه أنَّه لا بدّ من وقوع المعصية والرحمة ، وقد تقع الرحمة . . ولا معصية ! فمِن رحمته عصمةُ الأنبياء وحفظ الأولياء ، وقد قال تعالىٰ ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[2] .

وأراد بما ذُكر أن ينبِّه إبراهيم بن أدهم على أن لا يسأله ما ليس له به علم ؛ كما في قصَّة نوح عليه السلام ، إذ سؤال العبد العصمةَ سؤالٌ عما لا علم له به . فقد يكون في معلومه تعالى أنَّه ممّن يعصي ! فسؤاله المغفرة أولىٰ به ؛ وأقرب لعبوديته . ويجوز أن يسأل العبد ربَّه أن يحفظه ويصونَه عن سائر المعاصي ، وأمَّا العصمة !! فمن خصائص الأنبياء .

تكميل : وبالجملة . . فقد اختُلِف في جواز سؤالها لغيرهم !

١ ـ فقائل مَنَع ، لأنَّه يؤدِّي إلى تعطيل التوبة ، وفي « الصحيح » خبرُ : «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ ٱللهُ بِكُمْ ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»[3] .

و ٢ ـ قائلٌ جوَّز ، وقد سألها الإمامان مالك والشافعيُّ ، ويشهدُ له خبرُ النَّسائي[4] : « وَإِذَا خَرَجَ أَحَدُكُمْ مِنَ ٱلْمَسْجِدِ . . فَلْيُسَلِّمْ عَلَىٰ ٱلنَّبِيِّ ﷺ وَلْيَقُلْ

---

(١) الآية : ٤٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النساء .

(٢) الآية : ٩٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : يونس عليه الصلاة والسلام .

(٣) أخرجه مسلم : ١١ ـ ٢٧٤٩ ، وأحمد : ٢/٣٠٩ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه « وَٱلَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ . . . » وله شاهد عند الترمذي : ٢٥٢٨ .

(٤) الصواب أنه عند ابن ماجه : ٧٧٣ ، وقد تفرّد به عن أبي هريرة رضي الله عنه . وإسناده صحيح ورجاله ثقات كما في « الزوائد » .

(ٱللَّهُمَّ ؛ ٱعْصِمْنِي مِنَ ٱلشَّيْطَانِ) » . وهذا أحسن ؛ وإن قال الزَّرْكَشيُّ (الحقُّ أَنَّه إنْ قصد بالعصمة التوقِّي عن المعاصي في جميع الحالات . . فممتنع ، لأنه سؤالُ مقامِ النبوَّة ، وإن قصد التحفُّظ من الشيطان ، والتحصُّن من أفعال الشرِّ ! فلا بأس به !).

حُجة عالم : وقيل : رأى أبو العبَّاس بن سُرَيج في منامه . . في مرضه الذي مات فيه . . كأنَّ القيامة قد قامت ، وإذا الجبار سبحانه يقول : ﴿ أين العلماء ؟ ﴾ قال : فجاؤوا. ثم قال : ﴿ ماذا عملتم فيما عُلِّمْتُم ؟﴾ قال : فقلنا : ياربِّ ؛ قصَّرنا وأسأنا .

قال : فأعاد السؤال ، كأنه لم يرضَ به . . وأراد جواباً آخر ! .

فقلت : أمَّا أنا ؛ فليس في صحيفتي الشرك ، وقد وعدتَ أن تغفر ما دونه ! .

فقال : ﴿ اذهبوا فقد غفرت لكم ﴾ . ومات بعد ذلك بثلاث ليال .

فيه دلالة ١ـ على جواز الغفران لمن لم يشرك بالله ؛ كالآية التي أشار إليها ، و٢ـ على بشرىٰ عظيمة لابن سُرَيْج ؛ وهو أنَّه مغفور له ، وقد اعترف هو ومن معه بالتقصير ، ومن اعترف بتقصيره رجا المغفرة .

أربع دعوات : وقيل : كان **رجل شَرِّيبٌ** : كثير الشرب للخمر . . **جمع قوماً من نُدَمائه ، ودفع إلى غلام له** ؛ وكان صالحاً ينكر عليه ذلك . . **أربعةَ دراهم ، وأَمَره أن يشتريَ** بها **شيئاً من الفواكه للمجلس** : لأهل مجلسه . **فمرَّ الغلام بباب مجلس** الشيخ **منصور بن عمَّار وهو يسأل لفقير شيئا ؛ ويقول (من دفع له أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات) ! قال (فدفع له الغلام الدراهم)** ، لأنَّه رأى أنَّ سيده يرضى بذلك ، أو رأى أنَّ هذا أولى ممَّا أمره به سيِّدُه ؛ وهان عليه مشقَّة الضرب والألم من سيِّده . . حتى لا يقع في هذا المنكر الشديد ، وظنَّه منصورٌ أنَّه مالكُ الدارهم . **فقال له منصور : ما الذي تريد مني أن أدعوَ لك به ؟!**

فقال : لي سيِّدٌ أريد أن أتخلَّص منه بالعتق لأخلُص مما يُدخلني فيه ممَّا لا أحبُّه **!! فدعا لي منصور بذلك ؛ وقال له** : ما **الدعوة الأخرى ؟ قال : أن يخلف الله تعالى عليَّ دراهمي** التي دفعتُها للفقير لأردّها إلىٰ سيدي ، وأقول

(لا أفعلُ ما أمرتني به) . فرأىٰ منصور بعد علمه بأنِّي رقيق أن سيِّدي يرضىٰ بما فعلتُه . . **فدعا لي بذلك ، ثم قال** : **وما الدعوة الأخرىٰ ؟ فقال** : **أن يتوب الله على سيِّدي** ؛ بأن يوفِّقه للتوبة ممَّا هو مرتكبُه لأستريح من ضرره بالكليَّة . **فدعا** بذلك ؛

قال : **وما الأخرى ؟ فقال** : **أن يغفر الله لي ولسيِّدي ولك وللقوم** : جلسائه . **فدعا منصور بذلك** . **فرجع الغلام إلى سيِّده** ؛ **فقال له** : **لمَ أبطأت !** **فقصَّ عليه القصة** . فأثَّر فيه صدقه واستحسن فعله .

فقال له : **وبم دعا !؟ فقال** : **سألت لنفسي العتق** . . فدعا لي به . **فقال** : **اذهب أنت حرٌّ** لوجه الله . **وإيش المدعوُّ به الثاني ؟** ـ وفي نسخة : الثانية ـ **فقال** : **أن يخلِف الله عليَّ الدراهم** لأردَّها لك . **فقال** : **لك أربعةُ آلاف درهم** . **فقال** : **وإيش الثالث ؟** ـ وفي نسخة : الثالثة ـ **فقال** : **أن يتوب الله عليك** . **فقال** : **تبت إلى الله تعالى** . **فقال** : **وإيش الرابع ؟ فقال** : **أن يغفر الله تعالى لك ولي وللقوم وللمذكِّر لي** ؛ بقوله (من دفع للفقير أربعة دراهم . . دعوت له أربع دعوات) . . وهو منصور . **فقال** : **هذا الواحد ليس إليَّ** ، بل إلى الله تعالى .

فلما بات ؛ وصدق في توبته . . **رأى في المنام كأنَّ قائلاً يقول له** : **أنت فعلت ما كان إليك** . . **تراني** ـ وفي نسخة : ترىٰ أنِّي ـ **لا أفعل ما إليَّ !!** **قد غفرت لك ، وللغلام ، ولمنصور بن عمَّار ، وللقوم الحاضرين** عندك .

فيه دلالة على أنَّه تعالى أكرمُ الأكرمين ، وأنَّه يجازي بالخير الكثير على العمل اليسير ؛ وهو موضع الاستدلال على الرجاء ، لأنَّ سيِّد الغلام لمَّا تكرَّم باليسير . . غفر الله له ولغلامه ؛ ولمن كان سبباً في ذلك .

حجّات القيسيّ : **وقيل** : **حجَّ رباحٌ القيسيُّ حِجَّات كثيرة ، فقال يوماً ـ وقد وقف تحت الميزاب ـ** . على رأي مَن يرى هبة الأعمال الصالحة : **إلهي ؛ وهبت من حجَّاتي كذا وكذا للرسول** ﷺ ، **وعشرةً منها لأصحابه العشرة** رضي الله عنهم ، **واثنتين منها لوالديَّ ، والباقي للمسلمين** .

ولم يحبس منها شيئاً لنفسه ! فسمع هاتفاً ؛ يقول :

﴿ هو ذا يتسخَّىٰ علينا ؛ لأغفرنَّ لك ؛ ولأبويك ، ولمن شهد شهادة الحقِّ ﴾ .

أراه الله بذلك حسن نيَّته وبركة قصده بأن عرَّفه أنَّ كرم الله أوسعُ وأعمُّ .

خاتمة مخنث : ورُوي عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي أنَّه قال : رأيتُ جنازة يحملها ثلاثةٌ من الرجال وامرأة !! قال : فأخذت مكان المرأة وذهبنا إلى المَقْبُرة . . فصلينا عليها ، ودفنَّاها . فقلت للمرأة : مَن كان - يعني : ما نسبة - هذا منك ؟ فقالت : ابني . . قلت : أولم يكن لك جيرانٌ يحملونها ؟! قالت : نعم ، ولكنهم صغَّروا أمره وحقَّروه .

فقلت : وإيش كان هذا ؟ فقالت : مخنَّثاً . . قال : فرحمتها ، وذهبتُ بها إلى منزلي ، وأعطيتها دراهم ؛ وحنطة ؛ وثياباً .

ونمت تلك الليلة . . فرأيت كأنَّه أتاني آتٍ كأنَّه القمر ليلةَ البدر ، وعليه ثيابٌ بيض ، فجعل يتشكَّر لي ، فقلت : مَن أنت ؟ فقال : المخنَّث الذي دفنتموني اليوم ، رحمني ربِّي باحتقار الناس إيَّايَ وكلامِهم فيَّ . . مع بركة دعاء الرجل وأمِّي لي وشفقتِها عليَّ . . فيه دلالة على أنَّه تعالىٰ يجازي بالخير الكثير على العمل اليسير .

القادم على كريم : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : مرَّ أبو عَمْرو البِيْكندي يوماً بسِكَّة ، فرأى قوماً أرادوا إخراج شابٍّ من المحلَّة لفساده . . وأمرأة تبكي عليه . قيل : إنَّها أمُّه ، فرحمها أبو عَمْرو فتشفع له إليهم . وقال : هبوه منِّي - وفي نسخة : لي - هذه المرَّة ، فإن عاد إلى فساده . . فشأنكم وإيَّاه . فوهبوه منه - وفي نسخة : له - فمضىٰ أبو عَمْرو ، فلما كان بعد أيَّام . . اجتاز بتلك السكة ، فسمع بكاء العجوز من وراء ذلك الباب ! فقال في نفسه : لعلَّ الشابَّ عاد إلى فساده ، فنُفيَ من المحلَّة فبكت عليه أُمُّه !!

فدقَّ عليها الباب ؛ وسألها عن حال الشابِّ ؛ فخرجت العجوز وقالت له : مات !! . .

فسألها عن حاله ؛ فقالت ؛ لما قَرُب أجله . . قال : لا تخبري الجيران

بموتي ، فلقد آذيتُهم ؛ وإنَّهم يشمتون بي ، ولا يحضرون جنازتي ، وإذا دفنتيني . . فهذا خاتم لي مكتوب عليه « باسم الله » . . فادفنيه معي ، فإذا فرغتِ من دفني ؛ فتشفعّي لي إلى ربِّي عزَّ وجلَّ .

قالت : ففعلت وصيَّته . . فلما انصرفتُ عن رأس قبره . . سمعت صوته وهو يقول : انصرفي يا أماه ؛ فقد قدمتُ على ربٍّ كريم .

فيه دلالة على أنَّه تاب توبةً بالغة ؛ حتَّى إنَّه تبرَّك باسم الله وتشفَّع به وبدعاء أمه . والتوبة تمحو ما قبلها ؛ وفاءً بقوله تعالىٰ ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ .

﴿ ليربحوا عليَّ ﴾ : وقيل : أوحىٰ الله تعالى إلى داود عليه السلام :

﴿ قل لهم : لعبيدي ، إنِّي لم أخلقهم لأربحَ عليهم ، وإنَّما خلقتُهم ، ليربحوا عليَّ ﴾ لأنَّه تعالى غنيٌّ عنهم ، وقوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] !! المرادُ منه إثابتُهم على عبادتهم له .

فرِّحهم كما يفرحون : سمعت محمَّد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ محمد بن عبد الله بن شاذان ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الحربيَّ ؛ يقول : سمعتُ إبراهيم الأطروش ؛ يقول : كنَّا قعوداً ببغداد ، مع معروفٍ الكرخيِّ ؛ على الدِّجلة نهرِ بغداد . . إذ مرَّ بنا قوم أحداث : شبَّان في زورق ، يضربون بالدُّفِّ ويشربون الخمر ، ويلعبون بالملاهي ! فقلنا لمعروف :

أما تراهم ؛ يعصون الله تعالىٰ مجاهرين ؟ . أُدع الله عليهم .

فرفع يده ـ وفي نسخة : يديه ـ وقال : إلهي ؛ كما فرَّحتهم في الدُّنيا فرِّحهم في الآخرة ، لأنَّ ذلك فعلُك وأنت القادر عليه ؛ وعلى إزالته . فقالوا له : إنَّما سألناك أن تدعوَ عليهم !؟ . فقال : إذا فرَّحهم في الآخرة . . فقد تاب عليهم . وإذا تابوا زال عنكم ما تكرهونه ؛ فيحصل مطلوبكم من الدعاء عليهم .

وهذا من كمال المعرفة والسياسة في تغيُّر المنكر الذي لا يتمكَّن العبد من إزالته لقوَّة الجاه والسَّطوة ، فسَلَك معروفٌ في إزالته مَسلك السؤال وطلب

---

(١) الآية : ٥٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الذاريات .

الفضل من الله أن يغيِّر أحوالهم عما هي عليه ، لأنَّه تعالىٰ الفاعلُ بهم ما هم فيه ؛ فقال (اللَّهُم كما فرَّحتهم في الدنيا فرِّحْهم في الآخرة) فأعلمَهم بذلك أنَّ التغيير في هذا الوقت لمثل هؤلاء . . إنَّما هو بالدعاء لهم بالتوبة . وبيَّن ذلك بقوله (إذا أفرَحَهم في الآخرة فقد تاب عليهم) .

غفر لي ووبَّخني : سمعت أبا الحسن عبد الرحمان بن إبراهيم بن محمد المزكِّي ؛ قال : حدَّثنا أبو زكريا يحيى بن يحيىٰ الأديب ؛ قال : حدَّثنا الفضل بن صدقة ؛ قال : حدَّثنا أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد ؛ قال : **كان يحيى بن أكثم القاضي صديقاً لي ، وكان يَوَدُّني . . وأَوَدُّه : يحبُّني وأحبُّه من الوُد ؛ وهو المودَّة : المحبَّة . فمات يحيى ، فكنت أشتهي أن أراه في المنام ؛ فأقولَ له : (ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ !**

فرأيته ليلة في المنام ؛ فقلت (ما فعل الله تعالىٰ بك ؟) قال : غفر لي ، إلاَّ أنَّه وبَّخني ، ثم قال لي : ﴿ يا يحيىٰ ، خلطتَ عليَّ في دار الدنيا ﴾ .

فقلت : إِيْ ربِّي ، اِتَّكلتُ على حديث حدَّثني به أبو معاويةَ الضريرُ ؛ عن الأعمش ؛ عن أبي صالح ؛ عن أبي هريرة . . قال : قال رسول الله ﷺ : إنَّكَ قُلْتَ ﴿ إِنِّي لأَسْتَحِي أَنْ أُعَذِّبَ ذَا شَيْبَةٍ : شابت في الإسلام وتاب صاحبها من زلله بِٱلنَّارِ ﴾[1] . فقال : قد عفوتُ عنك يا يحيى ، وصدق نبيِّي ، إلاَّ أنَّك خلطت عليَّ في دار الدنيا ﴾ . فيه دلالة على أنَّه غفر له بحسن ظنِّه بربِّه مع عمله الصالح ؛ وإن كان قد خلطه بشيءٍ لاعترافه بذنبه ؛ فقد قال تعالىٰ ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ

---

(١) ذكر الغزالي في « الدرة الفاخرة » فيه هذه الحكاية بسند آخر قال فيه : . . . فقلت : يا ربِّ ما بهذا حُدِّثت عنك !! . قال : ﴿ بم حُدِّثت عني يا يحيىٰ ﴾ !؟ فقلت : حدثني معمر ؛ عن الزهريِّ ؛ عن عروة ؛ عن عائشة ؛ عن نبيِّك ﷺ ؛ عن جبريل ؛ عنك يا ذا الجلال والإكرام أنَّك قلت ﴿ إني أستحي أن أعذِّب ذا شيبة شابت في الإسلام ﴾ ؟! فقال : (يا يحيىٰ ؛ صدقت وصدق الزهري ، وصدق معمر ، وصدق عروة ، وصدقت عائشة ، وصدق نبيي ، وصدق جبريل ، وصدقتُ . اذهب فقد غفرت لك) . فهذا منام الله أعلم بثبوته ، ولكن له شواهد تؤيده وفضل الله تعالىٰ واسع . **ومن شواهده** ما أخرجه ابن النجار في « تاريخه » ، والبيهقيِ في « الزهد » ، والخطيب : « إنَّ الله ليستحي من عبده وأمته يشيبان في الإسلام . . يعذِّبهما » . وانظر الديلمي : ٨٠٩٣ وهامشه .

عَلَيْهِمْ﴾[1] ، و« عسىٰ » من الله بمعنىٰ الإيجاب والوعد . . لا بمعنى الترجِّي ، فقد وعد تعالىٰ مَن اعترف له بذنبه أن يرزقه التوبة والمغفرة .

١٠ ـ باب الحزن

تعريفه : هو قبضٌ يردُ على القلب لفوات محبوب ؛ أو توقُّع مؤلِم . وقد ينسىٰ سببه .

ثمَّ هو قد يكون محبوباً . . وقد يكون مذموماً ؛ كما سيأتي .

قال الله تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾[2] .

بلايا المؤمن : **أخبرنا عليُّ بن أحمد بن عبدان ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد ؛ قال : أخبرنا عليُّ بن حُبَيش ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن عيسى ؛ قال : حدَّثنا ابن وهب ؛ قال : حدَّثنا أسامة بن زيد الليثيُّ ؛ عن محمَّد بن عمرو بن عطاء ؛ قال : سمعتُ عطاء بن يسار ؛ قال : سمعتُ أبا سعيد الخدري رضي الله عنه ؛ يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :**

« **مَامِنْ شَيْءٍ يُصِيبُ ٱلعَبْدَ ٱلمُؤْمِنَ . . مِنْ وَصَبٍ** : مرض ، **أَوْ نَصَبٍ** : تعب ، **أَوْ حُزْنٍ** ؛ **أَوْ أَلَمٍ** ـ وفي نسخة : أو هَمٍّ ـ **يُهِمُّهُ** : يقلقه . . **إلاَّ كَفَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ** »[3] . لصبره على ما ٱبتُلِيَ به .

مراتب الحزن : والحزن تارة يكون قويّاً ، وتارة يكون ضعيفاً ! فمتى كان في قبضٍ انساع للنظر في أسبابه ؛ أو للحيلة في الخلاص منه . . كان فيه « **تفرقة** » ، ومتىٰ تراكم القبض وتوالىٰ سُمِّي « **كَمَداً** » . وبينهما حالة تسمَّىٰ « **شَجَاً** » ؛

---

(١) الآية : ١٠٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التوبة .

(٢) الآية : ٣٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : فاطر .

(٣) متفق عليه عند البخاري : ٥٦٤١ ؛ ٥٦٤٢ ، ومسلم : ٥٢ ـ ٢٥٧٣ ؛ عن أبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما . وأحمد : ٢/٣٠٣ ؛ ٣/٤٨ ، والترمذي : ٩٦٦ .

وهي أن يخطر ببال العبد السبب الذي أحزنه . . وكان محموداً ؛ وجرَّ ٱنشراحاً في صدره بما مَنَّ عليه من الحزن .

وسأل المحاسبيُّ شيخه : ما علامة الشَّجَا ؟ فقال : دوامُ البكاء ممزوجاً بفرح ، لعلمه معرفة النعمة عليه في الحزن والبكاء . إذا عرفت ذلك ؛ فنقول :

ثمرته : الحزن حال **يقبض القلب عن التفرُّق في أودية الغفلة** . وهذا في الحزن القويِّ .

أصحابه : والحزن من أوصاف أهل السلوك في الطريق .

مسير الحزين : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله تعالى ؛ يقول : **صاحب الحزن يقطع من طريق الله** : من الطريق إليه ـ **في شهر ما لا يقطعه مَن فَقَد حزنه سنين** ، لأنَّ مَنْ حَزِن على التقصير جدَّ في التحصيل ، ومَن خشي الفوات ٱجتهد قبل الممات .

وفي الخبر : « إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ كُلَّ قَلْبٍ حَزِيْنٍ[1] » ، لأنَّ الحزن على الخيرات وفوات الأوقات في البطالات . . مِن نعم الله تعالىٰ على العبد .

العبد المحبوب : وفي التوراة : ﴿ إذا أحبَّ الله عبداً جعل في قلبه نائحة . . تجلُب الحزن له ، وإذا أبغض الله عبداً جعل في قلبه مزماراً يجلب له الفرح ﴾ .

ورُويَ أنَّ **رسول الله ﷺ كان متواصِل الأحزان ؛ دائم الفكر** . . فيما يحصِّل به الثواب .

مسكن الحزن : وقال بشر بن الحارث : **الحزن مَلِك** : كالمَلِك ، فإذا سكن في موضع لم يرضَ أن يساكنَه أحدٌ ، لأنَّ الحزن إذا نزل في القلب عَمَره وغمره ؛ حتى لا يبقىٰ فيه ذكرٌ لغير ما هو محزون عليه .

القلب العامر : وقيل : القلب إذا لم يكن فيه حزن خَرِبَ ، كالخوف . . بل أولىٰ ، لأنَّ الخوف من مقدِّمات الحزن ، كما أنَّ الدار إذا لم يكن فيها ساكن تخرب .

وقال أبو سعيد القرشي : بكاء الحزن يعمي البصر ، وبكاء الشوق يُغشِي البصر . . ولا يعميـه ، **قال الله تعالىٰ** : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ﴾ : بُدِّل سوادهما

---

(١) أخرجه الحاكم : ٤/ ٣١٥ ، والطبراني ؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

بياضاً ببكائه ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[1] : مغموم مكروب . جعل سببَ العمى الحزنَ ؛ إذ الحزن يمنع من الطعام والشراب ، ويَكثُر معه الهموم والغموم ؛ فتصعد من المعدة أبخرةٌ رديئة مظلمة . . تكون سبباً لزوال الإدراك من العين وقت البكاء ! هذا بكاء الحزن ، وأمَّا بكاء السرور ! فممزوج بفرح .

من معانيه : وقال ابن خفيف : الحزن حصر النفس عن النهوض في الطرب والفرح .

حال الحزين : وسمعتْ رابعةُ العدويّة رجلاً يقول (واحزناه. .) فقالت : قل (واقلَّةَ حزاناه) . . لو كُنتَ محزوناً لم يتهيأ لكْ أن تتنفَّس . يعني لم تتفرَّغ للاستغاثة بقولك (واحزناه) . ولذلك قال بعض العارفين (واحزناه على الحزن ! لأنَّه لو ترك قوله (على الحزن) . . لاحتمل أن يكون قولُه (واحزناه) . . من الخوف . فبيَّن مراده بقوله (على الحزن) : فقدِه .

شفاعة المحزون : وقال سفيان بن عيينة : لو أنَّ محزوناً بكىٰ في أُمَّة من الأمم لرحم الله تعالىٰ تلك الأُمَّة ببكائه . فيه دلالة على أنَّ المحزون شديد الاضطرار إلى ما حَزن عليه ، وعند الاضطرار وعده الله بالإجابة فقال ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ الآية[2] .

تضرُّع محزون : وكان داود الطائيُّ الغالبُ عليه الحزن ، وكان يقول بالليل : إلهي ؛ همُّك عطَّل عليَّ الهموم ، وحال بيني وبين الرُّقاد . فيه تضرُّع إلى الله أن يفرِّج عنه ما هو فيه ؛ بأن يُنيله مطلوبَه ممَّا هوَ فوق ذلك ؛ كمقام التوحيد والجمع .

دوام الحزن : وكان يقول : كيف يتسلَّىٰ من الحزن : ينكشف عنه الحزن . . **مَن تتجدَّدُ عليه المصائب في كلِّ وقت ؟!** .

فيه دلالة على كمال طلبه لربِّه وشغل هِمَّته بأن ينيله مطلوبه .

ثمرة الحزن والخوف : وقيل : الحزن يمنع من الطعام ، لكثرة الهموم والغموم بواسطة شدَّة تعلُّق قلبه بمطلوب شريف يريد حصوله ، **والخوف يمنع من الذنوب** لكونه سبباً للتوبة ؛ وهي سببٌ للمغفرة بوعد الله تعالىٰ .

---

(١) الآية : ٨٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها يوسف عليه الصلاة والسلام .

(٢) الآية : ٦٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النمل .

دلائله : **وسئل بعضهم : بِمَ يُستدلُّ على حزن الرجل ؟ فقال : بكثرة أنينه** لأنَّ مَن تراكم عليه ألم الحزن . . عَسُر عليه التعبير بلسانه ، وإنَّما يتنفَّس ويتروَّحُ بأنينه ! .

رغبة محزون : **وقال سريٌّ السَّقَطي** . . متمنيّاً لدرجة الحزن : **وددت أنَّ حزن كلِّ** الناس المحزونين **أُلقيَ عليَّ** ! لأنال كمال ما أعطاه الله لهم على حزنهم .

كلامهم في الحزن : **وتكلَّم الناس في الحزن ؛ فكلُّهم قالوا : إنَّما يُحمَد حزنُ الآخرة** : الحزن على فوات الخيرات الأخروية ، **وأمّا حزن الدنيا فغير محمود** ، لأنَّ المقصود إنَّما هو العمل الأُخروي ، **إلاَّ أبا عثمان الحيريَّ ؛ فإنَّه قال** : **الحزن بكلِّ وجه فضيلةٌ** ، **وزيادة للمؤمنين** ؛ وإن كان حزن الدنيا ، لأنَّ الحزن على فوات التنعُّم واللَّذَّات المباحة ؛ إذا نزل بالعبد وصبر عليه محمود . . **ما لم يكن بسبب معصية ؛ لأنَّه إن لم يوجب تخصيصاً** بارتفاع الدرجات . . **فإنَّه يوجب تمحيصاً** ومحواً للذنوب ، أَمَّا إذا كان بسبب معصية . . فلا نزاع أنَّه مذموم .

البحث عنه : **وعن بعض المشايخ أنَّه كان إذا سافر واحدٌ من أصحابه يقول** [**له**][م] :

إن رأيت محزوناً ؛ فأقرئه مني السلام ؛ ليردَّ عليَّ فأنتفعَ بدعائه .

وفيه دلالة على فضيلة المحزونين لكمال معرفتهم بربِّهم ، وفيه أنَّه عرّف بعض أصحابه بذلك قلّة المحزونين ؛ وأنَّهم آحادٌ في الصالحين .

ندرته : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق ؛ يقول : **كان بعضهم يقول للشمس عند غروبها** (**هل طلعتِ اليوم على محزون ؟!**) فيه دلالة أيضاً على ذلك .

حزن البصري : **وكان الحسن البِصريُّ لا يراه أحد إلاَّ ظنَّ أنَّه حديثُ عهدٍ بمصيبة** ، لما به من الحزن !

إمام الحزن : **وقال وكيع لمَّا مات الفضيل** بن عياض : **ذهب الحزن اليوم من الأرض** ، لما كان به من كمال الحزن .

أكثر الحسنات : **وقال بعض السلف ؛ أكثرُ ما يجد[هُ]**[م] **المؤمن في صحيفته من الحسنات** ما أوجبه **الهمُّ والحُزْن** ، بسبب البلايا التي أصابته في نفسه وماله

وولده . . مع الصبر عليها ، وإنَّما كانت حسناتُها أكثرَ ! ! لأنَّ حسناتِ غيرها مشروطةٌ بالإخلاص ؛ وهو عسرٌ . . فقلَّت الحسنات المرتِّبةُ عليه ، بخلافها على البلايا .

زكاة العقل : سمعتُ أبا عبد الله الشيرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ عليَّ بن بكران ؛ يقول : سمعتُ محمد بن عليٍّ المروزيَّ ؛ يقول : سمعت أحمدابن أبي رَوْح ؛ يقول : سمعت أبي ؛ يقول : سمعتُ الفضيل بن عياض ؛ يقول : **كان السلف يقولون (إنَّ علىٰ كلِّ شيءٍ زكاةً ، وزكاةُ العقل** ـ يعني : القلب ـ **طولُ الحزن)** . فكما جعلت الزكاة طهرةً للمال . . جعل الحزن طهرةً للقلب من سائر خواطر الدنيا ، لما امتلأ به من خواطر الآخرة . .

عمل الحزين : سمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمَّد بن أحمد الفَرَّاء ؛ يقول : سمعتُ أبا الحسين الورَّاقَ ؛ يقول : سألت أبا عثمان الحيريَّ يوماً عن الحزن ؛ فقال : **الحزين لا يتفرَّغ إلى سؤال الحزن** : وأنت سائل عنه ؛ فأنت فارغ منه ! ! ولولا فراغك منه لما سألت عنه ، **فاجتهدْ في طلب الحزن** ، **ثمَّ** بعد اجتهادك في طلبه **سَلْ** عنه . ثم بعد حصول كماله لا سؤال ، لأنَّ كمال الحزن يشغلُك عن السؤال عنه .

* * *

١١ ـ باب الجوع[١]

استحقاق البشرىٰ : **قال الله تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾ . ثم قال في آخر الآية ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٢] : فبشرهم فيها بجميل الثواب على الصبر على** مقاساة الجوع .

---

(١) **حقيقته** : حبس النفس عن داء الامتلاء والبطنة ، وذلك من **منازل العوامِّ** في ابتداء مسيرهم لحاجتهم إلىٰ النشاط في الإرادة ورقَّة القلب بترك العادة ، وأمَّا **الجوع عند الخواصِّ** ! فهو تفرُّق وبقاء للإحساس ووقوف مع البشرية ، وكلُّ ذلك نقص عندهم ، لأن غذاء نفوسهم بالذكر ، وراحة أرواحهم بالفكر . (عروسي : ٣/٢ ؛ باختصار) .

(٢) الآية : ١٥٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

وقال تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1] حاجة إلى ما يؤثِرون به .

مدحه وطلبه : وفي ذلك مدح على الجوع وترك الشهوة ، فهما مطلوبان ، وقد طُلبا صريحاً في الصوم[2] ، وروى الترمذيُّ خبر : « مَا مَلأَ ٱبْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ ، حَسْبُ ٱبنِ آدَمَ أُكُلَاتٍ ـ : لُقْمات ـ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ ؛ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ »[3] .

ومِن ثَمَّ كان التقلُّل من الدنيا ممدوحاً ، ولذلك زهَّد الله نبيَّهُ في الدنيا لما عُرِضت عليه جبالُ تهامة تسير معه ذهبا وفضَّة حيث شاء ! فقال : « يَا رَبِّ ؛ أَجُوعُ يَوْماً . . وَأَشْبَعُ يَوْماً ؛ إِنْ جُعْتُ تَضَرَّعْتُ ، وَإِنْ شَبِعْتُ شَكَرْتُ »[4] .

تعقيب : وفوائد ذلك كثيرة ، وأقلُّها زوال المُشغلات والغفلةُ عن الطاعات ، والتلذُّذ بالمناجاة وسائرِ العبادات ؛ أخذاً من الأدلَّة . وقد تضَّمنت الآية الأُولى أنَّ الله يبتلي عباده بالجوع ؛ ليعلم صبرهم وقيامهم بحقِّه حال الشدَّة والرَّخاء ؛ وقد قال تعالى ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾[5] .

قوت النَّبيِّ ﷺ : أخبرنا عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد الصفَّار ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن أيُّوب ؛ قال : حدَّثنا أبر الوليد الطيالسيُّ ؛ قال : حدَّثنا أبو هاشم (صاحب

---

(١) الآية : ٩ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحشر .

(٢) لحكمة قمع النفس ورياضتها لتطهر من رجس حظوظها ومألوفاتها . (عروسي) .

(٣) تقدم تخريجه ص ٨١ ، وص ٣٦٠ .

(٤) أخرجه أحمد : ٥/ ٢٥٤ ، والترمذي : ٢٣٤٧ ؛ وقال : حسن ، وابن المبارك في « الزهد » : ١٩٦ ؛ عن أبي أمامة رضي الله عنه .

(٥) الآيتان : ١ و٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : العنكبوت .
روي أنّها نزلت في ناس من الصحابة . . قيل : في عمار ، وقيل : في مهجع (مولىٰ عمر) ؛ وهو أوَّل من استشهد من المسلمين رماه عامر بن الحضرمي يوم بدر فقتله فجزع عليه ذووه ، وهو أول من يدعىٰ إلىٰ باب الجنة من هذه الأمة .
واعلم أن الحسبان ونظائره لا يتعلَّق بمعاني المفردات بل بمضامين الجُمَل . . . . (عروسي : ٢/ ٣ـ ٤ ؛ بتصرف) .

الزعفراني) ؛ قال : حدَّثنا محمَّد بن عبد الله ؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّه حدَّثه ؛ قال :

جاءت فاطمة رضي الله عنها ، بكِسرة خبز لرسول الله ﷺ ؛ فقال : «وما هٰذِهِ ٱلكِسْرَةُ يَا فَاطِمَةُ» ؟

قالت : قرصٌ خبزتُه ، ولم تطبْ نفسي حتَّىٰ أَتَيْتُكَ بهذه الكِسْرة .

فقال لها : « أَمَا إِنَّه أَوَّلُ طَعَامٍ دَخَلَ فَمَ أَبِيْكِ مُنْذُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ »[1] .

وفي بعض الروايات : جاءت فاطمة رضي الله عنها بقرص شعير .

فيه دلالة على طلب الجوع ، وليس المراد منه تعذيب النفس به ، بل تعويدها الكفَّ عن الشهوات وخِفَّة الجوارح للطاعات .

جوع الصوفية : ولهذا كان **الجوعُ من صفات القوم** : الصوفية ، وهو أحد أركان المجاهدة في الطاعة ، فإنَّ أرباب السلوك تدرَّجوا[2] إلى اعتياد الجوع والإمساك عن الأكل الزائد على ما تقوم به البُنية ، ووجدوا ينابيع الحكمة الحاصلة بالطاعة في الجوع ، وكثرت الحكايات عنهم في ذلك .

أدب الجوع : سمعتُ محمَّد بن أحمد بن محمَّد الصوفيَّ ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن عليٍّ التميمي ؛ يقول : سمعتُ ابن سالم ؛ يقول : **أدبُ الجوع أن لا ينقص العبد من عادته** ـ وفي نسخة : عادتك ـ **إلاَّ مثل أُذُن السِّنَّور** . . كان بعضهم يزن قوتَه بقطعة خشب خضراء كلَّ ليلة وهي تنقص[3] كلَّ يومٍ نقصاً يسيراً ؛ ينتفع به ؛ ولا يؤثِّر فيه أثراً يضرُّه[4] ، فإذا وصل إلى حدٍّ اعتاده واستمرَّ عليه .

يفطر للهلال : وقيل : كان سهل بن عبد الله لا يأكل الطعام إلاَّ في كلِّ خمسة عشر يوماً ؛ تقليلاً للأكل ؛ فإذا دخل شهر رمضان كان لا يأكل طعاماً حتَّى يرى

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ في « الكبير » : ٧٥٠ ، وأحمد : ٣/ ٢١٣ ؛ عن أنس رضي الله عنه .

(٢) أشار به إلىٰ أنه ينبغي القيام علىٰ النفس تدريجاً ؛ لئلا تملَّ ، إذ هي بطبعها حرون روّاغة والله أعلم (عروسي ٣/ ٤) .

(٣) بجفافها ويبسها .

(٤) لتشوُّف الشارع ﷺ لحفظ الصحَّة ، ولخوف الملل والسآمة ؛ لو ارتاضها دفعة واحدة (عروسي) .

الهلال ليلة شوَّال ، وكان يفطر كلَّ ليلة على الماء القراح : الخالص الذي لا يشوبه شيء ؛ طلباً للخِفَّة في الطاعة ، وتحرُّزاً من كراهة الوصال .

سلعة أهل الآخرة : **وقال يحيى بن معاذ : لو أنَّ الجوع يباع في السوق مثلاً لما كان ينبغي لطُلاّب الآخرة . . إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره** ؛ لما يترتَّبُ عليه من الحِكَم التي منها الاستغناء عن كثير من المزاحمة في الأسواق ؛ والمعاداة لمن زاحمه فيها ، والقنع بما قسم الله به ، والسلامة في البدن ، فإنَّ غالب الأمراض . . إنما تكون من كثرة الأكل والتمتُّع باللذائذ ! .

معدن الجوع والشبع : أخبرنا محمَّد بن عبد الله بن عبيد الله ؛ قال : حدَّثنا عليُّ بن الحسين الأرَّجاني ؛ قال : حدَّثنا أبو محمد عبدُ الله بن أحمد الإصطخريُّ بمكَّة حرسها الله تعالى ؛ قال: قال سهل بن عبد الله : **لمَّا خلق الله تعالى الدنيا جعل في الشِّبَع المعصيةَ والجهل، وجعل في الجوع العلم والحكمة**. لأنَّ العبد إذا شبع تحرَّكت شهواتُه، وإذا جاع ذلَّ وفترت همَّته عن كثير من الأمور الدنيويَّات، وتفرَّغ القلب للاجتهاد في الطاعات، ونال العلم والحكمة بفضل خالق الأرض والسماوات.

ثمرات الجائعين : **وقال يحيى بن معاذ : الجوعُ للمريدين رياضة** : تقوِّيه على رياضة أنفسهم ، **وللتائبين تجربة** بتعوُّد أنفسهم الجوع واستئناسهم به ، **وللزهَّاد سياسة** لأنفسهم حتَّىٰ لا يلتفتوا للحاجات الدنيوية ، **وللعارفين مكرمة يكرمهم الله بها** ؛ ليشغلهم بمناجاته ، وبالتلذُّذ بها عن المطاعم والمشارب .

فعُلم أنَّ الجوع لا يستغني عنه ١ـ مريد متفرِّغ للطاعة ، ولا ٢ـ تائب عن الذنب، ولا ٣ـ زاهد قد أعرض عن الدنيا، ولا ٤ـ عارف كمُل شغلُه بالمولى.

مراده البكاء : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **دخل بعضهم على بعض الشيوخ ؛ فرآه يبكي ! فقال له : مالك تبكي ؟ فقال : إنِّي جائع . فقال : ومثلك في جلالة القدر يبكي من الجوع ؟**

فقال له : أسكت لا تعترض عليَّ ، أما علمت أنَّ مراده تعالىٰ من جوعي أن أبكي ! : ما جوَّعني إلاَّ لأبكي تارة له . . وتارة عليه .

وفي هذا دلالة على رضاه بما يجريه الله عليه في وقته ، لأنَّه ابتلاه بالجوع وصبَّره عليه . . فهو راضٍ به .

اكتفاء وليٍّ : سمعت أبا عبد الله الشيرازيَّ رحمه الله ؛ يقول : حدَّثنا محمد بن بشر ؛ قال : حدَّثنا الحسين بن منصور ؛ قال : حدَّثنا داود بن معاذ ؛ قال : سمعت مجالداً ؛ يقول :

كان الحَجَّاج بن فُرَافصة معنا بالشام ؛ فمكث خمسين ليلة . . لا يشرب الماء ؛ ولا يشبع من شيء يأكلهُ ! إذ العبد قد يستغني عن الماء مدَّة طويلة ، بخلاف الطعام ، لأنَّ فيه من البِلَّة ، وما تشربه من الماء ما يكفيه ! .

بادية وأكلتين : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا بكر الغزاليَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن علي ؛ يقول : سمعت أبا عبد الله أحمد بن يحيى الجلاَّء ؛ يقول : **دخل أبو تراب النخشبيُّ[1] من بادية البصرة مكَّة ـ حرسها الله تعالى ـ فسألناه عن أكله ؛ فقال : خرجتُ من البصرة وأكلت بِـ « نِباج »** ـ قرية بالبادية أحياها عبد الله بن عامر ؛ قاله الجوهريُّ ـ ، **ثمَّ أكلت أيضاً بـ « ذات عرق »[2]** . وخرجت من « ذات عرق » إليكم . **فقطع أبو تراب البادية بأكلتين !** لطيِّ الأرض له ، أو لكونه لم يأكل الطعام ! وكلٌّ منهما خارق للعادة ؛ فهو كرامة .

جوع الطيور : وسمعته أيضاً ؛ يقول : حدَّثنا عليُّ بن النحَّاس المصريُّ ؛ قال : حدَّثنا هارون ابن محمد الدقَّاقُ ؛ قال : حدَّثنا أبو عبد الرحمان بن الدرقش ؛ قال : حدَّثنا أحمد ابن أبي الحوارِيِّ ؛ قال : سمعت عبد العزيز بن عمير ؛ يقول : **تجوَّع صنفٌ من الطير أربعين صباحاً ، ثمَّ طاروا في الهواء ، فرجعوا بعد أيام ، فكان يفوح منهم رائحة المسك !!** .

فيه إشارة إلى أنَّ مَن طال جوعه تَطهَّر من دنسه وفاحت منه رائحة طيبة ، لما أدركه من كثرة شغله بربِّه ، والطير في كلامه . . نزَّله في منزلة من يعقل فأعاد عليه ضميره !

يناقض العادة : **وكان سهل بن عبد الله إذا جاع قوي** لتعوُّده الجوع ، **وإذا أكل شيئاً** زائداً على ما تقوم به البُنية **ضَعُف** لضَعْف أمعائه عن حملها الطعام .

الربانيُّ والصمدانيُّ : **وقال أبو عثمان المغربيُّ : الربَّانيُّ** : المنسوب إلى الربِّ المالك : **لا يأكل في أربعين يوماً ، والصمدانيُّ** : المنسوب إلى الصمد :

---

(١) تقدمت القصة ص ١٣٧ .

(٢) ميقات أهل العراق وما والاها مما يمرُّ بها وهي تبعد عن مكة ٩٤ كيلاً .

المقصود في الحوائج على الدوام ، أو الذي لا يطعم . . لا يأكل في ثمانين يوماً . في ذلك دلالة على شرف الهمة وعلوِّ الدرجة .

مفاتيح الدارين : وسمعتُ الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمَّد بن عليٍّ العلويَّ ؛ يقول : سمعت عليَّ بن إبراهيم القاضي بدمشق ؛ يقول : سمعت محمد بن علي بن خلف ؛ يقول : سمعت أحمد ابن أبي الحواري ؛ يقول : سمعت أبا سليمان الدَّارانيَّ ؛ يقول : مفتاح أعمال الدنيا الشِّبَع ، لأنَّه يحرِّك شهوته التي منها شهوة الفرج ، والعبد إذا تزوّج وسلم من الفساد . . كثرت كلفتُه ، وإن جاءته أولاد فقد حصلت عنده الأعداء ، وتوالت عليه جهة الفساد ، قال تعالى ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾[1] . ومفتاحُ أعمال الآخرة الجوع .لأنَّه يحرِّكُ للطاعة .

مقدار الأكل : سمعت محمَّد بن عبد الله بن عبيد الله ؛ يقول : سمعت عليَّ بن الحسين الأرَّجانيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا محمد الإصطخريَّ ؛ يقول : سمعتُ سهل بن عبد الله ؛ وقد قيل له : (الرجل يأكل في اليوم أكلة واحدة ؟!) فقال : هذا أكلُ الصديقين وهم مَن كملت رغبتهم في أحوال الآخرة . قال : فأكلتين يأكل ! قال: هذا أكل سائر المؤمنين . قال : فثلاثة يأكل ! قال : قل لأهلك إذا أكلت ثلاث أكلات يبنون لك معلفاً . شبَّهه بالدوابِّ التي لا همَّة لها إلا في كثرة الأكل والشرب التي هي سبب قلَّة الفهم .

خطر الشبع : وسمعته أيضاً ؛ يقول : حدَّثنا عبد العزيز بن الفضل ؛ قال : حدَّثنا أبو بكر السائح ؛ قال : سمعتُ يحيىٰ بن معاذ ؛ يقول : الجوع نور ، لأنَّه يسوق إليه بتفرغ القلب به للخيرات . والشعب نار ، لأنه يسوق إليها ، لأنه إنَّما يكون عن قوَّة الشهوة الحاملة غالباً على تناول الحرام . والشهوة مثل الحطب مع النار يتولَّد منه معها الاحراقُ ، ولا تطفأ ناره حتَّى يحرق صاحبه ! .

جوع البخل : سمعتُ أبا حاتم السجستانيَّ ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج الطوسيَّ ؛ يقول : دخل يوماً رجل من الصوفية . . وعليه ثياب على شيخ ، فقدَّم إليه طعاماً يأكل فأكل ، فرأى قوَّة همَّته فيه فعلم أنّه جائع . . ثم قال له : منذ كم يوماً لم تأكل ؟ . فقال : مذ خمسة أيَّام . فقال: فما الذي حملك على جوع خمسة

(١) الآية : ١٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التغابن .

أيَّام . . وعليك ثياب وأنت شَرِهٌ في الأكل ؟!

جوعك جوعُ بخل ؛ عليك ثياب وأنت تجوع !! ليس هذا جوع فقر ! وهو ما يُختار معه الجوع على الشِّبع ، فوظيفة العبد إذا قدِّم له طعام أن يأكل منه بأدب وقلَّة شَرَه ، فأدّبه الشيخ بأن يكون جوعه جوعَ المساكين المختارين ؛ لا جوع المضطرين .

الأكل والعبادة: سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت محمد بن أحمد بن سعيد الرازيَّ؛ يقول : سمعت العبَّاس بن حمزة ؛ يقول : سمعت أحمد بن أبي الحواريّ ؛ يقول : قال أبو سليمان الدارانيُّ: **لأن أترك من عشائي لقمة أحبُّ إليَّ من أن أقوم الليل من أوَّله إلى آخره** . لأنَّ حال العبد مع الجوع في عبادته بعض الليل أقرب إلى الخشوع والتلذُّذ بها من قيامه . . وهو شبعان كلَّ الليل ، كما هو معروف عند أهله .

شهوة الحلال : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا القاسم جعفر بن أحمد الرازيَّ ؛ يقول : **اشتهى أبو الخير العسقلانيُّ السمك سنين** . . وقد كان ترك شهوته له ليعوِّد نفسه ترك شهواتها ودام على ذلك مدَّة . . وهو يجاهد نفسه في أن لا يعطيَها شهوتها ، ولا يَحُلَّ عهده مع الله تعالى . **ثم ظهر له ذلك** : السمك من موضع : وجهٍ **حلال** ، فأراد أن يأكل منه . **فلما مدَّ يده إليه ليأكل منه** . . **أخذت شوكة من عظامه إصبعه فذهبت في ذلك يده** ؛ تأديبا له ، لعدم وفائه بما عزم عليه من ترك شهوته . فقال : **يا ربِّ ؛ هذا جزاءٌ لمن مدَّ يده بشهوة إلى حلال** ! **فكيف** ـ والعياذ بالله ـ **بمن مدَّ يده بشهوة إلى حرام** !؟ .

جزاء الشهوة : سمعت الأستاذ الإمام أبا بكر ابنَ فُوْرَك رحمه الله ؛ يقول : **شغل العيال** : الاشتغال بهم بكسب المال والقيام بحقوقهم **نتيجة متابعة الشهوة** بكسرها **بالحلال** ، من التزوُّج ونحوه . . **فما ظنُّك بقضيَّة شهوة الحرام** : إذا أشغلتْ العبد شهوة الحلال في أعمال الدنيا عن أعمال الآخرة ، فما ظنُّك بمن أشغله فيها عن ذلك شهوة الحرام ؟! .

يعاقب نفسه : سمعتُ رستم الشيرازيَّ الصوفيَّ رحمه الله ؛ يقول ؛ **كان أبو عبد الله ابن خفيف في دعوة إلى طعام ، فمدَّ واحدٌ من أصحابه يده إلى طعام** ـ وفي نسخة : إلى الطعام ـ ليأكل منه **قبل الشيخ لما كان به من الفاقة**: الحاجة . **فأراد بعض**

أصحاب الشيخ أن ينكر- وفي نسخة : ينكت - عليه لسوء أدبه ، حيث مدَّ يده إلى الطعام قبل الشيخ ، فوضع بعض أصحابه شيئا بين يدي هذا الفقير ، فعَلم الفقيرُ أنّه أنكر- وفي نسخة : نكت - عليه لسوء أدبه ، بمدِّ يده إلى الطعام قبل الشيخ ، فاعتقد : عزم أن لا يأكل خمسة عشر يوما ؛ عقوبة لنفسه وتأديبا لها ، وإظهاراً لتوبته- وفي نسخة : للتوبة - من سوء أدبه ، وكان قد أصابته فاقة قبل ذلك حملته على مدِّ يده قبْل الشيخ ، ولا حاجة لهذا ، فقد قدَّم ما يغني عنه ! .

مخيف الشيطان: سمعت محمد بن عبد الله الصوفيَّ ؛ يقول : حدَّثنا أبو الفرج الورثاني؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن محمد بن جعفر؛ قال : حدَّثنا إبراهيم بن محمد بن الحارث ؛ قال : حدَّثنا سليمان بن داود؛ قال : حدَّثنا جعفر بن سليمان؛ قال : سمعت مالك بن دينار؛ يقول :

مَن غلب شهواتِ الدنيا[1] بكمال شغله بربِّه . . فذاك هو الذي يَفْرَق - يخاف ، وفي نسخة : يفرُّ - الشيطان من ظلِّه . كما قال النَّبيُّ ﷺ لعمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه : «مَا سَلَكْتَ فَجّاً إلاَّ سَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجّا غَيْرَ فَجِّكَ»[2] .

امتحان صوفيٍّ : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت منصور بن عبد الله الأصبهانيَّ ؛ يقول : سمعت أبا عليٍّ الرُّوذَباريَّ ؛ يقول : إذا قال الصوفيُّ بعد خمسة أيَّام (أنا جائع) فلا صبر له على الجوع . . فألزموه السوق وأمروه بالكسب[3] . بخلاف مَن لم يقل ذلك ! إمّا لتعوُّده الصبر على الجوع ، أو لخرق العادة له في حصول قوته من غير كسب . . وهو المعبَّر عنه ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ؛ كما قالت مريم عليها السلام . . لمَّا قيل لها ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ

---

(١) مراده بشهوات الدنيا ما يعمُّ التشوّف إلىٰ جزاء الأعمال ، إذ هو من نوع الحظوظ ، وتلك الغلبة تثمر له الرضا بما يجربه الحقُّ تعالىٰ . . من عطاء ومنع وصحَّة وبلاء ؛ وغير ذلك ، إذ لا ينفكُّ قدر الحقِّ عن لطف ، وإنكار ذلك جهل بالعقليات والعاديَّات والشرعيَّات ، إذ ما من بلاء إلاَّ والعقل قاضٍ بإمكان ما فوقه ، وما من بليَّة إلاَّ وهي مكفِّرة من ذنوب صاحبها أو موجبة له ثواباً ، أو مخفِّفة عنه عقاباً (عروسي : ٣/ ٨ باختصار) .

(٢) أخرجه البخاري : ٣٦٨٣ ، ومسلم : ٢٢ ـ ٢٣٩٦ ؛ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٣) تقدمت ص ٣٦٠ .

﴿حِسَابٍ﴾[1] .

مغلوب الشهوة : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول حاكياً عن بعض المشايخ أنَّه قال : **إنَّ أهل النار غلبت شهوتُهم حِميَتهم** عن المطاعم . . **فلذلك افتُضِحوا** بارتكاب شهواتهم ، لأنَّ حمىٰ الله محارمُه ، فمن غلبت شهوته تقواته افتُضِح ، ومَن غلبت تقواه شهوته نجح .

الشهوة والحمية : وسمعتُه أيضاً ؛ **يقول** : **قيل لبعضهم (ألا تشتهي !)** . **فقال: نعم أشتهي ؛ ولكن مع ذلك أحتمي** عن المشتهيات ، فأخاف شهوتي . **قال** : **وقيل لبعضهم (ألا تشتهي !)** . **فقال** : **(نعم أشتهي أن لا أشتهي)** . ليس هذا تمنيًا لرجوعه إلى شهوة الدنيا عما هو فيه من طاعة ربِّه . . فإنَّه نقص ، وإنما هو إخبار عن حسن حاله ، وبُعده عن شهوات نفسه ، وقلَّة خطورها بباله ؛ لكمال شغله بربِّه عن شهواته الدنيوية .

وهذا كقول أبي يزيد لما سُئل (أين أبو يزيد ؟)[2] ؛ فقال : (أين أبو يزيد ؟ أنا في طلب أبي يزيد ! رحم الله أبا يزيد . .) فإنَّه إخبار عن كونه مشغولاً بربِّه عن نفسه . **وهذا أتمُّ** مما قبله[3] ، لأنّه إخبار عن عدم شهوته ؛ وذلك إخبار عنها ، ولكنه أحتمىٰ عنها !! .

شهوة باذنجان : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ **يقول** : أخبرنا أحمد بن منصور ؛ قال : أخبرنا ابن مخلد ؛ قال : حدَّثنا أبو الحسين الحسن بن عَمْرو بن الجهم ؛ قال : سمعت أبا نصر التمَّار ؛ يقول : **أتاني بِشْرٌ ليلة ؛ فقلت : الحمد لله الذي جاء بك إلينا ! جاءنا قطن من خراسان ؛ فغزلَتْه البنت وباعَتْه . . واشترت لنا لحماً** وطبخناه **فتُفطرُ** عندنا . **فقال** له : **لو أكلتُ عند أحد أكلتُ عندكم !! ثم قال : إني لأشتهي الباذنجان منذ سنين . . ولم يتَّفق لي أكله !! فقلتُ** له : **إنَّ فيها** : الطبخةِ الباذنجانَ **من الحلال ! فقال : حتَّى يصفوَ لي حبُّ الباذنجان** ؛ بحيث

---

(١) الآية : ٣٧ ؛ من السورة التي ذكرت فيها مريم عليها السلام .

(٢) انظر ما تقدم ص ٢٩٠ .

(٣) لفقد حظ النفس فيه ، ووجوده في الأوَّل ممنوعاً منه (عروسي : ٣/٨) .

يكون أكلي له طاعةً فآكله .

وجبة صوفيٍّ : سمعت أبا عبد الله بن باكويه الصوفيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا أحمد الصغير ؛ يقول : أمرني أبو عبد الله ابن خفيف أن أقدِّم إليه كلَّ ليلة عشر حبَّات زبيب لإفطاره ، فليلةً من الليالي أشفقت عليه من ألم الجوع فحملت إليه خمس عشرة حبَّة ! فنظر إليَّ كالمنكر عليَّ ؛ وقال لي : من أمرك بهذا !!؟ . : بحمل الزائد على العشر !! وأكل مما حَمَله عشرَ حبَّاتٍ وترك الباقي . فيه دلالة على كمال محافظته على ما حصل له مِن الاستقامة في أدب النفوس والاكتفاء باليسير ، واعتياد التقلُّل من الطعام ؛ وإن كان شهيًّا لذيذاً . . حيث اكتفى بعشر حبَّاتِ زبيب في وقت إفطاره ! قيل : وربَّما كان يتسحَّر لصومه بمثلها ! .

ثمن شهوة : سمعتُ محمد بن عبد الله بن عبيد الله ؛ يقول : سمعتُ أبا العبَّاس أحمد بن محمد بن عبد الله الفرغاني ؛ يقول : سمعتُ أبا الحسين الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ يوسف ابن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا تراب النخشبيَّ ؛ يقول[1] : ما تمنَّت نفسي عليَّ شيئاً من الشهوات إلاّ مرَّة واحدة . . تمنَّتْ عليَّ خبزاً وبيضا ؛ وأنا في سفر ، فعدلت إلى قرية لأقضيَ فيها ما تمنَّتْهُ نفسي فقام لي واحد من أهلها وتعلَّق بي ؛ وقال : هذا كان مع اللصوص . فضربوني سبعين دُرَّةً ! فعرفت أنَّه تأديب من ربِّي لميلي إلى شهوتي ، ثم عَرَفني رجل منهم ؛ سخَّره الله تعالى له . . لحسن سيرته ؛ وكمال معرفته بربِّه .

فقال : هذا أبو تراب النخشبيَّ !! فٱعتذروا إليَّ في ضربهم لي فحملني رجل منهم إلى منزله ؛ إكراماً لي ؛ وشفقة عليَّ . وقدَّم إليَّ خبزاً وبيضا !! فقلت لنفسي : كُلي ما تمنَّيْتيه ـ وفي نسخة : كُلْ ـ بعد سبعين درَّةً !! قاله توبيخا لها . والله أعلم .

* * *

---

(١) تقدمت هذه الحكاية ص ١٣٧ ؛ غير أنَّ في ذكرها ها هنا نوعَ مغايرة .

١٢ ـ باب الخشوع والتواضع

وسيأتي بيانهما . . وكلٌّ منهما محمود[١] .

فلاح الخاشعين : قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾[٢] .
وقال تعالى ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[٣] : في الصلاة وغيرها .

الكبر والجمال : أخبرنا أبو الحسن عبد الرحيم بن إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكِّي ؛ قال : أخبرنا أبو الفضل سفيان بن محمد الجوهريُّ ؛ قال : حدَّثنا عليُّ بن الحسن ؛ قال : حدَّثنا يحيى بن حمَّاد ؛ قال : حدَّثنا شعبة ؛ عن أبان بن تغلب ؛ عن فضيل الفقيمي ؛ عن إبراهيم النَّخَعي ؛ عن علقمةَ بنِ قيس ؛ عن عبد الله بن مسعود ؛ عن النَّبيِّ ﷺ أنّه قال : « **لاَ يَدْخُلُ ٱلجَنَّة مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ** : لا يدخلها أبداً . . إن كان الكِبْرُ كُفْراً ؛ كأن تكبَّر على نبيٍّ ، وإلاّ فلا يدخلها مع الفائزين ، **وَلاَ يَدْخُلُ ٱلنَّارَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ** »[٤] : لا يدخلها دخولَ خلودٍ ، لما صحَّ أن طائفة من المؤمنين يدخلون النار ؛ ثم يخرجون منها بالشفاعة ، **فقال رجل** لما سمع ذلك : **يا رسول الله ؛ إنَّ الرجل يحبُّ أن يكون ثوبُه حسنا ونعلُه**

---

(١) **فائدة** : من أسباب الخشوع والتواضع شهود إحاطة العلم القديم بسائر الكائنات وشهود جلال عظمة الذات والصفات (عروسي : ٣/ ٩) .

(٢) الآيتان : ١ و٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : المؤمنون .

(٣) الآية ٩٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنبياء .

(٤) أخرجه مسلم : ١٤٨ ـ ٩١ ؛ عن ابن مسعود بتقديم وتأخير مع ذكر « حبة من خردل » بدل « ذرة » .
وانظر ما تقدم تخريجه عن الطبراني في « الصغير » ص ٤٤٧ .
وقوله لا يدخل الجنة . . وذلك من الوعيد الشديد المفيد أنَّ الكبر ؛ وإن قلَّ فهو من الكبائر (عروسي : ٣/ ١٠) .

حسنةً : أهو من الكِبْر ؟! فقال : « **إنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ جَمِيْلٌ يُحِبُّ ٱلجَمَالَ** . فليس ذلك بكبر ، إذ **ٱلْكِبْرُ** كائن **مِن بَطَرِ ٱلحَقِّ** : ردِّه وإبطاله ، **وَغَمْصِ ٱلنَّاسِ** » : احتقارهم ، ولأنَّه عبارة عن تعاظُم العبد على غيره ، وما ذكر ليس كذلك ، بل فيه إظهار النعمة ، وهو مطلوب .

والخبر رواه مسلم بلفظ : « ٱلْكِبْرُ بَطَرُ ٱلحَقِّ وغَمْطُ ٱلنَّاسِ »[1] . وهو بمعنى (غَمْص) . والكِبر ضدُّ التواضع ، و« مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ ٱللهُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وضَعَهُ ٱللهُ »[2] .

أخلاق النبيِّ ﷺ : **وأخبرنا عليُّ بن أحمد الأهوازيُّ ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصريُّ ؛ قال : حدَّثنا محمد بن الفضل بن جابر ؛ قال : حدَّثنا أبو إبراهيم ؛ قال : حدَّثنا عليُّ بن مسهر ؛ عن مسلم الأعور ؛ عن أنس بن مالك ؛ قال : كان رسول الله ﷺ يعود المرضى ، ويشيِّع الجنائز ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد ، وكان يوم بني قريظة والنضير** راكباً **على حمار مخطوم بحبل من ليف ؛ وعليه إكاف** : برذعة **من ليف**[3] .

ثمَّ بيَّن الخشوع والتواضع بقوله :

الخشوع والتواضع : **الخشوع الانقياد للحقِّ** : السكون إليه وقبوله إذا سمعه من أيِّ قائل كان . **والتواضع هو الاستسلام للحقِّ وترك الاعتراض على الحكم** من الحاكم ؛ وهو أعمُّ من الخشوع ، لأنَّه يستعمل فيما بين العباد ؛ وفيما بينهم وبين الرَّبِّ ، بخلاف الخشوع . . لا يستعمل إلاّ في الثاني ، فلا يقال (خشع العبد لمثله) . . ويقال (تواضع له) .

---

(١) أخرجه مسلم : ١٤٧ ـ ٩١ ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أخرج مسلم : ٦٩ ـ ٢٥٨٨ ، والترمذي : ٢٠٢٩ ، وابن خزيمة : ٢٤٣٨ ، وأحمد : ٢/ ٢٣٥ ؛ أبي هريرة رضي الله عنه : « ما نقص مال من صدقة . . . وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلاَّ رَفَعَهُ » ، وللطبراني في « الأوسط » : « مَنْ تَوَاضَعَ لأَخِيْهِ ٱلْمُسْلِمِ رَفَعَهُ ٱللهُ ، وَمَن ٱرْتَفَعَ عَلَيْهِ وَضَعَهُ ٱللهُ » . وشواهده كثيرة .

(٣) أخرجه عبد بن حُمَيد : ١٢٢٩ ، والترمذي : ١٠١٧ ، وفي « الشمائل » : ٣٢٥ ، وابن ماجه : ٢٢٩٦ ـ ٤١٧٨ والبغوي في « الأنوار » : ٣٨٥ ، و« شرح السنة » : ٣٦٧٣ ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي ﷺ » : ٦٢ .

أوّل الدِّين : **وقال حذيفة** : **أوّل ما تفقدون من دينكم الخشوع** في العبادة وقد ظهر ذلك ظهوراً كثيراً ؛ حتَّى صارت أكثر الصلوات تجري على حكم العادات .

همَّة الخاشع : **و قد سئل بعضهم عن الخشوع** ؛ **فقال** : **الخشوع قيام القلب بين يدي الحقِّ** تعالى **بهمٍّ مجموع** : بهمَّة عظيمة بحيث يعبد الله كأنَّه يراه .

همَّة الخشوع : **وقال سهل بن عبد الله** : **من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان** . بل يفرُّ منه كما كان يفرُّ من عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه[1] .

علامات الخشوع : **وقيل** : **مِن علامات الخشوع للعبد أنَّه إذا عُصيَ** ؛ **أو خولف** ؛ **أو رُدَّ عليه** في شيءٍ لم يتغيَّر عن حاله ؛ بل يبادر **إلى أن يستقبل ذلك بالقبول** ممن فعل به ذلك .

الخشوع والنظر : **وقال بعضهم** : **خشوع القلب** . . لكونه مفضياً إلى معرفة العبد رؤية الله إيَّاه **قيدُ العيون** . . بل وجميع الجوارح **عن النظر** إلى المشتهيات والوقوع في المنهيَّات ، وشغلها بأنواع الطاعات .

قلب الخاشع وشهواته : **وقال محمد بن عليٍّ الترمذي** : **الخاشمع مَن خمدت نيران شَهواته** ، وانكسرت جوارحه عن السعي فيما لا يرضاه ربّه ، **وسكن دخان صدره ، وأشرق نور التعظيم في قلبه فماتت بذلك شهواته** ، **وحيي قلبه فخشعت** ـ: من اتَّصف بذلك خشعت ـ**جوارحُه** لكمال معرفته بربِّه، وهذا معنى قوله ﷺ لمن رآه يعبث في الصلاة بلحيته : « لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هٰذا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ »[2] : لو استشعر أنّه تعالى يسمعه ويراه . . تأدَّب في نفسه وقلبه وجوارحه .

الخشوع والقلب : **وقال الحسن البِصريُّ** : **الخشوع الخوف الدائم اللازم للقلب** . هذا إنّما هو سبب الخشوع ، فإنّ العبد إذا خاف سببا بَعُد عنه وخشع : سكن عن طلبه .

---

(١) شاهده ما تقدم تخريجه من قوله ﷺ : « مَا سَلَكْتَ فجّاً . . . » ص٤٧٤ .

(٢) تقدم تخريجه عن ابن أبي شيبة ؛ والحكيم الترمذي ؛ وابن المبارك في «الزهد» ص ١٣٤ .

مشية الخاشعين : وسئل الجنيد عن الخشوع ؛ فقال : هو تذلُّل القلوب لعلاَّم الغيوب . وإنَّما تذلَّلُ لمن علمتْ كماله واقتداره على نفعها وضررها ، والتواضع يحصل بالرِّفق . قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[1] : برفق ، بلا تكبُّر ولا إعجاب ، وهو المراد بما ذكره بقوله :

سمعتُ الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله ؛ يقول : معناه متواضعين متخاشعين .

وسمعتُه أيضا ؛ يقول : هم الذين لا يستحسنون استحسان تعجُّب شِسْع نعالهم . . إذا مشوا . الشِسْع . أحد سيور النعل ، وهو مثالٌ .

موضع الخشوع : واتفقوا على أن الخشوع محلُّه القلب . ورأى بعضهم رجلاً منقبِض الظاهر منكسر الشاهد : غاضَّ البصر قد زوىٰ : جَمَع منكبيه . فقال له : يا فلان ؛ الخشوع ههنا ، وأشار إلى صدره . . لا ها هنا ، وأشار إلى منكبيه . فالمطلوب خشوع القلب . . لا تكلُّف الجوارح ، كما دلَّ عليه حال الرجل المذكور ، ومتى خشع قلب العبد تبعه الجوارح بالانكسار والتذلُّل .

ولهذا رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ رأى رجلاً يعبث في صلاته بلحيته ؛ فقال : « لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هٰذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ » .

شرط الخشوع : وقيل : شرط الخشوع الكامل بأن يُحضِر العبد قلبه ويستغرق في الصلاة أن لا يعرف المصلِّي مَن على يمينه ؛ ومَن على شماله ؛ ومَن على غيرهما ! ومَن كمُل حضور قلبه في صلاته ومناجاته لربِّه . . حَسُن منه أن يقول لمن معه في الصلاة (السلام عليكم) ، لأنّه كان غائبا ثم قدم عليهم ، وإلاّ . . فمن هو حاضر ببدنه بين يدي الله وقلبُه مغرِق فيما يحبُّه ويهواه ؛ فلم يغب عن نفسه ، ولا عما معه . . فهو حاضر معهم ؛ فلا يحسن معه ذلك .

من معانيه : ويحتمل أن يقال : الخشوع إطراق السريرة بشرط الأدبِ بمشهد الحقِّ تعالى ؛ والحضور معه .

---

(١) الآية : ٦٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الفرقان .

من معانيه : أو يقال : الخشوع ذبولٌ يَرِدُ على البدن ناشئاً من القلب عند اطلاع الربِّ . أو يقال : الخشوع ذَوَبان القلب ؛ وانخناسه عند سلطان الحقيقة : كمالِ الحال .

من معناه : أو يقال : الخشوع مقدِّماتُ غَلَبات الهيبة من الحقِّ .

أو يقال : الخشوع قشعريرة ترِدُ على القلب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة .

وكلها ترجع إلى تغيُّر القلب وتذلُّله وسكونه ؛ بأن يستشعر نظر الحقِّ إليه ؛ حتَّى لم يَبْقَ فيه وُسْع لغير ما هو فيه . وهذه الحالة أعلى رتب الخاشعين .

مرآة الخشوع : وقال الفضيل بن عياض : كان الشأن عند السلف يكره أن يُرِيَ الرجلُ غيرَه من الخشوع ـ أي : خشوعه ـ أكثر مما في قلبه . . إذا لم يعجز عن إظهاره ، وإلا ! فلا يكره ذلك لعجزه عن كتمه ، فالعبد متى كان قادراً على كتم الأحوال الغالبة على القلوب ؛ ولم يكتمها . . كان مرتكباً مكروها . بل إنْ أظهرها رياءً ؛ أو تشبُّعاً بما لم ينله . . فهو مراءٍ كذَّابٌ ، وقد قال ﷺ : « المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يَنَلْ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ »[1] ، ومتى لم يقدر على كتمها ؛ بأن غلبت عليه بحيث أثَّرت في جوارحه بغشيانٍ ؛ أو صياح ، أو بكاء . . لم يكره له عدمُ كتمِها لعجزه .

واضع نفسه : وقال أبو سليمان الدارانيُّ : لو اجتمع الناس على أن يضعوني عن قَدْري كاتِّضاعي عند نفسي لَمَا قدروا عليه ، لأنَّ اتِّضاعي مع الحقِّ والخلقِ في غاية الكمال . وهذا إنَّما قاله . . ليُقتدىٰ به فيه ؛ لا لرياءٍ ونحوه .

رفعة باتِّضاع : وقيل : من لم يتَّضعْ عند نفسه . . لم يرتفع عند غيره . لأنَّ مَن لم يتَّضع لم يعرف قَدْر نفسه ، وربَّما ظهر منه الكبر على الناس ! فينزل قدره عندهم ، بخلاف من اتَّضع عند نفسه ؛ فإنَّه يرتفع عند غيره ، لخبر : « مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ ٱللهُ »[2] .

---

(١) تقدم تخريجه عن البخاري ومسلم ص ١٦٢ ، ٢٢٢ .

(٢) تقدم تخريجه ص ٤٧٨ .

مسجد أمير : **وكان عمر بن عبد العزيز لا يسجد في الصلاة إلاَّ على التراب** . لكمال تواضعه لربِّه . . حيث وضع أرفع ما فيه . . وهو وجهه على التراب تذلُّلاً لربِّه ، ورجاءً لقبول عمله والعفو عن خطئه وزلله .

مآل المتكبِّر : **أخبرنا عليُّ بن أحمد الأهوازيُّ ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن عبيد البصريُّ ؛ قال : حدَّثنا إبراهيم بن عبد الله ؛ قال : حدَّثنا أبو الحسن علي بن يزيد الفرائضيُّ ؛ قال : حدَّثنا محمد بن كثير . . وهو المصيصيُّ ؛ عن هارون بن حيَّان ؛ عن حصيف ؛ عن سعيد بن جبير ؛ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ يَدْخُلُ ٱلجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ »** . تقدَّم الكلام عليه[١] .

الجبل المتواضع : **وقال مجاهد رحمه الله : لما أغرق الله سبحانه قوم نوح شمخت الجبال** غيرُ الجوديِّ : ارتفعت **وتواضع الجوديُّ** ـ جبلٌ بالجزيرة بقرب الموصل ـ : قصُر إلى وجه الأرض . . **فجعله الله سبحانه وتعالى** بتواضعه **قراراً لسَّفينةِ نوحٍ عليه السلام** . بقوله تعالى ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾[٢] : وقفت على الجوديِّ ، لأنَّ مَن تواضع لله رفعه ، فالجوديُّ لَمَّا لم يَرَ نفسه أهلاً لحلول النبيِّ والمؤمنين عليه . . أعطاه الله تلك المنزلة .

وفيه دلالة على جواز خلق الحركات في الجمادات .

الأمير المتواضع : **وكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يسرع في المشي ؛ ويقول : إنَّه أسرع للحاجة وأبعد من الزهوِّ** والعجب .

ولا ينافي ذلك مدحَه تعالى مَن يمشي على الأرض هونا : بسكينة وتواضع !! لأنَّ إسراع عمر رضي الله عنه كان كذلك .

خدمة أمير : **وكان** أمير المؤمنين **عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يكتب ليلة شيئا** . . **وعنده ضيف فكاد السراج ينطفىءُ ! فقال الضيف : أقوم إلى المصباح**

---

(١) ص٤٧٧ . وحاصله أنّه قد يكون كفراً ؛ أو فسقاً ، فعلىٰ الأول لا يدخل الجنة أصلاً لخلوده في النار ، وعلىٰ الثاني لا يدخلها مع السابقين ، بل بعد نار التطهير ؛ إن لم يصادفه العفو (عروسي : ٣/ ١٣) .

(٢) الآية ٤٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : هود .

فأصلحه !؟ اِستأذنه في ذلك ! لأنّه لا ينبغي للضيف أن يتصرَّف في دارِ مَن أضافه إلا بإذنه . فقال له : لا ؛ إذ ليس من الكرم والأخلاق المحمودة استعمالُ الضيف . بل إكرامه ، لخبر « مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ . . فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[1] . قال : فأُنبِّه الغلام يصلحُه؟ قال : لا ؛ هي : نومتُه أوَّل نومة نامها الليلةَ ، فلا تشوِّش عليه نومه . فقام عمر إلى البطَّة[2] التي فيها الدُّهن وجعل الدُّهن : الذي أفرغه منها في المصباح وردَّها مكانها ثم جلس .

فقال له الضيف : قمتَ بنفسك ؛ يا أمير المؤمنين !! متعجِّبا من ذلك ، لمخالفته عادةَ الولاة ؛ فضلا عن الخلفاء . فقال له عمر : ذهبت وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر !! : ما نقص مما أنا عليه شيء .

وفيه دلالة على كمال تواضعه وبُعْده عن رؤية النفس وكمالها .

أخلاق نبويّة : وروىٰ أبو سعيد الخدريُّ رضي الله عنه ؛ أنَّ رسول الله ﷺ كان يعلف البعير ، ويَقُمُّ البيت : يكنسُه ، ويخصف النعل : يخرزها ، ويرقع الثوب ، ويحلِب الشاة ، ويأكل مع الخادم ، ويطحن معه إذا أعيا : تعب .

وكان لا يمنعُه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله ، وكان يصافح الغنيَّ والفقير ، ويسلِّم مبتدئا على من يستقبله . . من حرٍّ أو عبد . ولا يحقر ما دُعي إليه من المطاعم ونحوها ؛ ولو إلى حَشَف[3] التمر .

وكان هيِّن المؤنة ، ليِّن الخلق ؛ كريم الطبيعة ؛ جميل المعاشرة ؛ طلق الوجه ؛ بسَّاما من غير ضحك ، محزونا من غير عبوسة بوجهه ؛ متواضعا من غير مذلَّة ، جواداً من غير سَرَف ، رقيق القلب . . . رحيما بكلِّ مسلم ، لم يتجشَّأ قطُّ من شبع ، لأنَّه لم يشبع قطُّ ، ولم يمدَّ يده ولا غيرها[4] إلى الطمع .

في ذلك دلالة على كمال تواضعه ﷺ مع أنه أشرف الخلق !! وعلى أن

---

(١) متفق عليه عند البخاري : ٦٠١٨ ؛ ومسلم : ٧٥ ـ ٤٧ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه بزيادة .

(٢) الإناء المتوسط بين الكبير الذي يخزَّن فيه الدهن . . وبين السراج .

(٣) حَشَف التمر : رديئُه .

(٤) كعينيه ؛ أو قلبه ، وهو التمني ونحوه . =

تعاطيَ الأسبابِ لا ينافي التوكُّل ؛ ولا المقاماتِ العاليةَ .

قُرَّاء وقرّاء : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت عبد الله بن محمد الرازيَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن نصر الصائغ ؛ يقول : سمعت مردويه الصائغ ؛ يقول : سمعت الفضيل بن عياض ؛ يقول : **قُرَّاء الرحمان عزَّ وجلَّ أصحاب خشوعٍ وتواضع ، لعلمهم بالله وبأنفسهم وبما كلَّفهم به مولاهم . . . من القيام بحقِّه وبعجزهم عن ذلك . وقرّاء القضاة : الولاة أصحاب عُجْب وتكبُّر غالباً ، لأنَّ غالبهم يتقرَّب منهم لينال من دنياهم ويعظِّم جاهه وينفِّذ كلمته .**

التواضع والفضيل : وقال الفضيل أيضا : **من رأى لنفسه قيمة يفضل بها غيره ليتكبَّر عليه . . فليس له في التواضع نصيب . وسئل الفضيل عن التواضع ؛ فقال : تخضع للحقّ وتنقاد له ، وتقبله ممن قاله ؛ صغيراً . . أو كبيراً ، شريفا . . أو وضيعا ، حرًّا . . أو عبداً ، ذكراً . . أو غيره[1] ؛ نظراً للقول ؛ لا للقائل ، فهو إنما يتواضع للحقِّ وينقاد له .**

من ثمرة التواضع : وقال الفضيل أيضا : **أوحى الله سبحانه إلى الجبال ﴿ إنِّي مُكَلِّمٌ عَلَىٰ وَاحِدٍ مِنْكُمْ نَبِيّاً ﴾ ، فتطاولت الجبال : ترفَّعت ؛ غير طور سيناء ، وتواضع طور : جبل سيناء . فكلَّم الله سبحانه عليه موسى لتواضعه .**

فيـه دلالـة على جـواز خلق الحيـاة والفهم والإخبار والحركات في الجمادات ! .

التواضع والجُنيد : سمعتُ محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت عليَّ بنَ أحمدَ بنِ عليٍّ بن جعفر ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن فاتك ؛ يقول : **سئل الجنيد عن التواضع ؛ فقال : هو خفض الجناح للخلق ، ولينُ الجانب لهم ليقربوا منه فينتفعوا به ،** ويكون بحيث إنَّه . . إن آذاه غيره بأذيّة حملها ؛ فلا يؤاخذه بها .

اصطفاء قلب : وقال وهب : **مكتوب في بعض ما أنزل الله تعالى من الكتب : ﴿ إنِّي أَخْرَجْتُ ٱلذَّرَّ** : بني آدم من صلب آدم **فَلَمْ أَجِدْ قَلْبَاً أَشَدَّ تَوَاضُعَاً مِنْ قَلْبِ مُوسَىٰ**

---

(١) شامل للأنثى ، والخنثى .

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَلِذَٰلِكَ ٱصْطَفَيْتُهُ : اخترته نبيًا وَكَلَّمْتُهُ ﴾ فما ميّزه تعالى على أُمَّته وخصَّه بكلامه . . إلاَّ لما اختصَّ به من كمال تواضعه .

من التواضع : وقال ابنُ المبارك : **التكبُّر على الأغنياء ؛ والتواضع للفقراء من التواضع** . الغرض منه التنفير عن التواضع للأغنياء لديناهم ، وإلاّ فالتكبُّر مذموم لكلِّ أحد . . فقيراً كان ؛ أو غنيّا ، والتواضع محمود لكلِّ أحد ، فالمذموم منه التواضع للأغنياء لدنياهم ؛ وللفقراء لفقرهم ، والمحمود التواضع لله . . سواء كان مع الأغنياء أم الفقراء .

كمال التواضع : وقيل لأبي يزيد البَسطامي (**متى يكون الرجل متواضعا** كاملا) ؛ فقال : **إذا لم يَرَ لنفسه مقاما . . ولا حالاً يفضل بهما غيره ، ولا يرى أنَّ في الخلق من هو شرٌّ منه** . لكمال شغله بربِّه . . فلا يرى لنفسه قَدْراً .

وقيل : **التواضع نعمة عظيمة** ؛ لما يترتَّب عليها في الآخرة والدنيا ، لكن أكثر الناس لا يعدُّونه نعمة ، بل مذلَّة وقلَّة همَّة . ولهذا **لا يحسد عليها** ، إذ الحسد لا يكون إلاَّ على النعم المعروفة للحاسد . **والكبر** لكونه مذموما **محنةٌ** وبليّة **لا يرحم عليها** ، إذ الرحمة . . إنَّما تكون على المصاب المتواضع ، **والعزُّ في التواضع** ؛ لا في الكبر ، **فمن طلبه في الكِبْر . . لم يجده** .

الشَّرَف والحريَّة : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن شيبان ؛ يقول : **الشرف في التواضع** ؛ وإن كان صاحبُه جليلَ القدر لاعترافه بكمال العبوديّة ، ولخبر « مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ » ، **والعزُّ في التقوى** ، لأنَّها سببه ، **والحريَّة** التي توجب عدم المزاحمة على الأراذل في الأرزاق **في القناعة** بما في اليد . وفي ذلك أنشدوا :

أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَٱسْتَعْبَدَتْنِي   وَلَوْ أَنِّي قَنِعْتُ لَكُنْتُ حُرَّا

أعزُّ الخلق : وسمعته أيضا ؛ يقول : سمعت الحسن الساويَّ[1] ؛ يقول : سمعت ابن الأعرابيَّ ؛ يقول : بلغني أن سفيان الثوريَّ قال :

أعزُّ الخلق خمسةُ أنفسٍ : ١ـ عالم زاهد في الدنيا ، و٢ـ فقيهٌ صوفيٌّ ،

---

(١) نسبة إلىٰ « ساوة » ؛ مدينة معروفة بين الرِّيِّ وهمذان . وقد وقعت في (ح) : الشاوي بالمعجمة ؟! .

و٣ـ غنيٌّ متواضع ، و٤ـ فقيرٌ شاكر ، و٥ـ شريف سُنِّيٌّ ، لأنّ مَن غلب عليه شيء ٱمتنع عليه المصير عادة إلى ضدِّه ؛ فالجمع بينهما عزيز شريف .

إيضاح : فـ ١ـ الغالب على العالم معرفةُ وجوه الاستدلال ، فهو كامل معظّم عند الناس ، ومن كان كذلك بَعُد عن الزهد في الدنيا ، لأنه غارق في معظمها . . وهو الجاه ، ولهذا قيل : آخر ما يخرج من رؤس الصدِّيقين حبُّ الرياسة .

و٢ـ الغالب على الفقيه معرفة الأحكام . . ورجوع الناس إليه فيها ، فيغلب اختلاطه بهم ، والصوفيُّ منقطعٌ بقلبه عنهم مشغول بربِّه ،

و٣ـ الغالب على الغنيِّ الشرف والتكبُّر ؛ فيبعد عليه التواضع ،

و٤ـ الغالب على الفقير الصبر على عدم النعم الدُّنيويّة مع المشقَّة فيبعد عن الشكر عليها لفقده لها ،

و٥ـ الغالب على الشريف المنتسبِ لأولاد النَّبيِّ ﷺ من أولاد فاطمة أنّه لا يعظِّم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما حقّ تعظيمهما[1] فلا يكون سنِّيًّا .

الأحسن والأسمج : **وقال يحيى بن معاذ** : **التواضع حسن في كلِّ أحد ، لكنه في الأغنياء أحسن ، والتكبُّر سَمْجٌ** : قبيح **في كلِّ أحد ، لكنه في الفقراء أسمج** : أقبح ، وذلك لوجود أسباب التكبُّر في الأغنياء . . من المال والجاه وغيرهما ؛ وفقدهما في الفقير ، فكان تواضعُ الأغنياء أحسنَ من تواضع الفقراء ، وتكبُّرُ الفقراء أقبحَ من تكبُّر الأغنياء .

من التواضع : **وقال ابن عطاء** : **التواضع قبول الحقِّ ممن كان** . . صغيراً ؛ أو

---

(١) إن كان جاهلاً متعصباً ، أما العلم المنصف فشأنه ما قاله الإمام الجليل جعفر الصادق رضي الله عنه « . . . ومن زعم أنِّي أبرأ من أبي بكر وعمر فأنا منه بريءٌ وكذلك أدركنا سلفنا » . وهو يشير بذلك إلىٰ ما قاله أبوه الإمام الجليل محمد الباقر رضي الله عنه ؛ وقد سئل عن أبي بكر وعمر ؛ فقال : والله ؛ إنّي لأتولاهما وأستغفر لهما ، وما أدركت أحداً من أهل بيتي إلاَّ وهو يتولاهما . أما جدُّهم الجليل رضي الله عنه وكرَّم وجهه فقد كان يرىٰ المشي وراء الجنازة فقيل له إنَّ أبا بكر وعمر يمشيان أمامها . **فقال** (**يغفر الله لهما** ، **وإنَّهما والله** ؛ **لخير هذه الأمة** ، ولكنهما كرها أن يجتمع الناس ويتضايقوا فأحبَّا أن يسهِّلا علىٰ الناس) .

كبيراً . . إلى غير ذلك مما مرَّ نظيره ، وهذا معلوم من ذاك .

هكذا أمرنا : **وقيل** : ركب زيد بن ثابت بغلته بعد ما صلّى على جنازة . . **فدنا ابن عبَّاس** منه **ليأخذ بركابه** . **فقال له** (**مه** !) : أكفف عن هذا **يا ابن عمِّ رسول الله ﷺ** !! **فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا** : نكرمُهم ونجلُّهم . . **فأخذ زيد بن ثابت يد ابن عبَّاس** ـ وفي نسخة : فقال زيد بن ثابت : أرني يدك . فأخرجها إليه ـ **فقبَّلَها** ؛ **وقال** : **هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ** . ظاهره أنَّه فعل ذلك مكافأة لما فعل معه ، حيث قبَّل يده التي أمسك بها الركاب . ويحتمل أنه فعل ذلك خوفا من دخول آفة الكبر والعُجب عليه ، فيكون تعظيما . . لا مكافأة ، ويحتمل أنَّه فعل ذلك للأمرين معاً !! .

زهوُّ الأمير : **وقال عروة بن الزُّبَيْر رضي الله عنه** : **رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه** . . **وعلى عاتقه قِرْبَةُ ماء** ! **فقلت** : **يا أمير المؤمنين** ؛ **لا ينبغي لك هذا** ؟! **فقال** : **لَمَّا أتاني الوفود سامعين مطيعين** . . **دخلتْ في نفسي نَخْوةٌ** : كِبْرٌ وعظمة ؛ **فأحببتُ أن أكسرها** وأُوَدِّبَها . وهكذا دأب الصالحين إذا رأوا من أنفسهم شيئا لا يليق أدَّبوها بمخالفة الهوى وتحميلها الأمور الشاقَّة . **ومضى بالقِرْبة إلى حُجْرة امرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها** !! .

طرقُّوا للأمير : **سمعت أبا حاتم السجستانيَّ** ؛ **يقول** : **سمعت أبا نصر السرَّاج الطوسيَّ** ؛ **يقول** : **رئي أبو هريرة** ؛ **وهو أمير المدينة** . . **وعلى ظهره حزمةُ حطب** . . **وهو يقول** (**طرِّقوا** : وسعوا الطريق **للأمير**) ! وهو نظير ما مرَّ عن عمر آنفا .

وقال عبد الله الرازيُّ : **التواضع ترك التمييز في الخدمة** ؛ بأن لا يميز بين الصنعة الرفيعة والوضيعة ، ولا بين كون المخدوم حرًّا وكونه عبداً ، ولا بين كونه فقيراً وكونه غنياً .

حلاوة الخدمة : **سمعت محمد بن الحسين رحمه الله** ؛ **يقول** : **سمعت محمد بن أحمد بن هارون** ؛ **يقول** : **سمعت محمد بن العبَّاس الدمشقيَّ** ؛ **يقول** : **سمعت أحمد بن أبي الحوارِيِّ** ؛ **يقول** : **سمعت أبا سليمان الدارانيَّ** ؛ **يقول** : **من رأى لنفسه قيمة** يفضل بها غيره . . **لم يذق حلاوة الخدمة** . إذ لا يذوقها إلا مَن كَمُل إخلاصه ؛ ورأى توفيقه للخدمة من جملة النعم عليه ! وذلك مفقود فيمن رأى لنفسه قيمة .

كبر التواضع : وقال يحيى بن معاذ : التكبُّر على مَن تكبَّر عليك بماله : إعراضُك عنه تواضعٌ. لأنَّك صغَّرت ما صغَّره الله تعالى . . حيث لم تلتفت إلى تكبُّر المتكبِّرين .

أنموذج التذلُّل : وقال الشبليُّ رحمه الله : ذلِّي في نفسي بمعرفتي بقدرها ؛ وبقِلَّة ما يحصل لي من الخير منها ؛ وبعجزها عن قيامها بما عليها لربِّها ؛ وبسرعة نقضها لعهدها عطَّل ذُلَّ اليهود . . المذكور في قوله تعالى ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾[1] فهم أذلُّ الخلق .

والمعنىٰ : ذليَّ في نفسي أعظم من ذلِّ اليهود في أنفسهم ، لأنَّ ذلَّهم قَهْريٌّ ، وذلِّي عن علم بما عليه نفسي من النقص ، وهذا لا يلزم منه جحدُه لفضل ربِّه عليه ، لأنَّ ما ذكر من الذُّلِّ بالنظر لنفسه ، وما هو فيه من الفضل جارٍ عليه من ربِّه ! فهو ذليل عزيز .

شاهد الشبليِّ : وجاءه ـ أي : الشبليُّ ـ رجل فقال له الشبليُّ : ما أنت ؟ : ما حالُك ـ وفي نسخة : من أنت ؟ ـ فقال : يا سيِّدي النقطة ـ أي : حالي . أو : أنا كالنقطة ـ التي تحت الباء . فكما أنها دليل على معرفتها وتمييزها عن غيرها . . كذلك حالي . أو أنا كسائر المخلوقات دليل على محدثي . فقال له : أنت شاهدي : حاضري . يعني : حالُك مستقيم ما لم تجعل لنفسك مقاما !! .

دخول هذا في التواضع من حيث إنّ المسؤول جعل نفسه كالنقطة التي تحت الباء . . دون التي فوق الحروف فنزَّل نفسه . . ولم يَرَ لها قدراً .

من المتواضع : وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما : من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر : بقيَّة مشروبِ أخيه . إذ لا يأنَفُ من ذلك إلاّ المتكبِّرون ، ولو حَسُن ظنُّ العبد شرب من سؤر كلِّ شارب من المسلمين ، لأنَّ الولاية مخفيَّة فيهم .

سلام أبناء الدنيا : وقال بشر ؛ تأديبا لبعض أصحابه . . لمَّا رآهم يسلِّمون على أبناء الدنيا لدنياهم ويعتلُّون بأنَّهم إنَّما يقصدون الزيارة : سلِّموا على أبناء الدُّنيا بترك السلام عليهم . يعني : ترككم السلام عليهم أسلمُ لكم من السلام عليهم على

---

(١) الآية : ١١٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

الوجه المذكور ، لأنه حينئذ ليس بطاعة ، بل فيه خطر .

الظنُّ الصحيح : وقال أبو صالح شعيب بن حرب : بينا أنا في الطواف إذ لَكَزني إنسان بمِرْفقه ! فالتفتُّ إليه . . فإذا هو الفضيل بن عياض . فقال : يا أبا صالح ؛ إن كنت تظنُّ أنَّه شهد الموسمَ شرٌّ منِّي ومنك . . فبئس ما ظننت أنت .

فيه دلالة على كمال معرفة الفضيل بنفسه ؛ وبأنه لا يعتمد على عمله ، فلما كان بهذه الصفة وظنُّه بالناس حسنا . . نبَّه أخاه شعيبا على ذلك ليكمُل تواضعهما مع كمال أعمالهما .

تكبُّر الوضيع : وقال بعضهم : رأيتُ في الطواف إنساناً من عمَّال الخليفة بين يديه جماعة شاكريَّه : يشكرونه ويمدحونه وهم بأمره يمنعون النَّاس لأجله عن الطواف . أمرهم بذلك تكبُّراً ؛ لئلا يخالط الفقراء . ثمَّ رأيتُه بعد ذلك بمدَّة على جسرٍ ببغداد يسأل الناس شيئاً فعجبتُ منه ، ففهم عني ذلك وبيَّن لي السبب ، فقال لي : أنا تكبَّرتُ في موضعٍ يتواضع الناس هناك ـ يعني : فيه ـ فابتلاني الله سبحانه بالتذلُّل في موضع يترفَّع فيه النَّاس ؛ حيث نقم عليه الخليفة لَمَّا وصل إليه ببغداد وسلبه جميع هو فيه ، وصار فقيراً يسأل الناس .

تأنيب متكبِّر : وبلغ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنَّ ابناً له اشترىٰ فصَّاً خاتَم يلبسه بألف درهم ، فكتب إليه عمر : بلغني أنَّك اشتريت فصَّاً بألف درهم فهذا حالُ المتكبِّرين !! فإذا أتاك كتابي هذا . . فبع الخاتم ، وأشبع بثمنه ألفَ بطنٍ ، فإنَّه أفضل لك عند الله ، واتَّخذْ خاتماً من درهمين فأقلَّ ، واجعل فَصَّه حديداً صينياً ؛ نسبة إلى صين : بلدة . .

وذلك لأنَّه أثبتُ للنقش عليه لصلابته ، واكتب عليه (رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه) لتتذكر به كلَّما رأيتَه قدرها وتتواضع لربِّك ، وأمره بالأمور المذكورة من مقابلة الشيء بضدِّه ، لأنَّه لما نوى الكبر . . أمره بفعل الخير الذي فيه تواضع ؛ ليقابل الشرَّ بالخير فيمحوَ أثره .

معرفة النفس : وقيل : عُرِض على بعض الأمراء مملوكٌ ليشتريَه بألوف دراهم ، فلما أحضر الثمن للبائع استكثره ؛ فبدا له في شرائه : نشأ له فيه رأيٌ ؛ وهو وعدم فردَّ الثمن إلى الخِزانة ، فقال له العبد : يا مولاي ؛ اشترني ، فإنَّ فيَّ بكلِّ ألف درهم من هذه الدراهم خَصلة تساوي أكثَر من

ألف درهم ، فقال : وما هي ؟ فقال : أقلُّها وأدناها ما لو اشتريتني وقدَّمتني متكلِّماً على جميع مماليكك لا أَغلُظ في نفسي ، وأعلمُ أنِّي عبدُك فلا أتكبَّر . فاشتراه .

فيه دلالة على أنَّ معرفة قدر النفس من أفضلِ الخصال التي تُقصَد في الإنسان ؛ وهي أصل التواضع .

تواضع عمر مع رفعة قدره: وحُكي عن رجاء بن حَيَوة أنَّه قال: قوَّمتُ ثياب عمر بن عبد العزيز . . وهو يخطب باثني عشر درهما، وكان ملبوسُه قباءً وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخُفَّين وقَلَنسوة . فيه دَلالة على كمال تواضعه.

مشية تبختر : وقيل مشى عبد الله بن محمد بن واسع مشياً لا يُحْمَد : متبختراً في مشيته وهي مشية يُبغُضُها اللهُ إلاَّ في الحرب ، فقال له أبوه كلاما يعرِّفه به أصلَه ؛ وهو : تدري بكم اشتُرِيَتْ أُمُّك ؟ اشتريتْ بثلاث مئة درهم وأبوك لا أكثر الله مثلَه في المسلمين أباً ، وأنت ـ أي : والحالةُ أنَّك ـ تمشي هذه المشية !! ليس هذا منه دعاء على المسلمين ، بل في كلامه إشارةٌ إلى التقصير في تأديبه لولده في الصغر حتَّى تبختر في مشيه في الكِبَر ! والمعنى لا أكثر الله فيهم مثلَه من الآباء الذي لا يؤدِّبون أولادهم في الصغر حتَّى يتعوَّدوا ذلك في الكبر ، فهو دعاء للمسلمين بأن يجعلَهم الله ممنَّ يؤدِّبُون أولادهم كما أُمروا به .

معنى التواضع : سمعتُ محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتُ أحمد بن محمد الفرّاءَ ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن منازل ؛ يقول : سمعتُ حَمْدون القصَّار ؛ يقول :

التواضع أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة ؛ لا في الدين ولا في الدنيا ، بأن لا ترى لنفسك قدراً و لا فعلاً ؛ مع علمك بأنَّ مولاك منفردٌ بالأفعال ، فإنْ أجرى عليك شيئاً يَنتفِع به الناس في الأخرة ؛ أو في الدنيا . . فعليك أن ترى الفضل لمجريه ؛ لا لنفسك .

وفيه دلالة على كمال معرفة حمدون بعجز نفسه وبقُدرة مولاه ، وبأنَّه لا ضارَّ و لا نافع ، ولا معطيَ ولا مانع له ولغيره إلاَّ إياه ، فمن استقرَّ ذلك في قلبِه . . عرف عدم احتياج الناس إليه .

سرور ابن أدهم : وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ما سُرِرْت في زمن إسلامي إلاَّ ثلاثَ مرَّات . . ١ـ مَّرة في سفينة ؛ وفيها رجل مِضحاك : كثير الضحك منه . . كان يقول(كنا نأخذ العِلج ؛ وهو الرجل من الكفار في بلاد الترك هكذا). وكان يأخذ بشعر رأسي ويهزُّني ؛ ويقول ذلك فيسرُّني ذلك ، لأنَّه لم يكن في تلك السفينة أحدٌ أحقرَ في عينه منِّي حتَّى فعل بي ذلك .

والمرَّة الأخرى : كنت عليلاً : مريضا في مسجدٍ في ليلة مطيرة فدخل إليَّ المؤذِّنُ ؛ وقال لي : أُخرج . فلم أُطق الخروج ! فأخذ برجلي وجَرَّني إلى خارج المسجد ، فطلبتُ موضعاً أستكنُّ فيه ؛ فأتيت إلى قمِّيم حمام : موضع كُنَاسته ، فدخلت فيه فإذا رجل يُوقِد فيه النار ؛ وهو مشغول بذلك ، فسلَّمت عليه ، فلم يلتفت إليَّ ولا كلَّمني ، فلما فرغ من شُغْله أقبل وسلّم عليَّ واعتذر عن ذلك بأنَّه أجير . . ولا يمكنه تبطيل ما هو فيه ! وانبسط معي ، ورأيتُ عنده فضلاً وخيراً ، فكان من جملة ما ذكر لي أنَّه سمع بفتىً من العُبَّاد والزهَّاد يقال له « إبراهيم بن أدهمَ » ، وأنَّ له زماناً يسأل الله أن يجتمع به . قال : فقلت في نفسي قد ساقني إليك مجروراً !! وعرَّفتُه بنفسي .

والمرَّة الثالثة : كنت بالشام وعليَّ فروٌ ، فنظرت فيه فلم أميِّز بين شعره وبين القمل لكثرته !! فسَرَّني ذلك ! فسروره في الأُوْلَيَيْن بكونه لم يجد في نفسهِ كبراً ؛ ولا لها قَدْراً . . حيث صبر على ذلك ، ولم يطلب الانتقام ممن فعل به ذلك ، مع أنَّه من أبناء الملوك الذين عادتُهم الانتقام ، وفي الأخيرة بكمال شغله بربِّه وكثرةِ عبادته وإعراضه عن راحة نفسه .

وبالجملة سُرَّ في الجميع بصنع الله به ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1] .

سرورٌ فريد : وفي حكاية أخرى عنه ؛ قال : ما سُررت بشيء كسروري بماوقع لي في يوم ، وذلك أنِّي كنتُ يوماً جالساً ، فجاء إنسان وبال عليَّ !

---

(١) الآية : ٥٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : يونس عليه الصلاة والسلام .

وجهُ سروره بذلك عُلِم مما مرَّ آنفاً ، أو كلُّ ذلك لكمال معرفته بربِّه ورؤيته أنَّ الأفعال كلَّها منه ؛ لا من غيره ! ولا يعترِضُ معترِضٌ على ما ذُكر بأنَّ المتعاطيَ لذلك عاصٍ ، فكيف سكتَ هو له ؛ ولم يغيِّر المنكر ، لأنَّه يحتمل أنَّه كان عاجزاً عن التغيير بفعله ولسانه ، وأنَّه غيَّر بقلبه ؛ ولم يظهر ، ويحتمل أنَّه غيَّر بلسانه ، ولا حاجة به إلى أن يذكره لغيره حتَّى ينقل عنه ، وإنما ذكر ما ذكره لمعرفته بنعم الله عليه ؛ حيث نَقَله من شرف المملكة إلى شرف الطاعة .

كبر الجاهلية : **وقيل** : **تشاجر أبو ذرٍّ وبلالٌ رضي الله عنهما ، فعيَّر أبو ذرٍّ بلالاً بالسواد** حيث قال له : يا ابن السوداء . **فشكاه إلى رسول الله ﷺ ؛ فقال** : « **يَا أَبَا ذَرٍّ ؛ إِنَّهُ** ـ وفي نسخة : مَا عَلِمْتَ أَنَّهُ ـ ، ـ وفي أخرى : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ ـ **بَقِيَ فِي قَلْبِكَ مِنْ كِبْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ** » . ـ وفي رواية : « يَا أَبَا ذَرٍّ ؛ لَيْسَ لابْنِ بَيْضَاءَ عَلَىٰ ٱبْنِ سَوْدَاءَ فَضْلٌ ! ٱلنَّاسُ مِنْ آدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ » ـ .

فألقىٰ أبو ذرٍّ نفسه على الأرض ، **وحلف ألا يرفع** ـ وفي نسخة : رأسه ـ عنها **حتَّى يَطأ بلالٌ خدَّه بِقَدَمه ، فلم يرفع** رأسه **حتَّى فعل بلالٌ** ذلك ؛ إبرارَ لِقَسَمه .

تواضع الحسن : **ومرَّ الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما بصبيان معهم كِسَرُ خبز ، فاستضافوه** أدباً معه ، **فنزل وأكل معهم** ، وإن كان ذا جاه وحرمة ؛ تواضعاً ، ولخبر : « مَنْ دُعِيَ فَلْيُجِبْ ؛ وَلَوْ إِلَىٰ كُرَاعٍ »[1] . **ثمَّ حملهم إلى منزله وأطعمهم وكساهم** ؛ **وقال** : **اليد** : **النعمةُ لهم** حيث أحسنوا أوَّلاً ، **وبذلوا ما أمكنهم لأنَّهم لم يجدوا غير ما أطعموني ، ونحن نجد أكثر منه !**

تواضع عمر : **وقيل** : **قسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحُلَل بين الصحابة** الحاصلة من غنيمة ، **فبعث إلى معاذٍ حلَّة يمنية فباعها واشترى بثمنها ستَّة أَعْبُد** ،

---

(١) أخرجه البخاري : ٢٥٦٨ . « لَوْ دُعِيْتُ إِلَىٰ ذِرَاعٍ لأَجَبْتُ » ، وللحميدي : ١١٧١ ، والبخاري ، ومسلم ، وأحمد : ٢/ ٢٤٠ ، وأبو داود : ٣٧٤٢ . والدارمي : ٢٠٧٢ ، والنسائي ، وابن ماجه : ١٩١٣ ؛ عن أبي هريرة : « شرُّ ٱلطَّعَامِ . . . وَمَنْ لَمْ يُجِبْ (يَأْتِ) ٱلدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصىٰ أَبَا ٱلقَاسِمِ » ومن شواهده : « مَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيْبُوهُ » .

وأعتقهم . فبلغ ذلك عمرَ رضي الله عنه ، فكان يقسم الحُلَل بعده ، فبعث إليه حلَّة دونَ تلك الحُلَّة ! فعاتبه معاذٌ ، فقال له عمر : لا معاتبة ، لأنَّك بعت الأُولى . فقال معاذ : وما عليك في ذلك ! اِدفع إليَّ نصيبي ، ودعني أتصرَّفُ فيه بما شئت ، وقد حلفتُ بسبب ذلك : لأَضرِبَنَّ بها : بالحلَّةِ رأسك . فقال عمر رضي الله عنه : هذا رأسي بين يديك ، وقد يرفقُ الشيخ بالشيخ !! .

فيه دَلالة على كمال تواضع عمر رضي الله عنه ؛ مع كونه خليفتَه .

* * *

١٣ ـ باب مخالفة النفس[1] وذكر عيوبها[2]

الحضُّ عليها : مخالفةُ النفس مطلوبةٌ ، وقال اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾[3] : قيامه بين يديه ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ .

مخوفات النبي ﷺ : أخبرنا عليُّ بن أحمدَ بنِ عبدان ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن عبيد ؛ قال : أخبرنا تمَّام ؛ قال : حدَّثنا محمد بن معاوية النيسابوري ؛ قال : حدَّثنا عليُّ ابن أبي علي بن عتبة ابن أبي لهب ؛ عن محمد بن المنكدر ؛ عن جابر رضي الله عنه ؛ عن النَّبيِّ ﷺ قال :

---

(١) اعلم أنَّ القوم إذا أطلقوا النفس . . فإنما يريدون الروح الحيوانية الوضيعة المباينة للروح النورانية الرفيعة ، حيث أفادوا أنَّ رضا القدوس في مخالفة النفوس .
وتطلق النفس علىٰ ٢ ـ حقيقة الشيء ؛ و٣ ـ ذاته ؛ و٤ ـ وجوده ، و٥ ـ علىٰ ما يفارق الإنسان بالموت ، و٦ ـ علىٰ الدم ، و٧ ـ علىٰ الأخلاق المذمومة
(عروسي : ٣/ ٢٠ ؛ باختصار) .

(٢) اعلم أنَّ عيوب النفس ١ ـ جليَّة ، و٢ ـ خفيَّة ، والنظر في الجليَّة سهل قريب ، وإزالة الخفيَّة والنظر فيها مشكل صعب . . .
(عروسي ، ثم ذكر من عيوبها ما يزيد عن عشرين فراجعه) .

(٣) من السورة التي ذكر فيها : النازعات .

« أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي ٱتِّبَاعُ ٱلْهَوَىٰ ، وَطُوْلُ ٱلأَمَلِ[1] ، فأمَّا اتباع الهوى . . فيصدُّ عن الحقِّ[2] . قال تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[3] ، وقال ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾[4] ، وقال ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[5] .

وأما طولُ الأمل . . فيُنسي صاحبَه الآخرة[6] » ، لاشتغاله حينئذ غالباً بالدنيا .

رأس العبادة : ثم اعلم أنَّ مخالفة النفس في هواها رأسُ العبادة ، لما مرَّ من الأدلَّة .

أوَّل الطريق : وقد سئل المشايخ الصوفية عن الإسلام ؛ فقالوا : هو ذبح النفس ـ وفي نسخة : النفوس ـ بسيوف المخالفة . وهو أوَّل الطريق ، وذلك لأنَّ النفس إذا اعتادت اللذَّاتِ لا تنصرف إلى الطاعات إلاَّ بالمجاهدات والتوبيخات الشديدة ؛ ومِن ثَمَّ سميت هذه الأمور (سيوفاً) ، وذبحُ النفس قهرُها ونقلها عن هواها .

اجتماع الضدَّين : واعلم أنَّ مَن نجمت : طلعت طوارق نفسه : آثار خواطرها أَفَلت : غربت مِن قلبه شوارقُ أنسه بالله : علاماته .

قال تعالى ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[7] . والدنيا والآخرة ككِفَّتي

---

(١) لأنّ طبيعة النفس الميلُ إلى الدنيء والباطل ، ولهذا احتاجت في ردِّها عن ذلك إلى القيام عليها بسياسة الشرع .

(٢) **تنبيه** : اعلم أن حظوظ النفس بما طبعت عليه ترجع إلى الميل للذيذ ، والنفرة من الكريه ، والإنسان مع ذلك مأمور منهيٌّ متوعَّدٌ ، فينبغي له حينئذ . . إذا له خطر لذيذٌ أن ينظر فيه بشاهد العلم والعقل . . أهو جائز ؛ أوْ لا ؟! كمحرَّم ومكروه ، فإن كان الأوَّلَ . . أقدمَ وشكَرَ ، وإن كان الثانيَ . . أحجم وزَجَر ، وأدَّب نفسه بما أدَّب به المتقون أنفسهم ؛ وزجرها بما زجروها به ، وذلك بالجدِّ في المحظورات ، والمكروهات ، وبالتدريج في ذلك من المألوفات . (عروسي : ٣/ ٢١ ـ ٢٢) .

(٣) الآية : ٢٣ ؛ من السورة التي ذكرها فيها : الجاثية .

(٤) الآية : ٢٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الكهف .

(٥) الآية : ٢٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : صٓ .

(٦) عزاه في « كنز العمال » : ٤٣٧٦٥ ؛ إلى الحاكم في « تاريخ نيسابور » ، والديلمي ؛ عن جابر . ويشهد له : ٤٣٧٦٤ ، ٤٣٧٦٦ ؛ كلاهما معزوٌّ لابن النجار عن علي كرم الله وجهه .

(٧) الآية : ٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

الميزان ، فمتى مالت إحداهما . . ارتفعت الأخرى .

مفتاح العبادة : **وقال ذو النون المصريُّ** : **مفتاح العبادة** : ـ سببُها ـ الذي يتوصَّل به إليها **الفكرةُ** : التفكُّر في كيفية إيقاعها ، فمن لم يتفكَّر فيها ولم يَعْلَمها . . فقد ضَلَّ عن الهدى ؛ وعمل بمقتضى الهَوَىٰ .

علامة الإصابة : **وعلامةُ الإصابة** للمأمورات والمنهيَّات **مخالفةُ النفس والهوى** ، **ومخالفاتُهما تركُ شهواتِهما** ـ وفي نسخة : ومخالفتُها تركُ شهواتها .

الأدب والنفس : **وقال ابن عطاءٍ** : **النفس مجبولة** : مطبوعة **على سوء الأدب** لميلها لكلٍّ لذيذ ونُفْرَتها عن كلِّ كريه ، **والعبدُ مأمورٌ بملازمة الأدب** بالطاعات ، **فالنَفْس تجري بطبعها في مِيدان** : محلِّ **المخالفة** لأوامر الله لسوء عادتها ، **والعبد يردُّها بجهده عن سوء المطالبة** : يردُّها عن سوء ما تطلبه ؛ ويحملُها على ما ينفعها في الدنيا والآخرة . **فمن أطلق عنانها فهو شريكُها** ومتسبِّبٌ **معها في فسادها** .

داعية المهالك : **وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول** : **سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول** : **سمعت أبا بكر الأنماطيَّ ؛ يقول** : **سمعت الجنيد رحمه الله ؛ يقول** : **النفس الأمَّارة بالسوء هي الداعية إلى المهالك** في دنياها وأخراها ، **المعينة للأعداء** من الشيطان والدنيا والمال والولد والزوجة في مرادهم ، إذ لا يتمُّ مرادُهم إلاَّ بإعانة النفس وتزيينها لذلك ، **المتَّبعة للهوى ، المتهمة بأصناف الأسواء** .

وعداوة المذكورين ثابتةٌ بالكتاب ، قال تعالىٰ ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾[1] : الشيطان ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[2] ، وقال ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾[3] .

تهمة النفس : **وقال أبو حفص** : **مَن لم يتَّهم نفسه** بما تبديه له من النصر **على دوام الأوقات ؛ ولم يخالفها في جميع الأحوال** التي تميل إليها ؛ **ولم يجرَّها إلى**

---

(١) الآية : ٣٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : لقمان . والآية : ٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : فاطر .
(٢) الآية : ٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : فاطر .
(٣) الآية : ١٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التغابن .

مكروهها في سائر أيامه . . كان باتباعها مغروراً بالأدلَّة الواضحة .

ومَن نظر إليها باستحسانِ شيءٍ صدر منها ؛ فقد أهلكها في الدنيا والآخرة ، وكيف يصحُّ لعاقلٍ الرِّضا: رضاه عن نفسه ، وتسليمُه لها ما ادَّعته من الخيرات . . والكريمُ ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقِ بن إبراهيمَ الخليلِ ؛ يقول: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[1] ! ! .

دواء النفس : وسمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت إبراهيم بن مقسم ببغداد ؛ يقول : سمعتُ ابن عطاء ؛ يقول : قال الجنيد : أَرِقْتُ : سهرت ليلة ، فقمت إلى وِردي من الصلاة ؛ فلم أجد ما كنتُ أجده من الحلاوة والتلذُّذ بمناجاتي لربِّي ، فتحيَّرتُ في سببه ، فأردتُ أن أنام فلم أقدر عليه ، وأنا على هذا الحال ! ! فقعدت لأذكر الله في غير صلاة ؛ فلم أُطِق القعود ، ففتحت الباب وخرجت أنتظر الفرج ؛ فإذا رجل ملتفٌّ في عباءة بِالمدِّ . . مطروحٌ على الطريق ، فلما أحسَّ بي . . رفع رأسه ؛ وقال : يا أبا القاسم ؛ تأخَّرتَ عنِّي إلىٰ الساعة ! !: لِمَ لَمْ تخرج من حين تحيَّرتَ ، أَوْ هذا مكاشفةٌ بحال الجنيد ! !

فقلتُ له : يا سيِّدي جئتني من غير موعد بوقت ! فقال : بلى ؛ جئتُك بموعد ، فإنيِّ قد سألتُ محرِّكَ القلوب أن يحرِّكَ لي قلبَك : فالوقت الذي طلبتك فيه منه هو أوَّل ما حرَّكَك فهو الموعد . فقلت: قد فغل ذلك ؛ أي حرَّكني لك : فما هي حاجتُك ؟! فقال : متى يصيرُ داءُ النفس دواءَها ؟ فقلت : إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواءَها . فأقبل على نفسه ؛ وقال : اِسمعي ؛ فقد أجبتُك بهذا الجوابِ سبعَ مرَّات فأبيتِ أن تقبليه إلاَّ أن تسمعيه من الجنيد ! ! وقد وفي نسخة : فقد سمعتِ ذلك منه ، وانصرفَ عنِّي ؛ ولم أعرفه ! ولم أقف عليه بعدُ[2] .

فعُلم أنَّ الدواء النافِع للنفس مخالفةُ هواها بما يرضي مولاها ، وإنما كان دواؤَها ! لقهرها عليه المخالِف لطبعها الذي تلتذُّ به .

---

(١) الآية : ٥٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : يوسف عليه الصلاة والسلام .

(٢) تقدمت هذه الحكاية فإعادتها لمناسبة المقام . (عروسي)

النعمة العظمى : وقال أبو بكر الطمستاني : النِّعمة العظمى الخروجُ من النفس : من مشتهياتها بالاشتغال بالطاعات ، لأنَّ النفس أعظمُ حجاب بينَك وبين الله تعالى[1] ، لأنَّها أمَّارة بالسوء .

وقال سهل بن عبد الله : ما عُبد الله بشيء مثلِ مخالفة النفس والهوى اللَّذَين ميلُهما إلى ما يُسخط المولى ، لما فيهما من المشقَّة الشديدة .

مقت الله : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعتُ أبا عمر الأنماطيَّ ؛ يقول : سمعتُ ابن عطاء . . وقد سئل عن أقرب شيء إلى مقت الله تعالىٰ ؛ فقال :

رؤية النفس ورؤية أحوالها استحساناً ، وأشدُّ قبحاً من ذلك مطالعةُ الأعواض ؛ بأن يطلب العوضَ من الله على أفعالها : النفس ، مع أنَّ ما هي فيه من جملة فضل الله عليها .

مشتهي الرُّمّان : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت الحسين بن يحيى ؛ يقول : سمعت جعفر بن نصير ؛ يقول : سمعت إبراهيم الخوّاص ؛ يقول : كنت في جبل اللكام بالشام ، فرأيت رمَّانا وكنت عزمتُ على تركه للهِ تعالىٰ ، فاشتهيتُه لَمَّا مررتُ به ، فدنوت

---

(١) ولهذا قال إبراهيم بن أدهم : علىٰ القلبِ ثلاثة أغطية : ١ ـ الفرح ، و٢ ـ الحزن ، و٣ ـ السرور ، فـ ١ ـ إذا فرحتَ بالموجود فأنت حريص ؛ **والحريص محروم** ، و٢ ـ إذا حزنتَ علىٰ المفقود ؛ فأنت ساخط ، **والساخط معذَّب** ، و٣ ـ إذا سررتَ بالمدح فأنت معجَب ؛ **والمعجب محبَط عملُه** .

واعلم أنَّ الحجاب علىٰ نوعين : ١ ـ حجاب بصر ، و٢ ـ حجاب بصيرة .

فحجاب البصر عيبُك العارض الذي هو النقص والفناء ؛ ولا زوال لهما إلاَّ في الآخرة ، فلا رؤية إلاَّ هناك .

وحجاب البصيرة هو الصفات الذميمة ، فإذا زالت كُشفت لك الحقيقة .

قال في « لطائف المنن » : إنَّما حجاب الغيوب وجودُ العيوب ، فالتطهير من العيب يفتح باب الغيب .

هذا ؛ والحجاب إذا أُطلق فهو باعتبار العبد لتعالي الربِّ عن ذلك علوّاً كبيراً

(عروسي : ٣/ ٢٥ ـ ٢٦) .

منه فأخذتُ منه رُمَّانة واحدة، فشقَقْتُها فوجدتها حامضة. فلم يأكل منها شيئاً . .

أُدِّب بذلك لمخالفته عزمه . قال : فمضيتُ وتركتُ الرمَّان ، فرأيت رجلاً مطروحاً قد اُجتمع عليه الزَّنابيرُ: الدَّبَر! فقلتُ: السلام عليك . فقال : وعليك السلامُ يا إبراهيم.فقلتُ له : وكيف عرفتني !؟ فقال : من عرف الله تعالى لا يخفىٰ عليه شيءٌ بأن ييسر اللهُ له كلَّ ما يريده. . تارة بالسؤال، وتارة بغيره.

فقلت له : أرى لك حالاً مع الله تعالى ، فلو سألتَه أن يحميَك ويَقِيَك الأذى من هذه الزَّنابير التي تلدغُك . . كان خيراً لك ! فقال : وأنا أيضاً أرىٰ لك حالاً مع الله تعالىٰ ؛ فلو سألتَه أن يقيَك شهوةَ الرمَّان ! . كان خيراً لك ، فإنَّ لدغ الرمَّان يجد الإنسان ألمه في الآخرة ، ولدغ الزنابير يجدُ ألمه في الدنيا ، وألمُ الدنيا ، وألمُ الدنيا أهونُ من ألم الآخرة . فتركتُه ومضيتُ خشية أن اشتغل به فيفسد عليَّ توكُّلي .

دَلَّ كلامُ المطروح الأوَّل على أنَّه من العارفين ، وكلامُه الثاني على أنه من المكشفين .

شهوة عدس : وحكي عن إبراهيم بنِ شيبان أنَّه قال : ما بتُّ تحت سقفٍ ؛ ولا في موضع عليه غَلَق أربعين سنة . لأنَّ ذلك سببٌ للانتباه والإعانة على قيام الليل . وكنتُ أشتهي في أوقات أن أتناول شبعة عدس ، فلم يتَّفق لي ذلك ، فكنتُ وقتاً بالشام فحمل إليَّ غُضَارة : آنية من طين جوّاء خضرة فيها عَدَس . فتناولتُ منه شيئاً ، وخرجتُ ؛ فرأيت قوارير من زجاج يُحفَظ فيها الخمر ليعرف حُسْنَه . . معلَّقة فيها شيء شبه نُموذجات : قطرات من مائع فظننتُه خلاًّ . فقال لي بعض الناس : إيش : أيُّ شيء تنظرُ !! هذه التي في القوارير نُموذجات الخمر ، وهذه الدِّنان التي في هذه الأماكن كلِّها خمرٌ ! فقلت في نفسي : لزمني مرض ؛ وهو صبُّ هذا الخمر . فدخلت حانوت الخمار ؛ ولم أزل أصبُّ تلك الدِّنان ؛ وهو ـ أي : الخمَّار ـ يتوهَّم أنيِّ أَصبُّها بأمر السلطان : لِمَا رأى مِن جِدِّي وإقدامي . فلَمَّا عَلمِ أنَّه ليس بأمره . . حملني إلى ابن طولون والي الثغَّر إذ ذاك ، فأمر بضربي مئتي خشبة : مئتي ضربة بها . وطرحني في السجن وبقيتُ فيه مدَّة حتَّى دخل أبو عبد الله المغربي أستاذيُّ ذلك البلد ، فأخبر

بما أصابنى وشَفَع لي عند الوالي وأخرجني ، **فلما وقع بصرُه** : أستاذي عليَّ . . **قال : أيش فعلتَ حتَّى أصابك هذا الأمر ؟! فقلتُ : فعلت شَبْعة عدَس نقضت عليَّ عزمي ، وفي مقابلتها ضُربتُ مئتي خشبة** ، وسُجِنت تلك المدَّة ، **فقال لي : نجوتَ مِجاناً** أي : **بلا بدل** ، **يعني : بلا عقوبة في** الآخرة ، بل عُجِّلت لك العقوبةُ في الدنيا لشهوتك الدُّنيويَّة .

شهوة السريِّ : **سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ أبا العبَّاس البغداديَّ ؛ يقول : سمعتُ جعفر بن نصير ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : سمعت السَّرِيَّ السَّقَطي ؛ يقول : إنَّ نفسي تطالبني منذ ثلاثين . . أو أربعين سنة أن أغمس جَزَرة في دبس ؛ فما أطعمتُها** ذلك . وإنَّما ذكر هٰذا لمن يقتدي به من أصحابه ؛ ليَكْمُل مجاهدته لنفسه وتعظيمه لربِّه ومخالفته لِمَا تركه لوجهه .

آفة العبد : **وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعتُ جدِّي ؛ يقول : آفةُ العبد رضاهُ من نفسه بما هو فيه** . لأنَّ مَن رضيَ عنها فقد استحسن جميع ما يَرِدُ منها ، وكفىٰ بذلك آفةٌ ومصيبة .

وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت محمد بن عبد الله الرازيَّ ؛ يقول : سمعت الحسن بن علي القرمسيني ؛ يقول : وجَّه عصامُ بن يوسف البلخيُّ شيئاً لا شبهةَ فيه إلى حاتم الأصمِّ فقبله منه ، فقيل له : لِمَ قبلْتَه منه . . على خلاف عادتك في عدم قبولك شيئاً من صِلاتِ الملوك ؟! **فقال : وجدتُ في أخذه ذُلِّي وعِزَّه ، وفي ردِّهِ عِزِّي وذُلَّه ، فاخترتُ عِزَّه على عِزِّي ، وذُلِّي على ذُلِّه ، فقبلتُه منه** ؛ إدخالاً للسرور عليه ، وشفقة على قلبه من انكساره بالردِّ عليه .

حقيقة التجريد : **وقيل لبعضهم : إنيِّ أريدُ أن أَحُجَّ على التجريد ! . فقيل له : جرّد أوَّلاً قلبك عن السهو** عما أُمرت بحضور قلبك فيه . . من مناجاة الله في الصلوات بالقراءة والدعاء وإخلاص النية ، **وجرّد نفسك عن اللَّهو** ؛ وهو الميل إلى الشهوات والتلذُّذ بالمطعومات ، **وجرّد لسانَك عن اللغو** ؛ وهو ما لا نفع فيه . . **ثم اسلك : اذهب حيث شئت متى شئت** .

فعُلم أنَّ التجريد ليس هو ما يعرفه أكثرُ الناس من مفارقة الأهل والكسب والمال فقط ، بل هو التخلِّي مطلقاً عما يخشىٰ العبدُ ضررَه في دنياه وأخراه .

مكافاة المحسن : **وقال أبو سليمان الداراني** : **مَن أحسن في ليله كوفيء في نهاره** ، **ومَن أحسن في نهاره كوفيء في ليله** . تقدَّم هذا ص ١٢١ ؛ ولكنَّه ذُكر ثَمَّ بلفظ (كفي) من الكفاية والسلامة ، وهنا بلفظ (كوفيء) من المكافأة والمجازاة .

ترك الشهوة : **ومَن صدق في ترك شهوة** . . **كُفي مؤنتها** ، أي مؤنة شرِّها ، وأزال اللهُ تلك الشهوة مِن قلبه في الدنيا وزهَّده فيها ببركة صدقه في تركها له تعالى ، **واللهُ أكرمُ من أن يعذِّب قلباً** ـ وفي نسخة : عبداً ـ **ترك شهوةً لأجله** .

القلوب المحبوبة : **وأوحىٰ الله سبحانه إلى داود عليه السلام ﴿ يا داود ، حذِّر وأنذر أصحابك أكل الشَّهوَات؛ فإنَّ القلوب المعلَّقة بشهوات الدنيا عقولُها عني محجوبة ﴾** بالشهوات ، لقوله تعالى ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[1] ، ولأنَّ القلوب ، إذا امتلأت بشيء اشتغلت عن غيره بما هي فيه ، لخبر : « حُبُّكَ ٱلشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ »[2] . فمن اشتغل بالله وبمناجاته عَمِي عن الاشتغال بشهواتِه ، وبالعكس .

تارك الهوى : **ورُؤي رجل جالساً** ـ وفي نسخة : جالس ـ **في الهواء** ، **فقيل له** : **بِمَ نلتَ هذا المقام** ، **فقال** : **تركتُ الهوى** : العمل بمقتضاه **فسَخَّر لي الهواء** ـ بالمدِّ ـ فمن ترك الهوى شغلاً بطاعة المولى صحَّ أن تنخرق له العادات . . من حمله على الماء والهواء ، ومِن غيره .

الشهوة والخوف : **وقيل** : **لو عَرَضَ للمؤمن ألفُ شهوة لأخرجها بالخوف** الذي امتلأ قلبُه به ، فلا يجدُ لها محلاًّ تنفذ فيه ، **ولو عرض للفاجر شهوةٌ واحدة** . . **لأخرجته من الخوف** ؛ لامتلاء قلبه بها وضعف خوفه .

---

(١) الآية : ٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

(٢) أخرجه أحمد : ٥/ ١٩٤ ، والبخاري في « التاريخ الكبير » : ٣/ ١/ ١٧٢ ، وأبو داود : ٥١٣٠ ، والقضاعي : ١٥١ ـ ٢١٩ ، والطبراني في « مسند الشاميين » : ١٤٥٤ ـ ١٤٦٨ ، والفسوي في « المعرفة والتاريخ » : ٢/ ٣٢٨ ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » ، والطبراني في « الكبير » ، والبيهقي في « الشعب » ، والعسكري في « الأمثال » ؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

ماحي الشهوات : وقيل : لا تضعْ زِمامك في يد الهوى الذي منشأهُ ميل النفس إلى ما تشتهيه ، فإنَّه يقودك إلى الظُّلمة .

وقال يوسف بن أسباط : لا يمحو الشهواتِ من القلب ؛ ويحمله على الطاعات إلاَّ خوفٌ مزعج ، أو شوقٌ مقلق : لا يحصل ذلك إلاَّ بالخوف ؛ أو الرجاء! فمن استقام على الطاعات ولَذَّت له المناجاةُ . . أعرض عن الشهوات .

وقال الخوَّاص : من ترك شهوة فلم يجد عوضَها كفرحه بتركها ؛ وتلذُّذه بقربه من ربِّه في قلبه ؛ فهو كاذب في تركها .

وقال جعفر بن محمد بن نصير : دفع إليَّ الجُنيد درهما ؛ وقال : اشتر لي التين الوزيري ؛ وهو أطيب أنواع التين ، وكان قبلُ قد عزم على أن لا يأكله لتعلُّق قلبه به ؛ ودعاء نفسه إليه . فاشتريتُه له ؛ وكان صائماً ، فلما أفطر دخلَ وقتُ إفطاره . . أخذ واحدة من التين ووضعها في فمه ناسياً لعزمه ، ثمَّ تذكَّر ؛ فحينئذ ألقاها من فمه وبكى بكاءً شديداً ؛ وقال لي : احمله : خذه واذهبْ به . فقلت له في ذلك . . : ما سببه ؟ فقال : هتف في قلبي هاتفٌ ؛ فقال : أما تستحي !! شهوة تركتها من أجله تعالىٰ ـ وفي نسخة : من أجلي ـ ثم تعود إليها !! وهذا من إكرام الله لِه حيث نبَّهه على الوفاء بعزمه .

وأنشدوا[1] في ذلك :

نُونُ ٱلهَوَانِ مِنَ ٱلهَوَىٰ مَسْرُوقَةٌ: مسروقة من الهوى الذي هو الهوان مآلا ، فكان هوىً؛ وإنَّما سُرقت نونه، فمن رَكب الهوى وغفل عن نونه . . وقع في الهوان .

وَصَرِيْعُ كُلِّ هَوَىً صَرِيْعُ هَوَانِ . فكلُّ من اتبع هواه . . حصلتْ له الإهانة في دنياه وأُخراه .

أنواع النفس : واعلم أنَّ للنفس أخلاقاً ذميمة . . فمن ذلك الحسد وسيأتي .

ولها أربعة أنواع : ١ ـ الأمَّارة بالسُّوء ، و٢ ـ اللَّوامة ، و٣ ـ الملهمة ،

---

(١) نُونُ ٱلهَوَانِ مِنَ ٱلهَوَىٰ مَسْرُوقَةٌ وَصَرِيْعُ كُلِّ هَوَىً صَرِيْعُ هَوَانِ
وهو من البحر الكامل .

و٤ ـ المطمئنة ، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[(١)] ، ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾[(٢)] ، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾[(٣)] . . الآية و﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾[(٤)] فالأمَّارة بالسوء نفسُ الكافر ، واللّوامةُ : نفس العصاة من المؤمنين ، والملهمةُ : نفس عامَّة المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيِّئاً ، والمطمئنة : نفسُ الأنبياء والأولياء والصدِّيْقين . وقيل غير ذلك .

واللوّامة إن أطاعت المطمئنة . . لامت ذاتَها في الدنيا ، وإن أطاعت الأمَّارة بالسوء . . لامت ذاتها في الآخرة . والله تعالىٰ أعلم .

* * *

١٤ ـ باب الحسد

تعريفه: هو : تمنِّي العبد زوالَ النعمة عن غيره ؛ سواء أراد رجوعَها إليه . . أم لا .

حكمه: وهو حرام ، لأنَّ فيه نسبةَ الظلم إلى الله تعالى .

أنواعه: وهو يطلق مجازاً على الغِبطة ، وتسمَّىٰ بالمنافسة ، كما في خبر : « لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي ٱثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ ٱللهُ مَالاً ، وَرَجُلٌ آتَاهُ ٱللهُ عِلْمَاً . . » الحديث[(٥)] .

معناه: وهي : تمنِّي العبد أن يكون له مثل ما لغيره ، ويستعاذ من شرِّ الحاسد . قال الله تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ ﴾ : الصبح ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ ﴾ ثم قال ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾ فختم السورة التي جعلها

---

(١) الآية : ٥٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : يوسف عليه الصلاة والسلام .

(٢) الآية : ٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : القيامة .

(٣) الآية : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الشمس .

(٤) الآية : ٢٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الفجر .

(٥) متفق عليه عند البخاري : ٧٣ ، ومسلم : ٢٦٨ ـ ٨١٦ ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه .

عُوذة : تعويذاً بذكر الحسد .

أصول الخطايا : أخبرنا أبو الحسين الأهوازيُّ ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصري ؛ قال : حدَّثنا إسماعيل بن الفضل ؛ قال : حدَّثنا يحيى بن مخلد ؛ قال : حدَّثنا معافىٰ بن عمران ؛ عن الحارث بن شهاب ؛ عن معبد ، عن أبي قلابة ؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ ؛ قال :

«ثَلاَثٌ هُنَّ أَصْلُ كُلِّ خَطِيئَةٍ فَاتَّقُوهُنَّ وَاحْذَرُوهُنَّ . . » وقد بيَّنها مع علَّتِها بقوله : « إِيَّاكُمْ وَالكِبْرَ ، فَإِنَّ إِبْلِيسَ حَمَلَهُ الكِبْرُ عَلَىٰ أَلاَّ يَسْجُدَ لآدَمَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالحِرْصَ على اتباع الشَّهوات . . فَإِنَّ آدَمَ حَمَلَهُ الحِرْصُ عَلَىٰ أَنْ أَكَلَ مِنْ الشَّجَرَةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالحَسَدَ ، فَإِنَّ ابْنَيْ آدَمَ إِنَّمَا قَتَلَ أَحَدُهُمَا ؛ وهو قابيل صَاحِبَهُ ؛ وهو هابيل حَسَدَاً »[1] .

عموم بلواه : ولا يكاد ينجو منه أحدٌ ، لخبر : « ثَلاَثٌ لاَ يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ الطِّيَرَةُ وَالظَّنُّ ـ: السيِّءُ ـ وَالحَسَدُ ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِالمَخْرَجِ مِنْ ذَلِكَ . . إِذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلاَ تُحَقِّقْ ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلاَ تَبْغِ »[2] .

جحود الحاسد : وقال بعضهم : **الحاسدُ جاحدٌ ، لأنَّه لا يرضىٰ بقضاء الواحد** تعالى ، لأنَّه تعالى يريد إسباغ النِّعم على عبيده . . والحاسد يريد زوالَها عنهم ، فهو لا يرضى بقضاء الواحد .

سيادة الحاسد : وقيل : **الحسودُ لا يسود** . لا دنياً ولا أخرى ، بل يعود عليه فيهما ضرر الحسد ؛ وهو ألمُ الهمِّ والحزن في الدنيا ، وألمُ العقوبة في الآخرة .

---

(١) عزاه البرهان فوري في « الكنز » : ٧٧٣٤ إلىٰ ابن عساكر ، عن ابن مسعود رضي الله عنه « إِيَّاكُمْ وَالكِبْرَ . . . » . وفي آخره « فَهُنَّ أَصْلُ كُلِّ خَطِيئَةٍ » .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » : ٣٢٢٧ ، وأبو الشيخ في « التوبيخ » : ١٥٢ و٢٣٧ ؛ « ثَلاَثٌ لازِمَاتٌ لأُمَّتِي . . » وذكره مرسلاً ابن عبد البر في « التمهيد » ٦/ ١٢٥ ؛ « ثَلاثٌ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُنَّ » ؛ عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه وعزاه في « كنز العمال » : ٤٣٧٨٩ إلىٰ رستة في « الإيمان » ؛ عن الحسن مرسلاً .

وعند عبد الرزاق : ١٩٥٠٤ ، والبيهقي في « الشعب » : ١١٢٩ « ثلاث لا يعجزهن ابن آدم . . . وللبيهقي : ١١٣٠ شاهد عن أبي هريرة : « في الإنسان ثلاثة . . » .

الفاحشة الباطنة : وقيل في قوله سبحانه ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ؛ **قيل : ما بطن : الحسد** . والمشهور أنَّه معاصي القلب . . من حسد وغيره ؛ كالعجب والحقد وسوءِ الظنِّ .

عدوّ النعمة : وفي بعض الكتب ﴿الحاسدُ عدوُّ نعمتي﴾ ، لأنَّه يكره رؤيتها على غيره .

أثر الحسد : وقيل : أثر الحسد يتبيَّن فيك أيُّها الحاسد قبل أن يتبيَّن في عدوك؛ وهو المحسود، لأنَّ الحاسد متألِّم في نفسه متنكِّر . . يظهر أثر الحسد فيه قبل ظهوره في المحسود، بل قد لا يظهر أثره في المحسود أصلاً ؛ فتدومُ النعم عليه .

طويل العمر : وقال الأصمعيُّ : رأيتُ أعرابياً أتت عليه مئة وعشرون سنة ، فقلت له : ما أطولَ عمرَك !؟ فقال : تركتُ الحسد الموجِب للهموم والأحزان . . فبقيتُ عمراً طويلاً بخُلُوِّي عن الهموم والأحزان المضعفةِ للأبدان .

حسد الأمير : وقال ابن المبارك : الحمدُ لله الذي لم يجعل في قلب أميري الذي هو حاكمٌ عليَّ من الحسد **ما جعله في قلب حاسدي** . إذ لو جعل في قلبه ذلك . . لضاعت مصالحي ومصالح جميع رعيَّته .

مَلَك الحسد : وفي بعض الآثار ـ وفي نسخة : الأخبار ـ: **أنَّ في السماء الخامسة مَلَكاً يمرُّ به عملُ عبدٍ ؛ له ضوء كضوء الشمس ؛ فيقول له المَلَك** ؛ إذا عرف أنَّه مشوبٌ بحسد : **قف ، فأنا مَلَك الحسد . . أَضربٌ به وجه صاحبه ؛ فإنَّه حاسدٌ** . فيردُّ عملَه .

فيه دَلالة على شدَّة التنفير من الحسد .

إرضاء الحاسد : وقال معاوية رضي الله عنه : كلُّ إنسان أَقدرُ أنا علىٰ أن أُرضيَه إلاَّ الحاسد ، فإنَّه لا يرضيه إلاَّ زوالُ النعمة . . عن المحسود ، وأنا لا أقدر عليه !! لأنَّه بيد الله تعالى ، بخلاف غيره ؛ فإنَّه يتأتَّىٰ رضاهُ عادةً بغير مطلوبِه .

ظلم الحاسد : ويقال : الحاسد ظالم غشوم ؛ لا يُبقي ولا يذر . أي : لا يَدَع شيئاً مما له دَخْل في إزالة النعم ، فلا راحة له في الدنيا ؛ ولا في الآخرة .

الظالم المظلوم : وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : ما رأيتُ ظالماً أشبَه بمظلوم من الحاسد ؛ من حيث إنَّه قام به **غمٌّ دائم ونَفَس متتابع** : كنفس الصعداء ، فهو بذلك في صورة مظلوم مع أنَّه ظالم يطلب ما ليس له طلبُه .

علامة الحاسد : **وقيل** : مِن **علامات الحاسد أن يتملَّق** : يتردَّد إلى المحسود ويتلطَّف به ، ويُظهر أنَّه محبٌّ له . . **إذا شهد** : حضر ، **ويغتاب إذا غاب عنه** ، **ويشمَت بالمصيبة إذا نزلت به** ، وكلٌّ من الغيبة والشماتة معصيةٌ زائدة على معصية الحسد .

وقد قيل؛ في قوله تعالى ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾[1] : إنَّ المراد بالحسنة النعمةُ ، وبالسيئة المصيبةُ ، وإنَّه أريد بالأولىٰ الحسد ، وبالثاني الشماتة .

ثمَّ نبَّه على أنَّهما لا يضرَّان المحسود ؛ ولا المشموتَ به . . إذا اتقىٰ وصبر بقوله تعالى ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ .

أعدل الخلال : **وقال معاويةُ** رضي الله عنه : **ليس في خِلال الشرِّ** : خصاله **خَلَّةٌ** : خصلة **أعدلُ من الحسد** ؛ حيث **يقتل الحاسدَ** همًّا وغمًّا . . **كما قتل المحسود** بزوال نعمه إن زالت ، ولما كان . . الحاسد هالكاً بمعصيته ورجع شؤمُ معصيته عليه . . سُمِّي الحسد (عدلاً) ، لكونه أهلك مَن يستحقُّ الهلاك .

وصايا سليمانية : **وقيل** : **أوحى الله سبحانه إلى سليمانَ بنِ داود عليهما السلام** ﴿ **أوصيك بسبعة أشياء** : **١ـ لا تغتابَنَّ صالح عبادي** ، بخلاف الفاسق المجاهر والمبتدع ، **و٢ـ لا تحسدن أحداً من عبادي** ﴾ **فقال سليمان عليه السلام** : **يا ربّ** ؛ **حسبي** : يكفيني هذان في الزجر لِعَظِم أمرهما ، فلا تذكر لي بقيَّة السبعة ! ولعله ذكرها له في وقت آخر !! .

جليس العرش : **وقيل** : **رأىٰ موسى عليه السلام رجلاً عند العرش فغبطه** : فتمنَّىٰ أن ينال مثل ما ناله ، **فقال** لمن بحضرته : **ما صفتُه ؟ فقيل** له : **كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله** . فيه دَلالة على أنَّ من ترك الحسد لله رفعه الله .

شأن الحاسد : **وقيل** : **الحاسدُ** الذي **إذا رأىٰ** على محسوده **نعمة بُهِت** : دهش وتحيَّر تعجَّباً من حلولها لمن حلَّت به !! وذلك لكمال استحسانه لها ، **وإذا رأىٰ عليه عَثْرة** : نقمة **شَمِت** ؛ أي : فرح بها .

تضليل الحاسد : **وقيل** : **إذا أردت أن تسلم من شرِّ الحاسد** وإعانتِك له على حَسَده لك . .

---

(١) الآية : ١٢٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

فلَبِّسَ عليه أمرَك : أُستر نعم الله عليك لئلاَّ يتمنَّى زوالها .

غيظ الحسود : وقيل : الحاسد مغتاظ على مَن لا ذنب له ! بمعنى أنه كاره للنعم عليه ، بخيل بما لا يملِكُه . . نشأ ذلك من الحسد .

مودَّة الحاسد : وقيل : إيَّاك أن تتعنَّىٰ : تتعب نفسك في مودَّة مَن يحسدُك ليزول حَسَدُه لك ، فإنَّه لا يقبل إحسانك قبولاً يزول به حسده لك ؛ فيضيع تعبُك .

انتقام قادر : وقيل : إذا أراد الله سبحانه أن يسلِّط على عبدٍ عدوّاً له لا يرحمُه . . سلَّط عليه حاسدَه ، لأنَّه لا يترك ممكناً يتسبَّب به في زوال النعمة ، ولأنَّ تمنِّيه لزوال النعمة طبعٌ له لا يتغيَّر غالباً ، بخلاف غيره ، فإنَّ عداوته إنَّما حدثت بسببٍ ، فإذا زال . . زالت .

أشد الحوادث : وأنشدوا(١) في ذلك :

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِٱمْرِىءٍ ... تَـرَىَ أنت حَـاسِـدِيْـهِ لَـهُ رَاحِمِيْنَـا

فيه دَلالة على أنَّ الحاسد لا رحمةَ له على غيره ؛ إلاَّ على مَن ابتلي ببلاء عظيم ، لكونه حينئذ لا يراه في نعمة ، إذ الحاسد لا يرحمَ من هو في نعمة ، بل يتمنَّىٰ زوالها عنه .

العداوة المتأصلة : وأنشدوا(٢) أيضاً :

كُلُّ ٱلعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَىٰ إِمَاتَتُهَا ـ وفي نسخة : مَوَدَّتُهَا ـ

إلاَّ عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدِ لما مَرَّ قُبَيْل الباب السابق .

الظالم المظلوم : وقال ابن المعتزِّ(٣) :

قُلْ لِلْحَسُودِ إِذَا تَنَفَّسَ بنفس المكروب طَعْنَةً : رزقَك اللهُ طعنة في قلبك .

يَا ظَالِماً وَكَأَنَّهُ مَظْلُومُ فهو ظالم في صورة مظلوم . . كما مرَّ .

الفضيلة المنشورة : وأنشدوا(٤) أيضاً :

---

(١) وَحَسْبُـكَ مِـنْ حـادِثٍ بِـٱمْـرِىءٍ ... تَـرَىٰ حَـاسِـدِيْـهِ لَـهُ رَاحِمِيْنَـا

(٢) كُلُّ ٱلعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَىٰ إِمَاتَتُهَا ... إلاَّ عَـدَاوَةَ مـنْ عـاداكَ مِـنْ حَسَـدِ

(٣) قُـلْ لِلْحَسُـودِ إذا تَنَفَّـسَ طَعْنَـةً ... يَـا ظَـالِمـاً وَكَـأَنَّـهُ مَظْلُـومُ

(٤) وَإِذَا أَرادَ ٱللهُ نَشْـرَ فَضِيْلَـةٍ ... طُـوِيَـتْ أَتَـاحَ لَهَـا لِسَـانَ حَسُـودِ

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ

طُوِيَتْ : سترت بأن سَتَرها صاحبُها عن غيره . . أَتَاحَ : قَدَّر لَهَا لِسَانَ حَسُودِ ينشرها ويظهرها قصداً لإزالتها ، لأنَّ الحاسد لا يزال يذكر نِعم المحمود ليتِمَّ له الحسد ، لأنَّه لا يكون إلاَّ في النعم .

ومن الأخلاق المذمومة للنفس اعتيادُ الغيبة . والله أعلم .

* * *

١٥ ـ باب الغيبة

تعريفها : هي ذكر الإنسان بما فيه مما يَكرُه ؛ سواء كان في بدنه . . أم دينه . . أم دنياه ؛ كمالِهِ وعَمَّاته ، وولده وزوجته وخادمه ، وحركته وبشاشته وعبوسته ، سواء ذكرتَه بلفظك ، أم بكتابك ، أم رمزتَ به ، أم أشرتَ إليه بعينك ؛ أم بغيرها .

حكمها : وهي محرَّمة ، إلاَّ لأمور مذكورةٍ في الفقهيات . وسيأتي بعضها .

النهي عنها : **قال الله سبحانه ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾**[1] **الآية . والمعنىٰ : فاغتيابهُ في حياته كأكل لحمه بعد مماته ، وقد عُرِض عليكم الثاني فكرهتموه فأكرهوا الأوَّل .**

شدَّة الغيبة : أخبرنا أبو سعيد محمد بن إبراهيم الإسماعيليُّ ؛ قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين بن الحسن بن الخليل ؛ قال : حدَّثنا عليُّ بن الحسن ؛ قال : حدَّثنا إسحاق بن عيسىٰ (ابن بنت أبي داود بن هند) ؛ قال : حدَّثنا محمد ابن أبي حميد ؛ عن موسى بن وردان ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه : **أنَّ رجلاً قام . . وهو مع رسول الله ﷺ قبل ذلك جالسٌ ، فقال بعض القوم : ما أعجزَ فلاناً !! فقال له ﷺ : « أَكَلْتُمْ**

---

(١) الآية : ١٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحجرات .

أَخَاكُمْ ـ أي لحمَه ـ وَٱغْتَبْتُمُوهُ !»[(١)] .

وَأَوْحَىٰ ٱللهُ سُبْحَانَهُ إِلَىٰ مُوسَىٰ عليه السلام : ﴿ مَنْ مَاتَ تَائِباً مِنَ ٱلغِيْبَةِ . . فَهُوَ آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ ٱلجَنَّةَ ، وَمَنْ مَاتَ مُصِرّاً عَلَيْهَا . . فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ ٱلنَّار !! ﴾ .

فيه دَلالة على شِدَّة أمر الغيبة ، وعلى أنَّ مَن دخل النار بسببها يطولُ مكثُه فيها ، ومن تاب منها يتأخَّرُ دخوله الجنَّة ، لما تقدَّم له منها ، وللمقاصَّة بما عليه من الحقوق لمن اغتابه .

أشدُّ الذنوب : **وقال عوفٌ : دخلتُ على ابن سيرين ؛ فتناولتُ الحَجَّاج** : اغتبتُه . فقال ابن سيرين : إنَّ الله سبحانه حَكَم عدلٌ ، فكما يأخذ الحقَّ من الحَجَّاج لمن ظَلَمَه . . يأخذُ للحَجَّاج ممَّن اغتابه . وإنك إذا لقيت اللهَ غداً : يوم القيامة كان أصغُر ذنب أصبتَه أشدَّ عليك مِن أعظم ذنب أصابه الحجاج . إذ لا تزر وازرةٌ وزر أخرى ، فالأَوْلى لكلِّ أحد أن يشتغل بنفسه ؛ وإن عَظُمت ذنوبُ غيره ، فإنَّه إنَّما يطالَب بجرمه . . وإن قلَّ ؛ لا بجرم غيره . . وإن كَثُر .

عقاب شهوة : **وقيل : دُعي إبراهيم بن أدهم إلى دعوة فحضر ، فذكروا رجلاً لم يأتِهم ، فقالوا : إنَّه ثقيل . فقال إبراهيم : إنَّما فَعَل بي هذا نفسي . . حيث حضرتُ لشهوة الطعام موضعاً يُغتابُ فيه النَّاس !! فخرج ولم يأكل ثلاثة أيَّامَ** .

تأديب وإنكار : فيه دَلالة على أنَّ مَن حضر الغيبة ورضيَ بها . . كان شريكاً فيها ، ولما فرَّط إبراهيم في الحضور مع منَ لا يحترز منها . . أدَّب نفسه بالجوع ثلاثة أيام مقابلةً للشيء بضدِّه ، هذا مع أنَّه لم يرضَ الغيبة ، بل أنكرها بحسب قدرته ، وقام . . ولم يأكل .

مفرِّق حسناته : **وقيل : مَثَل الذي يغتاب النَّاس؛ كمثل من نصب مَنْجَنيقاً يرمي حسناته شرقاً وغرباً ؛ حيث يغتاب واحداً خراسانياً ، وآخر شامياً ، وآخر حجازياً ، وآخر تركياً . . وآخر غير ذلك ! فيفرِّق حسناته ، فيقوم . . ولا**

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ : ٦١٥١ ، والطبراني في « الأوسط » : ٤٦١ ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

شيء معه منها ، لأنَّ النَّاس يُقتَصُّ من بعضهم لبعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا بالحسنات والسيئات ، فمن عليه حقٌ . . أُخذ من حسناته ، فإذا فنيت وُضع عليه من سيِّآت مَن له الحقُّ[1] ، فالذي يغتاب الناس من كُلِّ قطرٍ . . يفرِّقُ حسناته يميناً وشمالاً .

ذهاب الأعمال: وقيل: يؤتىٰ العبد يوم القيامة كتابَه فلا يرىٰ فيه حسنة ، فيقول : أين صلاتي وصيامي وطاعتي!؟ فيقال: ذهب عمُلك كلُّه باغتيابك الناس لما مرَّ آنفاً.

نقصان النصف : وقيل : مَن اغتيب بغيبة . . غَفَر الله له نصفَ ذنوبه .

لأنَّ العبد إذا فعل معصية . . كان عليه إثمها كاملاً ، فإن اغتيب بها نَقَص إثمُها ؛ لما حصل له من الأجر باغتياب مَن اغتابه ، وجعل النقص نصفاً !! لأنَّه أعدلُ .

تأديب حسن : وقال سفيان بن الحسن : كنت جالساً عند إياس بن معاوية ، فنلت من إنسان : اغتبتُه . فقال لي : هل غزوت في هذا العام التركَ والروم ؟! فقلت: لا . فقال : سَلِم منك الترك والروم . . وما سَلِم منك أخوكَ المسلم !!

فيه تأديبٌ حسن ، وإرشاد إلى تغيير المنكر في الغيبة على الفور ، فإنَّه لو قال له (إنَّك مغتابٌ) رُبَّما نفرت نفسه منه .

نقل الأعمال : وقيل : يعطي الرجل كتابه فيرى فيه حسناتٍ لم يعملها !! فيقال له : هٰذا بما اغتابك الناس : باغتيابهم لك . . وأنت لم تشعر بذلك !!

---

(١) أخرج مسلم : ٥٩ ـ ٢٥٨١ وغيره ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أَتَدْرُونَ مَنِ ٱلْمُفْلِسُ ؟!» قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : « إِنَّ ٱلْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ . . وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هٰذَا وقَذَفَ هٰذا ، وأَكَلَ مَالَ هٰذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هٰذَا ، وَضَرَبَ هٰذا ، فَيُعْطىٰ هٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضىٰ مَا عَلَيْهِ . . أُخِذَ من خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي ٱلنَّارِ » .
وبمعناه ما أخرجه البخاري : ٢٤٤٩ عنه رضي الله عنه : « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيْهِ . . . » .
وفي حفظي أَنَّ كلَّ درهم من حرام بـ ثمانين، أو : ثلاث وثمانين صلاةً مقبولةٍ !! فليحرر .

فيه دلالة على أنَّ حسناتِ المغتاب تنقل إلى صحيفة مَن اغتيب . .

اللحميُّون : **وسئل سفيان الثوري عن قوله ﷺ : « إِنَّ ٱللَّهَ يُبْغِضُ أَهْلَ ٱلبَيْتِ ٱللَّحْمِيِّين**) : كثيري اللحم . فقيل : مَن هم ؟ **فقيل : « هُمُ ٱلَّذِيْنَ يَغْتَابُونَ ٱلنَّاسَ » . فكأنَّهم يأكلونَ لحومهم** . وقال : هم الذين يكثرون أكل اللحم ؛ كما كان عمر رض الله عنه نهىٰ عن مداومة أكل اللحم ؛ خوفاً من تعوُّد الشهوات والإسراف في النفقات ، ولأنَّ أهل الدين والعِلم . . قلَّما يكونون كثيري اللحم والسِّمَن ، فإنَّ السِّمَن غالباً إنَّما يكون عن كثرة الأكل ، وكثرة الأكل تكون عن الغفلة والتمتُّع بالشهوات . . وهذا المعنى ليس مراداً هنا .

الأحقُّ بحسناته : **وذُكرت الغيبة عند ابن المبارك ؛ فقال : لو كنت مغتاباً أحداً . . لاغتبت والديَّ ، لأنَّهما أحقُّ بحسناتي ؛ لانتفاعهما بها .**

فيه زجر عن الغيبة ، وإنَّها تضرُّ في الدنيا والآخرة .

حظ المؤمن : **وقال يحيى بن معاذ مخاطباً الخطاب العام : ليكن حظُّ المؤمِن منك ثلاثَ خصال : ١ـ إن لم تنفعه . . فلا تضرَّه ، و٢ـ إن لم تسرَّهُ . . فلا تَغُمَّه ، و٣ـ إن لم تمدحه . . فلا تذمَّه .**

المقصودُ طلبُ عدم الأذيَّة بالغيبة وغيرِها .

وفيه إشارة إلى أنَّه ينبغي للعد أن يكون نافعاً لغيره . . كالملائكة ؛ لا ضارّاً . . كالشياطين والحيَّات ونحوهما .

أحسن التأديب : **وقيل للحسن البصري : (إنَّ فلانا اغتابَك !) فبعث إليه طبقَ حلواء ؛ وقال : بلغني أنَّك أهديت لي حسناتك ، فكافأْتُك بذلك** . هذا من أحسن التأديب والإرشاد إلى ترك الغيبة ، فإنَّه نبَّهه بذلك على أنَّه أهدى إليه أحسنَ ما عنده مما ينتفع به في الآخرة ؛ فكافأه على ذلك من طيِّبات الدنيا وهي الحلوى .

يكافيء مغتابه : **وبعضهم فعل أتمَّ من ذلك !! بلغه أن رجلاً اغتابه ؛ فقال : و الله ؛ لأغيظنَّ من أَمَره بذلك** . فقيل : ومَن أمره بذلك !؟ فقال : الشيطان ؛ ثم قال (اللَّهم ؛ اغفر له) ، فلم يرضَ بأنَّه يكافئه بالعفو عنه فقط ، بل سأل الله له المغفرة ليتخلَّص من ذنبه ، ويغيظ عدوَّه الذي أمره بذلك .

فاضح نفسه : أخبرنا عليُّ بن أحمدَ الأهوازيُّ ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عبيد البصري ؛ قال : أخبرنا أحمد بن عمرو القطواني ؛ قال : حدَّثنا سهل بن عثمان العسكري ؛ قال : حدَّثنا الربيع بن بدر ؛ عن إبان ؛ عن أنس بن مالك ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَلْقَىٰ جِلْبَابَ ٱلْحَيَاءِ عَنْ وَجْهِهِ . . فَلاَ غِيْبَةَ لَهُ »[1] : فلا حقَّ له فيها فيما تجاهِرُ به ؛ ولا غيبةَ فيه . . فلا إثم على مَن اغتابه فيه ، لأنَّه لم يكشف سَتْراً ، بل هو الذي كشف سَتْرَ نفسه ، لأنَّه لم يتألَّم بما يُقال فيه ، لأنَّه الذي استحسنه وأُظهره .

مستتيب الجنيد : سمعت حمزة بن يوسف السَّهميَّ ؛ يقول : سمعت أبا طاهر محمد بن أسيد الرَّقِّيَّ ؛ يقول : سمعت جعفر بن محمد بن نصير ؛ يقول : قال أبو القاسم الجنيد : كنتُ جالساً في مسجد الشُّوْنِيْزِيَّة ببغداد أنتظرُ جنازة أصلِّي عليها ، وأهل بغداد على طبقاتهم : مراتبهم جلوس ينتظرون الجنازة ، فرأيت فقيراً عليه أَثَر النُّسُك : العبادة يسأل الناس شيئاً . فقلت في نفسي (لو عمل هذا عملاً يصون نفسه عن ذُلِّ السؤال كان أجملَ به !!) فلما انصرفت إلى منزلي . . وكان لي شيءٌ كثير من الوِرْد بالليل حتَّى البكاء والصلاة وغير ذلك ، فثَقُل عليَّ جميعُ أورادي فسهرت وأنا قاعدٌ ، فغلبتني عينايَ . . فرأيت ذلك الفقير جاؤوا به على خِوان ممدود يؤكَلُ عليه ؛ وقالوا لي : كُلْ لحمه ؛ فقد اغتبته !! وكُشف لي عن الحال ، فقلت : ما اغتبتُه ؛ إنَّما قلتُ في نفسي شيئاً !! فقيل لي : ما أنت ممن يُرضَىٰ منك بمثله . أي : بمثل قولِك هذا ، لكونك من أهل العلم والعمل ! فأنت مقصِّرٌ بجهلك . . أنَّ ذلك غيبة ، بخلاف مَن ليس بمثلك . اذهب فاستحِلَّه . فأصبحتُ . . فلم أزل أتردَّد حتَّى رأيتُه في موضعٍ يلتقط من الماء عند ترادِّ الماء . . أوراقاً من البقل مما تساقط من غسل البقل ، فسلَّمْتُ عليه ، فقال لي مكاشفاً لي بما وقع في نفسي وتأذَّىٰ به : يا أبا القاسم ؛ تعودُ إلى ما صَدر منك !! فقلت له : لا أعود . فقال : غفر الله لنا ولك . كلُّ ذلك إكراماً للجنيد ليتخلَّص في دنياه وأخراه من هذا الفقير .

---

(١) أخرجه البيهقي : ١٠/ ٢٠ ، والقضاعي في « مسند الشهاب » : ٢٩٩ ، والخطيب في « تاريخ بغداد » : ٨/ ٤٣٨ ؛ عن أنس رضي الله عنه .

ثمرة الوقيعة : سمعت الشيخ أبا عبدالرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا طاهر الإسفرايينيَّ ؛ يقول : سمعت أبا جعفر البلخيَّ ، يقول : كان عندنا شابٌّ من أهل بلخ ، وكان يجتهد في الطاعة ويتعَّبد ، إلا أنَّه كان أبداً يغتاب الناس ؛ ويقول ـ الأَوْلى : فيقول ـ: فلانٌ كذا ، وفلان كذا ! فرأيتُه يوماً عند المخَنَّثين : المتشبهين بالنساء في أفعالهم وأقوالهم الغسَّالين للثياب خَرَج من عِندهم !! فقلتُ له : يا فلان ؛ ما حالك : ما سببُ ما أنتَ فيه من هذا الحال ؟! فقال : تلك الوقيعةُ في الناس : اغتيابي لهم أَوقعتني في بليَّةٍ ، فقد ابتليت بمخَنَّثٍ من هؤلاء المخنِّثين . . وأنا هوذا أخدمُهم من أجله . . بسبب محبَّتي لذلك المخنَّث ، وتلك الأحوال والمقاماتُ التي كنتُ فيها كلُّها قد ذهبت بسبب تلك الوقيعة !! فادع الله لي لعلَّه يرحمني .

* * *

١٦ ـ باب القناعة

تعريفها : هي الاكتفاءُ بما تندفع به الحاجة . . من مأكل وملبس وغيرهما .

رتبتها : وهي ممدوحة ومطلوبة[(١)] ، قال الله تعالىٰ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[(٢)] . . قال كثيرُ من أهل التفسير : الحياة الطيِّبةُ

---

(١) اعلم أنَّ القناعة باعتبار حال موصوفها أنواع ثلاثة :
١ ـ الرضا بالمقسوم من غير إشراف علىٰ زائد مع التوفيق في طرق البذل ، وهذا النوع من أخلاق العوام .
و٢ ـ الاكتفاء بما تندفع به الحاجة ؛ من غير التفات لغيره ، وذلك من شيم الخواصِّ .
و٣ ـ الاستغناء بالذكر ، وسُكْر الفكر عن الإحساس بشيء من حظوظ النفس ، وهو من منازل خواصِّ الخواص العارفين (عروسي : ٣/ ٤٠) .

(٢) الآية : ٩٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : النحل .

في الدنيا القناعةُ .

قيمتها : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَميُّ ؛ قال : أخبرنا أبو عَمرْو محمد بن جعفر بن مطر ؛ قال : حدَّثنا محمد بن موسى الحَلَواني ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن إبراهيم الغِفاريُّ ؛ عن المنكدر بن محمد ؛ عن أبيه ؛ عن جابر بن عبد الله ؛ قال :

قال رسول الله ﷺ : « اَلْقَنَاعَةُ كَنْزٌ لا يَفْنَىٰ »[1] .

وقال ﷺ : « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ ٱلْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيْهِ »[2] : وهو ما لا حاجةَ له به . وقال : « اَللَّهُمَّ ؛ ٱجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوْتاً »[3] .

ثمرتها : وثمرة القناعة في الدنيا السلامةُ من المطالبة بالحقوق ؛ وما يتبعها من التبع ، وفي الآخرة السلامةُ من طول الحساب .

أخلاق وأثمار : أخبرنا أبو الحسن الأهوازيُّ ؛ قال : أخبرنا محمد بن عبيد البصري ؛ قال : حدَّثنا عبد الله بن أيُّوب المقري ؛ قال : حدَّثنا أبو الربيع الزهراني ؛ قال : حدَّثنا إسماعيل ابن زكريا ؛ عن أبي رجاء ؛ عن بُرْد بن سنان ؛ عن مكحول ؛ عن واثلةَ بن الأسقع ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كُنْ وَرِعَاً تَكُنْ أَعْبَدَ ٱلنَّاسِ لأنَّ الوَرِع يتجنَّب ما يضرُّه شرعاً ؛ فيكون أعبَدَ الناس وَكُنْ قَنِعَاً تَكُنْ أَشْكَرَ ٱلنَّاسِ . . لأنَّ القَنِع يكتفي بما فتح الله به عليه ؛ فتكثر نِعَم الله عليه ، فيكون أشكرَ الناس، بخلاف الشَّرِه ، لأنَّه لا يرى من النِّعم إلا العظائم ؛ فيقلُّ شكرُه .

وأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَاتُحِبُّ لِنَفْسِكَ . تَكُنْ مُؤْمِناً كاملاً ، لأنَّ محبَّة ذلك مِن أشرف الأخلاق وكمالِ الأُخُوَّة في الدين ، وَأَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ . . تَكُنْ مُسْلِماً كاملاً ، لأنَّه ﷺ قال : « أَوْصَانِي جِبْرِيْلُ بِٱلْجَارِ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّه

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » ؛ عن جابر « اَلْقَنَاعَةُ مَالٌ لاَ يَنْفَدُ ؛ وَكَنْزٌ لاَ يَفْنىٰ » ، وأبو الشيخ في « الأمثال » : ٨٣ ، والبيهقي في « الزهد » ص٢٦ .
وأخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » : ٤٢ . عن أنس بشطره الأول .

(٢) تقدم تخريجه ٣٦٠ .

(٣) تقدم تخريجه . ص٣٦٧ ومن شواهده ما أخرجه أبو الشيخ ؛ عن عليٍّ رضي الله عنه : « إِنَّ ٱللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْـداً جَعَلَ رِزْقَهُ كَفافاً » . رمز السيوطي في «الجامع»: ١٦٦٤ إلىٰ ضعفه .

سَيُوَرِّثُهُ »[1] . وَأَقِلِّ ٱلضَّحِكَ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ ٱلضَّحِكِ تُمِيْتُ ٱلْقَلْبَ »[2] . لتوالي الغفلات عليه عن أمر الآخرة ، كما قال تعالىٰ ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ ﴾[3] فجعل الكفر والغفلة عن الله موتاً ، والإيمانَ والطاعةَ والمعرفةَ بالله حياةً .

حياة القناعة : وقيل : الفقراءُ من الدنيا أمواتٌ قلوبُهم بغفلتها عن أمور الآخرة ، إلاَّ مَن أحياه اللهُ بعِزِّ القناعة ؛ ورضيَ بما يَسَّره اللهُ له . . فقَلْبُه حيٌّ لانتفاء الغفلة عنه .

مسكنها : وقال بِشرٌ الحافيُّ : القناعـةُ مَلَك لا يسـكن إلاَّ في قلب مؤمن كامل ؛ لأنَّه شريف[4] .

منزلتها : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعتَ عبد الله بن محمد الشعرانيَّ ؛ يقول : سمعت إسحاق بن إبراهيم ابن أبي حسّان الأنماطيَّ ؛ يقول : سمعت أحمد ابن أبي الحَوَارِيِّ ؛ يقول : سمعت أبا سليمان الدارانيَّ ؛ يقول : القناعةُ : منزلتُها من الرِّضا بمنزلة الوَرَع من الزهد . . هذا ؛ أي . . القنعُ أوَّل منازل الرِّضا ، وهذا : الورَعُ أوَّل منازل الزُّهد ، لأنَّ القناعة هي الرضا بما قَسَم الله ، ومتى تمكَّن العبد فيها . . رَضِي بكلِّ ما يُجْرِيه الله عليه ، والورَعَ هو الإعراض عما فيه شبهة ، ومتى تمكَّن العبد فيه . . خفَّ عليه مقامُ الزهد الذي هو الإعراض عما لا شبهة فيه .

من تعريفها : وقيل : القناعة السكونُ عند عدم المألوفات ، لرضاه بما أجراه اللهُ عليه ، فلا يطلب زيادة عليه بمعاملةِ غيره .

تدبير العاقل : وقال أبو بكر المراغيُّ : العاقل مَن دبَّر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف . . لأنَّ العاقل يتصرَّف في كلِّ محلٍّ بما يليقُ به ؛ لمعرفته أنَّ الدنيا

---

(١) أخرجه البخاري : ٦٠١٤ ، ٦٠١٥ ، ومسلم : ١٤٠ ـ ٢٦٢٤ ؛ ١٤١ ـ ٢٦٢٥ ؛ عن عائشة وابن عمر رضي الله عنهم : « ما زَالَ جِبْرِيْلُ يُوصِيْنِي . . . » .

(٢) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » : ٥٣٦٦ بلفظه ، وابن ماجه : ٤٢١٨ ؛ بإسناد حسن . وأبو نعيم في « الحلية » : ١٠/٣٦٥ ؛ و« أخبار أصبهان » : ٢/٣٠٢ ، والخرائطي في « المكارم » : ٣٩ . وتقدم تخريج بعض ألفاظه ص ٣٩٠ .

(٣) الآية : ١٢٢ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنعام .

(٤) تقدم ص ٤١٢ قول بشر (الزهد ملك لا يسكن إلاَّ في قلب مخلًّىٰ) وانظر ص ٤٣٥ .

زائلة ، فيكتفي بما تيسَّر له ؛ وإن تشوَّفتْ نفسه لزيادة . . سوّف لها الآمال ؛ تمشيةً لحالها ، كأن يقول (إن عشت لوقتٍ آخر كان كيت وكيت) ! فيقنِّعُها بما حَصَل في الوقت . وأمرَ الآخرة بالحرص والتعجيل ، وأمر الدِّين بالعلم والاجتهاد .

من معانيها : وقال : أبو عبد الله ابن خفيف : القناعةُ ترك التشوُّف إلى المفقود ، والاستغناء بالموجود ، لأنَّ مَن استغنت نفسُه بما تيسَّر لها . . لم يتشوَّف إلى زيادةٍ على ما حَصَل .

الرزق الحسن : وقيل ؛ في معنى قوله تعالى ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾[1] يعني : بالرزق الحسن القناعة .

من معانيها : وقال محمَّد بن علي الترمذيُّ[2] : القناعة رضا النفس بما قُسِم لها من الرِّزق .

ويقال : القناعةُ الاكتفاءُ بالموجود ، وزوال الطمع فيما ليس بحاصل . . كلُّ ذلك عُلِم مما مرَّ .

موطن العزّ والغنىٰ : وقال وهب : إنَّ العِزَّ والغنى خَرَجا يجولان : يطوفان . . يطلبان رفيقاً ، فلقيا القناعة فاستقرَّا عندها ، فمن تمكَّن فيها حَصَل له العزُّ بالله ؛ والاستغناء به عن غيره .

وقيل : مَن كانت له قناعتُهُ ثمينةً : عزيزة طابت له كل مَرَقَةٍ[3] .

فيه إشارة إلى أنَّ من كَمُلت قناعته اكتفىٰ بأيسرِ شيءٍ في الدنيا .

الأَوْلى بالنَّظِرة : وقيل : مرَّ أبو حازم بقصَّاب : جزار معه لحمٌ سمين ، فقال له : خذ يا أبا حازم من هذا اللحم ، فإنَّه سمينٌ !! فقال : ليس معي درهم آخذُ به . فقال : أنا أنظُرُك . فقال : نفسي أحسنُ نَظِرةً : تأخيراً وصبراً لي منك .

فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن كَمُل زهده في شيء . . قلَّت رغبته فيه ؛ وقويَ صبره

---

(١) الآية : ٥٨ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الحج .

(٢) هو الإمام الحكيم الترمذي صاحب « نوادر الأصول » .

(٣) ذلك كناية عن الرضا بالقليل المتيسِّر ، سواء كان مرقاً ؛ أو غيره (عروسي : ٣/ ٤٣) .

عنه ، ولم يُذِلَّ نفسه في تحصيله .

أقنع الناس : وقيل لبعضهم : مَن أقنعُ الناس ؟! فقيل : أكثرهُم للناس معونة على مقاصدهم ، وأقلُّهم عليه . . مُؤْنة . لأنَّه مَن قَنِع بما يَسَّره اللهُ عليه . . تفرَّغ من هموم الدنيا ، وأعان النَّاس ، ومن رفع مؤنته عنهم ؛ ولم يزاحمهم فيما بأيديهم . . اكتفى بما يَسَّره اللهُ له . ففي ذلك دَلالة على كمال قناعته باليسير من الدنيا ، وهذا استدلالٌ بثمرة القناعة عليها .

قانع الزبور : وفي « الزَّبور » : ﴿ القانعُ غنيٌّ ؛ وإن كان جائعاً ﴾ ، لأنَّ غِناه ليس بما يملكه ؛ أو يأكله ، بل بما يختارُه اللهُ له ؛ من جوع وشِبَع وغيرهما .

مواضع المكارم : وقيل : وضع الله تعالىٰ خمسة أشياء في خمسة مواضع . .

١ـ العزّ في الطاعة . و٢ـ الذُّل في المعصية ؛ لأنَّ المطيع عزيزٌ في الدنيا والآخرة ، والعاصي ذليلٌ فيهما . و٣ـ الهيبة في قيام الليل ، لأنَّ مَن قامه وتذلَّل بمناجاته لمولاه . . فقد أَجَلَّ الله، ومَن أجَلَّ الله وتركَ راحته ولذَّته للتنعُّم بمناجاته . . أَجَلَّه اللهُ عنده وعند الناس ، وجعل له عندهم هيبةً . و٤ـ الحكمة في البطن الخالي ، لأنَّ خُلُوَّه أبلغُ في بلوغها وإصابةِ الحقِّ فيها ، بخلاف غير الخالي ؛ لأنَّ البِطْنَة تُذهِبُ الفِطنة . و٥ـ الغِنىٰ في القناعة ، لما مرَّ أنَّها كنز لا يفنىٰ .

الانتقام المحمود : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت نصر بن محمد ؛ يقول : سمعت سليمان ابن أبي سليمان ؛ يقول : سمعت أبا القاسم ابن أبي نزار ؛ يقول : سمعتُ إبراهيم المارستانيَّ ؛ يقول :

انتقم من حرصك على الدنيا بالقناعة ؛ كما تنتقم من عدوِّك بالقِصاص ، لأنَّ من اشتدَّ حرصُه على الدنيا كان حرصُه عليها عدوًّا له يُوقِعُه في الشرِّ ، فإذا أراد أن ينتقم منه قَنِع منها باليسير ؛ زهداً فيها ، وإعراضاً عن جمالها وحبِّها .

المستريح المستطيل : وقال ذو النُّون المصريُّ : مَن قنع وتفرَّغ لعبادة مولاه . . استراح من مزاحمة أهل زمانه في الأسواق وغيرها ، واستطال على أقرانه : عزَّ في نفسه ، وارتفعت مرتبتُه عليهم في الدنيا والآخرة ، واستغنى عنهم بفضل الله عليه . ولهذا قيل : مَن قنع استراحَ من الشُّغْل بغير الطاعة ، واستطال على

الكلِّ بالعزِّ والمروءة .

البائع الرابح : وقال الكَتَّاني : من باع الحرص بالقناعة . . ظفر بالعزِّ والمروءة . لما مرّ .

طويل الحزن : وقيل : مَن تبعت عيناه ما في أيدي الناس . . طال حزنُه وهَمُّه على امتيازهم عنه ، لأنَّ المقاديرَ لا تجري على وفق غرضه .

وأنشدوا في ذلك :

أحسن الأيام :

وَأَحْسَنُ بِٱلْفَتَىٰ مِنْ يَوْمِ عَارٍ   يَنَالُ بِهِ ٱلْغِنَىٰ كَرَمٌ وَجُوعُ

«أحسن» مبتدأ . . خبره « كرمٌ وجوع » .

والمعنى : يومٌ يكون العبدُ فيه جائعاً كريمَ النفس عن الحرص والشَّرَه أحسنُ[1] من يوم يكون فيه ذا عارٍ وذُلٍّ لينال بذلك الغنىٰ .

كفاية واحتياج : وقيل : رأىٰ رجل حكيماً يأكل ما تساقط من البقل على رأسِ ماء ؛ فقال له : لو خدمت السلطان . . لم تحتجْ إلى أكلِ هذا البقل المرميِّ ، لأنَّ فيه نقصاً ومذلَّة في الدنيا عند أربابها !!

فقال له الحكيم : وأنت لو قنعت بهذا الذي قنعتُ أنا به . . لم تحتج إلى خدمة السلطان ؛ التي فيها مذلَّة في الدنيا والآخرة عن العقلاء .

مثل القنوع : وقيل : العُقَاب لما فيه من القوَّة على الطيران والعلوّ في الجوّ . . عزيز في مطاره : طيرانه ، أو محلِّ طيرانه ، لا يسمو : يعلو إليه طَرْف صياد بصره ، ولا طَمَعُه في أن يصيده ، فإذا طمع العقاب في جيفة عَلِقت على حِبَالةٍ : شبكة يصادُ بها . . نزل من مطاره إليها . . فتعلَقُ في حباله : شباكه .

فكذلك القنوع . . لا يزال عزيزَ النفس ؛ سالماً من المذلَّة حتَّىٰ يلوحَ له شيءٌ من الدنيا فيطمعَ في نيلها ؛ فيزول عزُّه ويَحُلُّ به ذُلُّه .

---

(١) أنت خبير بأن « أفعل » التفضيل بحسب الظاهر فقط ، وإلاَّ فلا حُسْن في الغنىٰ مع العار (عروسي : ٣/ ٤٤) .

الواعظ الكفء : **ولهذا لما دخل الحسن البصري مكَّة ورأىٰ رجلاً من أولاد فاطمة قد أسند ظهره إلى الكعبة ؛ وهو يعظ الناس . . فسأله : ما ملاك الدين ؟ فقال : الورع . فقال : وما فساده ؟ فقال : الطمع . فقال له : مثلُك يصلُح أن يعظ الناس**[1] .

موسى والخضر : وقيل : لما نَطَق موسى عيه السلام بذكر الطمع ، فقال : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾[2] . . قال له الخضر ـ وهو عند الأكثرين نبيٌّ ، وقيل : وليٌّ ـ : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ . المشهور أنَّه إنَّما قال ذلك بحكم الشرط ؛ وهو قوله ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ﴾ ، مع أنَّ ما قاله هنا قد يقال : ليس فيه طمعٌ ، لأنَّ أخذ الأجرة على العمل لا طمعَ فيه ، وقد تقدم في الآية أنَّهما استطعما أهلها . . لا موسىٰ وحَده ! .

جزاء الطامع : وقيل : لما قال موسىٰ عليه السلام ذلك أي : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ . . وقف خرقاً للعادة بين يدي موسىٰ والخضر عليهما السلام ظَبْيٌ . . وكانا جائعين الجانبُ الذي يلي موسى عليهما السلام غيرُ مشويٍّ : نيءٌ . ففيه تعب للطمع ، والجانب الذي يلي الخضر مشويٌّ ؛ فلا تعب فيه ، لعدم الطمع .

النعيم والجحيم : وقيل في قوله تعالىٰ ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾[3] : هو : النعيم القناعة في الدنيا . وفي قوله ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ هو : الجحيم الحرص في ـ وفي نسخة : علىٰ ـ الدنيا . هذا تفسير باللازم ، لأنَّ مَن قنع باليسير . . استراح سِرُّه وقلَّ تعبُه ؛ فكان منعَّماً ، ومن اشتدَّ حرصُه . . كَثُر تعبُه وقلَّت راحتُه ؛ وكان معذَّباً .

الرقبة الحرَّة : وقيل في قوله ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾[4] : فكُّها من ذُلِّ الطمع .

---

(١) ستأتي مرة أُخرىٰ ص ١٠٥٣ .
(٢) الآية : ٧٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الكهف .
(٣) الآية : ١٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الانفطار .
(٤) الآية : ١٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البلد .

الرجس والطهر : وقيل في قوله تعالىٰ ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ يعني : البخل والطمع . ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾[1] يعني : بالسخاء والإيثار .

المقام الفريد : وقيل في قوله تعالىٰ حكاية عن سليمان عليه السلام ﴿ هَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ﴾[2] : مقاماً في القناعة أنفرد به من بين أشكالي ، وأكون راضياً فيه بقضائك وقدرك .

العذاب الشديد : وقيل في قوله تعالىٰ حكايةً عن سليمان عليه السلام ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾[3] يعني : لأسلبَنَّه القناعة ؛ ولأبتَلِيَنَّه بالطمع . يعني أسأل الله سبحانه أن يفعل به ذلك . كلُّ ذلك يدلُّ بهذه التفاسير على أنَّ القناعة باليسير من الدنيا وَصْفٌ محمود ، وأنَّ الطمع فيها والبخل بها وصفٌ مذموم .

طريق الوصول : وقيل لأبي يزيد : بِمَ وصلتَ إلى ما وصلتَ إليه من مقامك العظيم ؟! .

فقال : جمعتُ أسباب الوصول إلى الدنيا . . فربطتها بحبل القناعة باليسير منها ، ووضعتها ـ أي : الأسبابُ ـ في منجنيق الصدِّق في البعد عنها ، ورميتُ بها في بحر اليأس من رجوعي إليها . . فاسترحت من تعبها ، ووصلت إلى ربِّي : دام شُغْلي به دون غيره .

ترقية جنيدية : سمعت محمد بن عبد الله الصدفيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن فرحان بسامُرَّة : بلدة ببغداد ، وأصله (سرَّ مَن رأىٰ) . . ؛ يقول : سمعت خالي عبد الوهاب ؛ يقول : كنت جالساً عند الجنيد أيَّام المَوسم وحولَه جماعة كثيرون من العجم والمولَّدين ، فجاءه إنسان بخمس مئة دينار ووضعها بين يديه ؛ وقال : تفرِّقُها على هؤلاء الفقراء . فقال : ألك غيرها ؟ فقال : نعم ، لي دنانيرُ كثيرة . فقال : أتريد غير ما تملك ؟ فقال : نعم . فقال الجنيد : خذها ، فإنَّك أحوجُ إليها منا . ولم يقبلها منه ! لأنَّه مع جماعته الذين سَلَّموا انقيادهم إليه هم أغنياءُ بالله وبذكره ومناجاته ؛ فلا حاجة لهم بالمال .

---

(١) من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

(٢) الآية : ٣٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : صٓ .

(٣) من السورة التي ذكر فيها : النمل .

تعقيب : وفي ذلك دلالة على أنَّ الجنيد أراد أن ينقل هذا الإنسان إلى أعلىٰ مِن درجته ، وأن يعرِّفَه أنَّ لله عباداً أغنياءَ به وبمناجاته ، لأنَّه لما حَسُنت نيَّتُه وهان عليه بذل خمس مئة دينار لواحد مع جماعة من أهل الخير . . دلَّ على قوَّة ميله إلى أهل الخير وبُعْده عن الدنيا في الجملة . والله أعلم .

* * *

١٧ ـ باب التوكل

تعريفه : هو الاعتماد على الله تعالى ، وقطع النظر عن الأسباب مع تهيئتها[١] ، ولهذا قال ﷺ : « اِعْقِلْ وَتَوَكَّلْ »[٢] ، ويقال : هو كِلَةُ الأمر كله إلى مالكه ، والتعويلُ على وكالته . يعني عملاً بقوله تعالىٰ ﴿ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[٣] .

ويقال : هو ترك السَّعي فيما لا تسعه قدرة البشر .

ويقال : هو ترك الكسب وإخلاء اليد من المال . ورُدَّ بأنَّ هذا تأكُّل ؛ لا توكُّل ! ! وسيأتي شيءٌ مما يقارب ذلك .

الحضُّ عليه : والتوكُّل ممدوحٌ ومطلوب ، قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ

---

(١) وينقسم إلىٰ :
١ ـ واجب ؛ وهو ما حَبَس علىٰ فعل الواجبات ؛ وحَجَز عن فعل المحرَّمات .
و٢ ـ مندوب ؛ وهو اعتماد القلب علىٰ حسن صنيع الربِّ في سائر الحركات والسكنات ، وعدم الالتفات إلىٰ الأسباب . . اشتغالاً عنها بموجدها في جميع الأوقات
(عروسي : ٣/ ٤٦ باختصار) .

(٢) أخرجه الترمذي : ٢٥١٩ ؛ عن أنس رضي الله عنه .

(٣) من السورة التي ذكر فيها : المزمل .

حَسۡبُهُۥٓ ﴾[1] : كافيه . وقال ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[2] ، وقال تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[3] .

حقيقة معناه : وقضيَّةُ هذا أنَّ التوكُّل من لوازم الإيمان ، فينتفي بانتفائه ، إذ الإيمان هو التوحيد ، ومَن اعتمد على غيرِ الله لم يوحِّدْه بالحقيقة ؛ وإنْ وحَّده باللسان .

المتوكِّلون : أخبرنا الإمام أبو بكر محمد بن الحسن بن فُوْرَك رحمه الله ؛ قال : أخبرنا عبد الله بن جعفر بن أحمد الأصبهاني ؛ قال : حدَّثنا يونس بن حبيب بن عبد القاهر ؛ قال : حدَّثنا أبو داودَ الطيالسيُّ ؛ قال : حدَّثنا حمَّاد بن سلمة ؛ عن عاصم بن بَهْدَلة ؛ عن زِرِّ بن حُبَيْش ؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« أُرِيْتُ ٱلأُمَمَ بِٱلْمَوْسِمِ ـ موسم الحاج ؛ وهو مجمعهم ـ فَرَأَيْتُ أُمَّتِي قَدْ مَلَؤُوا ٱلسَّهْلَ وَٱلجَبَلَ فَأَعْجَبَنِي كَثْرَتُهُمْ وَهَيْئَتُهُمْ ! فَقِيْلَ لِي : أَرَضِيْتَ بذلك ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : وَمَعَ هٰؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفاً ـ أيضاً ـ يَدْخُلُونَ ٱلجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ . . لاَ يَكْتَووُنَ : لغير حاجة ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ من شيء : لا يعتقدون ما كانت تعتقدُ الجاهليَّة من التطيُّر بالطَّيْر وغيره ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ : برُقَىٰ الجاهلية . وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » . فقام عُكَّاشَةُ[4] بن مُحْصِنٍ الأسديُّ ؛ فقال : يا رسول الله ، أدع الله أن يجعلني منهم . فقال رسول الله ﷺ : « اَللَّهُمَّ ؛ ٱجْعَلْهُ مِنْهُمْ » . فقام آخر ؛ فقال : أُدع الله أن يجعلني منهم . فقال رسول الله ﷺ : « سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ »[5] بسبقه .

علامة المتوكِّل : وسمعتُ عبد الله بن يوسف الأصبهانيَّ ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : سمعتُ أبا بكر الوجيهيَّ ؛ يقول : قال أبو عليٍّ الرُّوذَباريُّ : قلت لعَمْرو بن

---

(١) الآية : ٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الطلاق .

(٢) من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

(٣) من السورة التي ذكر فيها : المائدة .

(٤) بتخفيف الكاف وتشديدها (الشارح) .

(٥) أخرجه أحمد : ١/٤٠٣ ، والبخاري في « الأدب المفرد » : ٩١١ ؛ وفي « الجامع الصحيح . . . » : ٥٧٥٢ ؛ ٦٥٤١ ، ومسلم : ٣٧٥ ـ ٢٢٠ عن ابن عباس وغيره .

سنان : اِحكِ لي عن سهل بن عبد الله التُّسْتَريِّ حكايةً . فقال : إنَّه قال :

علامة المتوكل ثلاثٌ : ١ـ لا يسأل عن حاجته أحداً من خلق الله إلاَّ عند الضرورة ، لأنَّ السؤال ذلٌّ ، و٢ـ لا يردُّ شيئاً أُعطِيَه بلا سؤال ، لخبر : « مَا أَتَاكَ مِنْ غَيْرِ مَسأَلَةٍ فَخُذْهُ ، فَإِنَّما هَوْ رِزْقٌ رَزَقَكَهُ اللهُ »[1] ، و٣ـ لا يحبس ما حصل بيده ؛ خوفاً من تغيُّر المقسوم له ؛ لمنافاته التوكُّل .

ترك التمييز : وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعتُ أبا عبد الله الشيرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا موسىٰ الدبيلي ؛ يقول : قيل لأبي يزيد : ما التوكُّل ؟ . فقال لي : ما تقولُ أنت فيه ؟! فقلتُ : إنَّ أصحابنا يقولون (لو أنَّ السباع والأفاعي : الحيَّات عن يمينك ويسارك : وغيرهما . . ما تحرَّك لذلك سِرُّك) لقوَّة يقينك بالله واعتمادك عليه .

فقال له أبو يزيد : نعم ؛ هذا قريبٌ ، ولكن لو أنَّ أهل الجنة يتنعَّمون ؛ وأهل النار في النار يعذَّبون؛ ثمَّ وقع لك تمييز عليهما . . بأن ميَّزتَ أحدهما علىٰ الآخر ؛ يعني : اخترت لنفسك شيئاً . . خرجت من جملة التوكُّل . لأنَّ الاعتماد على الله تعالىٰ ينافي أن تنسِب لنفسك فعلاً ، لأنك لا تعلم مصلحتك في أيِّ جهة . . لا في النعيم ؛ ولا في العذاب ، فلا يليق بك تمييز ولا اختيار .

توضيح : وذكر نعيم الجنة وعذاب الآخرة !! لأنَّهما أشدُّ مِن غيرهما ، وإلاَّ فليسا بمرادَيْن ، بل المرادُ مطلقُ النعيم والعذاب ، وهذا كما فُعل بإبراهيمَ الخليلِ عليه السلام ، وأبي مسلم الخَوْلاني[2] ، فقد كان دخولُهما في النار رحمةً وشرفاً لهما يُذكَران به في الدارين ، وذلك بعدم اختيارهما لنفسهما شيئاً .

أوَّل التوكُّل : ولهذا قال سهل بن عبد الله التُّسترَيُّ : أوَّل مقام في التوكُّل أن يكون

---

(١) أخرجه أحمد : ٢/ ٣٢٣ ، والطيالسي : ٨٤٤ ، وأبو يعلىٰ : ١٦٧ وغيرهم بألفاظ متقاربة وانظر « تحقيق القضية في الفرق بين الرشوة والهدية » للنابلسي بتحقيقنا (ط دار النعمان بدمشق) .

(٢) انظر ما قدمناه ص ٢٦٥ وسيأتي ص ١٠١٠ ؛ ١٠١٢ .

العبد بين يدي الله تعالىٰ كالميت بين يدي الغاسل[1] ؛ يقلِّبُه كيف أراد . . لا يكون له حركةٌ ولا تدبير . لأنَّ من وَثِق بكريم واعتمد عليه . . سكنت نفسه له ، وكان معه كالميت لا حياةً به ؛ ولا حركة ، واستراح قلبه من هَمِّ التقدير والاختيار . . إلاَّ ماأمره به ربُّه ونهاه عنه .

حقيقة التوكُّل : وقال حمدون القصَّارُ : التوكُّل هو الاعتصام بالله تعالىٰ الاعتماد عليه .

الشاكُّ بالرزق : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا بكر محمد بن أحمد البلخي ؛ يقول : سمعت محمد بن حامد ؛ يقول : سمعت أحمد بن خضرويه ؛ يقول : قال رجل لحاتم الأصمِّ عن شكٍّ في مُجري أسباب الرزق ، أو غفلةٍ عنه : مِن أين تأكُل ؟ فقال : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾[2] .

محلُّ التوكل : واعلم أنَّ التوكُّل محلُّه القلب ، والحركة بالظاهر ؛ وهي : السببُ لا تنافي توكُّل القلب بعدما تحقَّق العبد أنَّ التقدير للأشياء مِن قبل الله تعالىٰ . وسيأتي بيانُه . فإن تعسَّر شيءٌ على عبده فبتقديره تعالى . . يحصل بسهولة ، وإن اتفق شيءٌ ويُسِّر . . فبتيسيره عزَّ وجلَّ .

اعقلها وتوكَّل : أخبرنا عليُّ بن أحمدَ بنِ عبدان ؛ قال أخبرنا أحمد بن عبيد البصري ؛ قال : حدَّثنا غيلان بن عبد الصمد ؛ قال : حدَّثنا إسماعيل بن مسعود الجحدري ؛ قال : حدَّثنا خالد بن يحيىٰ ؛ قال : حدَّثني عمِّي المغيرةُ بن أبي قُرَّة ؛ عن أنس بن مالك قال :

جاء رجل على ناقة له ؛ فقال : يا رسول الله ؛ أَدَعُها . . : أتركُها وأتوكَّلُ !؟ فقال ﷺ : « اِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ »[3] .

فيه دلالة على أنَّ التسبُّب لكونه فعل الجارحة لا ينافي التوكُّل ، لكونه فعلَ

---

(١) ويدلُّ لذلك قوله ﷺ : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالىٰ جَعَلَ ٱلرَّوْحَ وَٱلرَّاحَةَ فِي ٱلرِّضَا وَٱلْيَقِيْنِ » .
وقيل : لله علىٰ الناس ثلاثة أتباع : ١ ـ نبيُّه ، و٢ ـ التوكُّل عليه ، و٣ ـ الصبر علىٰ ذلك إلىٰ الموت . فمَن لم يتَّبع فمبتدع ، ومن لم يتوكَّل فمدبِّر ، ومن لم يصبر فمنازع (عروسي : ٣/ ٤٩) .

(٢) تقدمت ص ١٢٤ .

(٣) تقدَّم تخريجه ص ٥٢٠ .

القلب ، بل قد يجبُ التسبُّب .

التوكل الصحيح : وقال إبراهيم الخوَّاص : منَ صحَّ توكُّله على الله في نفسه . . صحَّ توكُّله عليه في غيره . لأنَّ العبد إذا عرف عجزه ؛ وأنَّ أفعالَه كلَّها مخلوقةٌ لله . . اطرد له ذلك في سائر الخلق ، لأنَّهم مثلُه في العجز والخلقة .

صدق المتوكل : وقال بشر الحافي : يقول : أحدهم توكَّلتُ على الله تعالىٰ . . وهو يكذبُ على الله تعالىٰ ، إذ لو توكَّل على الله لرضيَ بما يفعل الله به !! لأنَّ الرِّضا بذلك من ثمرات التوكُّل ، فمن رأى أنَّ جميعَ ما هو فيه نعمةٌ من الله عليه . . رضي بجميع ما يُجريه عليه ، فيكون صادقاً في توكُّله .

وكالة المتوكل : وسئل يحيىٰ بن معاذ : متى يكون الرجل متوكلاً ؟ فقال : إذا رضي بالله تعالى وكيلاً عنه ، فإنَّه يكفيه . قال تعالىٰ ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[1] . فمن علم سَعَة رحمته حتَّى عَمَّت كلَّ مرحوم ، ورضي بجريان أفعاله عليه . . فقد اعتمد بقلبه عليه .

امتحان التوكل : سمعت الشيخَ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن علي بن الحسين ؛ يقول : سمعت عبد الله بن محمد بن الصامت ؛ يقول : سمعت إبراهيم الخوَّاصَ ؛ يقول : بينا أنا أسيرُ في البادية . . وإذا أنا بهاتف يهتفُ ، فالتفتُّ إليه . . فإذا أعرابيٌّ يسير ، فقال لي : يا إبراهيم ؛ التوكُّل يكون عندنا بالوادي[2] . أقم عندنا بها حتَّى يصحَّ توكُّلُك ، ألم تعلم أن رجاءك لدخول بلد فيه أطعمة . . تحملك على الإقامة فيه !! اقطع رجاءك عن البلدان وتوكَّل على الله .

ليس المراد أنَّ الأسباب تنافي التوكُّل على الله ، بل المرادُ أنَّه ينبغي للعبد أن يمتحِنَ نفسَه في دعوىٰ التوكُّل عليه ، والإعراض عن الأسباب . . في الأماكن التي يغلب فيها الانقطاع عن الأسباب ، بخلاف غيرها كالبلدان ، لأنَّ النَّفْسَ ساكنةٌ فيه إلى المعتاد والمعارِف ، فإن رأىٰ فيها نقصاً كَمَّلها أو صحَّةً شَكَرَ .

حقيقة التوكل : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت محمد بن أحمد الفارسيَّ ؛ يقول :

---

(١) الآية : ٦٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

(٢) هي كالطريق ؛ مؤنث يوهم التذكير .

سمعت ابن عطاء ؛ وقد سُئِل عن حقيقة التوكُّل . . يعني : عن غلبة أحوال المتوكِّلين على القلب ؛ فقال : حقيقتُه أن لا يظهر فيك انزعاج وقلق وميل إلى الأسباب في شِدَّة فاقتك : حاجتك إليها ، ولا تزول أنت عن حقيقة السكون والميل إلى الحقِّ تعالىٰ ؛ مع وقوفك عليها : على الأسباب واشتغالك بها ، فاعتمادك يكون على ربِّك ؛ وإن تعاطَيْتَها .

شرط التوكل : سمعت أبا حاتم السجستانيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : شرطُ التوكُّل ما قاله أبو تراب النخشبيُّ ؛ وهو طرح البدن في أحكام العبودية ، وتعلُّق القلب بالرُّبوبيَّة ، والطمأنينةُ إلى الكفاية من الله ، لأنَّه تعالىٰ وَعَد بها بقوله ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ : كافيه ؛ كما مرَّ . فإن أُعطي شيئاً منها شَكَرَ ، وإن مُنِع . . صَبَرَ[1] .

وسيلة التوكل : وكما قال ذو النون المصريّ : التوكُّل ترك تدبير النفس والانخلاع : التبرِّي من الحول والقوَّة ، وإنَّما يقوىٰ العبد على التوكُّل . . إذا علم أنَّ الحقَّ سبحانه يعلم ويَرى جميع ما هو فيه .

أسهل الضرب : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت أبا الفرج الورثاني ؛ يقول : سمعت أحمد بن محمد القرمسيني ؛ يقول : سمعت الكتاني ؛ يقول : سمعت أبا جعفر ابن أبي الفرج ؛ يقول : رأيت رجلاً يعرف بـ« جمل عائشة » مع الشُّطَّار يُضْرَب بالسياط ! فقلت له : أيَّ وقت يكون أَلم الضرب عليكم أيُّها الشُّطَّار أسهلَ ؟ فقال : إذا كان مَن ضُرِبْنَا لأجله يرانا .

لأنَّ العبد إذا رأىٰ أنَّه لا يُفعَل به إلَّا ما هو صلاحٌ له . . قويَ نشاطُه لتحمُّل المشاقّ وصبرِه عليها ، بخلاف من لا يرى ذلك ، فإنَّ ألمَ ما ذُكر في الحالة المذكورة أصعبُ ، وسمي هذا الشاطر بـ« جمل عائشة » الكائن في الوقعة المعروفة لكثرة صبره على المشاقّ .

---

(١) وذلك من أخلاق المريدين ، وإلاّ فالكاملون نعتهم أنَّهم إذا أعطوا آثروا ، وإن منعوا شكروا . لأنهم يعدُّون البلاء من النعم ، والعطاء من النقم (عروسي : ٣/ ٥٠) .
قلت : سيأتي عن الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه ص ٦٦٧ ما يبيِّن مقام كل فريق .

أرقىٰ الحالَيْن : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت عبد الله بن محمد ؛ يقول : قال الحسين بن منصور الحَلاَّجُ لإبراهيمَ الخَّواصِ : ماذا صنعت في هذه الأسفار ، وقطعِ هذه المفاوز بلا زاد ، والبعد عن الأوطان والأحباب ؟ . قال : بقيتُ في التَوكُّل أصحِّحُ نفسي عليه ؛ وأمتحنُها به ، ولا ألتفت إلى الأسباب لتعلُّق قلبي بربِّي الذي لا يفارقني . . فلا يتغير .

فقال له الحسين : أفنيتَ عمرك في عمران باطنك بالأخلاق الحميدة ؛ من زهد وتوكُّل ورضا ومحبَّة . . فأينَ الفناء : فناؤكَ في التوحيد !؟ واستغراقُك به وإعراضُك عنك !؟ نقله بذلك من حال رفيع إلى حالٍ أرفعَ منه ؛ كما هو شأن أهل الخير إذا اجتمعوا .

جمع الهمِّ : سمعت أبا حاتم السجستاني رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا نصر السرَّاج ؛ يقول : التوكُّل ما قاله أبو بكر الدقَّاقُ ؛ وهو : ردُّ همِّ العيش إلى يوم واحد ، وإسقاط همِّ غدٍ . هذا يرجع إلى قصر الأمل ، فمن قَصُر أمله قلّت حوائجه ؛ ورجعت إلى حوائج وقته خاصَّة .

التسليم لله : قال : وهو ؛ كما قال سهل بن عبد الله رحمه الله : التوكُّل الاسترسالُ في جميع أحواله مع الله تعالىٰ . . على ما يريد ، بأن يسلِّم لمولاه ويتركَ اختيارَه ، ويجري معه راضياً بما يقدِّرُه عليه .

كمال التوكل : سمعت الشيخ أبا عبدالرحمان السُّلميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد بن جعفر بن محمد ؛ يقول : سمعت أبا بكر البرذعي ؛ يقول : سمعت أبا يعقوب النهرجوريَّ ؛ يقول : التوكُّل على كمالِ الحقيقة ما وقع لإبراهيم عليه السلام ؛ وهو مكتَّفٌ مربوط في كِفَّة المنجنيق بين السماء والأرض . . يهوي إلى نارٍ لم يتمكَّنوا من إيصاله إليها إلاَّ بِكفَّة المنجنيق . . من شدَّةِ حرِّها ؛ كما أشار إلى ذلك بقوله : في الوقت الذي قال لجبريل عليه السلام . . لمَّا قال له إذ ذاك ألك حاجة !؟: « أمَّا إِلَيْكَ فَلاَ » ، فأعرضَ عنه وتعلَّق بالله ، لأنَّه غابت نفسه بالله تعالىٰ : فيه . . فلم ير مع الله غيرَ الله لفنائه عن غيره .

لازم التوكل : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت سعيد بن أحمد بن محمد ؛ يقول : سمعت محمد بن أحمد بن سهل ؛ يقول : سمعت سعيد بن عثمان الخياط ؛ يقول : سمعت ذا

النونْ المصريِّ . . وقد سأله رجل ؛ فقال له : ما التوكُّل؟ فقال : خلع الأرباب ؛ وهو : ما سوى الله مما يملك القلب عادة ويصير مسخَّراً له . . من درهم ودينار وغيرها ، كما قال ﷺ : « تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّينَارِ وَٱلدِّرْهَمِ وَٱلقَطِيْفَةِ »[1] . فجعله عبداً وجعلهم له أرباباً . وقطعُ الاعتماد على الأسباب ؛ بحيث لم يبقَ له معتمدٌ سوىٰ ربِّ الأرباب . فقال له السائل : زدني في البيان بعبارة أفهمُها . فقال : إلقاء النفس في أحكام العبوديّة ؛ بأن تكون دائماً مشتغلاً بما أُمرت به ونُهيت عنه . وإخراجُها من الرُّبوبيَّة : سلبُها عن القدرة على شيءٍ مما ينفعُها أو يضُّرها ؛ وإضافة ذلك إلى خالقها . وحاصلُ هذا : اعملْ بما أمرك الله به ونهاك عنه ، وأخرج نفسك من القدرة إلى ما ذُكر . وذلك كلُّه . . وما يأتي من نحوه تعريفُ التوكُّل باللازم ؛ نظراً لما يفهمه المخاطب .

أمل المتوكل: وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت عبد الله بن محمد المعلِّم ؛ يقول : سمعت عبد الله بن منازل ؛ يقول : سمعت حمدون ـ وقد سُئل عن التوكُّل ـ ؛ فقال : إن كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانقٌ[2] دين . . لم تأمن أن تموتَ ويبقى ذلكَ في عنقك . فعجِّل قضاءَه ، ولا تغترَّ بكثرة ما تملكه . ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين ؛ من غير أن تترك لها وفاء ؟ لا تيأس من الله تعالىٰ أن يقضيهَ عنك! فاعتمد على الله وحَسِّن ظنَّكَ به ، ولا تيأس أن يقضيَ عنك ما عليك .

حقيقة التوكُّل : وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكُّل ؛ فقال : هو التعلُّق بالله الاعتمادُ عليه في كلِّ حال .

بيانه : فقال السائل : زدني في البيان! فقال : ترك الاعتماد على كلِّ سبب ولو لم يباشر المطلوب ؛ بل كان يوصل إلى سبب آخر يباشر المطلوب حتَّى يكونَ الحقُّ تعالىٰ هو المتولِّيَ لذلك ؛ بحيث يكون اعتمادك عليه . . لا على السبب ! أجابهُ أوّلاً بحقيقة التوكُّل ، وعبَّر عنه بالتعلُّق بالله ، فلما عَسُر عليه فهمُه ؛ قال له : اترك الأسباب في تحصيل مقصودك .

---

(١) تقدم تخريجه ص ٤٠٤ .

(٢) الدانق وحدة نقدية تعادل سُدُس الدرهم .

حال النَّبيِّ وسنَّته : وقال سهل بن عبد الله : التوكُّل حالُ النَّبيِّ ﷺ ، والكسب سنَّتُه ؛ فمن بقيَ على حاله ﷺ بأن وصل إليه . . فلا يتركَنَّ سنَّتَه .

ليس المرادُ أنَّ التوكُّل ينافي الكسب ، وأنَّه ليس من سُنَّته ﷺ ، بل المرادُ بحاله ﷺ أن يكون السابقُ لقلب العبد في تحصيل مقصودِه اعتمادَه على الله تعالى ، وبسنَّته أن يكون السابقُ لقلب العبد العاجز عن الحال المذكور في تحصيل مقصوده اعتمادَه على الكسب المعتاد ؛ من أنَّ سنَّةَ اللهِ ورسوله جرت به كما هو العادةُ في ربط المسبَّبات بالأسباب ؛ مع اعتقاد أنَّ الفاعل هو اللهُ تعالىٰ ، وأنَّه لا فعل للأسباب .

من تعريفه : وقال أبو سعيد الخرَّاز : التوكُّل اضطرابٌ في الأسباب الواجبة على العبد لمُؤَنِهِ . . بلا سكون إليها ، وسكونٌ بالقلب إلى الله تعالى واعتمادٌ عليه . . بلا اضطرابٍ والتفات بالقلب إليها عند تغيُّرها .

أمارة التوكل : وقيل : التوكُّل : أمارتُه أن يستويَ عند الإكثار والتقلُّل من الدنيا ، فإن كَثُرت عليك سَمحتَ بها وأنفقتها ، وإن قلَّت عنك لم تتغيَّر . . ولم تتعلَّق .

أعلى مقاماته : وقال ابن مسروق : التوكُّل الاستسلامُ والانقياد لجرَيان القضاء والأحكام ، بأن تفوِّضَ أمرك إلى الله تعالىٰ ، وتتركَ اختيارك .

وهذا من أعلى مقامات التوكُّل .

من تعريفه : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت عبد الله الرازي ؛ يقول : سمعت أبا عثمان الحيْريَّ ؛ يقول : التوكُّل الاكتفاءُ بالله : بتدبيره تعالى ، مع الاعتماد عليه .

هذا عُلم ممَّا مرَّ .

وسمعته أيضاً ؛ يقول سمعت محمد بن محمد بن غالب ؛ يحكي عن الحسين بن منصور ؛ أنه قال : المتوكِّل المحقُّ هو الذي لا يأكل شيئاً من غير ضرورة ؛ وفي البلد مَن هو أحقُّ به منه . بل يؤثره به ؛ اعتماداً على أنَّ الله لا يضيِّعُه .

يُمتَحن بالخضر : وسمعته أيضاً ؛ يقول : سمعت عبد الله بن علي ؛ يقول : سمعت منصور ابن أحمد الحربيّ ؛ يقول : حكى لنا ابن أبي شيخ ؛ أنَّه قال : سمعت عمر بن سنان ؛ يقول : اجتاز بنا إبراهيم الخوَّاصُ ، فقلنا له : حدِّثنا بأعجبِ ما رأيتَه في

أسفارك !! فقال له : لقيني الخضر عليه السلام ، فسألني الصحبةَ ، فخشيت منه أن يفسد عليَّ توكُّلي لسكوني إليه ، ففارقته حفظاً لمقام التوكُّل[1] .

والحاصل : أنَّ الخوَّاص لَمَّا لقي الخضر امتحنه اللهُ به في دعوىٰ مقامِ التوكُّل وثَبَّتَه . وإلاَّ ! فالخضر مستغنٍ عن صحبته لكمال قوَّته .

قلب المتوكل : وسئل سهل بن عبدالله عن التوكُّل ـ أي : عن حال قلب المتوكِّل ـ؛ فقال : هو قلبٌ عاش مع الله تعالى : اعتمد عليه بلا علاقةِ تعلُّقٍ بغيره .

درجات التوكُّل : سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : للمتوكِّل من حيث هو ثلاث درجات : ١ـ التوكُّل ، ثمَّ ٢ـ التسليمُ ، ثمَّ ٣ـ التفويض . وكلٌّ من الأخيرين أعلىٰ ممَّا قبله ، كما أفاده كلامُه هنا . . وفيما يأتي .

١ـ **المتوكل** : فالمتوكِّل يسكن إلى وعده تعالى بقوله ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ وله اختيار .

٢ـ **المسلِّم** : وصاحب التسليم يكتفي بعلمه تعالى بحاله ، فإنَّه يعلم ما هو فيه .

٣ـ **المفوِّض** : وصاحب التفويض يرضى بحكمه تعالى : بكلِّ ما يجريه اللهُ عليه . . وافَق غرضَه ؛ أو خالفه ، ولا اختيار لهما . لأنَّهما سلَّما وفوَّضا الأمورَ إليه تعالى . يفعل بهما ما هو صلاح لهما .

الترقي وثمراته : وسمعته أيضاً؛ يقول : التوكُّل بداية ، والتسليم وسائط ، والتفويض نهاية . فالتوكُّل اعتماد ، والتسليمُ راحةٌ ، والتفويض رضاً بجريان الأحكام .

أمارات التوكل : وسئل الدقَّاق عن التوكُّل : أمارتِه ؛ فقال : الأكل في الحال بلا طمعٍ وتشوُّفٍ إلى مأكل في الاستقبال ؛ وثوقاً بلطف الله به في كلِّ حال .

الحرفة والحانوت : وقال يحيى بن معاذ : لبس الصُّوف أي : زِيُّ الصالحين حانوتٌ : تسبُّب ، والكلامُ في ترجيح الزُّهد حرفةٌ ، لأنَّه يدلُّ على أنَّ المتكلِّم زاهدٌ لا مال عنده ؛ فيميل الناس لإكرامه . . دون غيره من الفقراء ؛ وإن كانوا أفقرَ منه . وصحبةُ القوافل في الأسفار بغير زاد **تعرُّضٌ** للتسبُّب وسكونٌ إلى مَن سافر معهم ، فإنَّهم لا يتركونه غالباً .

---

(١) تقدمت ص ٣٧٨ .

وهذه كلُّها علاقاتٌ : تعلُّقات بالأسباب . . كما عرفتَ ! أي : فينبغي للعبد قطعُها ، لأنَّه يكون متعلِّقاً بها ؛ وهو لا يشعر . . ويَعتقدُ أنَّه قد صحَّ اعتماده على الله ونفسُه ساكنةٌ إلى غيره .

تنبيه حسن : وجاء رجلٌ إلى الشِّبليِّ يشكو إليه كَثْرة العيال وضيقَ الحال ، وكان موقناً بأنَّ الله هو الرزَّاق ! لكنه لمَّا قَلِق وغَفَل حين امتحن بالفقر . . شكى إلى الشبلي ليجد منه راحة بالدُّعاء ؛ أو بغيره . . فقال له : ارجع إلى بيتك ، فمن ليس رزقه على الله تعالى فاْطرده عنك .

نبَّهه بهذا التنبيهِ الحسن ليردَّه إلى أصل إيمانه ؛ ويذكِّرَه بما يُفَرِّغُ قلبه من هَمِّ نفسه وغيره .

الطعن بالسنَّة : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ عبد الله بن علي ؛ يقول : سمعت أحمد بن عطاء ؛ يقول : قرأتُ على محمَّد بن الحسين :

قال سهل بن عبد الله : مَن طعن في الحركة : الكسب . . فقد طعن في السنَّةِ : سنَّة اللهِ ورسوله ، فإنَّها جرت بذلك . . كحفر الخندق ، ولبس الدرع ، وتحصُّن المسلمين ، وحمل الأزواد في الأسفار ، وقد قال الله تعالى ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[1] وتقدَّم أنَّ الحركة بالظاهر لا تنافي التوكُّل .

الطعن بالإيمان : ومَن طَعَن في التوكُّل ؛ وقال : إن المقدَّر يحصل بفعل الله وبفعل غيره . . فقد طعن في الإيمان بالله ؛ حيث أشرك معه في الفعل غيره ، فالفاعلُ إنَّما هو الله والخلق ممتثلون أمرَه . . ناظرون إلى قدره في كسبهم .

توكُّل الجنِّ : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أحمد بن عليِّ بن جعفر ؛ يقول : سمعت جعفر الخلديَّ ؛ يقول : قال إبراهيم الخوَّاص : كنتُ في طريق مكَّة فرأيت شخصاً وحشياً ! فقلت : هو جنيٌّ ؛ أم أنسي ؟! فقال : جِّنيٌّ وكان مؤمناً ، فقلت له : إلى أين تذهبُ ؟ فقال إلى مكَّة . فقلتُ : بلا زاد !! فقال : نعم ولا استبعاد ، إذ فينا أيضاً كأنتم أيُّها الإِنس . . مَن يسافر على التوكُّل : معتمداً على الله . .

---

(١) الآية : ٦٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأنفال .

لا على غيره . فقلت : إيش التوكُّل ؟! فقال : الأخذُ من الله تعالى ؛ بأن ترىٰ أنَّ الفعل منه .

آلات متوكِّل : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا العبَّاس البغداديَّ ؛ يقول : سمعت الفرغاني ؛ يقول : كان إبراهيم الخوَّاصُ مجرَّداً في التوكُّل . . يدقِّق فيه ، ومع ذلك كان لا يفارقه إبرة وخيوط وركوة ومِقراض : مقصٌّ ، لغلبة الحاجة إليها . فقيل له : يا أبا إسحاق ؛ لم تحمِلُ هذا : ما ذُكِر من الثلاثة . . وأنتَ تمتنع من كلِّ شيءٍ من الأسباب ؟! فقال : مثلُ هذا لا ينقض : يناقض التوكُّل ، لأنَّ لله سبحانه علينا فرائضَ . . من صلاة ونحوها ، والفقير من المال لا يكون عليه إلاَّ ثوبٌ واحد ، فربَّما يتخرَّقُ - وفي نسخة : يتمزَّق - ثوبه ! فإذا لم يكن معه إبرة وخيوط فقد تبدو : تظهر عورته . . فتفسد عليه صلاته ، وإذا كانا معه . . تدارك ذلك بهما . وإذا لم يكن معه ركوة . . فقد تفسد عليه طهارتُه ، وإذا كانت معه . . تدارك ذلك ، وإذا لم يكن معه مِقراض فيطول شاربُه . . فيفوته قصدُ المأمور به ؛ فالأمور المذكورةُ محتاج إليها في تحصيل العبادة المأمور بها .

فإذا رأيت الفقير بلا رِكوة ؛ ولا إبرة ؛ ولا خيوط . . فاتَّهمه في كمال صلاته .

صفات المتوكِّلين : وسمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : التوكُّل صفةُ المؤمنين ، والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحِّدين ، لأنَّ المتوكِّل يرى السبب ويعتمد على الله في أموره ، والوليُّ مسلِّمٌ إلى الله في سائر أموره ، والموحِّد صارت نفسه محلاًّ لجَرَيان قدرة الله تعالى فيه ، لكمال تفويضه

صفة العوامِّ : فالتوكُّل صفة العوامِّ ، لا عوامّ المؤمنين ؛ بل عوامُ الخوَاصِّ السالكين لنيال مقام التوحيد ، فإنَّهم على ثلاث درجات : متوكِّل ، ووليٌّ ، وموحِّد كما عرفت .

الخواصّ وخواصُّهم : والتسليمُ صفة الخواصِّ ، والتفويضُ صفة خواصِّ الخواصِّ . فكُلُّهم في الحقيقة خواصٌّ ، فمطلق الخاصِّ ينقسم إلى عوامٍّ .

وخَواصَّ، وَخَوَاصِّ وخَوَاصِّ، ولم ينل رتبة التوكُّل من المؤمنين إلاَّ خواصُّهم.

الأنبياء والتوكل: وسمعتُه أيضاً ؛ **يقول**: **التوكُّل**: الكامل صفة الأنبياء جميعهم ؛ وإن اختصَّ بعضُهم بصفةٍ كما قال. والتسليمُ صفة إبراهيم عليه السلام ؛ لما مرَّ له مع جبريل. والتفويضُ صفة نبيِّنا محمَّد ﷺ، قال تعالى ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... ﴾[1]، وقال ﷺ: « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ.. وَلاَ فَخْر »[2]. وقد ثبتت له الشفاعة والمقامُ المحمود دونَ غيره.

نموذج توكُّل: سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول: سمعت أبا العبَّاس البغداديَّ ؛ يقول: سمعت محمد بن عبد الله الفرغانيَّ ؛ يقول: سمعت أبا جعفر الحدَّاد ؛ يقول: **مكثت بضعَ عشرة سنة أعتقد التوكُّل على الله: عقدته على نفسي.. وأنا أعملُ في السوق وآخذ كلَّ يوم أجرتي.. ولا أنتفع منها بشُرْبة ماء ؛ ولا بدَخْلة حمَّام، ولكن كنتُ أجيء بأجرتي إلى الفقراء في الشونيزية وأفرِّقُها عليهم، وأكون مستمرَّاً على حالي..** هو مقام بالغٌ في التوكُّل، لأنَّ مَن عُرِف بالكَسْب والاستغناءِ عنه بالنسبة لمن يعلم أنَّه يفرِّقه، وبه بالنسبة لمن لا يعلم ذلك.. أنصرف الناس عن مساعدته بشيء من الدنيا.

الحاج المتوكِّل: وسمعته أيضاً ؛ **يقول**: سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله بن شاذان ؛ يقول: سمعت الخَّواصَّ ؛ يقول: سمعت الحسين (أخا سنان) ؛ يقول: **حججتُ أربع عشرة حِجَّة حافياً على التوكُّل**: متوكلاً على الله.. **فكان يدخل في رجلي شوكةٌ، فأذكُر أنيِّ قد اعتقدت التوكَّل على الله**: عقدت **على نفسي** - وفي نسخةٍ: اعتقدت على الله - **فَأَحُكُّها**: الشوكة في الأرض، وأمشي ولا أشتغل بإخراجها، وهذا ظاهر في الشوك الخفيف الذي لا يضرُّه، وإلاَّ فليس له إهمالهُ.

المتوكل المراقب: وسمعتُه أيضاً ؛ **يقول**: سمعت محمد بن عبد الله الواعظ ؛ **يقول**: سمعت خيراً النسَّاجَ ؛ يقول: سمعت أبا حمزة ؛ يقول: **إني لأستحي من الله تعالىٰ أن أدخُل البادية.. وأنا شبعان ؛ وقد اعتقدت التوكُّل**: عزمتُ عليه ؛ **لئلاَّ يكون سعيي** ؛ اعتماداً على الشبع زاداً أتزوّدُه.. لا على الله، فاستحياؤه لكونه مع

---

(١) الآية: ٢٥٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها: البقرة.

(٢) تقدم تخريجه ص ٣١٠.

عزمه أنَّه معتمد على ربِّه . . خشيَ أن يكون من الكَذَّابين لكونه اعتمد على شبعه .

ففيه دليل على كمال معرفته بالله ودوام مراقبته له .

الواصف المدَّعي : **وسئل حمدون ؛ عن التوكُّل . . فقال : تلك درجة لم أبلغها بعدُ ! وكيف يتكلَّم في التوكُّل مَن لم يصحَّ له حالُ** : غلبةُ حال **الإيمان** على قلبه !! وهذا من باب الإشفاق على النفس ؛ بأن يخشىٰ عليها أنَّها إنْ ذَكَرت شيئاً من المقامات وفهم عنها أنَّه حالها ، ولم تكن كذلك . . كان سبباً لمنع الله إيَّاها ذلك المقام .

مأوىٰ المتوكل : **وقيل المتوكِّل كالطفل . . لا يعرف شيئاً يأوي إليه مما ينفعه ؛ أو يضُّره . . إلاَّ ثديَ أمِّه . . كذلك المتوكِّل ؛ لا يهتدي في أموره إلى شيء . . إلاَّ إلى ربِّه .**

الجيب والغيب : **ورُويَ عن بعضهم ؛ قال : كنت في البادية فتقدَّمتْ القافلةُ فرأيت قدَّامي واحداً فتسارعتُ إليه حتَّى أدركتُه ؛ فإذا هي امرأة بيدها عكَّازة** ـ وفي نسخة : ركوة وعكازة . . . ـ **تمشي على التُّؤدة ، فظننت أنَّها أعيت**[1] ، **فأدخلتُ يدي في جيبي فأخرجت لها عشرين درهماً ؛ فقلت لها : خذيها ، وامكثي حتَّى تلحقَك القافلة فتكتري بها ما تركبيه ، ثم ائتني** ـ وفي نسخة : تأتيني ـ **الليلةَ حتَّى أصلح أمرك ، فقالت بيدها هكذا في الهواء ، فإذا في كَفِّها دنانيرُ . فقالت لي : أنتَ أخذتَ الدراهم من الجَيْب . . وأنا أخذتُ الدنانير من الغيب !!** .

تعقيب : وجه تعلُّق ذلك بالتوكُّل بالنسبة للمَرأة ظاهرٌ ، وبالنسبة للرجل أنَّه متوكِّل حيثُ دفع لهذه المرأة في مثل هذه البريَّة عشرين درهما ، ووعدها بأن يصلح من حالها زيادةً ، وحسنُ اعتماده على ربِّه بأن يعوِّضه عن ذلك ، وازداد يقيناً بما أخذته المرأة من الغيب . .

إنصاف كامل : **ورأى أبو سليمان الدَّارانيُّ بمكَّةَ رجلاً لا يتناول شيئاً إلاَّ شُرْبةً من ماء زمزم ، فمضى عليه أيَّام** وهو كذلك ! وكان يكتفي به اعتماداً على أنَّه لِمَا شُرِب له ؛ كما جاء في الحديث[2] !! **فقال له أبو سليمان يوماً : أرأيت لو غارت**

---

(١) تعبت .

(٢) وهو قوله ﷺ : « مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ . . » أخرجه أحمد : ٣/ ٣٥٧ ، والحاكم : =

زمزم . . أيش كنتَ تشربُ ؟ فقام وقبّل رأسه ؛ وقال : جزاك الله خيراً حيث أرشدتني إلى ما هو الأكملُ . فإني كنتُ أعبد زمزم : متعلِّقاً بها ؛ ساكناً إلى غير الله . . منذ أيام !! ومضى عن ذلك إلى ما هو الأكملُ ، وهذا من أكملِ الإنصاف ؛ والتواضع ؛ والانقياد إلى الحقّ ؛ وتوبيخ النفس على السكون لغير الله ، وعلى القَنْع بحاله الذي هو فيه .

وعُلِم فيما ذكر أنَّ للهِ أن يؤدّب الرجال بالنساء ؛ ليعلم كلُّ صادق أن ألطاف الله ونعمه لا تنحصر في جهة .

توكُّل حَدَث : وقال إبراهيم الخوَّاص : رأيتُ في طريق الشام شاباً حَدَثاً ـ تأكيدٌ لما قبله ـ حسن المراعاة ، فقال لي : هل لك في الصحبة !! فقلت : إني أجوعُ اعتماداً على ما عَودَّني اللهُ به من اللطف والقوَّة . فقال له الشاب : إن جعتَ جعتُ معك ؛ فبقينا أربعةَ أيَّام لم نأكل شيئاً ، ففُتِح علينا بشيء ! فقلت له هلم : تعالَ كُلْ . فقال لي : اعتقدتُ : عزمت أن لا آخذ بواسطة وأنت واسطة !! فقلت له : يا غلام ! دقَّقتَ في الكلام في التوكُّل ، فقال لإبراهيم : لا تتبهرج : لا تطريني بالمدح ؛ فإنَّ الناقد بصيرٌ وأنا لستُ بمدقِّق !! لأني في أول المقام . . لا في أعلاه ، وكيف أكون مدقِّقاً بمجرَّد عدم أخذي بواسطة . مالَكَ !! والتوكُّل .

أقلُّ درجاته : ثُم قال : أقلُّ درجات التوكُّل وهو أوَّلها : أن تَرِدَ عليك مواردُ الفاقات الحاجات فلا تسموَ : تعلوَ نفسُك إلاَّ إلى مَن إليه الكفايات وهو الله تعالى .

توضيح : وفي ذلك دلالة على أنَّ الله أرى إبراهيم مع كمال قوَّته ورفعةِ حاله . . من حاله أقوى من حاله !! ليتزايد في حاله ويتأدَّب مع ربِّه .

وفيه دلالة على أنَّ للهِ أن يؤدِّب الكبارَ بالصغار في السن ؛ كما مرَّ نظيره في حكاية المرأة[1] .

= ١/ ٤٧٣ وصحح إسناده ، وابن ماجه : ٣٠٦٢ ، والدارقطنيُّ : ٢/ ٢٨٩ ، والبيهقيُّ : ٥/ ١٤٨ . وصححه ابن عيينة والمنذريُّ والدمياطي ، واعتمده السيوطي .

(١) ومرَّ أيضاً ص ٥٣٣ .

من معانيه : وقيل : التوكُّل نفيُ الشكوك ؛ والتفويض إلى مالك الملوك .

أطلق التوكُّل على التفويض . . كما يطلق على التسليم ؛ وإن كانا أعلى منه كما مرَّ !! لأنَّهما من ثمراته ، واعتبر نفي الشكِّ ! لأنَّ التوكُّل . . إنَّما يكون عن قوَّة اليقين وهو بعيد عن الشكِّ .

محاورة جنيدية : وقيل : دخل جماعةٌ على الجنيد رحمه الله ؛ فقالوا : أين نطلبُ الرزق !! فقال : إن علمتم في أيِّ موضع هو فاْطلبوه منه .

قالوا : فنسألُ الله تعالىٰ ذلك : الرزق . فقال : إن علمتم أنَّه ينساكم فذَكِّروه .

فقالوا : ندخلَ البيت فنتوكَّل . فقال : التجربة بأن تدخلوا البيت مجرِّبين الله . . هل يرزقكم ؛ أَوْ لا ؟! شكٌّ في ضمانه للرِّزق .

توضيح الرزق : ما قاله كلام بالغ في تعليم التوكُّل ، سواء وجدت الأسباب ؛ أم لا . لأنَّ الرزق عند أهل الحقِّ : ما ينتفع به العبد . . لا ما يملكه ، بل ولا ما يأكُلُه ، فإنَّه قَدْ يَأكل شيئاً ثمَّ يقذفُه من جوفه ، ويكون رزقَ غيره . . لا رزقَه ، فلا قدرة له علىٰ معرفة رزقه ، فإنَّه لا يعرف ما الذي ينتفع به .

تكميل : قالوا : فما الحيلة ؟ قال : تركُ الحيلة ، واعتمادُكم بقلوبكم على الله ، واشتغالُكم بما أُمرتم به .

الداراني والتوكل : وقال أبو سليمان الدارانيُّ لأحمدَ ابنِ أبي الحواري : يا أحمد ؛ إن طرق الآخرة كثيرة وشيخك وهو أنا . . عارف بكثير منها ، إلاَّ هذا التوكُّل المبارك ، فإنِّي ما شممتُ منه رائحة !!

إيضاح : فيه دلالة على كمال أبي سليمان ، وإقراره على نفسه بأنَّ أعلى مقامات التوكُّل ؛ وهو التفويض ـ كما مرَّ ـ لم يتمكَّن فيه بعد ، إما حقيقة ؛ أو تأديباً لنفسه بتقصيرها في نيلها أعلى المقامات ، وإمَّا تأدُّباً وتبرُّأً من حوله وقوَّته ؛ وهو اللائق بحاله وكمالِ معرفته .

سببه : وقيل : التوكُّل الثقةُ بما في يدي الله تعالىٰ ، واليأس عمَّا في أيدي الناس . . هذا سبب التوكُّل الذي هو الاعتماد علىٰ الله ؛ لا نفسِه .

من ثمراته : وقيل : التوكُّل فراغُ عن السِّرِّ عن التفكُّر في التقاضي في طلب الرزق .

هذا من ثمرات التوكُّل ؛ لا نفسه ، فإنَّ من توكَّل علىٰ الله ؛ ولم يلتفت إلى غيره من الأسباب . . ٱستراح قلبُه مِنْ هَمِّ الاكتساب ؛ وإن أمر بالاكتساب .

طمع المتوكل : وسئل الحارث المحاسبيُّ رحمه الله عن المتوكِّل : هل يلحقه طمعٌ ؟ فقال : يلحقُه في ابتداء تخلُّقه بمقام التوكُّل . . من طريق الطباع الناشىءِ من عادته المتقدمة خَطَراتٌ من الطمع ، ولا تضرُّه شيئاً ، ويقوِّيه على إسقاط الطَّمع بالكليَّة حتّى الخطراتِ اليأسُ مما في أيدي الناس .

وإذا قطع يأسَه ممَّا في أيديهم اعتمد بقلبه على مَن يتفضَّل عليه وعليهم .

كفاية النُّوري : وقيل : جاع النوريُّ في البادية عشرة أيَّام . . فهتف به هاتفٌ : صاح به صائح . . فقال : أيُّما أحبُّ إليك . . سبب من الأسباب المعتادة ، أو كفايةٌ وقوَّة !؟ بأن يخرق الله لك العادة فيما يغنيك عن الطعام والشراب ؛ زيادةً على ما قوَّاك وأغناك ؟! فقال له : الأحبُّ إليَّ الكفاية التي ليس فوقها نهايةٌ : بالنسبة لحاله ، وإلاَّ ! فغيره قد رزقه الله من الصبر عن الطعام والشراب أكثرَ من صبره المذكور في قوله ! فبقيَ بعد ذلك سبعةَ عشر يوماً لم يأكل شيئاً .

جوع الفقير : وقال أبو عليٍّ الرُّوذَباريُّ : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام (أنا جائع) فألزموه السوق وٱمروه بالعمل والكسب[1] . لأنَّ ذلك يدلُّ على عدم كمال شُغله بالله وعدم صبره وشِدَّة ميله إلى الطعام .

ومَن هذه صفتُه بقاؤه مع سببه وانتقالُه شيئاً فشيئاً عن عاداته أَوْلى من خروجه عما بيده جملةً ، وتقدَّمت الإشارة إلى هذا مع الإشارة إلى أنَّه ينبغي للعبد أن لا يخلِّي نفسه عن السبب الشرعيِّ ؛ كحمل الزاد في الأسفار . . إلاَّ إذا رزقه الله الصبر عن الطعام والشراب مدَّة يستغني فيها عن الناس وسؤالهم .

فشل متصوِّف : وقيل : نظر أبو تراب النخشبي إلى صوفيٍّ مدَّ يده إلى قشر بِطيخ مرميٍّ في التراب ؛ ليأكله بعد ثلاثة أيام . . لم يأكل منها شيئاً ، فقال له : لا يصلحُ لك التصوُّف ! اِلزم السوق . لما مرَّ آنفاً .

---

(١) تقدمت ص ٣٦١ ، والتي تليها عن أبي تراب تقدَّمت ص١٣٧ .

همَّة جائع : وقال أبو يعقوب الأقطعُ البصريُّ : جعت مرَّة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفاً ببدني من الجوع ، فحدَّثتني نفسي بطلب شيء آكله ، فخرجت إلى الوادي لعلِّي أجدُ شيئاً يسكِّن ضعفي !! فرأيت سلجمة[1] ـ هي نبت ـ مطروحة على الأرض ، فأخذتُها فوجدتُ في نفسي منها وحشة ، وكأنّ قائلاً يقول : جعتَ عشرة أيام وآخره يكون حظُّك سلجمةً متغيِّرة !! فرميت بها ودخلتُ المسجد ، فقعدت . . وإذا برجل أعجميٍّ جلس بين يدي ووضع قِمَطرة ؛ وهي ما يُصان به المكاتيب ! فقال : هذه لك . فقلت : كيف ـ أي : لِمَ ـ خَصَّصْتني بها ؟! فقال : اِعلم أنَّا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق ؛ فنذر كلٌّ واحد منا (إن خلَّصنا الله أن يتصدَّق بشيء) ، ونذرت أنا : إن خلَّصني الله عزَّ وجلَّ أن أتصدَّق بهذه القِمَطْرة على أوَّل مَن يقع عليه بصري من المجاورين بالحرم ! وأنت أوَّل مَن لقيتُه . فقلتُ : اِفتحها . ففتحَها ؛ فإذا فيها كعك سَمِيْدٌ : حسن الدقيق مصريٌّ ، ولوز مقشَّر ، وسُكَّر كِعاب : عقد . . فقبضتُ قبضة من ذا . . وقبضة من ذا . . وقبضة من ذا ؛ وقلت له : رُدَّ الباقي على صبيانك ، هو : الباقي هدِيَّةٌ منيٍّ لكم : لصبيانكم ، وقد قبلتُها : القمطرةَ بما فيها ؛ فاْقبل هديَّتي للباقي . ثمَّ قلتُ في نفسي (رِزقك يسيرُ إليك من عَشَرة أيام وأنت تطلبُه من الوادي)!! .

إيضاح وعبرة : حاصل ذلك أنَّه لما شَرُفت همَّتُه وألقى السَّلجمة ، ثم رجع إلى الحرم مؤدِّباً نفسه في عدم صبرها عن الطعام ، وفي شَرَهِها ؛ معتمداً على الله بأن يأتِيَه بما هو أشرفُ وأطيبُ من السلجمة . . أتاه العجمي بالقِمَطرة وأعلمه بسبب نذره منذ عشرة أيام فوبَّخَ نفسه ؛ وقال لها : الله يسوق لكِ رزقك الطيِّب منذ عشرة أيام ؛ وأنتِ تطلبيه من الوادي !؟ ثم أمسك نفسه عن قبولها بِشَرَهٍ ؛ وقال للعجميِّ : اِفتحها . فلما فتحها ووجد ما فيها ممَّا ذُكر . . لم يأخذها كلَّها ، بل أخذ منها ما ردَّ جوعَه في الوقت ؛ وقال له : قد قبلتُها وفاءً بنذرك ، ووهبت الباقيَ منها لصبيانك . وهذا كمالٌ في كسر النفس مع شِدَّة الحاجة إلى الطعام ، ورفع الهِمَّة والاعتماد على الله في أن يأتيَ له بمثله ، أو بأرفعَ منه عند الحاجة .

---

(١) واحدةُ الشلجم أو الشلغم ؛ وهو اللِّفت . وهو بالسين والشين والثاني أشهر .

أقبح البخل : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : كنتُ عند ممشاد الدينوري فجرى حديثُ الدَّيْن ؛ فقال : كان عليَّ دَيْن . . لزمني في طاعة ؛ كاقتراض لمن رآه محتاجاً من الفقراء . فاشتغل له قلبي ، فرأيت في النوم كأنَّ قائلاً يقول (يا بخيل ؛ أخذتَ علينا هذا المقدارَ !! خذْ ولا تبالي . . عليك الأخذُ ، وعلينا العطاء !!) فما حاسبتُ بعد ذلك بقَّالاً ولا قصَّاباً ولا غيرَهم . الأَوْلى : غيرهما .

وذلك لأنَّ مَن عامله عَرفَ حاله ، وأنَّه لا مال له ، وأنَّ معاملته محضُ خيرٍ ، وإنَّما عامَلَه على أنَّه إذا فَتَح الله عليه بشيء أتاهم به ، ونبَّه في الرؤيا على أنَّ الله تعالىٰ إن لم يقضِ الدَّيْن عنه في الدنيا . . أرضىٰ عنه أربابه في الآخرة ، لأنَّه التزمه لوجهه ، وسمَّاه « بخيلاً » !! لأنَّه خاف أن لا يقضيَ الله عنه دينَه بغير سبب ، فكأنه بخلٌ بمال غيرِه ؛ وهو أقبحُ البخل .

امتحان الحمال : ويُحكىٰ عن بنان الحمَّال أنَّه قال : كنتُ في طريق مكَّة أجيءُ من مصر ومعي زادٌ ، فجاءتني امرأة وكانت مكاشفة . . أدَّبني الله بها لزعمي أنيِّ تمكَّنتُ في التوكُّل . . ؛ وقد حملتُ الزاد !! وذلك أنَّها قالت لي يا بُنان ؛ أنتَ حمَّالٌ . . تحمل على ظهرك الزادَ وتتوهَّم أنَّه لا يرزقُك بدونه !! . قال : فرميتُ بزادي ، ثمَّ أتى عليَّ ثلاثٌ من الأيَّام لم آكل فيها شيئاً ؛ فوجدتُ خَلخالاً في الطريق ، فقلت في نفسي أحملُه حتَّىٰ يجيءَ صاحبُه ، فربَّما يعطيني شيئاً ؛ فأردُّه عليه ! فإذا أنا بتلك المرأة ؛ فقالت لي : أنتَ تاجر ؛ تقولُ في الخَلخال (حتَّى يجيءَ صاحبُه فآخذَ منه شيئاً وأدفع له خلخاله)!! ولِمَ لا تدفعُه لله ؛ فلا تأخذ منه شيئا)؟! ثمَّ رَمتْ إليَّ شيئاً من الدراهم ؛ وقالت : أنفقها على نفسك . فاكتفيتُ : فأخذتُها واكتفيتُ بها إلى قريبِ مكَّة ـ وفي نسخة : من مصر ـ .

فأُدِّب بنان مع علوِّ رتبته مرَّتين . . بالمرَّة الأُولى إنكارها عليه حمل الزاد مع زعمه التمكُّن في التوكُّل ، والثانية قولُها له (أنت تاجر . . إلى آخره) ، وإعانتها له على حالها بما أعطته له من الدراهم .

عناية بمتوكِّل : ويحكى عن بُنان أيضاً ؛ أنَّه احتاج إلى جارية تخدمُه ، فانبسط إلى إخوانه في تحصيلها له ، فجمعوا له ثمنها ؛ وقالوا : هو ذا وحيث يجيءُ النَّفَر

الذين يبيعون الجواري فنشتري لك منهنَّ ما يوافقك فما وَرَد علينا النَّفَر واجتمع رأيهم على واحدة ؛ وقالوا : إنَّها تصلُح له فقالوا لصاحبها : بكم هذه ؟ فقال : إنَّها ليست للبيع. فألحُّوا عليه ؛ فقال : إنها لِبُنان الحمَّال أهدتها إليه امرأة من سمرقند ، فحُملت إلى بنان . . وذَكرت له هذه القصة .

توضيح : في ذلك دلالة على أنَّ الله تعالى يعتني بمن توكَّل عليه ويقضي له حوائجه ؛ وهو لا يشعر ؛ وفاء بقوله تعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾[1] ، فلما علم تعالى حاجةَ بنان إلى مَن يخدمه لعجزه ؛ وعلم بذلك أصحابه واشتغلوا بتدبير أمره . . ألقى الله في قلب تلك المرأة بسمرقند إرسالَ هذه الجارية إليه .

سلامة المتوكل : وأعظمُ فوائد التوكُّل سلامة المتوكِّل من نزغات الشيطان ، فإنَّ الله تعالى أخبر عدوَّه بذلك ؛ حيث قال له بعد قوله ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ، ﴿إِنَّ عِبَادِي - خواصِّي المعتمِدِين عليَّ - لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾[2] .

حجٌّ مشروط : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : سمعت محمد بن الحسن المخزومي ؛ يقول : حدَّثنا أحمد بن محمد بن صالح ؛ قال : حدَّثنا محمد بن عبدون ؛ قال : حدَّثنا الحسن الخياط ؛ قال : كنتُ عند بشرٍ الحافي ؛ فجاءه نَفَر فسَّلموا عليه ، فقال : مِن أين أنتم ؟ . قالوا : نحن من الشام ، جئنا لنسلِّم عليك ونريدُ الحج ! . فقال: شكر الله تعالىٰ لكم. فقالوا لهُ: تخرج معنا؟ فقال: أخرجُ بثلاث شرائط .

أحدها : لا نحمل معنا شيئاً من الزاد ، وثانيها : لا نسأل أحداً شيئاً ، وثالثها : إن أعطانا أحد شيئاً لا نقبلُه . فقالوا له : أمّا أن لا نحمل ! فنعم ، وأما أن لا نسأل . . فنعم ، وأما أن لا نقبل ؛ إن أُعطينا . . فهذا لا نستطيعه . فقال لهم : خرجتم متوكِّلين على زاد الحجيج . لأنَّهم إذا رأوكم لا تحملون

---

(١) الآية : ٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الطلاق .

(٢) الآيتان : ٦٤ و٦٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الإسراء .

زاداً . . علموا حاجتكم فأعطوكم .

مراتب الفقراء : **ثم قال لي بشر : يا حسن ؛ الفقراءُ ثلاثة**[1] :

١ـ فقير لا يسأل ، وإن أُعطي لا يأخذ . . فذاك من جملة الرُّوحانيِّين ؛ وهو من ارتفعت همَّتُهم عن الخلق وعاشوا بدوام ذكرهم لمولاهم .

و٢ـ فقيرٌ لا يسأل ؛ وإن أُعطي ؟ قَبِل ، فذاك مما يوضَع لهم موائدُ في حظائر القُدْس : الطهر ، فقلْبه مطهَّر من التدنُّس بالأغيار ناظرٌ إلى ما يجريه الله عليه بحسن الاختيار .

و٣ـ فقير يسأل عند الحاجة ، **وإن أعطي ؟ قَبِل قَدْر الكفاية ، فكفَّارته** : كفَّارة سؤالِه **صدقه** ؛ بأن لا يسأَل حتَّىٰ يصدُق في جوعه واحتياجه ، وعلامة صدقه فيهما أن يأخذ ما تندفع به ضرورته في وقتِه .

وفيما قاله دليلٌ علىٰ اختلاف مقامات المتوكِّلين .

ثقة الكفيل : **وقيل لحبيب العجميِّ : لم تركتَ التجارة ؟ فقال : وجدتُ الكفيل** برزقي **ثقةً** ، وهو رزق طيِّب لا شبهةَ فيه ؛ ولا مِنَّة ، وهو مضمونٌ على الله بقوله ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[2] فما دام العبد حيًّا لا بدَّ له منِ رزق ؛ إما قوتٌ ، أو كفايةٌ وقوَّة . . كما مرَّ .

أقبح الحرص : **وقيل : كان في الزمن الأوَّل رجلٌ في سفر ومعه قرصٌ ، فقال** : **إن أكلتُه مِتُّ** جوعاً **فوكَّل الله تعالىٰ به ملكاً ، وقال : إن أكله فارزقه** غيره ، **وإن لم يأكله فلا تعطه شيئاً** غيره ، **فلم يزل القرص معه . إلىٰ أن مات** جوعاً ؛ **ولم يأكل** شيئاً **وبقي عنده القرصُ** .

فيه دلالة على التحذير من الحرص على الحاصل ، وأقبح الحرصِ حرصُ العبد على الشيء حتَّى لا ينتفع به في نفسه ؛ فضلاً عن غيره من المحتاجين إليه ؛ كما هنا .

---

(١) الأوَّل : مقامه التسليم ، والثاني : التفويض ، والثالث : مطلق التوكُّل . وهي مرتَّبة في الفضيلة علىٰ هذا الوجه ، فأعلاها الأول ثم الثاني ثم الثالث (عروسي : ٣/ ٦٠) .

(٢) الآية : ٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : هود عليه الصلاة والسلام .

توضيح : **وفائدة هذه الحكاية** : أنَّ الحقَّ تعالى إنَّما ضمن الكفاية للمحتاجين ، وهذا قد أغناه بالقرص فاعتمد عليه ، فقد تسبَّب في إهلاك نفسه بحرصه عليه .

وفيه تنبيهٌ على أنَّ المتوكِّل يكون وثوقُه بما في يد الله أوثقَ مما في يديه .

تحصيل المراد : **وقيل** : **مَن وقع في ميدان التفويض يزفُّ إليه المرادُ** : مراد الله الذي له فيه صلاح ؛ وهو يريدُ كلَّ ما أراده الله ، فما أراده الله فهو مرادُه .. بتوفيق الله له ، فيزفُّ إليه **كما تزفُّ العروس إلى أهلها** .

التفويض والتضييع : **والفرقُ بين التفويض والتضييع** .. **أنَّ التضييع في حقِّ الله تعالىٰ** ؛ بأن يترك العبد ما أَمَره الله به ؛ أو يفعل ما نهاه عنه . **وذلك مذمومٌ** .

والتفويض في حقِّك أيُّها العبد ، لأنَّه إنَّما يكون فيما لم يأمرك الله به ؛ ولم ينهكَ عنه ، بل أباحه لك وخيَّركَ فيه ، فلا تعرفُ مصحلتك فيه ، فتضيفها لمن يعرفها ؛ **وهو محمود** كما عُلِم .

مضيِّع التوكُّل : **وقال عبد الله بن المبارك** : **مَن أخذ فلساً من حرام ؛ فليس بمتوكِّل** مطلقاً ، لأنَّه فوَّت التوكُّل الواجب والمندوب .

يؤدِّب نفسه : **سمعت محمد بن عبد الله الصوفيَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت نصر ابن أبي نصر العطار ؛ يقول : سمعت عليَّ بن محمد المصري ؛ يقول : سمعت أبا سعيد الخراز ؛** يقول : **دخلت البادية مرَّة بغير زاد** على عزم التوكُّل ، **فأصابتني فيها فاقة ؛ فرأيت المرحلة** : القرية **من بعيد** ، **فسُررت بأنِّي قد وصلتُ** : بقرب وصولي إليها ، **ثمَّ فكرت في نفسي أني سكنتُ** فيها **واتكلتُ على غيره تعالىٰ** في تحصيل ما أنا محتاجٌ إليه ؛ فكرهت ذلك ، وعزمتُ على مخالفة نفسي .. **فآليت** : حلفُت **علىٰ أن لا أدخل المرحلة إلاَّ أن أُحَمل إليها** ، **فحفرتُ لنفسي في الرَّمل** حفيرة ، **وواريت جسدي فيها إلىٰ صدري** حتّى أَبعُد عن الاتكال على أهل المرحلة ، **فسمعوا** وهم فيها **صوتاً في نصف الليل عالياً ؛ يقول** : **يا أهل المرحلة ؛ إنَّ لله تعالىٰ وليّاً حبس نفسه في هذا الرَّمْل فألحقوه** ، **فجاءني جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية** ، فقويَ بذلك يقيني وتمكَّن توكُّلي على ربيِّ .

تعلُّم اليقين : وهذا وأمثالُه يفعلون ذلك لتعلُّم اليقين ؛ وهو : أن يغلب على القلب

أنَّ الحقَّ تعالىٰ على كلِّ شيء قديرٌ ، وفيما ذُكر دَلالة على مراعاةِ الوفاء بالعهد مع الله . . فيما عزم عليه العبد من نيل المقامات الرفيعة .

المتوكِّل المدلَّل : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت محمد ابن الحسن المخزوميَّ ؛ يقول : سمعت ابن المالكي ؛ يقول : قال أبو حمزةَ الخراسانيُّ :

حججتُ سنة من السنين ، فبينا أنا أمشي في الطريق . . إذ وقعتُ في بئر ، فنازعتني نفسي أن أستغيث بأحدٍ ؛ فقلت : لا والله ؛ لا أستغيث .

فما استتمتُ هذا الخاطر حتَّى مرَّ برأس البئر رجلانِ ، فقال أحدهما للآخر : تعالَ حتَّى نَسُدَّ رأس هذا البئر ؛ لئلا يقعَ فيها أحد ؛ فأتوا ـ الأَوْلى : فأتيا ـ بقَصَب وباريَّة ؛ وهو ما ينسج من قصب وطَمُّوا ـ الأَوْلىٰ : وطَمَيا . وفي نسخة :ـ رأس البئر فهممت أنْ أصيح ؛ ثمَّ قلتُ في نفسي : أصيحُ ـ وفي نسخة : أشكو ـ إلى مَن هو أقربُ إليَّ منهما . وسكنتُ ـ وفي نسخة : وسكتُّ ـ فبينما أنا بعد ساعة . . إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلىٰ رجله فيها ؛ وكأنه يقول لي : تعلَّق بي في همهمة ـ وفي نسخة : بهَمْهمة ـ له كنتُ أعرف ذلك منه . أي فهمت منها أنَّه يقول : تعلَّق بي . فتعلَّقتُ به ، فأخرجني ؛ فإذا هو سَبُع سخَّره اللهُ لي فمرَّ : جاوزني وهتف بي هاتف ؛ فقال : يا أبا حمزة ؛ أليس هذا أحسن من نجاتك قبل طمِّ رأس البئر ؟! نجَّيْناك بالتلف من التلف !؟ يعني بالمتلِف : السبع ، أو بتلف تغطية البئر . فمشيت وأنا أقول[1] :

نَهَانِي حَيَائِي مِنْكَ ؛ يا الله أَنْ أَكْتُمُ ٱلْهَوَىٰ : الحبّ .

وَأَغْنَيْتَنِي بِٱلْفَهْمِ مِنْكَ عَنِ ٱلْكَشْفِ .

---

(١) نَهَانِي حَيائي مِنْكَ أَنْ أَكْتُمَ ٱلْهَوىٰ ... وَأَغْنَيْتَنـي بِـٱلْفَهْـمِ مِنْـكَ عَـنِ ٱلْكَشْـفِ
تَلَطَّفْتَ فِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتَ شَاهِدِي ... إِلَـىٰ غَـائِبِـي وَٱللُّطْـفُ يُـدْرَكُ بِـٱللُّطْـفِ
تَـرَاءَيْـتَ لِـي بِـٱلْغَيْـبِ حَتَّـىٰ كَـأَنَّمـا ... تُبَشِّـرُنـي فِـي ٱلْغَيْـبِ أَنَّـكَ فِـي ٱلْكَـفِّ
أَرَاكَ وَبِـيْ مِـنْ هَيْبَتِـي لَـكَ وَحْشَـةٌ ... فَتُـؤْنِسُنـي بِـٱللُّطْـفِ مِنْـكَ وَبِـٱلْعَطْـفِ
وَتُحْيِي مُحِبّاً أَنْتَ فِي ٱلْحُبِّ حَتْفُهُ ... وَذَا عَجَـبٌ كَـوْنُ ٱلْحَيَـاةِ مَـعَ ٱلْحَتْـفِ
والأبيات من الطويل .

تَلَطَّفْتَ فِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتَ شَاهِدِيْ : حالي الحاضر .

إِلَى غَائِبِي : الغائب عني وَٱللُّطْفُ يُدْرَكُ بِٱللُّطْفِ .

تَرَاءَيْتَ لِي بِٱلْغَيْبِ حَتَّىٰ كَأَنَّمَا تُبَشِّرُنِي فِي ٱلْغَيْبِ أَنَّكَ فِي ٱلْكَفِّ
أَرَاكَ وَبِي مِنْ هَيْبَتِي لَكَ وَحْشَةٌ فَتُؤْنِسُنِي بِٱللُّطْفِ مِنْكَ وَبِٱلْعَطْفِ
وَتُحْيِي مُحِبًّا لكَ أَنْتَ في ٱلْحُبِّ حَتْفُهُ

وَذَا عَجَبٌ كَوْنُ ٱلْحَيَاةِ مَعَ ٱلْحَتْفِ : الموت .

فالعبدُ لا يعيش مع مولاه حتَّىٰ يموتَ عن أغراض نفسه وهواه .

والغرض من جملة الأبيات : أنَّ الله يُري العبدَ من عجائب قدرته ولطفه ما يغنيه عن فِكْرِه وكَشْفه .

توضيح : ومن الحكاية السابقة : أنَّ المتوكِّل يرى أن الأفعال كلَّها من الله ، فإنَّه المحرِّكُ له والمسكِّن ، وقد كان قادراً على أن يحفظ هذا من الوقعة في البئر ، لكنَّه أوقعه فيها !! ليظهر تحقُّق توكُّله عليه ، ولهذا لم يَصِحْ في البئر حينَ سُدَّ رأسُها ، مع أنَّه كان متمكِّناً من إزالة البارية عن رأسها بلا كُلْفة ؛ إن تعيَّن عليه الطلوع .

رسالة متوكِّل : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعتُ منصور بن عبد الله ؛ يقول : سمعتُ أبا سعدان التَّاهَرْتي ؛ يقول : سمعت حذيفة المرعشي ؛ يقول . . وكان قد خَدَم إبراهيم بن أدهم وصَحِبَه ؛ فقيل له : ما أعجبُ ما رأيت منه ؟ فقال : بقينا في طريق مكَّة أياماً لم نجد طعاماً نأكلُه ، ثمَّ دخلنا الكوفَة . . فأوينا إلى مسجد خراب فنظر إلى إبراهيم بن أدهم ؛ فقال : يا حذيفةُ ؛ أرىٰ بك أثر الجوع !! قلت : هو ما رأىٰ الشيخ . فقال : عليَّ : جئني بدواة وقِرطاس . فجئتُ به ، فكتب في القِرطاس ما يحقِّق مقامَ التوكُّل مع تعاطي الأسباب ؛ وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم ،

أنت المقصودُ إليه بكلِّ حال ، والمشارُ إليه بكلِّ معنىٰ .

كما قيل : وَظَنُّونِي مَدَحْتُهُمُ جَمِيْعاً وَأَنْتَ بِمَا مَدَحْتُهُمُ مُرَادِي

أَنَا حَامِدٌ . . أَنَا شَاكِرٌ . . أَنَا ذَاكِرُ . هذه مما أُمر العبد بها .

أَنَا جَائِعٌ . . أَنَا نَائِعٌ : عطشان ، أَنَا عَارِي .

هذه : أضدادُها مما يفتقرُ إليها العبدُ فيأتيه الله بها .

هيَ : الأمور المذكورة سِتَّةٌ وَأَنَا ٱلضَّمِيْنُ لِنِصْفِهَا الأوّلِ بأمرك .

فَكُنْ أَنْتَ ٱلضَّمِيْنَ لِنِصْفِهَا الثاني يَا جَارِي ! : قريباً من المحسنين ، بمعنى كنْ مستمرّاً على ذلك ، وإلاَّ ! فهو تعالى قد ضَمِن لهم ذلك ؛ وأقسم عليه بقوله ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1] ، وقوله ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[2] فمعنى البيت : أنا فعلتُ ما أمرتَني به . . فتفضَّل عليَّ بما ضَمِنْتَه .

مَدْحِيَ لغَيْرِكَ يا الله . . كأنَّه لَهْبُ ـ وفي نسخة : وَهْجُ ـ نَارٍ خُضْتُهَا

فأَجِرْ عُبَيْدَكَ مِنْ دُخِولِ ٱلنَّارِ : من مدح غيرك .

ثم دفع إليَّ إبراهيم الرقعة المكتوبة ؛ وقال : أُخرج ، ولا تعلِّق قلبكَ بغير الله ، وٱدفع الرقعة إلى أوّل مَن يلقاك ؛ فلا يكون لك اختيار في شخص دون آخر .

قال : فخرجتُ ، فأوّل مَن لقيني رجلٌ كان على بغلة ، فأخذ مني الرقعة ؛ وبكىٰ ، وقال : ما فعل صاحب هذه الرقعة ؟ فقلت : في المسجد الفلاني ، فدفع إليَّ البشرىٰ صرَّةً فيها ستُّ مئة دينار ، ثمَّ لقيتُ رجلاً آخر ؛ فقلت له : مَن صاحب هذه البغلة ؟ فقال لي : هو نصرانيٌّ . فجئت إلى إبراهيم بن أدهم فأخبرتُه بالقصَّة ! ! فقال : لا تمسَّها : الصُّرَّة . . فإنَّه يجيء الساعة ! فلما كان بعد ساعة وافىٰ النصرانيُّ بالمجيء ، وأكبَّ على رأس إبراهيمَ بنِ أدهم وأسلم ببركة وقوفه على الرقعة التي كتبها إبراهيم وأرسلها . والله أعلم .

---

(١) الآية : ٢٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الذاريات .

(٢) الآية : ٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : هود عليه الصلاة والسلام .

١٨ ـ باب الشكر

تعريفه : هو فعل ينبىء عن تعظيم المنعِم من حيث إنَّه منعم عن الشاكر ؛ أو غيره .

ويقال : هو الثناءُ على النعم بإنعامه .

مجلاه : ويكون . . ١ـ بالقلب ، و٢ـ اللسان ، و٣ـ الأركان ؛ كما سيأتي مع زيادة .

طلبه والحض عليه : وهو ممدوحٌ ومطلوب ، **قال الله تعالى** ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[١] : توفيقاً ونِعَماً فيزيد شكركم على ذلك ، وقال ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾[٢] ، وقال ﴿ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾[٣] ، وقال ﴿ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ﴾[٤] .

أعجب أمره ﷺ : وحدَّثنا أبو الحسن عليُّ بن أحمد بن عبدان ؛ قال : حدَّثنا أبو الحسن الصفَّار ؛ قال : حدَّثنا الإسقاطي ؛ قال : حدَّثنا منجاب ؛ قال : حدَّثنا يحيى بن يعلىٰ ؛ عن أبي خباب ، عن عطاء ؛ قال : دخلتُ على عائشة رضي الله عنها مع عبيد بن عميرٍ ؛ فقلتُ ـ وفي نسخة : فقال لها عبيد بن عمير ـ: **أخبرينا بأعجب ما رأيتِ من رسول الله ﷺ !! فبكت وقالت : وأيُّ شيءٍ من شأنه لم يكن عجباً ؟! بمعنى أعجبَ ، فإنَّ كلاًّ من شؤونه إذا علمتَ به قلتَ (إنَّه أعجبُ من غيره) . . إنَّه أتاني في ليلة ؛ فدخل معي في فراشي ـ أو قالت : في لحافي ـ حتى مسَّ جلدُهُ جلدي ، ثم قال : « يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ ؛ ذَرِينِي ـ اتركيني ـ أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي » . قالت : قلتُ (إنيِّ أُحبُّ قُربَك مني)، ثم وافقتُه في مطلوبه . . فأذنتُ له فيه ، فقامَ إلى**

---

(١) الآية : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

(٢) الآية : ١٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : سبأ .

(٣) الآية : ١٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : لقمان .

(٤) الآية : ١٥ ؛ من السورة التي ذكر فيها : سبأ .

قِربةٍ من ماء فتوضَّأَ منه فأكثرَ صبَّ الماء على أعضائه ؛ فأحسنَ وضوءه . ثم قام يصلِّي . . فبكى وهو قائم حتَّى سالت دموعه على صدره ، ثمَّ ركع . . فبكىٰ وهو راكع ، ثمَّ سجد ـ القياس : ثم رفع رأسه . . فبكى ، ثم سجد ـ فبكى ، ثم رفع رأسه . . فبكى ، فلم يزل كذلك حتَّى جاءَ بلالٌ فآذنه ـ بالمدِّ : أعلمه ـ بالصلاة . فقلتُ له : يا رسول الله ؛ ما يبكيك . . وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر ؟!! . قال : « أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً !! وَلِمَ لاَ أَفْعَلُ ـ: أبكي ـ وَقَدْ أَنْزَلَ ٱللهُ عَلَيَّ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ »[1] .

حقيقة الشكر : وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق : **الاعترافُ بنعمة المنعِم على وجه الخضوع** ؛ أي الاستكانة والتذلُّل ، وهذا سببٌ للشكر . . لا نفسه ، لما مرَّ .

وصفه تعالى : **وعلى هذا القولِ يوصف الحقُّ سبحانه بأنَّه شكورٌ ؛ توسُّعاً** ـ وفي نسخة : فوصف الحقِّ سبحانه بأنَّه شكورٌ توسُّع ـ **لا حقيقة** لانتفاء ما ذُكر في حَقِّه .

معنىٰ ذلك : ومعناه في حقِّه : **أنّه يجازي العباد على الشُّكر : يثيبُهم عليه** . . **فسُمِّي جزاءُ الشكر** « **شكراً** » ، كما قال تعالى ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَاۖ﴾[2] ، إذا مجازاته تعالى حقٌّ لا سيئة ، وأما على ما مرَّ . . فاللهُ تعالى شكورٌ بمعنى أنَّه يثني على عباده الصالحين كما سيأتي ، وإن كان أصلُ الكلِّ منه تعالى ، فمِن كمال فضله أنَّه يبتدىء بالإحسان ، ويثني على فاعله .

شكره تعالىٰ : **وقيل** : شكرهُ تعالى **إعطاؤه الكثيرَ من الثواب على العمل اليسير** ؛ **من قولهم** (دابة شكورٌ) . . إذا أظهرت من السِّمَن فوق ما تُعطَىٰ من العَلَف . قال الجوهريُّ رحمه الله : الشكور مِن الدوابِّ : ما يكفيه العلف القليل .

محتمل آخر : **ويحتمل أن يقال** : **حقيقةُ الشكر الثناءُ على المحسِن بذكر إحسانه إليه** ، **فشكر العبد لله ثناؤه عليه بذكره إحسانه إليه** ، **وشكرُ الحقِّ سبحانه للعبد ثناؤه عليه بذكر إحسانه** : طاعته له تعالىٰ ، كما بيَّن ذلك بقوله :

---

(١) أخرجه البخاري : ٤٨٣٦ ، ومسلم : ٢٨٢٠ ؛ مختصراً عن عائشة رضي الله عنها وعن أبويها وهو عن المغيرة وغيره .
والآية : ١٩٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : آل عمران .

(٢) الآية : ٤٠ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الشورىٰ .

وجوهه : ثمَّ إنَّ إحسان العبد لله طاعتُه لله سبحانه ، وإحسان الحق سبحانه للعبد إنعامه علىٰ العبد بالتوفيق للشُّكر له .

وشكر العبد على الحقيقة إنَّما هو نطقُ اللسان ـ وفي نسخة : القلب ، وفي أخرى : العبد ـ وإقرار القلب بإنعام الربِّ تعالىٰ وخضوعٌ بالأركان . .

أقسامه : والشكر من حيث هو ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام :

١ـ لسانيٌّ : شكر باللسان ؛ وهو : اعترافُه بالنعمة بنعتِ الاستكانة والخضوع .

٢ـ بدنيٌّ : وشكرٌ بالبدن والأركان ؛ هو : اتِّصاف العبد بالوفاء والخدمة للمشكور .

٣ـ قلبيٌّ : وشكر بالقلب ؛ وهو : اعتكاف منه على بساط الشهود : حضور الفضل ورؤيته بإدامة حفظ الحرمة . وحقيقة الشكر . . إنما تحصلُ . . بالثلاثة عندالإمكان .

شكر الصالحين : ويقال : الشكرُ بالنسبة إلى مقامات الصالحين ثلاثة :

١ـ العالمين : شكرٌ . . هو شكرُ العالمين ؛ يكون من جملة أقوالهم . لأنَّهم لا علم عندهم إلاَّ بالشكر باللسان ، فشكرهم إنَّما يكون بالنطق به .

٢ـ العابدين : وشكر . . هو نعت العابدين ؛ يكون نوعاً من أفعالهم : طاعتهم .

٣ـ العارفين : وشكر . . هو شكرُ العارفين ؛ يكون باستقامتهم له عموم أحوالهم . وهؤلاء انتقلوا عن أعمال الجوارح إلىٰ أحوال القلوب .

سبب الشكر : وقال أبو بكر الوراقُ : شكرُ النعمة مشاهدةُ المِنَّة : معرفتها ، وحفظُ الحرمة : معرفةُ قدرها ومنزلتها . وهذا سبب للشكر ؛ لا نفسه .

طفيلية الشاكر : وقال حمدون القصَّار : شكرُ النِّعمة أن ترىٰ نفسك فيه طُفَيْلياً ؛ بأن تضيف النعمة إلى فاعلها ، وتتبرَّأَ من إضافتها إليك ، وهذا قد يرجع إلى الاعتراف بالنعمة وإضافتها للمنعِم .

علة الشكر : وقال الجنيد رحمه الله : الشكر من غالب الناس فيه علَّة ، لأنَّه : الشاكر طالبٌ لنفسه المزيدَ المذكورَ في قوله تعالىٰ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ، فهو واقفٌ مع الله سبحانه على حظِّ نفسه . . من طلب الزيادة .

العجز عنه : وقال أبو عثمان : الشُّكر معرفة العجزِ عن الشكر ، لأنَّ مَن رأىٰ شكره نعمةً عليه . . أمره بالشكر عليها، وشكرهُ الثاني نعمةٌ . . فيؤمَر بالشكر عليها . . وهكذا . فيتسلسل . أو يقطعه عن الشكر الموتُ ؛ فيعجز عنه بكلِّ حال ! !
وهذا نحو قولِ الصدِّيق رضي الله عنه (العجزُ عن دَرْك الإدراك إدراكٌ) .

أتمُّه : ويقال : الشكر على الشكر أتمُّ من الشكرالمطلِق لتكرُّره بلا نهاية . . وذلك بأنْ ترىٰ شكرك بتوفيقه تعالىٰ ، ويكون ذلك التوفيق من أجَلِّ : أعظمِ النعم عليك ، فتشكره على الشكر ، ثمَّ تشكره على شكرِ الشُّكر إلى ما لا يتناهىٰ .
ولا قدرة لك عليه !

حقيقته : وقيل : الشكر إضافة المنعم إلى موليها ؛ بنعت الاستكانة والخضوع له ؛ هذا يرجع إلى أنه الاعتراف بنعمة المنعم مع التذلُّل . وتقدَّم أنَّه ليس بشكر .

وقال الجنيد : الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة : لأنَّ من لَمْ يَرَ ذلك . . ورأى أنَّ النعمة فضلٌ منْ الله . . استحيا من الله أن يكون شكرهُ جزاءً عليها ، لأنَّه إذا لاحظ شكرَه نعمةً أخرى . . احتاج إلى شكرٍ ، فهو يتبرَّأُ من أن يكون شاكراً أبداً .

كمال الشكر : وقال رُوَيم : الشكر : كماله استفراغُ الطاقة فيه .

الشاكر والشكور : وقيل : الشاكر هو الذي يشكر على الموجود . والشكور ؛ هو الذي يشكر على المفقود .

ويقال : الشاكر هو الذي يشكر على الرِّفد : العطاء ، لكونه لا يعرف نعمة سواه . والشكور هو الذي يشكر على الردِّ .

ويقال : الشاكر : الذي يشكر على النفع ، والشكور : الذي يشكر على المنع .

ويقال : الشاكر : الذي يشكر على العطاء ، والشكور : الذي يشكر على البلاء .

ويقال : الشاكر : الذي يشكر عند البذل، والشكور: الذي يشكر عند المطل. وكلُّها متقاربة ! وسمِّي الأوَّل في كلٍّ منها « شاكراً » !! لكونه لا يعرف نعمةً إلاَّ العطاء ، والثاني « شكوراً » !! لأنَّه رأىٰ زيادة على ذلك ؛ حيث رأىٰ البلاءَ . . والمنعَ . . والمطلَ نعماً؛ لكونها مختارة لله العالِم بمصالحه .

حكمة طفل : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ يقول : سمعت الأستاذ أبا سهل الصعلوكيَّ ؛ يقول : سمعت المرتعش ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : كنتُ بين يدي السريِّ السَّقطي ألعبُ . . وأنا ابنُ سبع سنين ، وبين يديه جماعةٌ يتكلَّمون في الشكر ؛ فقال لي : يا غلام ؛ ما الشكر ؟ فقلتُ : أن لا تعصيَ الله بنعمه . هذا ببركة دعاء السريِّ له أن يسدِّدَه الله . فقال : يوشكُ أن يكون حظُّك من الله لسانَك ! قال الجنيد رحمه الله : فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السريُّ ؛ خوفاً من أن لا يكون لي من الله حظٌّ إلاَّ تسديدَ لساني .

مدخل الشكر : وقال الشِّبليُّ : الشُّكر رؤية المنعم . . لا رؤية النعمة . بأن يكون السابق منهما إلى القلب رؤيةُ المنعم ، كما قال بعضُهم (ما رأيتُ شيئاً حتىٰ رأيت اللهَ قبلَه) أي الغالبُ على قلبه رؤيةُ الله ومراقبته .

فأيُّ شيء حَدَث فيه يكون مذكِّراً له رؤية الله ، فإنَّه ذاكرٌ له غيرُ غافل عنه ، وهذا أكملُ مِن قول بعضهم (ما رأيت شيئاً حتّى رأيت الله معه . .) لأنَّ مفاده . . أن رؤية النعم مذكِّرة للمنعم معها ، فيذكر المنعِم مع ذكر النعمة .

من ثمراته : وقيل : الشكر قيْد الموجود : حفظه ، وصيد المفقود الممكن الموعودِ به . . من الزيادة في قوله ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ من توفيقي وطاعتي ؛ وهذا من ثمرات الشكر ؛ لا نفسه .

نعم العامة : وقال أبو عثمان : شكرُ العامَّة يكون على المطعم والملْبَس ونحوهما من النعم الظاهرة ؛ كنعمة الإسلام والعافية ، وتيسير الرزق والنِّيْل والمطر .

نعم الخاصَّة : وشكرُ الخواصِّ يكون على ما يَرِدُ على قلوبهم من المعاني التي يعرفها الفقهاء والأولياء ؛ كمعرفة الأحكام وكصرف الغفلات عن القلوب بالورع والزهد وغيرهما ، وأعلاها معرفةُ الأولياء .

شكر داود : وقيل : قال داود عليه السلام : « إلهي كيف أشكرك ؛ وشكري لك نعمةٌ من عندك !! توجب شكراً ، فأنا عاجزٌ عن شكرك ! فأوحىٰ الله إليه : ﴿ الآن قد شكرتني ﴾ .

شكر موسى : وقيل : قال موسى عليه السلام في مناجاته ربَّه (إلهي ؛ خلقتَ آدم

بيدك ؛ وفعلتَ وفعلت . . فكيف شكرك ؟!) فقال : ﴿ قد علم أنَّ ذلك مني !! فكانت معرفته بذلك شكرَه لي ﴾ . حاصل كلامهما عليهما السلام أنَّ الله أعلمَهُما أنَّ معرفتهما بالعجز عن شكرِ نعمته عليهما غايةٌ في شكره .

الصديق المبتلىٰ : وقيل : كان لبعضهم صديقٌ فابتلي بكَذِب عليه . . أو بغيره ، فحبسه السلطان ، فأرسل إليه : إلى صاحبه بذلك . . فقال له صاحبُه ـ أي : كتب إليه ـ: أشكر الله تعالىٰ ، فإنَّ هذه نعمةٌ ساقها الله إليك . . لك فيها أجر .

فضُرِبَ الرجل ! فكتب إليه ـ أي : إلى صاحبه ـ فقال ـ أي : فكتب إليه ـ أُشكر الله تعالىٰ ، فجيءَ إليه في الحبس بمجوسيٍّ مبطون ، وقُيِّد . . وجُعِلتْ ـ وفي نسخة : وجعل ـ حلقة من قيده على ـ بمعنى : « في » ـ رِجلِ هذا . . وحلقة من رِجلِ هذا على ـ بمعنىٰ : « في » ـ رِجْلِ المجوسيِّ ؛ بحيث لا يمشي أحدُهما إلاَّ بمشي الآخر ، فكان يقومُ المجوسيُّ بسبب بطنِه لبيت الخلاء بالليل مرَّاتٍ ؛ وهذا الصديقُ يحتاج أن يقوم معه . . ويقفَ علىٰ رأسه حتَّى يَفْرُغ من قضاء حاجته ، ثم يرجعا إلى مكانهما . فكتب إلى صاحبه بذلك . . فقال ـ أي : فكتب إليه صاحبه ـ: أُشكرْ الله ، فقال ـ: فكتب إليه ـ: إلى متى تقول (أُشكر الله ! وأيُّ بلاء فوق هذا البلاء !!) فقال له ـ أي : فكتب إليه صاحبه ـ: لو وضع الزُّنَّار الذي في وسطه ؛ وهو علامة الشرك . . في وسطك كما وضع القيد الذي في رِجله في رِجلك . . ماذا كنت تصنع ؟.

إيقاظ : نبَّهه بذلك على أنه ما من بلاء إلاّ وفوقه ما هو أعظم منه من بلايا الدين والدنيا ، وعلىٰ أنَّ ذلك كلَّه بقضاء الله وقَدَره ، وقد سلَّمك الله من بلاء الشكر !! فاشكر الله تعالىٰ على ذلك .

توجيه : وهكذا يداوي الإنسان نفسه ويتدرَّج في معرفة النِّعم ليعظُم شكرهُ ، ويُنعَت بكونه شكوراً ؛ فيعرف نِعَم الدنيا والدين ، ثمَّ ينتقل إلى البلايا فيعرف أنَّها نعمة ؛ باعتبار الأجر عليها ، أو اختيار المولىٰ لها . . بحسب درجة المبتلىٰ ، وقد يستبعد ذلك !! ولا استبعادَ عند التأمُّل ، فإنَّ المريض يفرَح بالدواء الكريهِ لما يرجوه به من العافية ، ويرى تيسير حصول من النعم عليه ، والصانع الذي يتعاطىٰ الأعمال الشاقَّة ؛ كالبناء . . يفرح بتيسيرها ؛ له وإن كانت شاقَّة ، لما

يرجو فيها من الأجرة ، فقد صار الشاقُّ لذيذاً ، لما يترتَّب عليه .

البلاء الأشدُّ : وقيل : **دخل رجلٌ على سهل بن عبد الله ؛ فقال له : إنَّ اللص دخل داري وأخذ متاعي ! فقال له** . . على وجه التذكير له بما فوق ذلك من البلايا : **أُشكر الله تعالىٰ ، لو دخل اللص قلبَك . . وهو الشيطانُ ؛ وأفسد عليك التوحيد . . ماذا كنت تصنع ؟!** .

عرَّفه بذلك نعمة الله عليه فيما صرفه عنه من البلاء الذي هو أعظمُ من بلائه ؛ فإنَّ بلاء الآخرة أشدُّ من بلاء الدنيا .

شكر الأعضاء : وقيل : **شكر العينَيْن أن تستر عيباً تراه بصاحبك ، وشكرُ الأُذنين أن تسترَ عيباً تسمعه فيه** .

تقدَّم أنَّ الشكر يكون بالقلب واللسان وبالأفعال ، وأنَّه بالأفعال الطاعاتُ ؛ وهذا بيانُ شكرِ الأفعال . . بأن يشكر الله على نعمة البصر ؛ فيطيعه به ، وكذلك نعمةُ السمع ، وبقيَّة الأركان .

شكر المحبين : وقيل : **الشكر التلذُّذ من العبد بثنائه على ما لم يستوجبه من عطائه تعالىٰ له** .

توضيح : فيه إشارة إلى حقيقة الشكر بالحال ، وهو زيادةٌ على ما مرّ من أقسام الشكر ، فإنَّ العبد إذا اعترف بالنعمة للمنعِم ؛ وأثنىٰ عليه بها . . كان شاكراً ، وإن لم يلتذَّ بها حينئذٍ ؛ فتلذُّذه بالثناء زيادةٌ على محبَّته ، وفي محبَّة العظيم للمثني عليه ؛ وهذا شكر المحبِّين العارفين .

حضٌّ وتعليم : سمعت السُّلَميَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت الحسن بن يحيى ؛ يقول : سمعت الجنيد ؛ يقول : **كان السريُّ إذا أراد أن ينفعني بشيء يسألُني عنه حتَّى يبيِّنَه لي** ؛ على عادة المشايخ في افتقادهم حالَ المريدين . . هل انتفعوا به ؛ وهل عزمُهم قويٌّ في الاقتداء به !؟. **فقال لي يوماً : يا أبا القاسم ؛ إيش الشكر ؟ فقلت له : أن لا يُستعان بشيء من نعم الله تعالىٰ على معاصيه . فقال : مِن أين لك هذا ؟! فقلت : مِنْ مجالَسَتك . فسررت بذلك** .

توضيح : ويؤخذ مما ذكر أن الشيخ إذا علم حال المريد ، وأنَّه شديد الرغبة في نيل الفوائد منه والاقتداءِ به ؛ يسأله عما ينفعه ، ويخصُّه بفوائده المختصَّة به والنافعة له .

معاملة ربَّانية : وقيل : **التزم الحسن بن عليٍّ الرُّكن ؛ فقال : إلهي نعَّمتني . . فلم تجدني شاكراً ، وابتليتني . . فلم تجدني صابراً !!** .

ضمَّن ذلك كمال الثناء على الله حيث اعترف فيه بالنعمة ، وبالتقصير عن الشكر ، وبأنَّه غير صابر على البلاء ؛ وبأنَّ الله هو الفاعلُ للخير والشرِّ ، ثمَّ اعترف بفضل الله عليه في حالة نقصه ؛ فقال :

فلا أنت سلبتَ النعمة بتركي الشكر ، ولا أدمتَ الشِّدَّة بتركي الصبر ؟! إلهي ؛ ما يكون من الكريم إلاَّ الكرم !! والكرم لا يكون إلاَّ من الكريم[1] .

المكافأة بالشكر : وقيل : **إن قَصُرت يدك عن المكافأة للناس ؛ بأن عجزتَ عنها . . فليُطل لسانك بالشكر** ؛ لأنَّه من الممكنِ ، والشكرُ الكامل عند الإمكان يكون بالقلب واللِّسان والأفعال .

الأعمال العقيمة : وقيل : **أربعة لا ثمرة لأعمالهم : ١ـ مسارَّة الأصمِّ** : مَن يسارره بشيء ، **و٢ـ واضع النعمة عند من لا يشكر المنعم ، و٣ـ الباذر بذره في الأرض السَّبِخة ، و٤ـ المسرج سراجه في الشمس** .

من ثمرات الشكر : وقيل : **لما بُشِّر إدريس عليه السلام بالمغفرة** وامتلأ قلبه سروراً بذلك . . **سأل الله الحياةَ** : إطالتَها . **فقيل له فيه** ـ أي : فقال له مَلَك ـ : **لم سألتَها ؟ فقال : لأشكره فيها ، فإني كنت أعمل قبلَه للمغفرة !! فبسط له الملك جناحه**[2] **وحَمَله عليه إلى السماء الرابعة ؛ أو السادسة ؛ أو السابعة ! وقيل : إلى الجنة** .

وبالجملة لمَّا عزم على هذا الشكر العظيمِ . . سخَّر اللهُ له المَلَك فحمله

---

(١) أفاد الشارح بهذه الزيادة أن الكرم مختصٌّ به تعالىٰ ، لأنّه الكريم علىٰ الحقيقة ، فحينئذ لا ينبغي أن يقصد غيره ، ولا يرجىٰ سواه (عروسي : ٣/ ٧١) .

(٢) في (م) : جناحَيْه !.

إلى مقامٍ شريف كما قال تعالىٰ ﴿ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾[1] ؛ وهو مقيم به .
وهذا من ثمرات الشكر[2] ؛ وفاءً بقوله تعالىٰ ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾[3] .

الحجر الباكي : وقيل : **مرَّ بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بحجر صغير يخرج منه الماءُ الكثير فتعجَّب منه لمخالفته العادة . . فأنطقه الله معه** : مقارناً لتعجُّبه . . **فقال** : **مذ سمعتُ الله تعالىٰ يقول : ﴿ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾[4] . . فأنا أبكي** من خوفه : من خوفي إياه أن يجعلني من تلك الحجارة .

قال الحاكي لذلك : **فدعا ذلك النَّبيُّ أن يُجيرَ اللهُ ذلك الحجر ، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه ﴿ أني قد أجرته من النار ﴾ وعلِم الحجرُ ذلك** .

فمرَّ : جاوزه **ذلك النَّبيُّ** عليه السلام بعدَ علمه بذلك ؛ بناءً على أنَّه لا يبكي ، **فلما عاد إليه بعد مدَّة . . وجد الماء يتفجَّر مثل ذلك التفجُّر الأوَّل** .

فعجب منه أيضاً !! فأنطق الله ذلك الحجر معه بما يأتي في جواب قوله (**فقال له : لِمَ تبكي ثانياً ؛ وقد غفر الله[5] لك بدعائي !!**) . . **فقال : ذلك البُكاءُ كان بكاءَ الحزن والخوف ، وهذا البكاءُ بكاءُ الشكر والسرور** .

توضيح : ومقصود ذلك أنَّ كمال العبد في شكره أن يكون متعبِّداً بشكره متذلِّلاً رائياً زيادةَ فضلِ الله عليه بإلهامه لشكره ، مع نظره إلى نفسه وعدمِ صلاحيَّته لما منَّ به عليه .

---

(١) الآية : ٥٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : مريم رضي الله عنها .
روي عن كعب الأحبار في سبب رفعه أنّه سئل ذات يوم في حاجة ، فأصابه وَهَج الشمس . فقال : يا ربِّ ؛ قد مشيت فيها يوماً فأصابني ما أصابني !! فأشفق علىٰ ملك الشمس ودعا له بالتخفيف عنه ، فلما علم المَلَك أن خفَّ بها بدعوة إدريس . . سأل الله له الخُلَّة فإذن الله له فرفعه إلىٰ السماء (عروسي : ٣/ ٧١ بتصرُّف) .

(٢) بل من ثمرات العزم عليه . والله يختصُّ برحمته من يشاء (عروسي) .

(٣) الآية : ٧ ؛ من السورة التي ذكر فيها : إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

(٤) الآية : ٦ ؛ من السورة التي ذكر فيها : التحريم .

(٥) لا يقتضي ذلك ذنباً ولا معصية ، ولكن المالك يتصرَّف بملكه ما يريد فلا يسال عما يفعل ! والمغفرة في حقِّ الحجر نجاته مما كتبه الله عليه ؛ لا بسابق ذنب والله أعلم .

الشاكر والصابر : وقيل : الشاكر كائن مع المزيد ، لأنَّه في شهود النعمة حضورها ، قال تعالىٰ ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ، والصابر مع الله تعالىٰ ، لأنَّه بشهود المُبْلِي له ، قال الله سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1] .

إيضاح : جرىٰ في كلٍّ من الأمرين على الغالب ، إذ ليس كلُّ شكرٍ لطلبِ المزيد ، فقد يشكر العبد . . ولا يخطر بباله المزيد ، فلا يكون معه !! وليس كلُّ صبر يرىٰ فيه المُبْلِي ، فقد يصبر العبد . . ولا يكون مع الله : ناظراً له في حال بلائه .

وفد الشكر : وقيل : قدم وفدٌ على عمرَ بنِ عبد العزيز رضي الله عنه ؛ وكان فيهم شابٌ فأخذ يخطُب ويتكلَّم ، فقال عمر : الكُبْرَ . . الكُبْرَ : قدِّموا للتظلُّم الأكبرَ فالأكبر . فقال له الشاب : يا أمير المؤمنين ؛ الكُبْر قد يكون بالسنِّ ، وقد يكون بالفضل . والتقدُّم هنا إنَّما هو بالكبر بالفضل ، إذ لو كان الأمر : التقدُّم هنا بالسنِّ . . لكان غيرُك مقدَّماً عليك ، إذ في المسلمين مَن هو أسنُّ منك .

فعرف منه فضله ورفعته على مَن معه . فقال : تكلَّم .

فقال : يا أمير المؤمنن ؛ لسنا وفد الرَّغبة : الطلب لشيءٍ منك ، ولا وفد الرَّهْبة : الخوف من شيء نطلب منك خلاصَهُ . أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلُك ونحن ببلادنا ، وأما الرَّهبة ! فقد آمننا منها عدلُك ، ونحن هناك أيضاً . فقال له أمير المؤمنين : فمن أنتم ! أيْ : أيُّ وفدٍ أنتم ؟! فقال : وفد الشكر ، جئنا نشكرك وننصرفُ على ما نحن عليه من فضلك وأمنِك .

وفائدة ذلك التأكيد في طلب تبليغ الشكر لمن يستحقُّه ، فإذا كان المنعم حاضراً والنِّعمَ متواليةً . . والقلب واللسان صامتٌ عن الشكر . . كان من أقبح القبائح عادةً وشرعاً ، ولذلك أنشدوا[2] :

وِمِنَ ٱلرَّزِيَّةِ : البلية أنَّ شُكْرِيَ صَامِتٌ

عَمَّا فَعَلْتَ من البرِّ وَأَنَّ بِرَّكَ لي نَاطِقُ: ظَاهِرٌ ثمَّ وبخَّ نفسه بقوله :

---

(١) الآية : ١٥٣ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة . وفي (٤٦) من السورة التي ذكر فيها : الأنفال .

(٢) وَمِنَ ٱلرَّزِيَّةِ أَنَّ شُكْرِيَ صَامِتٌ ... عَمَّا فَعَلْتَ وَأَنَّ بِرَّكَ نَاطِقُ
أَأَرَىٰ ٱلصَّنِيْعَةَ مِنْكَ ثُمَّ أُسِرُّهَا ... إِنِّي إِذاً لِيَدِ ٱلكَرِيمِ لَسَارِقُ

أَأَرَىٰ ٱلصَّنِيعَةَ لي مِنْكَ ثُمَّ أُسِرُّهَا : أخفيها .

إنِّي داً لِيَدِ ٱلكَرِيْمِ : لِنِعمَتِهِ لَسَارِقُ .

فجعل إخفاءَه النِّعم سرقةً ، وذلك مذموم ، فإنَّه تعالى إذا أنعم على عبد بنعمة أحبَّ أن يُظْهِرَها .

وقيل : أوحىٰ الله تعالىٰ إلى موسى عليه السلام : ﴿ اِرْحَمْ عِبَادِيَ : ٱلمبْتَلَىٰ وَٱلْمُعَافَىٰ ﴾ . فقال : « مَا بَالُ ٱلمَعافَىٰ » : لِمَ أرحمُهم !؟ . فقال : ﴿ لقِلَّةِ شُكْرِهِمْ عَلَىٰ عَافِيَتِي إِيَّاهُمْ ﴾ .

توضيح : فالتارك للشكر محرومٌ ؛ فَيُرحَمُ على ما فاته من الشكر لنعمة العافية ، ومن الزيادة الموعود بها عليه ؛ وجمع ضمير (المعافَىٰ) باعتبار الجنس الصادق بالجمع .

الحمد والشكر : وقيل : **الحمد** وهو : الثناء على الله بذكر صفاته الجميلة وأفعاله الحسنة . . يكون على الأنفاس الصالحة ، **والشُّكر** يكون على نِعَم الحواسِّ ؛ وهي تَبعَ للقلوب ، فالحمدُ أفضل من الشُّكر ، لأنَّه جعل على أعظم النِّعَم ، وهي الأنفاس الصالحة ؛ وهي من أعمال القلوب .

الحمد والشكر : وقيل : **الحمد** سببه ابتداء منه تعالىٰ بأن تحمده علىٰ ما تفضَّل به عليك بغير سبب منك ، **والشكر** افتداء منك به بأن تجعله جزاءً لنعمته عليك ، فمن أُحسن إليه . . ينبغي له أن يحسن ؛ وإن كان الجميعُ من فضله وإحسانه .

الحمَّادون : وفي الخبر الصحيح : « أَوَّلُ مَنْ يُدْعَىٰ إِلَىٰ ٱلجَنَّةِ ٱلحَمَّادُونَ للهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ »[1] . لكثرة خيرهم وطاعتهم ، لأنَّهم يرون أنَّ جميع ما هم فيه نعمةٌ . . وافق غرضهم ؛ أم لا ، ومَن هذه صفتُه هو الذي يَحمد اللهَ على كلِّ حال .

البلاء والعطاء : وقيل : **الحمدُ لله يكون على ما دفع من البلاء** ، **والشكر له يكون**

---

(١) أخرجه الحاكم : ١/ ٥٠٢ وصححه علىٰ شرط مسلم وأقرَّه الذهبي ، والطبراني في «الكبير» : ١٢٣٤٥ ؛ و« الأوسط » و« الصغير » : ١/ ١٠٣ بلفظ « . . . الحَمَّادُونَ ٱلَّذِيْنَ يَحْمَدُونَ ٱللهَ عَلَىٰ ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ » ، والبغوي في « شرح السنة » : ١٢٧٠ والبيهقي في « الشعب » .

على ما صنع من نعم العطاء . ففيه إشارة إلى أنَّ نعمةَ البلاء أفضلُ من نعمة العطاء ، لما مرَّ . . من أنَّ الحمدَ أفضلُ من الشكر .

عروسا الشكر : وحُكي عن بعضهم أنَّه قال : رأيتُ في بعض الأسفار شيخاً كبيراً . . قد طعن في السنِّ ، عنده عجوز ، فسألتُه عن حاله ؛ فقال : إنِّي كنتُ في ابتداء عمري أهوىٰ : أحبُّ ابنة عمٍّ لي وهي كذلك كانت تهواني ، فاتَّفق أنَّها زُوِّجت مني ، فليلةَ زفافِها ـ وفي نسخة : فلما زُفَّت إليَّ بالليل ـ **قلنا** : قال كلٌّ منا لصاحبه : **تعال حتَّى نُحييَ هذه الليلة شكراً لله تعالىٰ على ما جمعنا** ! . أي : على اجتماعنا على وجهٍ حلال ، **فصليَّنا تلك الليلة ، ولم يتفرَّغْ أحدُنا إلى** صاحبه لينال شهوته منه ، **فلما كانت الليلةُ الثانية . . قلنا مثل ذلك** مع زيادة أي : قال كلٌّ منّا لصاحبه : تعالَ حتَّى نحيي هذه الليلة شكراً لله على ما منَّ علينا به من الاجتماع ، وما وفَّقنا له من الشكر ! وصلَّينا تلك الليلة أيضاً ؛ ودمنا على ذلك ، **فمنذ سبعين ؛ أو ثمانين سنة نحنُ على تلك الصفة** ـ وفي نسخة : الحالة ـ **كلَّ ليلة** . ثم قال هو لها : **أليس الأمر كذلك يا فلانة** !؟ **قالت له العجوز** : **الأمر كما يقول الشيخ** .

تعقيب : وهذا يكون حالُ من عرف مقدار النِّعم ، ورغب في تواليها عليه ، فشكرها بالقلب والفعل واللسان .

وفائدة ذكر العجوز والشيخ ! الإعلامُ بأنَّهما داما على الاشتغال بالله تعالى مِن حالة الصبا إلى تلك الحالة[1] .

* * *

* *

*

(١) وفيه أيضاً أنها كانا علىٰ محبَّة وهوىً .

١٩ ـ باب اليقين

مصدره : هو راجعٌ إلى توالي العلم بالمعلوم حتَّى يغلب على القلب ؛ كالعلم الضروري[١] .

سببه : وسببه النظر في مخلوقاته تعالىٰ الدالَّة على وجوده وكمال صفاته .

الثناء عليه : وهو ممدوح ومطلوب ، قال الله تعالىٰ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[٢] . ورُوي في الخبر : « تَعَلَّمُوا ٱليَقِيْنَ فَإِنِّي أَتَعَلَّمُهُ »[٣] .

تحقُّق الفاعل : حدَّثنا الأستاذ الإمام أبو بكر محمد بن الحسن بن فُوْرَك رحمه الله تعالىٰ ؛ قال : أخبرنا أبو بكر أحمدُ بن محمود بن خرزاذ الأهوازيُّ بها ؛ قال : حدَّثنا أحمد بن سهل بن أيوب ؛ قال : حدَّثنا خالد . . يعني : ابن يزيد ؛ قال : حدَّثنا سفيان الثوريُّ ، وشريك بن عبد الله ، وسفيان بن عينية ؛ عن سليمان التيمي ؛ عن خيثمة ؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ عن النبي ﷺ أنَّه قال : « لاَ تُرْضِيَنَّ أَحَداً بِسَخَطِ ٱللهِ تَعَالَىٰ . . بأن تفعل معهم شيئاً يُسْخِط الله عليك ، فإنَّ الله يُسخِطُهم أيضاً عليك .

وَلاَ تَحْمَدَنَّ أَحَداً عَلَىٰ فَضْلِ ٱللهِ عَزَّ وجَلَّ . لأنَّه المتفضِّل لا غيره ، وهذا لا ينافي خبر : « مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ ٱللهَ »[٤] !! فتأمَّل .

---

(١) اعلم وفَّقنا الله تعالىٰ أن اليقين شعبة من الإيمان ؛ لأنه يجمعه والمعرفةَ والصدق والإخلاص . . . وغيرها من أحوال القلب ، فاليقين جزم القلب بالمعلومات الغيبية التي جاءت علىٰ ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام بسبب توالي العلم بالمعلوم ، فيستدلُّ بها علىٰ الصانع الأكبر ؛ دلالة الأثر علىٰ المؤثِّر. (عروسي : ٣/ ٧٤ ؛ بتصرف) .

(٢) الآية : ٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : البقرة .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » ؛ عن ثور بن يزيد مرسلاً . بزيادة في وسطه « . . . كَما تَعَلَّمُوا ٱلقُرْآنَ حَتّىٰ تَعْرِفُوهُ . . فَإِنِّي . . » .

(٤) أخرجه أحمد : ٣/ ٣٢ ، والترمذي : ١٩٥٥ . . وقال : حسن صحيح ، والطبراني في « الأوسط » ، والضياء في « المختارة » ؛ عن أبي سعيد . وأحمد أيضاً : ٢/ ٢٥٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وَلاَ تَذُمَّنَّ أَحَداً عَلَىٰ مَا لَمْ يُؤْتِكَ ٱللَّهُ ، فَإِنَّ رِزْقَ الله لاَ يَسُوقُهُ إليك حِرْصُ حَرِيْصٍ ، وَلاَ يَرُدُّهُ عَنْكَ كَرَاهَةُ كَارِهٍ ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بِعَدْلِهِ وَقِسْطِهِ . . جَعَلَ ٱلرَّوْحَ : الراحة وَٱلفَرَحَ فِي ٱلرِّضَا وَٱليَقِيْنِ ، وَجَعَلَ ٱلهَمَّ وٱلحُزْنَ فِي الشَّكِّ والمراد به مطلق التردُّد وَفي ٱلسَّخَطِ »[1] .

أثر اليقين : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمان السُّلَمي رحمه الله ؛ قال : أخبرنا أبو جعفر محمد ابن أحمد بن سعيد الرازي ؛ قال : حدَّثنا عياش بن حمزة ؛ قال : حدَّثنا أحمد ابن أبي الحواري ؛ قال : قال أبو عبد الله الأنطاكيُّ : **إنَّ أقلَّ اليقين إذا وصل إلى القلب يملأُ القلب نوراً** : يصير القلب به على بصيرة من الأمور ؛ بحيث يصير به المعلوم مشاهداً ، أو كالمشاهد . . بارتفاع الحجب الجسمانية وامتناع العلائق الطبيعية . **وينفي عنه كلَّ ريب** : شكٍّ بالمعنى السابق ، **ويمتلىءُ القلبُ به** ـ أي : بما ذكر من نور الكشف ونفي الرَّيب ـ **شكراً** لما هو فيه من النعم ، **ويمتلىء من الله خوفاً** من سقوطه عن منزلته ، ومن عظمة الله تعالى .

العلم واليقين : **ويحكىٰ عن أبي جعفر الحدَّاد أنَّه قال : رآني أبو تراب النخشبيُّ** . . **وأنا في البادية جالسٌ على بِرْكةِ ماء ؛ ولي ستَّةَ عشر يوماً لم آكل ؛ ولم أشربْ** ! **فقال لي : ما جلوسك ؟** : ما سببه ؟ . **فقلت له : أنا بين العلم واليقين أنتظر ما يغلب عليَّ منهما** . . **فأكونَ معه** . يعني : **إن غلب عليَّ العلمُ شربتُ** ، وإن غلب عليَّ اليقين مررتُ وصبرتُ ، لأنَّ الله قادر على أن يرويَه بلا ماء ، أو يرسل إليه ولياً . . أو ملكاً يسقيه . **فقال لي : سيكون لك شأنٌ** : ارتفاع ، ومِن شأنه مواصلتُه ستة عشر يوماً ولم يأذن لنفسه في الشرب ، بل انتظر ما يفعل الله به . . ليتقوَّى يقينُه بخوارق العادات[2] .

من متعلقاته : **وقال أبو عثمان الحيريُّ : اليقين قلَّة الاهتمام بالمطعَم** ونحوه **لغدٍ** . هذا من جملة اليقين ، وإلاَّ ! فلليقين متعلَّقات كثيرة .

---

(١) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » : ٢٠٤ ، والطبراني في « الكبير » : ١٠٥١٤ ، وأبو نعيم في « الحلية » : ٤/ ١٢١ ـ ٧/ ١٣٠ .

(٢) ينظر في مثله ما مَرَّ ص٥٤٢ عن الواقع في البئر (المتوكِّل المدَلَّل) .

منشأُه : وقال سهل بن عبد الله : اليقين كائن من زيادة الإيمان ؛ ومن تحقيقه .

وقال سهل أيضاً : اليقين شعبةٌ من الإيمان ، وهو دون التصديق ؛ لا بمعنى أصل الإيمان ؛ بأن يكون مؤمناً معتقداً ما يجبُ اعتقاده في الله ورسوله ، بل بمعنىٰ الصِّدِّيقيَّة التي هي أعلىٰ درجاتِ اليقين ؛ بأن يعلم العبدُ حقيقة الإيمان بالبرهان ، ويتوالىٰ عليه حتّىٰ يغلبَ حكمُه على قلبه .

مقرُّه : وقال بعضهم : اليقين هو العلم المستودَع في القلوب . يشير هذا القائل بذلك إلى أنَّه غيرُ مكتَسب . يحتمل أنَّ هذا القائل شبَّه ذلك بالضَّروري . . لأنَّه بتوالي العلم على القلب يصيرُ كالعلم الضروري ، ويحتمل ـ وهو الظاهر ـ أنَّه لا يسمّىٰ موقناً إلاّ من ارتفعت درجته عن العلوم الكسبية والضرورية العادية ؛ بأن أُلهم غرائب وأطلع على سرائر الملك والملكوت .

فيه إشارة إلى أنَّ هذا من أعلى درجات الموقنين .

ابتداء اليقين : وقال سهل رحمه الله تعالى : ابتداءُ اليقين مكاشفةٌ . ولذلك قال بعض السَّلف ؛ هو عامر بن عبد قيس ـ كما سيأتي ص٥٦٣ ـ: لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ عن أحوال الآخرة ؛ من الحشر والنشر ، والوقوف بين يدي الله تعالى ، وغيرها . . ماازددت فيها يقيناً ، ليقيني بها ، فعبَّر عن حالته التي هو عليها مِن غلبة أحوال الآخرة على قلبه باليقين ؛ وأخبر أنَّه لو عاين ذلك ما ازداد يقيناً لتحقُّقه له .

طبقات اليقين : ثمَّ بعد المكاشفة المعاينةُ والمشاهدة ، فالمكاشفةُ دونَهما ، وهما في رتبة واحدة . وقيل : المعاينة فوقَ المشاهدة، لأنَّ المشاهِدَ هو الحاضر ، والمعاين هو الناظر . وقيل : المكاشفة فوق المشاهدة ! ورُدَّ بأنَّ المشاهدة تقتضي الكشف التامَّ ، والمكاشفة قد تكون من وراء حجاب رقيق .

معنى اليقين: وقال أبو عبد الله ابن خفيف : اليقينُ تحقُّق الأسرارَ : تحقق العبد الأسرارَ المتعلِّقة بأحكام المغيَّبات التي أخبر عنها الأنبياء والأولياء ووقعت ، والمراد بتحقُّق ذلك : غلبةُ حكمِه على القلب .

العلم واليقين : وقال أبو بكر ابن طاهر : العلمُ كائن بمعارضة الشكوك : الأخذ في تحصيله يعارضه الشك ، واليقين لا شكَّ فيه . أشار إلى العلم الكسبي ،

وما يجري مجرى البديهي باعتبار ظهور المعلوم وخفائه .

علوم القوم : وكذلك علوم القوم الوهبيّة في الابتداء كسبيٌّ ؛ وفي الانتهاء بديهي : كالبديهي ، لأنَّها في أوائلها ترِدُ على القلب بلا توالٍ ، فإذا توالت عليه صار المعلوم كأنَّه مشاهدٌ ؛ كما قال بعضُهم : ما رأيت شيئاً حتّى رأيتُ اللهَ قبله ؛ يعني : أنَّ علمه بالله متوالٍ على قلبه ، فلا يخطُر له ذكرُ غيره إلاَّ بعد ذكره ؛ فيكون ذكره متوالياً ، وذكرُ غيره من سائر الكائنات يطرأ ويزول .

ترتيب المقامات : سمعت محمد بن الحسين ؛ يقول : **قال بعضهم** : **أوّل المقامات** : درجاتِ الإيمان المعرفةُ بالله بالنظر والفكر ، **ثمَّ اليقينُ** المستغنئ عنهما بوضوح المطلوب منها ، **ثمَّ التصديقُ**بما أخبر به الأنبياء عن الله تعالى ، **ثمَّ الإخلاص** لله في العمل ، **ثمَّ الشهادة** : الإقرار باللسان شكراً ، **ثمَّ الطَّاعة** لله بالاشتغال بأفعالها ـ على ما يأتي بيان ذلك كله ـ.

أول الواجبات المعرفةُ : والإيمان اسمٌ يجمع هذا كلَّه ، أشار هذا القائل بذلك إلى أنَّ أوّل الواجبات هو المعرفة بالله سبحانه ، والمعرفةُ لا تحصل إلاَّ بتقديم شرائطها ؛ وهو النظر الصائب وما يتوقفَّ عليه .

حال اليقين : ثم إذا توالت الأدلَّة على القلب وحصل بهـا البيـان ؛ صـار بتوالي الأنوار الحاصلة منها ؛ وحصول الاستبصار كالمستغني عن تأمُّل البرهان ؛ وهو حال اليقين .

تصديق الحق : ثمَّ تصديقُ الحقِّ : تصديق العبد الحقَّ تعالى . . فيما أخبر به عند إصغائه إلى إجابة الأمر الدَّاعي له ، فيما يخبر به عنه من أفعاله سبحانه في المستأنَف : المستقبل، لأنَّ التصديق إنَّما يكون في الإخبار ؛ لا في الإنشاء . .

الإخلاص : ثمَّ الإخلاص فيما يتعقبه : التصديق ، أو فيما يفعله العبد من أداء الأوامر وترك المناهي .

الإجابة : ثم بعد ذلك إظهارُ الإجابة بجميل الشهادة : الإقرار ـ كما مر ـ .

الطاعة : ثمَّ أداءُ الطاعات بالتوحيد : معه فيما أُمر به ، ومع التجَرُّد عما زجر عنه ، وإلىٰ هذا المعنى ـ يعني : المعبَّر عنه بالشهادة ـ أشار الإمام أبو بكر محمد ابن

فُوْرَك رحمه الله ؛ فيما سمعتُه يقول: ذكرُ اللِّسان فضيلةٌ ؛ يفيض عليها القلب : يخرج منه على اللسان ، لأنَّ القلبَ متى امتلأ بشيء نَطَق ببعضه اللسان .

مسكن اليقين : وقال سهل بن عبد الله : حرامٌ على قلب أي : ممنوعٌ أن يشمَّ رائحة اليقين ؛ الكامل بما عند الله ؛ وفيه سكونٌ إلى غير الله تعالىٰ ، لأن القلب متى امتلأ بشيء . . لم يسعْ غيره ، وقد قال الله تعالىٰ ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[1] .

ثمرة اليقين : وقال ذو النون المصريُّ : اليقينُ بزوال الدنيا والإقدام على الله تعالى داعٍ إلى قصر الأمل ، وقصرُ الأمل يدعو إلى الزهد في الدنيا لِقلَّة قدرها ؛ وسرعة زوالها.

ثمرة الزهد : والزهد فيها لمقتضى التفرُّغ لعمل الآخرة يورث الحكمة ؛ التي هي وضع الشيء في محلِّه ، والحكمةُ تورث النظرَ في العواقب : عواقب الأعمال مما يخشى منه ما ينقصها أو يبطلها .

أعلام اليقين : سمعت محمّد بن الحسين ـ رحمه الله ـ؛ يقول : سمعت أبا العبَّاس البغداديَّ ؛ يقول: سمعت محمد بن أحمد بن سهل ؛ يقول : سمعت سعيدَ بن عثمان ؛ يقول : سمعت ذا النون المصريَّ ؛ يقول : ثلاثةٌ من أعلام اليقين :

١ـ قلَّةُ مخالطة الناس في العشرة : معاشرتهم .

و٢ـ تركُ المدح لهم في العطِيَّة وإن أُمِر الآخذ منهم بشكرهم والدعاء لهم ، ولا يلزم منهما المدحُ ، لأنَّهما يحصُلان بنحو « جزاك الله خيراً » ، و« أكرمك الله » ، و« أعاننا على مكافأتك » .

والمدح : ذكرُ المحاسن الذي يقرن غالباً بدخول العجب على الممدوح .

و٣ـ التنزُّه عن ذمِّهم عندالمنع : منعِهم من الإعطاء ، لأنَّ المانعَ في الحقيقة غيرُهم ؛ وهو الله تعالى ، ولا يليقُ الذمُّ بغير الفاعل ، وذمُّ الفاعل هنا يُخشى منه ذمُّ الفاعل حقيقةً .

---

(١) الآية : ٤ ؛ من السورة التي ذكر فيها : الأحزاب .

وبالجملة مَن تيقَّن أنَّ اللهَ هو الرَّزَّاقُ له في سائر أحواله ؛ حصلت له الثلاثة .

أعلام يقين اليقين : **وثلاثةٌ من أعلام يقين اليقين** ؛ وهو أرفع درجات اليقين :
١ـ النظر إلىٰ الله سبحانه في كلِّ شيء ؛ بأن يسبق نظر العبد إليه تعالى في كلِّ ما يُهِمُّه ، **و٢ـ الرجوعُ إليه تعالى في كلِّ** أمرٍ من ضُرٍّ أو بلاءٍ ليكشفه ، **و٣ـ الاستعانةُ به تعالى في كلِّ حال** يرومُه .

اليقين عند الجنيد : **وقال الجنيد** رحمه الله : **اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ، ولا يَحُول ؛ ولا يتغيَّر في القلب** : هو توالي العلم على القلب بحيث يستقرُّ فيه ، فيصير في قلب العبد باستشعاره نظرَ الحقِّ إليه ، ومراقبته له ؛ كالعلم الضروري .

مباشرة اليقين : **وقال ابن عطاء** : **على قَدْر قربهم من التقوى أدركوا ما أدركوا من اليقين** ، كما يشير إليه خبرُ : « مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ الْمُتَقَرِّبُونَ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا ٱفْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ » .

أصل التقوى : **وأصلُ التقوى مباينةُ النهيٰ** ؛ أي : البعد عن المنهيِّ عنه ، **ومباينةُ النهي** : مباينة النفس : البعد عنها وعن شهواتها ، والقيامُ بالمطلوب منها ؛ وإن ثَقُل عليها . **فعلى قَدْر مفارقتهم النفس وشهواتِها وصلوا إلى اليقين** .

أوجه المكاشفة : وقال بعضهم : **اليقين هو المكاشفة ، والمكاشفة على ثلاثة أوجه** :

١ـ مكاشفة حاصلة **بالإخبار** ؛ بأن يعلم غيرُه بمعلومات الله تعالى التي أَخبر بها الله تعالى رسولَه .

و٢ـ مكاشفةٌ حاصلة **بإظهار القدرة** : قدرته تعالى بالدليل ؛ وهو الاطلاع على عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته .

و٣ـ مكاشفةُ القلوب ؛ وهي حاصلة **بحقائق الإيمان** في القلوب ، وهي مكاشفة بكمال الذات والصفات .

فهذه المراتب الثلاث تشملها المكاشفة كما تقرَّر ، فإنَّ اللهَ تعالى كاشَفَ عبده بها ، وأطلعه عليها ، ويختلف باختلاف مراتبِ الخلق ؛ فمنهم مَن يكاشِفُه الله بجميعها ، ومنهم من يخصُّه ببعضها !! وإذا حصلت المكاشفة وتوالت

على القلب حتَّى قَلَّت الغفلةُ عنها سُمِّيت يقيناً .

مراد المكاشفة : **واعلم أنَّ المكاشفة المشهورة في كلامهم عبارةٌ عن ظهور الشيء للقلب باستيلاء ذكره له وغلبته عليه ؛ من غير بقاء للرَّيْبِ** : الشكِّ .

والمراد به مطلقُ التردُّد الشامل للظنِّ .

وربَّما أرادوا بالمكاشفة ما يقرِّب مما يراه الرائي بين اليقظة والنوم ؛ بأن يطرأ عليه سِنَة خفيفة ؛ فيرى فيها أشخاصاً ويسمع منهم كلاماً ، **وكثيراً ما يعبِّر هؤلاء عن هذه الحالة المسَّماة** : بـ « **المكاشفة بالسُّبَاتِ** » : الراحة للأبدان، لأنَّ العبد يزول إحساسه بنفسه ، وتكون كلِّيتُه مع مايراه .

مكاشفة المغربي : **سمعت الإمام أبا بكر ابن فُوْرك ؛ يقول** : **سألت أبا عثمان المغربيَّ ؛ فقلت له** : **ما هذا الذي تقول ؟!** وهو قولك (**قال لي الأشخاص** : **كذا وكذا**) ، و(رأيت أشخاصاً ؛ قالوا لي : كذا وكذا) ؛ **تراهم معاينة ؛ أو مكاشفة ؟! فقال له** : بل **مكاشفة** . دلَّ ذلك على أنَّ إدراك البصر في هذالوقت يبطلُ ؛ ويبقى العبد مشغولاً بالحالة التي هو فيها مع ما يراه .

تمام اليقين : **وقال عامر بن عبد قيس** : **لو كُشِفَ الغطاء ما ازددت يقيناً** ؛ تقدَّم تقريره ص ٥٥٩ .

من معاني اليقين : **وقيل** : **اليقين رؤية العيان بقوة الإيمان الذي محلُّه القلب** ؛ يعني : رؤية اليقين بقوة الإيمان كرؤية العيان بالبصر ، لأنَّ الإيمان إذا توالىٰ على القلب بحيث صار غالباً عليه . . صار ما تضمَّنه من المغيَّبات كالمشاهد بالعين .

وقيل : **اليقين زوال المعارضات له** ، لأنَّ الإيمان متى علب على القلب زال ما يعارضه ، لأنَّ المحلَّ الواحد لا يقبل الضدَّين .

وقال الجنيد رحمه الله : **اليقينُ ارتفاع الرَّيْب** ـ: الشك ـ **في مشهد الغيب** ؛ لأنَّ العبد يشاهد بنور اليقين المغيَّبات مما أخبر به الأنبياء ، أو وهبه له الربُّ ، فيصير مشاهدةُ القلب مشاهدةً غالبة عليه ، مُشغِلةً له عن غيره ، فينتفي كلُّ شكٍّ ، والمراد به مطلق التردّد .

سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدقَّاق رحمه الله ؛ يقول : **في قول النَّبيِّ ﷺ في عيسى ابن مريم عليه السلام** ـ:

« لَوْ ٱزْدَادَ يَقِيْناً لَمَشَىٰ فِي ٱلْهَوَاءِ كَمَا مَشَيْتُ فِيْهِ »[1] . .

قال رحمه الله : أشار بهذا إلىٰ حال نفسه ﷺ ليلة المعراج ، لأنَّ في لطائف المعراج أنَّه ﷺ قال : « رَأَيْتُ ٱلْبُرَاقَ قَدْ بَقِيَ وَاقِفاً مَعَ جِبْرِيْل وَمَشَيْتُ في الهواء ؛ مرتفعاً إلىٰ رفرف ، إلى حيث أراد الله أن يناجيَه فيه . وقال له جبريل : وما منا إلاَّ له مقام معلوم !!

تعقيب : فأشار الأستاذ بذلك إلى ما ذُكر من أنَّ النَّبيَّ ﷺ نال مقاماً أعلىٰ مما ناله عيسى عليه السلام ؛ وهو المشي في الهواء .

توضيح : ومراده ﷺ : أنَّ مشي الموقنين في الهواء لا يستَعظم بفضل الله عليهم .

علامة اليقين : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أحمد بن عليٍّ بن جعفر ؛ يقول: سمعت إبراهيم بن فاتك ؛ يقول : يقول سمعت الجنيد ؛ يقول : سمعت السريَّ ؛ يقول ـ وقد سئل عن اليقين : علامته ـ؛ فقال : اليقين : علامته : سكونُك بقلبك عند جَوَلان الموارد ؛ من تغيُّر الأسباب والأحباب وزوال الحرص والجزع عند خوف فوات . . . . ونحوها في صدرك ، **وتيقُّنك أنَّ حركتك فيها لا تنفعك ، ولا تَرُدُّ عنك مقضياً** من سوءٍ ، بل ذلك مختصٌّ بالله تعالى .

الحضور واليقين : وسمعته أيضاً ؛ يقول: سمعت عبد الله بن علي ؛ يقول : سمعت أبا جعفر الأصبهاني ؛ يقول: سمعت عليَّ بن سهل ؛ يقول : الحضورُ أفضلُ من اليقين ، لأنَّ الحضور وَطَنات[2] ، واليقين خَطَرات ؛ كأنَّه جعل اليقين ابتداءَ الحضور ، والحضورَ دوامَ ذلك ، وكأنَّه جوَّز حصول اليقين خالياً من الحضور ، وأحالَ جواز الحضور بلا يقين ، ولهذا **قال النُّوري : اليقينُ المشاهدة** . . يعني : أنَّ في المشاهدة يقيناً لا شكَّ فيه : فلا تتمُّ المشاهدة إلاَّ بيقين ، **لأنَّه لا يشاهده تعالى من لا يثقُ بما منه** ؛ أي مَن لا يقين عنده بإيمانه ، فمن لا يقينَ له لا مشاهدةَ له .

ملاك القلب : وقال أبو بكر الورَّاق : اليقينُ مَلاك القلب : استيلاؤه عليه بأن يغلب عليه حالُ الإيمان بحيث لم يبقَ فيه متَّسعٌ لغير الموقَن المعلوم .

---

(١) تقدم الحديث ص٢٠٦ ، وقد أخرجه الديلمي : ٥١٣٧ ؛ عن معاذ بن جبل مرفوعاً : بزيادة « وَصَلَّىٰ عَلىٰ ٱلْمَاءِ » .

(٢) من التوطن ، فمقامه متمكن وثابت ؛ كما قال العروسي .

وبه : باليقين كمالُ الإيمان ، ويعبَّر عنه بالحقيقة ، كما قال ﷺ : « لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيْقَةٌ »[1] ؛ فحقيقةُ كلِّ شيءٍ كمالُه ؛ وهو غلبته على القلب .

وباليقين بالله تعالى وبصفاته عُرِف الله تعالى وجلالُه وانفرادُه في سلطانه .

وبالعقل ؛ وهو : غريزةٌ يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات ، ويقال غير ذلك كما بيَّنتهُ في « شرح آداب البحث »[2] عُقِل عن الله تعالى أمرُه ونهيُه ، ووعدُه ووعيده ، وغيرها مما جاء به الكتاب والسنة .

اعتبار اليقين : وقال الجنيد رحمه الله تعالى : قد مشىٰ رجالٌ باليقين على الماء ، ومات بالعطش أفضلُ منهم يقيناً، فلا ملازمة بين خوارق العادات وقوّة اليقين ، فقد يقوىٰ يقينُ العبد بما يخلقه اللهُ له بلا سبب ، وقد تكون خوارق العادات لزيادة اليقين ، وقد يستوي اثنان في اليقين ، ويجري الله خوارق العادات لأحدهما ؛ لطفاً به وعوناً علىٰ مأربه ، أو لنفعِ غيره بها ؛ لا لزيادة اليقين .

الخوَّاص وغلام التيه : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمان السُّلَميَّ رحمه الله ؛ يقول : سمعت الحسين بن يحيى ؛ يقول : سمعت جعفراً ؛ يقول : قال إبراهيم الخوّاص : لقيت غلاماً في التيه : المفازة التي يُتَاهُ فيها ؛ كأنَّه سبيكةُ فِضَّة ، فقلت له : إلىٰ أين تذهبُ يا غلام ؟ فقال : إلى مكَّة . فقلت : بلا زاد ؛ ولا راحلة ؛ ولا نفقة !! فقال لي : يا ضعيف اليقين ؛ الذي يقدرُ على حفظ السماوات والأرض لا يقدر أن يوصِلَني إلىٰ مكَّة بلا عَلاقة !! وهي : ما يُتبلَّغ به من العيش ، قال ذلك لقوَّة يقينه ولُطْف ربِّه به ، وإن كانت السُّنَّةُ حملَ الزاد في السفر ، ولا يدلُّ على ضعف اليقين مطلقاً ، فإنَّ الأنبياء والأئِمَّةَ حَمَلوه في السفر ، لكنَّهم لم يعتمدوا عليه . وإنَّما اعتمدوا علىٰ ربِّهم .

قال إبراهيم : فلما دخلت مكَّة إذا أنا به في الطواف ؛ وهو يقول[3] :

---

(1) عزاه في « كنز العمال » : ١٠٣ إلىٰ ابن عساكر بلفظ : « لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيْقَةٌ ، وَمَا يَبْلُغُ ٱلعَبْدُ حَقِيْقَةَ ٱلإِيْمَانِ حَتَّىٰ . . . » عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(2) انظر تصانيف الشارح عند ترجمته أول الكتاب .

(3) يَـا عَيْـنُ سِحِّـي أَبَـدا ... يَـا نَفْـسُ مُـوتِـي كَمَـدا
وَلاَ تُحِبِّـي أَحَـدا ... إلاَّ ٱلجَلِيْـلَ ٱلصَمَـدَا

يَـا عَيْـنُ سِحِّـي بـالـدمـع أَبَـدَاً   يَـــا نَفْـــسُ مُـــوتِـــي كَمَـــدَا
وَلاَ تُحِبِّـي أَحَـداً محبَّـةَ حقيقـة   إِلاَّ ٱلْجَلِيْـــــلَ ٱلصَّمَـــــدَا

فلما رآني الغلامُ وتفرَّس مني أنِّي متعجِّبٌ منه؛ قال لي: يا شيخ ؛ أنتَ بعدُ على ذلك الضعف من اليقين؟!: الضعف الموجب لسؤاله له عن السفر بلا زاد.

استكمال اليقين : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول: سمعتُ منصور بن عبد الله ؛ يقول: سمعت النَّهرَجوريَّ ؛ يقول : إذا استكمل العبدُ حقائق اليقين . . صار البلاء عنده نعمةً ، والرخاءُ مصيبةً ، فمن استكمل الإيمان وقويَ يقينُه بحسن صنيع الله له عَدَّ البلاء نعمة ؛ لما وعد عليه من الثواب ، وعَدَّ الرَّخاء نقمةً ؛ لما يلزمه فيه من الشكر وخوف الحساب .

أوجه اليقين : وقال أبو بكر الورَّاقُ : اليقين على ثلاثة أوجه :

١ـ يقينُ خبر؛ وهو العلم الحاصل عن خبر الأنبياء بما غاب عن المشاهدة من الجنة والنار وغيرهما ؛ من أحوال يوم القيامة .

و٢ـ يقين دلالة ؛ وهو ما حصل بالنظر الدالِّ على حدوث العالم وقدمِ مُحدِثه ، وكمالِه وكمالِ صفاته .

و٣ـ يقين مشـاهدة ؛ وهو العلـم الذي يخلقُـه الله تعالى في قلـوب أنبيائـه وأوليائه .

معنىً آخر : ويحتمل أن يكون مرادُه باليقين الأوَّلِ علمَ اليقين ؛ لحصوله عن العلم من الخبر ، وبالثاني عينَ اليقين ؛ لإطلاع العبد من نفسه على مدلوله بوضوح الدليل ، وبالثالث حقَّ اليقين ؛ لكون الحقِّ ـ تعالى ـ يُنشِئُه في قلوب المتقين بلا سبب ، ولغَلَبته على قلوبهم .

النخشبي والمتوكِّل: وقال أبو تراب النَّخْشَبي : رأيتُ غلاماً في البادية يمشي بلا زاد ؛ فقلت : إن لم يكن معه يقين ؛ فقد هلك . فقلت : يا غلام ؛ في مثل هذا الموضع تكون بلا زادٍ !!؟ فقال : يا شيخ ؛ اِرفع رأسك وانظر ، هل ترى غير الله : مُلْكاً لغير الله تعالى !! ، ففهمت منه أنَّه قويُّ اليقين بأن مالك الملك هو الذي يدبِّرُه ويحفظه . فقلتُ له : الآن اِذهب حيث شئت .

فهذا إنَّما يكون لمن قويَ يقينُه ؛ ورأىٰ لطفاً من الله عليه به ، فيجري على

عادته مع الله ؛ ولا يكون مغروراً ، بخلاف مَن دخل على التجربة . . لا ينبغي له أن يغرِّر بنفسه ، فإنَّه مخطىءٌ ؛ وإن سَلِم ، لضعف يقينه .

العلم واليقين : سمعت محمد بن الحسين رحمه الله ؛ يقول : سمعت أبا نصر الأصبهانيَّ ؛ يقول : سمعت محمد بن عيسىٰ ؛ يقول : قال أبو سعيد الخرَّازُ : **العلم ما استعملك في الصحَّة** ؛ وهو العلمُ بالأحكام الشرعية . **واليقين ما حملك** ؛ وهو العلم بأنَّه لا فاعلَ إلاَّ اللهُ ، ولا معينَ سواهُ ، ولا يجري عليك إلاَّ ما سَبَقَ لك عنده .

قاتل المسبِّحين : وسمعتُه أيضاً ؛ يقول : سمعت أبا بكر الرازيَّ ؛ يقول : سمعتُ أبا عثمان الأَدَميَّ ؛ يقول : سمعت إبراهيم الخوَّاص ؛ يقول : **طلبتُ المعاش لأكل الحلال فرأيته في اصطياد السمك ؛ فاصطدت السمك ، فيوماً وقعتْ في الشبكة سَمَكة ؛ فأخرجتُها منها ، وطرحت الشبكة في الماء ؛ فوقعت سمكة أخرى فيها ، فرميت بها** : بالشبكة ، وأخرجت منها السمكة .

ثمَّ عدتُ إلى طرح الشبكة في الماء ؛ **فهتف بي هاتف** ؛ فقال : **ألم تجد معاشاً إلاَّ أن تأتي من يَذْكُرنا** ويسبِّحنا ؛ **فتقتلَهم !!؟**

نَزَّل السمكَ منزلة مَن يعقل ؛ فعبَّر عنه بما يعبَّر به عمن يعقل .

قال : فكسرت القَصَبة المتَّصلةَ بالشبكة ، وتركت الاصطياد .

ليس ذلك إنكاراً للاصطياد ، ولا لطلب الحلال ؛ بل عادة الله تعالى أن يؤدِّبَ أولياءه بخواطرَ ينبِّهُهم بها على أنَّهم لا يسكنون إلى غيره تعالى ، فمتى عَلِم تعالى من أحدهم سُكُوناً إلى غيره نَبهه ليرجع إليه ويعتمد عليه ؛ دون الأسباب . والله أعلم .

❊ ❊ ❊

❊ ❊

❊

الفهرس

التقديم

الإهداء
تقريظ الشيخ حسنين محمد مخلوف
تقديم الشيخ عبد الرزاق الحلبي
كلمة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي
تقديم الدكتور محمد عبد اللطيف الفرفور
مقدمة
هذا الكتاب والحاجة إلىٰ نشره
عملي في هذا الكتاب ـ بطاقة شكر
ترجمة المؤلف (القشيري)
ترجمة الشارح (الأنصاري)
ترجمة المحشي (العروسي)

النص

بداية الشارح ، والتعريف بكتابه ٢٦
سند الشارح ، مولد المؤلف ووفاته ٢٧

بداية المتن

الكلام عن الحمد والشكر ٢٨
إيضاح في معنىٰ براعة الاستهلال ٣٢
سبب التأليف ، اختيار الصوفية ٣٤
خصائصهم ، ترتيبهم ٣٥
طبقات الأمة ، رسوم زماننا ٣٦
وصف الحال للصوفية في زمانهم ٣٧
اعتذار عن المستوىٰ الذي وصلوا إليه ٣٨
سبب الرسالة ٣٩

فصل

اعتقاد هذه الطائفة في مسائل (التوحيد) ٤١
حالهم في أصول العقائد ٤٢
ضبط مسلكهم ، توحيد الواحد ٤٣
أول فرض ، حكم المعرفة ٤٤
شهادة المعرفة ومعناها ، التوحيد : الجنيد والبوشنجي ٤٥
لازم الحوادث ، التنزيه المطلق ، استغناؤه ورؤيته تعالىٰ ٤٦ ـ ٤٨
ذو النون . . الجنيد . . ابن خفيف والإيمان ٤٩
نوعا عطائه ، حقيقة الدعوىٰ ، المؤمن الحقيقي ٥٠
رؤيته للمؤمنين ، أشوق القلوب ، امتحان مريد ٥١
أسلم عن بدعة ، الخلق والقدرة ، خالق الجواهر والأعراض ٥٢
المتعنِّي والمتمنِّي ، استجلاب المقامات ، الله والكون ٥٣
اليقين للموحد ، سبق العناية ، فرعون والمعتزلة ٥٤
خواطر التشبيه ، التوحيد بكلمة ٥٥
بين الفعل والذات ، تحرير ذلك ٥٦

أسلم جديداً ، الكلام عن الروح ، اتصاله بخلقه ٥٧
مطلب في معنىٰ معية الله تعالىٰ ٥٩
مطلب في معاني « استوىٰ » ٦٠

فصل

في بيان عقائد الصوفية في مسائل التوحيد ٦٦
صفاته تعالىٰ، مطلب في الإرادة والمشيئة ٦٧

باب

في ذكر مشايخ هذه الطريقة وما يدلُّ من سِيَرهم

تسميتهم ، التصوف مبادئه ، تمهيد ٧٤ ـ ٧٥
١ـ إبراهيم بن أدهم ؛ توبته ، كسبه ، لقاؤه بالخضر ٧٦
مطلب اسم الله الأعظم ٧٧
كلامه ؛ دعاؤه ، حكمه ، أمانته ٧٦ ـ ٧٨
٢ـ ذو النون المصري ؛ من كلامه ، توبته ، مسكن الحكمة ٧٩ ـ ٨٢
٣ـ الفضيل بن عياض ؛ توبته ، كلامه ، ضحكه ٨٣ ـ ٨٥
مطلب في الكلام عن الرياء ٨٤
٤ـ معروف الكرخي ٨٦ ـ ٩٠
مطلب موعظة ابن السمّاك ٨٩
٥ـ السريُّ السقطيُّ ؛ معاني التصوف ، طريق الجنة ، ٩٠ ـ ٩٤
٦ـ بشر الحافي ؛ تزكيات الخضر ، الشافعي ، بشر ، البارُّ بأمِّه ، من حكمه ٩٥ ـ ٩٩
٧ـ الحارث المحاسبي ؛ ورعه ، ماله ، علامته مع الله ١٠١ ـ ١٠٣ .
مطلب أهل الاقتداء خمسة ١٠٢
٨ـ داود الطائي ، من وصاياه ١٠٤ ـ ١٠٧
٩ـ شقيق البلخي ؛ زهده ، ميزانه ، ميزان التقىٰ ١٠٨ ـ ١١١
١٠ـ أبو يزيد البَسطامي ١١٢ ـ ١١٦
١١ـ سهل التستري ، ذكره النافع ١١٧
١٢ـ أبو سليمان الداراني ١٢٠ ـ ١٢٣
١٣ـ حاتم الأصمُّ ١٢٤ ـ ١٢٦
١٤ـ يحيىٰ بن معاذ الرازي ١٢٩
١٥ـ أحمد بن خضرويه ١٣٠
١٦ـ أحمد ابن أبي الحواري ١٣٢
١٧ـ أبو حفص الحدَّاد ١٣٣
١٨ـ أبو تراب النخشبي ١٣٥
١٩ـ أبو محمد ابن خُبَيق ١٣٨
٢٠ـ أحمد بن عاصم الأنطاكي ١٤٠
٢١ـ منصور بن عمار ١٤٢
٢٢ـ حمدون القصار ١٤٤
٢٣ـ أبو القاسم الجنيد ، ١٤٧
٢٤ـ أبو عثمان الحيري ١٥٢
٢٥ـ أبو الحسين النوريُّ ١٥٦
٢٦ـ ابن الجلاَّء . . ١٥٨
٢٧ـ رويم . . ١٦٠
٢٨ـ محمد بن الفضل البلخي . . ١٦٣
٢٩ـ أبو بكر الزقَّاق . . ١٦٥
٣٠ـ عمرو المكِّيُّ . . ١٦٦
٣١ـ سُمنون . . ١٦٨
٣٢ـ أبو عبيد البسري . . ١٧١
٣٣ـ شاه الكرماني . . ١٧٣
٣٤ـ أبو يعقوب الرازي . . ١٧٤
٣٥ـ الحكيم الترمذي . . ١٧٦
٣٦ـ أبو بكر الورّاق . . ١٧٧

٣٧ـ أبو سعيد الخراز . . ١٧٨
٣٨ـ أبو عبد الله المغربي . . ١٨٠
٣٩ـ أبو العباس ابن مسروق . . ١٨١
٤٠ـ أبو الحسن الأصبهاني . . ١٨٣
٤١ـ أبو محمد الجريري . . ١٨٤ ـ ١٨٥
٤٢ـ أبو العبَّاس الأدمي . . ١٨٦ ـ ١٨٧
٤٣ـ إبراهيم الخوَّاص . . محنته ، من حكم ١٨٨
٤٤ـ أبو محمد الخراز . . ١٨٩
٤٥ـ بُنان الحمّال . . ١٩٠
٤٦ـ أبو حمزة البزَّاز . . ١٩٢
٤٧ـ أبو بكر الواسطي . . ١٩٣
٤٨ـ أبو الحسن الصائغ . . ١٩٥
٤٩ـ إبراهيم الرَّقّي . . ١٩٦
٥٠ـ ممشاد الدَّيْنَوري . . ١٩٨
٥١ـ خير النسَّاج . . ١٩٩
٥٢ـ أبو حمزة الخراساني . . ٢٠١ ـ ٢٠٢
٥٣ـ أبو بكر الشبلي . . ٢٠٣
٥٤ـ أبو محمد المرتعش . . ٢٠٥
٥٥ـ أبو علي الرُّوذَباري . . ٢٠٦
٥٦ـ أبو محمد ابن مَنازل . . ٢٠٨
٥٧ـ أبو علي الثقفي . . ٢٠٩
٥٨ـ أبو الخير الأقطع . . ٢١٠
٥٩ـ أبو بكر الكتاني . . ٢١١
٦٠ـ أبو يعقوب النهرجوري . . ٢١٢
تعقيب في قوله ﷺ « أعوذ بك منك » ٢١٣
٦١ـ أبو الحسين المزيِّن . . ٢١٣ ـ ٢١٤
٦٢ـ أبو علي ابن الكاتب . . ٢١٤ ـ ٢١٥
٦٣ـ مظفّر القرمسيني . . ٢١٥
٦٤ـ أبو بكر الأبهري . . ٢١٧
٦٥ـ أبو الحسن بن بُنان . . ٢١٧ ـ ٢١٨
٦٦ـ إبراهيم القرمسيني . . ٢١٨
٦٧ـ أبو بكر ابن يزدانيار . . ٢٢٠
٦٨ـ أبو سعيد ابن الأعرابي . . ٢٢١
٦٩ـ أبو عَمْرو الزُّجاجي . . ٢٢٢
٧٠ـ جعفر ابن نصير . . ٢٢٣
٧١ـ أبو العبَّاس السيّاري . . ٢٢٤
٧٢ـ أبو بكر الدُّقيِّ . . ٢٢٥
٧٣ـ أبو محمد الرازي . . ٢٢٦
٧٤ـ أبو عَمْرو ابن نُجَيد . . ٢٢٧
٧٥ـ أبو الحسن البوشنجي . . ٢٢٨
٧٦ـ أبو عبد الله ابن خفيف . . ٢٢٩
٧٧ـ بندار الشيرازي . . ٢٣١
٧٨ـ أبو بكر الطمستاني . . ٢٣٢
٧٩ـ أبو العبَّاس الدينوري . . ٢٣٣
٨٠ـ أبو عثمان المغربي . . ٢٣٧
٨١ـ أبو القاسم النصرَاباذي . . ٢٣٩
٨٢ـ أبو الحسن الحُصْري : ٢٤٢
٨٣ـ أبو عبد الله الرُّوْذَباري : ٢٤٣

باب

في تفسير ألفاظ تدور بين هذه الطائفة وبيان مشكلها ، والغاية منها ٢٤٨
١ـ الوقت ؛ ٢٤٩
٢ـ المقام ، ٢٥٣
٣ـ الحال ، ٢٥٥
مطلب مهم
في الأغيان الواردة عليه ﷺ ٢٥٨
٤ ؛ ٥ـ القبض والبسط ٢٦٠
٦ ؛ ٧ـ الهيبة والأُنس ٢٦٤
٨ ؛ ٩ ؛ ١٠ـ التواجد والوجد والوجود ٢٦٨

١١ ؛ ١٢ـ الجمع والفرق ٢٧٦
١٣ـ جمع الجمع ٢٧٩
١٤ ؛ ١٥ـ الفناء والبقاء ٢٨٢
١٦ ؛ ١٧ـ الغيبة والحضور ٢٨٧
١٨ ؛ ١٩ـ الصحو والسكر ٢٩١
٢٠ ؛ ٢١ـ الذوق والشرب ٢٩٤
٢٢ ؛ ٢٣ـ المحو والاثبات ٢٩٦
٢٤ ؛ ٢٥ـ الستر والتجلّي ٢٩٨
٢٦ ؛ ٣٠ـ المحاضرة، الكشف ، المكاشفة، المشاهدة ، المعاينة ٣٠١
٣٠ ؛ ٣٢ـ اللوائح ، الطوالع ، اللوامع ٣٠٤
٣٣ ؛ ٣٤ـ البواده ، الهجوم ٣٠٧
٣٥ ؛ ٣٦ـ التلوين ، التمكين ٣٠٨
٣٧ ؛ ٣٨ـ القرب والبعد ٣١٣
٣٩ ؛ ٤٠ ؛ ٤١ـ الشريعة والحقيقة والطريقة ٣١٨
٤٢ـ النفَس ٣٢٠
٤٣ـ الخواطر ٣٢٢
٤٤ ؛ ٤٥ ؛ ٤٦ـ علم وعين وحق اليقين ٣٢٦
٤٧ـ الوارد ٣٢٨
٤٨ـ الشاهد ٣٢٩
٤٩ـ النفَس ٣٣٢
٥٠ـ الروح ٣٣٥
٥١ـ السرّ ٣٣٧

١ـ باب التوبة

فضيلتها ـ معناها ٣٣٩
الحض عليها ، علامتها ، ٣٤٠
رتبتها ، معناها ، شرطها ، ٣٤١
مراتبها ، موصوفها ٣٤٧
معانيها ، بعدها ، مسلكها ٣٤٨
صنوف التائبين ٣٤٩
نوعا التوبة ، دار الذنوب والخطر ٣٥٢
اكتساب التوبة ٣٥٣

٢ـ باب المجاهدة

معناها ، ثمرتها ، أفضل الجهاد ٣٥٦
أثرها ، شرطيتها ٣٥٧
أصول المجاهدة ، عقبات الصالحين ٣٦٠
آفة النفس وعلاجها ٣٦٢
مجاهدة العوام والخواص ٣٦٣

٣ـ باب الخلوة والعزلة

الرغبة فيها ، خير المعايش ٣٦٩
أصحابهما، شرطهما، حقيقتهما، حقُّ العزلة ٣٧٠
آدابها ، حقيقتها ٣٧١
شرط صحة الخلوة ، باعثا الإخلاص والوصول ٣٧٥

٤ـ باب التقوى

معناها ، فضيلتها ، جماع الخير ٣٨٠
مراتب التقوى ٣٨١
حقُّ التقوىٰ ٣٨٢
مرادها ٣٨٣
ظاهر التقوى وباطنه ، ومجلاها وكمالها ٣٨٤
ربح المتقي ، أمثلة التقوى ٣٨٥ ـ ٣٨٧

٥ـ باب الورع

معناه ، أصله ٣٨٩
ورع الصديق ، أعبد الناس ٣٩٠
أهل الورع ، ورع الشبلي ، شدة الورع ٣٩١

الورع والقناعة ٣٩٢
أوجه الورع وثمرته ٣٩٣
قيمة الورع ٣٩٧

٦ـ باب الزهد

معناه ، ثمرته ، الخلاف فيه٤٠٣ ـ ٤٠٤
مـأخـذه ، معنـاه ، مـدلـولـه ، سهـولتـه ،
علامته، معناه ٤٠٥
من ثمرات الزهد ٤٠٧
عَلَم الزهد وأماراته ٤١٠
حقيقة الزهد ٤١٠
أوجه الزهد ٤١٣
الزهد في الناس ٤١٤

٧ـ باب الصمت

اشتقاقه ، فضيلته ٤١٥
النجاة بالصمت ٤١٦
أشرف الخصال ٤١٧
أقصر السلوك ٤١٩
صحة الصمت ، محلُّه ، ثمرته ، حدُّه ،
صمت السرِّ ٤٢٢

٨ ـ باب الخوف

تعريفه ، سببه ، مرادفاته ، رتبته ٤٢٨
متعلَّقه ، معناه ، فرضيته ، مراتبه ٤٣٠
سوط الله ، أنواعه (رهبة خشية) ٤٣١
ثمرة الخوف ، مجلاه ٤٣٣
ما يهيِّج الخوف ٤٣٨
ثمرة الخوف، من معانيه ٤٣٩
خائف الأغيار (غير الله تعالى) ٤٤١

٩ـ باب الرجاء

طلبه ، البشارة به ٤٤٦
كرامة المؤمن ، ثمراته ٤٤٧
معناه ، متعلَّقه ، أنواعه ٤٤٨
مطلبالفرق بين الرجاء والتمني ٤٤٨
من معانيه ، الخوف والرجاء ٤٤٩
علامة الرجاء ، من ثمراته ٤٥٠
مطلبفي ضحكه تعالى ٤٥٢

١٠ـ باب الحزن

تعريفه ، مراتبه ، بلايا المؤمن ٤٦٣
ثمرته ، أصحابه ، مسير الحزين ، العبد
المحبوب ، مسكنه ، القلب العامر ٤٦٤
من معانيه ، حال الحزين ، شفاعة محزون
وتضـرُّعـه ، دوام الحـزن ، ثمـرة الخـوف
والحزن ٤٦٥
دلائله ، رغبة محزون ، كلامهم في الحزن ،
البحث عنه ، ندرته ، حزن البصري ، إمام
الحزن ، أكثر الحسنات ٤٦٦
زكاة العقل ، عمل الحزين ٤٦٧

١١ـ باب الجوع

استحقاق البشرى ٤٦٧
مدحه وطلبه ، قوت النبي ﷺ ٤٦٨
جوع الصوفية ، أدب الجوع ، يفطر للهلال
٤٦٩
سلعة أهل الآخرة ، معدن الجوع والشبع ،
ثمرات الجائعين ، مراده البكاء ٤٧٠
اكتفاء ولي ، بادية وأكلتين ، جوع الطيور ،
مناقض العادة ٤٧١
الرباني والصمداني ، مفاتيح الدارين ، مقدار

الأكل ، خطر الشبع ، جوع البخل ٤٧٢
الأكل والعبادة ، شهوة الحلال ، جزاء الشهوة ، يعاقب نفسه ٤٧٣
مخيف الشيطان ، امتحان صوفي ٤٧٤
مغلوب الشهوة ، الشهوة والحمية ، شهوة باذنجان ٤٧٥
وجبة صوفي ، ثمن شهوة ٤٧٦

١٢ـ باب الخشوع والتواضع

فلاح الخاشعين ، الكبر والجمال ٤٧٧
أخلاق النبي ﷺ، الخشوع والتواضع ٤٧٨
أوّل الدين ، همّة الخاشع والخشوع ، علامات الخشوع ، الخشوع والنظر ، قلب الخاشع وشهواته ، الخشوع والقلب ٤٧٩
مشية الخاشعين ، موضع الخشوع ، شرطه ، من معانيه ٤٨٠
مرآة الخشوع، واضع نفسه، رفعة باتضاع ٤٨١
مسجد أمير ، مآل متكبر ، الجبل المتواضع ، الأمر المتواضع ، خدمة أمير ٤٨٢
أخلاق نبوية ٤٨٣
قرّاء وقرّاء ، التواضع والجنيد . . والفضيل ، من ثمراته ، اصطفاء قلب ٤٨٤
من التواضع ، كماله ، الشرف والحرية ، أعزُّ الخلق ٤٨٥
الأحسن والأسمج ، من التواضع ٤٨٦
هكذا أمرنا ، زهوُ الأمير ، طرِّقوا للأمير ، حلاوة الخدمة ٤٨٧
كبر التواضع ، أنموذج التذلُّل ، شاهد الشبلي ، من التواضع ، سلام أبناء الدنيا ٤٨٨
تكبُّر الوضيع ، تأنيب متكبِّر ، معرفة النفس ٤٨٩
تواضع عمر ، مشية تبختر ، معنى التواضع ٤٩٠
سرور ابن أدهم ٤٩١
كبر الجاهلية ، تواضع الحسن ٤٩٢
تواضع عمر ٤٩٣

١٣ـ باب مخالفة النفس وذكر عيوبها

الحضُّ عليها ، مخوفات النبي ﷺ ٤٩٣
رأس العبادة ، أوّل الطريق ، اجتماع الضدين ٤٩٤
مفتاح العبادة ، علامة الإصابة ، الأدب والنفس ، داعية المهالك ، تهمة النفس ٤٩٥
دواء النفس ٤٩٦
النعمة العظمى ، مقت الله ، مشتهي الرمَّان ٤٩٧
شهوة عدس ٤٩٨
شهوة السريِّ ، آفة العبد ، حقيقة التجريد ٤٩٩
مكافأة المحسن ، ترك الشهوة ، القلوب المحبوبة ، تارك الهوى ، الشهوة والخوف ٥٠٠
ماحي الشهوات ، أنواع النفس ٥٠١

١٤ـ باب الحسد

تعريفه ، حكمه ، معناه ٥٠٢
أصول الخطايا ، عموم بلواه ، جحود الحاسد ، سيادة الحاسد ، الفاحشة الباطنة ، عدوُّ النعمة ، أثر الحسد ، طويل العمر ٥٠٣
حسد الأمير ، ملك الحسد ، إرضاء

الحاسد ، ظلم الحاسد ، الظالم المظلوم ٥٠٤
علامة الحاسد ، أعدل الخلال ، وصايا سليمانية ، جليس العرش ، شأن الحاسد ، تظليل الحاسد ٥٠٥
غيظ الحسود ، مودَّة الحاسد ، انتقام قادر ، أشدُّ الحوادث ، العدواة المتأصِّلة ، الظالم المظلوم ، الفضيلة المنشورة ٥٠٦

١٥ ـ باب الغيبة

تعريفها ، حكمها ، النهي عنها ، شدتها ٥٠٧
أشدُّ الذنوب ، عقاب شهوة ، تأديب وإنكار ، مفرق حسناته ٥٠٨
ذهاب الأعمال ، نقصان النصف ، تأديب حسن ، نقل الأعمال ٥٠٩
اللحميون ، الأحقُّ بحسناته ، حظ المؤمن أحسن التأديب ، يكافئ مغتابه ٥١٠
فاضح نفسه ، مستتيب الجنيد ٥١١
ثمرة الوقيعة ٥١٢

١٦ ـ باب القناعة

تعريفها ، رتبتها ٥١٢
قيمتها ، ثمرتها ، أخلاق وأثمار ٥١٣
حياة القناعة ، مسكنها ، منزلتها ، من تعريفها ، تدبير العاقل ٥١٤
من معانيها ، الرزق الحسن ، مواطن العز والغنى ٥١٥
أقنع الناس ، قانع الزبور ، مواضع المكارم ، الانتقام المحمود ، المستريح المستطيل ٥١٦
البائع الرابح ، طويل الحزن ، أحسن الأيام ، كفاية واحتياج ، مثل القنوع ٥١٧
الواعظ الكفء ، موسى والخضر ، جزاء الطامع ، النعيم والجحيم ، الرقبة الحرَّة ٥١٨
الرجس والطهر ، المقام الفريد ، العذاب الشديد ، طريق الوصول ، ترقية جنيدية ٥١٩

١٧ ـ باب التوكل

تعريفه ، الحض عليه ، حقيقته ٥٢٠
علامة المتوكل ، المتوكلون ٥٢١
ترك التمييز ، أوَّل التوكل ٥٢٢
حقيقة التوكل ، الشاك بالرزق ، محلُّ التوكُّل ، اعقلها وتوكل ٥٢٣
التوكل الصحيح ، صدق المتوكل ، وكالته ، امتحانه ، حقيقته ٥٢٤
شرط التوكُّل ، وسيلة التوكُّل ، أسهل الضرب ٥٢٥
أرقى الحالين ، جمع الهمِّ ، التسليم لله ، كمال التوكل ، لازم التوكل ٥٢٦
أمل المتوكل ، حقيقة التوكل ، بيانه ٥٢٧
حال النبي ﷺ وسنَّته ، من تعريفه ، أمارة التوكُّل ، أعلى مقاماته ، من تعريفه ، يمتحن بالخضر ٥٢٨
قلب المتوكل ، درجات التوكُّل (المتوكل ، المفوِّض ، المسلِّم) الترقي وثمراته ، أمارات التوكل ، الحرفة والحانوت ٥٢٩
تنبيه حسن ، الطعن بالسنة والإيمان ، توكل الجني ٥٣٠
آلات متوكل ، صفات المتوكلين ، صفة العوام ، الخواص وخواصُّهم ٥٣١
الأنبياء والتوكل ، نموذج توكُّل ، الحاج المتوكل ، المتوكل المراقب ٥٣٢

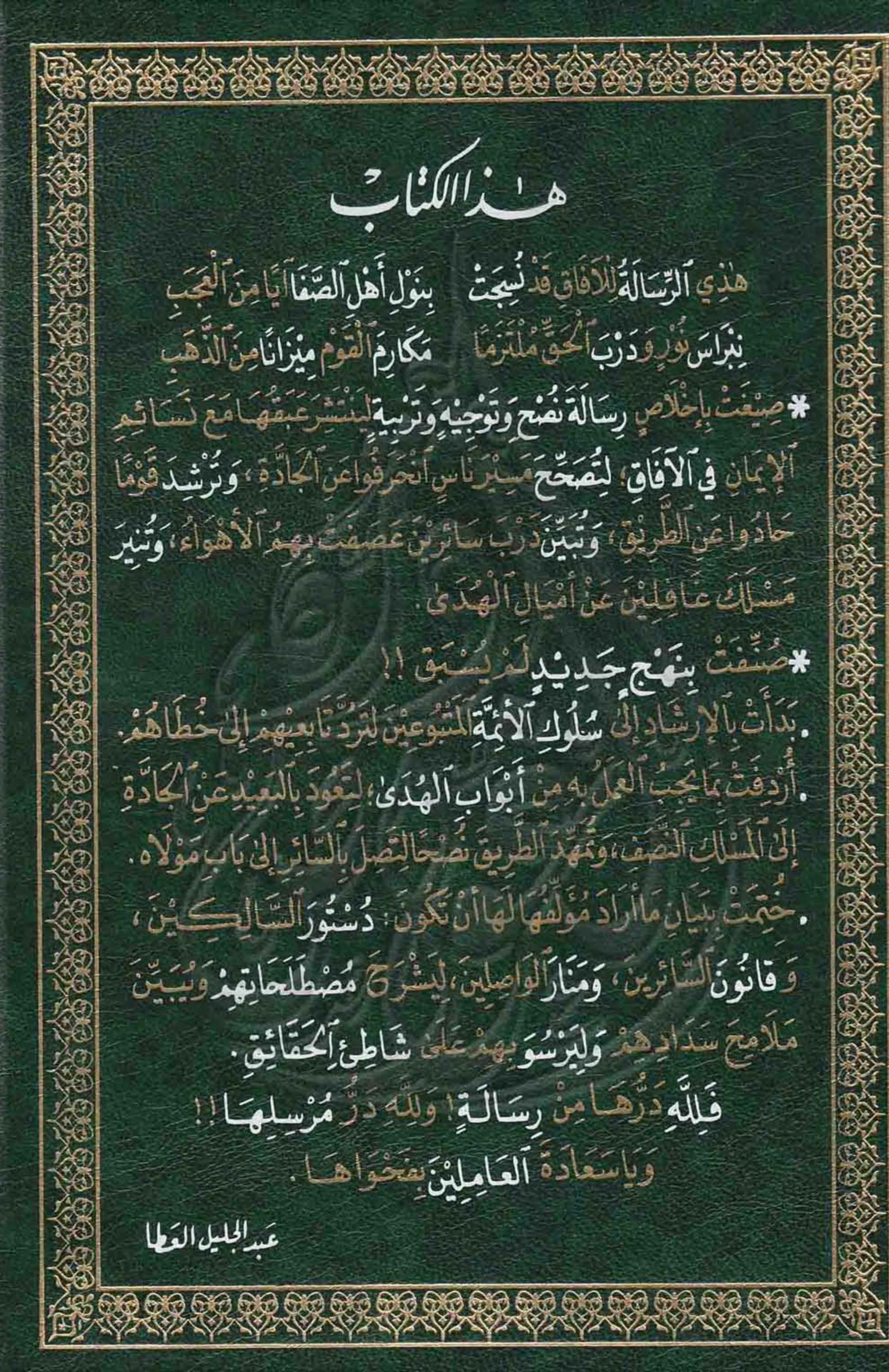
الواصف المدعي ، مأوى المتوكل ، الجيب والغيب ، إنصاف كامل ٥٣٣
توكل حدث ، أقلُّ درجاته ٥٣٤
من معانيه ، محاورة جنيدية ، توضيح الرزق ، الداراني والتوكل ، حيلة الرزق ، سببه ٥٣٥
من ثمراته ، طمع المتوكل ، كفاية النوري ، جوع الفقير ، فشل متصوِّف ٥٣٦
همَّة جائع ، إيضاح وعبرة ٥٣٧
أقبح البخل ، امتحان الحمال ، عنايته بمتوكِّل ٥٣٨
سلامة المتوكل ، حج مشروط ٥٣٩
مراتب الفقراء ، ثقة الكفيل ، أقبح الحرص ٥٤٠
تحصيل المراد ، التفويض والتضييع ، مصنِّع التوكل، يؤدِّبُ نفسه، تعلم اليقين ٥٤١
المتوكل المدلَّل ٥٤٢
رسالة متوكل ٥٤٣

١٨ـ باب الشكر

تعريفه ، مجلاه ، طلبه والحض عليه ، أعجب أمره ﷺ ٥٤٥
حقيقة الشكر ، وصفه تعالى وشكره ٥٤٦
وجوهه ، أقسامه ، شكر الصالحين ، سبب الشكر ، طفيلية الشاكر ، علة الشكر ٥٤٧
العجز عنه ، أتمُّه ، حقيقته ، كمال الشكر ، الشاكر والشكور ٥٤٨
حكمة طفل ، مدخل الشكر ، من ثمراته ، نعم الخاصة والعامة، شكر داود وموسى ٥٤٩
الصديق المبتلى ، إيقاظ وتوجيه ٥٥٠
البلاء الأشدُّ ، شكر الأعضاء ، شكر المحبين ، حضٌّ وتعليم ٥٥١
معاملة ربانية ، المكافأة بالشكر ، الأعمال العقيمة ، من ثمرات الشكر ٥٥٢
الحجر الباكي ٥٥٣
الشاكر والصابر ، وفد الشكر ٥٥٤
استحقاق الرحمة ، الحمد والشكر ، الحمَّادون ، البلاء والعطاء ٥٥٥
عروسا الشكر ٥٥٦

١٩ـ باب اليقين

مصدره ، سببه ، الثناء عليه ، تحقق الفاعل ٥٥٧
أثر اليقين ، العلم واليقين ، من متعلَّقاته ٥٥٨
منشأه ، مقرُّه ، ابتداؤه ، معناه ، طبقاته ، اليقين والعلم ٥٥٩
علوم القوم ، ترتيب المقامات ، أول الواجبات ، حال اليقين ، تصديق الحق ، الإخلاص ، الإجابة ، الطاعة ٥٦٠
مسكن اليقين ، ثمرته ، ثمرة الزهد ، أعلامه ٥٦١
أعلام يقين اليقين ، اليقين عند الجنيد ، مباشرة اليقين ، أصل التقوى ، أوجه المكاشفة ٥٦٢
مراد المكاشفة ، مكاشفة المغربي ، تمام اليقين ، من معانيه ٥٦٣
علامة اليقين ، الحضور واليقين ، ملاك القلب ٥٦٤
اعتبار اليقين ، الخوَّاص وغلام التيه ٥٦٥
استكمال اليقين ، أوجهه ، النخشبي والمتوكل ٥٦٦
العلم واليقين ، قاتل المسبِّحين ٥٦٧



هذا الكتاب

هذي الرِّسالةُ للآفاقِ قد نُسِجتْ ... بِنَوْلِ أهلِ الصَّفا آيًا منَ العَجَبِ

نِبراسَ نُورٍ ودربَ الحقِّ مُلتزِمًا ... مكارِمَ القومِ مِيزانًا منَ الذَّهَبِ

* صِيغَتْ بإخلاصٍ رسالةَ نُصحٍ وتوجيهٍ وتربيةٍ لِيَنْتشرَ عبقُها مع نسائمِ الإيمانِ في الآفاقِ؛ لِتُصحِّحَ مَسيرَ ناسٍ انحرفوا عن الجادَّةِ، وتُرشِدَ قومًا حادُوا عن الطَّريقِ، وتُبيِّنَ دربَ سائرينَ عصفتْ بهمُ الأهواءُ، وتُنيرَ مسلكَ غافلينَ عن أميالِ الهُدى.

* صُنِّفتْ بنهجٍ جديدٍ لم يُسبَقْ!!

. بدأتْ بالإرشادِ إلى سُلوكِ الأئمةِ المتبوعينَ لتردَّ تابعيهِم إلى خُطاهُم.

. أُردِفتْ بما يجبُ العملُ به من أبوابِ الهُدى؛ لِتعودَ بالبعيدِ عنِ الجادَّةِ إلى المسلكِ المنصِفِ، وتُمهِّدَ الطَّريقَ نُصحًا لِتصلَ بالسَّائرِ إلى بابِ مولاه.

. خُتِمتْ ببيانِ ما أرادَ مؤلِّفُها لها أنْ تكونَ: دُستورَ السَّالكينَ، وقانونَ السَّائرينَ، ومنارَ الواصلينَ، ليشرحَ مُصطلحاتِهِم ويُبيِّنَ ملامحَ سَدادِهِم وليرسُوَ بهم على شاطئِ الحقائقِ.

فللهِ درُّها من رسالةٍ! ولله درُّ مُرسِلِها!!

ويا سعادةَ العاملينَ بفحواها.

عبد الجليل العطا